mngool.com

جمال الدين الأفغاني

تأليف الدكتور

علي عبد الحليم محمود

الناشر

دار عطوة

للطباعة والنشر

جدة ـ طريق الميناء ـ ص . ب : ٥٩٤١
الرياض ـ شارع التليفزيون ص ب . ٢٩٣٤

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــــداء

إلى الذين يحبون أن يعرفوا عن الأمة الإسلامية جزءا هامًا من تاريخها الحديث النابض الملهم ، وسيرة جليلة لمصلح كبير من أبنائها المخلصين ، وصورة موحية من أدب لغتها الحية ، لغة القرآن الكريم ..

أقدم هذه الدراسة عن رائد المصلحين فى عصره : جمال الدين الأفغانى ، طيب الله ثراه ٠

د٠ على عبدالحليم محمود

مدخل إلى الأدب الإسلامي المعاصر

الحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله ، وعلى سائر رسله وأنبيائه الدعاة الهداة .

وبعد :

فإن موضوع الأدب الإسلامى المعاصر ، الذى أحاول أن أجلى صورته وأحدد أبعاده وأوضح معالمه ، من الموضوعات التى يجب أن تقفز إلى المقدمة فى مجالات الدراسات الإسلامية بعامة والأدبية على وجه الخصوص .

وقد كان من توفيق الله لى أن أبرزت هذا الموضوع إلى الوجود حين نشرت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية كتابى : مصطفى صادق الرافعى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه منذ ثلاثة أعوام ، وكان الحلقة الاولى من سلسلة أرجو أن أتابع الكتابة فيها . اخترت لها عنوان : نحو أدب إسلامى معاصر .

وهأنذا بفضل من الله وتوفيق أكتب الحلقة الثانية من هذه السلسلة بعنوان : جمال الدين الأفغانى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه ، متابعا فيها تجلية الأدب الإسلامى المعاصر ، وآمل أن تتلوها حلقات أخرى تتناول بالدراسة هؤلاء الأعلام من الأدباء الإسلاميين فى العصر الحديث .

وبتقديمى لهذه الحلقة الثانية : من الأدب الإسلامى المعاصر ، أجد الوقت قد أصبح ملائما للحديث عن الأدب الإسلامى بصورة أوسع وأشمل مما كنت قد تحدثت عنه فى الحلقة الأولى عن الرافعى .

ومن أهدافنا فى هذه الدراسة كلها : نحو أدب إسلامى معاصر ، أن ندعو إلى إيجاد مذهب إسلامى فى الأدب الحديث ، ولم أكن أستطيع وأنا أقدم الحلقة الأولى عن الرافعى أن أبسط الحديث على النحو الذى أريد ، لأن ما كتبته عن الرافعى لم يسعف وحده فى رسم أبعاد الصورة التى أريد .

أما وقد كتبت الحلقة الثانية عن جمال الدين الأفغانى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه ، وأنفقت فى دراستها وإعدادها ما يقرب من سنوات ثلاث ، فقد أصبح فى الإمكان أن أزيد الصورة وضوحا وأن أفصل ما أجملته هناك من الدعوة إلى إيجاد مذهب فى الأدب المعاصر أسميه « مذهب الأدب الإسلامى المعاصر » أستنبطه من خلال النصوص الأدبية التى كتبها أدباء إسلاميون ٠

أقول : إن الوقت قد حان لأتحدث عن هذا المذهب الذى أدعو إلى إيجاده فى أدبنا العربى الحديث من خلال تلك الآثار الأدبية الإسلامية ٠

فإذا كان المذهب الأدبى ـ كما تعارف على ذلك النقاد ـ هو : حالة نفسية عامة ولدتها حوادث التاريخ وملابسات الحياة فى العصور المختلفة ، وجاء الشعراء والكتاب والنقاد ، فوضعوا للتعبير عن هذه الحالات النفسية أصولا وقواعد يتكون من مجموعها المذهب ، أو ثاروا على هذه القواعد والأصول لكى يتحرروا منها ـ وبذلك خلقوا مذهبا جديدا ٠[1] ٠

وإذا كان المذهب الأدبى يمثل روح العصر الذى نشأ فيه خير تمثيل .. وكان بمثابة تيار عام فرضه العصر على صفوة كتابه ومفكريه كى يستجيبوا لمطالبه ويقودوا إمكانياته ويبلوروا مثله ويشاركوا فى وجوه نشاطه الإنسانية ، مع ملاحظة أن هذه المذاهب لدى دعاتها وممثليها الحقيقيين ليست مفروضة عليهم من خارج نطاق الفن لأنها صادرة عن اقتناعهم وولائهم لروح عصرهم ٠ وإيمانهم برسالتهم الإنسانية فيه[2] ٠

أقول : إذا كان هذا هو المذهب الأدبى ، وما هو فى الواقع بأكثر من هذا ، فإن نظرتنا لتاريخ الأمة الإسلامية المعاصرة والظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية التى مرت بها ، وتأمل أحوال الأدباء شعراء وكتابا ، ودراسة ما كتبوا فى هذه الفترة من ألوان

---

١ ـ د٠ محمد مندور : فى الأدب والنقد : ١١٧ ط دار نهضة مصر ٠ القاهرة ٠

٢ ـ د٠ محمد غنيمى هلال : الأدب المقارن : ٣٧٤ ط بيروت ٠

الأدب وأجناسه ، مستجيبين فى كتابتهم للتيار العام الذى فرضه العصر عليهم والذى تجاوبوا فيه مع روح عصرهم فعبروا بصدق عما ولدته أحداث هذا العصر فى نفوسهم من قبول لمعطيات العصر أو رفض لها ، إن نظرتنا لذلك كله تعطينا الحق كل الحق فى أن ندعو إلى استحداث ما ندعو إليه من مذهب إسلامي فى الأدب المعاصر ، لأن هذا الأدب الإسلامى المعاصر الذى نحاول فى هذه الدراسة وأمثالها أن نرصده وأن ننقده ، وأن نتعرف على اتجاهاته وأهدافه ليس إلا استجابة لحوادث التاريخ التى أحاطت بالأمة الإسلامية المعاصرة ٠

ولست أضيف جديدا حينما أوضح أن المذاهب الأدبية على اختلافها لابد أن تتأثر تأثراً مباشراً بالعوامل المتعددة التى تؤثر فى الأدب بوجه عام ، ذلك أنها فى حقيقة الأمر لون من الأدب ، وتؤثر بالتالى فى إيجاد المذهب الأدبى على وجه الخصوص ٠

لهذا نجد من الضرورى أن نتعرف على أبرز العوامل التى أثـرت فى الأدب العربى المعاصر ، وكانت بالتالى عوامل هامة فى إيجـاد مذهـب الأدب الإسلامـى المعاصر : الذى ندعو إلى إيجاده ووضع قواعده وأصوله ٠

أدبنا العربى المعاصر قد تأثر بصورة عامة بعدد من العوامل يمكن أن نقسمها إلى قسمين كبيرين ٠

الأول منهما : تلك الظروف الخارجية التى عاشتها المجتمعات الإسلامية فى حياتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية ٠

والثانى : تلك الظروف الـداخلية التـى عاشتهـا المجتمعـات الإسلامية فى مشاعرها وأحاسيسها ، متجاوبة مع هذه الظروف الخارجية بالرضى عنها أو السخط عليها ، عن طريق أولئك الأدباء شعراءَ وكتاباً ٠

وكلا القسمين الكبيرين قد استجاب لهما الأدباء ، وتمثلت فى هذه الاستجابة روح العصر الذى عاشوا فيه ، فقادوا إمكاناته وعبروا عن مثله فيما أنتجته قرائحهم من آثار أدبية ٠

ومن هؤلاء الذين نعدهم فى رأس قائمة الأدباء الإسلاميين المعاصرين ، الذين أدَّى إنتاجهم إلى إيجاد ما ننادى به من مذهب الأدب الإسلامى المعاصر ·

جمال الدين الأفغانى ·

والشيخ محمد عبده ·

ومصطفى صادق الرافعى ·

وأحمد محرم ·

وسيد قطب ·

وشكيب أرسلان ·

وعبدالرحمن الكواكبى ·

ومحمد رشيد رضا ـ وغيرهم ممن لا نستهدف إحصاءهم الآن ·

فضلا عن أولئك الأدباء الإسلاميين الذين كتبوا بلغة غير العربية كمحمد إقبال ، وأبى الأعلى المودودى ـ وأبى الحسن الندوى وغيرهم ·

وإذا كانت دراستى قد تناولت اثنين فقط من هؤلاء الأعلام : هما مصطفى صادق الرافعى فى البحث السابق وجمال الدين الأفغانى فى هذا البحث ، فإنى أؤكد أن صورة الأدب الإسلامى تتكامل بدراسة هؤلاء الأعلام جميعا ·

ومن نجاح هاتين الدراستين اللتين قمت بهما ـ عندى ـ أن تحفزا همم بعض المشتغلين بالأدب ودراساته للقيام بإعداد بحوث عن هؤلاء الأعلام الإسلاميين من الأدباء الذين استطاعوا فى عصرنا هذا أن يمهدوا بإنتاجهم الأدبى لإيجاد مذهب الأدب الإسلامى المعاصر ·

ونحب الآن أن نتعرف على أبرز العوامل التى مهدت ـ فى تصورى ـ لمذهب الأدب الإسلامى المعاصر ، بادئين بالظروف التى عاشتها المجتمعات الإسلامية فى حياتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية·

ولأن الظروف السياسية أكثر الظروف ضغطا على الناس عموما وعلى المفكرين والكتاب خصوصا ، سوف نوليها فى هذه المقدمة اهتماما أكبر ·

فلقد عاش العالم الإسلامى فى هذا القرن الرابع عشر الهجرى فترة صراع مع أعدائه من الأجانب الذين احتلوا أرضه وغزوا فكره وشوهوا ثقافته وقاوموا حضارته، وسمَّوْا أنفسهم بالمستعمرين متذرعين إلى استعمار بلاد المسلمين بالوسائل العديدة التى كانت خطواتها الأولى على أيدى المستشرقين الذين قاموا بارتياد الأرض والتعرف على نقاط الضعف ومناطق الفراغ الفكرى والاجتماعى ، فمهدوا بذلك للتبشير يستغل نقاط الضعف ويحاول سد الفراغ بما يقدم من خدمات اجتماعية وثقافية وصولا إلى إحداث الولاء فى نفوس الناس لهؤلاء المبشرين طمعا فى تغيير عقيدة الناس وتحويلها إلى النصرانية دين المبشرين والمستشرقين والمستعمرين ·

ولقد دعم الأعداء هذه الحركة التبشيرية بمختلف وسائل الدعم المادية والمعنوية : من إنشاء شركات تجارية ومصارف ، ومؤسسات استشارية .. وحكومات تؤيد وتساند وتقدم الأموال والعقار ·

هذا الاستعمار أو الاحتلال الذى استغل خيرات بلاد المسلمين وقهرهم واستبد بهم ـ وملأ حياتهم بالفتن والدسائس ، وأقصاهم بكل وسيلة عن دينهم ، وباعد قدر ما استطاع بينهم وبين قرآنهم ، كان هدفه الأول انتزاع أرض المسلمين من أيديهم وضمها إلى نفوذه وسلطانه ـ تستوى فى ذلك كل دول أوربا الاستعمارية ، يصرح بهذا لورانس براون حيث يقول : « ... وكذلك شنت الدول الأوربية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين حروبا عدوانية على الحكومات المسلمة ، ثم انتزعت منها أراضى ضمتها إلى سلطانها هى ، ولقد كانت النتائج فى أحوال كثيرة غير سارة لبعض الشعوب التى استعبدت وخصوصا من المسلمين ·

ولكن هذه الشعوب لم تصل بعد إلى درجة تشعر فيها أنها أصبحت أقلّيات مضطهدة أو أنها تعيش فى حابورات »[1] ·

---

١ ـ الخالدى وفروخ : التبشير والاستعمار : ١٢٨ ط بيروت ١٩٧٣ م · والحابورة : كلمة عامية معناها حى اليهود ·

وليست قصص استيلاء هؤلاء الأجانب على بلدان العالم الإسلامى فى هذا العصر بخافية على أى مطلع على التاريخ السياسى للعالم الإسلامى فى هذه الحقبة ، كما أن أهداف الاستشراق والتبشير والاستعمار أصبحت الآن أكثر وضوحا وبخاصة بعد انتشار الكتاب والصحيفة والمجلة والإذاعة بنوعيها فقد اختصرت هذه الأدوات الجهود البشرية فى البحث عن المعرفة .

وفى هذه الفترة التى نتحدث عنها القرن التاسع عشر الميلادى والنصف الأول من القرن العشرين ، كان العالم الإسلامى كله خاصعا لنفوذ أعدائه من الأجانب المستعمرين ، وهذا الخضوع ليس محل جدل بين العارفين بالتاريخ وليس موضع خلاف ، إنما الخلاف محصور فى نوع هذا الخضوع ؛ أمكشوف واضح تؤيده جنود المحتلين كما كان الشأن فى بعض بلدان العالم الإسلامى ، أم غير مكشوف يتخذ من التبعية السياسية والاقتصادية والثقافية أغطية يخفى بها حقيقته ويزين بها لبعض الدول الإسلامية أن تظل تابعة ذليلة له تحت هذا الغطاء .

ومن أهم هذه الظروف السياسية عندى موضوع التبشير وجهود المبشرين وخططهم وأهدافهم ، لذلك أحب أن أشير إليه فى هذه المقدمة ، فهو يمثل الركيزة التى اعتمد عليها الاحتلال الأجنبى فى عدد كبير من بلدان العالم الإسلامى ، وهو التحدى القوى الذى وجه إلى الإسلام والمسلمين فى عقر دارهم ، وهو يعدُ من أقوى الظروف السياسية الضاغطة على العالم الإسلامى : مواطنيه وكتابه ومفكريه .

وسوف أنظر إلى التبشير هنا من خلال « كتاب العالم الإسلامى اليوم » للقسيس صمويل زويمر رئيس إرسالية التبشير فى البحرين ، وقد ضمنه تقارير لزملائه فى مختلف بلدان العالم الإسلامى .

وسوف أكتفى بأن اقتطف من هذا الكتاب نتفاً دالّة ، دون نقل تفصيلى

لمحتوياته ودون الاستعانة بأى مرجع آخر سواه[1] لأن طبيعة هذه المقدمة لا تحتمل غير ذلك ٠

جاء فى مقدمة الكتاب أن أبواب التبشير صارت مفتوحة الآن فى ممالك الإسلام الواقعة تحت سلطة النصرانية مثل : الهند والصين الجنوبية الشرقية ومصر وتونس والجزائر ، وأن فى العالم مائة وأربعين مليونا من المسلمين يرتقبون الخلاص ـ هكذا يزعم المؤلف ـ وتضمنت هذه المقدمة نصائح للمبشرين منها :

وجوب إقناع المسلمين بأن النصارى ليسوا أعداء لهم ٠

ووجوب نشر الكتاب المقدس بلغات المسلمين لأنه أهم عمل مسيحى ٠

وضرورة تبشير المسلمين بوساطة رسول منهم ومن بين صفوفهم ٠

مع عدم القنوط من رؤية نتائج التبشير ضعيفة فى المسلمين ، إذ من المحقق ـ كما يزعمون ـ أن المسلمين قد خامر قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتحرير النساء ٠

ثم أخذ الكتاب يستعرض هذا الغزو التبشيرى فى العالم ٠٠

وقد جاء فيه تحت عنوان : « الإسلام فى مصر » ، تلخيص لأعمال المبشرين البروتستان فى مصر ، ولأهم الوسائل التى يتذرعون بها ، والإشارة إلى أهم معاهد التبشير فى مصر مما أسَّسته جمعية اتحاد مبشرى أمريكا الشمالية سنة ١٢٧١ هـ ـ ١٨٥٤ م ٠

وأهم الكتب التبشيرية مثل كتاب : شهادة القرآن ، وكتاب : ميزان الحق ، وكتاب : الهداية ٠ والحديث عن المحاضرات العامة وعدد الطلاب المسلمين الذين التحقوا بمدارس التبشير وهو ثلاثة آلاف ؛ منهم ستمائة فتاة مسلمة ٠

---

١ ـ توسعت فى دراسة هذا الموضوع فى كتاب لى اسمه (الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام نشر دار البحوث العلمية ـ الكويت ١٩٧٨ م ٠

وحديث عن المعهد العلمى التبشيرى التابع لجمعية تبشير الكنيسة والذى أسس سنة ١٣٠٠ هـ - ١٨٨٢ م وعن الجمعية العامة للتبشير بمصر التى أسست سنة ١٣١٦هـ - ١٨٩٨ م وما أنشأته هذه الجمعية من معاهد فى الدلتا والسويس ، ومدارس وخزائن وكتب ، ومجلة شهرية وملاجئ ومشافٍ وغيرها ٠

وتحت عنوان : « الإسلام وإرساليات الهند » يسرد الكتاب تاريخ التبشير فى الهند منذ بداية القرن الثالث عشر الهجرى - التاسع عشر الميلادى على يد « جيروم كزافيه اليسوعى » فى لاهور ، إلى أن ترجم الإنجيل إلى الفارسية والأوردية على يد « هنرى مارتين » ثم يتحدث عن الجمعيات التبشيرية الإنجليزية والأمريكية والاسترالية والتى بلغ عددها اثنتى عشرة جمعية ، ثم يتحدث حديثا ضافيا عن المسلمين الذين تنصروا وأصبحوا مبشرين بالنصرانية ٠

وعن تركيا تحدث الكتاب عن جهود القسيس « أناتوليكوس » الذى قال : إن الكتاب المقدس راجت نسخ ترجمته التركية رواجا حسنا ، وهى تباع بالألوف ، وزعم هذا القسيس أن الأتراك الذين يحترمون القرآن احترام القروى الكاثوليكى فى أواسط أوربا للإنجيل يعرفون قدر مطالعة الكتاب المقدس ٠

وعن التبشير فى سوريا وفلسطين تحدث الكتاب عن توزيع نسخ الكتاب المقدس ٠ وعن الأطباء المبشرين وجهودهم ، وعن المستشفيات والمستوصفات التبشيرية التى يقصدها المسلمون دون حرج ، وتحدث عن مدارس التبشير التى تقبل أبناء المسلمين مثل مدارس صيدا وغيرها وعن إقبال المسلمين على التعليم فى مدارس المبشرين ، وعن الأعمال النسائية وتوزيع الكتب والمؤلفات التبشيرية ٠

وفى حديث عن الجزيرة العربية يقول الكتاب : متى توارى القرآن ومدنية مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة التى لم يبعده عنها إلا محمد (صلى الله عليه وسلم) وكتابه ٠

وتحدث الكتاب ناقلا عن كتاب « مهد الاسلام » لزويمر ، فذكر أن إرسالية التبشير العربية هى الابنة الممتازة لكنيسة الإصلاح الأمريكية ، والتى لها أربعة فروع ، أقدمها عهدا جمعية تبشير الكنيسة ، التى تفرع عنها فرع آخر فى فارس سنة ١٣٠٠ هـ ـ ١٨٨٢ م ، وقد استقلت هذه الجمعية بأعمالها باسم جمعية التبشير العربية العثمانية ، والتى لها فى بغداد أربع إرساليات وفى الموصل واحدة .

وفى سنة ١٣٠٣ هـ ـ ١٨٨٥ م أسست فى عدن إرسالية تبشير اسكوتلندية ، وتبعتها إرسالية التبشير العربية التى أسست سنة ١٣١٧ هـ ـ ١٨٩٩ م وهى تابعة لكنيسة الإصلاح الأمريكية ، ولها انتشار فى البصرة والبحرين والشيخ عثمان[١] .

وعن فارس : يتحدث الكتاب عن الجهود التبشيرية فيها والتى بددت ـ كما يزعم المؤلف ـ ما يعتقده المسلمون فى النصارى من أنهم مشركون يعبدون آلهة ثلاثة ، وعن الجمعيات الصغيرة التى نشرها المبشرون فى أنحاء البلاد ، والتى أقبل عليها المسلمون فتنصروا ، وعن الإرساليات الطبية من نساء ورجال ، وعن الرحلات والأعمال التبشيرية ، وعن الجهود لنشر التوراة والإنجيل وسائر كتب التبشير باللغة الفارسية وعن مدارس التبشير فى طهران وتبريز وغيرهما .

وعن سومطرة : يتحدث الكتاب عن جمعية التبشير الألمانية التى نصرت مائة مسلم منذ تأسست سنة ١٢٨٨ هـ ـ ١٨٧١ م وعن جمعية التبشير الهولندية التى تمارس نشاطها على الساحل الشرقى من الجزيرة ، وعن لجنة تبشير « جاوا » التى نصرت خمسمائة مسلم منذ سنة ١٢٧٧ هـ ـ ١٨٦٠ م وعن جمعية « ينش » الألمانية التى لها ستة وثلاثون فرعا ، والتى نصرت ستة آلاف مسلم ، وعن جمعية التبشير بالتوراة ، وعن الكنائس التى اتخذها المبشرون هناك والتى بلغت ثمانين كنيسة ، وعن المدارس والإرساليات الطبية .

وعن « جاوا » يتحدث الكتاب فيذكر وسائل التبشير والمبشرين وعدد المبشرين

---

١ ـ مكان قريب من عدن .

الذى بلغ ستة وأربعين مبشرا ومائة وخمسين مساعدا ، وأنهم نصروا من المسلمين ألفا وثمانمائة شخص[1] .

كل ذلك كان يحدث فى تلك الفترة التى نتحدث عنها وأكثر منه مما لا نستطيع أن نسرده فى هذه المقدمة ، كل ذلك كان ضغوطا سياسية فرضها العـدو على البلدان الإسلامية فرضا مستعينا فى هذا الفرض بوسائله الخاصة حينا وببعض الحكومات الضعيفة التابعة فى بلاد المسلمين أحيانا أخرى .

ذاك واقع عاشه العالم الإسلامى فى تلك الفترة ، وتنفس الأدب والأدباء فى جوه واستظلوا سماءه واستقلوا أرضه ، فلم يكن من المستطاع أن يتجاهلوا هذا الواقع ولا أن يعزلوا أنفسهم عنه ، وكيف يمكن للمفكرين والأدباء أن يغفلوا عن هذه المخططات المعادية للإسلام والمسلمين وهى من الخبث والشراسة بحيث تتطلـب تنبهـا شديدا لوسائلها وإدراكا عميقا لأهدافها ، وهكذا وقف منها الأدباء المسلمـون وصدوهـا وكشفوا أبعادها وفضحوا نواياها .

وإن الناظر إلى الأدب فى هذه الفترة وإلى ما سطرته يراعة الكتاب والمفكرين والمصلحين ليجد مئات المقالات التى تعرضت لهذه التيارات تصدها وتصرفها عن وجهتها ، والتى تعد بحق استجابة لهذه الضغوط السياسية الخارجية فاضت بها نفوس هؤلاء الأدباء وجرت بها أقلامهم مما أوجد هذا الأدب الذى نعده أدباً إسلاميا ، ومما نحاول فى هذه الدراسات أن نسميه مذهبا إسلاميا فى الأدب الحديث .

هذا بالنسبة للظروف السياسية وما ترتب عليها من إيجابيات هنـا وسـلبيات هناك ، غير أن الظروف السياسية ليست وحدها التى صنعت المؤثرات الخارجية فى أدب هذه الفترة ، وإنما كانت معها ظروف أخرى لا تقل خطرا عنها فى إحداث الضغوط التى عانى منها المجتمع المسلم فى مختلف الأقطار الإسلامية آنذاك .

---

١ ـ الغارة على العالم الإسلامى : تلخيص لفصل « العالـم الإسلامـى اليوم » من ص ٧٥ إلى ١٠٥ . تعريب مساعد إليافى ومحب الخطيب . ط السعودية .

ولكى تتكامل الصورة الضاغطة على الأمة الإسلامية من الخارج ـ فى نظر من يتابع هذه الأحداث ـ نرى أن نشير إلى بعض هذه الظروف المؤثرة فى المجتمع وفى الأدب فى تلك الفترة على وجه الإجمال فنقول : إن ظروفا اجتماعية واقتصادية وثقافية تعاونت مع تلك الظروف السياسية فى إحداث هذه الآثار التى نتحدث عنها ٠

وسنضرب لكل مجال من هذه المجالات مثالا واحدا لتتضح منه صورة الضغط الاجتماعى أو الاقتصادى أو الثقافى الذى أثر فى المجتمع وفى الأدب والذى استجاب له بعض الأدباء والمفكرين استجابة نابعة من صميم ما يعتقدونه فى الدين الإسلامى من شمول وتكامل وقدرة على مواجهة كل التحديات ، فكتبوا وقالوا فى هذه المجالات ما نسميه أدبا إسلاميا معاصرا ، وما يمكن أن يسمى مذهبا إسلاميا فى الأدب الحديث ٠

أما أبرز الظروف الاجتماعية التى أثرت فى المجتمع وفى الأدب فى هذه الفترة ؛ فهى قضية المرأة ، التى غزت العالم الإسلامى بمفاهيم عن المرأة فى ظل الحضارة الأوربية التى تختلف اختلافا عميقا مع الإسلام منهجه ونظامه ونظرته إلى الكون والحياة والإنسان ٠

دخلت على العالم الإسلامى قضية المرأة فى أبعادها المتعددة ، حجابها وسفورها مساواتها للرجل ، ممارستها للعمل بما يتفق مع طبيعتها حينا وبما لا يتفق مع ذلك أحيانا ، ولقد توجس المفكرون والمصلحون من أن تضيع المرأة فتضيع الأمة فى أجيالها المقبلة ، فشرعوا أقلامهم يكتبون ويوضحون ويحذرون ، وما من مفكر أو أديب شاعر أو كاتب إلا شغلته هذه القضية وشغلت إنتاجه الأدبى ٠

ولقد تناول جمال الدين ـ على سبيل المثال ـ هذه القضية من خلال رؤية إسلامية تعتمد النصوص من قرآن وحديث ٠ وتعتمد المنطق الإسلامى الذى كونته عقيدة الإسلام فى نفوس المسلمين ٠

ومما قال جمال الدين فى هذه القضية : « أما مساواة المرأة بالرجل والحجاب وهتكه

وحقوق المرأة .. الخ فقد قرع آذاني مرارا ، وقرأت في هذا الموضوع مقالات ورسائل ، ولكن لا أكتمكم أنني لم أعثر في كل ذلك على مقال صريح أو تحديد لمطلب المساواة ، أو على بيان الغاية من هتك الحجاب أو الفائدة التي تترتب عليه أو تأتي من ورائه » .

وقد كان الحديث عن المرأة وحجابها ومساواتها بالرجل وتقليدها للمرأة الأوربية تيارا جارفا مثّل نوعا من الضغط على الأدباء والمفكرين من المسلمين ، وجعلهم يقفون منه موقف المعارض المخاصم ، ويصدرون في موقفهم ذاك عن رؤية إسلامية يصدون بها هذا التيار الذي يريد أن يجتاح من حياة المسلمين كثيرا مما يوجبه عليهم دينهم .

كذلك كان موضوع تربية الناشئة ـ في هذه الفترة ـ من الموضوعات التي شغلت الأفكار والأقلام ، وأوجدت تيارا معاديا للوطنية أولا ـ كما يرى جمال الدين ـ ومعاديا للإسلام بعد ذلك ، وقد اتصل هذا الموضوع بموضوع المرأة ، وكان لجمال الدين فيه رأي ، حيث لم يكن يثق في تربية الناشئة في المدارس التي سماها مدارس الحكومة والتي كان يسيطر عليها أعداء البلاد وأعداء الإسلام من الأجانب المستعمرين .

ومشكلة الفقر تقفز إلى قمة المشكلات الاقتصادية ، وهي مشكلة دعمها المستعمر ومدها بما نمّاها وأطال أظافرها وقوى أنيابها ، بما وضعه من سياسة اقتصادية تستهدف تحقيق مصالحه بالدرجة الأولى ، واستعان في سبيل ذلك بالحكومات الضعيفة من جانب ، وبإغراق بلاد المسلمين بالديون من جانب آخر ، ولن ينسى التاريخ أن المناصب الحكومية كانت في تلك الفترة فرصة إثراء غير مشروع لمن يشغلونها ، وأن المستعمر شجع على هذا الانحراف ، فكانت جماهير الناس هي الضحايا البائسة التي كتب عليها الشقاء ، إذ كان السواد الأعظم من الناس على درجة من الفقر ، يجهدون ويكدحون من أجل الحصول على أدنى مستوى للعيش الذي لا يليق ـ في بعض الأحيان ـ بالإنسان .

ولم تكن ظاهرة انتشار الفقر وقفا على بلد إسلامي دون آخر ، وإنما كانت فاشية

فى كل بلدان العالم الإسلامى لتشابه الظروف وتشابه الخطط الخبيثة المرسومة للوصول بهم إلى هذا الحد من الفقر الضرورى فى بعض الأحيان ، وكان إفقار الشعوب المسلمة هدفا كبيرا من أهداف أعداء الإسلام ، حتى ينشط التبشير عن طريق التلويح بالخدمات الاجتماعية والاقتصادية ، وحتى ينشب المستعمر أظفاره فى فريسته وقد أضناها الجوع وقضى الفقر فيها على كل مقاومة ٠

وكانت هذه الظروف مما يثير حفائظ المصلحين والمفكرين والأدباء ، إذ غاظهم ما وجدوا عليه مجتمعاتهم من هذه الحال السيئة ، وهالهم أن يكون خير بلاد المسلمين لأعدائهم ، فضلا عما أحفظهم من تعميق الفروق بين الفقراء والأغنياء ، وما أخافهم من تحرك نيران الحقد فى قلوب غير الواجدين على الواجدين ٠

لهذا كانت مشكلة الفقر فى معظم البلدان الإسلامية شغل الأدباء الشاغل وهمهم الثقيل وعدوهم اللدود ، فصالوا فى هذا المجال وجالوا شعراء وخطباء وكتابا ، يصورون آلام الفقر وأحزان الفقراء ، ويرققون عليهم قلوب الأغنياء من أبناء وطنهم ، ويدعون إلى إنشاء الجمعيات التى تقدم الخدمات الاجتماعية ويحثون الحكومات على القيام بالمشروعات التى تخفف عن الناس ما هم فيه من فقر وحاجة ، وتفلح هذه الأصوات حينا فتقام الحفلات الخيرية لصالح الأيتام والأرامل والعجزة وتنشأ الجمعيات الخيرية ، وتفشل هذه الحملات حينا فيلجأ الأدباء إلى التهديد والوعيد ، وتكون المعارك التى تستهدف الانتصاف للفقراء أولا ولكنها تثرى الأدب وتلهب حماس المفكرين والمصلحين فيكون هذا الحشد الهائل من الآثار الأدبية الجيدة فى الشعر والقصة والمقالة وغيرها ٠

وهذا جمال الدين يهدد ويتوعد حينما قام خطيبا فى جمع حافل ضم كبار الوجهاء والأغنياء والمسئولين واستمع إليه عامة الناس بما فيهم من بؤساء وفقراء ، فقال موجها كلامه لهذا البائس الفقير : « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت منها ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال ، فلماذا لاتشق قلب ظالمك ، لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك » ٠

ولقد أدت ظاهرة الفقر إلى ظواهر أخرى لا تقل عنها خطرا ، فكانت جسرا إلى الجهل وطريقا لاحباً إلى المرض ، وكانت الثلاثة مجتمعة أو متفرقة من أقسى ما يعانى منه العالم الإسلامى فى الفترة التى تتحدث عنها .

وكان المفكرون والأدباء بأقلامهم وألسنتهم يواجهون هذه الظروف بما أوتوا من قوة وما استطاعوا من حول وطول .

وأما الظروف الثقافية والتعليمية فى هذه الفترة فلم تكن أقل ضغطا على الناس عموما وعلى المفكرين وأصحاب الأقلام خصوصا من الظروف الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية ، ولم تكن أقل سوءا من تلك الظروف .

فقد كانت معاهد التعليم ووسائل الثقافة العامة والخاصة خاضعة خضوعا مطلقا لخطط المستعمرين وما يضمرونه من حقد على الإسلام والمسلمين ، فالمدارس ودور التعليم أغلبها تحت سيطرة العدو المستعمر من حيث مناهجها وخطة الدراسة فيها ، ومن حيث إعداد المدرسين ، ومن حيث أهداف التعليم التى كانت حينئذ مقصورة على تخريج موظفين للدولة التى يسيطر عليها الأجنبى .

وكان المتخرج من هذه المدارس والمعاهد يعرف عن أوربا تاريخها وأعلامها أكثر مما يعرف عن دينه وأعلام المسلمين المشاهير ، ولقى الأزهر ـ بحكم عنايته بعلوم الشريعة الإسلامية وعلوم اللغة العربية ـ من الحرب ما لقى ، وأنشئت مدارس تسلب منه ومن المتخرجين فيه أعمالهم ، أنشئت دار العلوم وأقسام اللغة العربية فى كليات الآداب لئلا يقتصر تعليم العربية على المتخرجين فى الأزهر ، وأنشئت مدرسة القضاء الشرعى وأقسام الشريعة الإسلامية فى كليات الحقوق لكى لا ينفرد الأزهريون بالقضاء الشرعى أو بالمحاماة ، بل استبدلت القوانين الوضعية بالشريعة الإسلامية لئلا يكون للأزهر وعلمائه وجود حيوى فى العالم الإسلامى ، ووجهت التهم جزافا للأزهر علومه ومناهجه وأسلوب التعليم فيه ورجاله وكتبه ، بحيث أصبح هزأة على ألسنة وأقلام بعض الغافلين .

ووجهت التهم جزافا إلى الحضارة الإسلامية واللغة العربية والعقلية العربية والأدب العربى •

وشوهت فى نظر المتعلمين والمثقفين بطولات المسلمين فى تاريخهم الطويل المجيد وتنوولت شخصيات كبيرة من المسلمين بالطعن والتجريح ، وأوقظت فتن فى تاريخ المسلمين كان الزمان قد تكفل بإخماد نارها ، وعمقت هوة الخلاف بين المسلمين من حيث ما يتمسكون به من مذاهب ، وأهين الفقه الإسلامى فى تبويبه وتصنيفه ورمى بالجمود والرجعية واتهمت الحدود الإسلامية بالوحشية والبربرية •

وشوهت أفكار الشباب باثارة النعرات القومية والإقليمية بين أبناء الأمة الواحدة ، وغذيت دعوات الفرعونية والطورانية والبابلية والفينيقية والقحطانية وغيرها ، وأصبحت بفعل العدو المتحكم تلقى قبولا فى نفوس كثير من الناس •

وتكونت نتيجة لذلك أجيال من الشباب المسلمين ربوا على هذا الباطل فأخذوا يرددون بغير وعى ما ينادى به أعداء دينهم وأعداء بلادهم .. وأصبح الموالون للغرب وحضارته ظاهرة لها أهميتها فى المجتمعات الإسلامية كلها •

وكان لابد من وجود أصوات للحق ودعاة له ، فحمل هذا العبء المفكرون والأدباء شعراء وكتابا ، فكانت دعوات وجوب تنقية التعليم وتوجيه الثقافة ، والعناية بتراث الأمة الإسلامية بإحياء هذا التراث وجعله فى متناول أيدى الشباب والقراء عموما ، باعادة نشره فى ثوب جديد •

وبعد فهذه صورة مجملة للظروف الخارجية المؤثرة فى الأدب عموما وفى إيجاد ما نسميه مذهبا فى الأدب الإسلامى المعاصر على وجه الخصوص •

أما الظروف الداخلية التى عاشتها المجتمعات الإسلامية فى حياتها من حيث المشاعر والأحاسيس إزاء تلك الظروف الخارجية فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، رضا كانت هذه المشاعر أو سخطا متمثلة فى الآثار الأدبية التى أنتجها أدباء هذا العصر بعد أن فاضت بها نفوسهم ، أما هذه الظروف الداخلية فإنها من المؤثرات الهامة فى الأدب عموما وفى المذهب الأدبى على وجه الخصوص •

هذه الظروف جعلت المفكرين والأدباء يتجهون فى كتاباتهم ـ وقد أحسوا بما يدبر لدينهم ولأوطانهم ـ اتجاها إسلاميا ، يواجهون به تلك التيارات ، ويحاولون أن يؤصلوا فى كتاباتهم تلك ، هذه الاتجاهات الإسلامية ، مما يجعل النقاد الذين يأتون من بعدهم يستطيعون أن يتعرفوا من خلال تلك الآثار الأدبية على سمات المذهب الإسلامى فى الأدب المعاصر ·

وقد أوضحنا معالم هذا الأدب الإسلامى المعاصر ، ونحن نتحدث عن جمال الدين الأفغانى الأديب الإسلامى فى الباب الأخير من هذا الكتاب ، ولا بأس أن نشير هنا إلى هذه المعالم على وجه الإجمال فنقول :

إن الأدب الإسلامى استطاع فى هذا العصر أن يفرض نفسه على المجتمع وعلى الفكر والثقافة فى كل المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، فكان نافذة أطل منها الأدباء على القيم الإسلامية البناءة ملتزمين بكل ما نادى به الإسلام من آداب ومثل ، مواجهين بهذا الفهم كل التيارات التى تعرضت لها بلدان العالم الإسلامى ، فى آثار أدبية أصيلة تمثلت فى الشعر والقصة والمقالة والخطبة ·

والأدب الإسلامى هو ذلك الأدب الذى أنتجته عقول الأدباء المسلمين الملتزمين فى فكرهم وعاطفتهم وصورهم وتعبيرهم بالإسلام منهجه وآدابه وقيمه ومثله ونظرته إلى الحياة والأحياء ·

ومذهب الأدب الإسلامى الذى ندعو إليه وإلى التعرف عليه والاعتراف به والعناية بدراسته ، والبحث عن قواعده وأصوله وروافده وتياراته ، إنما هو الأدب الذى تمثل فى الآثار الأدبية العديدة التى أنتجها الأدباء المسلمون الإسلاميون مما كتبه : جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبدالله النديم ومصطفى صادق الرافعى ، وعبدالرحمن الكواكبى وشكيب أرسلان ومحمد رشيد رضا ، وأحمد محرم وغيرهم من فرسان اللغة العربية وأصحاب الأقلام الرائعة فيها ، إلى جانب ما سجلته قرائح محمد

إقبال وأبى الأعلى المودودى وأبى الحسن الندوى وغيرهم من الأدباء الإسلاميين فى غير اللغة العربية ·

غير أن دراستنا هنا سوف تقتصر على الأدباء الإسلاميين فى اللغة العربية لغة القرآن الكريم ·

ولعلى فى هذا المدخل أكون قد ألقيت على الأدب الإسلامى المعاصر ضوءا أشد مما فعلت فى مقدمة كلامى عن مصطفى صادق الرافعى ، ولعلى أكون قد وفقت إلى تجلية صورته أو حفزت همم الباحثين والنقاد ليقوموا فيه بالدراسة التى فاتتنى أو أعجزتنى ، وأنا أعترف هنا وفى كل مجال أكتب فيه بأنى أبذل جهدى ـ وهو محدود ـ فإن كان التوفيق فهو من فضل الله ومن حسن توفيقه ، وإن صرفتنى عنه صوارف الإنسان فبحسبى أنى اجتهدت ما سعنى ، والله من وراء القصد يهدى ويفتح وهو خير الفاتحين ·

الباب الأول

تعريف بجمال الدين الأفغاني

الأسماء والألقاب
التى عرف بها جمال الدين الأفغانى

١ـ جمال ٠

٢ ـ جمال الدين ٠

٣ ـ جمال الدين الاستنبولى ٠

٤ ـ جمال الدين الأسد أبادى ٠

٥ ـ جمال الدين الحسينى ٠

٦ ـ جمال الدين الحسينى (عبد الله بن عبد الله) ٠

٧ ـ جمال الدين الحسينى الاستنبولى (عبد الله) ٠

٨ ـ جمال الدين الحسينى الأفغانى الكابلى ٠

٩ ـ جمال الدين الحسينى الأفغانى ٠

١٠ ـ جمال الدين الحسينى رومى ٠

١١ ـ جمال الدين الحسينى الطوسى ٠

١٢ ـ جمال الدين الحسينى (الكابلى) ٠

١٣ ـ جمال الدين السعد أبادى ٠

١٤ ـ رومى ٠ [١] ٠

---

١ ـ أصغر مهدوى وإيرج أفشار : مجموعة إسناد ومدارك جاب نشده دربارة سيد جمال الدين مشهود به أفغانى ٠ ط طهران ١٣٤٢ هـ

تعريف بجمال الدين
يشتمل على ثلاثة فصول

الأول : جمال الدين فى رحلة حياته .

الثانى : مؤلفات جمال الدين .

الثالث : مآخذ على جمال الدين .

الفصل الأول :

جمال الدين فى رحلة حياته

وفيه :

١ ـ سيرته وترجمته ·

٢ ـ تحقيق لمسألتين فى ترجمته ·

٣ ـ تلاميذه وجهوده التعليمية ·

٤ ـ تُهم وجهت إليه ·

جمال الدين فى رحلة حياته

١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ « ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م »

١ ـ سيرته وترجمته

اتفق من ترجموا للسيد جمال الدين على أن اسمه : محمد جمال الدين ، واسم أبيه : صفدر • وقد حرف هذا الاسم من كتبوا ترجمته بالعربية فقالوا : صفتر •

وصفدر لفظ فارسى من ألقاب الإمام « علىّ » مركب من كلمة (صف) العربية و (د ر) وصف من فعل « دريدان » الفارسى بمعنى افترس أو اقتحم •

ولم يختلفوا فى أن جمال الدين ولد سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ ـ ١٨٣٩ م) : [١]

وجاء فى ترجمته فى دائـرة المعـارف الإسـلامية ما نصـه [٢] : « جمـال الـدين الأفغانى » : السيد محمد بن صفدر ، من أشهر أعلام الإسلام فى القرن التاسـع عشر •

وقد كان فى رأى « براون (E.G. Brawne) » فيلسوفا وكاتبا وخطيبا وصحفيا معا •

على أنه قبل كل شىء من رجال السياسة •• ينظر إليه مريدوه نظرتهم إلى وطنى كبير ، وينظر إليه خصومه نظرتهم إلى مهيج خطير •

وكان لجمال الدين أثر كبير فى الحركات الحرة والحركات الدستورية التى قامت فى الدول الإسلامية إبّان العقود الأخيرة من السنين السوالف ، وكان يرمى من تهييج الخواطر إلى تحرر هذه الدول من النفوذ الأوربى واستغلال الأوربيين ، والنهوض بها نهوضا ذاتيا من الداخل متوسلا فى ذلك بإدخال النظم الحرة إليها ، كما كان يهدف إلى

---

١ ـ مصطفى عبد الرازق : مقدمة مجموعة العروة الوثقى : ١٧ ط بيروت ١٩٧٠ م

٢ ـ مجلد ٧ ص ٩٥ • ط انتشـار جيهـان • طهـران ١٣٥٢ هـ ـ ١٩٣٣ م ترجمـة خورشيد وآخرين •

جمع كلمة الدول الإسلامية ، بما فيها فارس الشيعية تحت راية خلافة واحدة ، وإقامة إمبراطورية إسلامية قوية تستطيع الوقوف فى وجه التدخل الأوربى ٠

كان جمال الدين بقلمه ولسانه من أكبر الدعاة إلى فكرة الجامعة الإسلامية ومن أشدهم إيمانا بها ٠

وتصل أسرته نسبها بالحسين بن على (رضى الله عنهما) من جهة على الترمذى المحدث المشهور ٠٠ ومن ثم أصبح حقيقا بلقب « السيد » ، ولقد ذكر هو نفسه أنه ولد فى أسعد أباد ، على مقربة من كنار من أعمال كابل فى أفغانستان عام ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ ـ ١٨٣٩ م) من أسرة حنفية المذهب ٠

على أن روايات أخرى تذهب إلى أنه طلع إلى الحياة فى أسد أباد بالقرب من همذان من أعمال فارس ، وأنه أراد التخلص من الاستبداد الذى كان يسود فارس فانتحل الجنسية الأفغانية ٠

ومهما يكن من شىء فقد قضى جمال الدين السنين الأولى من طفولته وشبابه فى أفغانستان ، ودرس فى كابل كافة العلوم الإسلامية العالية ، حتى بلغ الثانية عشرة كما صرف همه إلى دراسة الفلسفة والعلوم الرياضية على الأسلوب التقليدى المأثور فى الشرق الإسلامى ٠

ثم أمضى أكثر من سنة فى الهند ، وحج إلى مكة عام ١٢٧٣ هـ ـ ١٨٥٧ م وما إن عاد من الحج إلى أفغانستان حتى دخل فى خدمة الأمير دوست محمد خان ، وقد اصطحبه دوست فى حملته على هراة ، وتوفى هذا الأمير فخلفه على العرش أمير شير على ، وكان جمال الدين من خلصاء محمد أعظم أخى الأمير الجديد ، فانغمس فى النزاع الذى نشب حول ولاية العرش ، ولما دالت دولة مولاه وكان وزر له مدة قصيرة صمم على الرحيل من أفغانستان ، فتذرع بأنه يريد الحج مرة أخرى (١٢٨٥ هـ ـ ١٨٦٩ م) وسافر إلى الهند وظل بها مدة قصيرة ، ثم قصد إلى مصر وأقام بها أربعين يوما ، اتصل فى أثنائها بالأوساط الأزهرية وألقى فى داره دروسا خاصة ٠

ثم رحل إلى استانبول فبلغها سنة (١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م) وكان قد سبقه إليها صيته العريض ، فاستقبله وجوه القوم فيها استقبالا حارا ، وسرعان ماعين فى مجلس التعليم ودعى إلى القاء محاضرات فى مسجد أياصوفيا ومسجد أحمدية ..

وألقى السيد على الطلبة وفى دار الفنون وبمحضر كثير من علية القوم محاضرة فى فائدة الفنون والصناعات ، فذكر فيها النبوة وعدها من مختلف الوظائف الاجتماعية ، فانتهز الفرصة شيخ الإسلام حسن فهمى - وكان ينفس على السيد ازدياد شهرته ونفوذه فرماه بالدعوة إلى آراء هدامة ، إذ جعل النبوة من الصناعات .

وعرف جمال الدين بالدسائس التى حاكها له خصومه فاستقر عزمه على مغادرة استانبول ، وتوجه إلى القاهرة فتلقاه أولو الأمر والطبقات المثقفة بالحفاوة والترحاب وأجرت عليه الحكومة المصرية ١٢٠٠٠ قرش سنويا دون أن تطالبه بأداء عمل رسمى معين .

فغدا مطلق الحرية يعلم الشباب الذين التفوا حوله فى بيته ويلقى عليهم أحاديث حرة فى فروع الفلسفة والدين العالية ، ويرشدهم فى نفس الوقت إلى سبيل الكتابة والتحرير .

أما فى ميدان السياسة فقد أثّر جمال الدين فيمن حوله ، وسعى إلى إيقاظ الشعور الوطنى وإثارة الرغبة فى الحصول على نظم حرة ودستورية .

وكان له أيضا أثر فى الحركة الوطنية التى شنت سنة ١٢٩٨ هـ - ١٨٨٢ م وأدت إلى ضرب الإسكندرية بالقنابل ووقعة التل الكبير واحتلال الإنجليز لمصر .

وقد أُخرج هذا المهيج الملهب للخواطر من مصر قبيل ذلك أى فى سبتمبر سنة ١٨٧٩ م ذلك أن جهوده السياسية كانت شجىً فى حلق الممثل البريطانى . كما كان بعثُه للدراسات الفلسفية مثيرا لحفيظة أهل الجمود فى الأوساط الأزهرية ، فنفى بسعاية الإنجليز من مصر ، واعتقل فى الهند فى حيدر أباد ثم فى كلكته ، ثم سمح له بمغادرتها بعد قمع فتنة عرابى .

وألف رسالته فى الرد على الدهريين فى أثناء إقامته فى حيدر أباد ، وقد عرفنا من مذكرة لولفرد سكاون بلنت "W. S. Blunt" الذى كان معنيا بالسياسة المصرية (فى Brawne ص ٤٠١) أمرا لم يذكره غيره من كتاب سيرة جمال الدين وهو أن السيد خرج من الهند قاصدا أمريكا وبقى فيها بضعة شهور ، وكان فى نيته أن يتجنس بالجنسية الأمريكية ، والظاهر أنه لم ينفذ هذا العزم •

ونجده فى سنة (١٢٩٧ هـ) ـ **١٨٨٣** م فى لندن وقد أقام بها زمنا قصيرا ، وغادرها إلى باريس فمكث بها فى صحبة صديقه وتلميذه الوفى محمد عبده الذى أصبح فيما بعد مفتى الديار المصرية •

وأوقف قلمه على مناهضة التدخل الإنجليزى فى مصائر الشعوب الإسلامية •

ورحبت أمهات الصحف وأوسعها سلطانا بمقالاته فى سياسة روسيا وانجلترا فى الشرق ، وسير الأمور فى مصر وتركيا ، ومغزى الحركة المهدية التى قامت فى السودان آنئذ ، واهتمت الدول ذات الشأن بمقالاته هذه اهتماما كبيرا •

وفى ذلك الوقت أيضا ثارت بينه وبين « رينان » مناظرة بصدد محاضرة ألقاها رينان فى السربون عن الإسلام والعلم ، وزعم فيها أن الإسلام لا يشجع البحث العلمى ، وأراد جمال الدين أن يرد على رينان فكتب مقالا ظهر أولا فى « جورنال ده دبا » "Journal des Debats" نشر أيضا باللغة الألمانية ـ انظر مصادر هذه المادة) •

ولا بأس أن نشير فى هذا المقام إلى أن محاضرة رينان قد ترجمها بعيد ذلك إلى العربية حسن أفندى عاصم وطبعت فى القاهرة على الحجر مصحوبة بردٍّ فى تاريخ غير معلوم •

على أن معظم نشاط جمال الدين فى باريس سواء فى ميدان التأليف أو السياسة كان منصرفا إلى صحيفة عربية كان يحررها بالاشتراك مع محمد عبده (المحرر الفعلى) وهى العروة الوثقى ، وكانت تصدر على نفقة نفر من الهنود المسلمين ، وتحمل على سياسة الإنجليز فى البلاد الإسلامية وخاصة الهند ومصر حملة شعواء •

وصدر العدد الأول من هذه الصحيفة فى الخامس عشر من جمادى الأولى عام ١٣٠١ هـ ـ ١٣ من مارس سنة ١٨٨٤ م ، وقد صادرتها السلطات الإنجليزية فى الشرق ، ومنعت دخولها فى مصر والهند ، وإنما كان يتيسر ذلك بإرسالها إلى من يراد التأثير فيهم فى غلاف محكم (هكذا ذكر جمال الدين نفسه) •

ولم تعمر هذه الصحيفة طويلا بالنظر إلى هذه العقبات التى صادفتها ، فلم يصدر منها جمال الدين ومحمد عبده إلا ثمانية عشر عددا فى ثمانية شهور ، وقد صدر العدد الأول فى السادس والعشرين من ذى الحجة عام ١٣٠١ هـ ـ ١٧ من أكتوبر سنة ١٨٨٤ م ، ومع ذلك فقد كان لها شأن عظيم فى إذكاء الآراء الحرة المناهضة للإنجليز فى الأوساط الإسلامية ، بل يمكن أن تعد باكورة الحركات القومية فى الممتلكات الإسلامية التابعة لانجلترا ، فقد أخذ ساعد هذه الحركات يشتد بفضلها شيئا فشيئا ، وظلت العروة الوثقى حافظة لشأنها إلى يومنا هذا ، وشاهد ذلك أن حسين محيى الدين الحبال محرر جريدة « أبابيل » منذ عهد قريب (١٣٢٨ هـ ـ ١٩١٠ م) أصدر طبعة جديدة منها بعد انقضاء ربع قرن على صدورها ، وتولى طبعها نسيب أفندى صبره •

وقد كان جمال الدين يثير الخواطر على الإنجليز علنا وفى غير مواربة ، إلا أن قادة الساسة الإنجليز • قبلوا بوساطة « بلنت » أن يدخلوا فى مفاوضات شخصية مع جمال الدين ، لإخماد حركة المهدى فى السودان ، ولكن هذه المفاوضات لم تنته إلى نتيجة عملية •

وكان إيقاظ جمال الدين همم الشعوب الإسلامية قد أثر فى القاصى والدانى ، فما إن مضى بعض الوقت حتى تلقى دعوة بالبرق (١٨٨٦ م) تستقدمه إلى بلاط الشاه ناصر الدين فى طهران ، فاستقبل هناك بحفاوة بالغة وتبجيل عظيم ، وأسندت إليه المناصب السياسية العالية ، ولكن هذه الحال لم تدم طويلا إذ سرعان ما ساورت الشاه الشكوك من نحوه وضاق ذرعا بسلطانه الآخذ فى النمو وشهرته الآخذة فى

الاتساع ، فلم يجد جمال الدين بدًّا من الرحيل عن فارس متذرعا باعتلال صحته ، فذهب إلى روسيا ، وهناك دخل أيضا فى مفاوضات سياسية .

وبقى فى الروسيا إلى أن حلت زيارته لمعرض باريس الذى أقيم عام ١٨٨٩ م فقابل الشاه الذى كان فى أوربا فى ميونخ وأغراه الشاه باصطحابه إلى فارس ، ولكن جمال الدين استطاع أن يبلو فى هذه الزيارة الثانية كيف يتلون الحاكم الشرقى وتتقلب أهواؤه ، وقد استبان له ذلك كما لم يستبن من قبل ، فقد أولاه الشاه فى أول الأمر كامل رضاه وعظيم ثقته ، ولكن كبير الوزراء ميرزا على أصغر خان أمين السلطان ، كان يطوى فى صدره لجمال الدين سخيمة من السخائم ، كما أنه آنس فى شخص هذا العالم الغريب المستفيض الشهرة منافسا ، فأخذ يكيد له حتى حول قلب الشاه عنه مستغلا فى ذلك خاصة مشروعا لجمال الدين فى إصلاح القوانين ، وأحس جمال الدين بالخطر يحدق به فأوى إلى ضريح الشاه عبد العظيم بالقرب من طهران ، وكان يعد ملجئا لاتنتهك له حرمة ، وأقام به سبعة أشهر التف فيها حوله فريق من مريديه يستمعون إلى آرائه فى إصلاح حال البلاد التى أذلها الطغيان ؛ وظل على ذلك إلى أن استثار كبير الوزراء الشاة فانتهك حرمة الضريح التى كان يرعاها الناس جميعا ، وأنفذ إليه فى مستهل عام ١٣٠٩ هـ - ١٨٩١ م خمسمائة فارس مسلحين فقبضوا عليه وكبلوه بالأغلال غير مبالين بضعف صحته ، وسيق فى عز الشتاء إلى بلدة خانقين على التخوم بين فارس وتركيا ، ثم خرج من خانقين ميمما شطر إنجلترا للمرة الثانية ، وتخلف فى البصرة أمدا قصيرا .

وهناك - أى فى انجلترا - أثار بمحاضراته ومقالاته حملة شعواء على حكم الإرهاب فى فارس .

على أن طرد جمال الدين على هذه الصورة البشعة كان حافزا إلى جمع صفوف حزب الاصلاح وباعثاً له على الجهاد العلنى ، وهو أمر كان جمال الدين نفسه دائبا على الدعوة إليه فى رسائله التى كان يبعث بها بعد نفيه إلى الأشخاص ذوى النفوذ ،

وقد حفز الهمم إلى العمل تنازل الحكومة الفارسية لطائفة من الماليين الإنجليز فى مارس ١٨٩٠ م عن حق احتكار التبغ ، فحُرمت البلاد موردا من موارد الدخل الهامة لصالح المستغلين الأجانب . فانتهز جمال الدين هذه الفرصة وأرسل من البصرة إلى ميرزا حسن شيرازى شيخ المجتهدين فى سامراء رسالة مثيرة نبه فيها الأذهان إلى أن الحكومة الفارسية تبدد موارد الدولة فتغدقها على أعداء الإسلام ، ذلك أن المنح الهامة التى كيلت للأوربيين قد كفلت لهم السيطرة الاقتصادية على البلاد ، وياليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل إن الحكومة شرعت تسلم لهم باحتكار التبغ فى فارس .

وقد أشار جمال الدين أيضا إلى سوء الحكم فى فارس وقسوته ، وخاصة حكم على أصغر خان ، وقد استكثر من الضرب على النغمة الدينية لإثارة هذا الشيخ الدينى الكبير وزملائه وحملهم على التدخل باسم الدين تدخلا حاسما (وهذه الرسالة منشورة فى المنار ج ١ ص ٨٢٠ وما بعدها) ومترجمة إلى الإنجليزية فى (Brawne كتابه المذكور آنفا ص ١٥ ـ ٢١) .

وكانت النتيجة المباشرة لسعى جمال الدين أن أفتى المجتهد بتحريم تدخين التبغ على كل مؤمن مالم تبطل الحكومة اتفاقها الخاص بالتبغ ، واضطرت الحكومة إزاء مناهضة الشعب لهذا الاتفاق إلى الغائه ودفع تعويض كبير لأصحاب الامتياز .

وكان من أثر تهييج جمال الدين للخواطر أيضا أن اتسع نطاق الإصلاح سريعا وظاهرته الأوساط الدينية فى فارس ، وأدى تهييجه كذلك إلى قتل الشاه ميرزا محمد رضا بيد تلميذ من تلاميذ جمال الدين فى الحادى عشر من مارس سنة ١٨٩٩ م

وأقام السيد فى لندن فترة قصيرة (١٨٩٢ م) كان نشاطه السياسى فى أثنائها جمعا ، وقد بلغته آنئذ دعوة مكتوبة من السلطان عبد الحميد على يد السفير التركى فى لندن « رستم باشا » يطلب إليه فيها الاستقرار فى القسطنطينية ضيفا عليه ، فقبل جمال الدين دعوة السلطان فى شىء من التردد ، وأجرى عليه معاش شهرى قدره خمسة وسبعون جنيها تركيا ، وأنزل بيتا جميلا على ربوة نشان طاش بالقرب من قصر

يلدز السلطانى ، وعاش فيه منعما كالأمراء يلقى أولئك الـذين يلتمسـون حديثـه الملهم •• وقد قضى فى هذا البيت السنوات الخمس الأخيرة من حياته ينعم بآيات من عطف عبد الحميد ورضاه ، ويشقى بأحابيل لاتحصى من دسائس كانت تحيكها حوله بطانة السلطان ، وكم سعى إلى الاستئذان فى الرحيل فكان رجاؤه يرد دائما •

وعاش فى البيت الجميل الذى أفرد له ، وكأنما كان هذا البيت قفصا من ذهب •

وتلكم حاله بنشان طاش فى يونيو ١٨٩٦ م كما وصفها زائر ألمانى ، أما الدسائس التى انغمس فيها أعداؤه فيمكن معرفة كنهها من قول جمال الدين نفسه لزائر ألمانى آخر : « كان الخديو الشاب عباس باشا قد وفد على استانبول لأول مرة وأراد أن يتعرف إلىّ ولكنهم سعوا إلى الحيلولة بينه وبينى ، ولا أدرى من قال حينئذ للخديو : إننى جريت على الذهاب إلى المياه الحلوة عصر كل يوم ، وحضر الخديو إليها ، وكأنما ساقته المصادفة إلى ذلك ، فأقبل نحوى وقدم نفسه إلىّ وقد تحادثنا ربع ساعة ، ونُقل ذلك إلى السلطان وقيل له : إن لقاءنا الذى تم مصادفة كان مدبرا من قبل ، وزادوا على ذلك أننى قلت فى حديثى مع الخديو : إنه الخليفة الحق ، ومع ذلك فلم يكن السلطان لتؤثر فيه آنئذ مثل هذه السعاية ، وازداد موقف جمال الدين حرجا وبخاصة بعد قتل الشاه ، ذلك أن خصومه فى فارس أذاعوا فى الناس أنه هو الذى كان يدير من استانبول المؤامرة على الشاه ، وأنه هو الذى دفع القاتل إلى هذه الفعلة وكان من أنصاره المخلصين •

ولم يكن السلطان ليرضى بتسليم جمال الـدين إلى أعدائـه ، ومـع ذلك فإن وشايتهم به وتقولاتهم عليه أخذت تحدث أثرها شيئا فشيئا •

وكان أبو الهدى من أشد خصومه خطرا وأوسعهم شهرة كما كان فى الوقت نفسه أعظم رجال الدين فى البلاط نفوذا وأعلاهم كلمة عند السلطان •

ولما توفى جمال الدين فى التاسع من مارس سنة ١٨٩٧م إثر سرطان أصابه أولا فى ذقنه ، ثم جاوزها إلى سائر وجهه ـ تهامس الناس بأن أبا الهدى قد حرض عليه من دس له السم ، وثوى جمال الدين بمثواه الأخير فى نشان طاش •

ولم يكتب جمال الدين كثيرا فى مسائل الدين الإسلامى والفلسفة الإسلامية على الرغم من تعمقه فيها ، ولنذكر له فى هذا المقام رسالته فى الرد على الدهريين التى نشرت بثلاث لغات :

ولجمال الدين أيضا رسالة موجزة ألم فيها بتاريخ الأفغان ، وعنوانها : « تتمة البيان » (طبعت على الحجر فى القاهرة طبعة مجهولة التاريخ ص ٤٥ وما بعدها) وهو إلى ذلك صاحب مادة « البابية » فى دائرة معارف البستانى .

وقد صرف السيد معظم جهده فى نشر مقالات سياسية مهيجة للخواطر .

ولجمال الدين أثر آخر علاوة على العروة الوثقى ، فقد ساهم فى إنشاء « ضياء الخافقين » وهى مجلة شهرية تصدر بالعربية والإنجليزية ، وضرب فى تحريرها بسهم وافر ، فكان يكتب المقالات باسم : السيد ، أو السيد الحسينى .

وقد حمل فيها على الشاه أعنف الحملات ، ودأب على التحريض على خلعه ، وندد بوزرائه وسوء حكمهم تنديدا شديدا » [١]

هذا تعريف بجمال الدين الأفغانى جاء فى دائرة المعارف الإسلامية ، وهو تعريف مجمل نرجو أن يتكفل كتابنا بتفصيله بإذن الله تعالى ، ولنا عليه ملحظ واحد هو ما جاء فيه من أن جمال الدين ساهم فى إنشاء « ضياء الخافقين » فليس فى تاريخ الرجل كما قرأناه مايدل على أنه ساهم فى إنشاء هذه المجلة إلا أن نتصور هذه المساهمة بالمقالات التى كان يكتبها .

كذلك لم نجد فى تاريخ مجلة ضياء الخافقين التى أنشأها حبيب سلمونى فى أول شباط عام ١٨٩٢ م أى إشارة إلى أن جمال الدين قد ساهم فى إنشائها كما أوضح تاريخ المجلة وتاريخ منشئها الفيكونت فيليب دى طرازى فى كتابه : تاريخ الصحافة العربية . [٢]

---

١ ـ السابق من ص ٩٤ الى ص ١٠٠ والترجمة من إعداد المستشرق المجرى : جولد زيهر .

٢ ـ دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية : ٣٨٢/٤ ط المطبعة الأدبية بيروت سنة ١٩١٤ م

٢ ـ تحقيق لمسألتين فى ترجمته

قبل أن نتحدث عن هاتين المسألتين نرى من اللازم أن نذكر كلمات قالها الأمير شكيب أرسلان عن جمال الدين الأفغانى ، نشعر أنها تتمم ترجمته من ناحية ، وأنها تعطى دلالات عن الرجل نحن بحاجة الى أن نثبتها ـ للأمانة والإنصاف ـ من ناحية أخرى ·

وقد أثار الأمير شكيب أرسلان فى حديثه عن جمال الدين بعض القضايا التى تتصل به والتى لاتزال موضع خلاف بين الباحثين ، ونرى أن ماقاله الأمير شكيب أرسلان فى هذه القضايا كان فصل الخطاب فيها ·

يقول الأمير شكيب أرسلان عنه : « السيد جمال الدين الأفغانى حكيم الشرق فيلسوف الإسلام ، وعلم الكلام ، وكوكب الإصلاح الذى أطلعه الله فى أفق المشرق بعد أن اشتد به الظلام ، حجة الشرق الناهضة وآية الحق الباهرة ، الذى قال عنه « أرنست رينان » الفيلسوف الفرنسى المشهور ، بعد أن عرفه : « كنت أتمثل أمامى عندما كنت أخاطبه ابن سينا أو ابن رشد أو واحدا من أساطين الحكمة الشرقيين »

فقد بلغ من شهرته ، واللهجة بذكره والضراوة بعبقريته ولاسيما بمصر والشام وسائر البلاد العربية أن ترجمة حاله تكاد تكون أحدوثة الجميع ، فلا حاجة إلى الاطالة بجميع تفاصيلها ، ولا إلى الإحاطة بغررها وحجولها ، قصارى مافى الأمر أن هناك حوادث لم تكتب إلى اليوم ، وأن الروايات تضاربت فى أمرين :

أحدهما : هل هو أفغانى مولود فى أفغانستان ، أم فارسى مولود فى همذان كما زعم بعضهم ؟

والثانى : هل هو فيلسوف إلهى أم مسلم ، أم فيلسوف مادى معطل ؟

وعلى الأمر الأول نقول : « إن كل من عرفوا السيد جمال الدين علموا منه أنه من أفغانستان ، وأنه من سادات كنر الحسينية المشهورين فى تلك الديار ، ووالده السيد صفتر [١] ، وكان مولده فى أسـد أباد بقرب كنر سنة **١٢٥٤** هـ وفق **١٨٣٨** م ٠

وكذلك عرف به كبير تلاميذه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية فى صدر رسالة الدهريين تأليف السيد جمال الدين ٠

ولقد لقيت فى المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر السيد حسينا أحد ولاة أفغانستان ومن سادات كنر المشار إليهم ومن أفاضلهم ، وعلمت منه أن السيد جمال الدين رحمه الله هو منهم ، كما أنى سمعت ذلك من جميع رجال الدولة الأفغـانية وسفرائها الذين جمعتنا بهم التقارير فى أوربا ، بعد تأسيس سفاراتهم بها ٠

فلا أعلم كيف تتفق كل هذه الروايات من أهل تلك الديار على كون المترجم أفغانى الدار علويا حسينا من أسرة نسبتهم كالشمس ، ومقامهم فى بلاد الأفغان أشهر من أن ينوه به ، ويكون فى الحقيقة من همذان ومولودا بها ؟

ونقول على الثانى : « إن الأستاذ الشيخ محمد عبده تعرض إلى إدحاض هذه التهمة أكثر من مرة ، وعرب عن الفارسية بمساعدة عارف أفندى أبى تراب الأفغانى رسالة « النيتشريين » أى الطبيعين التى يرد فيها السيد جمال الدين على الملحدة والمعطلة ، ويقيم العقيدة الإلهية على أساطين المنطق والحكمة العقلية ، ويثبت صحة الوحى ، وينتهى إلى إيضاح البراهين المحمدية ، كل ذلك بملكة قل أن تتاح قوتها لفيلسوف غيره ، ولكن بعض الناس ولاسيما العلماء الحشوية ـ ابوا أن يروا فى الفلاسفة إلا ملحدين ومعطلين ، ومن هذا جاء قولهم العامى : من تمنطق تزندق ٠

---

١ ـ صحتها : صفدر ٠ كما ذكر ذلك المرحوم الشيخ مصطفـى عبـد الـرازق ٠ ص ٢٨ من هذا البحث ٠

وبمثل هذه المبادىء السخيفة والكلمات المحزنة أضلوا العوام ووضعوا عقائدهم فى خصومة دائمة مع الحقائق العلمية ٠٠ وجنوا على الإسلام جناية كبرى ظهر أثرها فى الانحطاط السياسى والاجتماعى الذى نراه عليه الآن ، وإذا قام مصلح أو مجدد يتكلم باسم الحكمة والعلوم العالية ، ويحث على النظر وينهى عن التقليد ، ويبين مضار الجمود ، كان أول مايتسرعون إليه ؛ رميه بالزندقة واتهامه بوهن العقيدة ، وقد يصادف ذلك هوى فى أفئدة من يميلون إلى التعطيل فعلا ، فيلقفون مايسمعونه من هذا القبيل بدون تثبت ٠ ويسارعون إلى إذاعته بين الناس ، لأن من أحب شيئا أحب أن يرى كبار الرجال شركاء له فيه ٠

ولذلك صدر الأستاذ الشيخ محمد عبده رسالة الدهريين التى أسلفنا ذكرها بمقدمة فى ترجمة حال أستاذه السيد جمال الدين قال فيها تقريبا مايأتى : « يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل مانراه من اختلاف آراء الناس فى أمره ، وتضارب أقوالهم فى حقيقة حاله ، حتى كأنه قوة روحية قامت فى كل ذهن بما يلائمه ، أو حقيقة كلية نزلت فى كل عقل بشكل يشاكله ، والرجل على صفاء جوهره وزكاء مخبره لم يتناوله وضع الوضاعين ولا حزر الخراصين » (١)

---

١ ـ لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ترجمة حجاج نويهض تعليق الأمير شكيب أرسلان ٠ ٢٨٩/٢ ـ ٢٩٠ ٠ ط الرابعة ١٩٧٣ بيروت ٠

٣ ـ تلاميذه وجهوده التعليمية

آثَرَ جمال الدين الأفغانى ـ إلى جانب أعماله السياسية الكبرى التى كان من أبرزها اتخاذ كل سبيل لإزعاج المستعمر الأجنبى الغاصب بإثارة المشاعر ضده والوقوف فى وجهه وكشف حيله وأساليبه ، والتى كان من أهمها نقد الحكام والمسئولين فى العالم الإسلامى ·· آثر جمال الدين إلى جانب ذلك أن يكوّن مدرسة من الرجال عندها القدرة على مقاومة الظلم ومصاولة الطغيان ، والعمل الجاد فى سبيل وحدة العالم الإسلامى فى ظل القرآن الكريم الجامعة الإسلامية الصحيحة ، والوقوف بجدية وصرامة فى وجه كل انحراف عن الطريق الحق طريق الإسلام ، من أجل هذا كان جمال الدين يعقد فى بيته دروسا منظمة كان يلقيها على صفوة ممتازة من أبناء مصر ـ عندما كان فى مصر فى المرة الثانية التى طالت فيها إقامته ـ رغبت هذه الصفوة فى التلمذة عليه وقصدت بيته إيمانا منها بعظمة الأستاذ وأهمية مايقول ·

وكان قصاد جمال الدين من نوابغ مصر وأفذاذها فيما بعد ، يقول فى ذلك الأمير شكيب أرسلان : اتفق أرباب النظر فى هذا العصر على أن قدوم السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر كان مبدأ الحركة الفكرية التى بدأت فى البلاد العربية وسائر الشرق الأدنى ، ولم تزل تنمو إلى الآن رامية إلى تحقق الشرق بالمعارف التى ساد بها الغرب ، ورفع سيطرة هذا عن ذاك ، وإعادة الشرق سيرته الأولى من الرقى ·

ولم يقرأ السيد جمال الدين على أحد بالأزهر ، ولكنه كانت له حلقة خاصة فى

منزله انتظم فيها عدد من أدباء القطر يستفيضون بحر حكمته ويستمطرون صوب صوابه اشتهر منهم :

الشيخ الإمام محمد عبده ·

والشيخ عبد الكريم سلمان ·

والشيخ إبراهيم اللقانى ·

والسيد وفا القونى ·

وسعد باشا زغلول ، الذى قيل إنه أدرك أخريات أيام السيد بمصر · ولازمه قلة من أدباء الشام النازلين بمصر مثل :

أديب إسحق ·

وسليم النقاش ·

وسعيد البستانى ، وغيرهم ·

واندفع مريدوه وحملة علمه يكتبون ويخطبون ويبثون إلى الملأ ما التقطوه من فوائده وانتظموه من فرائده ، وكان ذلك لسانا عاليا لاعهد للناس بأمثاله ، وأسلوبا راقيا انقطعت منذ قرون عديدة نسبة رجاله ، فأحدث فى الأمة حركة أفكار لم تكن من قبله ، ونفخ فيها روحا سرية ظهر عليها طابع عرفانه وفضله ، فنشطت همم واستجدت عزائم وهبت قوى وفاضت قرائح ··· » [١]

وكان تلاميذ جمال الدين من أبناء مصر من طلاب الأزهر آنذاك ، وكانوا يحضرون على جمال الدين دروسا فى :

المنطق والفلسفة ·

والتصوف ·

والهيئة ·

---

١ ـ لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى تعليق شكيب أرسلان ٢٩١/٢ ط الرابعة ١٩٧٣ بيروت ·

وكان يعالج فى دروسه لهم كتبا من أمثال :

الزوراء فى التصوف ٠

وشرح القطب على الشمسية فى المنطق ٠

والإشارات

وحكمة العين

وحكمة الإشراق

والهداية ٠

وتذكرة الطوسى ٠

وكان له فى عرض هذه الكتب وتبسيط مافيها من قضايا ومسائل طريقته الخاصة التى يقول عنها الشيخ محمد رشيد رضا : « كان يبسط المسألة العلمية بما يجليها للسامع من جميع نواحيها ، ثم يقرأ عبارة الكتاب فيها فيفهمها السامع من أول وهلة » (١)

وكانت ثقافة جمال الدين من العمق والتنوع بحيث لفتت الأنظار ، وكانت قدرته على الدرس والإلقاء من القدرات التى لاتستلهم السامعين ولا تتوقف على نوع من يتحدث إليهم ، وتلك آية أخرى من آيات أصالة جمال الدين فى عمله وفى بلاغته ، يوضح ذلك محمد عبده حيث يقول : « إن بعض الناس يوجد فيهم خاصية أنهم يقدرون على الكلام بأى موضوع أمام أى إنسان ، سواء كان يدرك الكلام ويقبله أم لا ، وهذه الخاصية كانت موجودة عند السيد جمال الدين ؛ يلقى الحكمة لمريدها وغير مريدها ، وأنا كنت أحسده على هذا لأننى تؤثر فىّ حالة المجلس والوقت فلا تتوجه نفسى للكلام إلا إذا رأيت له محلا » (٢)

تلك مدرسة أحدثها جمال الدين فى مصر كان تلاميذها من أفذاذ أبناء مصر

---

١ ـ محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ٧٥٦/١ ط القاهرة الأولى ١٩٣١ م

٢ ـ السابق : ٧٦٧/١ ٠

وممن آلت إليهم زعامات متعددة فيما بعد ، وهى مدرسة توشك أن تكون ـ بعد مارأينا من منهجها وخطتها ـ مدرسة نظامية عالية ٠

غير أن جمال الدين المصلح الأديب الراغب فى أن يعطى حكمته لكل الناس الحريص على أن تكون له صلة بمختلف طبقات الأمة ، والذى قصده القاصدون برغبة منقطعة النظير ، عمل على إنشاء مدرسة اخرى غير مقيدة بمنهج ولا كتاب ولا نوعية معينة من التلاميذ ، مدرسة عامة يقصدها مريدو الشيخ من كل الناس كائنا ماكان لون ثقافتهم ، مدرسة جمعت فى تلاميذها بين الطبيب والمهندس والكيماوى والأديب والشاعر والمعلم والتاجر ، أى جمعت من كل فئات المجتمع ، وكان يحدثهم فى الأمور العامة حينا وفى المسائل الخاصه حينا ويشحذ هممهم بكلماته الملتهبة ويبصرهم بحاضرهم وحاضر أمتهم ويرسم لهم صورة المستقبل مع هذا المستعمر الدخيل ، ويحرضهم على الثورة على كل ظلم وكل استبداد ٠

بل كان يحدد لبعض رواد هذه المدرسة ممن يمارسون الكتابة فى الصحف الأسلوب الذى يجب اتباعه فى الكتابة ، فينصح بترك المقدمات الطويلة وهجر الزخارف اللفظية الجوفاء ، والكتابة فى موضوعات الساعة والاهتمام بقضايا الشرق السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ويحرضهم تحريضا على محاربة الاستعمار والمستعمرين وكشف نواياهم وفضح خططهم ٠

وكان يؤم هذه المدرسة أعلام الأدباء والصحفيون من أمثال :

محمود سامى البارودى ٠

وعبد السلام المويلحى ٠

وإبراهيم المويلحى ٠

وعلى مظهر ٠

وسليم نقاش ٠

وأديب إسحق وغيرهم من هذا الرعيل الذى أيقظ الأمة وقادها فى كفاحها ضد أعدائها ٠

ومن هذه المدرسة تخرج الكتاب الحاذقون والنقاد البارعون ، والشعراء الأصلاء ، والسياسيون الدهاة ، والمصلحون الهداة القادرون على تشخيص داء الأمة ووصف دوائها .

ومن هذه المدرسة انطلقت شرارة الثورة على الأجنبى الدخيل وعلى الحكام المستبدين وعلى كل مظاهر التخلف والجمود .

فكان جمال الدين إمام مدرسة فى العلم والحرّية والأدب والصحافة والتجديد والإصلاح ..

٤ ـ تهم وجهت إليه

جرت عادة أعداء الأمة الإسلامية أن يدخلوا فى كيدهم للمسلمين ولتاريخهم محاولة تشويه الأعلام من المسلمين والمجددين المصلحين فى تاريخه • فضلا عن محاولتهم تشويه أصل الإسلام من كتاب وسنة ، وهدفهم من ذلك واضح غاية الوضوح وهو زعزعة المسلمين وإضعاف عقيدتهم ليباعدوا بينهم وبين دينهم أكمل الأديان وخاتمها ، فإذا مافقد المسلم ثقته بإسلامه وتاريخ هذا الإسلام ورجاله سهل عليه بعد ذلك أن يكون تابعا لأى حضارة ولأى منهج •

ومن محاولاتهم الضارية فى تشويه الإسلام ورجاله توجيه التهم الباطلة إلى الأعلام والمشاهير من أبناء الإسلام [١] •

ولقد نال جمال الدين الأفغانى فى عصرنا الحديث من محاولات التشويه مانال ولم يكن أقرانه فى الإصلاح فى هذا العصر بأقل حظا منه فى توجيه التهم إليهم ورميهم بما هم منه بُرَآء •

ومن أسف أن يردد هذه التهم بعض الكتاب من المسلمين دون أن يفطنوا إلى أن هذا الأسلوب حرب ضاربة على الإسلام ورجاله ، وقلّما تسمع عن مصلح أو مجدد من المسلمين فى هذا العصر الحديث إلا وتسمع من التهم التى وجهت إليه الشىء الكثير • !!!

فمحمد بن عبد الوهاب وولى الله الدهلوى فى القرن الثانى عشر الهجرى نالهما من التشويه مانالهما ، وأحمد خان فى الهند ومدحت باشا فى تركيا وجمال الدين

١ ـ لنا حديث موسع فى هذا المجال فى كتابنا : الغزو الفكرى والتيارات المعادية للاسلام ط دار البحوث العلمية بالكويت ١٩٧٨ م ••

الأفغانى شوهت صورتهم إلى الحد الذى دعا إلى أن يتشكك بعض الباحثين فى دينهم وفى إخلاصهم فى القرن الثالث عشر الهجرى ٠

والشيخ محمد عبده فى مصر وعبدالرحمن الكواكبى فى سوريا ومحمد رشيد رضا.

كل هؤلاء بذلت ولاتزال تبذل جهود لتشويه تاريخهم والانتقاص من أقدارهم ٠

وواجبنا نحو هؤلاء الأعلام ـ وهم لايملكون الآن حق الدفاع عن أنفسهم ـ أن نحاول مناقشة هذه التهم ليستبين الحق للأجيال الآتية من أبناء الأمة الإسلامية ٠

وفيما يتصل بجمال الدين من مخططات التشويه عدد من التهم وجهت إليه ، نرى أن نتعرض لها اتماما للحديث عن الرجل فى رحلة حياته ورغبة فى مناقشة هذه التهم والتعرف على الصورة الحقيقية للرجل ٠

ومن أبرز هذه التهم اتهامه بالزندقة ، ولا يفوتنى هنا أن أنبه إلى أن توجيه تهمة الزندقة لأحد المصلحين تكاد تكون ضريبة إصلاح يدفعها كل مصلح عند من يتهمونه ـ وقد اتهم بها جمال الدين الأفغانى فكانت أخطر تهمة توجه إليه وفى الوقت نفسه كانت أضعف التهم وأوهاها وأحوجها إلى دليل أى دليل ، وفى الحق حركت هذه التهمة الأحقاد والنّفوس المريضة والشخصيات الضعيفة التى تخاف الناجحين وتخشى الإصلاح والمصلحين ٠

يقول فى ذلك الأمير شكيب أرسلان : « ولما ورد السيد جمال الدين الآستانة أنزله السلطان منزلا كريما فى دار ضيافة خصه بها فى « نشان طاش » وأجرى عليه الأرزاق الوافرة ، وكان يدخل على السلطان ويصلى صلاة الجمعة معه ٠

ومضت مدة وجمال الدين حظى عند أمير المؤمنين لاخوف عليه ولا هو يحزن ، وكان الجو لم يسفر بينه وبين السيد أبى الهدى الصيادى فنسأ ذلك أجل القصص بحقه الى السلطان ، وإنما كانت تلك فترة لايعبأ بها ، إذ ماعتم الأستاذ الصيادى أن وجه عليه حملاته عند مولاه واندفع يتهم جمال الدين بالكفر والزندقة كما هو ديدن هؤلاء فى شأن كل من أرادوا تنقصه من الحكماء ٠

وقد اطلعت على نشرة من جانب السيد أبى الهدى تتناول ثلاثة من أعدائه وهم :

السيد فضل العلوى الحضرمى أمير ظفار ٠

والشيخ ظافر المدنى الطرابلسى شيخ الطريقة الشاذلية ٠

والسيد جمال الدين الأفغانى ٠

وثلاثتهم كانوا من المقربين إلى السلطان ، وكان لكل منهم نصيب وافر من الشتم والوقيعة فى هذه النشرة ٠

وحصة السيد جمال الدين كانت تهمة الإلحاد وفساد الاعتقاد ، ومن جملة الشواهد على ذلك كونه قال مرة : « أنا أطوف بأشجار « البندلر » طواف الحجيج بالكعبة » والبندلر : هى السدود بالتركية ـ وذلك انه يوجد محل نزهة بظاهر الآستانة قد سد السلاطين العظام فيه أودية بحيث تكونت فيها بحيرات لسقيا العاصمة ، وقد أحاطت بتلك البرك غابات ملتفة بديعة ، فغاية مايقال : إن جمال الدين عبر عن نزاهة ذلك المكان بعبارة شعرية فاستخرج منها أبو الهدى إلحادًا وكفرا » (١) ٠

وإن الأستاذ الشيخ محمد عبده تعرض إلى إدحاض هذه التهمة أكثر من مرة ، وعرب عن الفارسية بمساعدة عارف أفندى أبى تراب الأفغانى رسالة « النيتشريين » أى الطبيعيين التى يرد فيها السيد جمال الدين على الملحده والمعطلة ، ويقيم العقيدة الإلهية على أساطين المنطق والحكمة العقلية ، ويثبت صحة الوحى وينتهى إلى إيضاح البراهين المحمدية ، كل ذلك بملكة قل أن تتاح قوتها لفيلسوف غيره ٠

ولكن بعض الناس ولاسيا العلماء الحشوية أبوا أن يروا فى الفلاسفة إلا ملحدين ومعطلين ، ومن هذا جاء قولهم العامى : من تمنطق تزندق ٠

وبمثل هذه المبادىء السخيفة والكلمات المحزنة أضلوا العوام ووضعوا عقائدهم فى

---

١ ـ لو ثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ٠ تعليق شكيب ارسلان ٢٩٤/٢ ط بيروت ١٩٧٣ م ٠

خصومة دائمة مع الحقائق العلمية وجنوا على الإسلام جناية كبرى ظهر أثرها فى الانحطاط السياسى والاجتماعى الذى نراه عليه الآن ، وإذا قام مصلح أو مجدد يتكلم باسم الحكمة والعلوم العالية ويحث على النظر وينهى عن التقليد ويبين مضار الجمود ، كان أول مايتسرعون إليه رميه بالزندقة واتهامه بوهن العقيدة .

وقد يصادف ذلك هوى فى أفئدة من يميلون إلى التعطيل فعلا ، فيلقفون مايسمعونه من هذا القبيل بدون تثبت ، ويسارعون إلى إذاعته بين الناس لأن من أحب شيئا أحب أن يرى كبار الرجال شركاء له فيه .

ولهذا صدر الأستاذ الشيخ محمد عبده رسالة الدهريين التى أسلفنا ذكرها بمقدمة فى ترجمة حال أستاذه السيد جمال الدين قال فيها تقريبا مايأتى :

« يحملنا على ذكر شىء من سيرة هذا الرجل مانراه من اختلاف آراء الناس فى أمره وتضارب أقوالهم فى حقيقة حاله ، حتى كأنه قوة روحية قامت فى كل ذهن بما يلائمه . أو حقيقة كلية نزلت فى كل عقل بشكل يشاكله ، والرجل على صفاء جوهره وزكاء مخبره ، لم يتناوله وضع الوضاعين ولا حزر الخراصين الخ » (١)

ومن بين التهم التى وجهت إليه واستهدفت رميه بالالحاد ماساقه سليم عنحورى فى شرح ديوانه : سحر هاروت حيث قال : « وبعد أن أقام فى الهند ردحا جاء عاصمة الدولة العلية فاتصل بصدرها الأعظم « أمين باشا عالى » وحظى لديه ، ومالبث هنالك أن أتقن اللغة التركية » .

ولما رغب إليه الصدر الأعظم أن يخطب فى دار الشورى ارتجل خطبة فى الصناعات غالى فيها إلى حد أن أدمج النبوة فى عداد الصنائع المعنوية ، فشغب عليه طلبة العلم ، وشددت صحيفة « الوقت » عليه بالنكير ، بما ألجأ الصدر إلى إبعاده فقصد مكة وجاور هناك عاما وبعض عام ... »(٢)

---

١ ـ السابق : ٢/٢٩٠ .

٢ ـ محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام : ١/٤٤ ط القاهرة ١٩٣٣ م

وقال الأمير شكيب أرسلان فى تجلية الموقف : « وحقيقة هذه القصة أن السيد يومئذ شبه الاجتماع الإنسانى بجسم أعضاؤه الصناعات المختلفة ، فشبه الصنعة الفلانية باليد ، والفلانية بالرجل ، وهذه بالعين وتلك بالأذن ثم قال : وأما الرأس المدبر لهذا الجسم فهو إما النبوة أو الحكمة ، والفرق بينهما أن النبوة وحى إلهى معصوم من الخطأ ، وأن الحكمة وضع بشرى قد يخطىء وقد يصيب » .

وكان حسن فهمى أفندى شيخ الإسلام يومئذ ناقما على الأفغانى قرارا سابقا فى مجلس المعارف ينال من رزقه ، فانتهز فرصة هذا الخطاب ليقول : إن الأفغانى جعل النبوة من جملة الصناعات »[1]

وقال الشيخ محمد رشيد رضا معلقا على ماكتبه سليم عنحورى : « وقد اطلع الأستاذ الإمام على هذا الشرح أيام كان مقيما فى بيروت واجتمع بالكاتب فأقنعه بأنه مخطىء فيما وصف به السيد من الإلحاد ، فبادر إلى تخطئة نفسه فى الجرائد ، فكان بذلك مصيبا للفضيلة وظهيراً للحقيقة ، وقد نشر الأستاذ الإمام ماكتبه العنحورى فى آخر ترجمته للسيد التى نشرها فى صدر ترجمة رسالة الرد على الدهر بين قال : « وهذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الأفغانى أتينا به دفعا لما افتراه عليه الجاهلون ، ولو سلكنا فى تاريخه مسالك التفصيل لأدى بنا إلى التطويل ، وإنا نتبع هذا بما كتبه سليم أفندى العنحورى تخطئة لنفسه فيما نقله فى شرح سحر هاروت والمطلع على ماكتبناه يعلم خطأه فى جل مارواه .

وهذا مانشر سليم أفندى العنحورى فى جريدة لسان الحال والجنة بحروفه : « لايخفى أننا كنا أتينا فى حاشية كتابنا (سحر هاروت) على شىء من ترجمة الحكيم الشرقى الغزير المادة السيد جمال الدين الأفغانى الطائر الصيت ، وأبنا فى عرض قصصنا لمحة مما تلقيناه من بعض المصريين والسوريين من سوء عقيدته ووهن دينه ، مما كان مدعاة أسفنا وباعث استغرابنا ، ثم أسعدنا البخت بأن التقينا هاته الأيام

---

١ ـ لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى : تعليق شكيب أرسلان هامش ص ٣٠٢ ج ٢

بصديقنا المجلى بحلبة الفضل الحائز قصب السبق فى مضمارى العقل والنقل الشيخ محمد عبده نزيل بيروت ، وأعز أخلاء الحكيم المشار إليه ، فجال بيننا حديث أفضى إلى البحث عما يرويه عنه بعض الناس ورويناه نحن عنهم ، فأوضح لنا بدلائل ناهضة وبراهين داحضة أن ماتناقله الألسن من هذا القبيل ماكان إلا من آثار مارماه به بعض من غمرتهم أياديه فجازوه بالكنود ـ يعنى بهم قوما كفرة نزلوا اليه فاغتر ببراقيش ألسنتهم ووطأ لهم جانب الأنس سالكا فى سبيل إسعادهم كل سبيل ·

فلما دارت عليه الدوائر وتحولت الأحوال أخذوا يتبجحون بالتلمذة عليه وينسبون ماأشربوا من الكفر إليه ، وبين لنا بأجلى أسلوب أن المباحث التى كان يدور بها لسانه أثناء مناظراته الجدلية فى بيان عقائد المعطلين ، كان المراد منها إظهار حقائق النحل والبدع بمعزل عن الاعتقاد بها والجنوح إليها ، بل مع تعقيبه بالرد عليها وإقامة الحجج على بطلانها ، ثم تأييدا لمقاله هذا وقفنا على رسالة منسوجة بقلم المشار إليه سوّأ بها أصحاب المبادئ المعطلة من أى فريق كانوا ، وبينّ قبح طريقتهم بعبارة حنيف عريق بالإسلام نثبت منها هنا مبحثه فى ضرورة اعتقاد الألوهية لسعادة الإنسان ·

« قال بعد بيان وجوه زعموها كافية لصلاح النوع البشرى ورد مازعموا : فإذن لم يبق للشهوات قامع ولا للأهواء رادع إلا الإيمان بأن للعالم صانعا عالما بمضمرات القلوب ومطويات الأنفس سامى القدرة واسع الحول والقوة ، مع الاعتقاد بأنه قد قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحقه فى حياة بعد هذه الحياة سرمدية ·

ثم قال : فلم تبق ريبة فى أن الدين هو السبب المفرد لسعادة الإنسان ، فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهى الحق ولم يخالطه شىء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب يكون سببا فى السعادة التامة والتعليم الكامل ، ويذهب بمعتقديه فى جواد الكمال الصورى والمعنوى ، ويصعد بذويه إلى ذروة الفضل الظاهرى

والباطنى ، ويرفع أعلام المدنية لطلابها بل يفيض على المتمدنين من ديم الكمال العقلى والنفسى مايظفرهم بسعادة الدارين » .

ثم أتى بعد هذا فى مزايا الدين الإسلامى خصوصا بما يطول بيانه ويعلمه من اطلع على تلك الرسالة .

هذا كله بعد ماقال فى وصف الماديين : إنهم كيفما ظهروا وفى أى صورة تمثلوا وبين أى قوم نجموا ، كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم وصاعقة مجتاحة لثمار أممهم وصدعا متفاقما فى بنية جيلهم ، يميتون القلوب الحية بأقوالهم ، وينفثون السم فى الأرواح بآرائهم ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم ، فما رزئت بهم أمة ولا منى بشرهم جيل إلا انتكث فتله وتبددت آحاده ، وفقد قوام وجوده .

ثم أطال فى بيان ذلك إلى حد لم يبق معه محل للريبة فى كمال اعتقاده وجلاء يقينه .

فأخذتنا لذلك خفة الطرب ، وسارعنا لإذاعته بلسان الصحف شأن المؤرخ العادل ، وقياما بحق الأدب ، وضنا بفضل هذا الرجل الخطير من أن تناله ألسنة من لايعرفه خطأ وافتراء « والله يتولى الصادقين » اهـ . كلام العنحورى [١]

وهناك تهمة ثالثة لها وزنها بين التهم التى وجهت إلى جمال الدين الأفغانى هى اتهامه بأنه كان يتعاطى المسكرات ، مع تحديد هذه المسكرات بأنها قليل من « الكونياك » .

والذى ردد هذه التهمة هو سليم عنحورى فى شرحه لديوانه « سحر هاروت » فقد قال وهو يترجم لجمال الدين : « وهو بالجملة والتفصيل آية من آيات القرن التاسع عشر ، ومعجزة من بدائع معجزاته ، ولو لم يكن طموحا إلى المعالى بإفراط وإعجال ، وعاجزا عن كتمان مبدئه وغايته ، لرحب به التاريخ وأفرز له من أسفاره صفحات تترى زينها برقم أعمال مجيدة تكون قدوة للآتين وذكرى » .

---

١ ـ محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام : ٤٩/١ ـ ٥١ . ط القاهرة ١٩٣٣ م

وهو الآن دون الخمسين من عمره ، أسمر اللون إلى صفرة ، مفلفل الشعر أسوده ، نحيف البنية أهيف القامة جذاب الملامح خفيف العارضين حاد البصر ، يكاد يتطاير الشرر من حدقتيه ، يلبس السواد ويتزيا بزى العلماء ، طلى الكلام ذرب اللسان فصيح اللهجة بليغ العبارة مليح النكتة سمح الكف طلق المحيا وقور السمت .

يجتنب النساء ويعظم نفسه عن الشهوات .

يكره الحلو ويحب المر .

وقلما خلت جيوبه من خشب الكينا والراوند يتنقل بهما تفكها ، يأكل الوجبة (مرة كل يوم) ولا يأكل إلا منفردا ، يكثر من شرب الشاى والتبغ ، وإذا تعاطى مسكرا فقليلا من « الكونياك » .

وليس له من التآليف المطبوعة سوى تاريخ الأفغان .

يكره الكتابة ويتثاقل منها ، فإذا رام إنشاء مقالة ألقى على كاتب من مثل : إبراهيم اللقانى إلقاء قلما يراجعه ويصلحه فيجىء من أول وهلة مسبوكا مفرغ المعانى بقوالب لفظ لاتنقص عنها ولا تزيد ، فسبحان من خلقه بهذه الأطوار ، وجمله بهذه الآثار ، إنه فعال لما يريد »[1] . هـ .

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا فى التعقيب على ماذكره سليم عنحورى :

« وأما ماذكره العنحورى من عادته فى أكله وشربه ففيه الخطأ والصواب » فقد كان يأكل الوجبة ، ولكنه لم يكن يأكل وحده .

وقد كان يكثر من شرب الشاى .

ولم نسمع حتى من أعدائه أنه كان يشرب المسكرات ، فإن لم يكن ماقيل من شربه لقليل من « الكونياك » فرية ، فيحتمل أن يكون له شبهة ، كأن يكون راه الناقل يشرب شيئا يشبه « الكونياك » أو يكون شرب ذلك القليل تداويا فظنه الناظر عادة »[2] .

١ ـ السابق : ١/٤٨ ـ ٤٩ .
٢ ـ السابق : ١/٥٣ .

وبعد : فهذه التهم الثلاثة باطلة مفتراة ، ماأظن مردديها إلا راغبين فى تشويه جمال الدين الأفغانى ، وإلقائه فى زوايا الإهمال فى نظر من يقرأون تاريخه ، بعد طعنه فى دينه ومعتقده ، واتهامه بشرب الخمر ، ولكن الله يقيض للحق دائما من يدافعون عنه .

الفصل الثانى :

مؤلفات جمال الدين

وفيــه :

١ ـ رسالة الرد على الدهريين .

٢ ـ البابية .

٣ ـ العروة الوثقى .

٤ ـ تتمة البيان فى تاريخ الأفغان .

١ ـ رسالة الرد على الدهريين

فى مستهل الحديث عن رد جمال الدين على الدهريين نرى أن نلقى ضوءا على معنى كلمة الدهريين ٠

« الدهرية » كلمة عربية مأخوذة من الآية الرابعة والعشرين من سورة الجاثية التى تقول بلسان الكفار : « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » ٠

وتطلق الدهرية على أولئك الذين أنكروا الاعتقاد فى الله ، وأنكروا خلق العالم والعناية الإلهية ولم يسلموا بما جاءت به الأديان الحقة كالشرائع السماوية والبعث والعقاب ، وقالوا بقدم الدهر وأن المادة لا تفنى ، وأن كل ما حدث فى العالم إنما يرد إلى فعل القوانين الطبيعية أى إلى حركة الأفلاك ، وقولهم بقدم الدهر هو أبرز أقوالهم بل هو المحور الذى يدور عليه مذهبهم ويميزهم عن غيرهم ٠

وقد يكون من العسير أن نترجم إلى اللغات العربية كلمة الدهرية كما وردت فى المؤلفات الإسلامية ترجمة مرضية (ويصدق هذا على كلمة زنديق) ذلك أن مدلولها لم يحد تحديدا دقيقا ، وأيسر علينا أن نعرفها بالسلب من أن نعرفها بالإيجاب ٠

ولا تخلو المؤلفات الفقهية بحال من نقص فى تفصيل مذهب الدهرية ، فقد ذكر الشهرستانى فى فقرة من فقرات كتابه : أنهم ينكرون المعقولات ولا يعترفون إلا بالمحسوسات ، وناقض نفسه فى فقرة أخرى فقال : إنهم يجيزون أيضا المعقولات ، بل إننا نجد تعريفا للدهرية يقول : إنهم يسلمون بوجود الله ولكنهم يفسرون أصل العالم باجتماع الجواهر الفردة على غير هدى فى دورانها فى الفضاء ٠

ونحن نقترب كثيرا من معنى كلمة الدهرية إذا ترجمناها بكلمة Materialists أى الماديين ، أو بكلمة Naturalists أى الطبيعيين ٠

أما ترجمتها بكلمة Falalists أى الجبرية وهى الترجمة التى شاعت من قبل فتخرج بها كثيرا عن معناها ٠

وأقدم تعريف لدينا عن الدهرية وهو التعريف الذى أخذنا بجوهره فى كلامنا عن هذه الفرقة فى صدر هذه المادة ورد فى الجاحظ عند كلامه عن الآية الثالثة والعشرين من سورة الجاثية : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » فهو يرميهم بالنظر إلى الحياة نظرة تقوم على اللذة فضلا عن أخذهم بمذهب المنكرين لله ومذهب الطبيعيين مستعملا هذين المذهبين بأوسع معانيهما . يقول الجاحظ :« وإنما الصواب عنده ـ أى عند الدهرى ـ والحق فى حكمه أنه والبهيمة سيان ، وأنه والسبع سيان ، ليس القبيح عنده إلا ما خالف هواه ، وأن مدار الأمر على الإخفاق والدرك وعلى اللذة والألم ، وإنما الصواب فيما نال من المنفعة وإن قتل ألف إنسان » ٠

ونخلص من مبادئهم العامة إلى أن الدهرية منكرة للشياطين والجن والملائكة والرؤيا والرقى ، على أن بعض الدهرية يقولون بالمسخ مستندين إلى أدلة عقلية ٠

ويهاجم الفقيه اليهودى العربى سعديا المتوفى سنة ٣٣١ هـ ـ ٩٤٢ م أيضا الدهرية فى كثير من المواضع شأنه فى ذلك شأن المتكلمين ، فهو قد حمل عليهم أولا فى مقدمة تفسيره « سفر جصيده » ثم فى الجزء الأول من مؤلفه « الأمانات والاعتقادات » عند تعرضه للرد على أولئك الذين ينكرون أصل العالم فى حدود الزمان وهو يوجه فى هذا الموضع اهتماما خاصا بتفنيد قولهم بقصر المحسوسات على ما تشعر به الحواس ، أما فى ترجمته لسفر أيوب فهو يجعل الآية الخامسة عشرة من الإصحاح الثانى عشر من هذا السفر تشير بصفة خاصة إلى الدهرية ويترجم عبارة « ادرخ عولام » الواردة فى النص بمذاهب الدهريين ٠

ويمكن رد أصل الدهرية إلى مدارس الفلسفة الإغريقية ٠

ويفرق الغزالى بين الدهرية والطبيعيين الذين ينكرون تجوهر النفس ومن ثم خلودها مع تسليمهم بوجود إله خالق مهيمن كما يفرق بينهم وبين الإلهيين مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو ٠

وقد تقدم علماء المشرق تقدما كبيرا عندما تغلغل بينهم العلم الطبيعى الأوربى كمذهب داروين ومذهب المادية وغير ذلك من المذاهب ٠

ويوجد إلى جانب ذلك مؤلفات صنفت فى الرد على هذه المذاهب مثل كتابات إبراهيم الحورانى البيروتى فى الرد على مذهب داروين ٠

ظهرت هذه المؤلفات وذاع أمرها فى أوساط النصارى وتسربت الفلسفة المادية أيضا بين المسلمين فقام من بين صفوفهم فى الوقت نفسه رجل وصم هذه الفلسفة بالدهرية ألا وهو العالم الأفغانى المثير للخواطر جمال الدين الحسينى ورد على الدهرية فى رسالة ظهرت باللغة الفارسية « بمباى ١٢٩٣ هـ » ثم ترجمت إلى الأوردية « كلكته ١٣٠١ هـ ـ ١٨٨٣م ثم ترجمها الأستاذ الإمام محمد عبده إلى العربية ونشرت هذه الترجمة فى بيروت أولاً سنة ١٣٠٣ هـ ثم طبعت طبعة جديدة فى القاهرة ١٣١٢ هـ فى ست وسبعين صفحة من القطع الكبير بعنوان : رسالة فى إبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم وإثبات أن الدين أساس المدينة والكفر فساد العمران .. وانتشرت هذه الترجمة انتشارا واسعا فى أوساط المسلمين ٠

وينتسب إلى هذا الصنف من التأليف أيضا رسالة « الدرة السنية » فى الرد على المادية وإثبات النواميس الشرعية بالأدلة العقلية التى ألفها علاء الدين البغدادي الدهلوى ١٣١٣ هـ ٠

ويتضح من ذلك إذن أن المادية فى هذا الصدد مرادفة للدهرية »[١] ٠

---

١ ـ دائرة المعارف الإسلامية : مادة الدهرية مجلد ٩ ص ٣٣٧ ط طهران ـ ١٣٥٢ هـ ترجمة خورشيد وآخرين ٠

أما ما ألفه جمال الدين فى الرد على الدهرية فإن الشيخ محمد عبده يقدمه بقوله : نحمد الله على الهداية ونعوذ به من الغواية ونصلى ونسلم على خاتم رسله وآله وصحبه هداة سبله ·

وبعد : أتيح لى الاطلاع على رسالة فارسية فى نقض مذهب الطبعيين من تصنيف العالم الكامل محيط المعرفة الشامل الشيخ جمال الدين الحسينى الأفغانى ·

أما الشيخ فله من لسان الصدق ورفيع الذكر مالا يحتاج معه إلى الوصف ، وأما الرسالة فعلى إيجازها قد جمعت لإرغام الضالين وتأييد عقائد المؤمنين مالم يجمعه مطول فى طوله وحوت من البراهين الدامغة والحجج البالغة مالم يحوه مفصل على تفصيله ، دعاه إلى تصنيفها حمية جاشت بنفسه أيام كان فى البلاد الهندية عندما رأى حكومة الهند الإنجليزية تمد فى الغى جماعة من سكان تلك البلاد إغراءً لهم بنبذ الأديان وحل عقود الإيمان ، وإن كثيرا من العامة فتنوا بآرائهم وخدعوا عن عقائدهم وكثّر الاستفهام منه عن حقيقة ماتدعيه تلك الجماعة الضالة ، وممن سأله عن ذلك حضرة الفاضل مولاى محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بمدنية حيد أباد الدكن من بلاد الهند ، فأجابه الشيخ برقيم صغير يعده فيه بإنشاء رسالة فى بيان ماكثر السؤال عنه ، وقد حدانى علو الموضوع وسمو منزلة الرسالة منه ، إلى الاجتهاد فى نقلها من لغتها إلى اللغة العربية ، فتم لى ذلك بمساعدة عارف أفندى الأفغانى تابع الشيخ المؤلف ، ورجونا بذلك تعميم الفائدة وتكميل العائدة إن شاء الله ·

وقد لخص الرسالة الشيخ محمد المخزومى باشا وألحقها بكتابه : خاطرات جمال الدين فقال : بنى الأستاذ الحكيم المرحوم السيد جمال الدين الرسالة على أن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد ، وأودع نفوسهم ثلاث خصال ، كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية ·

العقيدة الأولى : التصديق بأن الإنسان ملك أرضى وأنه أشرف المخلوقات ·

والثانيـــة : يقين كل ذى دين أن أمته أشرف الأمم وكل مخالف له فعلى ضلال باطل ·

والثالثــة : جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الـدنيوى والانتقـال من دار ضيقـة الساحات كثيرة المكروهات جديرة بأن تسمى بيت الأحزان وقرار الآلام ، إلى دار فسيحة الساحات خالية من المؤلمات لا تنقضى سعادتها ولا تنتهى مدتها •

والخصال الثلاث : الحياء والأمانة والصدق •

أما الدهريون « الطبيعيون » فقد وضعوا مذهبهم على أساس بطلان الأديان كافة وعدها أوهاما باطلة ومجعولات وضعية ، ووجوب إزالة العقائد الثلاث ، ومحـو الخصال الثلاث من الإنسان ، وبنوا على هذا أن لا حق لملة من الملل أن تدعى لنفسها شرفا على سائر الملل ولا أن تعتقد أنها أولى من غيرها بفضيلة ولا أجدر بمزية ، وقالوا : إن الإنسان فى المنزلة كسائر الحيوانات وليس له من المزايا ما يرتفع به على البهائم ، بل هو أخس منها خلقة وأدنى فطرة •

وقالوا ـ وبئس القـول ـ إن الحياء من ضعف النفس ونقصهـا ، فإذا قويت النفوس وتم لها كمالها لم يغلبها الحياء فى عمل مَّا كائنا ما كان ـ فيجـب ـ على زعمهم ـ أن يسعى الإنسان فى معالجة هذا الضعف ومقاومته ليفوز بكمال القوة وهو قلة الحياء •

ثم قالوا ـ وفى مقدمتهم « أبيقـور الدهـرى » وأتباعـه الدهـريون ـ ردا على القول : إن الإنسان أشرف المخلوقات : ما بال الإنسان معجـب بنفسه مغـرور بشأنه ، يظن أن الكون العظيم إنما خلق لوجوده النـاقص ، ويزعـم أنـه أشرف المخلوقات وأنه العلة الغائبة لجميع المكونات ، وأن الإنسان من جنونه ـ على زعمهم ـ اعتقاده أن له عوالم روحانية نورانية ومعاهد قدسية ينتقل إليها بعد الموت ويتمتع فيها بسعادة لا يشوبها شقاء ، ولذة لا يخالطها كدر ، ولهذا قيد نفسه بسلاسل كثيرة من التكاليف مخالفا نظام الطبيعة العادل وسد فى وجه رغبته أبواب اللذائذ الطبيعية وحرم حسه كثيرا من الحظوظ الفطرية ، مع أنه لا يمتاز عن سائر الحيوانات بمزية من

المزايا ، ولا فى شأن من الشئون ، بل هو أدنى وأسفل من جميعها فى جبلته ، وأنقص من كلها فى فطرته ، وما يفتخر به من الصنائع فإنما أخذه بالتقليد عن سائر الحيوانات ، فالنسج « مثلا » نقله عن العنكبوت ، والبناء استن فيه بسنة النحل ، ورفع القصور وإنشاء الصوامع أخذ فيه مأخذ النمل الأبيض ، وادخار الأقوات حذا فيه حذو جنس النمل ، وتعلم الموسيقى من البلبل ، وعلى ذلك بقية الصنائع إلى أن يقولوا : إذا كان هذا شأن الإنسان من النقص عن الحيوانات فالأولى أن لا يغتر بأن فى الآخرة ثوابا وعقابا ، ويحرم نفسه فى هذه الدنيا من حظوظ اللذة ، ويقيد نفسه بأوهام الحلال والحرام واللائق وغير اللائق والحياء والصدق والأمانة وغيرها من الأمور الوضعية التى يعتد بها الناس جهلا ، ولم يتقيد بها الحيوان والبهم إلى آخر ما هناك من الأضاليل والأباطيل التى تجعل بمقتضى أصول مذهبهم أدنى البُهْم من الحيوانات أفضل من الإنسان •

وقد أفاض الحكيم المرحوم السيد جمال الدين بتفنيد جميع تلك الأباطيل بمقدمات صادقة وبراهين ساطعة ، منها وجوب الاعتقاد بالله والثواب والعقاب ، ومنافع ذلك للبشر ، قال : إن كل فرد من نوع الإنسان قد أودع بحسب فطرته وبناء بنيته شرورا كثيرة وشهوات عديدة تميل به إلى مشتهيات ، فإذا قام كل فرد لدفع الشر عنه بقوة ساعده أو سلاحه ، أو الأقران بدفع شرور أقرانهم فنى عمر الجميع بالدفاع ، وما كان لهم من الوقت متسع لغير عمل ، وإن قيل قوة الحكومة بقوانينها تعمل لصون الأفراد ، قلنا : إن قوة الحكومة إنما تأتى على كف العدوان الظاهر ورفع الظلم البين ، أما القتل فى الخفاء والاختلاس والزور المموه وغير ذلك من الجرائم التى يرتكبها أرباب الشرور والشهوات ، فمن أين للحكومة أن تستطيع دفعه ، وأنى يكون لها الاطلاع على خفيات الحيل وكامنات الدسائس ومطويات الخيانة ومستورات الغدر حتى تقوم بدفع ضرره •

وهل يرتاب عاقل أن الدهرى الذى ينكر وجود الخالق ولا يؤمن بثواب أو عقاب

إذا ظفر برجل معه مال وليس من يراه من أهل السلطة ، هل يتردد بقتل ذلك الرجل وأخذ ما معه ؟ كلا ثم كلا ، أما إذا كان ذلك الرجل ممن يعتقد ويؤمن بأن للعالم خالقا قادرا عالما بمضمرات القلوب ومطويات الأنفس ، واسع الحول سامى القدرة ، وأنه قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحقه ، لا شك أن ذلك المؤمن لا يقدم على قتل النفس ولو بعد عن أنظار أهل السلطان الزمنى ، إذن فسلطان الدين أقوى وأنفع من السلطان الزمنى وصرامة القوانين ٠

هذا أبسط قياس بين من يؤمن بالله وبين من ينكر وجوده جل جلاله ٠

ثم لو أخذنا بقية أباطيل الدهريين وفرضنا تمكنهم من إزالة العقائد الثلاث والخصال الثلاث ، وتسنى لهم أن يستبدلوا الحياء بقلة الحياء ، والصدق بالكذب ، والأمانة بالخيانة وصون الأعراض بالهتك والإباحة والاشتراك ، فبأى نظام تصان الحقوق وتحفظ هيئة الاجتماع ، وكيف تأمن الأم من ابنها ألا يهتك عرضها أو البنت من أبيها أن لا يفضحها ، وغير ذلك من مقوضات أساس العمران ٠[١] ٠

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين ٢٨٩ ـ ٢٩٢ ط دمشق ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م ٠

٢ ـ البابيـــة

« البابية من المذاهب الخطرة والفلسفات المعادية للإسلام ، ولليهـود فيهـا يد طولى ، وفى مؤتمـر برشـت ١٢٦٤ هـ ـ ١٨٤٣ م أعلن البـابيون انسلاخهـم عن الإسلام ، وحاربوا الإسلام واللغة العربية ، ودخلوا مع الحكومة فى فارس فى حروب ومنازعات أدت فى النهاية إلى إصدار الحكم بإعدام الميرزا « النقطة » وخبا صوت هذه الفلسفة الضالة حينا غير طويل من الزمان ، ثم أخذ أتباعه يعملون فى الخفاء والسرية ودخل فيه عدد كبير من اليهود .

وفى عام ١٢٨٥ هـ ـ ١٨٦٨ م خرجـت البـابية من عكا باســم جديد هو « البهائية » نسبة إلى زعيمها الجديد : ميرزا حسين على المازندرانى الذى يلقـب « بهاء الله » ومن المقرر أن البهائية أصبحت وجها آخر لليهودية »[١] .

وما كتبه جمال الدين الأفغانى عن البابية لم يبلغ مبلغ مؤلف مستقل أو كتاب كامل حتى نعده من بين مؤلفات جمال الدين ، ولكنه من أجمعه وأشمل ما كتب عن البابية ، الأمر الذى جعلنا نعتبره مؤلفا له وإن كان صغير الحجم .

يقول جمال الدين عن البابية كما نقلته عنه دائرة معارف البستانى .

« دين ظهر فى بلاد العجم نحو سنة ١٢٥٩ هـ ـ ١٨٤٣ م بدعوة من رجل من أهل شيراز يعرف بالسيد على محمد ، وكان تلميذا لبعض تلامذة الشيخ أحمد زين الدين الأحسائى الذى مزج التصوف والفلسفة بالشريعة ، وجمع بـين اعتقـادات الشيعة الإمامية والأصول الفلسفية على طراز جديد ، وقال : إن المهـدى الغائـب

---

١ ـ د. على عبدالحليم محمود : الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام .

المنتظر ظهوره عند الشيعة هو الآن من سكان عالم روحاني غير هذا العالم الجسماني ، سماه : « بجابلغا وجابرسا » وإن أجسام سكان ذلك العالم الروحاني كأجسام الجن والملائكة المسماة بالأجسام « الهور قلبائية » وهي من اصطلاحات الكيمياء القديمة ٠

وقد قفاه على هذا الأثر تلامذته وقاموا فى مقام التعليم على هذه الطريقة ٠

وكان من أمر السيد على محمد المذكور بعد أن حج إلى مكة أن ادعى أنه باب المهدى ، وأقام على تقرير هذه الدعوى مدة ، وأسس ذلك الدين من عناصر إسلامية ونصرانية ويهودية ووثنية ، ولقب نفسه « باب الدين » ثم ترك هذا اللقب ولقب نفسه « النقطة » أو خالق الحق ، مدعيا أنه ليس نبيا بسيطا بل هو ملخص للآلهة ، ومنح أحد أتباعه لقب « الباب » وأرسل دعاة إلى جهات مختلفة ٠

ثم بناء على قول مقتداه الشيخ أحمد المذكور فى أمر المهدى بعينه وإن ذاك الجسم اللطيف الروحانى قد ظهر فى هذا الجسم الكثيف المادى ، ولما كانت الرجعة أى رجوع بعض الأئمة السابقين وتابعيهم من الأصول الثابتة فى مذهب الإمامية والتناسخ من اعتقادات طائفة الباطنية الذين تسلطوا فى بلاد العجم مدة طويلة كان له بقايا فى النفوس ، فقام جماعة من أتباع هذا الرجل أعنى السيد عليا ، وادعى بعضهم أنه الحسن وبعضهم أنه الحسين وبعضهم أنه غيرهما من الأئمة وتابعيهم ، وأيد هذه الدعاوى عندهم رأى رآه هذا الرجل نفسه ، وهو أن شخصية الشخص التى باعتبارها يمتاز عن غيره وينال اسما خاصا به كحسن أو حسين مثلا انما هى صفاته واخلاقه التى يكون عليها ، فمن وجدت فيه صفات شخص وأخلاقه وأحواله على وجود تام فهو فى أى زمان ومكان ٠

ولقرب هذه الاعتقادات من مشرب الطائفة الشيخية من الشيعة . وهم أتباع الشيخ أحمد زين الدين المذكور آنفا ، لبى دعوة هذا الرجل كثير من أهالى بلاد العجم المتمذهبين بذلك المذهب الجديد ، فلما رأى إقبال الناس عليه وإجابتهم دعوته

ترفع فى دعواه فقال : إنه هو النبى - وأن الله قد أنزل عليه كتابا يسمى « بالبيان » وأنه المشار إليه بقوله تعالى : « خلق الإنسان علمه البيان » والإنسان هو محمد والبيان هو هذا الكتاب المنزل على السيد ٠

وكتابه هذا يحتوى على كثير من العربى المسجع وبعض الفارسى ، إلا أن العربى منه كان ملحونا ، فلما سئل عن سبب وقوع اللحن فى هذا الكتاب المنزل مع أن اللحن نقص ؟ أجاب بأن الحروف والكلمات كانت قد عصت وافترت فى الزمن الأول فعوقبت على خطيئتها بأن قيدت بسلاسل الإعراب ، وحيث إن بعثتنا جاءت رحمة للعالمين ، فقد حصل العفو عن جميع المذنبين والمخطئين حتى الحروف والكلمات ، فأطلقت من قيدها تذهب إلى حيث شاءت من وجوه اللحن والغلط ٠

ومما ينسب إليه أنه كان سريع القلم فى الكتابة حتى كانت سرعة قلمه تحسب من جملة معجزاته ٠

وقد لقب نفسه « بالذّكر » وزعم أنه المراد من الآية « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ومن قوله : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » وأمثال ذلك من الآيات القرآنية ٠

وأخذ يدعو الناس إلى دينه ولم يعدم من يجيب دعوته ، فتبعه جمع كثير من أهالى بلاد العجم ، واستفحل وعلقت بقلوب الناس دعوته ، وأوقع تابعوه فى قلوب الناس رعبا وخوفا ، إذ كانوا يقفون على سرائر الناس وخباياهم ، فمن كان يؤمن بطعن فى معتقدهم لم يلبثوا أن يقتلوه ، وفشا منهم التعدى والغدر حتى كانوا يتشكلون بمن ظنوا به او توهموا فيه أنه يشير بسوء إلى مذهبهم ، فسفكوا بذلك دماء كثيرة ، وكانوا أشبه الناس بالغدادية الذين اشتهر أمرهم على عهد الفاطميين ٠

ثم إنهم لم يقفوا على هذا الحد بل تجاوزوه إلى أن أثاروا الفتنة على الحكومة فى ثلاثة مواضع ، وأبرزوا من الجسارة مالم يسمع بمثله حتى كان الرجل منهم يتزر بإزار ويأخذ سيفه ويهجم على الألوف من العساكر عريانا ليس عليه سوى الإزار وكانوا يعتقدون أن من يموت منهم فى المحاربات يقوم بعد أربعين يوما ٠

فاشتد على الحكومة خطبهم وحاولت كبحهم فقاوموها وثبتوا أمامها إلى أن قبض على هذا الرجل أعنى : « السيد محمد على » وقتل بالرصاص على فتوى العلماء فى تبريز وذلك سنة ١٢٧١ هـ - ١٨٥٠ م بعد أن بقى فى السجن ثمانية عشر شهرا وقذف بجثته فى خندقها ، وذلك فى عهد الشاه الحالى فى السنة الثانية من جلوسه على كرسى المملكة ، ويزعم أتباعه أن جثته قد صعدت إلى السماء .

أما غير أتباعه من الأعجام فيقولون : إن جثته قد أكلتها الكلاب .

وبعد مضى سنة من قتله حاول ثلاثة من أتباعه قتل الشاه فرموه بالرصاص إلا أنه أخطأه فنشأ عن ذلك اضطهاد شديد ، فقتل جماهير من أتباع الباب فى طهران وعذبوا بعذابات تقشعر لها الأبدان ومن جملتهم : قرّة العين الآتى ذكرها ، وكان ذلك باعثا على زيادة امتداد البابية فى العجم والهند وقسم من تركيا .

ثم إن هذا الرجل كان قد أومأ فى بعض رسائله إلى أن الذى يخلفه بعد موته شاب من تلاميذه يسمى يحيى ويلقب بصبح أزل ، فلما وقع تشديد الشاه عليهم وتعقبهم بالقتل فى جميع الأماكن هرب كثير منهم إلى بغداد من بلاد الدولة العلية .

وممن خرج منهم يحيى صبح أزل وأخوه الأكبر المسمى بميرزا حسين على الملقب ببهاء ، فاختفى صبح أزل عن أعين الناس بأمر أخيه ، وادعى أخوه أنه حاضر بين الناس إلا أنهم لا يرونه إذ ليست الأبصار بقابلة لأن تناله .

ولما وقع الاتفاق بين الدولة العلية ودولة الشاه على إخراجهم من بغداد ، ونقلتهم الدولة إلى أدرنة تنفس صبح أزل وأسفر على الناس قائما بأمر الخلافة داعيا إلى دين أستاذه السيد على ، فحسده أخوه وأنكره ، وادعى أنه دجال ، فوقع الشقاق بينهما وافترق التابعون فئتين ، فئة اقتدت بصبح أزل وأخرى ببهاء ، والأولى تسمى أزلية والأخرى بهائية ، والبابية اسم لهما عام .

وبعد مدة أحست الدولة العلية منهم سوء المقاصد وأوجست منهم شرا فنفعت صبح أزل إلى جزيرة قبرس فمات فيها ، ونفت بهاء إلى عكا وهو الآن فيها مع جمع من أتباعه ، (كان ذلك أيام حياة جمال الدين كاتب المادة) .

وأما ديانة الباب فتثبت مبدأ واحدا كسائر الأديان على ما يتراءى من قول أتباعه. وتحكم بصدق جميع المرسلين السابقين ، وتقرب من قول النصارى بحلول اللاهوت فى الناسوت ، وتنبئ عن ثواب وعقاب للأرواح بعد مفارقة الأبدان ، لكن على وجه يشبه الخيال فتلتذ النفوس الطيبة بأخلاقها ومعلوماتها ، وتألم النفوس الخبيثة بملكاتها الرديئة وجهالاتها إلى أن تزول هذه الملكات عنها فتعود إلى عالم الأجسام مرة ثانية ، وهو ضرب من القول بالتناسخ . وتأمر بالصلاة وجوبا وهى ركعتان فقط وقت الصباح .

وقد اتخذ مسجدا كبيرا فى شيراز وجعله كعبة تولى الوجوه إليها فى الصلاة وتفسد الصلاة بالانحراف عنها .

ثم إنه جعل الشهر تسعة عشر يوما لأن هذا العدد عندهم مقدس ، لأن أصل وحده اللاهوت مؤلفة على زعمهم من تسعة عشر أقنوما ورئيسهم الباب فهو عندهم أعظم من محمد كما أن محمدا أعظم من عيسى .

وفرض الصوم شهرا من آخر الحوت بحيث يوافق عيد فطرهم يوم النيروز وهو أول الحمل .

ومن أحكامه أنه يجب تخريب جميع البقاع المقدسة كمكة وبيت المقدس وقبور الأنبياء والأولياء عند حصول أول سلطة لأحد ممن تبع دينه .

ويحرم شرب الخمر وكذا الدخان على عهده ، وحلله أتباعه من بعده ، ويندب شرب الشاى ندبا مؤكدا ، حتى إن من شربه ينال جزيل الثواب .

ومنها أنه يجوز العقد على اثنين فقط ، والشراء والمتعة بغير حصر ، وعلى ما يقال : إنه يجوز نكاح الأخت .

ومنها أن من كذب فى قول أو نادي شخصا من خلفه فقد أساء ، وكفارته إعطاء ثلاثة مثاقيل من الياقوت ، فإن لم يجد فصيام يومين .

ومنها أن شهداءهم الذين قتلوا فى طهران وغيرها يجب أن يبنى لهم مشاهد مكللة بأنواع الجواهر .

وأنه يجب على أى سلطان يكون منهم أن يضع سيفه فى العالم ، فإما الدين أو الموت ولا يجوز أخذ الجزية ·

وإنه يجب على كل واحد منهم أن يكون عنده كأس من الفضة وثوب نظيف نقى ، أما الكأس فيتناول بها الماء القراح الصافى ، وأما الثوب فيتجمل به عند الفراغ ، وإنه يجوز أن يظهر بعده كامل آخر لكن بعد أن يمضى من السنين عدد حروف المستغاث يعنى ألفى سنة وكسورا ·

ويحظر فى مذهبهم اتخاذ السرارى والطلاق واستعمال النساء للنقاب ·

ويصح أن يقال : إن دينهم إلى الآن لم يقر على نظام واحد بل هو كالرمال السيالة تحدث بسيرها تلا فى محل ثم تنتقل وتحدث تلا آخر بشكل آخر فى محل آخر ·

وكان من جملة دعاته امرأة فتية بارعة الجمال متوقدة الجنان فاضلة عالمة تسمى باسم سلمة ، من بنات أحد المجتهدين فى العجم ـ وكانت متزوجة بمجتهد آخر ، طلقت نفسها من زوجها على خلاف حكم شريعة الإسلام ، وآمنت بذلك الرجل عن غيب ، وكانت تكاتبه ويكاتبها ـ فكان يخاطبها فى مكاتباته بقرة العين فلقبت بذلك ·

وكانت تناظر العلماء والفضلاء مكشوفة الوجه بدون حجاب ، ثم لما وقعت المحاربة بين البابيين وعساكر الدولة فى مازندران ـ جيشت جيشا وقادته مكشوفة الوجه ، وسارت أمامه طالبة إعانتهم ـ وفى أثناء الطريق قامت فى الناس خطيبة وقالت : أيها الناس إن أحكام الشريعة الأولى أعنى المحمدية قد نسخت ـ وإن أحكام الشريعة الثانية لم تصل إلينا ، فنحن الآن فى زمن لا تكليف فيه بشىء ، فوقع الهرج والمرج ، وفعل كل من الناس ما كان يشتهيه من القبائح ، ثم قبض عليها وألبست البرقع جبرا ، وحكم عليها بأن تحرق حية ، ولكن الجلاد خنقها قبل أن يلهب النار بالحطب الذى أعد لإحراقها ·

ومن أحكام هذا الدين أنه لا يجوز أن يضرب المعلم تلميذه أصلا ، وأن الزكوات

والصدقات لا يجوز إعطاؤها لغير البابيين ، فإن فقد فقير فى البابيين فتصرف على من بقى على مذهب الشيخ أحمد زين الدين الأحسائى ٠

وأما نسبتهم إلى الإباحية (الكمون) فهذا من لوازم مذهبهم ، حيث إن كل من خالفهم فى معتقدهم فدمه وماله هدر ٠

وأما تشاركهم فى الأموال فهو من مقتضيات كل دين أو مذهب جديد إذ يتعاون أهله ببذل جميع ما بأيديهم ، ويرتفع الحجر والحرج من بينهم ٠

فهذا ما رواه عنهم السيد جمال الدين الأفغانى المشهور وغيره[1] ٠

---

١ ـ البستانى : دائرة المعارف : ٢٦/٥ ـ ٢٨ ط طهران ٠

٣ ـ العروة الوثقى

من أبرز آثار جمال الدين الأفغانى فى مجال الكتابة الأدبية السياسية الاجتماعية تلك المقالات التى نشرت فى جريدة العروة الوثقى التى صدر العدد الأول منها فى ١٥ من جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ ـ ١٣ من مارس سنة ١٨٨٤ م وكان صدور العدد الأخير منها فى ٢٦ من ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ ـ ١٦ من أكتوبر سنة ١٨٨٤ م وكان مجموع الأعداد الصادرة منها ثمانية عشر عددا ·

والذى أحب أن أوضحه هنا أن هذه الجريدة ـ كما سنتحدث عنها فيما بعد ـ إنما كانت لسان حال جمعية سياسية سرية تسمى جمعية العروة الوثقى وأن هذه الجمعية قد كان لها تنظيمات عديدة فى مختلف بلدان العالم الإسلامى ، أو على وجه الدقة ، فى البلدان الإسلامية التى استطاع جمال الدين وتلميذه محمد عبده أن يجدا فيها من الرجال من يقبلون الانضمام إلى جمعية العروة الوثقى ·

وجدير بالملاحظة أن تنظيمات جمعية العروة الوثقى كانت قد انتشرت بصورة قوية فى البلاد الإسلامية الشرقية التى منيت باحتلال الإنجليز لها مثل مصر والهند ·

ومن الواضح أن الجمعية قد تعمدت أن تركز نشاطها وأن تكثف جهودها فى تلك البلاد أملا فى تخليصها من هذا العدو الأجنبى الممثل فى انجلترا ·

ومعنى ذلك أن تكون جريدة العروة الوثقى ليست تعبيرا عن رأى جمال الدين وحده ، ولا هى تعبير عن رأى محمد عبده وحده ـ وإنما كانت ـ بما اشتملت عليه من مقالات ـ تعبيرا عن سياسة هذه الجمعية ·

وقد برز فيها مكان جمال الدين الأفغانى لأنه كان رئيس هذه الجمعية وبرز بجواره مكان محمد عبده لأنه كان نائب رئيس هذه الجمعية ·

وفى الصفحات التالية من البحث نود أن نلقى من الأضواء على تلك الجمعية ما استطعنا الوصول إليه فى حدود ما سمحت به السرية التى فرضت على الجمعية وعلى أعضائها وعلى تنظيماتها • فإذا انتهينا من ذلك تحدثنا عن الجريدة نفسها أو المجلة لنناقش قضية كثر فيها الكلام ، وهى نسبة هذه المقالات إلى جمال الدين حينا وإلى محمد عبده حينا آخر •

ولأبدأ بالجمعية فقد سبقت الجريدة فى الوجود ، ورسمت لها خطة العمل وأرادت منها أن تكون لسان حالها فى المسائل السياسية والاجتماعية والإسلامية بصفة عامة •

أولا : جمعية العروة الوثقى

هى جمعية سرية ذات أهداف إسلامية سياسية ، برز من بين أهدافها : « تفقد أحوال المسلمين فى كل مكان والعمل على ما يصلحهم ويصلح بهم الناس ، ومقاومة المحتلين الغاصبين لأى شبر من أرض المسلمين » •

وبرز إلى جانب هذا الهدف هدف آخر يدعم كونها جمعية إسلامية هو : « استقامة أعضائها على طريق الحق طريق الإسلام ، وقيامهم بالدعوة إلى الله »

وكان رئيس الجمعية السيد جمال الدين الأفغانى ونائبه الشيخ محمد عبده •

ونستطيع أن نشير إلى مجمل أهدافها كما يدلنا على ذلك قَسَم الجمعية الذى يردده أعضاؤها عند الانضمام إليها ـ على النحو التالى :

أولا : تحكيم كل عضو من أعضائها كتاب الله فى أعماله وأخلاقه بلا تأويل ولا تضليل •

ثانيا : إجابة داعى الله إلى الحق الذى يدعو إليه دون تقاعد عنه فى أمر أو نهى ، والدعوة لنصرته طول الحياة مع جعل هذه الدعوة أفضل من المال والولد .

ثالثا : بذل كل ما فى الوسع لإحياء الأخوة الإسلامية وتنزيلها منزلة الأبوة والبنوة بين كل الأعضاء الذين ارتبطوا برابطة العروة الوثقى وانتظموا فى عقد من عقودها ، مع مراعاة هذه الأخوة الإسلامية فى غير أعضاء العروة الوثقى من المسلمين إلا أن يصدر عن واحد ما يضر بشوكة الإسلام فإن العضو مطالب ببذل الجهد فى إبطال عمله المضر بالدين .

رابعا : يلتزم كل عضو بأن يقدم ما قدمه الدين وأن يؤخر ما أخره ، ولا يسعى قدما واحدة فى عمل يتوهم فيه ضررا للدين جزئيا كان هذا الضرر أم كليا .

خامسا : يلتزم العضو بأن لا يخالف أهل العقد الذين ارتبط بهذا القسم فى شئ يتفق رأى أكثرهم عليه .

سادسا : يعاهد العضو الله على أن يطلب كل الوسائل لتقوية الإسلام والمسلمين عقلا وقدرة بكل وجه يعرفه ، وإذا جهل وجها من وجوه تقوية الإسلام والمسلمين كان عليه أن يطلب علمه من العارفين .

وكانت هذه الجمعية تحكم بقوانين داخلية من حيث التنظيم والعمل الداخلى ·

وكانت رئاسة الجمعية تسمى « العروة الوثقى » وكان تحتها مستويات تنظيمية يطلق على كل مستوى منها اسم « العقد » ·

وكان الأفغانى العقل المدبر لهذه الجمعية وكان نائبه الشيخ محمد عبده ·

ونورد فيما يلى بعض أصول العقد الرابع الذى كتبه الأستاذ الإمام بصفته نائب رئيس الجمعية ·

لائحة العقد الرابع من عقود تنظيم جمعية العروة الوثقى ·

أولا : المهام الفكرية والسياسية والتنظيمية :

١ ـ ينعقد بثلاثة يقسمون اليمين المعهود[١] ·

٢ ـ مذاكرة المجتمعين عند الالتئام المعتاد تكون فى أمور :

ـ الذكر بآيات الله ·

ـ النظر فى حالة الإسلام عند بدئه وما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه فقط ·

ـ البحث فى السبب الذى امتدت به سطوة الإسلام حتى صال على جميع الأديان وكاد يبتلعها فى زمن قصير ·

٣ ـ يلاحظ كل باحث أن ذاته فى موضوع البحث فيطلب الصلة من نفسه قبل أن يطلبها فى غيره · ويقارن بين حاله وحال السلف بوجه الدقة والإنصاف ·

٤ ـ مدارسة أحكام الجهاد وحقوق المسلم ، وما هو مكلف به فى معاملة غيره ، وما يفرض عليه إذا زحف الأعداء لخضد شوكة الإسلام ·

٥ ـ النظر فى حال المسلمين لهذا الوقت أخذا من أقوالهم وأعمالهم للوقوف على إحساسهم الدينى ومقدار الداعية الاعتقادية ليعلم الداء ويعالج بالدواء اللائق به ·

---

١ ـ للجمعية قَسَم سوف نذكره بعد قليل ·

٦ ـ كتب كل فكر وتدوينه مفصلا ثم مجملا مع ما تستقر عليه الآراء ·

٧ ـ العمل فى الدواء بالقول (وفيه الكتابة والتأليف) وبذل المال فى مساعدة من يقوم بنصر الدين وحمل السلاح للمقاتلة بين يديه عند المكنة ·

٨ ـ كل واحد من أهل العقد مكلف بالعمل وإعداد أسبابه وما لا يتم إلا به وبدعوة الناس إلى عقده والارتباط به ، مع الاحتراس التام من كل ما يفيد أن هناك عقدا ، والثقة بمزيد الانضمام إنما تتحقق عند اتفاق آراء أهل العقد عليها ·

٩ ـ يكون معظم الاهتمام بضم الصالحين للأمر من ذوى المكانة على اختلاف طبقاتهم من علماء وأمراء ورؤساء عشائر وغيرهم ، وفريضة كل منهم أن يعمل للإسلام فيما خوله الله ·

١٠ ـ فى كل حالة يراعى تمكين الفكر وتأسيس الارتباط حتى يكون عند كل واحد أن مصلحة الكل بمنزلة مصلحة الشخص أو أعلى ، ولا يقبل قول من قائل حتى يكون عمله أزيد من قوله أو مساويا · العمل بذل المال والروح والأول أقرب الدليلين ·

١١ ـ على أهل العقد أن يرسلوا رسلا إلى نواحى الوطن الحالين به ، وإلى المواطن المستعدة من غيره متى أمكنهم ذلك ·

١٢ ـ لا يكون الشخص رسولا حتى يكون سير العقد ملكة راسخة فيه ، ويكون على قدرة كاملة فى تصريف القول ، وتوفيق النصح مع طباع المنصوحين وحالة السلطة العارضة عليهم فيكون حكيما فى عمله لا يحتاج لوصية من غيره ، ولا لقيم يلاحظ عمله ·

١٣ ـ يسمح للعقد أن يبعث رسلا من الخارجين عنه على أنهم وعاظ يعلمون المعروف من الدين ويؤيدون مناطيق القرآن ، وعلى العقد أن يرسم لهم طريق النصيحة بدون أن يعرفوا أن هناك عقدا ·

١٤ ـ على الرسول إن كان من أهل العقد أن يكاشف عقده بما يحس به من انفعالات الناس وما يأخذ قوله من قلوب السامعين لدعوته ـ وما أثر تعليم الوعاظ المبعوثين من طرف العقد ·

١٥ ـ من استحق باستعداده الدخول فى العقد فعليه أن يقدم رسما ماليا أقله مائة فرنك وأوسطه مائتان وأكثره ثلاثمائة ، ولا يستثنى من ذلك إلا عالم أو معتقد عند الناس لا يستطيع أداء على شريطة أن يبذل العالم وسعه فى تبيين الحق وبثه فى مقاصد العقد ، فإن استطاع هذان الصنفان تأدية النقد فهم أولى الناس بها ·

١٦ ـ يجتمع أهل العقد فى كل أسبوع مرتين للمذاكرة فيما سبق بيانه فى الفصل الأول وما بعده ·

ثانيا : النظام المالى للعقد :

١٧ ـ يجب على كل واحد أن يؤدى فى آخر كل جلسة مقدارا من النقد على حسب استطاعته قليلا أو كثيرا ، يدور على الحاضرين من كان أصغرهم سنا بصندوق صغير له فوهة ضيقة يضع فيها كل واحد ما يتسير خفية حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر ، لا يستثنى من ذلك أحد ، ويسمى هذا الصندوق « صندوق التبرع » ·

١٨ ـ يحفظ النقد المجتمع من الرسوم الابتدائية والتبرع عند من ينتخبه العقد أمينا ·

١٩ ـ يودع فى ظرف تكتب عليه هذه العبارة : هذا مال حق التصرف لعقد الإخلاص تحت رئاسة فلان (يذكر اسم الرئيس) ·

٢٠ ـ يستعمل هذا المال فى النفقة على محل الاجتماع ولوازمه ، وفى سبيل نشر المشرب وإرسال الرسل الداعين إلى الحق ، وفى إغاثة المقصرين ممن ترجى منهم فائدة لمقصد الجمعية ، وما يفضل من ذلك فالنظر فيه للجمعية العليا « جمعية العروة الوثقى » إما مباشرة أو على يد أحد نوابها ·

٢١ ـ يكون للعقد أربعة دفاتر :

أحدها : لحصر أسماء رجاله •

ثانيها : لأسماء رسله •

ثالثها : لحصر النقد المجتمع •

رابعها : لإحصاء النفقات •

٢٢ ـ إذا توفر فى الصندوق مبلغ من النقد وافر وأمكن تنميته على وجه شرعى مأمون الخسارة فعلى أهل العقد أن يدبروا أمر نموه •

٢٣ ـ على القائم بضبط الحساب فى الإيراد والصرف أن ينهج الطريقة المعهودة فى مركز العقد ، وأن يضعوا لها نظاما حسب المعروف فى بلادهم •

٢٤ ـ لا يصرف شىء إلا بقرار من أهل العقد يتفق عليه جميعهم أو اكثرهم •

٢٥ ـ إذا قضت الحوادث بعمل عاجل يقرب من مقصد الجمعية وخيف فوات الفرصة بفوات الوقت واحتيج إلى نفقة تقتضى زيادة عن الموجود وجب على أهل العقد أن يبذلوا ما فى وسعهم لإتمام العمل •

ثالثا : أحكام عامة :

٢٦ ـ لا يباح لأحد من رجال العقد أن يذكر شيئا من أحوالهم ومقاصدهم ومذاكراتهم عند من ليس من مقصده فى شىء ، بل لا يباح التصريح باسم العقد وأهله إلا لمن حصلت الثقة بحاله عند رجال العقد •

٢٧ ـ على رجال العقد أن يحمى بعضهم بعضا ، ويعين كل منهم باقيهم بقدر الاستطاعة •

٢٨ ـ الاستطاعة لا تفسر بالأهواء حتى يعد كل واهم عجزا ، وإنما هى المعروفة عند المخلصين التى لا يعد بها الإنسان مادام حيا قادرا على الحركة •

٢٩ ـ إذا رأى أهل العقد أن يزيدوا شيئا فيما وصلهم من قانون الجمعية حسب حالة بلادهم فعليهم مخابرة من يتولى مواصلتهم فيما يريدون •

٣٠ ـ القانون الداخلى للاجتماع يضعه أهل العقد[١] .

ومن الواضح من خلال مواد هذا العقد أن جمعية العروة الوثقى جمعية عالمية ، كما هو واضح من المادة الثالثة والمادة التاسعة والعشرين .

ونستطيع ان نتعرف بصورة أدق على جمعية العروة الوثقى من خلال تصفح قسمها ومنطوقه كما بقى لنا هو :

« أقسم بالله العالم بالكلى والجزئى ، والجلى والخفى القائم على كل نفس بما كسبت الآخذ لكل جارحة بما اجترحت لأحكمن كتاب الله تعالى فى أعمالى وأخلاقى بلا تأويل ولا تضليل .

ولأجيبن داعيه فيما دعا إليه ، ولا أتقاعد عن تلبيته فى أمر ولا نهى ، ولأدعونّ لنصرته ، ولأقومن بها ما دمت حيا ، لا أفضل على الفوز بها مالا ولا ولدا .

أقسم بالله مالك روحى ومالى ، القابض على ناصيتى المصرف لإحساسى ووجدانى الناصر لمن نصره الخاذل لمن خذله ، لأبذلن ما فى وسعى لإحياء الأخوة الإسلامية ولأنزلنها منزلة الأبوة والبنوة الصحيحتين ، ولأعرفنها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثقى ، وانتظم فى عقد من عقودها ، ولأرعينها فى غيرهم من المسلمين ، إلا أن يصدر عن أحد ما يضر بشوكة الإسلام فإنى أبذل جهدى فى إبطال عمله المضر بالدين ، وآخذ على نفسى فى إثره مثل ما آخذ عليها فى المدافعة عن شخصى .

أقسم بهيبة الله وجبروته الأعلى أن لا أُقدم إلا ما قدمه الدين ، ولا أؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا أسعى قدما واحدة أتوهم فيها ضررا يعود على الدين جزئيا كان أو كليا . وأن لا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين فى شئ يتفق رأى أكثرهم عليه .

---

١ ـ نقلا عن : محمد عمارة : الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : ٥٨١/١ ـ ٥٨٥ ط بيروت ١٩٧٢ م .

وعليّ عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل لتقوية الإسلام والمسلمين عقلا وقدرة بكل وجه أعرفه ، وما جهلته أطلب علمه من العارفين ، لا أدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر ما يسعه إمكانى الوجودى ، وأسأل الله نجاح العمل ، وتقريب الأمل ، وتأييد القائم بأمره والناشر لواء دينه ـ آمين »[١] ٠

ثانيا : جريدة العروة الوثقى

« جريدة سياسية أدبية أسبوعية أنشئت فى ١٣ آذار سنة ١٨٨٤ م لمدير سياستها السيد محمد جمال الدين الأفغانى ، ومحررها الشيخ محمد عبده المصرى ٠

وهى بليغة العبارة كثيرة المباحث تعد الحجر الأول لأساس النهضة الاسلامية الحديثة بما كانت تنشره من المقالات الرنانة تعزيزا للإسلام وتنديدا بالسيطرة الإنجليزية فى الهند ومصر ٠

وقد صدر من هذه الجريدة ثمانية عشر عددا آخرها فى ١٦ من تشرين الأول سنة ١٨٨٤ م ، فحالت الموانع دون الاستمرار فى نشرها ، حيث صادرتها حكومة انجلترا ومنعت دخولها إلى الهند وسائر البلاد التى لها فيها نفوذ ٠

وكانت لسان حال جمعية بهذا الإسم تأسست فى مدينة الإسكندرية فى أوائل عهد الخديوى توفيق الأول للدعوة إلى الجامعة الإسلامية ٠

ويقال إن إبراهيم المويلحى نشر على صفحاتها شيئا من نفثات قلمه ٠

راعت فى جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الشعوب الإسلامية وتمكين الألفة فى أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها والسياسات القويمة التى لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين ، فكانت تطبع بنفقة إسماعيل باشا خديوى

---

١ ـ السابق : ٥٧٩/١ ـ ٥٨٠ ٠

مصر سابقا وغيره من أمراء العرب والهند وأغنيائهم وأعيانهم ، وفى مقدمة الذين ساعدوا على انتشارها وأمدوها بالمال أحمد باشا المنشاوى صاحب المبرات الشهيرة والثرى الكبير فى وادى النيل .

وكانت ترسل إلى جميع الجهات ولكل من يطلبها مجانا بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير والغنى والفقير ، وقد عينت أجرة البريد خمسة فرنكات فى السنة لمن تسمح به نفسه .

وإليك ما ورد عنها فى كتاب العروة الوثقى المطبوع فى بيروت بالحرف الواحد :

« تلك الجريدة التى لم تقوَ أم الحرية (انجلترا) على احتمالها واتساع صدرها لها ، فى حين أنها وسعت أكثر الجرائد حرية وأكثرها تطرفا ، فمنعتها من الهند ومصر والسودان ، واستصدرت الأوامر بمنعها عن سائر البلاد التى لها فيها نفوذ أو تطمح إلى أن يكون لها ذاك النفوذ . تلك الجريدة التى لم يكف (انجلترا) منعها من تلك البلاد لأن أشعة نورها كانت وهاجة تخرق الحجب وتنفذ الأغشية وتدخل إلى أعماق القلوب فاستعملت الوسائل لمحوها من عالم الوجود وإطفاء نورها الذى كان يبدد ظلمات الاعتساف .

تلك الجريدة التى تعد أم الجرائد الحاضرة على الإطلاق والتى لم يزل الناهضون من بنى الشرق يسيرون فى دعوتهم إلى النهوض على أثرها »[١] .

ولنتحدث الآن عن مقالات جريدة العروة الوثقى لمن تنسب ؟ وعن أهداف هذه الجريدة ، وعن تلخيص محتواها ، ثم نختم كلامنا بالحديث عن بعض الشبه التى أُثيرت حولها وعن رد جمال الدين على هذه الشبه .

---

١ ـ فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية : ٢/٢٦١ ـ ٢٦٢ . ط بيروت ١٩١٣ م .

مقالات العروة الوثقى

بين جمال الدين ومحمد عبده

اختلف من أرخوا لهذه الفترة من حياة الأمة الإسلامية فى نسبة مقالات العروة الوثقى إلى جمال الدين ، فتكونت من اختلافاتهم تلك آراء ثلاثة :

أولها : أن هذه المقالات لجمال الدين الأفغانى ولمحمد عبده معا ·

ثانيها : أن هذه المقالات لجمال الدين فكراً ومضمونا ولمحمد عبده أسلوبا وتحريرا ·

ثالثها : وهى ما أميل إليه أنها لجمال الدين الأفغانى وحده فكرا ومضمونا ولفظا وأسلوبا ، وأن ليس لمحمد عبده فيها إلا ما يمكن أن يجرى به قلمه من كلمة هنا أو جملة هناك أثناء كتابته ما يملى عليه جمال الدين ·

ولم يدّع أحد من الباحثين أن هذه المقالات لمحمد عبده وحده ·

أما أصحاب الرأى الأول الذين نسبوا المقالات إلى الرجلين فإنهم فى تقديرى قد نظروا للقضية نظرة سطحية دون أن يتعمقوا الموقف أو يلتمسوا على ما يقولون دليلا أو برهانا ، وكل ما يستندون إليه فى ذلك أن الجريدة قد أنشأها الأفغانى ورأس العمل فيها وأن محمد عبده كان محررها وكاتبها الأول ·

وهو رأى مرجوح لفقده الأدلة والبراهين ·

وأما أصحاب الرأى الثانى الذين يقولون بأن أفكار المقالات لجمال الدين وأسلوبها لمحمد عبده ، فإنهم يقدمون على ذلك دليلا واحدا هو كلمة قالها الشيخ محمد عبده للأمير شكيب أرسلان ونقلها هذا إلى الشيخ محمد رشيد رضا ونصها : « إن الأفكار كلها للسيد ليس لى منها فكرة واحدة والعبارة كلها لى ليس للسيد منها كلمة واحدة ·» ·

فكأنّ محمد عبده على هذه الرواية هو المحرر الكاتب لكل عبارة نشرت فى هذه الجريدة فهو بهذا مشارك للأفغانى فى تلك المقالات ·

وأنا استبعد أن يتم شىء من ذلك بين الأفغانى ومحمد عبده ، بل أستبعد أن يتم ذلك بين اثنين أحدهما يعطى فكره والثانى يعطى ألفاظه وأسلوبه ، لأن الفكر لا يخرج من عقل صاحبه إلا باللغة ، فما دام الفكر للأفغانى فاللغة له ·

وقد يقال : إن الأفغانى لم يكن يعبر عن أفكاره باللغة الفصحى وإن محمد عبده كان يصوغ هذه الأفكار بلغة فصيحة ، ومعنى ذلك ينطوى على اتهام للأفغانى بأنه لم يكن يجيد الفصحى أو لم تكن الفصحى طيعة له ، وهو أمر تكذبـه الشواهـد والبراهين ، فقد كان الأفغانى خطيبا مفهوما مؤثرا فصيح العبارة ، شهد له بذلك أكثر من واحد من الأدباء وممن استمعوا له ، من هؤلاء الذين شهدوا للأفغانى بالفصاحة والبلاغة والمقدرة الخطابية الفائقة : حفنى بك ناصف فيما نقله عنه محمد رشيد رضا فى قوله : « حدثنى حفنى بك ناصف وهو من الرعيل الأول من تلاميذ الإمام ـ قال : كنا إذا قيل لنا : إن السيد سيخطب الليلة نفضل سماع خطبته على سماع أطرب المغنين فنؤثرها عليها ، حتى كان المدعو منا إلى وليمة عرس يترك الإجابة إليها ، وكنا نجد فى أنفسنا من سماع خطبته أن الواحد منها جدير بإصلاح مديرية أو إصلاح مملكة »(١) ·

وممن شهد له بهذه القدرة الخطابية وبتلك الفصاحة البيانية عبدالقادر المغربى تلميذه ، والمتردد على مجالسه فى الآستانة ، وممن روى عنه الذكريات والخواطر حيث يصفه بقوله: «إنه كان يمتاز بطلاقة لسان وتوقد جنان لا يعييه خطاب »(٢) ·

وممن شهد له كذلك الشيخ إبراهيم البازجى ـ وهو من علماء اللغة وبلغائها فى

---

١ ـ مجلة المنار ـ مجلد ٢٨ ج ٩ ص ٧١٠ ·

٢ ـ محمد عمارة : الأعمال الكاملة لمحمد عبده : ٢٣٥/١ ـ ٢٣٧ نقلا عن : جمال الدين الأفغانى سلسلة اقرأ ·

عصره يقول عن جمال الدين الأفغانى : إنه « رحلة البلغاء » أى من يرحل إليه لبلاغته[١] .

وكتب جورجى زيدان تأبينا للأفغانى فى أول إبريل سنة ١٨٩٧ م قال فيه : « إنه كان ذا عارضة وبلاغة لا يتكلم إلا اللغة الفصحى بعبارات واضحة جلية وإذا أنس من سامعيه التباسا بسط مراده بعبارة أوضح ، فإذا كان السامع عاميا تنازل إلى مخاطبته بلغة العامة ، وكان خطيبا مصقعا لم يقم فى الشرق أخطب منه » .

والدكتور شبلى شميل شاهده بعينيه وسمعه بأذنيه يخطب فى الإسكندرية وكان قريب عهد بمصر فيقول : « إنه شهد خطبة للأفغانى فى الإسكندرية وكان قريب عهد بمصر ، فوقف ساعتين يتكلم بلسان عربى فصيح وإلقاء حسن حتى أدهش الناس »[٢] .

كذلك شهد للأفغانى تلميذه وأثيره الأستاذ الإمام محمد عبده فيما كتب عنه وحسبنا هنا أن نشير إلى كلمة وجيزة قالها الأستاذ الإمام تعليقا على مقالين لجمال الدين الأفغانى هما مقال « الحكومات الشرقية » ومقال « روح البيان فى الإنجليز والأفغان » نشرا فى صحيفة مصر ، حيث قال : « ترنحت لهما أعطاف أولى العلم طربا • ومالت إليهما أعناق السياسيين عجبا »[٣] .

وإذن فلم يبق أمامنا إلا أن نرفض هذه الكلمة المنسوبة إلى رشيد رضا عن محمد عبده التى قال فيها : « إن الأفكار كلها للسيد ليس لى منها فكرة واحدة ، والعبارة كلها لى ليس للسيد منها كلمة واحدة » ذلك أن الأدلة قائمة ضدها .

ونخلص من هذا الرأى الذى نراه أقرب إلى الصواب وهو أن المقالات التى نشرت فى العروة الوثقى لجمال الدين الأفغانى وحده ، وأن محمد عبده إذا كان له فيها

١ - السابق : ٢٣٧/١ نقلا عن تاريخ الأستاذ الإمام ٩٥/١ .

٢ - السابق : نقلا عن تاريخ الأستاذ الإمام ١٠١/١ .

٣ - السابق : ٢٣٦/١ .

شيء ، فهو تسطيرها وكتاباتها فحسب ، ذلك أن الأفغانى كان من عادته أن يملى ـ وقلما كان يكتب بنفسه ، وربما كان للأستاذ الإمام ـ وهو يكتب ما يملى عليه ـ أن يتصرف فى كلمة سبق بها لسان الأفغانى أو نحو ذلك •

وهذا هو الشيخ محمد رشيد رضا يؤكد أن السيد الأفغانى ما كان يكتب إلا نادراً وأنه كان فى الغالب يملى ، فيقول : « كان السيد رحمه الله يملى ، وقلما كتب بيده مقالا ، وكان تلاميذه كاللقانى وأديب اسحق يكتبون كل ما يقوله ، حتى الحكم والأمثال العامية التى يمزج بها الكلام عادة ، ولكن أكبرهم ـ الأستاذ الإمام ـ كان يتصرف بالعبارة ويجيز له ذلك السيد »[1] •

وهذا هو الذى فعل الأستاذ الإمام بالنسبة لمقالات مجلة العروة الوثقى فيما نظن ونرجح •

ولهذا نؤكد أن جمال الدين الأفغانى الكاتب الخطيب البليغ الأديب هو الذى أنشأ هذه المقالات لفظا ومعنى ، مع تأكيدنا بأنه ليس بصحيح ما يقال من أنه كان فى لسانه عجمة ، كما أورد ذلك سليم عنحورى فى شرحه لديوانه : « سحر هاروت » وهو يترجم للأفغانى حيث يقول : « إنه تعلم اللغة الفارسية والعلوم الدينية والمنطق وشيئا من علم الأخلاق فى بلاده » ، ثم عاد يقول : « إنه قصد مكة وجاور هناك عاما وبعض عام وأخذ فى خلالها مبادىء اللسان العربى » وهذا خطأ من العنحورى بيّن ، فقد تعلم الأفغانى العربية فى بلاده فى الطور الأول من حياته ، يقول ذلك الإمام محمد عبده فى ترجمته للأفغانى ـ وهو أعرف الناس به ـ يقول : « إنه قد درس علوم العربية فى الطور الأول من حياته التعليمية ببلاد الأفغان ، وإنه فى هذه الفترة قد تلقى علوما جمة برع فيها ، فمنها العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وكتابة » •

وكلام سليم عنحورى يؤكد أن جمال الدين لم يتعلم العربية إلا فى سنة ١٨٧٠ م

١ ـ السابق : ٢٣٣/١ نقلا عن مجلة المنار مجلد ٢٣ هامش ص ٤٣ •

حين قصد مكة ، بينما شهد العنحورى نفسه بأن السيد جمال الدين فى مجلسه فى قهوة « البوسطة » بالقاهرة أثناء إقامته فيهـا من عام (١٨٧١ـ١٨٧٩) : « كان يتحدث إلى جلسائه من طلائع المجتمع ومستنيريه فى أعقد الأمور بلسان عربى مبين لا يتلعثم ولا يتردد ، بل يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال ، فيدهش السامعين ويفحم السائلين ويبكم المعترضين »[١] .

وليس بصحيح كذلك ـ بناء على ما تقدم ـ ما ردده الشيخ محمد الفاضل بن عاشور فى التفسير ورجاله من قوله عن الأفغانى : « فاتخذت فكرة الأفغانى من بلاغة قلم تلميذه ونفوذ بيانه معارض برزت فيها صورها صافية ناصعة ، وقد تخلصت مما كان رائنا عليها من انقباض طبعه وتشاؤم نزعته ، وانحلت عنها عقدة العجمة التى كانت ترسف فى قيودها » [٢] .

ولعلها كلمة متأثرة بتلك الشائعة التى أشيعت عن جمال الدين الأفغانى والتى تزعم أن بلسانه عجمة ، فهى ـ كما قدمنا ـ غير صحيحة .

أهداف جريدة العروة الوثقى

أوضح جمال الدين أهداف الجريدة فى العدد الأول منها فى فاتحة هذا العدد حيث قال : « هذا ما تمده العناية الإلهية من قول الحق متعلقا بأحوال الشرق ، وعلى الله المتكل فى نجاح العمل » .

ثم استطرد جمال الدين يستعرض ظروف العالم الذى عاصره ، فتحدث عن القوة والأقوياء وعن نفوذ الأجانب والمستعمرين فى بلدان الشرق الإسلامى .

واهتم بتوضيح الحركة الفكرية فى الشرق والرغبة الملحة عند الناس فى التخلص من الأجانب ومن النفوذ الأجنبى .

١ ـ السابق : ٢٣٤/١ نقلا عن تاريخ الأستاذ الإمام : ٤٤/١ .

٢ ـ السابق : ٢٣٥/١ نقلا عن التفسير ورجاله لمحمد الفاضل بن عاشور ط القاهرة ١٩٧٠ م .

وصور ما بلغه الشرق الإسلامى وما وصل إليه الشرقيون من حال سيئة ، بلغ فيها عدوهم منهم ما يريد ووصل العدوان عليهم إلى نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته خصوصا فى المسلمين .

إلى أن قال : « إن الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها المتصلة ، بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها فأيقظت أفكار العقلاء وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التى أدت بهم إلى ما هم فيه ، فتقاربوا فى النظر وتواصلوا فى طلب الحق وعمدوا إلى معالجة الحق وعلل الضعف راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف ، وأن فى الحاضر منها لنهزة تغتنم وإليها بسطوا أكفهم ، لا يخالونها تفوتهم ، ولئن فاتت فكم فى الغيب من مثلها وإلى الله عاقبة الأمور » .

تألفت عصابات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل فى عدة أقطار خصوصا البلاد الهندية والمصرية ، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ، ويوحدون كلمة الحق فى كل صقع لا ينون فى السعى ولا يقصدون فى الجهد ولو أفضى بهم ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حى على حياته .

ولما كانت بدايتهم تستعدى مساعدة من يضارعهم فى مثل حالهم رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم ويحيون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالى أوربا ، وكتبوا على أنفسهم النظر فى أمر السلطة العامة الإسلامية وفروض القائم بها .

وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين وفيها وسم الحجيج العام فى كل عام يجتمع إليه الشرقى والغربى ، ويتآخى فى مواقعها الطاهرة الجليل والحقير والغنى والفقير ، كانت أفضل مدينة تتوارد إليها أفكارهم ثم تتبث إلى سائر الجهات ، والله يهدى من يشاء إلى سواء السبيل .

ولما كان نيل الغاية على وجه أبعدَ من الخطر وأقرب إلى الظفر يستدعى أن يكون للداعى فى كل قلب سليم نفثة حق ودعوة صدق طلبوا [١] عدة طرق لنشر أفكارهم بين من خفى عنهم شأنهم من إخوانهم ، واختاروا أن يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو اللسان العربى ، وأن تكون فى مدينة حرة كمدينة باريس ، ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم ، وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية تنبيهاً للغافل وتذكيرا للذاهل فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى [٢] أن ينشئ تلك الجريدة بحيث تتبع مشربهم وتذهب مذهبهم ، فلبى رغبتهم ، بل نادى حقا واجبا عليه لدينه ووطنه ، وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها ، فكان ما حمل الأول على الإجابة حمل الثانى على الامتثال وعلى الله الاتكال فى جميع الأحوال .

الجريدة ومنهجها :

سنأتى فى خدمة الشرقيين على ما فى الإمكان من بيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت .

ويستتبع ذلك البحث فى أصول الأسباب ومناشئ العلل التى قصرت بهم إلى جانب التفريط ، والبواعث التى دفعت بهم إلى مهامه حيرة عميت فيها السبل واشتبهت بها المضارب وتاه فيها الخريت[٣] وضل المرشد حتى لا يدرى السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة والمزعجات المدهشة والمدهشات القاتلة .

وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين ولبَّست

١ ـ لعله يقصد بالطالبين أعضاء « جمعية العروة الوثقى » التى تحدثنا عنها آنفا .

٢ ـ يبدو أن كاتب هذه السطور هو الشيخ محمد عبده .

٣ ـ الدليل الحاذق بخرت الأرض .

عليهم مسالك الرشد ، وتزيح الوساوس التى أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء أدوائهم ، وظنوا أن زمان التدارك قد فات وأن العناية بلغت حدها ٠

وتحاول إشراب الأفهام أن لا حاجة فى الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة ، تصورها ما يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم ، وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الإدبار عن المطلوب وهو تحت الجناح ، ويكفى فى الوصول إليه عطفة نظر وقطع بعض خطوات قصيرة ٠

وإن الظهور فى مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهى ما تمسكت به أعز دولة أوروبية وأمنعها ٠٠ ولا ضرورة فى إيجاد المتعة إلى اجتياع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى ، ولا ملجئ للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الأوربى فى نهايته بل ليس له أن يطلب ذلك ٠

وفيها أصدق شاهد على أن من طلبه فقد اوقر نفسه وأمته وقرا أعجزها وأعوزها ٠

وتنبه على أن التكافؤ فى القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية فإن فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوى لابتلاع الضعيف وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة المدبج بأشكال المجاملة شفافا ينم عما وراءه ، تنقب عن المسالك الدقيقة التى يسرى بها الطامعون فى دياجير الغفلات ٠

وتهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصا من التهم الباطلة التى يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم ولا وقوف على حقائق أمورهم وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ماداموا على أصولهم التى فاز بها آباؤهم الأولون ، ولا تهن فى تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون فى شئونهم مع اختيار الصادق وانتقاء الثابت ٠

وتراعى فى جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة فى أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها والسياسات القويمة التى لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين .

ومع كل هذا .. فهذه الجريدة تتبع سير الداعين إليها والحاملين عليها .. لا تظهر إذا أولجوا ، ولا تنجد إذا أغوروا ، وتذهب مذاهب الرشد ، وتصيب بحول الله مواقعه عند من سبق فى أزلى علم الله وهدايته ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وترسل إلى الذين نعرف أسماءهم مجانا بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير والغنى والفقير ، ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب إلى دائرة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته على النهج الذى يريده والله الموفق[1] .

وبعد هذا .. فما أتصور أحداً لم يعرف بهذا البيان هدف الجريدة ووسائلها فى الوصول إلى هذا الهدف .

وما أظن أحدا من المسلمين يستطيع أن يتوهم أن مثل هذا العمل لا يفيد الإسلام والمسلمين أكبر فائدة وبخاصة فى فترة تكاثر فيها أعداء الإسلام وتعاظم شر الطامعين فى بلاد المسلمين ، وأخذوا يتربصون بالإسلام وأهله الدوائر ، واستطاع كثير منهم أن يعيثوا فسادا فى بلاد المسلمين يستغلون خيراتها ويفرضون عليها سلطانهم ، ويباعدون بهذا وذاك بين المسلمين ودينهم وحضارتهم وثقافتهم .

ولعل هذه الأعداد التى صدرت من العروة الوثقى تقوم دليلا قويا ومستمرا على إخلاص جمال الدين الأفغانى وبراءة ساحته من تلك الشوائب التى يحاول بعض الباحثين ذرها عليه . فإن ما كتبه الرجل فى هذه الأعداد دليل : أقوى دليل على إخلاصه لدينه وتفانيه فى خدمة أمته .

---

١ ـ العروة الوثقى : ٤٦ ـ ٤٨ . ط بيروت ١٩٧٠ م .

تلخيص محتوى جريدة العروة الوثقى

اشتملت الجريدة فى أعدادها الثمانية عشر على مقالات وفصول نحب أن نشير إليها على وجه الاستقصاء فى العناوين التالية :

١ ـ فاتحة الجريدة ·

٢ ـ الجنسية والديانة الإسلامية ·

٣ ـ ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها ·

٤ ـ النصرانية والإسلامية وأهلهما ·

٥ ـ انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك ·

٦ ـ سبات من له حق .. وحراك من لا حق له ·

٧ ـ التعصب ·

٨ ـ القضاء والقدر ·

٩ ـ الفضائل والرذائل وأثرهما ·

١٠ ـ الوحدة الإسلامية ·

١١ ـ الوحدة أو السيادة أو الوفاق والغلب ·

١٢ ـ الأمل وطلب المجد ·

١٣ ـ رجال الدولة وبطانة الملك : كيف يجب أن يكونوا ؟

١٤ ـ كم حكمة لله فى حب المحمدة الحقة ·

١٥ ـ الشرف ·

١٦ ـ الأمة وسلطة الحاكم المستبد ·

١٧ ـ دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغان ·

١٨ ـ امتحان الله للمؤمنين ·

١٩ ـ ومن يضلل الله فما له من هاد ·

٢٠ ـ أسباب حفظ الملك •

٢١ ـ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض •

٢٢ ـ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم •

٢٣ ـ سنن الله فى الأمم وتطبيقها على المسلمين •

٢٤ ـ الوهم •

٢٥ ـ الجبن •

٢٦ ـ زلزال الإنجليز فى السودان •

هذا بالنسبة للمقالات والفصول والبحوث ، أما ما يتصل بالنتف والأخبار فنشير إليه على هذا النحو :

١ ـ سياسة انجلترا فى مصر •

٢ ـ مصر •

٣ ـ أعجوبة •

٤ ـ غريبة •

٥ ـ غوردون باشا •

٦ ـ كراهام وعثمان دجمة •

٧ ـ المسألة المصرية •

٨ ـ الإنجليز فى السودان •

٩ ـ صدى دعوة السودان •

١٠ ـ اضطراب سياسة انجلترا فى مصر •

١١ ـ برلمان انجلترا •

١٢ ـ الباب العالى •

١٣ ـ إيرلندا ٠

١٤ ـ الفرنسيون فى التوتكين ٠

١٥ ـ منشورات ٠

١٦ ـ الشيخ المرغنى ٠

١٧ ـ خرطوم ٠

١٨ ـ تحكم اللورد دوفرين ٠

١٩ ـ مقاصد انجلترا فى مصر ٠

٢٠ ـ حجة نوبار باشا ٠

٢١ ـ عثمان دجمة ٠

٢٢ ـ معاملة محمد أحمد « المهدى » للرسل المسيحيين ٠

٢٣ ـ أخبار أخيرة ٠

٢٤ ـ نصيحة ٠

٢٥ ـ الدولة العثمانية ٠

٢٦ ـ انجلترا فى سواحل البحر الأحمر ٠

٢٧ ـ عودة إلى خرطوم ٠

٢٨ ـ أمانى انجلترا فى حركات محمد أحمد ٠

٢٩ ـ الحزم والعزم ٠

٣٠ ـ أسطورة ٠

٣١ ـ القوة للحق ٠

٣٢ ـ الجرائد الإنجليزية والعروة الوثقى ٠

٣٣ ـ عجز ومراوغة ٠

٣٤ ـ انجلترا والجيش ٠

٣٥ ـ رأى المستر« بلنت » فى المسألة المصرية (انجليزى حُرّ يصف المصريين) ٠

٣٦ ـ بريطانيا ويدها الناعمة ٠

٣٧ ـ أضحوكة ٠

٣٨ ـ المسألة المصرية والإنجليزية ٠

٣٩ ـ هول الأمر على غوردون ٠

٤٠ ـ محاولة فى مصر ٠

٤١ ـ رأى الجرائد الفرنسية فى الإنجليز ٠

٤٢ ـ خديعة جديدة ٠

٤٣ ـ دسيسة أخرى ٠

٤٤ ـ الورطة الجديدة ٠

٤٥ ـ العروة الوثقى .. توضح ...

٤٦ ـ إسماعيل باشا ٠

٤٧ ـ نجد ٠

٤٨ ـ الصحف الهندية ٠

٤٩ ـ صفقة خاسرة ٠

٥٠ ـ أخبار سياسية ٠

٥١ ـ المسألة المصرية دولية ٠

٥٢ ـ منع العروة الوثقى فى مصر والهند وفرض غرامة على قرائها ٠

٥٣ ـ تصرف الإنجليز فى الهند ٠

٥٤ ـ نصيحة فى الأدب : إذا صادفت ظالما أو قابلت فاجرا فلا تقل له : أنت ظالم أو فاجر ٠

٥٥ ـ أخبار سياسية ٠

٥٦ ـ فى التوانى الهلكة ٠

٥٧ ـ منشور إنجليزى قديم ٠

٨٠ ـ تنبيه •

٨١ ـ مطلوب من توفيق باشا أن يموت شهيدا •

٨٢ ـ هؤلاء رجال الإنجليز وهذه أفكارهم •

٨٣ ـ اللورد نورث بروك حاكم مصر الجديد •

٨٤ ـ نكتة •

٨٥ ـ معارضة الإنجليز •

٨٦ ـ الدهريون فى الهند •

٨٧ ـ جريدة الأهرام •

٨٨ ـ لاهور •

٨٩ ـ الإنجليز والدول •

٩٠ ـ تعظيم توفيق باشا لنورث بروك •

٩١ ـ فرنسا وألمانيا •

٩٢ ـ كيد الإنجليز فى مصر •

٩٣ ـ الصراع بين انجلترا وفرنسا •

٩٤ ـ نكاية الإنجليز •

٩٥ ـ أسف ..

٩٦ ـ إسماعيل باشا يحن إلى مصر •

٩٧ ـ الفرصة •

٩٨ ـ جلادستون •

٩٩ ـ عماء بعض الناس فى مصر أو تعاميهم عن مقاصد الإنجليز فيها •

١٠٠ ـ اخفاق سعى الإنجليز •

١٠١ ـ الحق •

وعند التأمل فى هذه المقالات والفصول والنتف والأخبار نستطيع أن نتبين لها طابعا مميزا يمكن توضحيه فى الأمور التالية ٠

هى مقالات إصلاحية تستهدف أمرين رئيسيين هما :

أولا : تشخيص أدواء المسلمين وأمراضهم ٠

ثانيا : وصف علاج مشكلاتهم وتبصيرهم بأعدائهم ٠

ثم هى مقالات تستهدف فى مجموعها كشف نوايا الإنجليز بخاصة ونوايا المستعمرين بعامة ، ليسهل على أبناء العالم الإسلامى تدبير أمورهم بما يفسد خطط الأعداء ويفضح خداعهم وتضليلهم ٠

وتعد هذه المقالات من أهم ما وجه الرأى العام الإسلامى وما أثاره ضد أعدائه وبخاصة الإنجليز ، ولذلك فلم يكن مستغربا من انجلترا أن تناصب هذه الجريدة العداء وأن تحرم دخولها فى الهند ومصر وأن تفرض غرامة على قرائها ٠

ولقد سجلت بعض النتف التى نشرتها العروة الوثقى على بعض الحكام الضالعين مع المستعمر تحديهم لجريدة العروة الوثقى ومنعهم دخولها إلى البلاد التى يتولون إدارتها ٠

ولقد كانت الأخبار التى تحملها الجريدة إلى القراء تمثل روابط قوية بين المسلمين فى مختلف أوطانهم ، وإذا كانت الوسيلة الوحيدة ـ تقريبا ـ لاتصال المسلمين بعضهم ببعض ٠

الشُّبه التى أُثيرت حول جريدة العروة الوثقى

لعل الذين حركوا هذه الشبه وتلك الافتراءات حول العروة الوثقى وجمال الدين هم هم الذين رغبوا أن يشوهوا جمال الدين ، وأن يذروا على تاريخه التراب ، وما أبرىء هؤلاء من أى يكونوا مدفوعين إلى تشويه المصلحين من المسلمين استجابه لشهوة الحط من أقدار العظماء ، إن أحسنّا بهم الظن ، أو استجابة لما يردده أعداء

الإسلام والمسلمين الذين يحرصون على أن يجردوا الأمة الإسلامية من تاريخها ومن المخلصين من رجالها .

وقد أكثروا اللغط حول تمويل جريدة العروة الوثقى والإنفاق عليها ، حتى بلغ ببعضهم التهور أن زعموا أن دولا أجنبية أو هيئات مشبوهة هى التى تقوم بتمويلها . فكتب جمال الدين يقول : « ... نبهنا فى أول عدد صدر منها على أن القائم بها رجال من أهل الغيرة فى الشرق ، هموا بأعمال تفيد أوطانهم وملتهم مع رعاية جانب العدل والسير على وفق الحكمة ، ومن ظن أن توزيعها مجانا يقتضى أن تكون منسوبة لدولة من الدول أو شخص من ذوى المطامع فى إمارة أو ملك ، فإنما نشأ ظنه هذا من اليأس المستحكم فى نفسه والقنوط من نهوض همم بعض المسلمين بعمل صغير كهذا ، ولا يقنط من روح الله إلا القوم الكافرون .

هذه جريدة لا سعة فيها للتنابذ والتقاذف ولا يذكر فيها اسم شخص أو لقبه إلا إذا كان له قول أو عمل يفيد البحث فيه فائدة عامة »[١] .

فهذه شبهة أُثيرت حول جريدة العروة الوثقى وذاك رد جمال الدين عليها .

ومما أشاع المغرضون أن جريدة العروة الوثقى تعمل بما تثيره من قضايا على بذر بذور الفرقة والشقاق بين المسلمين وجيرانهم فى أوطانهم . فكتب جمال الدين يوضح ذلك فقال : « لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هده بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم ، ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ، ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما نميل إليه ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا من تطاول الأجانب عليهم والإفساد فى بلادهم .

وقد نخص المسلمين بالذات لأنهم العنصر الغالب فى الأقطار التى غدر بها

---

١ ـ العروة الوثقى : ٢٩٣ . ط بيروت ١٩٧٣ م .

الأجانب وأذلوا أهلها أجمعين واستأثروا بجميع خيراتها · وسنكتب مقالة مفردة فى هذا الباب إن شاء الله[١] ·

ولقد منعت حكومتا مصر والهند جريدة العروة الوثقى من دخول مصر والهند وكان هذا المنع ـ دون شك ـ بتوجيه من الإنجليز الذين كانوا يسيطرون على مقاليد الأمور فى مصر وفى الهند آنذاك ·

وكان هذا المنع صدمة للجريدة ولجمال الدين ومحمد عبده فكتب جمال الدين تحت عنوان : « منع العروة الوثقى فى مصر والهند وفرض غرامة على قرائها » يقول :

وانعقد مجلس الوزراء المصرى فى القاهرة واهتم بالبحث فى شأن « العروة الوثقى » ثم أصدر قراره إلى وزارة الداخلية المصرية قاضيا عليها بأن تشتد فى منع هذه الجريدة من دخول الأقطار المصرية وتراقب جولانها فى تلك الديار ·

فصدر أمر الداخلية إلى إدارة عموم البريد يلزمها بالدقة فى ذلك ، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغا من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيها (وهى غرامة جسيمة ربما دعا إليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الإنجليز فى مصر) ·

أما نحن فلا نظن أحدا من الوزراء المصريين له رأى اختيارى فى هذا القرار ، بل لا نتوهم فى المستوى على كرسى الخديوية ميلا إلى مثل هذا الحكم ، ولا يختلج فى صدورنا أن مصريا من أى مشرب كان ـ سواء المسلم أو غير المسلم ـ منهم ، بل ولا شرقيا ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه جانبا من العدل ·

هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم ، ولها سعى بل كل السعى لخيبة آمال أعدائهم ، ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القدح فى عمرو ، فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا ، وإنما عملها سكب مياه النصح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموما على الصفاء والوداد ·

---

١ ـ العروة الوثقى : ٣٠٩

تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى التى فغرت أفواهها لالتهامهم •

ومن رأيها أن الاشغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق التأهب • هذا منهاج العروة الوثقى ،علمهكل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها إلى الآن فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقيا مسلما أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره •

ولكنا نعلم أن حركات الآمرين فى القطر المصرى هذه الأيام قهرية لا يخالطها شىء من الاختيار ، والمدبر لرحى القهر عليهم هم عمال الإنجليز •

ولا نريد أن نقول للإنجليز أنهم ظلموا فى الحكم ، فان الجريدة لم يوجد فيها إلى الآن ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والأجنبية من كشف مساتيرهم وبيان الرزايا التى أصيبت بها الديار المصرية من حولهم لأنهم ـ الإنجليز ـ الذين أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين فى الهند وإقبال الناس عليه بالاعتبار ، أسرعوا بجلبه إلى ديوان الشرطة فعند وصوله إليها يفتح له الضابط مصحف قرآن أو كتاب حديث من الكتب المشهورة ثم يشير إلى آية من آيات الجهاد أو حديث مما يدعو إليه ويسأله : هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث ؟ فإذا قال نعم ، قال له : فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا ، فإذا أجابه : إننى درويش ملازم العزلة عن الناس وليس اعتقادى بهذا إلا لأنه كتاب دينى .. ضرب له الضابط أجَلَ أربعة أيام أو أقل يبين فيها رأيه فى الآية أو الحديث ، فإن مضى الأجل ولم يحرف العالم دينه ولم يبدل عقيدته ولم يبادر بإرسال تحريفه وتبديله وخروجه عن دينه إلى مطبعة من المطابع ليطبع وينشر ، بعثت به الحكومة إلى جزيرة أندومان نفيا مؤبدا •

ولو رأيت تلك الجزيرة لرأيتها غاصة بأمثال هؤلاء المظلومين ، فدولة الإنجليز التى تحاسب رعايا المسلمين على خطرات قلوبهم وما يمكن أن يهجس فى حديث نفوسهم لاريب أنها تعد وجود لفظ الإسلام فى جريدة كافيا لمنعها عن الدخول إلى بلاد لها فيها

قدم ثابت أو تسعى فى تثبيته ، بل تحسب أن من ألد أعدائها شخصا علق هذا الإسم من أى جنس كان ، فلا غرابة فى صدور مثل هذا الجور .

غير أننا نعلن لها أن همم الرجال لا تقعدها أمثال هذه المظالم ، وليس يعجزنا إدخال هذه الجريدة فى بقعة تحوطها السلطة الإنجليزية الظالمة ، ذلك بعزائم أولى العزم الذين قاموا بإنشاء العروة الوثقى .

بلغنا أن بعضا من الناس يسل سيفه ويشحذ سنانه لمناضلة الولى الحميم ويقابل ثناءه بالذم ومدحه وإحسانه بالإساءة ، ويواجه نصيحته بالظنة ، ولا نظن أن هذا منه عن عمد ولا إغراء عدو ، وإنما هو لشبهة حجبت نظره عن درك الحقيقة ، فإذا كشفت له الأيام عن الواقع رجع إلى الندم على ما صدر منه ، وكانت له مثابة إلى الحق وركون إلى الصواب .

لا يحزنن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر من الحكومة المصرية من منع العروة الوثقى من دخول القطر المصرى ، وليعلموا أن الحكومة المصرية لادخل لها فى هذا المنع ، فإن حكومة شرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شئ فيها سوى الدفاع عن الشرقيين .

وإنما منشؤه حكومة انجلترا ، وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها [١] .

وبعد فهذه جريدة العروة الوثقى أهم ما كتبه جمال الدين عندى ، وأول ما كتبه وهى دليل على اتجاهه وفكره وإخلاصه لدينه ، وتجرده لحرب أعداء هذا الدين من الأجانب المستغلين والحكام الظالمين ، وتظل مقالاته فى العروة الوثقى دليلا أقوى دليل على أنه من المصلحين المجددين لأمر هذا الدين .

---

١ ـ العروة الوثقى : ٣٢١ ـ ٣٢٣ : ط بيروت ١٩٧٣ م .

٤ ـ تتمة البيان فى تاريخ الأفغان

وهو كتاب وجيز فى تاريخ الأفغان يقع فى مائة وخمس وثمانين صفحة من القطع الصغير ، اعتنى بتصحيحه وطبعه على نفقته : على يوسف الكيريدلى صاحب ومحرر جريدة العلم العثمانى . كما جاء فى الصفحة الأولى التى تحمل عنوان الكتاب .

وكانت طبعته الأولى سنة ١٣١٨ هـ الموافقة لسنة ١٩٠١ م .

وقد أهدى مصحح الكتاب وطابعه الكتاب إلى الأمير عبد الرحمن خان أمير أفغانستان آنذاك .

كما ألحق المصحح بالكتاب نصيحة الأمير الأفغانى لولده حين تنازل له عن الملك ، فجاءت هذه النصيحة فى سبع صفحات ، فبلغت بها صفحات الكتاب اثنين وتسعين ومائة صفحة .

وقد قسم جمال الدين الأفغانى كتابه إلى :

١ ـ مقدمة .

٢ ـ أربعة فصول .

٣ ـ خاتمة .

وفى المقدمة :

تحدث جمال الدين عن سبب تأليفه للكتاب ، وفيها هجوم عنيف على الإنجليز ، وقد شغلت من الكتاب صفحتين .

وفى الفصل الأول :

تحدث عن اسم هذه الأمة ـ أى أمة الأفغان وقد شغل هذا الفصل صفحتين كذلك .

وفى الفصل الثانى :

تحدث عن نسب هذه الأمة فى سبع صفحات .

وفى الفصل الثالث :

تحدث فى ابتداء سلطانهم ـ أى الأفغان ـ وقيام زعيم منهم بأمر الملك ، وهو أوسع فصول الكتاب إذ يقع فى مائة وست عشرة صفحة .

وفى الفصل الرابع :

تحدث فى بيان الشعوب المختلفة الساكنة فى الأقطار المعبر عنها باسم أفغانستان ، وأخلاقهم وعاداتهم ومذاهبهم ، ويقع فى ثلاث وأربعين صفحة .

وفى خاتمة الكتاب :

تحدث فى ذكر أحوال البلاد الأفغانية : إجمالا من حيث الأهوية والأبنية والمزارع والصناعة والتجارة والمعادن ، وتقع هذه الخاتمة فى خمس صفحات .

وبها ينتهى الكتاب .

ولما لمقدمته هذا الكتاب من أهمية فى توضيح كراهية جمال الدين للإنجليز الذين يحتلون معظم بلدان العالم الإسلامى ، رأيت أن أذكر هذه المقدمة كاملة ، لما تلقيه من ضوء على هذا الكتاب .

يقول جمال الدين فى هذه المقدمة :

« لهجت الجرائد فى هذه الأيام بذكر أحوال الأمة الأفغانية المعروفة بعزة النفس وشدة البأس ، وعلو الهمة ، التى لم تسمح نفوسها بأن تستظل بظل العجز ، ظل المكر والحيل والخداع ، القاضى على المستظلين به بالذل والهوان .

ولم ترض الدخول تحت حماية الـحِضَجْر[1] المبتلى بجوع البقر ، والاستسقا الذى لم يشبعه ابتلاع مائتى مليون من الناس ، ولم يروه مياه « التيمس » والقنج ، بل فغر فاه ليبتلع بقية العالم ، ويجرع مياه النيل ونهر جيحون[2] ٠

وقادها ـ أى الأمة الأفغانية ـ شرف النفس لاختيار الموت الفاضل على الحياة الدنيئة تحت سطوة أجنبيين ، وإن اقترنت برغد العيش وطيب المطعم والمشرب ، فقام أميرها مستشيرا وزراءه الذين هم على أخلاقه ، وموصوفون بصفاته فى رد سفارة حكومة الإنجليز ، فاجتمعت آراؤهم على إرغامها برد سفارتها لما عهد فيها من نقض العهود والمواثيق والتهاون برعاية الذمم ، كما أرغمها آباؤهم فى الأزمنة الخالية ، حيث فتكوا برجالها وخدعوهم بحد سيوفهم ، وها هى مصارعهم تشهد بذلك إلى الآن ٠

فحدا بنا ذلك إلى ذكر مجمل أحوالها السابقة واللاحقة وعاداتها وأخلاقها ، ونمط حكومتها ، وطرز بلادها ، وذلك فى فصول ٠

---

١ ـ الحضجر : بكسر الحاء وفتح الضاد العظيم البطن الواسعه ٠ الفيروز آبادى : القاموس المحيط : ٢ / ١١ ط ـ الحلبى ـ مصر دون تاريخ على الطبعة ٠
وهو يقصد : الإنجليز ٠

٢ ـ علق مصحح الكتاب فقال : يشير المؤلف رحمه الله بقوله هذا إلى دولة انجلترا التى لم تصل إلى ما وصلت إليه من القوة الهائلة والمكانة الرفيعة إلا بجد رجالها واجتهادهم وخدمتهم لها بكل أمانة وإخلاص ٠ وحبذا لو نهض رجال الحكومات الإسلامية الجليلة وفقهم الله جميعا إلى ما فيه الخير والصواب ـ من رقدة الكسل والخمول واستيقظوا من نومهم وخدموا أمتهم وبلادهم بجد واجتهاد وصدق وأمانة وإخلاص حقيقى (كما يفعل الإنجليز وغيرهم من رجال الحكومات الغربية) لتسود أمتهم ويرتفع شأن بلادهم .. حقق الله الآمال ووفق أمراء الإسلام وملوكهم إلى صالح الأعمال ٠

الفصل الثالث :

مآخذ على جمال الدين الأفغانى

وفيه :

١ ـ رأيه فى الاشتراكية
٢ ـ رأيه فى التصوف
٣ ـ انضمامه إلى « الماسونية »

هذه المآخذ

تعمدت أن أتحدث عن هذه المآخذ التى أخذت على جمال الدين الأفغانى حتى يكون البحث منصفا لجمال الدين ، وأكون بهذا الإنصاف بعيدا عن دائرة المدح والمجاملة التى تخرج بالساعى فيها عن الحق فى كثير من الأحيان ، ونعوذ بالله من كل ما يصرف عن الحق وتتبعه •

وهذه المآخذ التى أخذت عليه تستحق من الباحث أن يناقشها ويرد على ما يستحق الرد منها •

وبعض هذه المآخذ أخذتها عليه أنا ولم أر من أخذها عليه غيرى كرأيه فى الاشتراكية ورأيه فى التصوف ، وأما انضمامه إلى الماسونية فقد أخذه عليه أكثر من باحث •

وليس معنى إيرادنا لهذه المآخذ أننا نسلم بكل ما جاء فيها ، وإنما الفيصل فى ذلك أن نناقش وندرس ثم نعرض الأمر كله على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فما وافق فليس بمأخذ وما خالف فهو المأخذ •

وبحسب الرجل — أى رجل — أن تكون حسناته أكثر من سيئاته ، ذلك أن الكمال لله وحده ، والعصمة ليست لأحد من خلقه إلا من اصطفى من نبى أو رسول •

وبحسب جمال الدين أن تكون المآخذ عليه هى هذه الأمور الثلاثة التى ذكرنا بعد أن وقفنا على حياة الرجل أطوارها وظروفها وملابساتها ، وبعد أن قرأنا ما كتبه الرجل فى الكتب والصحف والمجلات •

على أن الأمر — كما أسلفت — متوقف على أن تكون هذه المآخذ مما يخالف شيئا من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولن يستبين ذلك حتى نعرض هذه المآخذ ثم نناقشها ونرد عليها ، والله من وراء القصد وما نبتغى مما نقول سوى رضاه •

مآخذ على جمال الدين

١ ـ رأية فى الاشتراكية

لجمال الدين الأفغانى فى الاشتراكية رأى ، لم يأخذه عليه سواى ممن كتبوا عنه ـ فيمن أعلم ـ ولعلنى أوضح فى هذا المجال وجهة نظرى بما أرجو أن يكون إنصافا للرجل من جانب وإحقاقا للحق ـ الذى هو طلبة الباحث ـ من جانب آخر ·

يقول صفيه وخليله والأقرب إليه من كثير من تلاميذه ومحبيه محمد باشا المخزومى صاحب كتاب « خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى » يقول فى مجال توضيح رأى جمال الدين فى الاشتراكية ما نصه :

« ··· على أن المباحث التى كان يدور بها لسانه أثناء مناظراته الجدلية فى بيان عقائد من ذكرنا من المعطلين والماديين ، إنما كان المراد منها إظهار حقائق النحل بمعزل عن الاعتقاد بها والجنوح إليها ، بل مع تعقبها بالرد عليها وإقامة الحجج على بطلانها·

وهكذا اجتهاده فى بعض أحكام القرآن وتفسير بعض الأحاديث واستنباط الأحكام فى سيرة السلف ·

ومن أمثلة ذلك أن أحد كبار الأدباء وكتبة الأتراك كان يغشى مجلس جمال الدين ، وجمال الدين يحترمه لذكائه وحسن أدبه ، وكان أشد الناس حرصا على الاقتباس من آراء السيد من سائر من حضر أو تتلمذ عليه فى ذلك المحيط ·

أما الرجل فكان شديد الولوع بآداب الأمم الغربية كثير الإعجاب فى نهضتهم الاجتماعية ، وتوزيع أعمالهم وإعطاء كل فئة من المجموع قسطا من الاشتراك فى صالح الهيئة ·

فقال جمال الدين : ياحضرة السيد : إن خير مافى أوربا من النهضة هو « السوسياليست » الاشتراكية ، وهذه النهضة هى التى ستؤدى حقا مهضوما لأكثرية من الشعب العامل .

فإذا كان الدين الإسلامى أو المشيخة الإسلامية يقاومان مذهب الاشتراكيين فأرى هناك ثلمة لا تسد بسهولة وخللا يجب ملافاته بالحكمة فما رأيكم ؟

فقال جمال الدين : إن ماتراه من الاشتراكية فى الغرب وما تتوخاه من المنافع بذلك المذهب فى شكله الحاضر وأمسه ، وتخبط واضعى مبادئه ، كل ذلك يعكس نتائج الاشتراكية ويجعلها محض ضرر بعد أن كان المنتظر منها كل نفع .

والاشتراكية الغربية ماأحدثها وأوجدها إلا حاسة الانتقام من جور الحكام والأحكام ، وعوامل الحسد فى العمال من أرباب الثراء ، الذين إنما أثروا من وراء كدهم وعملهم ، وادخروا كنوزهم فى الخزائن واستعملوا ثروتهم فى السفه وبذلوها فى السرف والتبذير والترف على مرأى منتجها والفاعل العامل فى استخراجها من بطون الأرض ومن ترابها ... الخ وبالاختصار ثمرات عمل العمال بكل أنواع حاجة العمران .

فكل عمل يكون مرتكزا على الإفراط لابد أن تكون نتيجته التفريط ، أفرط الغربيون الأغنياء بنبذ حقوق العمال والفقراء وراء ظهورهم فأفرط العمال بمناهضة أهل الثروة وغاصبى حقوق الأمة بالمناصب ومسببات الجاه ، فلا قاعدة دينية يرجع إليها ولا سلطان وازع يعمل بقهر لصالح المجموع لذلك أصبح أمرهم فى الاشتراكية فوضى ولسوف ينعكس أمرها .

أما الاشتراكية فى الإسلام فهى ملتحمة مع الدين الإسلامى ملتصقة فى خلق أهله منذ كانوا أهل بداوة وجاهلية .

أول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالإسلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة وأعظم المحرضين على العمل بالاشتراكية كذلك أكابر الصحابة أيضا .

وإليك البيان : أما أن الاشتراكية من خلق البداوة فالبرهان عليه ما كان من أهل الثراء منهم ومواساته لأهل قبيلته وعشيرته ، ولا أعد كثيرا من ذلك بل أجتزئ بمن اشتهر منهم مثل حاتم الطائى فى السنين المجدبة وكيف أنه نحر أعز ماالديه وهو فرسه ، ذلك لمجرد مجيء امرأة من أقصى قبيلة طيىء إذ قالت له : ياحاتم ٠٠ قد قيل لنا إن عندك لحما غبيطا فأتيت بصبيتى ، فقال : صدقت ، ثم نحر فرسه وأشعل ناره ـ تلك العلامة التى كانت كدعوة للجموع يعلمون منها أن هناك طعاماً فيأتون لمكان الدخان فى النهار ولشعلة النار ليلا ، ويشتركون جميعهم فى المأكل دون أدنى مِنة لصاحبها ، لأن الأمر بينهم مناوبة يفعله الميسور والمثرى كل على نسبته وما لديه من سعة ٠

هكذا فعل حاتم مع من قصدته وأطفالها ، وبمن رأى النار ويمم نحوها من أهل جواره وقبيله ٠ وقد تواتر الخبر بأن حاتما لم يذق من ذلك اللحم شيئا مع كونه قرما سغبا ٠

وهناك رجل آخر من رجال العرب وهو طلحة الطلحات « كان شأنه أن كل أعزل معدم يأتيه يقول له : دونك الفرس والرمح والسيف فعسى أن تكتفى بها ذل السؤال وإن لم تفعل ولم تحسن العمل بها فلا أرشدك الله ولا أغناك »٠

يقال إن ذلك الرجل طلحة المثرى بالخيل والسلاح جهز على هذا المنوال المذكور ألف فارس ولم يبق عنده إلا ما أعطى لواحد منهم ، فكان كل فارس ممن جهزهم طلحة إذا أتاه غلام سماه طلحة ، فلم يمض كثير من الزمن إلا وكان فى تلك القبائل من أسماء أبناء أولئك الآباء مئات من ذلك الاسم فسمى « طلحة الطلحات »

هذا مثل من الاشتراكية قبل الإسلام ، ومنه يعلم أن الثروة كانت ولاتزال موجودة فى الأفراد ، ولكن حسن استعمالها ، وجعل نصيب منها للآخرين فيها يجعل الاشتراكية أمرا مقبولا ، وصفة ممدوحة ، إذ لا أنانية ولا إثرة ولا استطالة على الفقير بخيول مطهمة يستأثر بها ولا بطعام شهى يلتذ به مع لفيفه ، ولا ببناء شاهق يسكن

فيه ، بينما موجد ومسبب ومهيىء تلك النعم كلها ذلك العامل الفقير الذى يسكن كوخا حقيرا نصف أعضائه وأبنائه فى خارجه عرضة لصبارة القر وأوارة الحر ، لايملك من القوت خيرا كافيا ولا من الملبس مايستر به تمام العورة •

هذا ما عليه اليوم أهل الثروة ، وهذا ماستنفر طبقة العمال للمطالبة بالاشتراكية وفى فقيرهم روح الانتقام والإفراط فى المطالبة بحقهم يقابله التفريط فى زجرهم وعدم الرضوخ لما يطلبونه من الحق ، ولسوف يتفاقم الخطب وتعم من جراء ذلك البلوى فى الغرب ولا يسلم منها الشرق •

أما الاشتراكية فى الإسلام فهى خير كافل لجعلها نافعة مفيدة ممكنا الأخذ بها لأن الكتاب الدينى وهو القرآن أشار إليها بأدلة كثيرة منها :

أن المسلم أول ما يقرأ من فاتحة الكتاب « الحمد لله رب العالمين » فيعلم أن للخلق ربا واحدا وهو مع سائر الخلق من المربوبين على السواء ، ويرى ويعلم أن القرآن أتى على ذكر أرباب القوة ورجال الحرب والغزاة ومن يتولى إمرتهم وقيادتهم ، فخاطبهم آمرا ومدافعا ومبينا حقوق المستضعفين من الأمة الذين لم يتمكنوا من الاشتراك مع من ذكر ليكون لهم من ذلك الجهاد وتلك المساعى نصيب إذ قال : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » هذه آية باهرة أوجبت على كل من يسعى مجاهدا ومخاطرا بحياته أن يكون مشتركا معه بنتيجة غزواته وغنائمه من لم يكن مشتركا فعلا ، فأعطى أولا : لله تعالى نصيبا ، ومرجع ذلك النصيب لعباده ، ثانيا : للرسول ، ثالثا : لذوى القربى وهم لا شك من المستضعفين الذين إنما قعدوا عن الاشتراك فى الجهاد والسعى وراء الغنائم لعلل تختلف أشكالها وأنواعها ، ولكن الدين لم يجز حرمانهم بل جعل لهم نصيبا من مساعى أولئك الأشداء الأقوياء المجاهدين الخائضين غمرات الموت .... الخ •

كل ذلك نراه مبنيا على حكمة الاشتراك ، ولبث حكم هذه الآية جاريا وكان الرضاء به شاملا بمجموع المسلمين ، من مجاهد أو قاعد عن الجهاد لعلة ، فبدأ بالدرجة الأولى بعد الله ورسوله بذوى القربى من المجاهدين على درجاتهم ـ ممن ينظر بحاجات أولاد المجاهدين وعيلتهم عند تغيبهم ـ وعطف على من دونهم فى المرتبة الثانية ممن ليس لهم فى المجاهدين أقرباء فقال : واليتامى ، ثم وسع نطاق الاشتراكية فقال : والمساكين ، ثم رأى أن يأخذ نطاقا أوسع فقال : وابن السبيل أى عابره .. فتم بهذا الشكل نوع من الاشتراكية لم يكن أوسع منه شكلا ولا أنفع .

ثم جاء بموضوع آخر من الكتاب مقرعا لمن يكنزون الذهب والفضة ، ثم حبذ وأثنى على الذين يؤثرون على أنفسهم بالعطاء والإسعاف والإطعام ولو كان بهم خصاصة .

وهكذا نرى قانون الاشتراكية المعقول فى آيات القرآن تترى ، فلننظر هل عمل بهذا القانون وما كانت نتائج العمل به ؟

نعم إن الإخاء الذى عقده المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين المهاجرين والأنصار هو أشرف عمل تجلى به قبول الاشتراكية قولا وعملا ، فالمهاجر من المسلمين إنما استطاع أن يفر بدينه راضيا بهجره بلده وترك مسقط رأسه ومفارقة أهله وذويه والخروج من ماله ومقتناه مسرورا أن يصل لدار الهجرة سالما .

والأنصارى وهو فى بلده مع آله وذويه وماله ، قبل راضيا مسرورا أن يشارك أخاه المهاجر بكل معنى الاشتراك ، حتى لو تطلع الإنسان منا اليوم وأشرف على تلك الأرواح الطاهرة لرأى من مجالى الاشتراك روحا وجسدا ما ينبهر له عقله ، ولصح اعتقاده أن عمل الدين وتأثيره فى تلطيف الكثافة الجسمانية لا يضارعه مؤثر أو عامل آخر على البشرية ، ولرجعوا إليه لو كانوا يعقلون .

ثم قال : لما كان مذهب الاشتراكية كبقية المذاهب والمبادئ لها طرفان ، « وخير الأمور أوساطها » رأى الشارع الأعظم أن تنعم فريق من قوم وشقاء فريق آخر فى

محيط واحد وبمساع ليس بينها وبين مساعى الآخرين كبير تفاوت ، مما لايتم به نظام الاجتماع ، وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمؤمنين رحيما فجاءه عن طريق الوحى ـ وهو نتيجة تمحيص نزعات النفس البشرية وما عسى أن ينجم من المضار أو المنافع لها ـ فوضع للدين أركانا خمسة ، ومن تلك الأركان : « فرض الزكاة » فى المال والركاز والأنعام ... الخ . ثم أضاف إليها كما سبق غنائم الحروب فأخذ منها قسطا بمقدار الخمس ، ثم بعد ذلك حرص على بذل الصدقات وحرم الربا بنكتة غاية فى الحكمة ، وهى ألا يؤكل الربا أضعافا مضاعفة وهو ما وقع عليه التحريم ، ولكى يكون للإمام مخرج إذا قضت المصلحة بالتسامح للحكم بجواز الربا المعقول الذى لا يثقل كاهل المديون ولايتجاوز فى برهة من الزمن رأس المال ويصير أضعافا مضاعفة ، وفرق صراحة بين (احتيال المرابين المتلبسين بالدين الذين يتظاهرون بالتجنب عن الربا ببيعهم سلعة قيمتها الحقيقية مائة درهم يجرون عقد بيعها من المشترى المضطر بثلاثمائة درهم ، وحقيقة هذا الفرق إن هو إلا نصيب الربا وعينه ، وإنما يجعلونه عن طريق البيع ويخدعون أنفسهم بأنهم تخلصوا من ارتكاب جريمة الربا التى حظرها عليهم الدين .

وإليك بعض ماجاء بهذا الشأن بالقرآن : « الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله . ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » وقال : « يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

أما ماجاء فى الحث على الصدقات فكثير ، كقوله تعالى : « إن تبدو الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير ، وقال : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة

قلوبهم وفى الرقاب والمغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله » وقال : « إن الحسنات يذهبن السيئات » وأمثال ذلك كثير فى الكتاب والحديث حثا وتحريضا على البذل ومؤاساة الفقراء وأهل العوز درءا لمفاسد أرباب المطامع وسدا لعوامل حسد الحساد لأهل الثروة والنعيم ... الخ .

أما الثروة فتختلف بكميتها من مائة إلى ألوف ملايين من الدنانير ، ولكن لا تختلف بكيفيتها ، بمعنى أن رجلا يملك مائة دينار بين قوم لا يملك أفرادهم إلا دراهم معدودات فيمكن لصاحب تلك المائة أن يظهر بمظهر الثراء ، ويأخذ من النعم حظا نسبيا ، ويلفت أنظار قومه ويدعوهم لحسده ، هذا تمادى بالإثرة والأنانية ولم ينل قومه منه رشاشة فضل على حد قول زهير بن أبى سلمى :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم

ولقد قلنا عن زمن الجاهلية وعصر البداوة مافيه الكفاية ، ومختصره أن أعظم مثر كان يتساوى فى مسكنه ومأكله وملبسه مع أفراد قبيلته وعشيرته ، فلا تتحدث نفس من ذلك المجموع بأدنى حاسة من الحسد أو داع يدعوه إلى الانتقام .

ثم جاء الإسلام فكان أكبرهم منصبا وهو الخليفة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعمل بسيرة نبيه من الاكتفاء بالقليل من العيش والكفاف منه ومجالسة الفقراء ومشاركتهم بكل معنى الاشتراك فى مظاهر الدنيا ونعيمها .

لقائل أن يقول : إن شظف العيش فى زمن النبى - صلى الله عليه وسلم - وخلفائه كان يدعو بطبيعة الأمر إلى عدم التحاسد ، فنقول : إن الفتح الإسلامى فى زمن أبى بكر الصديق بلغ من الممالك مبلغا عظيما وجاء بالمغانم الكثيرة ، ومع ذلك لانرى أن وضعية الخليفة أبى بكر قد تغيرت ولا مظاهر وزرائه وقواده تبدلت ، ولا شكل حياة من أثرى من متّجرة العرب قد ظهر فيهم شىء بلفت نظر حاسد أو يجعل فى نفوس غيرهم أقل غصة .

ولاريب أن الفتوحات فى زمن الفاروق عمر بن الخطاب قد امتدت فصارت أوسع نطاقا ، والمغانم أعظم وفرا ، والنفوس البشرية مع هذه العوامل قل ما تنجو من تطلع للسرف والترف ، ومهيئات الاستطالة والأنانية ، وقد توفرت أسبابها ، وبالفعل - ورغما عن قرب العهد بسيرة الشارع وخليفته أبى بكر وتمسك الفاروق بسيرتهما - فقد أتته الأنباء الصادقة ممن بثه لمراقبة سير وسيرة عماله بأنه قد فشت لعامل مصر « عمرو بن العاص » وعامله فى دمشق « معاوية بن أبى سفيان » وغيرهما من العمال فى العراق وغيره هيئة بذخ وسرف وثراء ، فخشى معه حصول ميزة الأكاسرة لأولئك الأفراد من العمال الخادمين للمجموع ، ويصرفون سلطان الحكم ونفوذه بغير وجوه الحق فتدبّ النفرة على سبيل التدريج إلى نفوس الأمة من حكامها ، وبالأخير تنقبض تلك النفوس عن الطاعة الاختيارية ، وتفقد الثقة ويضعف الإيمان ويتزلزل البنيان ويعم البلاء والعياذ بالله ، فأسرع الفاروق لملاقاة ذلك الخلل بتقريع عماله بأخشن الأقوال عظة وتحذيرا وقتلا للغرور ، فخاطب عامله فى مصر بقوله : « إلى العاصى بن العاص ، ما أقطعتك مصر طعمة لك ولقومك ... » وبمثل قوله : « لا تبالى أن تحيا أنت ومن معك أن أموت أنا ومن معى .. » وبمثل قوله : « متى كان ابن العاص فى مثل ما بلغنى عنه من ثراء ودور وقصور » وبما معناه ... الخ .

وهكذا خاطب عامله بالشام معاوية بن أبى سفيان وهدده بأن يجتنب غطرسة هرقل وتعاظم الأكاسرة والقياصرة ، ولم يكتف بما قال بل أرسل معتمدا وبيده أمر مبرم أن يشاطر كل عامل بمقتضاه من ثروة ومتاع ، حتى إن ذلك المعتمد أخذ فردة نعل العامل وترك الأخرى .

هذا درس عملى وعلنى لملأ المسلمين ، أفهم فيه الفاروق الحاكم والمحكوم عدم سواغية الإثرة والاستطالة ، وعمل بذلك على محو دواعى الحسد من الصدور فعلا .

فلننظر ماذا فعل عمر بن الخطاب بما صادره من أموال العمال ؟ وماذا صنع بغانم كسرى وقيصر ؟ وماذا ظهر على هذا الخليفة من آثار عظمة الملوك والأمراء سواء فى

مسكنه أو ملبسه أو مأكله ؟ ظهر عليه مع كل ماتوفر لديه أن كان لباسه أحقر مايلبسه الفقير فى الأمة ، ومرقعته مشهورة فى تواريخ الأمم ، وأن فيها مع رقع الأقمشة رقعة من أدم أى من جلد ، وأما مسكنة فكان يقضى سحابة يومه فى سقيفة حقيرة يدخل إليها مطأطأ الرأس ينظر فى شئون الخلافة ويقضى وقت استراحته فى البقيع « جبانة الأموات »

وأما مطعمه فكان خبز الشعير الغالب عليه بينما كان يطعم الأيتام والأرامل والمستضعفين من المهاجرين والأنصار خبز البر والسمن والتمر ، وينيلهم كل ما كان منا له عزيزا إلا لأهل الثراء إذ ذاك .

هكذا كان يشاركهم مع نعيم الأغنياء ولا يشترك معهم فيه ، فضلا عن بذل المال للمحتاجين وقرض القروض لهم من بيت المال وإعطاء الجوائز لمن كان له أو لآبائه سابقة فى الإسلام بعشرات الألوف ومئات الألوف كل على حسبه .

فأهل الإسلام مع تمحض سلطان الحرية فيهم ، لم يروا فى سيرتىْ الصديق والفاروق ـ رضى الله عنهما ـ ما يدعوهم إلى أقل تذمر أو تململ أو تفكير بمناهضة لسلطانهما أو تألب على قلب أشكال حكمهما وإمرتهما ، أو إحداث شغب يعرقل مساعيهما فى الفتوحات ، بل كانوا يبذلون النفس والنفيس فى طاعة الخلفاء تأييدا لشوكة الإسلام وتعميا لعدل الشريعة السمحاء .

هذا كان موقف الخلفاء وحال الأمة معهم ، ولذلك تجلى العدل المطلق فى الأحكام والتزم الحكام للتقيد به وعملا .

وهكذا مضى زمن خلافة الفاروق وجاء زمن خلافة عثمان بن عفان ، خلالها ظهرت إثرة خاصة للأمويين تذمر منها الهاشميون وأكثر القرشيين وفى مقدمتهم أبناء الصديق والفاروق ومن كان على رأيهم .. الخ .

وفى زمن قصير من خلافة عثمان تغيرت الحالة الروحية فى الأمة تغيرا محسوسا ، وأشد ماكان منها ظهورا فى سيرة وسير العمال والأمراء وذوى القربى من الخليفة وأرباب الثروة بصورة صار يمكن معها الحس بوجود طبقة تدعى « أمراء » وطبقة « أشراف »

وأخرى « أهل ثروة وثراء وبذخ » وانفصل عن تلك الطبقات طبقة العمال وأبناء المجاهدين ومن كان على شاكلتهم من أرباب الحمية والسابقة فى تأسيس الملك الإسلامى وفتوحاته ونشر الدعوة ، وصار يعوزهم المال الذى يتطلبه طراز الحياة ، والذى أحدثته الحضارة الإسلامية إذ كانوا مع كل جريهم وسعيهم وراء تدارك معاشهم لا يستطيعون اللحاق بالمنتمين إلى العمال ورجال الدولة ، وقد فشت العزة والإثرة والاستطالة وتوفرت مهيئات الترف فى حاشية الأمراء وأهل عصبيتهم وفى العمال وبمن استعملوه وولوه من الأعمال ... الخ فنتج من مجموع تلك المظاهر التى أحدثها وجود الطبقات المتميزة عن طبقة العاملين والمستضعفين من المسلمين تكون طبقة أخذت تتحسس بشىء من الظلم وتتحفز للمطالبة بحقهم المكتسب من مورد النص ومن سيرتى الخليفة الأول والثانى أبى بكر وعمر .

كان أول من تنبه لهذا الخطر الذى يتهدد الملك والجامعة الإسلامية الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى ، فجاء إلى معاوية بن أبى سفيان وهو فى الشام وخاطبه بوجوب الرجوع إلى سيرة السلف وبتقليل دواعى السرف والترف ، وعدم التمادى فى مسببات الحسد ، والعمل على نزعها من العاملين من رجال المسلمين وذكر مواعظ كثيرة ، وعدد أخطارا جمة من وجود طبقة فقيرة عاملة مفكرة فى المسلمين يكتنفها شظف العيش وقلة ذات اليد بين ظهرانى قوم أكثرهم ممن لا سابقة لهم فى الإسلام ولا لآبائهم ، ولا من الصفات المحمودة ، ولا من المجهودات أو المميزات العلمية والجسدية ما يوليهم أو يعطيهم حق ما هم فيه من النعيم وطيب العيش والرخاء ، غير محض الانتماء والإدلاء بولاء لآل حرب وعمالهم .

فأجابه معاوية بما معناه : يا أبا ذر إن ماتقوله هو الحق ، ولكننى ليس فى استطاعتى الرجوع لا إلى سيرة الصديق وسيره ولا إلى العمل الذى كان يعمله الفاروق ، وغاية ما فى إمكانى الحث على بذل الصدقات والقول اللين إرشادا أو عن طريق الوعظ لتخفيف دواعى الحسد ، وغير ذلك فلا سبيل إليه .

قال : يا معاوية قد نصحتك والدين النصيحة فاحذر أنت والخليفة عثمان ما أنتما عليه ، وذهب من مجلس معاوية مغاضبا ، واجتمع مع طبقة المتألمين والمتذمرين من المسلمين وقص عليهم من سيرة السلف أشياء وأطلعهم على ما قاله عامل الشام معاوية بن أبى سفيان وأردفها بإعلانه مشاركته لهم فى كل ما يتحسسون به قلبا وقالبا • وبمختصر القول : إنه شجعهم على النهضة والمطالبة بحق صريح لهم اهتضمه جماعة بغير وجه شرعى ، ولا باجتهاد أمام سلف •

فكان من وراء عمل أبى ذر هذا أن حصل شيء من التهيج والانفعال النفسى ، ما خشى معه معاوية وأعوانه سوء المصير ، فجمع معاوية كيده واستنجد دهاءه ، وبعث لأبى ذر ليلا بألف دينار ، فقبلها أبو ذر وفى الحال بادر لتفريقها على الفقراء والمعوزين من المسلمين • وفى ثانى يوم أرسل معاوية رسولا ـ بتعليم منه فى الإرسال الأول وفى البعث الثانى ـ وقال : ياأبا ذر أنقذنى من عذاب معاوية ، فإن الألف دينار لم يرسلها إليك وإنما غلطت ، فقال أبو ذر : والله لم يبق معى من دنانيره ولا دينار ، فليمهلنى حتى آخذها ممن وزعتها عليهم من المستحقين فى المسلمين ، وعلم معاوية صدقه وضاق به ذرعا فكتب إلى الخليفة عثمان مستجيرا من إلقاءات أبى ذر ، وما أحدثه من التأثير فى النفوس ، فأجابه مستسرعا إرسال أبى ذر إليه فأرسله ، ولما تقابل مع عثمان لم يسمع أكثر مما سمع من معاوية وأنه لا يمكنه أن يفعل ما فعله الفاروق مع العمال من مصادرة ما عندهم من الثروة ولا أن يرجع ما كان من حال مجموع المسلمين فى عهدى الصديق والفاروق إلا عن طريق الحث على بذل الصدقات والإحسان فقط •

فقال أبو ذر «ياعثمان أما تذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعناه : إذا وصل البناء إلى سلع واستعلى فى المدينة •• وفشت •• الخ وجبت الهجرة ، أو كما قال فى مكان آخر : ياعثمان إن النبى صلى الله عليه وسلم أمرنى بالخروج منها إذا بلغ البناء سلعا » • وهو جبل فى المدينة • فها قد استعلى بناؤك وبناء قريبك معاوية

وأعوانكما . فاستودعك الله تاركا لك ولمن استعملت من العمال « أعمالكم » والله من ورائكم محيط .

فألح عثمان على أبى ذر ألا يفعل ، فقال أبو ذر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى أن يتبع ، وبالفعل قد هاجر أبو ذر من المدينة .

كان فى عمل أبى ذر هذا أنه قد أخذ يمحض النصح لخليفة المسلمين إذ ذاك « عثمان » وينصح عماله بالدفاع عن حقوق المسلمين كى لا تتكون طبقة اشتراكية يكون رائدها « الانتقام » بل دعاهم إلى العمل بنص القرآن والاقتداء بمن طبق ذلك النص عملا من الخلفاء كأبى بكر وعمر .

هذا مختصر ما علم به الدين الإسلامى من الاشتراكية المعقولة النافعة للمجموع الإنسانى وما عمل به أكبر خلفاء الإسلام ، وكل اشتراكية تخالف فى روحها وأساساتها اشتراكية الإسلام التى سبق ذكرها فلا تكون بنتيجتها إلا ملحمة كبرى ، وسيل الدماء ولا سيل العرم من الأبرياء ، ومن تخريب لبناء لا يشاد عليه شىء ينتفع به أحد من الخلق .

نعم يستفيد من يلوك بلسانه كلمة الاشتراكية ويجعلها أحبولة صيد ، وهى كلمة حق يراد بها الباطل .

أكرر القول : إن اشتراكية الإسلام هى عين الحق ، والحق أحق أن يتبع »[1]

هذا ما قاله جمال الدين فى الاشتراكية نقلته بنصه ـ على طوله ـ لكى أقف عنده أناقش وأوضح وأستشهد بكلماته من خلال هذا النص الطويل .

أحب أن أناقش ما كتبه جمال الدين عن الاشتراكية فى ضوء تفكيرى واجتهادى ولا أقصد من وراء ذلك إلا إنصاف الرجل ـ ومن إنصاف الكاتب أى كاتب أن يقال ما له وما عليه ـ فأقول :

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ط بيروت ١٩٦٥ م ـ ١٣٨٥ هـ ص ١١٨ ـ ١٣٠ .

إن جمال الدين الأفغانى ـ استجابة منه لسؤال السائل ورغبة فى إقناعه بأن الإسلام قد جاء بأحسن مما جاءت به المذاهب الأوربية الحديثة • قد أعطى الاشتراكية أكثر مما تستحق حينما قال : « إنها خلق البداوة » وحينما قال : « إنها ملتحمة مع الإسلام ملتصقة فى خلق أهله » ، ورفع من شأنها حيث ما كان له أن يفعل عندما قال : « إن أول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالإسلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة وأكابر الصحابة عموما »

ونحن لا نسلم بما قال به جمال الدين من أن الخلفاء الراشدين أو كبار الصحابة وهم يتصرفون بما يملى عليهم دينهم قد كانوا يطبقون الاشتراكية ، إنما هم كانوا يطبقون الإسلام ، والإسلام هو خير دين وأكمل نظام للمجتمع البشرى فى مختلف الأزمنة والأمكنة ، يأمر الناس بكل خير وينهاهم عن كل شر ، وليس يصلح الناس فى دنياهم وآخرتهم اشتراكية أو رأسمالية أو غيرهما ، وإنما هو دين الإسلام فحسب •

لست مع جمال الدين فى فهمه الاشتراكية بمعنى المشاركة والرغبة فى المساواة والوقوف إلى جانب المعوزين لسد حاجاتهم ، وعدم استطالة الأغنياء على الفقراء بجاههم وسلطانهم وثروتهم الصامتة والناطقة ، إذ الاشتراكية •• وبخاصة ما سأل عنه السائل ـ هى ذلك المذهب السياسى المعاصر الذى ساد فى القرن التاسع عشر الميلادى فى أوربا وأورثها مزيدا من القلق والاضطراب ، والذى قام على أساس الضيق بالمذهب الرأسمالى والانتقام منه ومن أهله ، الاشتراكية التى كان لها فى هذا العصر دعاة ومروجون لم يستطيعوا أن يتفقوا فيها على رأى أو منهج ، وإنما اختلفوا فيما بينهم اختلافا بينا :

فمنهم من دعا إلى الاشتراكية التعاونية ونادى بإقامة مدينة فاضلة فى شكل وحدات اقتصادية صغيرة مكونة من ألف وستمائة وعشرين شخصا سماها : « الفالانستير » مثل « فوربيه شارل » و « برودون » و « لاسال » وغيرهم •

ومنهم من دعا إلى اشتراكية تقوم على إلغاء حقوق الإرث ونظامه كما فعل « سان سيمون » صاحب كتاب : « فى الملكية والتشريع » الذى أصدره عام **١٧٢٥** م

ومنهم من نادى باشتراكية تقوم على إلغاء الملكية الخاصة ، ومنهم من كان ساخطا على نظام النقود والربح داعيا إلى إلغائها ، وهم جمهور كبير من دعاتها ·

ومنهم من حقد على كل أولئك واتهمهم بأنهم اشتراكيون خياليون ، إذ يتصورون الإصلاح بدعوة الناس إلى الاشتراكية ، واعتبر ذلك من أولئك المفكرين قمة الهذيان ، ونادى بأن الاشتراكية مرحلة حتمية تئول إليها الرأسمالية ، بناء على قوانين لا قبل للأفراد بمعارضتها وأقام تحليله ذاك على أساس تنازع الطبقات وأطلق على أفكاره تلك « الاشتراكية العلمية » وهو كارل ماركس · وقد استطاع كارل ماركس أن يجتذب إلى معارضة أفكاره بكل القوة عددا غير قليل من المفكرين أمثال : « سدنى » و « بياترس·و·ب » و « جورج برناردشو » حيث نادى هؤلاء بما أسموه الاشتراكية التطورية أو الديمقراطية · ومن أمثال : « كول » و « سورييل » اللذين ناديا باشتراكية نقابية ، ومن أمثال : « فردريك موريس » و « تشارلز كنجزلى » اللذين ناديا باشتراكية مسيحية » (١)

فالذى أراه أن جمال الدين يتحدث عن اشتراكية أخرى غير تلك الاشتراكية الضارية التى عرفتها أوربا وروسيا وأدت فى النهاية ـ لدى الروس ـ إلى سحق الإنسان لاسد حاجاته ، وليت جمال الدين حيٌّ الآن ليرى مافعلت وماتفعل الاشتراكية بالطبقات الكادحة من العمال والفلاحين حيث حولتهم إلى آلات لا تعى ولا تحس ولا ترى إلا من خلال الثقب الضيق الذى ينظر من خلاله الحزب الاشتراكى الحاكم إلى الناس والأشياء ، الاشتراكية التى ذكرها جمال الدين شيء يختلف اختلافا كبيرا عن الاشتراكية التى سأل عنها السائل ·

---

١ ـ المؤلف : لهم نظرياتهم ولنا ديننا · بحث نشر فى مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية فى العدد الخامس سنة ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م

والآيات الكريمة التى استشهد بها جمال الدين لم تسعفه أبدا ليستدل بها على الأخذ بمبدأ الاشتراكية المعروف آنذاك ٠

فآية : « الحمد لله رب العالمين » تدل على مساواة الناس فى العبودية لله أكثر مما تدل على أنهم شركاء أو اشتراكيون فى رب واحد ٠

وآية : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه ٠٠٠ » الآية تشريع يلزم المجاهدين بأن يتنازلوا عن خمس الغنائم التى يغنمون لتقسم على النحو الذى فصلته الآية الكريمة استجابة لأمر ربهم إن كانوا مؤمنين حقا ، فهى دليل على كمال الإيمان عند هؤلاء المستجيبين لأمر الله أكثر مما تدل على أنهم اشتراكيون إذ قبلوا أن يشاركهم من لم يخرجوا معهم لغزو وجهاد ٠

وآية : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله » ٠٠ الآية توجب على المسلمين الزكاة ، وتحثهم على التصدق على الفقراء لدفع الحاجة عنهم ، وليست اشتراكية بالمعنى المعروف عن الاشتراكية لدى الأوربيين وغيرهم ٠

وأستطيع أن أقول : إن استعمال جمال الدين لكلمة الاشتراكية على النحو الذى ذكر إنما هو من قبيل المجاز فحسب ٠

وكذلك تصور جمال الدين للمؤاخاة التى عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار على أنها اشتراكية بهذا المعنى تصور مجازى فقط ، لأن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كانت نمطا فريدا فى إيجاب الإسلام على المسلمين تلك المواساة الفذة فى نبلها وشموخها لإخوانهم الذين هجروا ما يملكون من أجل هذا الدين ، فنحن نظلم هذه المؤاخاة أيما ظلم حينما نسميها اشتراكية ٠

أما كلام جمال الدين عن الصحابى الجليل أبى ذر الغفارى ، وادعاؤه بأن أبا ذر ينادى بالاشتراكية ففيه تجاوز لما أراده أبو ذر وما نادى به ، وما أراده أبو ذر يمكن أن يفهم من الحوار الذى دار بينه وبين معاوية رضى الله عنهما ، فيما يرويه أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى بسنده قال : « لما ورد ابن السوداء الشام لقى أبا ذر فقال ياأبا ذر :

ألا تعجب إلى معاوية يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين ، فأتاه أبو ذر فقال : ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟ قال يرحمك الله يا أباذر ، ألسنا عباد الله ، والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ٠٠ قال : فلا تقله ، قال : فإنى لاأقول إنه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين ٠٠٠

وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول :«يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فمازال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس ٠٠٠ » [١]

فهذا الحوار يدل على أن أبا ذر يطالب معاوية بأن يستعمل كلمة مال المسلمين بدل كلمة مال الله حرصا على هذا المال أن يحرم منه أصحابه المسلمون ، ويطالب الأغنياء بمواساة الفقراء ، ويرى أن معاوية بل الخليفة عثمان بن عفان يجب أن يلزموا الأغنياء بمواساة الفقراء ، كما هو واضح من بقية كلام الطبرى ، وليست اشتراكية يدعو إليها أبو ذر رضى الله عنه ٠

وأما قول جمال الدين عن معاوية رضى الله عنه : « فجمع معاوية كيده واستنجد دهاءه وبعث لأبى ذر ليلا بألف دينا ٠٠٠ الخ » فلست معه فيما وصف به معاوية رضى الله عنه من أوصاف لا تليق بصحابى جليل من كتبة الوحى ٠

مع أن المؤرخين الثقات كالطبرى فى تاريخه حيث أشرنا ، والمسعودى فى كتابه مروج الذهب [٢] لم يذكرا هذا الذى عزاه جمال الدين إلى معاوية رضى الله عنه من الاحتيال على أبى ذر بالمال وإحراجه بطلبه ثانيا ، ولم أر هذه القصة التى ذكرها جمال الدين عن احتيال معاوية على أبى ذر إلا فى كتاب الكامل لابن الأثير [٣]

١ ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى : تاريخ الأمم والملوك : ٦٦/٥ ط الأولى الحسينية القاهرة

٢ ـ ٣٣٩/٢ ط بيروت ١٣٨٥ ـ ١٩٦٥ م

٣ ـ ٥٦/٣ ط بيروت ١٣٨٧ ـ ١٩٦٧ م

والفرق واضح بين ما يكتبه الطبرى والمسعودى وما يكتبه ابن الأثير من حيث الثقة والدقة فى المادة العلمية ، وقد لحظت على ابن الأثير فى قصة أبى ذر مع معاوية أنه ينقل نقلا حرفيا عن الطبرى دون أن يشير إلى ذلك ، وحسبك ذاك فى الثقة فيما يقول ·

وما قاله جمال الدين الأفغانى عن الاشتراكية ليس فيه شيء يخالف نصا فى كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يقل فيما قال شيئا يمس عقيدته أو تدينه أو خلقه ، وإنما مجمل ما أخطأ فيه ـ عندى ـ وهو خطأ نشأ عن اجتهاد منه ـ حين عزى هذه الاشتراكية إلى الإسلام وحين ادعى أن كبار الصحابة قد عملوا بها ·

وهنا نقف مع جمال الدين وقفة متأملة لنقول له : إن مافهمه من الاشتراكية فى البداوة ـ قبل الإسلام ـ على أنها كرم ونجدة واستجابة لدواعى هذه الفضيلة بإطعام الطعام وسد حاجة المحتاج ، ليس صحيحا ولا مسلما ، وإنما جُل ما فى الأمر أن هناك تشابها بين هذه الأعمال وبين ما تدعو إليه بعض مذاهب الاشتراكية الحديثة ·

وكل ما فهمه جمال الدين من الاشتراكية ـ مما أوضحناه من قبل ـ هو على لإجمال اجتهاد فى الفهم وليس خطأ فى فهم الاشتراكية أو فى فهم الإسلام ، وإنما خطؤه ـ عندى ـ أنه استجاب لتلك الرغبة التى تولدت فى نفوس المسلمين فى هذا العصر ، بعد اتصالهم بأوربا وانبهار كثير منهم بحضارتها المادية ـ والتى تدفع بعضهم إلى المبادرة إلى القول بأن الإسلام يقر مذاهب أوربا السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ، وبخاصة فيما يبدو مفيدا من هذه المذاهب ـ فى نظر بعض الناس ـ كالاشتراكية والديمقراطية وغيرها ، ولم يكن جمال الدين بدعا فى هذا ، وإنما شاركه عدد من الكتاب وعدد من المصلحين ، ووجه الخطأ فى هذه المبادرة ـ فيما أرى ـ أنها توحى بأن الإسلام ينقصه أن يقر الاشتراكية أو يعترف بالديموقراطية حتى يحقق مصالح الناس ، وحتى تسد الثلمة التى تحدث عنها الرجل الذى سأل جمال الدين ، مع أن اليقين كان ولا يزال قائما بأن الإسلام دين الله الذى ارتضاه لخلقه آخر الأديان

وأتمها ، فهو بما هو عليه مما عبر عنه القرآن الكريم وفصلته سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينت خطوطه سيرته الطاهرة ، اليقين قائم بأن هذا الدين محقق لمصالح البشرية كلها عاجلها وآجلها ، وليس هو بحاجة إلى أى مذهب أو نظام يستعين به على تحقيق مصالح الناس .

وأحب أن أوضح أن القول بأن فى الإسلام اشتراكية أو ديموقراطية يوحى بأن قائله يعانى من تصور خاطىء بتكامل هذه المذاهب أو قدرتها على تحقيق مصالح الناس فى الدنيا ، مع العلم بأن هذه المذاهب ليست متكاملة ولا قادرة على تحقيق مصالح الناس .

فالاشتراكية بما تثيره من حتميات الصراع الطبقى وحتميات الحلول ، إنما تتنكر بهذه الحتميات المضللة لأبسط المبادىء الإنسانية فى الحياة الحرة ، فتلغى بحتمياتها كل فرصة لحرية الإنسان ، وتسد بها الطريق فى وجه أى نسمة من نسمات الحياة الإنسانية الكريمة .

وفى الوقت نفسه فإن حقيقة الأمر فى هذه الحتميات أنها ليست حتميات على الإطلاق كما أثبتت ذلك كثير من تجارب التطبيق لتلك المبادىء فى روسيا نفسها وفى غيرها من البلاد الدائرة ـ على غير وعى ـ فى فلكها » [١]

والحق الذى يجب على كل مسلم ـ وعلى كل منصف ـ أن يؤمن به ، أن هذا الدين الإسلامى ـ كما شهد بذلك التاريخ والواقع وكما يؤيده ما فيه من مبادىء ـ غنى بمبادئه عن أى مبادىء أخرى قديمة كانت أم حديثة ، وصدق الله « مافرطنا فى الكتاب من شىء » وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتى »

---

١ ـ للمؤلف : مع العقيدة والحركة والمنهج فى خير أمة أخرجت للناس : نشر جامعة امام محمد بن سعود الإسلامية ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م .

ولعل الظروف السيئة التى كان يمر بها العالم الإسلامى فى الفترة التى عاشها جمال الدين والتى كانت بلاد المسلمين أغلبها واقعة فى قبضة عدو أجنبى متغلب بجيوشه وفكره وثقافته ومذاهبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، لعل ذلك هو الذى جعل جمال الدين يبادر ـ كلما تحدث عن مزايا الحضارة الأوربية متحدث ـ إلى القول بأن هذا المذهب ـ الذى يستحوز على إعجاب الناس ، أو ذاك المذهب الذى يدعى أنه يحل مشكلات المجتمع ـ فى الإسلام مثله ، أو القول بأن الإسلام لا ينكره ، ولكنها على كل حال حقيقة واضحة نسجلها على جمال الدين وعلى غيره من المفكرين ، وهى أن ذلك الاتجاه يدل على أن القائلين به مغلوبون يعانون من الغالبين ويشعرون نحو مبادئهم شعور المنخدع بها على كل حال .

٢ ـ رأيه فى التصوف

كان جمال الدين واسع الأفق متنوع الثقافة ، نفذ من خلال فقهه للدين الإسلامى إلى معرفة للأديان الأخرى كاليهودية والمسيحية ، وكان يدرك حقيقة الأديان كلها ويعرف أهدافها فى الناس والحياة كما جاءت من عند الله سبحانه ، وله فى ذلك كلمات وكتابات : فمن ذلك ما كتبه جمال الدين عن الأديان الثلاثة حيث قال ما ملخصه :

« إن الأديان الثلاثة : اليهودية والمسيحية والإسلام متفقة فى المبدأ وهو إرشاد الخلق إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ، بعبادة الله وبيان الحلال والحرام وصون مصالح العباد بما شرعه لهم الله من الشريعة التى ألزمهم العمل بها .. » .

وقد أخذ عليه بعض الناس قوله « بأن أصول الأديان الثلاثة واحدة .. » فرد جمال الدين على هؤلاء ، فجاء رده بحثا صوفيا ، أردنا أن نعرض له لنرى رأيه فى الصوفية ، حرصا منا على إنصافه ورغبة فى إحقاق الحق .

ومما جاء فى رده ذاك عن التصوف قوله : « إن أمر التصوف لم يكن فى المسلمين فقط ، بل رجال أديان الكتب السماوية كانوا على حقيقة من التصوف فى المعنى ، واختلاف فى صور الألفاظ وشكل الإلقاء أو الفهم الذى يريد الرئيس أو المسيطر أن يحور به المعنى على حسب ما يرتئيه نافعا ومفيدا وموافقا للغرض فى حينه .

فآيات التصوف فى التوارة أكثر إغلاقا مما فى الإنجيل مثل قوله : « إسرائيل ابنى البكر » فاليهود مع وجود هذه الآية فى التوراة ما ذهبت ولا اعتقدت أن الإله له ابن أو يجوز عليه ما يجوز على البشر من أشكال التناسل والولادة أو الزوجة والولد .

ومثل هذه الكلمات والأقوال لا يسعنا إلا أن نقول : إنها « تصوف » أو ألفاظ لمعان حقيقتها غير ظاهر ألفاظها ·

وكثيرا ما تأتى أقوال المتصوفة على صورة من الإيهام بالنسبة لبعد ما بين منظورهم بالبصيرة والحس الروحى وبين ما يرى الأشياء المحسوسة ولها قوالب ألفاظ مألوفة تدل على معناها بعكس المرئى والمشاهد فى الحس الروحى ·

ومواجد أهل التصوف الذوقية التى يقصر ما لدينا من الألفاظ عن تصويرها والدلالة عليها ، فالتصوف يجب أن نفهمه على أنه : مذهب حكماء وعقلاء « تريضوا » أى هذبت ولَطَّفت جسمانهم الرياضة ، وكثر منهم النظر فى الأشياء والتطلع إلى حقائقها وفهم كنهها عن طريق الحس الروحى والانفعال فى النفس المتعلقة فى الجسم مؤقتا ·

فهم فيما كانوا يرون ويقولون فى مواجدهم ومشاهدهم وذوقهم ، إما أن يراه من كان من غير طبقتهم غير معقول وغير مفهوم ، وإما أن يسىء فهم معناها إذا أخذه على ظاهر لفظه[١] ·

ثم علق محمد باشا المخزومى قائلا : كان بحث جمال الدين فى التصوف وفى أن الأديان الثلاثة متفقة فى المقصد والغاية وأن غرضها تعليم التوحيد ، وأن تعمل لخير الإنسان ، فى محفل حافل فى بيته ، وكان من جملة الحاضرين طبيب السيد ـ وهو موسوى ـ فبعد أن انفض المجلس قال الطبيب : يا أستاذ : إن النصرانية لا تعلم التوحيد بل أساسها قائم على التثليث ، بعكس الموسوية والإسلام ·

والإنجيل طافح بمثل أقوال المسيح : « أنا فى الأب ، والأب فى »

ومثل قوله : « أيها الأب مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضا » ·

فقال جمال الدين : إن المسيح عليه السلام وضع أساس تعليمه والغاية من مجيئه أن يكمل الناموس لا أن ينقضه ، وناموس موسى بنى على التوحيد فلا يصح نقض

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى : ١٤٠ ـ ١٤١

ذلك الأساس ، وإن ورد فى بعض الأقوال ما يخالف ظاهرها ذلك الأساس وجب الرجوع إلى التأويل كما قدمنا ، وأن لا يرمى أى دين بالضعف والوهن ·

وأما أمثال قول المسيح : « أنا فى الأب والأب فى » فقد ورد عنه قوله : « أبى وأبيكم » و« كلهم أبناء الله يدعون » ·

وفى التوارة كم ذكرنا جاء : « إسرائيل ابنى البكر » وهذه الأقوال تصوُّف محض ·

وورد فى كلام أهل التصوف من المسلمين أقوال مغلقة مثل قول الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، والخواص ، والجنيد ، والحلاج ، والجيلى ، وابن مشيش ، والسهروردى ، والبكرى ، وغيرهم .. وإليك أمثلة من ذلك :

يقول الشيخ الأكبر فى بعض صلواته : « اللهم يا من ليس حجابه إلا النور ، ولا خفاؤه إلا شدة الظهور ، أسألك بك فى مرتبة إطلاقك عن كل تقييد ، التى تفعل فيها ما تشاء وتريد ، وبكشفك عن ذاتك بالعلم النورى ، وتحولك فى صور أسمائك وصفاتك بالوجود الصورى » ·

وقول السيد البكرى : « نعم العبد الذى به كمال الكمال ، وعابد الله بلا حلول ولا اتحاد ولا اتصال ولا انفصال » ·

ثم قال جمال الدين معلقا على هذه الكلمات : « ترون من هذه الكلمات المتناقضة ظاهرا ، إنما أراد نفى الحلول الذاتى فأنى لذلك بنفى الحلول أولا ، وإلا كيف يعقل لو بقينا على مفهوم الظاهر من معنى الكلمات أن المتصل بالوقت ذاته يكون منفصلا ·

فمعانى التصوف وإن كانت مغلقة فى الغالب لا يفهمها إلا أصحاب الذوق والمواجد ، ويعسر على غيرهم تناول فهمها ، فلا بأس من التقريب فى التأويل لينتفى غير المعقول ·

وخير مثال يقرب للعقل المفهوم فى مثل هذه الحال والأقوال : « المرآة » التى تمثل

الشيء تماما فيفتح بهذا المثل بعض مغلقات ما ذكر من كلام المتصوفة ، فإذا قابلت المرآة الشمس ، رأيتها فى المرآة ، ولا يعترى الإنسان أدنى شبهة أنها الشمس على غير طريقة الحلول فى المرآة ، ولا على صورة الاتحاد أو الاتصال أو الانفصال .

وحقيقة ذلك المرئى من الشمس . إنما تجلى فى المرآة لشفافيتها ، وبتلك الشفافية حصل ذلك الانطباع على تلك الصورة على غير حلول ولا ... ولا ... الخ .

ومن الأمثلة قول ابن مشيش : « وانشلنى من أوحال التوحيد وأغرقنى فى عين بحر الوحدة ، حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها ، واجعل الحجاب الأعظم حياة روحى ، وروحه سر حقيقتى ، وحقيقته جامع عوالمى بتحقيق الحق الأول ، يا أول يا آخريا ظاهر يا باطن ... الخ .

وقول الحلاج : « ما فى الجبة غير الله » ...!!!

ثم قال : إذا علمنا أن تجلى الشمس فى المرآة حصل لشفافيتها ، هكذا تجلى الذات فى خلقه عندما تتلطف الكثافة الترابية الجسمانية وتشف الروح وتتمكن من اتصالها بعالمها ، نرى من الذوق فى الشهود ما لا يسعه إلا التعبير بالمتناقضات ظاهرا كما تقدم ، وليس ثمة تناقض .

وكلام المسيح عليه السلام إن هو إلا غاية فى التصوف ، ولا يصح حمله أو فهمه على صورته الظاهرية ، وإلا لانتقض أساس الناموس الموسوى الذى انما أتى ليتممه ، فلا يصح أن تنزل التوراة على موسى من عند الله « بالتوحيد » وينزل الإنجيل من عند الله على عيسى « بالتثليث » .

وصريح أقوال المسيح فى جوهر الاعتقاد أكبر دليل على صحة ما نقول من أن الأديان الثلاثة متفقة فى المقصد والغاية[١] .

---

١ ـ السابق : ١٤١ ـ ١٤٣

هذا كلام جمال الدين فى التصوف وهذا فهمه له ، ولنا معه وقفة إزاء هذا الكلام نحاول فيها أن نناقشه وأن ننصفه بإذن الله تعالى ، فنقول :

إن جمال الدين يرى أن التصوف : « ألفاظ لمعان حقيقتها غير ظاهر ألفاظها » ..

ويقول : « فالتصوف يجب أن نفهمه : أنه مذهب حكماء وعقلاء تريضوا أى هذّبت ولطفت جسمانهم الرياضة ، وكثر منهم النظر فى الأشياء والتطلع إلى حقائقها وفهم كنهها عن طريق الحس الروحى والانفعال فى النفس المتعلقة فى الجسم مؤقتا ، فهم فيما كانوا يرون ويقولون فى مواجدهم ومشاهدهم وذوقهم إما أن يراه من كان من غير طبيعتهم غير معقول وغير مفهوم ، وإما أن يسىء فهم معناها إذا أخذه على ظاهر لفظه » ويقول : « فمعانى التصوف وإن كانت مغلقة فى الغالب لا يفهمها إلا أصحاب الذوق والمواجد ويعسر على غيرهم تناول فهمها ، فلا بأس من التقريب فى التأويل لينتفى غير المعقول » .

ومن هذه الكلمات نتبين أن جمال الدين يدخل التصوف فى مجال الرموز والدلالات الغامضة ، وهو على حق فى ذلك إن كان يقصد التصوف والمتصوفين بعد أن اتصل المسلمون بغيرهم من أصحاب الحضارات الأجنبية وخلطوا التصوف بعناصر فلسفية حملت فى طياتها هذه الرموز وأصبحت علما لبواطن القلوب ، فإذا كان جمال الدين يقصد هؤلاء المتصوفين فإنما يكون قد نظر إلى التصوف فى صورة سيئة من صوره وعندئذ نأخذ على جمال الدين أنه تحدث عن التصوف فى صورته تلك .

أما التصوف الذى نزعت إليه الحياة الروحية الإسلامية منذ صدر الإسلام متأسية بالرسول صلى الله عليه وسلم فى زهده ونسكه وتقواه ، وفيما كان يأخذ به نفسه من عبادة الله ، والتقرب إليه بما افترض عليه ، فهو بذلك رياضة روحية جيدة ، لا تدخل فيها الرموز ولا الباطنيات ولا الكلمات الشاطحة المنسوبة إلى بعض المتصوفة ممن استشهد بهم الأفغانى ، التصوف بهذا المعنى عبادة ورياضة لا نعترض عليها فى شىء ، ولا نطمع فيها فى أكثر مما أثر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وللإمام ابن تيمية فى هؤلاء المتصوفة كلمة نذكر منها قوله : « أول ما ظهرت الصوفية من البصرة وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد ، وعبد الواحد من أصحاب الحسن ، وكان فى البصرة من المبالغة فى الزهد والعبادة ونحو ذلك ما لم يكن فى سائر أهل الأمصار ، ولهذا كان يقال : « فقه كوفى وعبادة بصرية » .

وقد روى أبو الشيخ الأصبهانى بإسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوما يفضلون لباس الصوف ، فقال : إن قوما يتخيرون الصوف يقولون : إنهم متشبهون بالمسيح بن مريم ، وهدى بنينا أحب إلينا ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يلبس القطن وغيره .

ثم يقول : « والصواب للمسلم أن يعلم أن خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وخير القرون القرن الذى بعث فيه ، وأن أفضل الطرق والسبل إلى ما كان عليه هو وأصحابه ، ويعلم من ذلك أن على المؤمنين أن يتقوا الله بحسب اجتهادهم ووسعهم ، كما قال الله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » وقال تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » - وإن كثيرا من المؤمنين - المتقين أولياء الله - قد لا يحصل لهم من كمال العلم والإيمان ما حصل للصحابة فيتقى الله ما استطاع ويطيعه بحسب اجتهاده . فلابد أن يصدر منه خطأ إما فى علومه وأقواله وإما فى أعماله وأحواله ، ويثابون على طاعتهم ويغفر لهم خطاياهم فإن الله تعالى قال : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا .. » قال الله : قد فعلت .

فمن جعل طريق واحد من العلماء والفقهاء أو طريق أحد من العباد والنساك أفضل من طريق الصحابة فهو مخطئ ضال مبتدع ، ومن جعل كل مجتهد فى طاعة أخطأ فى بعض الأمور مذموما معيبا ممقوتا فهو مخطىء ضال مبتدع[١] .

وبعد هذا نستطيع أن نأخذ على جمال الدين الأفغانى فيما قاله عن التصوف والمتصوفين الأمور التالية :

أولا : اعتباره أن الحلاج من متصوفى المسلمين ، مع أن جمهور العلماء يعدونه قد خرج على الطريق ، ومن هؤلاء الذين عدوه خارجا على الطريق : الجنيد بن محمد وغيره .. كما نقل ذلك ابن تيمية رحمه الله[٢] .

ثانيا : نأخذ عليه ـ وهو الداعية الإسلامى المخلص الواعى ـ أن يؤول كلمات المسيح على أنها كلمات صوفية لها معان خفية كقوله : أنا فى الأب والأب فى .. وقوله : « أيها الأب مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضا » .

ذلك أن هذه الكلمات المنسوبة للمسيح ليست صحيحة النسبة إليه بحال ، لأن الله سبحانه وتعالى لعن من قالوا إن لله ابنا فى قوله تعالى : « وقالت اليهود عزير بن الله وقالت النصارى المسيح بن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون »[٣] .. قال القرطبى وظاهر قول النصارى أن المسيح بن الله إنما أراد بنوة النسل ، كما قالت العرب فى الملائكة ... وهذا أشنع الكفر ... قال أبو المعالى : أطبقت النصارى على أن المسيح إله وأنه ابن إله ، قال ابن عطية : ويقال إن بعضهم يعتقدها بنوة حنو ورحمة وهذا المعنى أيضا لا يحل أن تطلق البنوة عليه وهو كفر[٤] .

---

١ ـ أحمد بن تيمية : مجموع الفتاوى : ٦/١١ ـ ١٥ باختصار . ط الرياض ١٣٨٢ هـ .

٢ ـ السابق : ١٨/١١

٣ ـ التوبة : ٣٠

٤ ـ تفسير القرطبى : ٢٩٥٦/٤ . ط دار الشعب بالقاهرة .

فكيف يلعن الله من يقول بهذه البنوة ثم تجرى نسبة البنوة على لسان المسيح عليه السلام ؟

ثم إن هذه الرموز والمجازات التى ذهب إليها جمال الدين ليست صحيحة كذلك كما قال ابن عطية فى تفسير الآية الكريمة .

وكذلك تأويله لما جاء فى التوارة : « إسرائيل ابنى البكر » فقد كان الأولى بجمال الدين - وهو يعلم أن التوارة والإنجيل قد حرفا وبدلا - أن يقول : إن هذا من تحريف المحرفين وكذب المفترين ، لأنه لا يجوز القول بأن الله قد اتخذ ولدا ، وهو الذى لم يلد ولم يولد ، فضلا عن أن ما ذهب إليه جمال الدين من تأويل هذه الكلمات غير مقبول ، لأننا لو سلمنا - جدلا - بأن هذه الكلمات منسوبة إلى التوارة والإنجيل صحيحة النسبة إليهما وإنها تحمل تلك المعانى الرمزية المغلقة ، فإن الاعتراض الباقى والدامغ هو أن الله سبحانه لا يرسل رسولا إلى قوم فيخاطبهم بالرموز والمغلقات .

كما نأخذ على جمال الدين قوله : « إن الأديان الثلاثة متفقة فى المبادئ ... » مع أن الباقي بين أيدى الناس اليوم التوارة والإنجيل يناقض نفسه من جانب ويحمل الدليل أقوى الدليل على أنه ليس من عند الله جانب آخر .

وأين هى مبادئ اليهودية أو مبادئ النصرانية الآن بعد هذا التحريف الذى أدخل على التوارة والإنجيل ؟

وإذا كان أبسط وأقرب مبادئ الأديان السماوية التى جاءت من عند الله وهى اليهودية والمسيحية والإسلام هى : التوحيد ، فأين التوحيد الذى اتفقت فيه الأديان فى المبادئ ؟!!

وبعد .. فهذه جملة من المآخذ التى أخذناها على جمال الدين الأفغانى ، وما نراه إلا اجتهد فأخطأ - غفر الله له وأثابه ثواب المجتهدين .

مآخذ على جمال الدين

٣ ـ انضمامه إلى الماسونية

انضمام جمال الدين الأفغانى إلى المحفل الماسونى ، كان من الأمور التى أثارت حول الرجل كثيرا من التساؤلات وصل بعضها إلى حد الاتهام بالخيانة لدى بعض الدارسين ممن يغريهم مثل هذا اللون من الكلام ٠

ولنتحدث عن هذا الموضوع من جميع زواياه ، لننصف الرجل ونضعه حيث يجب أن يوضع مصلح مجدد أخلص لدينه وأخلص لأمته الإسلامية ٠

يقول محمد باشا المخزومى : « ولما كان جمال الدين ميالا بفطرته إلى السياسة ، عالما فى وقائعها ، فقد نظر نظرة الحكيم المدقق ، ورأى ما آلت إليه من تدخل الأجنبى وتفاقم أمره يوما فيوما ، نعلم أن لابد من تغير أحوالها ، وكان قد انتظم فى سلك الجمعية الماسونية ، وتبنى فى المحفل الاسكتلندى ٠

أما انخراط جمال الدين فى الماسونية وما أحدثه وجوده فيها ، إذ كان عاملا فى بدء أمره ، وقبل أن يصير من الرؤساء ، فنختصره على قدر ما تسمح به الطريقة الماسونية ، وإن كان جمال الدين لا يرى فى التكتم فضيلة ، بل يرى فيه معرة ونقصا فى الهمم ٠

أول انتقاد انتقده جمال الدين فى المحفل رده على قول أحد الإخوان القائل : « إن الماسونية لا دخل لها فى السياسة ، وإنا لنخشى على محفلنا هذا من بأس الحكومة وبطشها » ٠

فنهض جمال الدين وقال : « كنت أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة

وعجيبة ، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكن أن يدخل من بين أسطوانتى المحافل الماسونية ، إذا لم تدخل الماسونية فى سياسة الكون ، وفيها كل بناء حر ، وإذا آلات البناء التى بيدها لم تستعمل لهدم القديم ولتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة ، وتدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة • ولا قامت لبنائهم زاوية قائمة»•

ثم قال فى بحث إجمالى عن الماسونية فى ذلك المحفل الاسكتلندى ما يأتى :

« لا تتم الصورة فى الذهن إلا بعد التعريف والوصف ، فالإنسان حيوان ناطق ولكى يتم له التعريف المطلوب المانع له من اشتراك بعض العجماوات الناطقة ، عرفوه بصفات أخرى فقالوا : مميز ضحاك بالطبع ... الخ . فتسنى من التعريفات والصفات ما جعل له صورة مخصوصة فى الذهن يعرف بها أنه « إنسان » ..

أما نحن معاشر الماسون فيؤلمنى أننى للآن ما عرفت لنفسى بصفتى ماسونيا ولا لمطلق الماسونية تعريفا يجعل لها صورة فى الذهن أو وصفا ينطبق على من ينخرط فى تلك العشيرة •

أول ما شوقنى للعمل فى بناية الأحرار عنوان كبير خطير : حرية .. مساواة .. إخاء .. غرض منفعة الإنسان ، سعى وراء دك صروح الظلم ، تشييد معالم العدل المطلق ، فحصل لى من كل هذا وصف للماسونية وهو : همة للعمل ، وعزة نفس ، وشمم واحتقار الحياة فى سبيل مقاومة الظلم •

ثم قال : هذا ما رضيته من الوصف للماسونية وارتضيته لها ، ولكن مع الأسف أرى أن جراثيم الإثرة والأنانية وحب الرياسة والعمل من جماعات بمقتضى أهوائهم ، وخضوعا لشرق عن بعد سحيق يعتوره تهديد ووعيد وغير ذلك من الأمور التى ما تأسست الماسونية الحرة إلا لملاشاتها ، واعتبرت من يصدع بها من جبابرة الملوك والحكام أنهم « الخوارج » وما يجرون من الأحكام الكيفية « خارجة » وأن أولئك الخوارج فيما يتخبطون فيه من تلك الأعمال هم فى الظلمات وبأشد الحاجة إلى النور •

ثم ذكر أشياء تتعلق فى المحفل الاسكتلندى جاءت حسب أهواء معارضى جمال الدين فلا حاجة إلى ذكرها هنا •

ومما قاله مخاطبا ومودعا من ترك فى المحفل الاسكتلندى : اعتقدوا أيها الإخوان أن جمال الدين ينكر على نفسه حب الرياسة ويقول : إن الماسونية أشرف وأرفع من أن تعمل على إيجاد سلطة لرئيس تخدم له بها غاية شخصية أو منفعة مادية كانت أم أدبية •

دعونى أكون عاملا ماسونيا نزيها متجنبا للرذائل ، إذا لم يكن حرصا على شرف شخصيتى فخوفا من أن تعاب الماسونية بى فيتخذنى الأغيار سهما للطعن بها وهى براء منه ، وما ذنب الماسونية إلا أنها قبلتنى بين أفرادها دون اختبار صحيح ، وأبقت على من غير تبصر •

ومن كلمات جمال الدين فى ذلك المحفل : إن أحد الإخوان قال فى خطاب ألقاه : عبارة على طريق المباهاة : « إن الماسونية تفاخر بقدم عهدها وثباتها أعصرا على شكلها وتقاليدها » .. فرد عليه جمال الدين قائلا :

« لا أرى أبعد عن الحق من هذا القول ، فالماسونية على شكلها هذا وتقاليدها ليست فقط قديمة العهد بل هى لم تزل فى المهد ، ولسوف إذا أصرت وأصر أبناؤها على الوقوف عند حد رموز أكثرنا لا يفقه مغزاها ، ولا المراد من وضعها ، أنها ستختنق فى المهد ولا تدرج منه ماسونيتكم أيها الإخوان اليوم ، لا تتجاوز : كبس أعمال وقبول أخ يتلى عليه من أساطير الأولين ما يمل ويخل فى عقيدة الداخل . ويسقط مكانة الماسونية من عينيه •

أنتم اليوم بين رئيس ومرءوسين تابع ومتبوع ، شرق يأمر ومستشرق يرضخ ، مال يجمع وجزية للشرق تؤدى ، وليس من عمل يدل على أدنى أثر من الحياة للماسونية فى الشرق •

ومما استغربه الإخوان الماسون من أقوال جمال الدين أنه طلب فى المحفل إسعافاً

لأحد الإخوان فقال : هل الأخ مريض ؟ قالوا : لا . قال : هل هو صحيح البنية ؟ قالوا : نعم ولكنه فقير معوز. قال : صحة البدن وذل السؤال لا يصح أن يجتمعا بإنسان ، الماسونية تسعف أخاها إذا سقط فى العلل أو اعترى بعض أعضائه شلل ، وتقدمه على من سواه من الإخوان من البشرية فتربى أبناءه إذا مات فقيرا ، وتحسن العناية فى تربيتهم وفيما عدا ذلك يجب أن نرى أن فى الإحسان إساءة لمن يجب أن يكون فى الحقيقة إنسانا •

هذا بعض ما كان ينتقده جمال الدين فى المحفل الاسكتلندى وقد ضاق بآرائه وأفكاره ذرعا •

وعلم جمال الدين أنه لا يمكنه العمل مع أولئك الإخوان وهم على ذلك الخمول والتخوف أو الجبن ، فأنشأ محفلا وطنيا تابعا للشرق الفرنساوى •

وفى برهة وجيزة بلغ عدد أعضائه العاملين أكثر من ثلاثمائة من نخبة المفكرين والناهضين من المصريين من مريدى جمال الدين من العلماء والوجهاء وتكرس محترما له •

وأول عمل عمله أن صير من الإخوان العاملين فى المحفل شُعَبا : شعبة أناط بها إنذار ناظر الجهادية ، كى ينظر بعين العدل والإنصاف إلى الضباط الوطنيين الذين تمادى زمان مكثهم فى السودان أكثر مما تستوجبه القوانين المسنونة للضباط ـ وكان القانون العسكرى إذ ذاك أن تتناوب الخدمة صفوف الضباط الوطنيين وشراكسة متمصرين ، فكان أكثر الضباط المصريين الذين يقتضى استبدالهم بعد سنتين مثلا فى السودان بآخرين من الضباط الشراكسة « نسبا » كانوا يقضون أربع سنوات فأكثر ولا يستبدلون ، وإن استبدلوا فإنما يرسل مكانهم مصريين ممن لا عضد لهم أو مجير من أمير أو وزير •

وشعبة أخرى لإنذار ناظر الحقانية ، وأخرى للمالية ، ورابعة للأشغال .. وكانت هذه الشعب تطالب تلك النظارات بإنصاف المستخدمين من الوطنيين ، إذ كان

الموظف المصرى فى وظيفة ما ؛ إذا كان يتناول خمسة جنيهات راتبا شهريا كان غيره من غير المصريين بمثل ذاك العمل والوظيفة يتناول خمسة عشر أو عشرين جنيها ·

ذهبت كل شعبة للوجهة التى عينت لها وأدت للنظار ما أمرت به من المحفل بلهجة وأسلوب استهجنهما واستغربهما السامعون ، فحصل من جراء ذلك هزة فى الأندية والدواوين انتهت تموجاتها إلى سراى عابدين والخديوى إذ ذاك المرحوم توفيق باشا فهاله الأمر ، وكان قليل المبالاة بالماسونية ، حتى إنه استنكر تكليفه أن يكون أستاذا أعظم للمحافل الماسونية المصرية الوطنية ، وتردد فى قبول جمال الدين زائرا ، ولكن بعد تلك الحركة أسرع فى استزارة جمال الدين ، فذهب بعد مماطلة أيام ، وتمثل لدى الحضرة الخديوية ، وبعد تلطيف وتجمل من الخديوى قال لجمال الدين مامعناه .. «إننىأحب كل خير للمصريين .. ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ولكن مع الأسف : إن أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة » ·

قال جمال الدين مجاوبا : ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص :

« إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ولكن غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى وأفراده ينظرون به لسموكم ، وإن قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم فى إشراك الأمة فى حكم البلاد على طريق الشورى فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذ باسمكم وبإرادتكم ، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم » ·

هذا ما جرى فى هذه المقابلة التى كان فيها سمو الخديوى غير راض ، وأسر فى نفسه البطش بجمال الدين ، ولكن لم يظهر له شيئا من ذلك ·

خرج جمال الدين من مجلس سمو الخديوى ومضى إلى تنفيذ خطته فى المحفل

الماسونى وأخذ يخطب خطبا تستفز الخامل وتوقظ الغافل ، وتصير الجبان شجاعا ، والرعديد أسدا ضاريا .. وأشار على تلامذته ومريديه بنشر الفصول الناطقة بالحقوق المهضومة لأهل البلاد من المصريين ، وكان فى مقدمة من كتب : الأدباء السوريون وفى مقدمتهم المأسوف عليه : أديب اسحق[1] .

وفى صلة جمال الدين بالماسونية تعالت أصوات ترددت اتهامات ، وسنحاول هنا أن نعرض القضية من وجهة نظر منصفة ، لا تستهدف فيها الدفاع عن جمال الدين حين انتمى إلى الماسونية ، ولا كيل التهم الجزافية له لقيامه بهذا الانتماء ، وإنما هدفنا الأول والأخير هو إحقاق الحق لإنصاف الرجل .

فلسنا نشك فى أن المحافل الماسونية ، وفكرة الماسونية عموما من الأفكار المغرضة التى تعمل لصالح جهات مشبوهة النوايا والأهداف على الرغم من أنها تدعى العمل على إصلاح المجتمعات وتأكيد الحرية والإخاء والمساواة .

ولا نشك كذلك فى أن المحافل الماسونية فى مختلف بلدان العالم تحركها عقول معادية للأديان عموما وللإسلام على وجه الخصوص ، وأنها تجرى مع تيارات سياسية واجتماعية واقتصادية تستهدف اقتناص كبار المفكرين والمصلحين وكبار الأثرياء وأصحاب الجاه والسلطان .

ولا نستريب لحظة فى أن المحرك للماسونية ومحافلها هم اليهود ، كما لا نتردد أبدا فى القول بأن أهداف الماسونية الظاهرة المعلنة للناس تختلف اختلافا واضحا عن أهدافها غير الظاهرة .

وأهداف الماسونية الحقيقة أو المخفاة عن الناس كما تحدث عنها الدكتور الحاخام إسحق وايز .. أهداف يهودية وأن مؤسسة الماسونية نفسها مؤسسة يهودية وليس تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها وشروحها إلا أفكار يهودية من البداية للنهاية .

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى : ١٧ ـ ٢٢ ط بيروت ١٩٦٥ م

أما فى الظاهر ـ ولدى السُّذَّج ـ فهى كما يقول مكاريوس شاهين .. جمعية أدبية تخدم الإنسانية وتنور الأذهان وتنشر الإخاء وتوطد الحب بين الأعضاء ، تحثهم على فعل الخير والإحسان لإخواتهم المحتاجين[1] .

ولكى نزيد الأمر إيضاحا نذكر شيئا عن مراتب الماسونية ، فهى مراتب ثلاث :

الأولى : الماسونية الرمزية .

ويدخل بها أتباع الذيانات المختلفة . ويظل فيها الشخص قانعا بألفاظ الحرية والإخاء والمساواة ، سعيدا بما يناله من عون الأعضاء الآخرين ، ذلك العون الذى كثيرا ما يدفع العضو إلى مكان الصدارة فى عمله أو يكسب له وظيفة ممتازة أو ثراء عريضا ، مما يجعله يزيد ارتباطا بالماسونية وحبا لأنظمتها .

وفى داخل هذا القسم توجد ثلاث وثلاثون درجة ، يترقى فيها العضو درجة بعد درجة بمقدار إخلاصه وكفاءته وإقباله على الماسونية وتعاليمها .

وينال العضو أسمى الدرجات إذا تم انحرافه عن دينه وعن وطنه وأصبحت الماسونية عقيدته واحتوت كل تقديره .

الثانية : الماسونية الملوكية أو العقد الملوكى :

وأكثر أعضائها من اليهود ويطلق عليهم الرفقاء ولا يسمح لغير اليهود بالدخول فيها إلا لمن وصل لأرقى درجات الماسونية الرمزية ، أى لم يعد يكترث بدين ولا وطن وليس له مثل أعلى سوى الماسونية .

الثالثة : الماسونية الكونية :

وهى أرقاها ، وأعضاؤها من اليهود الخلص ، ويطلق عليهم الحكماء ورئيس هذا الفريق يلقب بالحكيم الأعظم وهو مصدر السلطات لجميع المحافل الماسونية ، ولا يعرف أحدٌ أعضاء هذه المرتبة ولا مركز نشاطها .

---

١ ـ د. احمد شلبى : اليهودية . ٣٢٤ ـ ٣٢٥

وللماسونية ألوان ورموز تتبع الدرجات والمراتب وهى سر من الأسرار لا يعرفه غير الأعضاء .

وقد أدرك زعماء المسيحيين خطر الماسونية بوجه خاص وخطر الجمعيات السرية بوجه عام على الدين المسيحى ، فصدر مرسوم بابوى برقم : ٨٦ يحذر الكاثوليك من الاشتراك فى الهيئات السرية والمشتبه فيها على الإطلاق .

ومن العجيب أن هذه الماسونية ظلت سرا على البلدان العربية حتى بعد قيام إسرائيل ، ولم يصدر قرار بإلغاء المحافل الماسونية فى مصر إلا فى إبريل سنة ١٩٦٤ م بعد تحريم البابا لها بأكثر من عشر سنوات .

ولاتزال المحافل الماسونية تباشر نشاطها فى بعض البلدان العربية[١] .

وإن عبث الماسونية بالأديان وبالأوطان لم يعد خافيا الآن على أحد غير أن الانصاف يقتضينا أن نقول : إن انكشاف الماسونية إلى هذا الحد وانكشاف أهدافها وصلتها باليهودية لم يكن كذلك فى الفترة التى عاشها جمال الدين الأفغانى ، وذلك جعل جمال الدين وغيره ممن عاصروه ينخدعون فى المبادئ البراقة التى تعلنها الماسونية والتى تبدو من الظاهر مبادئ إصلاحية نبيلة ـ وهم طلاب إصلاح لمجتمعاتهم وأوطانهم ، وفى الوقت نفسه يدركون أهمية العقبات التى تبثها الأنظمة السياسية الحاكمة فى طريق إصلاحهم ، لذلك انخرط بعضهم فى سلك المحافل الماسونية ظنا منهم أنها توصلهم إلى غاياتهم ، فعل ذلك جمال الدين وفعله غيره من المصلحين والمفكرين وحسن النية ونبل الهدف رائدهم ، والأمل فى أن يجدوا فى المحافل الماسونية عونا لهم على ما يريدون يحدوهم ويزين لهم هذا الانضمام .

أما أن يكون جمال الدين قد انضم إلى المحفل الماسونى وهو يعلم أهدافه الحقيقية أو يدرك عداء الماسونية للإسلام ولسائر الأديان فهذا ما أستبعده تماما ، مستندا فى ذلك الاستبعاد إلى ما عرف عن الرجل من تمسك بدينه ومن رغبة أكيدة عنده للإصلاح تتناول بلدان العالم الإسلامى كله ، ولما أثر عنه من غيرة على هذا

---

١ ـ السابق : ٣٢٦ ـ ٣٢٧

الدين ومقاومة لأعدائه الذين تمثلوا له ـ فى فئة ـ من الحكام المستبدين وفى المستعمرين للبلدان الإسلامية من الأجانب ٠

ولعل هذا البحث يكشف عن هذه الجوانب النبيلة من شخصية جمال الدين ويوضح للقارئ أن الرجل كان مسلما غيورا على دينه ومصلحا إسلاميا لا يعرف حدودا إقليمية لإصلاحه ٠

ولست أرى الذين يحاولون تشويه جمال الدين الأفغانى بانضمامه إلى المحفل الماسونى إلا واهمين فيما يذهبون إليه ، خدعتهم العجلة عن الأناة فى التعرف على الرجل فرددوا ما يعمد إلى إذاعته وإشاعته عن المصلحين الإسلاميين أعداء الإسلام الذين يشنون منذ زمن بعيد حملات التشويه على كل مصلح أو مجدد من أبناء الإسلام ٠

وجمال الدين ـ فيما أرى ـ قد انضم للماسونية ليتخذها وسيلة لمقاومة الحكام المستبدين وليجمع من خلالها كلمة المسلمين من أعضائها على مقاومة الأجنبى الغاصب والحاكم الظالم ، والدليل القوى عندى على صحة ما أقول : أن جمال الدين عندما سمع من أحد أعضاء المحفل الماسونى قوله : « إن الماسونية لا دخل لها فى السياسة وإنا لنخشى على محفلنا من بأس الحكومة وبطشها » .. نهض قائلا : « كنت أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل من بين أسطوانتى المحافل الماسونية » ٠

إذا لم تدخل الماسونية فى سياسة الكون وفيها كل بناء حر ، وإذا آلات البناء التى بيدها لم تستعمل لهدم القديم ولتشييد معالم حرية صحيحة ، وإخاء ومساواة ، وتدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ولا قامت لبنيانهم زاوية قائمة » ٠

فهذه الكلمات تدل دلالة واضحة على تصور جمال الدين للماسونية وعلى هدفه من الانضمام إليها ، وتؤكد رغبة الرجل الصادقة فى الإصلاح ومقاومة الفساد ودك

صروح الظلم والاستبداد والاستعمار ، وتشييد معالم الحرية الصحيحة والإخاء والمساواة ، وكل ذلك له وسيلة عند جمال الدين أو اكثر من وسيلة للوصول إلى تحقيقه ، غير أن من بين الوسائل عنده الاستعانة بالماسونية وما تعلنه من مبادئ على تحقيقه ، وسنحاول فى هذا البحث أن نهتم بشكل خاص بالوسائل التى رآها جمال الدين قادرة على تحقيق أهدافه الإصلاحية ، والتى أسميناها فى هذا البحث « منطلقات الإصلاح عنده » والتى هى أوسع أبواب البحث وأشملها وأجمعها لكلمات جمال الدين ·

هكذا كان رأى جمال الدين فى الماسونية ـ كما تسنى له أن يتعرف على مبادئها من خلال عضويته فيها ـ صرح بذلك وأعلنه ، وأعلن عن السر فى إقباله على الماسونية حيث يقول : « أول ما شوقنى للعمل فى بناية الأحرار عنوان كبير خطير : حرية . مساواة . إخاء ، غرض منفعة الإنسان ، سعى وراء دك صروح الظلم ، تشييد معالم العدل المطلق ، فحصل لى من كل هذا وصف للماسونية وهو : همة للعمل وعزة نفس وشمم واحتقار للحياة فى سبيل مقاومة الظلم ، هذا ما رضيته من الوصف للماسونية وارتضيته لها ·

وجمال الدين فى بعض كلماته ينتقد هذه الماسونية ويشعر بسلبيات بعض أفرادها ، ويرى ذلك مخالفا لما يجب أن تكون عليه الماسونية كما عرفها فيقول :

« ولكن مع الأسف أرى أن جراثيم الأثرة والأنانية وحب الرياسة والعمل من جماعات بمقتضى أهوائهم ، وخضوعا للشرق عن بعد سحيق يعتوره تهديد ووعيد وغير ذلك من الأمور التى ما تأسست الماسونية الحرة إلا لملاشاتها واعتبرت من يصدع ويعمل بها من جبابرة الملوك والحكام أنهم من « الخوارج » ، وما يجرون من الأحكام الكيفية « خارجة » وأن أولئك الخوارج فيما يتخبطون فيه من تلك الأعمال هم فى الظلمات وبأشد الحاجة إلى النور » ·

ذاك دليل آخر على سلامة نية الرجل وصدق إخلاصه لمبادئ رأى فيها ما يحقق

له أهدافه من التصدى للمستبدين من الحكام ، وما يغريه من أمله الكبير وهو دك صروح الظلم والطغيان ، وما يمكنه من أن يجعل الناس فى مختلف البلدان الإسلامية يمارسون الحرية فتستقل أوطانهم عن غاصبيها والإخاء فلا يظلم غنيهم فقيرهم ، والمساواة فيكونون أمام الحق سواء لا يتفاضلون إلا بالعمل الصالح ·

أما إن كانت حقيقة الماسونية قد خفيت على جمال الدين فى ذلك الوقت فإن ذلك كان له ما يبرره فى حينه ، فقد كانت أهداف الماسونية عموما مخفاة عن أعضائها بحذق ومهارة يفوقان ذكاء جمال الدين من جانب ، ويتجاوزان معلوماته عن الماسونية من جانب آخر ·

ولعل ظروف العالم الإسلامى آنذاك الممثلة فى دولة الخلافة العثمانية ، وفى أوربا التى أجمعت أمرها على أن تقضى على تلك الدولة ، وما التجأت إليه من وسائل ـ للقضاء على دولة الخلافة ـ بعضها ظاهر وبعضها مستتر ، لعل تلك الظروف وغيرها مما كان يشغل جمال الدين الأفغانى ويملك عليه وقته وجهده ومكانه وزمانه والذى اضطهد من أجله فى كل بلد رحل إليها مما جعله يعيش شريدا طريدا لايقر له قرار ، لعل ذلك كله قد صرف جمال الدين عن أن يتتبع حقيقة الماسونية ، وأن يقدر أنها حركة هدامة تخفى من مبادئها كثيرا مما يحقق أهدافها تلك الخبيثة ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن حقيقة الماسونية لم تعرف ولم تنكشف جوانب العداء فيها للإسلام خصوصا وللأديان عموما إلا فى النصف الأول من القرن العشرين ، حيث بدت لنا صلتها الوثيقة باليهودية العالمية ، التمسنا العذر لجمال الدين فى أنه لم يعرف حقيقة الحركة التى انضم إليها وكله أمل فيها وفى قدرتها على الإصلاح ·

وبعد .. فلعلى بهذا الحديث عن جمال الدين فى رحلة حياته ، وما عرفت به مؤلفاته وإنتاجه الفكرى الأدبى ، وما ذكرت من مآخذ أخذت عليه ناقشتها وأوضحت وجه الإنصاف فيها ، لعلى بذلك أكون قد وفقت إلى أن أعرِّف بجمال الدين الأفغانى فى الباب الأول من هذا البحث ·

مع يقينى بأن الصورة الدقيقة لجمال الدين لن تتضح كافة أبعادها إلا بعد أن أنتهى من البحث كله بأبوابه الأربعة ، إذ البحث كله تعريف بجمال الدين الأفغانى ، المصلح المجدد ، الأديب الإسلامى الكبير .

طلب انضمام إلى المحفل الماسونى

كتب جمال الدين يطلب أن ينضم إلى المحفل الماسونى فقال : « يقول مدرس العلوم الفلسفية بمصر المحروسة جمال الدين الكابلى الذى ينتهى من عمره سبعة وثلاثون سنة ، بأنى أرجو من إخوان الصفا ، واستدعى من خلان الوفا أعنى أرباب المجمع المقدس الماسون ، الذى هو عن الخلل والزل مصون ، أن يمنوا علىّ ويتفضلوا إلىّ بقبولى فى ذلك المجمع المطهر ، وبإدخالى فى سلك المنخرطين فى ذلك المنتدى المفتخر ..

ولكم الفضل محرم سنة ١٢٩٢ يوم الخميس ٢٢

توقيع

جمال الدين الحسنين الكابلى

وقد جاءه الرد التالى من كاتب سر المجمع يخبره فيه بقبوله عضوا فقال فيه :

« لوج كوكب الشرق فى ١٣٥٥

فى القاهرة بمصر و ٧ جنايو ١٨٧٨/٥٨٧٨

إلى الأخ جمال الدين محترم

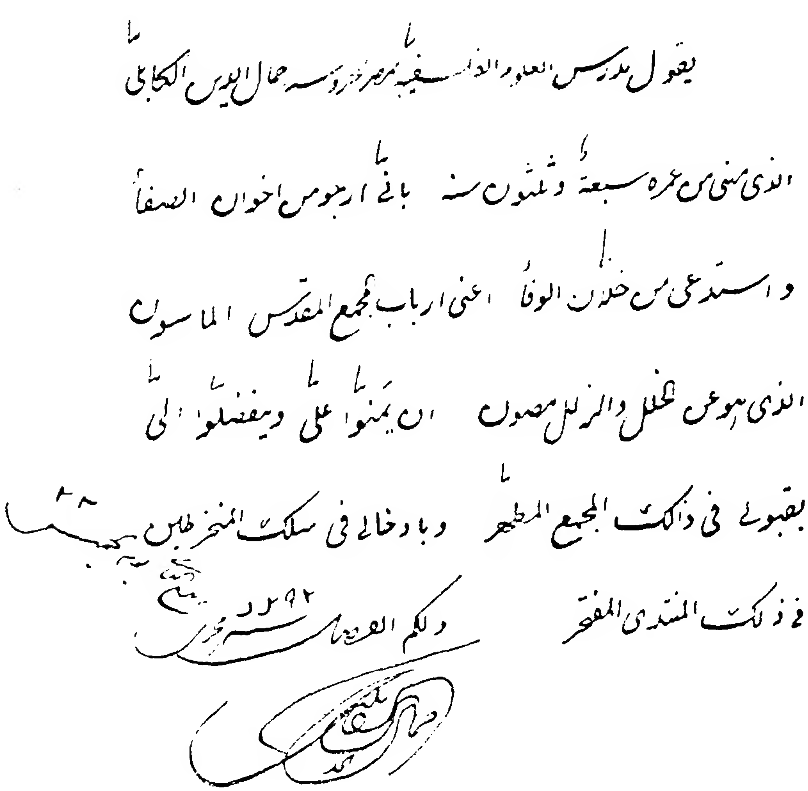
إنه لمعلوم لديكم بأن فى جلسة ٢٨ الماضى وبأغلبية الآراء صار انتخابكم رئيس محترم لهذا اللوج لهذا العام ، ولذا قد نهنيكم ونهنى ذواتنا على هذا الحظ العظيم وعن أمر الرئيس محترم الحالى أدعو إخوتكم للحضور يوم الجمعة القادم الجارى الساعة ٢ عربى بعد الغروب إلى محفل هذا اللوج لأجل استلامكم القادوم بعد إتمام ما يجب من

التكريز الاعتبارى ، ثم سيصير يوم الخميس ١٠ الجارى الساعة ٦ افرنكى مساء تكريز رئيس محترم لوج كونكورديه ، فالرجا حضوركم فى اليوم المذكور للاشتراك فى الأشغال ، وفى الحالين ملابسكم تكون سودا ورباط الرقبة والكفوف بيضا ، وتقبلوا منـا العناق الأخوى ٠

كاتب سر : نقولا ـ م.[1] *

وفيما يلى صورة خطية لهذا الطلب وللرد عليه نقلتهما من مجموعة رسائل جمال الدين المشار إليها فى الهامش ٠

لوحة ١٦


يقول مدرس العلوم الفلسفية بمصر المحروسة جمال الدين الكابلي
الذي مضى من عمره سبعة وثلثون سنه بأني أرجو من اخوان الصفا
واستدعي من خلان الوفا أعني ارباب المجمع المقدس الماسون
الذي هو عن الخلل والزلل مصون أن يمنوا علي ويتفضلوا الي
بقبولي في ذلك المجمع المطهر وبادخالي في سلك المنخرطين
في ذلك المنتدى المفتخر
ولكم الفضل

١ ـ تصوير ٢١ : مجموعة إسناد ومدارك جاب نشده دربارة سيد جمال الدين ـ طهران ١٣٤٢

* نقلنا الخطاب بنصه دون أن نصلح ما فيه من أخطاء لغوية مع أنها كثيرة ٠

لوج كوكب الشرق
نمرة
١٢٥٥

في القاهرة مصر و٧ جنايو ١٨٧٨ / ٥٨٧٨

الى الاخ جمال الدين محترم
انه معلوم لديكم بان في جلسة ٢٨ الماضي وباغلبية الاراء صار انتخابكم رئيس محترم لهذا اللوج
لهذا العام ولذا قد هنيتكم وهنّي ذواتنا على هذا الحظ العظيم وعن امر الرئيس محترم الحالي
ادعو حضرتكم للحضور يوم الجمعة القادم ١١ الجاري الساعة ٢ عربي بعد الغروب الى محل هذا
اللوج لاجل استلامكم القادوم بعد اتمام ما يجب من التقرير الاعتيادي ثم تعيين يوم
الخميس ١٠ الجاري الساعة افرنكي في ٢ تقرير رئيس محترم لوج كونكورديه فالترجي حضوركم
في اليوم المذكور للاشتراك في الاحتفال وفي الحالتين فلابد ان تكون سوداً ورباط الرقبة
والكفوف بيضا واقبلوا منا العناق الاخوي :: كاتب السر

نقولا
نكروج
م

تصوير ٤١

الباب الثانى

العالم الاسلامى فى عصر جمال الدين

(١٢٤٩ ـ ١٣١٥ هـ)

(١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م)

العالم الإسلامى فى عصر جمال الدين

يشتمل على تمهيد وستة فصول

التمهيـــد :

الفصل الأول : أفغانستان .

الفصل الثانى : الهند .

الفصل الثالث : مصر

الفصل الرابع : الآستانة .

الفصل الخامس : فارس .

الفصل السادس : جمال الدين فى روسيا وأوروبا .

التمهيد

تمهيـــد :

عاش جمال الدين الأفغانى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الهجرى ، وخمسة عشر عاما من القرن الرابع عشر الهجرى (١٢٤٩ ـ ١٣١٥ هـ) أى الثلثين الأخـيرين من القـرن التاسـع عشر الميلادى على وجـه التقـريب (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م) ٠

وما من شك فى أن جمال الدين قد تأثر بظروف هذه الفترة التى عاشها ، وأثر فيها ، لأنه عاش أحداثها بل شارك فى صناعة بعض تلك الأحداث ٠

وإذا كنا نعد القرن التاسع عشر الميلادى ، أو ثلثيه الأخيرين من أهم السنوات التى مرت بالعالم الإسلامى ـ فيما نطلق عليه العصر الحديث ـ فإننا لا نبالغ فى هده الأهمية ولا نغالى فى أثرها فى عالمنا الإسلامى ، لأن هذين الثلثين على وجه التقريب هما اللذان شهدا وقوع معظم بلدان العالم الإسلامى فى أيدى القوى المتحالفة ضد الإسلام ، قوى الاستعمار الإنجليزى والفرنسى والإسبانى والهولندى وغيرها ٠٠

ففى تلك الفترة تحالفت ثلاث دول قوية على تقليص نفوذ دولة الخلافة العثمانية من أوروبا ، ففى السادس من شهر يوليو عام ١٨٢٧ م تحالفت إنجلترا وفرنسـا وروسيا على أن تجبر السلطان العثمانى على التخلى عن اليونان ، بعد أن كان إبراهيم باشا قد استطاع بقواته المصرية ـ وكانـت مصر آنـذاك جزءا من دولـة الخلافـة العثمانية ـ أن يسقط آخـر حصـون اليونـان ويجبرهـا على الاستسـلام فى معـركة « ميسولونكى » بعد حصار دام ستة أشهر ، حيث تم له هذا الاستسلام فى الثالث والعشرين من إبريل سنة ١٨٢٦ م ٠

ففى معاهدة لندن (١٩٢٧/٦/٦) هددت الدول الثلاث ـ إذا رفض الأتراك قيام هدنة ـ بتأييد اليونانيين واستخدام قواتها البحرية ، وفى أثناء ذلك بذلت بريطانيا

جهودا يائسة لحمل « محمد على » على الانسحاب من الحرب ، « بعثة كرادوك » [1] .

ولقد كان انتصار دولة الخلافة بأسطول إبراهيم باشا مدعاة إلى أن تعمل هذه الدول الثلاث على تحطيم أسطول إبراهيم ، فعندما رسا أسطول إبراهيم فى نفارين ثم واصل إبراهيم عملياته العسكرية ضد اليونان ، دخلت الأساطيل الإنجليزية والفرنسية والروسية فى الميناء الذى احتشد فيه الأسطول المصرى ودارت معركة غير متكافئة فكان لهم ما أرادوا من القضاء على هذا الأسطول ، يقول : « لانجر » : وأسفرت المعركة عن غرق أو نسف معظم وحدات الأسطول المصرى • فرح أوربا الشديد ، وحنق الأتراك الذين طالبوا بالتعويض [2] .

ويلخص :« وليم لانجر » الأحداث فى جمل مختصرة فى قوله عن انتصار إبراهيم والاستيلاء على « سولونجى » بقيادة رشيد باشا التركى : « إثارة الانتصارات المصرية التركية للخواطر فى أوربا التى كانت تنظر إلى اليونانيين على أنهم أبناء الأبطال القدامى ، وأنهم هبوا من جديد لمكافحة البرابرة • سرعة انتشار العطف على اليونانيين فى ألمانيا وسويسرا وفرنسا وانجلترا » [3] .

وفى تلك الفترة احتلت انجلترا عدن (يناير ١٨٣٩) وأوقعت دول أوربا بالدس والخداع بين محمد على ودولة الخلافة • وضربت مدينة بيروت بالقنابل (١٨٤٠/٩/٩ م) وثارت سوريا ضد المصريين ، وضربت عكا وأخلى إبراهيم كل سوريا وتوزعت الدول المعادية إرث « الرجل المريض » فاستولت انجلترا على كريت ومصر وكذلك فعلت فرنسا وروسيا مما هو معروف فى تاريخ هذه الفترة فهى بحق فترة ضياع للأمة الإسلامية •

١ ـ وليم لانجر : موسوعة تاريخ العالم ترجمة د • محمد مصطفى زيادة : ١٨٨٩/٥ ط فرانكلين القاهرة : ١٩٦٦ م •

٢ - السابق : ١٨٨٩/٥ م •

٣ ـ السابق ـ ١٨٨٧/٥ م •

ويقتضينا البحث أن نتحدث عن البلاد الإسلامية التى عاش فيها جمال الدين الأفغانى ، لنتعرف من خلال هذا التحدث عن تأثر جمال الدين بالظروف المحيطة به فى هذه البلاد ، وعن أثره فى تلك البلاد ، واتخاذه مواقف معينة من هذه الأحداث والظروف .

وأهم تلك البلاد الإسلامية التى عاش فيها جمال الدين :

أفغانستان مسقط رأسه ، والهند ، والآستانة ، عاصمة دولة الخلافة العثمانية ومصر وإيران .

ولا نجد بأسا من أن نلقى ضوءا على بعض البلدان الأوروبية التى ذهب إليها جمال الدين أو عاش فيها فترة ـ وإن كانت من غير البلاد الإسلامية ـ مثل . لندن وباريس وروسيا .

وقد عاش جمال الدين الأفغانى فى أفغانستان من مولده سنة ١٢٤٩ هـ ـ ١٨٣٩ م إلى سنة ١٢٧٢ هـ ـ ١٨٥٦ م ، ثم رحل إلى الهند رحلة عاجلة ، ومنها ذهب إلى مكة حيث أدى فريضة الحج وبقى فيها شهورا ، ثم عاد إلى أفغانستان بعد عام واحد من مغادرته لها ، وبقى فيها إلى سنة ١٢٨٥ هـ ـ ١٨٦٩ م .

ومعنى ذلك أنه عاش فى أفغانستان من سنة ١٢٥٤ هـ إلى ١٢٨٥ هـ أى إحدى وثلاثين سنة حيث بلغ سن القوة وتجاوز سن الشباب ، وكان له فيها حركة واضطراب وكلام وعمل من أجل الإصلاح الإسلامى ..

وفى عام ١٢٨٥ هـ ـ ١٨٦٩ م ذهب إلى الهند فى ظروف سوف نوضحها ـ فيما يأتى من البحث ـ وفى الهند بقى أقل من شهرين ، ثم طرد منها فقصد مصر للمرة الأولى فى سنة ١٢٨٦ هـ ، وما أقام بها سوى أربعين يوما ، توجه بعدها إلى الآستانة فى نفس العام ..

وفى الآستانة أقام من سنة ١٢٨٥ هـ إلى سنة ١٢٨٨ هـ أى حوالى أربع سنوات على وجه التقريب ، وكان له فى هذه السنوات الأربع حركة وجهاد ، وعمل وجدل

وحوار وخصام حول أحوال المسلمين فى دولة الخلافة العثمانية ، وما طاب له فيها المقام على الرغم من أنه تسنم فيها بعض المناصب الرفيعة ، فخرج منها سنة ١٢٨٨ هـ قاصدا مصر للمرة الثانية ·

وفى مصر عاش جمال الدين الأفغانى من سنة ١٢٨٨ هـ إلى سنة ١٢٩٦ هـ ، وهى بحق أخصب سنى عمره من حيث اكتمال نضجه وعلمه ، ومن حيث ما قام به من توجيه وعمل وإصلاح ، لمواجهة الباطل ، المتمثل فى القوى الأجنبية المسيطرة على البلاد آنذاك وفى الحكومات الضعيفة التابعة ، وفى هذه الفترة كون جمال الدين تلاميذه ، وبهم شاع فكره وذاع منطقة ، وانتشرت دعوته إلى الإصلاح ، وفى مصر كانت مواجهات مع الحكام نصحهم وأرشدهم حينا ، وأغلظ لهم القول حينا آخر ، ولم يطب له المقام فى مصر ، ولم يرض عنه ساسة مصر حينئذ فخرج منها سنة ١٢٩٦ هـ مطرودا مغضوبا عليه ، فقصد الهند للمرة الثالثة ··

وفى سنة ١٢٩٦ هـ وصل إلى الهند وبقى فيها إلى سنة ١٢٩٧ هـ ، ولم تكن هذه النقلة نزهة أو مصطافا ، وإنما كانت تبديلا لموقع الجهاد وتغييرا لمكان العمل واختيارا لبلد من بلاد المسلمين يعانى من قهر العدو الأجنبى ، ففى الهند شن حملة شعواء على الاستعمار الإنجليزى ، وضاقت به السلطة هناك فتقرر طرده من الهند ··

ولم يكن جمال الدين فى هذه المرة قادرا على الذهاب إلى مصر أو إلى الآستانة فتخير مكانا يستطيع منه أن يجهر بكلمة الحق ـ كما تصور ـ فذهب إلى باريس ·

ففى سنة ١٢٩٧ هـ قصد جمال الدين باريس ، وهناك وافاه تلميذه الوفى الإمام محمد عبده ·· وكان منفيا من مصر فى بيروت ـ وظلا معا فى باريس ما يقرب من ثلاث سنوات ، أصدرا فى خلالها « العروة الوثقى » وكانت لجمال الدين فى هذه السنوات صولات وجولات ··

وفى روسيا قضى جمال الدين ما يقرب من ست سنوات ، وكانت روسيا آنئذ ذات أثر كبير فى تسيير الأمور فى دولة الخلافة العثمانية ، وبقى فيها جمال الدين إلى سنة

١٣٠٦ هـ ، تخللها ذهابه إلى أوربا وإقامته فيها ما يقرب من ثلاث سنوات ، وكان قد ذهب إليها سنة ١٣٠٠ هـ ، وعلى عادته كانت له فيها كلماته وأراؤه ومريدوه من المسلمين .

وفى سنة ١٣٠٦ هـ ذهب إلى إيران ، وكانت له فيها مع شاه إيران مواقف سوف نتحدث عنها بتوسع بعون الله تعالى ..

وما طابت له الحياة فى إيران على الرغم من وعود الشاه لجمال ومحاولته إرضاءه أو شراء سكوته ، وبقى جمال الدين فى إيران ما يقرب من ثلاث سنوات ثم خرج منها خائفا يترقب ؛ فى سنة ١٣٠٩ هـ بعد أن هم به الشاه وأغرى أجناده بإيذائه ..

ومن إيران لم يجد مكانا فى بلد إسلامى يلجأ اليه ، إذ كانت معظم البلاد التى يرغب فى الذهاب إليها قد أوصدها الأعداء دونه ، فلجأ إلى أوربا ، واختار لندن ، وبقى فيها قريبا من عام ، ثم استرضاه الخليفة العثمانى السلطان عبدالحميد ، وطلب منه المجىء إلى الآستانة .

وفى الآستانة ألقى جمال الدين عصا تسياره ، وكان يأمل أن يمارس عمله وجهاده ، لكنه لم يمض فى الآستانة غير قليل من الوقت ثم تبين له أن السلطان قد أعد له سجنا سياسيا حقيقيا يحول بينه وبين ما يريد من عمل وإصلاح ، وإن كان قد غلفه بمزيد من الترحيب به وإسكانه قصرا فاخرا وإحاطته بالخدم والعيون .

قضى جمال الدين فى الآستانة خمس سنوات ، ثم مرض فى قصره ذاك ، ويقال : إنه قد دبرت له مؤامرة على يد طبيبه فمات مسموما أو مات متأثرا بعلاج تعمد فيه الخطأ ، أو مات بالسرطان ، وكانت خاتمة هذه الحياة الحافلة فى عام ١٣١٤ هـ .

وفى كل بلد من هذه البلدان الإسلامية التى ذهب إليها جمال الدين الأفغانى نحب أن نفرد عنه وعن تلك البلد حديثا نبين فيه ظروف تلك البلاد من جانب وعمل جمال الدين وجهاده فيها من جانب ثان وأثره فى الناس من جانب أخير .

ومن مجموع تلك الأحاديث نكون قد رسمنا أبعاد البيئة التى عاش فيها جمال

الدين فتأثر بها وأثر فيها ، وكانت بالنسبة له شيئا هاما من مكونات شخصيته الأدبية ، وشخصيته الإصلاحية الإسلامية ، بل لا نبالغ حين نقول : إن جمال الدين الأفغاني وإن كان قد تأثر بظروف تلك الأبعاد ،فأمدته بالفكر والأسلوب ، وحددت له فى كثير من الأحيان الوسائل التى يلجأ إليها فى إصلاحه ، إلا أن الذى لا نشك فيه أن جمال الدين قد أثر فى تلك البلاد وفى أبنائها ممن أقبلوا على جمال الدين يتعلمون منه ، حتى أصبحت شخصية جمال الدين وكلماته وأعماله الإصلاحية نبراسا يستضىء به المصلحون المخلصون لدينهم فى معظم بلدان العالم الإسلامى ..

ولنبدأ حديثنا بمسقط رأسه « أفغانستان » .

الفصل الأول :

العالم الإسلامى فى عصر جمال الدين

أفغانستـــان

أفغانستان

على عهد جمال الدين: ١٢٥٤ هـ ـ ١٣١٤ هـ

(١٨٣٩ م ـ ١٨٩٧ م)

ولد جمال الدين الأفغانى فى سنة ١٢٥٤ هـ ١٨٣٩ م ، ومن عجب أن يكون هذا العام هو العام الذى احتل فيه الإنجليز « كابل » و « قندهار » بحجة تلافى تعرض الحدود الهندية للخطر ـ كما تعرضت له من قبل ـ من جانب الفرس أو من جانب الروس . فكأن مولد جمال الدين على موعد مع كبار الأحداث السياسية فى بلاده .

لذلك سوف نجعل بداية حديثنا عن تاريخ أفغانستان مرتبطا بتاريخها بعد مولد جمال الدين ، دون أن نعود إلى الوراء .

فعندما احتل الإنجليز كابل وقندهار ، أتوا برجل من قبيلة « سادوزاى » يدعى شاه شجاع وجعلوه أميرا على البلاد ، فكان أداة طيعة فى أيدى الإنجليز ، ينفذ لهم سياستهم كاملة ..

إذن فقد عاصر مولد جمال الدين كارثة استعمار بلاده ، وفى ذلك مافيه من أن جمال الدين فتح عينية على كره الإنجليز لأنهم يحتلون بلاده ، وفى ذلك ما فيه من مد جمال الدين بعديد من الأسباب لعدائه للإنجليز .

لكن ما مضت على تلك الكارثة الاستعمارية لأفغانستان سنوات ثلاث حتى استطاع « دوست محمد » أن ينزل بالإنجليز هزيمة نكراء سنة ١٢٥٧ هـ ـ ١٨٤٢ م مما اضطروا معه أن يعترفوا به أميرا للبلاد ، ومما أجبرهم على أن يجلوا عن البلاد سريعا ..

غير أن محمدا هذا لم ينهج فى سياسته لبلاده نهجا مستقلا حرا ، وإنما آثر الروس ومنحهم نفوذا كبيرا فى البلاد ، ورضى عن امتداد حكمهم إلى ما وراء بحر قزوين ، حيث احتلوا جزيرة « أشرادة » .

ولم تطل مدة حكم محمد شاه ـ الذى نجح فى طرد الإنجليز ولكنه أخفق فى أن يحافظ للبلاد على سياسة مستقلة ، وأخفق إلى حد كبير فى أن يجنب البلاد المتاعب السياسية والاقتصادية ـ فقد توفى سنة ١٢٦٣ هـ ـ ١٨٤٨ م ، ولم يبلغ جمال الدين العاشرة من عمره بعد .

بعد وفاة محمد شاه تولى ولده ناصر الدين شاه ـ وكان فى سن السادسة عشرة حين تولى بعد أبيه ـ وواجه كثيرا من المتاعب التى غرسها أبوه .

فقد استطاع أن يقمع عددا من الثورات التى قامت ضده ، واتخذ من تقى خان ـ وكان ابن طاه لوزيره ـ قائدا للجيش ، وقد قام هذا القائد من بعد بأعمال لم تكن محل رضا الشاه مما أوغر صدره فأقصاه ، ثم قتل هذا القائد بعد قليل من إقصائه .

ومما واجهه ناصر الدين شاه فتنة « البابية » إذ قد أحدثوا فتنا وقلاقل فى بعض مدن البلاد مثل « مشهد » فى سنة ١٨٤٨ م ، ومثل : « زنجان » طوال سنة ١٨٥٠ م ، فاستطاع الشاه أن يخمد البابية وأن يقتل الباب نفسه حاكما عليه بالإعدام مع أحد مريديه .

وفى نفس العام الذى أعدم فيه الباب حاول أتباعه اغتيال الشاه ، فشنت عليهم الدولة حملة شعواء ، وأعدمت منهم عددا كبيرا ، وكان من بين من حكم عليهم بالإعدام داعية البابية الشهيرة الشاعرة الخطيبة « قرة العين » .

ومن المتاعب التى واجهها ناصر الدين شاه فى مجال السياسة الخارجية ، أن تقلد زمام السلطة فى هراة سنة ١٨٥١ م شاب عديم الكفاية اسمه سعيد محمد ، فسعى إلى أن يرتبط مع فارس بمعاهدة تحالف ، وعلى الرغم من أن الشاه كان قد تعهد للحكومة

البريطانية سنة ١٨٥٣ م بأن لا يوجه أيما قوة إلى هراة ، فقد احتل هذه المدينة سنة ١٨٥٦ م وحاولت بريطانيا بادئ الأمر أن تحمل دوست محمد على أن يتصدى للفرس ، حتى إذا أبى تكليفها هذا ، اضطرت إلى أن تنزل قواتها فى فارس نفسها ، وبعد معارك ثانوية دارت فى سبيل الاستيلاء على بوشير وخوزستان تعين على الشاه فى معاهدة باريس سنة ١٨٥٧ م أن يجلو من أفغانستان ويعترف باستقلالها ..

ولكن الفرس كانوا قد وفقوا سنة ١٨٥٦ م إلى أن يطردوا ممثل أمير مَسْقط حاضرة عمان من ثغر بندر عباس المواجه لبلاده ، والذى كان الأمراء قد استأجروه منذ سنة ١٧٩٨ م ، كما وفقوا إلى فرض سلطة الشاه على مقاطعتى سجستان وبلوخستان اللتين كانتا حتى ذلك الحين مستقلتين استقلالاً نسبيا ، بيد أن أفغانستان ما لبثت أن طالبت هى أيضا بضم سجستان إليها بعد عهد أحمد شاه ، وأكد شير على بن دوست محمد الذى خلف أباه سنة ١٨٦٣ م ضرورة هذا الضم .

وفى سنة ١٨٧٢ م قررت بعثة بريطانية لتخطيط الحدود ، تقسيم البلاد ، فلم تنل أفغانستان غير المناطق المجدبة المحاذية لحدودها[١] .

وعلى أثر الزحف الروسى على آسيا الوسطى ، وشروعهم فى التقدم نحو وادى نهر سيحون سنة ١٧٤٩ م ، واستطاعتهم فى سنة ١٨٦٨ هزم أمير بخارى وإكراهه على التخلى عن سمرقند ، ثم ضمهم خوارزم إلى امبراطورية القيصر سنة ١٨٧٣ م ، كما ضموا خواقند سنة ١٨٧٦ م ، وما جاءت سنة ١٨٨٤ م حتى أصبح لروسيا مركز قوى فى آسيا الوسطى ، وتوطد هذا المركز باستسلام مرو عن رضا وطيب نفس .

على أثر ذلك شعرت بريطانيا بخطر يهدد الهند من هذا الزحف الروسى .

« والواقع أنه بعد أن رفضت بريطانيا الاعتراف بمعاهدة « سان ستافينو » التمهيدية التى أعقبت الحرب الروسية التركية ، وبعد أن هددت الإمبراطورية

١ ـ كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية : ٦٦٩ ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكى ط بيروت السادسة فبراير ١٩٧٤ م .

القيصرية بأن تحرمها ثمرات نصرها ، عهد إلى الجنرال « سكوبليف » الروسى فى مهمة تهدف إلى تحويل البريطانيين عن الإمبراطورية العثمانية بواسطة هجوم يشنه على أفغانستان ، ولكن مؤتمر برلين اختتم أعماله قبل أن يستطيع « سكوبليف » اتخاذ الاستعدادات الكافية للنهوض بمهمته العسيرة ، والحق أن هجومه على تركمان التكة ـ وكانوا لا يزالون مستقلين ـ قد اقترن بالإخفاق ٠

ولكن « الجنرال ستوليتوف » استطاع أن يتقدم إلى كابل فيدخلها مع بعثة عسكرية ، ومن ثم اقتنع الأمير شير على بعقد حلف ضد بريطانيا التى كان شير على يشعر بأنها غبنته عند تخطيط حدود سجستان ، ولم يكن فى ميسور بريطانيا أن تمر بهذه المناورة مر الكرام ، فطلبت إليه أن يستقبل بعثة بريطانية مع حاشية عسكرية ، حتى إذا رد هذه البعثة على أعقابها عند الحدود اقتحم اللورد « روبرتس » أفغانستان فى كانون الأول سنة ١٨٧٨ م ، واحتل بعد وقت قصير كلا من كابل وقندهار ، عندئذ لجأ شير على إلى تركستان فقضى نحبه فى « مزار شريف » سنة ١٨٧٩ م ، وتولى الأمر من بعده ابنه يعقوب الذى كان قد أعلن الثورة عليه فى وقت مضى بتأييد من حكومة الهند ، والذى كان أبوه قد ألقاه فى غياهب السجن ، والواقع أنه لم يكتف فى معاهدة « غامداك » فى ٢٨ مايو ١٨٧٩ م معاهدة « جاندا ماك » [١] باستقبال بعثة بريطانية فى كابل ، بل تخلى أيضا عن مجاز بولان، ووادى قرم ، مما جعل من اليسير على القوات البريطانية اقتحام البلاد الأفغانية ساعة تشاء ٠٠ وكان على الأمير ألا يدير علاقاته الخارجية إلا عن طريق الحكومة الهندية ، وكان عليه أن يرفع كل القيود على التجارة البريطانية [٢] ٠٠ حتى إذا شن الروس على التركمان كرة أخرى هجوما لم يقترن بالتوفيق فى صيف سنة ١٨٧٩ م هبت الغوغاء [٣] فى كابل

١ ـ وليم لانجر : موسوعة تاريخ العالم ٢٥٥٧/٦ ط القاهرة ١٩٦٨ م ـ ١٣٨٨ هـ وفيه أن تاريخ المعاهدة هو : ١٦ مايو سنة ١٨٧٩ م ٠

٢ ـ السابق : ٢٥٥٧/٦

٣ ـ هذه الكلمة لبروكلمان وهى كلمة حاقدة ٠٠ والصواب أنها ثورة وطنية ضد الإنجليز الغاصبين ٠

فقتلت السفير البريطانى « كافانيارى » وحاشيته وعلى الرغم من أن يعقوب اعتذر شخصيا عن هذا الحادث لدى حكومة الهند ، فقد سير « روبرتس » إلى أفغانستان للمرة الثانية ، فاحتل كابل ، ولكنه اضطر بعد ذلك إلى بذل جهود جبارة حتى ينجو من نقمة الجيوش الشعبية التى كانت تحاصره ثم خلع يعقوب أو تنازل عن العرش ونفى إلى الهند ٠

وقام ابن أخيه عبد الرحمن الذى كان قد فر إلى تركستان ـ بمحاولة لارتقاء العرش بمساعدة الروسيا ، ولكنه ما لبث أن رأى أن من الحكمة السعى إلى التفاهم مع بريطانيا ٠

صحيح أن أيوب خان أحد أبناء شير على أعلن الثورة عليه من هراة ولكن « روبرتس » هزمه قبل أن يصل إلى قندهار ، ومن ذلك الحين تمت لعبدالرحمن السيادة على البلاد كلها ٠

وفى هذه الأثناء كانت مقاليد الأمر فى بريطانيا قد انتهت إلى « جلادستون » الذى اطرح ـ بوصفه من الأحرار ـ سياسة « دزرائيلى » الاستعمارية السابقة ٠ وفى الحال أصدر أمره إلى القوات البريطانية بالانسحاب ، وذهب إلى أبعد من ذلك فتعهد بأن يكون السفير البريطانى عن بلاطه رجلا مسلما دائما ٠٠

وهكذا تم لأفغانستان من جديد قسط لا بأس به من الحرية فى ميدان السياسية الخارجية [1]

من هذه اللمحة التاريخية ندرك أن الفترة الزمنية التى عاصرتها حياة جمال الدين كانت فيها أفغانستان موزعة بين قوى ثلاثة ٠

حكام ضعفاء غير ملتزمين بالإسلام فى حكمهم ، خاضعين للعدو حينا أو مضطرين تحت ضغط وعى الناس إلى مقاومة هذا العدو ثم الاعتذار إليه ٠

---

١ ـ كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكى ط بيروت ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م ٠

وأعداء متربصين من الشمال هم قياصرة روسيا وما يملأ نفوسهم من أطماع ·

وأعداء متربصين من الشرق وهم استعماريو انجلترا الذين كانوا قد احتلوا الهند ، وأصبحوا طامعين فى أفغانستان ليؤمنوا بها الهند ـ كما يزعمون ·

هذا كله كان كافيا لأن يجعل من أفغانستان بركانا يغلى من الداخل ، فإذا أضفنا إليه تلك الصراعات بين أفغانستان وبلاد فارس من الغرب ، اتضح لنا نوع القلق والاضطراب التى كانت تعيشه أفغانستان ·

وفى هذا الجو عاش جمال الدين منذ طفولته إلى أن زاد سنه على الثلاثين عاما ما فارقها إلا قريبا من عام حينما ذهب إلى الهند والحجاز . ولابد أن يكون جمال الدين قد تأثر بهذه الظروف السيئة القلقة التى أحاطت ببلاده ·

وقد نُشِّىء جمال الدين ـ كما هى عادة أسرته ـ تنشئة إسلامية أذكت فى نفسه حب الحق والعزة والحرية ، وطبعت نفسه وحسه على أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فإنه بلا شك نتيجة لتلك التنشئة سوف يقف من هذه الظروف موقف الناصح لحكام بلاده فى أول الأمر ، ثم موقف المقاوم لاحتلال بلاده بكل ما أوتى من وسائل ثانيا ، ثم موقف الغاضب الثائر على تلك القوى كلها أخيرا ·

ولعل موقف جمال الدين وموقف أمثاله من أبناء أفغانستان المخلصين لدينهم وبلادهم هو الذى جعل الإنجليز لا يستطيعون الاستمرار فى احتلال أفغانستان ·· بل يجدون أنفسهم فى النهاية مضطرين إلى أن يتفقوا مع الأمير عبد الرحمن ، على أن يكون هو الأمير ، وأن يجلوا هم سريعا عن البلاد ·

يقول الأمير شكيب أرسلان معقبا على فشل الإنجليز فى الاستمرار فى احتلال أفغانستان : « ··· وأدرك الإنجليز بهذه التجربة الثانية أنه ما كل حمراء تمرة ، وأن الأولى إخلاء أفغانستان بأسرها ·· » ·

وقبل أن ننهى الحديث عن أفغانستان على عهد جمال الدين ، لابد أن نشير إلى مكانة جمال الدين وأثره فى بلاده ، نعم لم يكن جمال الدين قد بلغ من المكانة فى تلك

الآونة ما يجعل أثره كبيرا أو عميقا ـ على نحو ما رأيناه فى مصر وإيران مثلا ـ ولكنه على كل حال قد كان ذا أثر ، وكانت له لدى حكام بلاده مكانة وبخاصة أولئك المخلصون من هؤلاء الحكام الذين قدروا جمال الدين وقدروا آراءه وإخلاصه لدينه ووطنه .

ذكر صاحب كتاب خاطرات جمال الدين أنه : « لما زحف الأمير دوست محمد خان ـ الذى كان جمال الدين أحد رجال حكومته ـ إلى هراة ليفتحها ويملكها على سلطان أحمد شاه صهره وابن عمه ، سار السيد جمال الدين معه فى جيشه ، ولازمه مدة الحصار ، إلى أن توفى الأمير وفتحت المدينة بعد معاناه الحصر زمنا طويلا .

وتقلد الإمارة ولى عهده شير على خان سنة ١٢٨٠ هـ ـ ١٨٦٤ م وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان أن يقبض على إخوته خصوصا من هو أكبر سنا منهم ويعتقلهم ، فإن لم يفعل سعوا بالناس إلى الفتنة وألبوهم للفساد ، طلبا للاستبداد بالإمارة .

وكان فى جيش هراة من إخوة الأمير ثلاثة :

محمد أعظم ، ومحمد أسلم ، ومحمد أمين ، فانتصر جمال الدين لمحمد أعظم ، فلما أحسوا بتدبير الأمير ومشورة الوزير أسرعوا إلى الفرار ، وتفرقوا إلى الولايات ، كل منهم ذهب إلى ولايته التى كان يليها من قبل أبيه ، ليعتصم بمنعته فيها ، وطاشت بهم الفتن واشتعلت نيران الحروب الداخلية وبعد مجادلات عنيفة ، عظم أمر محمد أعظم وابن أخيه الأمير عبد الرحمن ، وتغلبا على عاصمة المملكة ، وأنقذا محمدا أفضل والد عبد الرحمن من سجن « قزنة » وسمياه على أفغانستان ، ثم أدركه الموت بعد سنة ، وقام على الإمارة بعده شقيقة محمد أعظم خان ، وارتفعت منزلة السيد جمال الدين عنده ، فأحله محل الوزير الأول ، وعظمت ثقته به فكان يلجأ إلى رأيه فى العظائم وما دونها ـ على خلاف ما تعوده أمراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق وعدم التعويل على رجال حكوماتهم ـ وكادت تخلص حكومة الأفغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال

الدين ، لولا سوء ظن الأمير ، بالأغلب من ذوى قرابته ، ذلك ما حمله على تفويض مهمات من الأعمال إلى أبنائه الأحداث ، وهم خلو من التجربة ، عراة من الحنكة ، فساق الطيش أحدهم وكان حاكما فى « قندهار » على منازلة عمه شير علىّ فى هراة ولم يكن له من الملك سواها ، فظن الفتى أن يظفر فينال عند أبيه حظوة فيرفعه على سائر إخوته ، فلما تلاقى مع جيش عمه دفعته الجرأة على الانفراد عن جيشه فى مائتى جندى ، واخترق بها صفوف أعدائه فأوقع الرعب فى قلوبهم وكادوا ينهزمون لولا ما التفت يعقوب خان قائد شير على فوجد ذلك الغر المتهور منقطعا عن جيشه ، فكر عليه وأخذه أسيرا ، فتشتت جند « قندهار » وقوى جند شير على ، فحمل على قندهار واستولى عليها ، وعادت الحرب إلى شبابها .

وعضد الإنجليز شير على وبذلوا له قناطير من الذهب ففرقها فى الرؤساء والعاملين لمحمد أعظم ، فبيعت أمانات ونقضت عهود وجددت خيانات .

وبعد حروب هائلة تغلب شير على ، وانهزم محمد أعظم وابن أخيه عبدالرحمن فذهب عبد الرحمن إلى بخارى . وذهب محمد أعظم إلى إيران ومات بعد أشهر فى مدينة « نيسابور » .

وبقى السيد جمال الدين فى كابل لم يمسسه الأمير بسوء احتراما لعشيرته ، وخوف انتفاض العامة عليه ، حمية لآل البيت النبوى ، إلا أنه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه وباطله .

ولهذا رأى السيد جمال الدين خيرا له أن يفارق بلاد الأفغان ، فاستأذن للحج فأذن له ، بشرط أن لا يمر ببلاد إيران ، كيلا يلتقى فيها بمحمد أعظم ـ وكان لم يمت ـ فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥ هـ ـ ١٨٦٩ م ، بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر [١] ..

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى : ٨ ـ ٩ .

وكان جمال الدين قد زار الهند من قبل ، وأقام فيها سنة وبعض سنة ، ثم خرج منها إلى أداء فريضة الحج ، فعاد إليها هذه المرة سنة ١٢٧٢ هـ ، ١٨٥٦ م .

ثم عاد إلى الهند للمرة الثالثة وأقام فيها أقل من عام ، مما سنوضحه فيما بعد .

وبعد :

فإن جمال الدين الأفغانى كان له من الأثر فى أفغانستان ما شهدناه وما لمسناه ، من حسن السياسة والتدبير لمحمد أعظم ، ومن قدرته على جذب الناس إليه والتفافهم حوله معجبين به وبسلوكه مستعدين للدفاع عنه ضد أى عدوان يقع عليه ، مما رأيناه عند شير على الذى انتصر على محمد أعظم وهو يعلم أن جمال الدين مشيره ووزيره .. ولكنه لم يتخذ مع جمال الدين أى تصرف يسىء إليه خشية الجماهير المحبة له ..

الفصل الثانى :

العالم الإسلامى فى عصر جمال الدين

الهند

الهند

على عهد جمال الدين :

١٢٧٢ هـ ثم ١٢٨٥ هـ ثم ١٢٩٦ هـ

الموافق : ١٨٥٦ م ثم ١٨٦٨ م ثم ١٨٧٩ م

كانت أول صلة لجمال الدين الأفغانى بالهند يوم ذهب إليها فى سنة ١٢٧٢ هـ - ١٨٥٦ م وهو دون العشرين من عمره ، وكان قد قصدها آنذاك ليحصل فيها بعض العلوم فى الرياضيات على الطريقة الأوربية الحديثة فى ذاك الوقت ، ولم يمكث فيها إلا سنة وبضعة أشهر ، ثم خرج منها قاصدا الحجاز لأداء فريضة الحج ، غير أنه لم يصل إلى مكة إلا بعد مدة تقارب السنة منذ غادر الهند ، ليتعرف فى طريقه من الهند إلى مكة على بلدان العالم الإسلامى •

ثم وصل إلى مكة المكرمة وأدى فريضة الحج ، وعاد إلى بلاده أفغانستان وقد أفاد من رحلته هذه علما وخبرة ، ومعرفة بعادات الأمم وتقاليدها أثناء تلك السياحة التى استغرقت فى مجموعها أكثر من عامين •

وكانت الهند منذ مولد جمال الدين الأفغانى خاضعة لشركة الهند الشرقية منذ سنة (١٦٠٠ م إلى ١٨٥٨ م) تقريبا •

وفى ١٠ من شهر مايو سنة ١٨٥٧ م قامت ثورة كبرى فى الجيش الهندى ضد النفوذ الأجنبى وضد أعمال تحويل الناس عن دينهم فيما يسمى بالتبشير حيث أثار الخوف من فرض التحول عن الديانة بالقوة ثائرة الجند فقاموا بثورتهم ، وانتشرت الثورة فى شمالى الهند ووسطها ، مما اضطر انجلترا إلى أن تقاوم هذه الثورة بمذبحة (كونبور ٢٧ يونيو سنة ١٨٥٧ م) وحاصرت دلهى وأسقطتها فى المدة ما بين يونيو وسبتمبر ١٨٥٧ م ونفت بها درشاه ، وبهذا أنهت امبراطور المغول - كما يقول بروكلمان - أو أنهت الحكم الإسلامى فى الهند •

وفى سبتمبر سنة ١٨٥٨ م أوقفت إنجلترا أعمال شركة الهند الشرقية وحكمت الهند حكما مباشرا ، ونادت بالملكة فيكتوريا إمبراطورة للهند •

وكان يحكم الهند منذ ذلك الحين نائب تعينه الحكومة البريطانية وتسميه نائب الملك ويعاونه مجلس تنفيذى يتألف من أمناء « وزراء » من بريطانيا •

وكانت لجمال الدين عودة إلى الهند للمرة الثانية عندما انهزم محمد أعظم فآثر جمال الدين أن يذهب إلى الهند ، وكان ذلك سنة ١٢٨٥ هـ ـ ١٨٦٨ م . كما أسلفنا ونحن نتحدث عن أفغانستان فى الفصل السابق •

وكانت خطة جمال الدين أن يقيم فى الهند بغير ظهور ، « فراسل أحد أصحابه من تجار الأفغان هناك ، أن يكون ضيفه على أبسط حالات الضيف والمضيف » •

ولكن شدة تيقظ رجال الإنجليز لكل حادثة تحدث ، خصوصا فى الأفغان إذ ذاك ، حالت دون رغبة جمال الدين فى أن يأتى إلى الهند على ما يرومه عن شكل البساطة ، ومخالطة طبقات الهنود ، لذلك كان اندهاش جمال الدين عظيما ، إذ رأى أن الحكومة الهندية تستقبله على الحدود استقبالا فخما رسميا ، وليس عليه أدنى صفة تستلزم ذلك المظهر الرسمى ، خصوصا وأنه لم ير بين ذلك الجمهور أحدا من معارفه ، ولا من استضافه ـ وهو ذلك التاجر البسيط الأفغانى ـ فقابل تلك الحفاوة بقوله : مأرب ، لا حفاوة من كريم •

ولم يسع جمال الدين فى ذلك الموقف إلا أن يشكر رجال الحكومة الهندية على احتفائهم به ، وطلب أن يذهب إلى بيت صديقه التاجر ، فأجابوه : « إن الحكومة قد أعدت له منزلا لا يمكن أن يتخلف عنه لسواه ، فرضخ إلى ذلك اللطف ، إذ علم أن العنف لا يجدى نفعا مع الضعف •

وأول سؤال ألقى على جمال الدين من الحكومة : ما هو الزمن الذى يريد أن يقيم فيه فى الهند ؟ قال : لا أكثر من شهرين . فقبلت ذلك الحكومة ووضعت من موظفيها أشخاصا يسألون كل زائر عن غرض زيارته وما يريد أن يقوله •

فجاء فى اليوم الأول عشرات ، تمكن المراقبون من أن يسمعوا ما قالوه وما أجاب به جمال الدين ، وفى اليوم الثانى أصبحت العشرات مئات ، وفى الثالث والرابع وفدوا جماهير ، وما أتم الأسبوع حتى ارتجت أقطار الهند ، وهرعت أكابر علمائها وراجاتها ، وغصت الساحات بالوفود ، وبينهم من ليس باستطاعة الحكومة الهندية أن تمنعه من الاجتماع مع جمال الدين ، ولا يمكنها بذات الوقت أن ترصد مئات من المراقبين يحضرون ويسمعون ما يدور بين الزائر والمزور .

ولما ضاقت الحكومة الهندية بذلك ذرعا ، جاء عظيم من مأموريها إلى جمال الدين وعنده أكابر من الراجات والعلماء ، فخاطب جمال الدين قائلا :

« إن الحكومة الهندية كانت تساهلت معكم للإقامة نحو شهرين ، ولكنها ارتأت أن تتقدم إليكم اليوم بأن حالة البلاد لا تساعد على بقائكم أكثر مما سكنتم » .

فأراد الحاضرون أن يحتجوا على هذا الإنذار ، وعلت وجوههم أسارير الغضب ، فأومأ جمال الدين بيده إليهم طالبا سكوتهم وحال بينهم وبين رجل الحكومة قائلا : إننى ما أتيت إلى الهند لأخيف حكومة بريطانيا العظمى ، ولا أنا على استعداد اليوم لأحدث شغبا عليها ، ولا لأنتقد شيئا من أعمالها ، ولكن تخوفها من زائر أعزل مثلى ، ومصادرتها لزائرين هم أضعف منى يسجل على حكومة بريطانيا وهن عزيمتها ، وضعف شوكتها وقلة عدلها ، وعدم أمنها من حكمها ، وأنها فى حقيقة حكمها لهذه الأقطار الشاسعة الواسعة أضعف بكثير من شعوبها .

ثم التفت إلى زائريه وقال : يا أهل الهند ، وعزة الحق وسر العدل ، لو كنتم وأنتم تعدون بمئات من الملايين ذبابا مع حاميتكم البريطانية ومن استخدمتهم من أبنائكم ، فحملتهم سلاحا لقتل استقلالكم واستنفاد ثرواتكم ـ وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الألوف ـ لو كنتم أنتم مئات الملايين كما قلت ذبابا لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ، ويجعل فى آذان كبيرهم المستر « جلاد ستون » وقرا .

ولو كنتم أنتم مئات الملايين من الهنود ، قد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة ، وخضتم البحر وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى لجررتموها إلى القعر وعدتم إلى هندكم أحرارا .

فما أتم جمال الدين كلامه حتى أذرف الحاضرون الدموع فقال : إذ ذاك بصوت عال : « اعلموا أن البكاء للنساء ، والسلطان محمود الغزنوى ما أتى إلى الهند باكيا ، بل شاكيا للسلاح ، ولا حياة لقوم لا يستقبلون الموت فى سبيل الاستقلال بثغر باسم » .

ونهض مسرعا مع رجل الحكومة لكى يذهب معه حيث شاء ، فقال له : مهلا الآن فموعد السفر غدا .

قال جمال الدين : إلى أين تريدون أن أذهب ؟ قال : إلى حيث تشاء بعد أن تبارح الهند[1] .

وفى الصباح أركب إحدى مراكب الحكومة ، وعلى نفقتها إلى السويس بمصر ، ولكنه لم يقم بمصر هذه المرة سوى أربعين يوما ، تحول بعدها متعجلا إلى السفر نحو الآستانة .

ثم كان لجمال الدين عودة ثالثة إلى الهند ، بعد أن رحل من الآستانة ـ قاصدا مصر للمرة الثانية ـ وكان ذلك فى أول المحرم سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م حيث بقى فى مصر ثمان سنوات ، ثم دس له الإنجليز عند الخديو توفيق فى مصر فأمر بإخراجه منها مع تابعه عارف أفندى أبى تراب ، فغادر مصر إلى الهند للمرة الثالثة سنة ١٢٩٦ هـ ـ ١٨٧٩ م وأقام بحيد أباد الدكن ، وفيها كتب رسالته فى أبطال مذهب الدهريين ونفيه .

ولست بحاجة إلى أن أنبه إلى أن جمال الدين كان يدرك تمام الإدراك أبعاد السياسة الإنجليزية فى الهند ، كما كان يدرك تمام الإدراك أن الهند ظلت دولة مسلمة

---

١ ـ محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين : ٩ ـ ١١ .

حينا طويلا من الزمان ، وأن المسلمين فيها من الكثرة بحيث لا يجوز لهم أن يصبروا على تحكم بريطانيا فيهم ٠

ولعل هذه الأسباب وغيرها كان السبب فى أن يضمر جمال الدين هذا الغدر الهائل من الكراهية للسياسة الإنجليزية بعامة ، ولسياسة استعمار بلدان العالم الإسلامى على وجه الخصوص ٠

وما نحب أن يفوتنا ـ ونحن بصدد الحديث عن الهند ـ التنبيه إلى شيء انفردت به الهند من بين بلدان العالم الاسلامى ، بسبب سياسة الإنجليز هناك ، ذلك أنها كانت أول بلد إسلامى بدأ فيه إلغاء الشريعة الإسلامية ليحل محلها القانون الوضعى ٠

فقد كانت الشريعة الإسلامية قانون الدولة العام ودستورها الوحيد ، حتى بعد أن قام فيها الحكم الإنجليزى الغاصب ، فكانت يد السارق تقطع تنفيذا لحكم الله إلى سنة ١٢٠٦ هـ ـ ١٧٩١ م ولكن سياسة الإنجليز قامت هناك على إلغاء الشريعة شيئا وراء شيء ، واستبدلت بها القانون الوضعى الإنجليزى ، ومازال الإنجليز يوالون إلغاء الشريعة حتى تم لهم الإلغاء الكلى لها فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الهجرى ، منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ، بحيث لم يبق نافذا من قوانين الشريعة الإسلامية آنذاك سوى قانون الأحوال الشخصية للمسلمين « الزواج والطلاق والنفقات وغيرها » ٠

وعلى نسق ما فعلت حكومة الإنجليز فى الهند ، فعل حكام الولايات الهندية المسلمة ، فصاغوا جميع القوانين فى تلك الولايات المسلمة حسب القانون الوضعى المعمول به فى الهند البريطانية ، وانحصر القانون الإسلامى كله فى نطاق الأحوال الشخصية للمسلمين ٠

هذه هى الهند فى الفترة التى عاشها جمال الدين الأفغانى ، وقد مرت بظروف لابد أن تؤثر فى جمال الدين وتوحى له بنوع العمل المضاد لسياسة الإنجليز فيها ، وفى سائر بلدان العالم الإسلامى التى يحتلها الإنجليز ، كما لابد أن يؤثر جمال الدين فى الهند وفى المسلمين المغلوبين على أمرهم فيها ٠

وللجمال الدين حديث عن الهند ومستقبلها يوضح إلى حد كبير ، كيف ينظر جمال الدين إلى الهند وكيف يرى طريق خلاصها من أعدائها الدخلاء الغاصبين .

وذلك ما سوف نسجله فى الصفحات التالية بإذن الله تعالى .

قال جمال الدين فى حديث له عن الهند ومستقبلها ، وشىء من تاريخها الإسلامى « ما أغرب ما سقطت به الأقطار الإسلامية من تفكك عرى الاتصال . وجهل بعضهم أخبار بعض ، رغم أقطارها المتصلة وأمصارها المتجاورة ، فالأفغانى قلَّما يعلم أو يهتم بحال أخيه الإيرانى ، وكلاهما لا يدرى من حوادث الهند إلا طفيفها ، ويجهلان الخطير من أمورها وحالاتها ، وكم تضيع فى هذا الجهل من فرص سانحة ، وتخسر صفقات ربما كانت رابحة لو انتهزت فى حينها ، وأعد لها معداتها مثل الثورة التى حدثت فى الهند سنة ١٨٦٠ م[١] ولم تصل أخبارها للأفغان ولا لإيران إلا بعد أن تمكن الإنجليز من إطفاء جذوتها .

وهكذا ترى الهندى أجهل من إخوانه المسلمين فى أخبارهم وأحوالهم فى مشارق الأرض ومغاربها من جهلهم بأحواله .

فالتركى ، والمغربى من تونسى وجزائرى ومراكشى ، يعلمون أن فى الدنيا مقاطعة تسمى الهند ، وفيها من الملايين هنود مسلمون .

والهنود يعلمون أن فى المعمورة دولة عثمانية إسلامية ، وإذا وصلتهم نتف عن أخبارها أو شىء عن قوتها ، خفقت له قلوبهم فرحا ، وعطفوا على حبها جوارحاً[٢] وأفئدة ، طحنتها مظالم حكامهم طحنا ، وعجنتهم بالكوارث عجنا .

وهكذا نرى العالم الإسلامى يجهل أهل كل مقاطعة فيه ما ألم بالأخرى من جور ورزية ، وكل واحد فى شأن يلهيه وهمه يكفيه .

---

١ ـ ثورة الهند حدثت فى سنة ١٨٥٧ م كما سبق أن أوضحنا وليس فى سنة ١٨٦٠ م .

٢ ـ الصواب : جوارح دون تنوين لأنه ممنوع من الصرف لأنه اسم بعد ألف جمعه حرفان .

وإنى فى كل ما جبته من الأقطار ، وتجولت فيه من الأمصار الإسلامية قلما رأيت من يعلم شيئا جوهريا عن الهند ، بل كان أعلم من رأيت من يدرك أن الهند قد سقطت تحت يد الإنجليز ، وأنها تسوم الهند سوء الأحكام .

الهند تلك الدرة الثمينة فى عقد القارة الآسيوية ، وهى التى كانت من قديم الزمن هدف الفاتحين ومطمح أنظار الملوك والسلاطين ، وإليها زحف إسكندر الأكبر ودخلها من الشمال فاتحا عن طريق سرخس باب الهند ، وعن طريق المحمرة « البصرة » وبندر عباس ، فبلوخستان ، دخل الجيش الإسلامى ، الجيش الذى بعثه الحجاج بن يوسف ، ففتح به السند وبخارى وكابل فالهند .

ثم فى القرون الوسطى زحف السلطان محمود الغزنوى ، ذلك السلطان الكبير الهمة ، الذى أقل ما يؤثر عنه فى فتحه وغزوه بلاد الهند أن الماء نفد من الجيش وكاد أن يهلك فى تلك الفيافى والوهاد ، فجاء خادم السلطان بقربة ماء كان خبأها وحرص عليها للسلطان خاصة ، فأخذها وأراقها على مرأى من الجيش وخاطبهم بقوله : « لا خير فى حياته إذا هلك الجيش ، ويفضل الموت إذا كان فيه سلامة عسكره » .

فتحمس العسكر عند ذلك وجدوا السير ، ونسوا ما هم فيه من الظمأ ، حتى وصلوا إلى مكان المياه فاستقوا ، وبعد ذلك انقضوا على حصون الهند .. وقد ثبت أن ذلك الجيش كان مجهزا بالمدافع ، فدكدكوها وافتتحوا مدنها ، وغنم السلطان ما شاء أن يغنم وقضى من الهند أربه .

ثم عقبه تيمور لنك بخيله ورجله ، فسخر الأقطار الهندية ، وأسس فيها ملكه وتعاقب فى أولاده وأحفاده .

وآخر من زحف على الهند وفيها السلطنة التيمورية : نادر شاه الإيرانى ، فأخذ من خزائن الهند وجواهرها ما لا يحصى .

ومختصر القول : أن الملوك والفاتحين طرقوا الهند ، وغنموا منها الغنائم ولكن بحروب هائلة وتجشم أخطار ، واقتحام مهالك تشيب لها النواصى .

أما الإنجليز فقد ملكو نحو ثلث العالم ، وما سفكوه فى ذلك السبيل من الدماء ، وصرفوه من الأموال ، كنسبة القطرة إلى البحار ، أو الدرهم إلى المليار ، وإنما تملكوا ما ملكوا بسلاح الخديعة والحيلة . يدخلون إلى الأقطار والأمصار أسودًا ضارية فى لين ملمس جلود الأفعى ، يعرضون أنفسهم فى صورة خدمة صادقين وأمناء ، ناصحين ، لا يهمهم إلا تقرير الأمن وأسباب الراحة ، وتقويم النظام وتثبيت الأمراء ، وتأييد نصوص الفرامين ، وتعزيز شوكة السلطان ، وغير ذلك من الحبالات والمصائد وأنواع التغرير والمكائد ، حتى إذا أرادوا التدخل فى شئون ملك للشرقيين ، ورأوا أن القائم به رجل حكيم يقظ وبصير حاذق وأن وجوده فى الملك يعرقل سعيهم ، ويؤخر سيرهم نحو ما يقصدون ، بادروا وأخذوا فى التشويش عليه ، فإما أن يفسدوا عليه قلوب رعيته ويأخذوا بيد السفهاء منهم ، ويثيروا عليه الأحقاد ، أو يغروا أحد أعضاء العائلة المالكة بالعصيان وطلب الملك ، ليجدوا فى ذلك وسيلة للدخول فى الأمر ، أو يتفقوا مع الوزراء على خلع السلطان ، ثم ينصبون بدله إما ضعيفا أو أحمق وإما صبيا لم يبلغ الرشد من أبناء الملك أو أقاربه ، ليتمكنوا من بلوغ مآربهم تحت علمه ، ويبلغوا غايتهم باسمه ويقطعوا المسافات الطويلة فى مدة قصيرة بلا ممانع ولا عائق ، مع إصابتهم جزيل الأجر على ما عملوا فى بداية الأمر .

أو أنهم يفعلون كما فعلوا مع الهنود ، لما انتشروا فى أقطارهم كتجار وشركة تجارية ، واندسوا بينهم وصرفوا فيهم كيدهم ، فتمكنوا من تفريق كلمة الأمراء ، وإغراء كل نواب ، أدراجا ، بالاستقلال والانفصال عن السلطنة التيمورية ، فتمزقت المملكة إلى ممالك صغيرة ، ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه ، فصارت الأراضى الهندية الواسعة ميادين للقتال ، واضطر كل نواب أو راجا إلى النقود أو الجنود ليدافع بها عن حقه ، أو يطلب التغلب بها على عدوه .

فعند ذلك تقدم الإنجليز بسعة الصدر ، وانبساط النفس ، ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين وبسطوا لهم إحدى الراحتين ببدر الذهب ، وقبضوا بالأخرى على سيف الغلب .

بدأوا قبل كل عمل بتنفير أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الأهلية ، ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال ، ثم أخذوا فى تعظيم شأن جيوشهم الانجليزية وقوادها ، وما هم عليه من القوة والبسالة والنظام ، حتى اقتنع كل نواب أو راجا بأن لا ناصر لهم على مغالبة خصمه إلا بالجنود[1] الإنجليزية ٠

فأقبل الإنجليز على أولئك السذج ، يضمنون لكل واحد صيانة ملكه وفوزه بالانتصار على غيره ، بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الإنجليز ، ويكون بعض الجنود من الهنديين وبعضهم من البريطانيين ، وما على الحاكم إلا أن يؤدى نفقتها ٠

ثم خلبوا عقول أولئك الأمراء بدهائهم ، وبهرجة وعودهم ولين مقالهم ، حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر ، لتدفع شر بعضهم عن بعض ٠

وصار بذلك الإنجليز أولياء المتباغضين ، وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التى أعدوها لحمايتها ، ففرقة الحكومة السنية سموها « عمرية » وفرقة الحكومة الشيعية « جعفرية » وللوثنيين سموها « كشتيه » ٠

ولما فرغت خزائن الحكام الهنود وقصرت بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية فتح الإنجليز خزائنهم ، وتساهلوا مع أولئك الأمراء فى القروض ، وأظهروا غاية السماحة ، فبعضهم يقرضونه بفائدة قليلة ، وبعضهم بدون فائدة ، وينظرون به الميسرة ، حتى ظن كل أمير أن الله قد أمده بأعوان من السماء ، وبعد مضى زمان كانوا يومئون إلى طلب ديونهم بغاية اللطف ، ويشيرون إلى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية الرفق ، فإذا عجز الأمير عن الأداء قالوا : نحن نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليك ، وإننا ننصحكم أن تفوضوا إلينا العمل فى قطعة كذا من الأرض نستغلها ، ونستوفى ديوننا وننفق من غلاتها على الجيوش التى أقمناها لكم ، ثم الأرض أرضكم نردها إليكم عند الاستيفاء والاستغناء ، وإنما نحن خادمون لكم ،

---

١ ــ الصواب : الجنود . ولعلها غلطة ناقل ٠

فيضعون أيديهم على أخصب الأراضى وأنبتها ، وفى أثناء استغلالها يؤسسون فيها قلاعا حصينة وحصونا منيعة كما يفعلون فى ثكن « قشلاقات » عساكرهم على أبواب العواصم الهندية ٠

وفى خلال هذا يفتحون للأمراء أبوابا من الإسراف والتبذير ، ويقرضونهم ويكتفون بمقابل قرضهم قيامهم على أراض أخرى يضمونها إلى الأولى ٠

ثم يمضون ويذكون نار العداوة بين الحكام ، لتنشب بينهم حروب فيتداخلون فى أمر الصلح فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثانى عن قطعة من أراضيه ، وهم فى جميع هذه الأعمال موسومون متصفون بالخادم الصادق والناصح الأمين لكل من المتغالبين ٠

وغير هذا .. فلهم شئون لا يهملونها فى إيقاع الشقاق بين سائر الأهالى فتضعف قوة الوحدة الداخلية ، ويخرب بعضهم بيوت بعض ، حتى إذا بلغ السير نهايته ، واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم ، وغلت الأيدى فلا يستطيع أحد حراكا ، ساقوا الحاكم إلى المجزرة بسيوف تلك العساكر التى كانت حامية له واقية لبلاده ، وكانت تشحذ لجز عنقه من سنين طويلة ، وينفق على صقالها من ماله . ثم خلفوه على ملكه فى حقيقة الأمر ، وفى الظاهر يظاهرون بقوتهم أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك فيخلعون الملك ويولون المطالب على شريطة أن يقطعهم أرضا أو يمنحهم امتيازا ، فيحولون الملك من الأب للابن ، ومن الأخ لأخيه ومن العم لابن أخيه ، وفى كل هذا التداول هم الرابحون ، وأول خطوة خطوها فى الهند كانت فى مملكة « أود » وهى من الممالك الواسعة وأغلب أهلها على مذهب الشيعة ولها « نواب » حاكم عظيم زينوا له الطمع فى لقب شاه لينفصل عن الملك التيمورى ٠

وفى التنازع لنيل هذا المطمع يصيب كلا من الطامع وصاحب الملك سهم الضعف والوهن ، ليتهيأ كل منهما للوقوع فى مخالب الإنجليز ، وقد حصل ٠

وعندما كانت الحرب قائمة بين دوست محمد خان وبين[1] رانجت سنك البنجابى ، تخوف الإنجليز من تسلط الأفغانيين ، فتدخلوا فى الصلح وبذلوا جهدهم فى ذلك ، وسحروا قلوب الأفغانيين بلين القول ، ولطف الوعد حتى أرضوهم بترك مدينة بيشاور وما يليها لرانجت سنك . وانعقد الصلح على ذلك ، وانجلى الأفغانيون عن مملكة بنجاب ورجعوا إلى بلادهم .

وبعد عشر سنين من تاريخ الصلح زحف الإنجليز إلى بنجاب وافتتحوها لأنفسهم ، واستولوا على مدينة بيشاور ، فقال بعض أمراء الأفغان :

« إن ذلك الصلح كان مقدمة لهذا الفتح ، وإن الإنجليز فى تعيينهم الحدود إنما كانوا يحددون بلادهم ولكن كنا عنه غافلين » .

ومن أفعال الإنجليز فى الهند ، ما فعلوه من زمن غير بعيد مع « راجابرودا » وهو أمير عظيم ، فلما أحسوا فيه البصيرة والحزم خلعوه بدعوى باطلة ، وأقاموا بدله ولدا صغيرا من عائلته ، ثم انتصبوا له أوصياء ، فوضعوا أيديهم على جميع خزائنه ، وتولوا إدارة ممالكه ، واستلموا قيادة عساكره ، ولم يبق له إلا الاسم يذكر ولا يشكر .

كل هذا يفعله الإنجليز تحت راية العدالة والإصلاح ، وحفظ الراحة وتقرير النظام ، ويساقون إليه بباعث المحبة والإخلاص ، ولا يذكر هناك اسم « التملك والاستيلاء » نعم ولهم الحق فى استبعاد اسم والسكوت عن آخر . فإن أمراء الشرقيين لا يبالون بما دلت عليه الأسماء وإنما يهمهم طنطنة الألفاظ وفخامة الألقاب ، إذ سلب الأمير الشرقى ملكه وماله ، وجرد من جميع حقوقه وبقى له لقبه ولواحق لقبه ، فهو فى سكرة من لذة ما بقى له ، وفى ذهول عما سلب منه ، هذه خلة عرفها الإنجليز فى كل أمير شرقى ، لذلك فهم يقرون أعينهم بترك هذه الأسماء محفوظة بعدما جردت عن معانيها ، ولا يرى الإنجليز أقل داع يدعوهم لنزع هذه الألقاب من الأمراء

---

١ ـ الصواب : ورانجت سنك دون تكرار بين .

وازعاجهم بذلك ، واللقب الضخم حصن حصين يسجن فيه الأمير الشرقى ، أو جب عميق يلقى فيه وهو يظنه جنة عرضها السموات والأرض .

فليعش أمراء الشرق متمتعين بنعيم ألقابهم ، وسعادة أسمائهم ويكفيهم من المجد أن يقال لهم بين خدمهم وخاصتهم فى داخل دوائرهم « نواب صاحب » و « راجا صاحب » و « خديوى صاحب » و « سلطان صاحب » .

واخجلتاه ! هذه الألقاب كانت تشير إلى ملك فسيح ومجد شامخ وشوكة قوية وسطوة تخضع لها الجبابرة ، فكيف طابت نفوس أمراء الشرق بقبولها عارية من كل شرف ، لم يبق من معناها إلا سلطة على الخدم والحشم وما هم فيها بأحرار ، بل لابد أن يوافقوا فيها رضاء الأجانب .

ومن مناقب الإنجليز وغرائب عدالتهم فى الهند أن « جيرت سنك » كان راجا على ممالك « جنبه » الواقعة فى جنب « عنبرسر » من طرف هملايا ، فلما مات هذا الملك تولى ابنه « سوجت سنك » على طبق قانون الوثنيين ؛ فأراد حاكم الهند الإنجليزى ، وهو إذ ذاك « اللورد نوثبروك » ضم تلك المملكة إلى الأملاك الإنجليزية ، وإدخالها واستملاك أراضيها حسب المألوف ، وعادة الإنجليز ، فطلب من « سوجت سنك » أن يتنازل عن الملك لأخيه « قوبال سنك » وكان وليدا من جارية ، ولا يجوز فى قانون الوثنيين أن يتولى الملك أبناء الإماء مادام من أبناء الأحرار حى ، فلما تمنع « سوجت سنك » من التنازل اعتمادا على قانون بلاده ، أنزل بحكم اللورد جبرا ، بعد ما ضربت زوجته التى كانت ملكة تلك البلاد لكونها زوجة الملك ، ونهب جميع ما كان فى بيت الملك من الخزائن والتحف والجواهر الثمينة والمخلفات القديمة « أنتيكات » التى كان يتوارثها الملوك من أجيال طويلة .

فإن عائلة الملك كانت من قدماء العائلات الملوكية ، ثم نصب بدله « قوبال سنك » وبعد فترة قصيرة عزل « قوبال سنك » ونصب بدله ولده الصغير « سيام سنك » ليكون الأمر والنهى حسا ومعنى بيد أمراء الإنجليز ، وتحت تصرف الذى أقاموه من طرفهم وصيا على الملك الصغير .

ثم إن « سوجت سنك » المخلوع ظن أن اللورد نورثبروك وحده هو الظالم وأنه لو رفع أمره إلى الحكومة العادلة فى « لوندرا » لندن .. يجد لديها عدلاً ويصادف منها إنصافا ، فجاء وعرض حاله على الحكومة العادلة ؟!! فإذا النفوس متشابهة ، والنفوس متوافقة ، والآراء متحدة والأكفار متألبة على سلب الحقوق والغلو فى العدوان ، وفى خلال السنين التى صرفها فى بث شكواه أنفق كل ما كان عنده فى المطالبة بحقه والمرافعة مع ظالمه ـ والحاكم خصمه ـ حتى أصبح صفر اليدين لا يملك قوت يومه ولا يجد له منصفا .

هذا الملك السيء الحظ مع ما كان له من رفعة الشأن وارتفاع نسبه فى الملك إلى أجداده الأقدمين من نحو ألف سنة ، رأيته وأنا فى أوربا يتضور من الجوع رث الثياب حقيرا ذليلا .

قال ولقد عثرت على منشور إنجليزى قديم ، نشرته حكومة انجلترا فى الهند ونحن نشرنا ترجمته فى العروة الوثقى ، ونصه : « إذا وجدت فى دوائر الحكومة وظيفة لا يقوم بها إنجليزى » أى لا تليق لخستها أن تكون لأحد من « الجنس الشريف » وجب أن يقام فيها أحد الفارسيين الباقين على دين « زردشت » ـ المجوس ـ فإن لم يكن منهم مقتدر على القيام بها أقيم فيها « وثنى » ـ عابد صنم ـ فإن لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء من يؤدى عملها كلف بها « مسلم » .

فليس للمسلمين فى الهند حظ من وظائف الحكومة إلا ما يعافه المجوسى والوثنى وهذا هو عنوان محبة الإنجليز للمسلمين !!! وهو برهان دعواهم أنهم أولياء المسلمين وأنصارهم !! لا أكثر الله من أمثال هؤلاء الأولياء الأنصار .

ومن مناقبهم وغرائب عدلهم !! أنهم جعلوا جزائر « أندومان » منفى لعلماء المسلمين ، والجريمة التى يستحق العالم عليها النفى هى أن يعترف بأنه معتقد ببعض آيات القرآن ..

ولو أردنا تعداد مناقب الإنجليز ، وقصصنا ما يعاملون به رعاياهم فى الهند عموما

والمسلمين خصوصا ، طال بنا الشرح ، وانتفخت بطون المجلدات ، وضاقت الصدور من كثرة السطور ، وما ذكرناه إن هو إلا نزر يسير وقليل من كثير ٠

هذه هى الهند الذى[1] إذا أشرف السائر على أى بقعة من بقاعها الشاسعة الواسعة ، شخص بصره ودهش لبه بما يراه من آثار عناية الله بتلك البقاع ، وما منحها من الخصب الطبيعى ، حتى إن الأحجار الصلدة لتنشق عن الأشجار الضخمة العالية الأغصان المورقة الأفنان ، يفىء ظلها محيطا واسعا من الأرض ، وكأن أديمها بما فرش عليه من أنواع النباتات ، وقد بسط عليه بساط من السندس الأخضر ، فيخيل للناظر أن سكنة هذه الأرض فى خفض من العيش وسعة من الرزق ، بل يظنهم أسعد من على وجه الأرض ، ولكنه إذا تجاوز المروج والأودية إلى المدن والقرى ، ضاق صدره وتفطر قلبه من منظر سكانها ، يرى ألوفا مؤلفة يعبرون فى الشوارع والأزقة جيئة وذهابا ، حفاة عراة بادية سوءاتهم كاسفة أحوالهم ، لا يجدون رمقة من العيش ٠

ثم يتمكن الحزن من الإنسان إذا رأى بأم العين ، ووقف على أحوال أولاد السلاطين المغلوبين ، وما هم فيه من الذلة ، وأحفاد « تيبو » سلطان وما أصابهم من الفقر والمسكنة ، وسلالة سلاطين « أوده » وما نزل بهم من الهوان ، ونوابى « كارناتك » وأمراء « السند » وما حل بهم من الصغار ، و« مرتة » تلك القبيلة العظيمة القاطنة فى « فونا » و« سناره » وما حولها وما أحاط بها من البلاء المنصب عليهم وعلى غيرهم من سائر الأمراء والراجاوات العظام ٠

كل تلك الأحوال والمشاهدات تسوق المنصف قهرا لأن يحكم حكما لا ريبة فيه ، بأن إدارة الحكومة الإنجليزية « العادلة » !! هى التى هيأت تلك الرزايا والبلاء للهنود ، وهى التى حرمت أولئك المساكين من التمتع بما آتاهم الله من فضله وهى التى

---

١ ـ الصواب : التى ٠ ولعلها من خطأ الناسخ أو غيره ٠

جعلت الأعزة أذلة ، وبعد أن كانوا يسكنون القصور العالية أصبحوا اليوم يأوون إلى أخصاص ، بل أقفاص .

إذا خاطب الإنجليزى هنديا ، إنما يكلمه بالعصا ، إذ لا يعدونه من فصيلة الإنسان ، وإذا أراد حكام الإنجليز أن يجمعوا أعيان البلاد لإلزامهم بأداء ضريبة جديدة ، هيئوا مكانا عاليا يرتفع عن الأرض نحو ثلاثة أذرع ، لتوضع عليه كراسى السادات الإنجليز ، ويجلس الهنود مفترشين منخفض الأرض ، إظهارا للامتياز ، مع أنهم ما جمعوهم إلا لسلخ ما بقى من جلودهم ، وامتصاص ثملة دمائهم فهل سمع بمثل هذا الأمر فى السالفين ؟ كلا !! إن جنس الهند وقوم « برهما » لما قدموا من إيران وفتحوا الهند لم يسيئوا معاملة أحد من السكان القدماء ، مع أنهم كانوا يعتقدون أنهم سماويون وأبناء الآلهة ، قبلوا جنس « التلتكان » الهندى فى مصافهم وأشركوه فى حقوقهم مع كونه مغلوبا لهم حربا .

وفتح المسلمون أرض الهند فعاملوا الوثنيين مثلما عاملوا بنى ملتهم ، ما حرموا الوظائف السامية ، وما من سلطان مسلم تسلط فى الهند إلا كان له من الوثنيين عمال ووزراء .

كان المسلمون يسيرون مع الوثنيين سيرة الأخوة حتى أوقع الإنجليز بينهم الشقاق فى بنجاب وأطراف مدراس .

يزعم الإنجليز أن المسلمين ـ بسبب التعصب الدينى ـ يجورون ولايعدلون.. مع أنا نرى إلى الآن حكومات صغيرة يحكمها راجوات ونوابون من أهل السنة والشيعة ونرى للراجا الوثنى وزيرا مسلما وعمالا مسلمين ، وللنواب المسلم وزيرا وثنيا وعمالا وثنيين .

وهكذا السنيون مع الشيعة والشيعة مع السنيين ، ولا نرى فى الملايين الكثيرة المحكومة بالإنجليز رجلا هنديا فى وظيفة شريفة .

رب نعمة جلبت نقمة .. نعم إن نعم الله على أرض الهند من الخصب ، وما أودعه

فيها من الثروة الطبيعية ، جلبت عليهم الإنجليز ، وما أكبرها نقمة على الهنود وعلى من جاورهم من الممالك ، وما اتصل بهم من البحار ، لأن الإنجليز يرون كل مملكة فى شمال الهند أو فى جنوبها أو فى شرقها وشمالها هى بابا للهند ، ومهددا لملكهم فى الهند ، ويلزم للإمبراطورية البريطانية أن تدرأ الخطر عن الهند بالاستيلاء على تلك الممالك بأى حيلة أو خديعة كانت .

استلبت من الدولة العثمانية جزيرة « قبرص » بحجة المحافظة على أملاك الدولة فى البحر المتوسط ، وما أصدقها وأبرها ، وما أعظم ما حافظت على أملاك الدولة العثمانية !! .

وحقيقة ذلك السلب إنما هو مقدمة لاستلاب ملك مصر وفيه ترعة السويس « باب الهند » ، والسودان وفيه مصوع وسواكن على البحر الأحمر « باب آخر للهند » وعدن وبوغاز باب المندب وجبل طارق وكلها أبواب أو كوات وشبابيك للهند ، والأفغان وإيران وهما البابان الكبيران العظيمان اللذان سيدخل منهما إن شاء الله تعالى إلى الهند فتستريح بريطانيا من الهند ، ويستريح الهنود والممالك الإسلامية والشرقية من الإنجليز ، وتنام فى جزيرة بريطانيا العظمى ناعمة البال ، لا يروعها ولا يخيفها أبواب الهند ، إذ يعود البيت إلى صاحبه ويتكفل بحراسة بابه بسيوفه وأسنة حرابه[1] .

وبعـــد :

فلعلنا بهذا قد أوضحنا ما تركته الهند وظروفها فى نفس جمال الدين من آثار ، وما تركه جمال الدين فى نفوس الهنود من آثار أخرى ، وما ترتب على هذا وذاك بالنسبة للإنجليز فى الهند .

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ١٦٦ ـ ١٧٥ .

الفصل الثالث :

العالم الإسلامى فى عصر جمال الدين

مصـــر

مصر

على عهد جمال الدين:

١٢٨٨ ـ ١٢٩٦ هـ

١٨٧١ ـ ١٨٧٩ م

سبق أن أشرنا إلى أن جمال الدين الأفغانى قد قصد مصر سنة ١٢٨٦ هـ ـ ١٨٦٩ م عقب طرده من الهند ، ولكنه لم يقم فى مصر هذه المرة سوى أربعين يوما توجه بعدها إلى الآستانة فى نفس العام .

ثم عاد جمال الدين الأفغانى إلى مصر سنة ١٢٨٨ هـ ـ ١٨٧١ م وأقام فيها قريبا من ثمان سنوات وتلك هى الفترة التى يعنينا أن نتحدث عنها .

ولعل من الضرورى أن نلقى ضوءا على أحوال مصر قبل جمال الدين ، ليسهل علينا التعرف عليها وفيها جمال الدين ، ثم يسهل علينا أن نعرف أثره فى رجالها وفى ظروفها كلها .

كتب الشيخ محمد عبده عن حال مصر قبل مجىء الأفغانى إليها وعن النهضة الاجتماعية فيها ، وأثبت فى ذلك أن جمال الدين هو مبدأ هذه النهضة ، فقال بعد أن تحدث عن مصر فى زمن الخديو إسماعيل باشا .. « .. هذه كانت شدائد مهلكة ، وظلمات حالكة ، يضل فيها الرشيد ويتعثر فيها العزم الشديد ، ولكن كان يلوح من خلالها ضياء لو كمل ظهوره وانتشر نوره لاهتدى به الضال .. وحسن به الحال .

ذلك أن أهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ [١] .. كانو يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ، ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم ، يتصرف فيها

١ ـ هذه السنة هى التى نشبت فيها الحرب بين روسيا والدولة العثمانية وهى من السنوات التى جعلت الناس يهتمون بأمر الدولة العثمانية والظروف السياسية العامة التى تحيط بها .

حسب إرادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكلان إلى أمانته وعدله ، أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده ، أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحا لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصرَّفون فيما تكلفهم به الحكومة وتضربه عليهم ..

وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ماعليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوربية ، ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوربا وتعلم فيها من عهد محمد على باشا الكبير إلى ذلك التاريخ الذى ذكرناه ، وذهاب العدد الكثير منهم إلى ما جاورهم من البلاد الإسلامية أيام محمد على باشا الكبير وإبراهيم باشا ، لم يشعر الأهالى بشىء ، من ثمرات الأسفار ، ولا فوائد تلك المعارف اكتسبت بها .

ومع أن إسماعيل باشا أبدع مجلس الشورى فى مصر سنة **١٢٨٣** هـ وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأنا فى مصالح بلادهم ، وأن لهم رأيا يرجع إليه فيها ، لم يحس أحد منهم ، ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن له ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية ، لأن مبدع المجلس قيده فى النظام وفى العمل ..

أما فى النظام فلأنه قد نص فيه على أن نظر المجلس منحصر فيما تراه الحكومة من خصائصه ، وما يعن لها أن ترسله إليه للمداولة فيه .

وأما فى العمل ، فلأنه كان يرسل من قبله عند المداولة من يخبر الأعضاء بإرادة جنابه فيقررون ما يريد بعد مداولة صورية ، فكانوا يشعرون بأن الإرادة المطلقة هى التى كانت ولا تزال تصرفهم فى آرائهم ، هل كان لأحد أن يعمل على خلاف ما يأمر به ؟ هل كان يمكن لشخص أن يميل بفكره عن الطريق التى رسمت له ، أو الوجهة التى يتوجه إليها الحاكم ؟ لو حدثه الفكر السليم بأن هناك وجهة خيرا من تلك هل كان يمكنه أن ينطق بما حدثه به فكره ؟ كلا فإنه كان بجانب كل لفظ نفىٌ عن الوطن أو إزهاق للروح أو تجريد من المال ، وبينما الناس على هذا ، لا كاتب ينبههم ، ولا

خاطب يعظهم ، إذ عرض أمر قلما يلتفت إليه أو تحوم الأفكار حواليه ، وإن كان مما يعرض فى كل مكان جرت به السنة الإلهية فى كل زمان .

جرت سنة الله فى خلقه بأن عظائم الأمور تتولد من صغارها ، كما أن ضخام الأشجار تبسق من بذورها ، جاء إلى هذه الديار فى سنة ١٢٨٦ هـ رجل غريب ، بصير فى الدين ، عارف بأحوال الأمم واسع الاطلاع جم المعارف جرىء القلب ، وهو المعروف بالسيد جمال الدين الأفغانى ، وركن إلى الإقامة فى مصر فتعرف إليه فى بادىء الأمر طلبة العلم ، ثم اختلف إليه كثير من الموظفين والأعيان ، ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد ، فكان ذلك داعيا لطلب الاجتماع به لتعرف ما عنده .

ثم اشتغل بالتدريس ببعض العلوم العقلية ، وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم ويتردد على مجالسه كثير من العلماء ، وغيرهم ، وهم فى جميع أوقات اجتماعه مع الناس لا يسأم عن الكلام فيما ينير العقل أو يطهر العقيدة أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور أو يستلفت الفكر إلى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها .

وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحبائهم ، فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد خصوصا فى القاهرة .

كل ذلك والحاكم القوى فى علو مكانه أرفع من أن يناله هذا الشعاع فى ضعف شأنه ، ولا زال هذا الشعاع يقوى بالتدريج [1] البطىء ، وينتشر فى الأنحاء على غير فطام ، إلى أن نشبت الحرب بين الدولةالعثمانية ودولة الروسيا فى سنة ١٢٩٣ هـ .

وجد الناس من نفسهم لذة فى الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم ، مع دولة الروسيا فتطلعوا إلى ما يرد من أخبار الحرب ، وكثرة

١ ـ الصواب : التدرج

الأجانب فى هذه البلاد سهلت ورود الجرائد الأوربية إلى طلابها من الأوربيين ومخالطتهم للعامة والخاصة مهدت الطريق إلى العلم بما فيها ، فزاد تشوق الناس إلى الوقوف على حوادث تلك الحروب ، وسرى هذا الشعور إلى بعض الجرائد العربية التى كانت لا تزال إلى هذا العهد قاصرة على مالايهم ، فانطلقت فى إيراد الحوادث ونشرها ، وظهر فيها الميل إلى إطراء ما كانت تأتى به العساكر الروسية ، وازدراء ما كان ينسب إلى الجنود العثمانية ، فوجد فى الناس الناقم على تلك الجرائد والنصر لها ، وحدث بين العامة نوع من الجدال لم يكن معروفا من قبل ، ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة ما سبقها فى نشر الأخبار ، ومناوأتها فى المشرب ، واندفعت الرغبات إلى الاشتراك فيها إلى حد لا يمكن منعه ، وقضى سلطان الوقت على سلطان الإرادة القاهرة .

لم يكن ما ينشر فى الجرائد محصورا فى حوادث الحرب بل اجترأ الكثير منها على نشر ما عليه سائر الأمم فى سيرتهم السياسية والمعاشية وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدأ فى الحكومة المصرية من سوء الأحوال المالية ، وكثر المتحدثون بما يكثر فى تلك الجرائد ، وأخذ الشيخ جمال الدين فى حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم ، وأرباب الأقلام على التحرير وإنشاء الفصول الأدبية والعلمية فى مواضيع مختلفة لا تخرج جامعتها عن إصلاح الأفكار وتهذيب الأخلاق . فتسابقت إلى ذلك الكتاب وتبارت الأقلام ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر فى الجرائد إلى درجة يظن الناظر فيها أنه فى عالم خيال ، أو أرض غير أرض الخيال ، ومن يطلع على أعداد جريدة مصر وجريدة التجارة وجريدة مرآة الشرق والأهرام ، وصداها يرى حقيقة ما ذكرنا [1] ..

وربما كان كلام الشيخ محمد عبده يلقى ضوءا على حالة مصر من الناحية الفكرية والثقافية عند الناس ، أما الحالة السياسية والاقتصادية فنستطيع أن نتعرف

١ ـ أسباب الحوادث العرابية لمحمد عبده .. نقلا عن : تاريخ الأستاذ الإمام ـ لمحمد رشيد رضا ١/٣٥ ـ ٣٨ .

عليها من خلال ما كتبه أحمد أمين عن هذه الفترة حيث قال : « ٠٠كان من حسنات رياض باشا أن أعجب بالسيد ورأى فيه عالما ، لامن طراز من عرف العلماء ، يعرف الدين ويعرف الدنيا ، ويجيد الفهم ويجيد القول ، فمكن له من البقاء فى مصر ، وسعى عند الحكومة فقررت له عشرة جنيهات شهريا » ٠

ولقد طوف فى فارس والهند والحجاز والآستانة ، وأقام فيها ، ولكن ، لعل أخصب زمنه ٠٠ وأنفع أيامه وأصلح غرسه ما كان فى مصر مدة إقامته بها من أول محرم سنة ١٢٨٨ هـ إلى سنة ١٢٩٦ هـ ، ثمانى سنين كانت من خير السنين بركة على مصر وعلى العالم الشرقى ، لا بما أفاد من جمال مظهرها وحسن رونقها وسعادة أهلها ، ولكن لأنه فيها كان يدفن فى الأرض بذورا تتهيأ فى الخفاء للنماء ، وتستعد للظهور ثم الأزهار ، فما أتى بعدها من تعشق للحرية وجهاد فى سبيلها فهذا أصلها ، وإن وجدت بجانبها عوامل أخرى ساعدت عليها وزادت فى نموها ٠٠

لقد جرب « السيد » أن يبذر بذورا فى فارس والآستانة فلم تنبت ثم جربها فى مصر فأنبتت ٠

كانت هذه السنون الثمانى من أشق السنين على مصر ، إذ كان حالها حال أسرة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فلم تكتف بدخلها الذى يسد حاجتها فاستدانت لرفاهيتها ، حتى إذا بلغت الغاية فى الدين أخذ الدائنون يحجرون عليها ويتدخلون فى شئونها ، ويشرفون على مصادرها ومواردها ، ولا يتركون لها شيئا من حرية التصرف ، فإذا الأسرة يائسة بعد نعيم ، وشقية بعد سعادة ، وإذا هى مغلولة الأيدى والأرجل والأعناق تحاول الخلاص فلا تجده وتتلمس طريق الحرية فلا تهتدى إليه ٠

فقد توالت القروض التى اقترضتها ، ففى المدة الواقعة بين سنة ١٨٦٤ م وسنة ١٨٧٥ م بلغت الديون نحو خمسة وتسعين مليونا من الجنيهات ، فجاءت بعثة كيف Cave سنة ١٨٧٥ م لفحص مالية مصر ، واقترحت لضرورة إصلاحها إنشاء مصلحة للرقابة على ماليتها ، وأن يخضع الخديو لمشورتها ، ولا يعقد قرضا إلا بموافقتها ٠

وأنشيء صندوق الدين سنة ١٨٧٦ م ، يتلسم المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية ، فكانت حكومة أجنبية داخل الحكومة المصرية ، وأنشيء نظام الرقابة الثنائية فى هذه السنة أيضا ، وكان من مقتضاه أن يتولى الرقابة على المالية المصرية مراقبان : أحدهما إنجليزى لمراقبة الإيرادات العامة للحكومة ، والآخر فرنسى لمراقبة المصروفات .

وأنشئت لجنة مختلطة لإدارة السكك الحديدة وميناء الإسكندرية ..

وجاءت لجنة تحقيق عليا أوروبية سنة ١٨٨٧ م لمراعاة مصالح الدائنين الأجانب وتدبير المال اللازم لوفاء الأقساط المطلوبة لهم .

وتطورت الرقابة الثنائية إلى تأليف وزارة مختلطة برياسة نوبار باشا يدخلها وزيران أوربيان : أحدهما إنجليزى لوزارة المالية ، والآخر فرنسى لوزارة الأشغال .

ولا شك أن المال عصب الحياة ، فالمشرف عليه مشرف على كل شيء ، فتوفير المال لأداء الديون يتطلب الإشراف على جميع الإدارات التى تغل المال .. وهذه الإدارات تحصل المال من الفلاح ، وتقول : إنه لابد أن يكون آمنا على ماله ، مهيأة له وسائل إصلاح زراعته ، يعامل بالعدل فى تحصيل الضرائب منه ، فلابد من الإشراف على هذه الشئون كلها من أجل المال .

وهكذا من أشرف على المال أشرف على كل شيء ..

كل هذا حدث مدة إقامة جمال الدين فى مصر ، وكان من طبعه الانغماس فى السياسة ، ونمى هذا الطبع فيه نشأته فى بيت حكم ، وانغماسه فيها أيام تنازع الأسرة المالكة فى الأفغان ، فكانت هذه الأحداث المصرية حافزة له على أن يعيد ما بدأ به من الاشتغال بالسياسة وحافزة للناس فى مصر على أن يجاوبوا حركته [١] ..

وبعد : فهذا تصوير لحال مصر من وجهة نظر الشيخ محمد عبده ، وتحديد لما قام به جمال الدين فى هذه الآونة كما يراه أحمد أمين ، وما هذا ولا ذاك بكاف فى تعرفنا

١ ـ أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث : ٦٨ ـ ٧٠ ط النهضة المصرية ١٩٧١ م .

على أحوال مصر فى تلك الفترة ، لأنه على وجازته لا يعدو أن يكون وجهة نظر ، وهى وإن كانت تلقى ضوءا كاشفا على الحال السائدة آنذاك إلا أنها تحتاج منا ـ ونحن بصدد الحديث عن مصر فى عهد جمال الدين بها ـ إلى مزيد من البسط الذى يتطلبه الموضوع أعنى أن نتحدث عن إسماعيل باشا وتوفيق باشا حديثا مفصلا بعض التفصيل ، إذ من خلال ما قام به هذان الحاكمان كان لجمال الدين رأى وكانت له خطة عمل وإصلاح ٠

معالم حكم إسماعيل باشا

الفترة التى عاشها جمال الدين الأفغانى فى مصر ، والتى تبدأ من شهر مارس سنة ١٨٧١ م وتنتهى فى سنة ١٨٧٩ م واقعة كلها فى فترة حكم إسماعيل باشا خديو مصر الذى حكم مصر من سنة ١٨٦٣ م إلى سنة ١٨٧٩ م

أما حكم توفيق باشا فلم يدرك منه جمال الدين إلا قليلا ، حيث كان من أبرز أعمال توفيق بعد أن تولى الحكم ، أن أخذ فى التضييق على جمال الدين من جانب وحرص على تشويه سمعته من جانب آخر ، ثم قرر نفيه عن البلاد ولم تمض عليه فى حكم مصر إلا مدة وجيزة ، صنع توفيق هذا بجمال الدين على الرغم من أنه كان يحترم جمال الدين ويحترم آراءه ويعده بأنه سوف ينفذها إن جاء إلى الحكم ، يوم كان خارج دائرة الحكم ٠

لذلك فسوف نوجه اهتمامنا إلى الحديث عن إسماعيل باشا لأن جمال الدين عايشه وعايش فترة حكمه القلقة المضطربة ٠

تربى إسماعيل باشا فى أوربا ، وبها كانت نشأته ، ومنها استمد كثيرا من قيمه وفلسفته ، فلم يكن عجيبا أو غريبا عندما تولى عرش مصر أن يحاول أن يجعل من مصر قطعة من أوربا ـ كما صرح بذلك مرارا ـ وأن يجعل من نفسه ملكا كملوك أوربا

فى الأبهة ومظاهر العظمة وشكل الحكم الذى يمارسه ، جعل ذلك همه وصرف إليه كامل همته ، دون تفكير منه فى قدرة البلاد المالية على ذلك « التأورب » ودون اعتبار منه لطبيعة هذا الشعب المصرى المستقر الوادع المتميز بشخصيته التى تستمد كيانها من دينه وعاداته وقيمه ، ودون إدراك منه لطبيعة هذا التغيير الذى يريد أن يفرضه على الناس فرضا .

من أجل ذلك كلف إسماعيل مصر ـ وأهل مصر ـ ما لا تطيق من النفقات وحين لم تسعه موارد مصر ، لم يجد إلا الاتجاه إلى الاستدانة من الدول الأجنبية ، فاستدان حتى أغرق مصر فى ديونها وفى نفوذ الأجانب وفى الاحتلال من بعد ذلك بقليل.

ولقد كان من تناقض إسماعيل وسوء رأيه وتقديره عندما تولى عرش مصر ، أن وجه اللوم إلى سلفه عمه سعيد باشا ، لأنه كان قد استدان أحد عشر مليونا من الجنيهات ، واتهمه بالتبذير وسوء السياسة المالية ، وكانت تهمه هذه فى أول خطبة ألقاها حين تولى العرش بعد عمه سعيد ، حيث قال :

« إن أساس الإدارة هو النظام والاقتصاد فى المالية ، وسأبذل كل جهدى فى اتباع قواعد النظام والاقتصاد ، وقد عزمت أن أرتب لنفسى مخصصات محددة لا أتجاوزها أبدا ، وسأعمل على إبطال السخرة التى اعتمدت عليها الحكومة فى أعمالها ، وآمل أن تؤدى حرية التجارة إلى نشر الرفاهية والرخاء بين جميع طبقات الشعب ، وسأعنى كل العناية بتوطيد دعائم العدالة »[١]

وتلك كلمات براقة خالبة كان يود إسماعيل أن تنطلى على الناس وأن تخدعهم عن حقيقة ما سيوصلهم إليه من ضياع ، نتيجة لخرقه فى السياسة وفى الاقتصاد والنظام ، فقد أكدت لنا وقائع حياته وشواهد سياسته أنه تناقض تماما مع ما أعلن فى هذا الخطاب ، وخالف ماعاهد عليه الأمة ، ولست أدرى : أضعف إسماعيل أمام رغباته وشهواته الشخصية فخالف ما عاهد عليه الأمة ، أم ضعف أمام ضغوط الأجانب

١ ـ عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل

الذين مكنهم بخرق سياسته من البلاد حتى أضحوا شركاء فى الحكم وفى الوزارة ، أم هناك أسباب أخرى لم يكشف عنها بعد ، المهم أن المشاهد : هو أن إسماعيل قد خالف ما عاهد عليه الأمة وخاس بكل وعد ونقض كل عهد ·

وأول ماصنع إسماعيل فى مخالفة ماعاهد عليه الأمة أنه لم يرتب لنفسه مخصصات محددة ـ كما ادعى ـ وإنما رغب فى أن تكون له أملاكه الخاصة ، فاقترض أكثر من خمسة ملايين من الجنيهات بفائدة فاحشة ، مدعيا أنه سينفق منها على مقاومة الطاعون البقرى ، وأنه سيسدد منها أقساط ديون عمه سعيد ، وكان ذلك بعد توليه الحكم بأقل من سنة وبالتحديد سنة ١٨٦٤ م ·

والحق أن هذا الدين لم ينفق فيما ادعى إسماعيل أنه سينفقه فيه ، وإنما أنفق فى شراء الأطيان والأملاك وبناء القصور ـ التى كان منها قصره على ضفاف البوسفور الذى أعد ليكون سكنا له عندما يزور الآستانة ـ وأنفق فى بذخه وإسرافه وسوء تصرفه ·

وثانى ماخالف به عهده أنه اقترض قرضا آخر سنة ١٨٦٥ م ليواجه به انخفاض أسعار القطن المصرى بسبب استعادة القطن الأمريكى مكانته بعد انتهاء الحرب الأهلية فى أمريكا ·

وثالث هذه المخالف أنه اقترض سنة ١٨٦٦ م ثلاثة ملايين جنيه من بعض الممولين الأوربيين ـ وكانوا قد فقدوا الثقة فى سداده فأبوا إلاَّ أن يرهن لهم فى مقابل الوفاء بأداء الدين شيئا يضمنون به أموالهم ـ فرهن لهم إيرادات السكك الحديدية ·

ثم اقترض ما اشترى به ـ عن طريق الرشوة ـ لبلاط الآستانة · « فرمانا » بحصر وراثة عرش مصر فى أكبر أبنائه هو ، بدلا من الأرشد من عائلة محمد على كما كان عليه الأمر قبل إسماعيل ·

وفى سنة ١٨٦٧ م اقترض مايقرب من ثلاثة ملايين جنيه ، وكان إسماعيل فى

عموم تصرفاته كثير الاقتراض من المرابين الأجانب الذين يقيمون داخل مصر والذين كانوا يقرضونه بفوائد فاحشة ٠

ويكفى أن نشير إلى أن عهد إسماعيل ـ على الرغم من الضوائق المالية التى كانت تعانى منها مصر ـ هو عهد الإنفاق الباذخ على بناء مستحدثات فى مصر عديدة منها :

دار التمثيل ، وميدان سباق الخيل ، وقصر القبة ، وقصر الزعفران ، وقصر الجيزة ، والبدء فى بناء قصر عابدين ، وتحديد حديقة الأزبكية ، وكل هذه لإسماعيل وحده ، ولإرضاء رغباته الشخصية ، وليس كل ذلك بالقطع متفقا مع ما أعلنه إسماعيل من أنه سيرتب لنفسه مخصصات معينة وأنه لن يتجاوزها ٠

ورابع هذه المخالفات أو التخبطات أن عين إسماعيل باشا صديق مفتشا للمالية ، وكان هذا المفتش نكبة على سياسة مصر المالية ، كما كان نكأً لمسألة الدين والاستدانة ، فعلى مدى السنوات الثمانية التى ولى فيها الشئون المالية ، عمد إلى استدانة كثير من الأموال إرضاء لنزعات إسماعيل باشا خديو مصر من جانب ، ولينال هو نصيبا من جانب آخر ٠

وفى سنة ١٨٦٧ م أنفق الخديو ببذخ على معرض باريس وعلى زيارته لفرنسا وفى نفس العام اشترى إسماعيل باشا لقب الخديو من الآستانة بالرشاوى التى أغدقها على المسئولين هناك ٠

وقد افتتح إسماعيل صديق عمله سنة ١٨٦٨ م بقرض يبلغ اثنى عشر مليونا من الجنيهات ، ذهب جانب منها لإتمام القصور التى كان قد بدأها إسماعيل باشا الخديو ، وجانب منها أنفق على الولائم والرشاوى وحفلات افتتاح قناة السويس ، وما كان فيها من بذخ وإسراف ٠

ومضت سياسة إسماعيل المالية تهوى نحو منحدر سحيق ، وتتعاورها المشكلات والاضطرابات حتى هددت البلاد بالإفلاس ، إذ رهنت إيرادات أغلب ما تملكه

الحكومة ، وما مضى غير قليل من الوقت حتى أضحت ديون مصر خمسة وسبعين مليونا من الجنيهات •

وكان نتيجة ذلك أن قيدت حكومة الباب العالى سلطات الخديو إسماعيل « بفرمان » سنة ١٨٦٩ م ، وخلاصة هذا « الفرمان » : حرمان إسماعيل من حق الاقتراض إلا بإذن من الآستانة ويعد هذا « الفرمان » بتلك الصيغة قضاء معنويا على إسماعيل باشا خديو مصر •

ولقد بلغ من سوء تصرف الخديو إسماعيل وانصرافه إلى البذخ والرشاوى والاستكثار من الديون ، أن باع حق مصر ونصيبها من أسهم قناة السويس سنة ١٨٧٥ م لحكومة انجلترا بثمن بخس دراهم معدودة وإن قدر آنذاك بأربعة ملايين من الجنيهات ، على حين كانت تساوى أكثر من ذلك بكثير ، ولقد قدر قيمة هذه الأسهم بعد ذلك بقريب من نصف قرن بما يساوى اثنين وسبعين مليونا من الجنيهات ، وهو تقدير متواضع إلى حد كبير •

وما مضت تلك السنون على إسماعيل فى الحكم ـ وهو سادر فيما هو سادر فيه ـ حتى أفاق على جملة من الحقائق الرهيبة :

أولها : أنه أصبح محجورا عليه وعلى تصرفاته من قبل الباب العالى •

وثانيها : أنه وجد من المولين الأجانب انقباضا عنه فى أى قروض للدولة ، وفضلا عن ذلك فقد قبضوا أيديهم حتى عن القروض الخاصة به شخصيا ، وذلك عندما رأوا ارتباك سياسة إسماعيل الاقتصادية فى مصر ، وعجز ميزانيتها عن الوفاء بهذه الديون •

وثالثها : أنه ضيع أسهم مصر فى قناة السويس وكانت تمثل جانبا من دخل مصر له أهميته ••

ورابعها : أنه أدرك خطأه فى إسناد الشئون المالية لإسماعيل صديق حيث وجد البلاد قد غرقت فى الديون بصورة أكبر مما كانت عليه قبل هذا المفتش المشئوم ، وفى الوقت نفسه لم تسهم هذه الديون فى تنمية مصر ولا فى دعم اقتصادها •

أفاق الخديو إسماعيل على هذه الحقائق المرة ، وكان لابد أن يعمل على تلافى هذه المتاعب وإنقاذ نفسه أولا والبلاد ثانيا من هذه الأزمة ، فهداه فكره إلى طريقة يخفف بها من حدة هذه الأزمة ، أو يحتال بها على إعادة الثقة فيه وفى سياسته المالية ، فرأى أن يستقدم خبيرا أجنبيا فى شئون المال والاقتصاد ، فأحضر خبيرا ماليا إنجليزيا ، وكان على ثقة من أنه يستطيع أن يوجه هذا الخبير عن طريق إكرامه أو رشوته بحيث يقدم تقريرا ماليا فى صالح إسماعيل باشا خديو مصر ، مما يجعل الممولين يفتحون له خزائنهم من جديد ، بعد أن يكونوا قد وثقوا به نتيجة لهذا التقرير المزور .

غير أن فكر الخديو وخطته فى هذا الأمر ، لم يكن حكيما من جانب ، ولم تواته الظروف لتحقيق هذه الخطة من جانب آخر ، إذ حضرت بعثة إنجليزية اقتصادية كاملة ، ولم يحضر خبير واحد - كما كان يود الخديو إسماعيل - وكان على رأس هذه البعثة « مستر استيفن كيف Cave » فى شهر ديسمبر ١٨٧٥ م ، ولم يتمكن إسماعيل باشا خديو مصر من التأثير على تلك البعثة ولا من رشوتها ، فقدمت اللجنة تقريرها ، فكان كشفا للحقيقة المرة ، فأعلنت ذلك على الناس فى مصر وفى غير مصر .

وكان مما جاء فى تقريرها مايعد دليل إدانة للخديو إسماعيل ولإدارته وسياسته الاقتصادية للبلاد ، إذ اتهمته بأنه لم ينفق هذه الديون فيما يعود على البلاد بالنفع والتطوير .

وأوصت هذه اللجنة بأن تحول ديون مصر إلى دين واحد موحد بلغت جملته خمسة وسبعين مليونا من الجنيهات ، ورأت أن يسدد هذا الدين على مدى خمسين عاما بفائدة قدرها سبعة فى كل مائة ، واقترحت اللجنة أن تكون هناك رقابة أوربية على مالية مصر .

وكانت الكارثة المالية التى وقعت فيها مصر فى عهد إسماعيل والتى جرّت على مصر من المتاعب والاضطرابات ماأدى - مع غيره من الأسباب فيما بعد إلى احتلال

الإنجليز لمصر عقب فشل الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ م - كانت تلك الكارثة فى كلمات هى : عجز الخزانة المصرية عجزا كاملا عن الوفاء بالتزاماتها المالية ، مما اضطر معه الخديو إلى أن يصدر « فرمانا » بتأجيل سداد الأقساط ، مما أشاع الذعر فى الأسواق المالية ، ومما ساعد على الهجوم السافر على الخديو إسماعيل والمناداة بوجوب خلعه ٠

ولم يقف الخديو إسماعيل مكتوفا إزاء هذه الهجمات لكنه فكر وقدر ، ثم هداه تفكيره إلى أسوأ مما اهتدى إليه حين استقدم بعثة اقتصادية إنجليزية لتفضحه ، فقد رأى - استرضاء للدائنين ووكلائهم فى مصر أن يقترحوا عليه نظاما يرتضونه ضمانا لحقوقهم - وهنا بادرت فرنسا وكأنها كانت مع ذلك على موعد ، فاقترح وكلاؤها إنشاء صندوق للدين وتوحيداً لهذه الديون ، وما كان من الخديو إلا أن قبل ذلك ، وأنشىء الصندوق ، وخصصت له إيرادات الجمارك والسكك الحديدية وبعض المديريات وغيرها ٠

وقدرت الديون التى كانت بالأمس خمسة وسبعين مليونا من الجنيهات ، قدرت اليوم بواحد وتسعين مليونا ، واقترح سدادها فى خمس وستين سنة بفائدة قدرها سبعة فى كل مائة ٠

وهكذا أدخل إسماعيل مصر - بإنشاء هذا الصندوق وقبول هذا النظام - فى سيطرة أجنبية ، أخضعت إيراداتها المالية على مدى خمسة وستين عاما لإدارة الأجنبى المغتصب ، وجعل مصر - بهذه السياسة وذاك الإخضاع - تعيش فى تبعية سياسية ذليلة لانجلترا وفرنسا فى النهاية ، إذ لم ترض انجلترا عن هذه السياسة ، لأن فرنسا وحدها هى المسيطرة على مالية مصر ، فرأت أن تكون هناك رقابة ثنائية فعالة من انجلترا وفرنسا معا ، وقد كان ماأرادت انجلترا ٠

فحضر من انجلترا « المستر جوسشن (Goschen) مندوبا عن انجلترا لوضع هذا المشروع موضوع التنفيذ ٠

ثم عين مراقبان بوظيفة « مفتشين عموميين » أحدهما انجليزى يراقب الإيرادات ، والثانى فرنسى يراقب المصروفات ٠

وكونت لجنة مختلطة لإدارة مرفق السكك الحديدية وميناء الإسكندرية على اعتبار أنهما موردان هامان من موارد مالية مصر ٠

وعرفت تلك اللجنة الثنائية فى تاريخ هذه الفترة بالرقابة الثنائية ومارست عملها سنة ١٨٧٦ م ، وأخذ نفوذ هذه اللجنة يتسع حتى تدخلت فى كل شئون البلاد الاقتصادية ٠

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما تحين هؤلاء الأجانب كل الفرص لإثبات عجز مصر عن الوفاء بديون إسماعيل ، فشكلت لجنة تحقيق لدرس الأحوال المالية لمصر ، وأخذت هذه اللجنة تسأل وتناقش وتبحث فى كل فرع من فروع الإدارة ، وكان رئيس هذه اللجنة « فردينان ديليسبس صاحب مشروع قناة السويس » وكان من أهم أعضاء تلك اللجنة : « السير ريفرس ويلسون Rivers Wllson» الإنجليزى ٠

وقد قدمت هذه اللجنة تقريرها وتوصياتها من أجل أن تسير مصر فى سياستها نحو الغاية التى تحقق مصالح الدائنين ومصالح مصر ـ كما زعمت ـ وكان من أهم مارأت تلك اللجنة أن يتنازل الخديو إسماعيل عن سلطاته المطلقة ، لوزارة مسئولة ـ وفى ذلك قضاء حِسِّى على إسماعيل بعد أن كان الباب العالى قد قضى عليه قضاء معنويا ـ والحق أنه لا اللجنة ولا الباب العالى كان السبب فى القضاء على إسماعيل حسا ومعنى وإنما السبب الحقيقى هو خرق سياسته وأطماعه وشهواته وسوء تربيته وفساد نشأته فهى نشأة غير إسلامية وغير عربية وغير مصرية فكيف به ـ وتلك نشأته ـ يحكم جزءا من العالم الإسلامى ؟

لذلك لم يكن رده الضعيف على اللجنة مفاجأة لأحد ، ولم يكن موقفه من تلك المقترحات المخزية له مثار تساؤل أو دهشة عند أحد ، فقد قال فى الرد على تلك المقترحات ـ بعد أن شكر اللجنة واعتزم قبول اقتراحاتها وتنفيذها ٠٠ : « ٠٠ إن بلادى لم تعد فى إفريقية ، بل نحن الآن قطعة من أوربا ، فطبيعى أن نطرح الأغلاط الماضية وأن نسير على نظام يتفق وحالتنا الاجتماعية »

وكان من نتائج تلك المقترحات التى قدمتها اللجنة أن أمر إسماعيل بتأليف أول وزارة برئاسة نوبار باشا يشترك فيها لأول مرة وزيران أجنبيان أحدهما « السير ريفرس ولسن » الإنجليزى وزيرا للمالية والآخر « المسيو بلينير » الفرنسى وزيرا للأشغال ، وكان دخول هذين الوزيرين مغنيا عن تلك اللجنة الثنائية ، وكان من شروط تلك المقترحات أن تعود لجنة الرقابة المالية للعمل إذا فصل أحد الوزيرين من الوزارة ·

وعندما حدثت ثورة الضباط فى ١٨ من شهر فبراير سنة ١٨٧٩ م ـ التى كانت تمهيدا لثورة أحمد عرابى فيما بعد ذلك بقليل ـ استقال نوبار باشا ، وأبدى إسماعيل رغبته فى أن يتولى الوزارة بنفسه ، غير أن الأجانب أجبروه على أن يتنازل عن ذلك ، وأن يعين ابنه محمد توفيق ولى عهده لرئاسة تلك الوزارة ·

وقد كان من قصة ثورة الضباط هذه ، أنه بعد أن شكل نوبار وزارته وفيها هذان الأجنبيان ، قامت الوزارة بعزل عدد من الموظفين وعينت فى أماكنهم موظفين أجانب وأغدقت عليهم الرواتب ·

ثم أحالت الوزارة مايقرب من ألفين وخمسمائة ضابط إلى الاستيداع ، حيث استدعوا من الأقاليم لتسليم أسلحتهم ومعداتهم فى القاهرة ، غير أنهم عندما تجمعوا فى القاهرة ساروا إلى دواوين الحكم فى شكل مظاهرة لرفع مظالمهم إلى نوبار باشا وريفرس ولسن ، ولما لم تجد هذه قبضوا على نوبار وولسن وسحبوهما مع آخرين فى ديوان الوزارة واحتلوا المبنى ، وعندئذ لجأ القناصل إلى الخديو إسماعيل لحل الأزمة ، فذهب بنفسه وترضى الضباط ووجدها فرصة لإقالة وزارة نوبار فأقالها ، وترضى القناصل بأن يكون فى الوزارة الجديدة برئاسة ابنه توفيق للوزيرين الأوربيين الإنجليزى والفرنسى حق الاعتراض « الفيتو » على كل قرار تراه الوزارة · ولا يوافق عليه هذان الوزيران ·

ولم تمكث هذه الوزارة طويلا ، ثم أعقبتها وزارة شريف باشا ·

غير أن الدول الأوربية التى لمست ضعف إسماعيل لم يرضها كل هذا ، بل رأت أن العقبة ـ فى سبيل تأمين مصالحهم ـ هو إسماعيل نفسه ، فطلبوا من الآستانة خلعه ، وتم لهم ما أرادوا ٠

وهكذا كانت نهاية إسماعيل مخزية له من جانب ، ونتيجة لتخبطه وبذخه وأطماعه من جانب آخر ، وما انتهى حكم إسماعيل حتى كانت مصر غارقة فى المشكلات السياسية والاقتصادية وعلى شفا هاوية من الاحتلال الأجنبى للبلاد ٠

وجاء بعد الخديو إسماعيل ابنه الخديو توفيق ، فكانت تركته مثقلة بكثير من الديون وبمزيد من التدخل الأجنبى فى اقتصاد البلاد وفى سياستها ، ولم يستطع توفيق باشا ـ على الرغم من أنه كان قبل أن يصل إلى عرش مصر يعد ويمنى ويعقد صلات ببعض المصلحين ومنهم جمال الدين الأفغانى ـ لم يستطع أن يوقف العجلة عن الانزلاق فى هاوية الاحتلال ٠

ولم تكن سياسة توفيق نابعة من رغبته فى العناية بشئون البلاد وتخليصها من متاعبها السياسية والاقتصادية ، بقدر ماكانت نابعة من مراعاته لتلك الدول الأجنبية الضاغطة عليه ، بل خوفه الحقيقى منها ـ وقد رأى كيف خلعت أباه وطوحت به إلى زوايا النسيان والإهمال ـ فكانت سياسته غير مخلصة للشعب والمواطنين بقدر ماكانت محققة لأهداف الأجانب فى البلاد ٠

لذلك لم يكن عجيبا أن يتنكر توفيق باشا لجمال الدين الأفغانى ، وأن يسعى جهده لتشويه صورته عند الناس ، وتقبيح اتجاهه ـ على الرغم من وعوده السابقة لجمال الدين وغيره من المصلحين ـ ولذلك لم يكن عجيبا كذلك أن لايمضى على توفيق فى جلوسه على عرش مصر إلا عام أو قريب من عام ثم تقوم ثورة أحمد عرابى ، فتسهم فى كشف حقيقة ما يجرى فى مصر ٠ (١)

---

١ ـ عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ٠٠ بتصرف واختصار

وبعد : فإن هذه الفترة فترة حكم إسماعيل لمصر من سنة ١٨٦٣ م إلى سنة ١٨٧٩ م كانت من أكثر الفترات السياسية حساسية فى تاريخ مصر الحديث ، وهى الفترة التى عاصرها جمال الدين الأفغانى أثناء إقامته فى مصر أو عاصر أغلبها من سنة ١٨٧١ م إلى سنة ١٨٧٩ م ، لهذا تأثر جمال الدين بهذه الظروف ولهذا أيضا أثر جمال الدين فى تلك الظروف ووجه الأحداث فيها •

ولنتعرف الآن على ما كان من جمال الدين الأفغانى من مواقف بالنسبة لحكام مصر فى تلك الفترة •

بين جمال الدين وحكام مصر

عندما جاء جمال الدين الأفغانى إلى مصر ـ فى حكم إسماعيل ـ احتفل به الخديو ووزيره آنذاك رياض باشا ، ولقياه أحسن ما يكون اللقاء ، ومكنا له من القيام بدعوته إلى الإصلاح ، وهذا وحده تكريم لجمال الدين الأفغانى أكبر من تكريمه بتخصيص راتب له من الدولة •

عندئذ اتصل بالسيد عدد كبير من أبناء مصر الراغبين فى إصلاح بلادهم ، آملين أن يكون على يد جمال الدين مايرجونه من الحرية والاستقلال والتخلص من نفوذ الأجانب فى البلاد •

وكان على رأس قُصاد جمال الدين الأفغانى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، فأخذ جمال الدين يعمل مع هؤلاء القصاد له على مقاومة النفوذ الأجنبى فى مصر ـ وكان قد استشرى حتى أوشك أن يقضى على البلاد ـ لئلا تقع مصر فى أيدى الأجانب كما وقعت الهند ، وجعل يبث فى تلاميذه وأصدقائه حب الوطنية والحرية ، ويؤلبهم على الحكم الاستبدادى الذى أدى إلى ضعفهم ، وأطمع الأجانب فى الاستيلاء على بلادهم ، ولا يهمه فى هذا ماكان من إكرام إسماعيل باشا له ، لأنه كان يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، ولم يزل يسعى فى هذا حتى ألف حزبا

سماه « الحزب الوطنى » ليقوم بالدعوة إلى إصلاح الحكم ، ويقاوم نفوذ الأجانب فى مصر .

وكان إسماعيل باشا يتغاضى عن طعنه فى الحكم الاستبدادى ، ليمكنه التخلص من نفوذ الأجانب بعد أن طغى على نفوذه ، ولكن الغلبة كانت فى النهاية لهؤلاء الأجانب لأنهم سعوا عند السلطان حتى حملوه على عزل إسماعيل باشا وتولية ابنه توفيق باشا .

وكان توفيق قبل أن يتولى الحكم معجبا بجمال الدين ، ولكنه عندما تولى الحكم مالبث أن تنكر له وضاق بآرائه فأصدر أمره بأن ينفى من البلاد . فنفى من مصر سنة ١٢٩٦ هـ ـ ١٨٧٩ م ولكن بعد أن تمكن من أن يثبت فيها الدعوة إلى الاصلاح ويترك لهذه الدعوة رجالا ومنهجا فى الإصلاح ، وقد قام هؤلاء الرجال بالعمل بعده ، وكان من أقواهم فى العمل الشيخ محمد عبده ، الذى قال فيه جمال الدين لمودعيه وهو خارج من مصر : « إننى خرجت من الديار المصرية وما ألفت كتابا ، ولكننى تركت لكم أثرا يغنى عن جميع الكتب وهو محمد عبده ، وكفى به لمصر عالما » .

مذهب جمال الدين فى الإصلاح

« قد يظن أنه ـ أى الشيخ محمد عبده ـ هو وأستاذه جمال الدين الأفغانى من مدرسة ابن تيمية ، والحق أن جمال الدين الأفغانى أنشأ مدرسة حديثة تنحو فى التجديد الإسلامى مذهبا يؤمن بفائدة الفلسفة الحديثة وعلومها ، ويحاول أن يقيم النهضة على أساسها ، كما قامت عليه نهضة أوربا ، وهذه المدرسة أقرب إلى ابن رشد من ابن تيمية ، لأن ابن رشد كان يؤمن بالفلسفة وعلومها فى عصره ، ويرى أنه لاخلاف بين الإسلام والفلسفة .

أما ابن تيمية فكان يخالف ابن رشد فى هذا ويرى تكفير الفلاسفة كما يراه مخالفوه من الأشعرية .

وبهذا انتصر رأى ابن رشد عندنا ولكنه جاء متأخرا ، ولهذا مكثت مدرسة ابن تيمية على جمودها فى هذا القرن أيضا ، ولم تلن فيه للتجديد الذى دعا إليه جمال الدين الأفغانى فى القرن السابق ، وتابعه فيه الشيخ محمد عبده فى هذا القرن (الرابع عشر) ، وقد ظهر كل منهما فى بيئته الأشعرية فوجد فيها أنصارا يؤيدونه فى تجديده ، حتى دخل كثير من الإصلاح والتجديد فى الجامعة الأشعرية الكبرى (الجامع الأزهر) من نحو نصف قرن أو أكثر ، ومن أهم وجوه الإصلاح فيها دراسة العلوم الفلسفية الحديثة •

وكذلك كانت بيئة الأشعرية فى نظرها إلى آثار الحضارة الأوربية فإنها سبقت إلى الإيمان بفائدة استعمالها من القرن السابق ، حتى صارت عندها شيئا مألوفا فى هذا القرن ، فلا يظهر أثر جديد من آثارها فى أوربا حتى ينتقل إلى البلاد الإسلامية الآخذة بعقيدة الأشعرى ، فتبادر إلى استعماله ولا ترى فيه ما ينافى عقيدتها أو يخالف أصلا من أصول دينها •

أما أصحاب مدرسة ابن تيمية فإنهم مكثوا إلى مدة قريبة ينظرون بعين العداء إلى آثار الحضارة الأوربية من الدراجات إلى السيارات إلى غيرها من آثار هذه الحضارة •

ولم يخالفهم فى هذا إلا الملك عبد العزيز آل سعود فإنه لم يقع مثلهم فى ذلك الجمود الدينى ، بل عمل على الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة فى بلاد العرب ، ليجمع فيها بين الإصلاح الدينى والمدنى ، حتى يسير التجديد الدينى والتجديد المدنى فيها جنبا لجنب ، ولا يتخلف أحدهما عن الآخر •

وهذا هو الطريق الصحيح للتجديد فى الإسلام ، وبهذا يكون الملك عبد العزيز من مجددى هذا القرن » (١)

١ ـ عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الإسلام : ٥٢٨ ـ ٥٢٩ • ط مكتبة الآداب ـ القاهرة ، ١٣٨٢ ـ ١٩٦٢ م

خطة جمال الدين فى عمله فى مصر

لم يكن جمال الذين ليعمل من غير تخطيط وإدارة جيدة ، فهو الرجل الذى جاب البلاد الإسلامية وخبرها وعرف عن قرب أعداءها وكشف بذكائه نواياهم ، ولم يكن جمال الدين بالذى يؤمن بأن العمل الإصلاحى الإسلامى فى مثل هذا الجو يتطلب خطا واحدا يسير فيه ، وإنما أدرك الرجل أنه لابد من خطوط كثيرة متوازية فى العمل تؤدى إلى نهاية واحدة هى تخليص العالم الإسلامى من أعدائه الأجانب عنه ، وتخليصه كذلك من ظلم الحكام المستبدين .

وقد اختار الرجل أكثر من خط يسير فيه ، وكان لعمله السياسى الإصلاحى الإسلامى أسس يعتمد عليها ، ومن أبرز هذه الأسس التى وضحت لنا من خلال التعرف على ظروف مصر آنذاك :

أولا : تنوير الرأى العام وكشف الحقائق السياسية له بوساطة الصحافة .

ثانيا : جذب الأنصار واصطناع المفكرين والقادة واصطفاؤهم من خلص تلاميذه ومريديه .

ثالثا : تكوين الجماعات التي تزيد من ترابط أصحاب الرأى المستنير والفكر الإسلامى المستقيم ، لتكون هذه الجماعات نواة للحكام العادلين الذين يأمل جمال الدين أن يخلصوا الشرق الإسلامى من أعدائه .

أما فى المجال الأول وهو تنوير الرأى العام ، فقد اتخذ من الصحافة وسيلته فى الوصول إلى هدفه ، فكان يشجع النابغين من تلاميذه على إنشاء الجرائد والمجلات ويعاونهم فى ذلك بجاهه وأصدقائه كما فعل مع أديب إسحق عندما عاونه وشجعه على إنشاء جريدة مصر فى القاهرة وجريدة التجارة فى الإسكندرية .

وكان جمال الدين يكتب فى هاتين الجريدتين بأسماء مستعارة ويشارك فى رسم خطة العمل فيهما ، ويستكتب لهما نابغى تلاميذه كالشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقانى وغيرهما •

وقد كتب جمال الدين لهذه الصحف مقالتين كان لهما دوى كبير فى الأوساط السياسية والاجتماعية والأدبية إحداهما بعنوان : فى الحكومات الشرقية وأنواعها • والثانية بعنوان : روح البيان فى الإنجليز والأفغان •

وقد لقيت الصحيفتان بهذين المقالين رواجا لم تعرفاه من قبل ، ولفتت أنظار الحكام إلى تلك الروح الجديدة التى تخيف كل حاكم ظالم ، فما مضى كبير وقت حتى كان رياض باشا يأمر بإغلاق الجريدتين •

وكما فعل جمال الدين مع أديب إسحق وغيره ، فعل مع يعقوب صنوع الكاتب اليهودى المصرى فشجعه على إنشاء جريدة ناقدة عن طريق الفكاهة سماها « أبو نظارة زرقاء » تناولت الخديوى إسماعيل وسياسته بالنقد الشديد •

وهكذا نستطيع أن نعد جمال الدين رائدا من رواد الصحافة [1] فى العصر الحديث وأستاذا موجها لمعظم الكتاب الذين حملوا لواء الكتابة فى تلك الصحف •

وأما فى مجال جذب الأنصار وكسب المفكرين والقادة ، فقد نظم إلقاء أحاديث فى بيته ، وفى بيوت من يصطفيهم من التلاميذ والمريدين وفى المحافل الخاصة ، وكان فى هذا الحديث يناقش تلاميذه ويبصرهم بأحوال المسلمين فى العالم الإسلامى الذى يعرفه ، ويوجه كثيرا منهم إلى الكتابة والخطابة ، ويطلب منهم الإسهام فى تحرير كثير من الصحف المخلصة لأفكاره وأهدافه ، وما نعرف من القادرة البارزين فى ذلك العصر أحدا إلا تلمذ لجمال الدين وأخذ عنه وأفاد من فكره وعلمه ومنهجه بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، فالبارودى وعرابى ومصطفى كامل ومحمد عبده وسعد زغلول

---

١ ـ سيكون لنا حديث مفصل عند جهوده الصحفية فيما يأتى من البحث عند حديثنا عن : جمال الدين وأدب المقالة فى الباب الأخير من هذا البحث •

والهلباوى ولطفى السيد وغيرهم من تلاميذ جمال الدين الذين أخذوا عنه بشكل مباشر أو غير مباشر •

وأما فى مجال تكوين الجماعات التى تزيد من ترابط أصحاب الرأى والمجاهدين المخلصين فى سبيل دينهم ووطنهم فقد أشرنا إليه من قبل ، ونحن نتكلم عن جمعية العروة الوثقى ، وعن جمعية الماسونية التى أنشأها هو [١] وكان يأمل أن يقوم أعضاؤها بعمل كبير فى الإصلاح •

تلك هى الأسس التى أقام عليها جمال الدين خطة عمله الإصلاحى فى مصر وهى أسس كان لها أبلغ الأثر فى مصر والمصريين فى تلك الآونة مما نود أن نوضحه على النحو التالى :

أثر جمال الدين فى مصر

سبق أن أوضحنا أن تلك الفترة التى عاشها الأفغانى فى مصر كانت بحق من أهم الفترات التى مرت بمصر فى عصرها الحديث ، ويكفى أن نتأمل ما جره حكم الخديو إسماعيل على البلاد من متاعب ومشكلات ، لنعرف مدى أهمية تلك الفترة •

وإذا كان جمال الدين الأفغانى يتميز بأنه مصلح إسلامى يحاول أن يخلص أى بلد إسلامى من عدوه الدخيل ومن حاكمه المستبد ، فإن أخصب البيئات التى كانت تتطلب الإصلاح هى مصر بظروفها التى أوضحنا آنفا •

وإذا كان جمال الدين عدوا للمستعمرين والمستغلين من الأجانب الراغبين فى السيطرة على بلاد المسلمين فإنه قد رأى فى مصر حاكما يخطئ ويسئ ويورط البلاد فيما لا حاجة لها به ، ورأى أجانب يسيطرون ويستغلون ، ورأى الإنجليز وهم هم ـ كما عانى منهم ومن سياستهم فى أفغانستان ، وكما رأى سيطرتهم على الهند

١ ـ انظر الباب الأول من هذا البحث

المسلمة - رآهم فى مصر وهم يبسطون نفوذهم ويتصرفون مع هذا الحاكم الضعيف تصرف المستغل المستبد ٠

لم يقف جمال الدين من هذه الأحداث موقف المتفرج وإنما أخذ يخطط لذلك ويدبر وظل فى ذلك يقوم ويقعد ، وكل همه أن يوضح للمسلمين أن الإسلام دين ودولة ، وأن المسلمين أمة التوحيد وأنهم بذلك الدين ماينبغى أن يخضعوا لأحد أو يذلوا لمستعمر أو مستغل ٠

وقد حرص جمال الدين على أن يغرس فى نفوس المسلمين حب الحرية والتحرر ، وأن يفتح أمامهم مجالات عديدة فى الإصلاح السياسى والاجتماعى والدينى ٠

وكانت لجمال الدين أساليب متعددة من أجل الوصول إلى أهدافه فقد كان هناك تلامذته الخصوصيون الذين يقصدون بيته ، فيقرأ عليهم من الدروس ما يزيل عن عيونهم الغشاوة ، وعن قلوبهم الضعف ، ويبث فى نفوسهم حب دينهم وحب وطنهم ، وكراهية أعدائهم ٠

ومن حسن حظ جمال الدين ، بل من ثمن إخلاصه فى عمله أن كان من تلامذته رجال الإصلاح - فى مستقبل مصر القريب - الإصلاح الدينى والإصلاح السياسى والاجتماعى من أمثال : الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وإبراهيم اللقانى ومحمود سامى البارودى وغيرهم ٠

وكان للأفغانى فى المنتديات والمقاهى والمجالس العامة من الكلمات والخطب مايلهب به حماس الناس وما يثير به فى نفوسهم معانى الاعتزاز بدينهم ، وما يكشف به فساد المفسدين واستغلال المستغلين ، وكان يتخلل هذه الكلمات والخطب والدروس مناقشات متعددة الجوانب نستطيع أن نعدد منها :

مناقشات حول الفهم الصحيح للإسلام ومقاومة جمود الفكر وسيطرة الأوهام على كثير من المسلمين ٠

ومناقشات حول واقع العالم الإسلامى آنذاك وما يعانيه المسلمون من ضعف وما هم عليه من بعد عن التمسك بدينهم ٠

ومناقشات وحوار حول عديد من المسائل الإصلاحية فى مجالات عديدة ·

ومناقشات حول السياسة التى تسود العالم الإسلامى وحول ما يعانيه المسلمون من تحكم الأوربيين فيهم فى حاضرهم ومستقبلهم ·

ومناقشات حول تدخل الإنجليز فى مصر وفى كثير من بلدان العالم الإسلامى ، تدخلا يقضى على مصالح تلك البلدان وعلى شخصيتها المعنوية ويحيلها إلى بلاد تابعة لحضارة الغرب ·

ومناقشات حول دولة الخلافة العثمانية ، وماينبغى أن يكون عليه الأمر بالنسبة لهذه الدولة التى أصبحت ـ على الرغم مما يتصف به بعض حكامها من بعد عن التمسك بالدين الإسلامى ـ أمل المسلمين فى أن يتخلصوا بها من متاعبهم ومشكلاتهم ·

ومناقشات حادة وجدلا عنيفا حول الشورى والعدالة والحكم المبنى على الأسس الإسلامية الصحيحة المستقاة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وسيرته الطاهرة وسيرة خلفائه الراشدين رضى الله عنهم ، لاعلى تلك الأسس الغربية الجوفاء التى ملأتها الأوهام وغمرها القصور والنقص ، وحرفتها الرغبات الشخصية والأهواء الذاتية عن أن تحقق للناس عدالة أو إنصافا ·

وفى هذه المناقشات نضجت أفكار المصلحين من أبناء مصر ، وبتلك الموضوعات التى كان يثيرها جمال الدين عرف تلاميذه كيف يكون الفهم الصحيح للأمور ، بل عرفوا كيف يقفون من هذه الأمور وقفة الجد والصرامة والرغبة الملحة فى التقويم والتسديد ·

ولا يفوتنى هنا أن أنبه إلى أن جمال الدين لم يقصر عنايته على طبقة المثقفين من أبناء مصر ممن يغشون مجالسه ويحضرون دروسه ، وإنما مد اهتمامه إلى مختلف قطاعات الشعب وطبقاته فقد أبدى اهتماما مقصودا بالفلاحين وقد جاء فى إحدى خطبه فى الإسكندرية قوله مخاطبا الفلاح : « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب

الأرض لتنبت ما تسد به الرمق ، وتقوم بأود العيال ، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك » .

وتلك كلمات ثائرة ملتهبة تؤكد لنا أن جمال الدين كان يدعو إلى إصلاح عن طريق الثورة الصاخبة المحطمة وكان لكلماته تلك أعنف الآثار فى نفوس السامعين ، وكان لها فى نفوس الحكام توجس ومخافة وتربص بالرجل وبأتباعه .

وقد يثور هنا سؤال حول تلك الكلمات الملتهبة الداعية إلى الثورة وهو : إذا كان جمال الدين يدعو بهذه الصراحة إلى الثورة فلم سكت عنه الخديو إسماعيل ولم يأمر بإخراجه من مصر فورا ؟

وأستطيع أن أجيب على هذا التساؤل بأن الخديو إسماعيل كان قد جعل من نفسه ملجأ للمفكرين الأحرار الذين لم يجدوا قبولا لدى السلطان عبد الحميد ففروا بعد سنة ١٨٧٦م ، وكان إسماعيل يحسن استقبالهم ويمكن لهم من الإقامة فى مصر ، ليؤيد بهم سياسته التى ترمى إلى استقلال مصر عن دولة الخلافة وليغيظ بهم الأجانب الذين بدأوا يتدخلون فى شئون مصر الداخلية من جانب آخر ، إذ كان هؤلاء الأحرار المفكرون يهاجمون الأجانب ويثيرون عليهم الناس ويكشفون مخططاتهم ويفضحون مؤامراتهم .

ومن كلمات جمال الدين اللاذعة ضد المستعمرين والتى تكشف خططهم وأحابيلهم الرامية إلى الهجوم فى كل يوم على قطر مسلم والاستيلاء عليه بأوهى الحجج وأضعف الأسباب ـ إن كان لابد من حجج وأسباب ـ أو بالقوة المسلحة ، حين لا تكون هناك حاجة إلى حجج أو أسباب ، من كلماته قوله : « إن الممالك الإسلامية هذه ، إنما هى من الانحطاط والهوان بحيث لا تستطيع أن تكون قوّامة على شئون نفسها بنفسها ، فى حين أن تلك الدول ـ يقصد الدول الأجنبية المستعمرة ـ عينها لا تكف عن التذرع بألوف الذرائع حتى بالحرب والحديد والنار ، للقضاء على كل حركة من حركات النهضة والإصلاح فى البلاد الإسلامية ومن ثم يجب على العالم الإسلامى أن يتحد فى حلف دفاعى كبير ليستطيع بذلك أن يصون نفسه من الفناء ، وللوصول

إلى هذه الغاية إنما يجب عليه أن يأخذ بأسباب التقدم فى الغرب وأن يكتنه أسرار تفوقه وقدرته »

وهذا الكلام من الأفغانى مما يرضى عنه رجل كإسماعيل ويجده ملائما لرغبته فى مهاجمة المستعمرين ·

غير أن جمال الدين لم يكن بحال وهو يقول تلك الكلمات ـ ليعمل على إرضاء حاكم ظالم بكلمات أو أعمال وإنما كان يقول ويعمل ما يعتقد أنه الصدق والصواب ·

ولم يستطع جمال الدين ـ وهو المصلح الإسلامى ـ أن يسكت عن ضرورة إثارة الشعوب ضد الظلم والظالمين ، ولفت انتباه الناس إلى حقوقهم وحثهم على المطالبة بالدفاع عنها ، ولم يستطع كذلك أن يسكت عن إعلان ما يؤمن به من قدرة هذه الشعوب على النهوض والتحرر من كل أسباب الضعف والتبعية والظلم والاستبداد ، لذلك نجده يوجه خطابه إلى الشعب قائلا : « ولن تنبعث شرارة الإصلاح فى وسط هذا الظلام الحالك إلا إذا تعلم الشعب وعرف حقوقه ودافع عنها ، ومتى عرف الشعب هذه الحقوق وجد نفسه مضطرا إلى المطالبة بها والمحافظة عليها إذا نالها » ·

وهى كلمات تغيظ الظالمين من الحكام ، وقد اغتاظوا فعلا ولعل الحوار الذى دار بين جمال الدين الأفغانى وبين توفيق ولى العهد فى عصر أبيه ، ثم خديو مصر بعد خلع أبيه ·· تكشف لنا عن قوة جمال الدين فى مواجهة الحكام ، وعن معرفته الحقيقية لما يستطيع أن يقوم به الشعب من أعمال جليلة ·

فقد قال الخديو توفيق وهو على عرش مصر لجمال الدين الأفغانى : « إننى أحب كل خير للمصريين ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن أكثر الشعب خامل جاهل » ·

ثم واصل الخديو توفيق حديثه قائلا لجمال الدين : « إن دروسكم وأقوالكم المهيجة ستؤدى بالشعب والبلاد فى تهلكة » ·

فرد عليه جمال الدين قائلا : « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص : إن الشعب المصرى كسائر شعوب العالم لا يخلو من وجود الخامل والجاهل

بين أفراده ، ولكن هذا لا يمنع من وجود العالم والعاقل أيضا ، فبالمنظار الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر به لسموكم ، وإذا قبلتم نصحى وأسرعتم لإشراك الأمة فى حكم البلاد فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة ، تسن القوانين فإن ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم »

كانت هذه الكلمات النارية من الأفغانى فى مواجهة الخديو توفيق سببا من الأسباب التى جعلت الخديو توفيق يقرر إخراج جمال الدين الأفغانى - على وجه السرعة - من مصر .

وكان لجمال الدين ولآرائه الإصلاحية فى مصر أثر كبير فى تطوير الحركة الإصلاحية فى مصر ، وفى سعى البلاد سعيا حثيثا نحو الحياة النيابية التى تنفس فيها الشعب الصعداء ومارس فيها إلى حد كبير كثيرا من حقوقه .

وكان لجمال الدين فيما عرف - فى تلك الآونة بالمسألة الشرقية - آراء ووجهة نظر وضعت الإنجليز وسياستهم فى العالم الإسلامى موضع السخط والتذمر ، وكانت بحق معاول هدم لتلك السياسة الإنجليزية فيما بعد .

ومن مجموع هذه الآراء كان تأثير جمال الدين فى مصر وسياستها ، ونود أن نوضح فى الصفحات التالية من البحث موقف جما الدين من الحكم النيابى فى مصر ، ومن المسألة الشرقية - كما كانت تسمى - أو مسألة احتكار الإنجليز لمعظم بلدان العالم الإسلام .

كما كانت له مواقف نشير إليها فيما يلى :

أ - موقفه من الحكم النيابى فى مصر

دعا جمال الدين الأفغانى فى مجالسه الخاصة والعامة إلى حياة سياسية نظيفة فى مصر ، تعتمد على التمثيل النيابى للشعب فى مجلس نيابى يتولى شئون الأمة ، وتلك الحياة النيابية التى دعا إليها جمال الدين تنبع من الشورى كما أقرها الإسلام الحنيف .

وقد اهتم جمال الدين فى دعواه إلى الحياة النيابية بإقناع تلاميذه الخصوصين ومريديه بتلك الحياة السياسية التى تكفل للأمة حقوقها وتمكنهـا من مقاومـة كل استغلال او احتكار لخيرات البلاد ، وكان جمال فى هذا يدرك أن من هؤلاء التلاميذ من ستئول إليهم مقاليد الحكم فى البلاد ٠

ومن كلمات جمال الدين لتلاميذه فى هذا المجال قوله : « إن القوة النيابية لأى أمة كانت ، لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى إلا إذا كانت منبثقة من نفس الشعب ، وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية فإن حياة تلك القوة النيابية الموهومة ـ التى لاتستند إلى الشعب ـ موقوفة على إرادة من أحدثها »

وبهذه الكلمات وبأمثالها يكون الأفغانى قد نادى فى مصر بحياة سياسية تقوم على الشورى وتعتمد على المجالس النيابية المنتخبة انتخابا صحيحا ، والتى لم تأت منحة من حاكم أو فرضا منه على الناس وإجبارا ٠

وربما لاتكتمل صورة الحياة السياسية النظيفة القائمة على الشورى إلا إن كان هناك حاكم عادل يسهر على تنفيذ مايراه ممثلو الشعب محققا لمصالح الشعب ، ومن أجل هذا كان لجمال الدين رأى فى الحاكم العادل الذى يحترم الدستور ويعمل فى إطاره ، عبر جمال الدين عن رأيه ذلك فى قوله : « ذلك الرجل ـ يقصـد الحـاكم العادل ـ إما أن يكون موجودا أو تأتى به الأمة فتملكه على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسى ٠٠ وتؤكد للحاكم أن التاج سيبقى فى رأسه مادام محافظا أمينا على صون الدستور ، أما إذا حنث بقسمه وخان دستور الأمة ، فإما أن يبقى رأسه بلا تاج أو تاجه بلا رأس » ٠

ولقد وقف جمال الدين الأفغانى من المجلس النيابى الذى شكله إسماعيل باشا سنة ١٢٨٣ هـ ـ ١٨٦٦م موقف الفاهم المدرك لما كان يريده إسماعيل باشا من هذا المجلس الصورى فلذلك نادى جمال الدين بمجلس نيابى منتخب ، ولقد صور لنا الشيخ محمد عبده ـ فيما سلف من البحث ـ حال مصر والمصريين قبل سنة ١٢٩٣ هـ

ـ ۱۸۷۷م وصور لنا كذلك ظروف المجلس النيابى الذى كونه إسماعيل باشا ، واتخذ منه مطية يصل عليها إلى أهدافه باسم الشعب ، وهو ذاك الأمر الذى دعا جمال الدين إلى أن ينادى بمجلس نيابى ليس منحة من الحاكم وليس مطية له .

ب ـ موقفه من المسألة الشرقية

المسألة الشرقية تعنى فى ذلك الوقت واقع العالم الإسلامى ووقوعه فى قبضة أعدائه من الأجانب وبخاصة الإنجليز ولو شئنا الدقة لقلنا: المسألة الإسلامية؛ذلك أن دولة الخلافة العثمانية كانت إلى ماقبل هذا الزمن الذى نتحدث عنه بقليل قد جعلت من العالم الإسلامى كله دولة تكاد تكون واحدة واستطاعت بهذا العالم الإسلامى أن تمد ظلها على مايقرب من نصف مساحة أوربا فضلا عن الأقطار الشاسعة فى آسيا وإفريقيا وكان معنى ذلك أن الدولة العثمانية قد أصبحت فى مواجهة مع دول أوربا الغربية من جانب ودول أوربا الشرقية وروسيا القيصرية من جانب آخر .

ولم يكن مثيرا للعجب ولا للدهشة أن تتلاقى كل هذه الدول المعادية للإسلام المتمثل فى ذلك الوقت فى دولة الخلافة العثمانية لتقضى على دولة الخلافة ولتقتنص من بلدانها ما تستطيع اقتناصه ؛ فى مؤامرات وحروب صليبية حاقدة .

ولم تسكت هذه الدول المعادية للإسلام حتى استطاعت أن تقضى ـ فيما بعد ـ على دولة الخلافة وإن تبرز منها دول تتولى احتلال كثير من بلدان العالم الإسلامى بسبب أو بغير سبب ، وقد حملت وزر احتلال مصر والهند وإيران انجلترا فى زمن باكر نسبيا ، ثم احتلال العراق ودول الخليج بعد ذلك واحتلال السودان من بعد .

وقد حملت فرنسا وزر احتلال سوريا ولبنان وتونس والجزائر ومعظم المغرب العربى وكان احتلال فرنسا لتلك الأقطار فى زمن مواكب لذاك الاحتلال .

ثم عاثت فرنسا وانجلترا فساد فى بقية العالم الإسلامى فى الشرق الأقصى وفى

إفريقية شرقيها وغربيها وجنوبيها ، ودخلت دول أخرى تقتسم من هذا السلب كهولاندة وإيطاليا وإسبانيا وغيرها .

وقد كانت مصر جزءا من المسألة الشرقية ، بل جزءا هاما من تلك المسألة وكان لجمال الدين الأفغانى رأى فى المسألة كلها وفى المسألة المصرية بوجه خاص يجب أن نوضحه فى هذا البحث ، فقد قال جمال الدين فى ذلك : « لو علم العثمانيون أن دولة انجلترا إنما تستميل المسلمين فى الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها ، واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء أولى الحزم ، لما صبروا وتجرعوا مرارة الصبر على تحكمات الإنجليز وحيفهم فى أعمالهم ، وتعديهم على حقوق السلطان خصوصا فى المسألة المصرية التى هى فى الحقيقة أهم مسألة عثمانية وإسلامية .

فالأسباب التى هيأت سقوط مصر فى مخالب الإنجليز غريبة فى بابها ، إذ أصبحت وهى من نفس المصريين وبقوتهم يعدونها خارجة عنهم .

نعم : إن المصريين كانوا أيام عرابى على قسمين :

قسم يروم حفظ الحالة القديمة والوقوف عندما يرسم به الخديو .

وقسم كان يميل بأحد جانبيه إلى عرابى ، ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم ، فكان هذا القسم الثانى فى ريبة من أمره ، ولا عزيمة مع الريب .

والقسم الأول مخلد إلى الخمول والفشل ، فدخل الإنجليز بلا حرب حقيقية ، بل بنوع من الترهيب ، وقليل من الترغيب وخفىٍّ من الدسائس ، صادف قلوبا مستعدة فأخذ منها مقاما ، فانحلت الرابطة وتفرق الناس عن « عرابى » بزوال جانب الميل إليه من قلوبهم .

ومع ذلك ماكان يعتقد فرد منهم أن الإنجليز يبتغون من البلاد شيئا سوى أنهم يؤيدون « الخديو توفيق باشا » وينقذونه من الثائرين عليه فتساهل المصريون فى الأمر بحسن ظنهم فى حكومة الإنجليز ، مع ما جاءتهم من الحجة القوية القائمة على أن صاحب السيادة الشرعية « السلطان » فى رضاء عن تصرفاتها .

بهذا فاز الإنجليز واستقرت أقدامهم أما وقد مضى الزمان الكافى لظهور غدرهم وسوء نيتهم ، فلا أظن أنه يوجد من المصريين من يميل إليهم بل لا يوجد إلا من يبغضهم ويتمنى فناءهم ويود لو يعمل عملا لهلاكهم ولكن « الوهم » يجسم المخافة ويكبح العزيمة ·

أن إهالى مصر كأنهم ذهلوا عن الأسباب التى مكنت الإنجليز من بلادهم كأنهم يظنون أن المصريين كانوا على كلمة واحدة فى مدافعة الإنجليز ثم تغلبت عليهم القوة الإنجليزية وقهرتهم جميعا ، كأن المصريين نسوا ما كان بينهم وأن الإنجليز ما دخلوا بلادهم إلا بمعونتهم ولتأييد خديويهم المنصوب « بفرمان » من سلطانهم ·

هذا هو الوهم العجيب ! إن الذين كانوا سببا فى تغلب العساكر الإنجليزية وحلولها فى وادى النيل والذين لولاهم ما استقر لها قدم فيه ، يظنون الآن أن تلك العساكر قادرة على قهر الأهالى عموما وإخضاعهم لحكومة بريطانيا ، كلا ، ثم كلا ، وإن بهذا الظن الباطل يستسلمون لأعدائهم كرها ويجارونهم فى أهوائهم نفاقا ·

ولا أدل على سوء نوايا الإنجليز وسوء تدبيرهم وتحويل سعادة ما يحتلونه من البلاد إلى شقاء من النظر إلى مصر بعد أن فوضت إلى نابغة الدهر محمد على باشا ، ثم إلى ما حل فيها من البلاء والشقاء بفضل الإنجليز فى سنين قليلة ، بعد احتلالهم مصر عقب ثورة عرابى ، فالنسبة بين العملين موجودة معكوسة ·

وذلك أن مصر بعدما فوضت أمورها إلى محمد على باشا لم يمض قليل من الزمن حتى دخلت فى طور جديد من أطوار المدنية وظهر فيها شكل من الحكومة النظامية وتقدمت فيه على جميع الممالك الشرقية بلا استثناء ·

نعم : نالت مصر فى عهد ذلك الرجل العظيم وعهد خلفائه من بعده ، ما كانت تقف دونه أفكار المفكرين ، طرقت أبواب السعادة من كل وجه ، فتقدمت فيها الزراعة تقدما غريبا واتسعت دائرة التجارة وعمرت معاهد العلم وانتشرت فى أرجائها مبادئ المعارف الصحيحة وتقاربت أنحاؤها واتصلت أطرافها بما أنشىء فيها من

سكك الحديد وخطوط التلغراف وتعارفت أهاليها وائتلفوا وقوى فيهم معنى الأخوة الوطنية وتواصلوا فى المعاملات وتشاركوا فى المنافع واعتدلت المشارب المذهبية حتى كان لهم زمن أحس فيه كل واحد بنسبته من الآخر بأنه « وطنى مصرى » وارتفعت بذلك أصواتهم بعد ما جالت فيه أفكارهم ٠

تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة وعمت بقاعها وطفحت ففاض خيرها على ما يجاورها من الأقطار الشرقية ، بل وصل من نيلها إلى أراضى البلاد الغربية وتوارد إليها الغرباء وقصاد الكسب من كل مكان ، وماخاب لها قاصد ولا أخفق فيها سعى ساع فأثرى فى مغانيها الفقراء وعزّبها الأذلاء وصارت قبلة لآمال كثيرين من الغربيين ، ومحط رجاء الراجين من الشرقيين ، وكل وافد إليها يجد أهلا خيرا من أهله ومسكنا خيرا من سكنه وتكاثرت فيها العناصر الغربية حتى حاكت برج بابل يوم تبلبلت الألسن ٠ وساد بها الأمن وعمت الراحة وضارعت فى كل أحوالها نوع ما عليه الممالك الأوربية العظيمة وكان المتأمل فى سيرها هذا يحكم حكما ربما لا يكون بعيدا من الواقع أن عاصمتها لابد أن تصير فى وقت قريب أو بعيد كرسى مدينة لأعظم الممالك الشرقية ، بل كان ذلك أمرا مقررا فى أنفس جيرانها من سكان البلدان المتاخمة لها ، وهو أملهم الفرد كلما ألم خطب أو عرض خطر ٠

غير أن الأيام كأنها حسدتها على ما منحته فعثر العاقل وفرط المالك واغتر المعجب وتهور الغبى وضعف القوى فتقرب البعيد ،وألحمتإدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها وانتقضت منها أصول على وجه مألوف ففتحت للدسائس أبواب ، وانساب بين طبقات الناس دهاة سياسة وطلاب غايات ، فتفرق اتصال وتقطعت أوصال فضعفت السلطة الوازعة ونبذت الطاعة والتهبت نيران الفتن ٠

قضاء حل فى تلك البلاد ، كانت أشأم نتائجه دخول الإنجليز إلى مصر لتأييد الخديو وقمع الثورة العرابية والإشفاق على طريق الهند ، احتلت مصر ورأت أن إعادة الأمن وتثبيت الراحة فيها من فرائض ذمتها فكان من التحريق والتدمير

والقتل والشنق والحبس والإبعاد والتغريم وما شاكل ذلك مما يطول شرحه ٠٠ وعم الهون والذعر كل من عرف اسمه أهل البلاد ماخلا أشخاصا قلائل دخل الإنجليز ولم يمض إلا زمن قليل حتى حكموا بطرد آلاف من الوطنيين الموظفين فى دوائر الحكومة وما منهم أحد إلا ويتبعه عائلة وأولاد ولا قوت لهم إلا من مرتب عائلهم وما مرن على عمل للكسب سوى ما نشأ فيه من خدمة الحكومة ٠

ألم يمس هؤلاء الفقر ؟ ألم يعضهم ناب الجوع ؟ ألم يهتك مستورهم ؟ ألم يضق ذرعهم ؟ ألم يصبحوا كساة بسرابيل الكآبة ؟ عراة من أكسية المسرّة إن لم يكن كل هذا فقد كان جله وإن صدى أنينهم يتلى فى صفحات الجرائد الوطنية العربية والإفرنجية وسيتبع السابقين اللاحقون حتى لا يجد الوطنى من المهن إلا ما لا يليق بالإنجليز تعاطيه من سفاسف الأمور ـ كما هو الحال فى الهند ـ [1]

اضطرب ميزان السلطة العامة لتعاكس قواها المختلفة فاشتبه الأمر على العمال وظنوا أن لا تبعة عليهم فيما يعملون فانطلق ما غُل من أيديهم وحكموا أهواءهم فى أداء وظائفهم وأُدخل فى الوظائف والدواوين من ليس بأهل فخبطوا وخلطوا وصار الحكم فى هرج ومرج ٠

أفعمت السجون بأعيان الرعية ، ورفعت أذناب الكرابيج لتشريح أبدانهم واستعملت آلات التعذيب وامتدت مخالب الجور لتجريدهم من بقايا أموالهم وثمرات كسبهم ، وحدث نوع من الحكم المطلق وشكل من الاستبداد أذاقهم الأمرين وبعث عليهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ٠

غلقت أبواب العمل من وجوهه الرسمية فى الإدارات وتعطلت أشغال المحاكم وشخصت الأبصار لعاقبة هذا المتنازع بين القوى الحاكمة فاتسع نطاق الفوضى وارتفع حجاب المنفعة فإذا الفلاح لا يبالى بعمدته ، والعمدة لا يبالى بمأمور مركزه ،

---

١ ـ إشارة إلى ماسبق أن ذكره الأفغانى عن سياسة الإنجليز فى الهند ص ١٦٥ من هذا البحث ومابعدها ٠

والمأمور لا يحترم مديره ، وسرى التهاون إلى الدوائر العليا وعمت الفوضى وعاد الأمر لقوة الساعد وكثرة الأعوان ، فعاثت اللصوص وتشكلت منها عصابات وكثر قطع الطريق فى أكثر النواحى ، وارتفعت الأصوات بالشكوى منهم فى عموم الجرائد الوطنية ، فوقفت حركات الأعمال العمومية وظهرت الأزمة وبدت للناس شئون قبضت صدورهم وعدلت بهم عن ضرورات معاشهم ، وامتنع المديونون من أداء ما عليهم لدائنيهم من التجار والصيارفة ، فقبض المقرضون أيديهم ، واحتكروا نقودهم لفقد ثقتهم ، واشتدت الحاجة ، وارتبكت الأحوال إلى حد لم يسمع إلا فى القصص وروايات القدماء قبل محمد على باشا ٠

ومطالب الحكومة والزيادة فى الضرائب ، والرسوم على أشد الحالات مع الإلحاح فى اقتضائها وتحصيلها فعم العسر وأحاط الضنك وتقوضت آلاف من البيوت التجارية وأتربت أيدى الجماهير من عمال الصناعة وأعدم المزارعون قاطبة إلا نزر يسير من حفظه الكنوز ، والمستأثرين بأموال الكافة نهبا وسلبا ٠

وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية ، والأخذ بالشبه وإن ضعفت واتباع بواطل التهم وإن بعدت أو استحالت ، حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه ، وبلغ منها مبلغه ٠٠ فلا ترى مارا بطريق إلا وهو يلتفت وراءه لينظر ، هل تعلق بأثوابه شرطى يقوده إلى السجن أو يقتضى منه فِدًا ٠

وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر فى كل خطوة عثرة وفى كل نهضة سقطة وله من كل شاخص دهشة ، ومن كل طارق لبابه غشية ؛ أى شقاء ينتظره الحى فى حياته أشنع من هذا ؟

هذا ما تنشق له المرائر من أحوال سكان القطر ، هذا بعض ما يضيق به الصدر وتنقبض له الأنفس مما رزئوا به ، وترك الأهالى حيارى فى أمورهم تائهين عن رشادهم لا يعلمون ماذا يحل وينتهى بهم ، يذكرون من حكومتهم وأحوالهم السابقة ـ وكانت الدول الأوربية تضليلا وتغريرا ـ تسميه ضيقا وعناء واستبدادا وجورا ، وتمنيهم

بالإنقاذ منه • فيحنون إليه ويبكون عليه ويودون لو رجعوا إليه ، ويحسبونه غاية سعادتهم ومنتهى راحتهم بعد الحالة التى هم فيها •

ومختصر القول : أن محمد على باشا أوصل مصر فى زمن قليل إلى أوج السعادة والمجد والإثراء والأمن الشامل والعدل الكامل ، والإنجليز بفضل احتلالهم أسقطوا مصر إلى حضيض الشقاء والذل والفقر وفقد الأمن ومحض الجور كل ذلك فى أقل من سنتين •

فيالله ماأعظم الفرق بين الزمنين ونتيجة العملين : عمل محمد على باشا وعمل السادة العادلين « الإنجليز » •• [١]

ثم يتحدث جمال الدين الأفغانى عن مخططات الإنجليز فى الشرق الإسلامى فيفضح أساليبهم ولا يكتفى بهذا الكشف ـ مع أنه كان من النادر فى ذلك الوقت أن يجرؤ أحد على الكتابة ضد الإنجليز ـ وإنما يرسم العلاج للمصريين والهنود ولكل قطر إسلامى أصيب بكارثة الاحتلال الإنجليزى أو مصيبة نفوذ أمرهم فيه ، يكتب جمال الدين فى ذلك فيقول : « ألا فليعلم الشرقيون من هنود ومصريين وغيرهم ممن سقطوا بين مخالب الإنجليز أن لهذه الدولة خطة تجرى عليها ، ودستورا تعمل به فى البلاد ، وذلك أنها إذا رأت البلاد فى قبضة سلطان أو أمير نازلته وضمنت لنفسها الفوز إما بقوة الرجال أو بقوة المال والمكر والاحتيال ، فلاتبالى بريطانيا بأفراد ولوكانوا سلاطين أو أمراء ، ولا بجيوشهم وقوادهم ، وإنما الذى تخشاه وتفرق منه ، قيام الأمة بوجهها ، هذا هو السلاح الوحيد القاطع لحول بريطانيا وحيلها ، وهذا الذى رأيناه يخلص البلاد وينجى العباد من نير الإنجليز •

وقد سبق فذكرنا دخولها لبلاد الأفغان بستين ألفا من الجنود المنظمة وكيف أنها توغلت فى البلاد ، واستولت على المعاقل والحصون ، ولكن لما هب الأفغانيون من كل صوب وناحية وصدموها باسم أمة الأفغان لا باسم أمير أو سلطان ، اضطرت لترك

١ ـ محد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى : ١٨٢ ـ ١٨٦ •

البلاد وولت الأدبار بعد أن صرفت ثلاثين مليونا من الجنيهات فضلا عن دماء رجالها وقوادها •

أى سلطان كان يمكنه أن يكشف الإنجليز عن مستعمرة « أمريكا » لو لم يصدمها اتحاد الأمريكانيين وينهضون باسم الأمة الأمريكية مستميتين فى طلب استقلالهم ؟

نعم : لما رأت انجلترا أن الأمة هى التى تقاومها وتخلع طاعتها أكرهت على العمل بدستورها وجرت على خطتها بترك البلاد لأهلها ، ودهاة الإنجليز أعقل من أن يتوهموا إمكان إفناء أمة بأسرها تتفق وتستبسل وتطلب الموت فى سبيل استقلالها •

هذا هو الذى علمناه وشهدت به الحوادث وأيدته الوقائع ، فإذا اتحد المصريون ونهضوا كأمة [١] لا ترى بدا من استقلالها ولا تقبل به بديلا ، وثبتوا على شىء من الجور والحيف والقتل فى بادئ الأمر ، وصبروا ورابطوا وارتبطوا فبشر المصريين بحسن المآل ، نيل الاستقلال إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله • [٢]

ثم يستصرخ جمال الدين همم الأمة الإسلامية لتتحد وتجمع كلمتها وتقف فى وجه أعدائها الإنجليز متناسية خلافاتها المذهبية ، متصدية لحيل الأعداء ومكايدهم واقفة فى وجه هؤلاء الأعداء بالقوة والإرادة والإصرار والتضحيات والشهداء •

---

١ ـ الصواب أمة بدون هذه الكاف التى هى ترجمة عن لغة أجنبية •

٢ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ١٨٦ ـ ١٨٧ •

الفصل الرابع :

العالم الإسلامى فى عصر جمال الدين

الآستانة

الآستانة

على عهد جمال الدين :

أولا : فى عهد السلطان عبدالعزيز

من ١٢٨٥ هـ - ١٢٨٨ هـ - ١٨٦٨ م - ١٨٧١ م

ثانيا : فى عهد السلطان عبدالحميد

من ١٣٠٩ هـ - ١٣١٤ هـ - ١٨٩٢ م - ١٨٩٧ م

كانت الآستانة - عاصمة دولة الخلافة العثمانية - فى الفترة التى عاشها جمال الدين الأفغانى - مقصد المسلمين وأمل المصلحين منهم ، بل معقد رجاء المشفقين على دولة الخلافة الإسلامية وبخاصة بعد أن وضح تألب دول أوروبا عليها ، وتحالف روسيا ضدها مع أوربا فى أكثر من موقف ٠

لهذا ما عرفنا عن كبير من مفكرى المسلمين فى تلك الفترة إلا أنه توجه إلى الآستانة محاولا أن يجد له طريقا إلى سمع أمير المؤمنين يهمس له بما يرى أنه أنفع للمسلمين ، وأقدر على رد الكيد الموجه إلى دولة الخلافة ٠

وكان جمال الدين من بين أولئك المفكرين المصلحين الذين علقوا أكبر الآمال على دولة الخلافة ، فقصد الآستانة غير مرة ، وكانت له فيها صولات وجولات ، فقد ذهب إليها وأقام فيها ثلاث سنوات متصلة فى زمن السلطان عبد العزيز ، وذهب إليها مرة ثانية وأقام فيها خمس سنوات متصلة كانت آخر سنى حياته عندما دعاه إليها السلطان عبدالحميد ٠

ولا بد لنا من لمحة عن دولة الخلافة العثمانية فى القرن التاسع عشر الميلادى بوجه عام ، وفى الفترة التى عاشها جمال الدين بوجه خاص ٠

يتحدث بروكلمان عن هذه الفترة فيقول : « ... فلم يكد ينقضى القرن الثامن عشر ويبزغ فجر القرن التاسع عشر حتى كانت الإمبراطورية[1] العثمانية التى ما فتئت تتصدر لمقام القيادة فى العالم الإسلامى قد انتهت إلى الدرك الأسفل من الضعف والانحطاط[2] ، فقد سبق لجارتيها الشماليتين : النمسا والروسيا أن انتزعتا منها عددا صالحا من ممتلكاتها الهامة ٠

ففى آسيا كانت إمبراطورية القياصرة قد اندفعت إلى الأمام حتى بلغت حدود الدولة العثمانية بعد تنازل الملك هرقل صاحب بلاد الكرج « جورجيا » عن العرش سنة ١٧٨٤ م ٠

وكانت سوريا ومصر قد انتهتا إلى ما يقارب الاستقلال فى ظل أحمد باشا الجزار والمماليك ٠

وفى أوربا أطلعت النزعة الاستقلالية رأسها بين الرعايا على اختلاف الشعوب والأوطان ، وكان الجيش قد انتهى إلى غاية من الفساد والتفسخ بعيدة ، بعد أن انهارت منذ زمن طويل ، تلك المؤسسات التى أقام علي أسسها مجده القديم[3] ٠

وقد حدث لدولة الخلافة تغيرات هامة فى هذا القرن ، نحب أن نشير إليها أو إلى ما هو أكثر أهمية منها ، لندرك إلى أى مدى تأثر الأفغانى بهذا الوسط الذى عاش فيه وإلى أى مدى أثر فيه ٠

---

١ ـ تلك تسمية بروكلمان وغيره من المستشرقين ، والإسلام لا يعرف تلك الإمبراطوريات وإنما تسمى الأمة الإسلامية على مستوى عموم الناس وتسمى الخلافة الإسلامية على مستوى الحكام المسلمين الذين يرأسهم أمير المؤمنين ٠

٢ ـ يلاحظ أنها تعبيرات فيها الحقد ٠

٣ ـ كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية: ٥٣٧ ط بيروت ١٩٧٤ م ٠

وأبرز هذه التغيرات أو التطورات ما نعد منها ·

أولا : محاولات الإصلاح على مستوى الدولة كلها وبخاصة فى الجيش ، حيث رغب السلطان فى إنشاء جيش قوى ذى قدرات من حيث المهارة والتدريب ، وذى نظام وانضباط ، ليحل محل الإنكشارية الذين كانوا فى يوم من الأيام درع الدولة الواقى ، فأصبحوا ـ بعد أن دب فيهم الفساد ـ مصدر قلق واضطراب ، فقد أصدر السلطان محمود أمره فى سنة ١٨٢٦ م بإنشاء جيش نظامى جديد أطلق عليه « معلم أشكينجى » الحرس المدرب ، متعاونا فى ذلك مع محمد على باشا والى مصر الذى تكفل بأن يرسل للسلطان المدربين الذين يقومون بتدريب الجيش وإعداده ·

وكان هذا الاتجاه من السلطان مما أحفظ الإنكشارية ، فعارضوا كل خطة تستهدف إصلاح الجيش وتدريبه ، ولم يجد السلطان بدا من أن يقابل شقهم لعصا الطاعة بحرب ضارية قضت عليهم نهائيا ·

فقد استفتى السلطان العلماء فى شأن الإنكشارية المتمردين على طاعته ثم وجه إليهم جيشا استطاع أن يقضى عليهم ، حيث قتل جميع أفراد الإنكشارية فى هذه المعركة وهم فى ثكناتهم ، ثم تتبع السلطان بقاياهم فى الأماكن الأخرى فقتل منهم ما يقرب من ألف آخرين ·

وأمر السلطان بحل الطرق الخاصة بهم مثل الطريقة البكتاشية ، وبدد فرقهم الخاصة كفرق الإطفاء وفرق الحمالين ، وكل من كان له ولاء مع الإنكشاريين ·

وكان إصلاح الجيش وتدريبه والقضاء على الإنكشارية عملا جيدا يعد بداية للإصلاح الشامل الذى كان يطمح إليه السلطان محمود ·

غير أن الدول الغربية لم تدع للسلطان فرصة ليمضى فى إصلاحاته الأخرى · ففى شهر يوليو سنة ١٨٢٧ م عقدت انجلترا وفرنسا وروسيا حلفا ثلاثيا ـ انضمت إليه بروسيا فيما بعد ـ كان هدف هذا الحلف هو تحدى دولة الخلافة بحرمانها من جنى

ثمار انتصارها على الثوار فى المورة ، حيث استسلموا أمام هجمات إبراهيم باشا بن محمد على وقواته المصرية ، فسقطت آخر حصونهم « ميسولونكى » فى إبريل سنة ١٨٢٦ م ، وكان الخليفة العثمانى السلطان محمود قد مد إبراهيم باشا بأعداد من المحاربين ، وما إن وقفت هذه الجيوش أمام ثغر نفارين حتى ظهرت نوايا الدول الأوربية المتحالفة ضد دولة الخلافة ، إذ واجهوا جيش إبراهيم بجيوشهم فى معركة بحرية غير متكافئة من جانب ، وغير متوقعة من جانب آخر ، فاستطاعت ـ بذلك ـ جيوشهم أن تقضى على جيبش الخلافة العثمانية « الأسطول » فى يوم العشرين من أكتوبر سنة ١٨٢٦ م ·

وفى شهر مايو من عام ١٨٢٨ م افتتحت روسيا ـ بعد استعداد ضخم ـ باب حرب واسعة ضد السلطان غير أنها عجزت عن أن تحرز أى تقدم فى المجالين اللذين حاربت فيهما وهما : البلقان والقوقاز ، ولكنها لم تكف عن حملاتها ضد دولة الخلافة بعد هذا الفشل ، فشنت حملة فى ربيع سنة ١٨٢٩ م حيث حاصرت « شملا » وتقدمت إلى أدرنة ، وأملت على السلطان شروط صلح فى الرابع عشر من شهر سبتمبر ·

وبمقتضى هذه الشروط تخلى السلطان عن جزر الدانوب والمقاطعات التركية الواقعة فى القوقاز وأجبر السلطان بعد ذلك على التخلى عن اليونان والاعتراف باستقلالها ·

ومن الجدير بالذكر أن إصلاحات السلطان لم تقف عند حد الجيش وتدريبه والقضاء على الإنكشارية وإنما تجاوزت ذلك إلى إصلاحات فى مناصب الدولة العليا ، فقد ألغى لقب « الصدر الأعظم » ووضع نظاما لرواتب الموظفين وجعل لها حدا معينا ، وجعل الدولة تلتزم بالوفاء بهذه الرواتب وكانت الرواتب من قبل يحصل عليها أصحابها من تعويضات من الجمهور مباشرة بالنسبة للوظائف الدنيا ، أما الوظائف العليا فكان أصحابها يتقاضون مرتباتهم من رؤسائهم ·

ثانيا : بدأ الصراع بين السلطان وبين محمد على باشا والى مصر يطفو على السطح ويشكل نوعا من الإزعاج لدولة الخلافة . فقد كان محمد على باشا قد رفض فى شهر فبراير سنة **١٨٣٧** م ما عرضه عليه السلطان محمود من أن تكون الولاية على مصر والساحل السورى وراثية مدى الحياه فى مقابل أن يتخلى محمد على لدولة الخلافة عن سورية الداخلية •

وكان هذا الرفض نذيرا بغضب الخليفة على محمد على ودخوله معه فى صراع سياسى عسكرى ، ففى عام **١٨٣٨** م تحرشت جيوش السلطان بالمصريين فى مقاطعة مرعش ، وفى يناير **١٨٣٩** م أصدر السلطان أمره بالزحف على القوات المصرية فى سوريا ، ولكنه تراجع حين احتج الدبلوماسيون « الأوربيون » ثم مالبث السلطان أن أصدر أمره بالهجوم فى شهر إبريل ، فاجتاز الجيش التركى طورس واحتشد فى بيره جك على الضفة اليسرى من الفرات الأعلى ، ووقف إبراهيم باشا موقف المترقب أمرا من أبيه ـ خشية أن يظن به الأوربيون الاعتداء ـ وما جاءه أمر أبيه بالتقدم فى يونيو من نفس العام حتى انقض على الجيش التركى فى نصيبين ، واستطاع أن يلحق به هزيمة منكرة ، على الرغم من أن بعض فرق إبراهيم المنتصر قد انحازت إلى جيش الأتراك المنهزم وحاربت معه ، وكانت هذه الوقعة فى الرابع والعشرين من شهر يونيو سنة **١٨٣٩** م ، فى حين توفى السلطان محمود فى الثلاثين من شهر يونيو من نفس العام ـ بعد الهزيمة بستة أيام ـ ولكنه لم يسمع أنباء هزيمة جيشه ، وتولى بعده ابنه السلطان عبدالمجيد ، وأمر بتشكيل جيش لمحاربة محمد على باشا ، ولكنه لم يستطع أن ينفذ خطته إلا بمساعدة الدول الأوربية ، حيث التقت مصلحة السلطان مع مصالح الدول الأوربية ضد محمد على باشا •

فقد كانت فرنسا ترغب فى أن تكون مصر تحت حمايتها لتمكن لنفسها من الجزائر التى كانت قد احتلتها قبل ذلك بقليل •

وكانت إنجلترا تخشى على طريق الهند من نفوذ مصر ، وبخاصة وأن مصر تتبعها سوريا فى ذلك الوقت •

ولقد أوشكت أن تلتقى مصلحة فرنسا مع مصلحة إنجلترا ، لولا أن روسيا لم يرضها هذا التوافق ، فعملت على أن تعقد مع إنجلترا حلفا يضم إليه دولتان ألمانيتان ، وأن يسمى ذلك الحلف بالحلف الرباعى ·

وبموجب هذا الحلف تعهدت هذه الدول الأربع بأن تدافع عن وحدة أراضى الدولة العثمانية ، وأن تكره « محمد على باشا » بقوة السلاح عند الحاجة على التخلى عن سورية ، على أن يحتفظ بفلسطين وحدها باستثناء عكا ، وقد اجتمعت وحدات الأساطيل المتحالفة ضد محمد على باشا على الشاطئ السورى ، وضم إليها الباب العالى بعض قطعه الحربية ، وشنت الهجوم على إبراهيم بن محمد على من جهة ثغر بيروت ، واستطاعت أن تستولى عليه ، ثم استولت بعد ذلك على عكا إثر حصار دام وقتا غير قصير ، ولم يجد إبراهيم باشا أمامه إلا العودة إلى مصر ·

وفى شهر نوفمبر من نفس العام اتجه أسطول الأعداء إلى مياه الإسكندرية وأكره « محمد على باشا » على توقيع اتفاق تعهد فيه بإعادة الأسطول العثمانى إلى الباب العالى ، وبالجلاء عن سورية فى مقابل أن تحكم مصر وراثيا ·

غير أن محمد على باشا بعد أن سلم الأسطول العثمانى للباب العالى ضعف مركزه ، وتقلصت قواه العسكرية وأدركت الدول الأوربية ذلك فتحالفت ضده وأجبرته على الأمور التالية ، التى كان فيها القضاء الحقيقى على قوة مصر العسكرية وعلى نفوذ « محمد على باشا » ومطامحه ، فكانت هذه الأمور تستهدف إقصاء مصر عن الساحة السياسية من جانب ، وجرها إلى عجلة السياسية الأوربية المسيطرة على الباب العالى من جانب آخر :

وأبرز هذه الأمور التى أجبر عليها « محمد على باشا » هى :

١ ـ أن يدفع جزية[١] سنوية للدولة العثمانية مقدارها ٣٠ ثلاثون مليونا من القروش ·

---

١ ـ تسميتها جزية خطأ ولكنها التسمية الشائعة المستعملة فى هذه المعاهدة ـ ذلك أن الجزية يعطيها الكافر للمسلم ·

٢ ـ أن يقصر عدد أفراد جيشه على ثمانية عشر ألفا من الرجال •

٣ ـ أن يترك للسلطان تعيين كبار موظفى حكومته •

٤ ـ أن يطبق فى مصر القوانين والضرائب المعمول بها فى سائر أنحاء الدولة العثمانية •

٥ ـ أن يعترف بأن المعاهدات التى عقدها الباب العالى مع الدول الأجنبية ملزمة لمصر •

وفى مقابل كل ذلك لم ينل « محمد على باشا » سوى شيء واحد ربما لم تكن له قيمة حقيقية ـ هو أنه منح فى مؤتمر لندن حق انتقال الحكم فى مصر إلى أكبر أبنائه انتقالا وراثيا •

ثالثا : السلطان عبدالمجيد والدستور :

فى اليوم الثالث من شهر نوفمبر سنة **١٨٣٩** م دعا السلطان عبدالمجيد أقطاب الباب العالى وممثلى أهالى استنبول العثمانيين ، وممثلى رعايا الدولة فى أوربا وأعضاء السلك الدبلوماسى ليسمعوا إلى تلاوة الخط الشريف المشهور باسم « كُلْخانة » •

وكانت هذه الوثيقة بمثابة دستور جارى به السلطان ووزيره رشيد باشا ما كان معروفا فى أوربا من دساتير •

وكان هدف السلطان من هذا الدستور أمرين رئيسيين :

الأول : استرضاء مشاعر الأمة الإسلامية •

الثانى : اكتساب عطف النصارى •

وكان من أبرز ما تضمنه هذا الدستور الأمور التالية :

١ ـ تمجيد السنن الإسلامية القديمة والنص على أنها السبيل الصحيح إلى إنقاذ الدولة •

٢ ـ ضرورة الأخذ بالدساتير الحديثة رغبة فى القضاء على المساوئ الناشئة عن مخالفة سنن الإسلام ونظمه •

٣ ـ وعد جميع الرعايا بصيانة أرواحهم وشرفهم وممتلكاتهم ·

٤ ـ الوعد بتوزيع عادل للضرائب ·

٥ ـ وعد المسلمين خاصة بتعديل نظام الخدمة العسكرية وقصر مدتها على أربع سنوات أو خمس ·

٦ ـ إلغاء الاحتكارات ·

٧ ـ إلغاء المصادرات ·

٨ ـ إلغاء نظام تضمين جباية الضرائب فى الولايات لمن يمهرها بالثمن الأعلى ·

٩ ـ جعل عقوبة الموت رهنا بالأحكام الصادرة بعد التحقيق القانونى ·

وكانت هذه المحاولة فى ظاهرها لصالح رعايا الخلافة العثمانية وفى باطنها استرضاء للدول الأوربية التى كان نفوذها يزداد فى دولة الخلافة آنا بعد آن ·

ومن الجدير بالنظر والتأمل : أن هذه الوثيقة لم تنفذ بصورة جيدة ، بل تضاءل فيها جانب إحياء السنن الإسلامية ، فى الوقت الذى زاد فيها الأخذ من الأنظمة الأوربية ·

غير أن الدول الأوربية لم يرضها هذا الذى فعله السلطان ، ولم يكفها ، لأنه لم يلائم خطتها فى الرغبة الملحة فى القضاء على دول الخلافة العثمانية !!! ومن أجل أن تحقق الدول الأوربية أهدافها تلك ، ولكى تضمن عدم التعاون بين الباب العالى وروسيا ، ضغطت على السلطان حتى أصدر منشورا يعرف باسم : « همايون » أكد فيه السلطان الحقوق التى منحها للرعايا فى الخط الشريف المعروف باسم : « كُلْخانة » السابق الذكر ·

وبموجب منشور « همايون » حدثت الأمور التالية :

١ ـ لم تعد القضايا المدنية الخاصة بالنصارى تنظر أمام القضاة المسلمين ـ كما كان الحال من قبل ـ بل شكل لها مجلس مختلط من المدنيين والإكليريكيين على أن ينتخب الشعب هذا المجلس بنفسه ·

٢ ـ لم يعد النصارى يوصفون بما كانوا يوصفون به من نعوت على ألسنة الخطباء من أنهم أمة ضالة .

٣ ـ سمح لأى مسلم ارتد إلى النصرانية أن يبقى على ارتداده ، دون استتابة أو قتل ـ كما كان الأمر من قبل .

٤ ـ أصبح للنصارى الحق فى التعلم فى مدارس الدولة ، ولهم الحق فى تولى الوظائف فى الدولة .

٥ ـ سمح للنصارى بالانتظام فى الخدمة العسكرية مع إتاحة حرية عدم الانتظام إذا دفعوا فى مقابل ذلك بدلا نقديا للدولة .

٦ ـ مثل النصارى فى مجالس الولايات والمجالس المحلية ولم يكن لهم ذلك من قبل .

٧ ـ سمح للأجانب بتملك الأراضى بشروط معينة .

وهذا المنشور قد جاء مخيبا لآمال المسلمين وحربا على نظم الإسلام وقوانينه ، وتمكينا للنفوذ الأوربى فى دولة الخلافة .

وظل نفوذ السلطان يتقلص ، ونفوذ الدول الأوربية يزداد ، حتى وضعت معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ م[١] ، وفى هذه المعاهدة تكفلت الدول الأوربية بحماية الدولة العثمانية وضمان استقلالها ـ وهذا معناه أن الدولة العثمانية قد بلغت من الضعف حدا جعلها فى حماية الدول الأوربية ـ وتعهد الباب العالى فى هذه المعاهدة بأن يمنح كلا من البغدان والأفلاق إدارة أهلية مستقلة ، وأن يضمن لسكانها حرية العبادة والتشريع والتجارة والملاحة حرية كاملة غير منقوصة .

كما تعهد السلطان بأن يمنح نفس الحريات لبلاد الصرب .

ولم تكتف الدول الأوربية بذلك ـ وقد أغراها ضعف السلطان ـ بل طلبت المزيد من التدخل فى شئون الدولة العثمانية والسيطرة عليها ، فبعد مضى أربع سنوات

---

١ ـ هى السنة التى ذهب فيها جمال الدين الأفغانى إلى الآستانة لأول مرة .

على معاهدة باريس ، أخذت الدول الأوربية تنتهز الفرص للتدخل فى شئون دولة الخلافة وإحداث القلائل والفتن فى أرجائها ، فأثارت تلك الدول حربا أهلية طائفية فى لبنان وسوريا بين الدروز والنصارى ، وانبرت انجلترا تؤيد الدروز وتمدهم وتعينهم بينما احتوت فرنسا النصارى وشملتهم بمزيد من التأييد والدعم والعطف ، ولكل من انجلترا وفرنسا هدف آخر من وراء هذا التأييد والعون ·

رابعا : عبد العزيز وتدخل الأجانب فى الدولة ·

فى اليوم الخامس والعشرين من شهر يونيو سنة ١٨٦١ م توفى السلطان عبد المجيد فخلفه أخوه السلطان عبد العزيز الذى كان فى بداية عهده حسن السيرة محمود التصرف ، ولكنه ما لبث أن خضع لنفوذ انجلترا عندما اقترض منها ستة ملايين جنيه استرلينى لمواجهة عجز فى موازنة الدولة ، وفى مقابل هذا القرض وافق على أن يعين مفوضا بريطانيا يراقب وجوه إنفاق أموال الدولة بالنسبة لهذا القرض ·

ثم ما لبث أن قبل تعيين ممثلين ماليين لسائر الدول العظمى التى لها علاقة بدولة الخلافة ، ثم وافق على إنشاء ديوان للمحاسبة ومصرف للدولة لحل مشكلة الدولة المالية ، غير أن ديوان المحاسبة والمصرف عجزا عن حل مشكلات الدولة عجزا كبيرا ·

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن أسلوب الدول الأوربية فى السيطرة على الدول الإسلامية هو هو فى تلك الفترة : فرض ممثل أو ممثلين ماليين ثم مراقبين ماليين ؛ ثم تدخل سافر ، وقد يكون بعد ذلك احتلال إن لم تكن حماية ، كما فعلوا مع مصر وغيرها من البلاد الاسلامية ·

وقد ظلت دولة الخلافة العثمانية تعانى من ضوائقها المالية ، وبخاصة فى العقد الثامن من القرن التاسع عشر ، وبلغت تلك الضوائق قمتها فى منتصف هذا العقد وبالتحديد سنة ١٨٧٥ م ، وقد حاول الباب العالى أن يعقد قرضا جديدا فى باريس ،

وأن يجعل من المصرف العثمانى جابيا وخازنا فى الدولة كلها ، ولكن الأمور لم تسر على النحو الذى يخلص الدولة من متاعبها المالية ، فأشار عليه السفير الروسي بأن يعلن إفلاس الدولة ، فاستجاب الباب العالى لهذه النصيحة المغرضة ، وأعلن الصدر الأعظم أن العجز فى ميزانية الدولة سيضطر الباب العالى خلال السنوات الخمس التالية إلى أن يدفع نصف قيمة الفائدة نقدا والنصف الآخر سندات بفائدة قدرها خمسة فى كل مائة ، وذلك هو مبرر إعلان الدولة لإفلاسها .

ثم أخذت أمور الدولة تسوء فى الداخل وفى الخارج ، إذ أثارت روسيا على الدولة ثوار الهرسك فى شهر يوليو سنة ١٨٧٥ م وفى يناير سنة ١٨٧٦ م اندلعت الثورة فى بلغاريا .

وفى مايو من نفس العام نشب نزاع فى سالونيك بين المسلمين والنصارى أدى إلى قتل القنصلين الألمانى والفرنسى ، فتحركت على أثر ذلك عمارة بحرية أوربية أمام شاطىء سالونيك ، وعندئذ اثار « الصوفتة » طلاب الفقه والقانون فى استنبول وخلعوا الصدر الأعظم وشيخ الإسلام .

ولقد استطاع مدحت باشا والى الدولة العثمانية على بلغاريا ، ثم على بغداد من بعد ، أن يؤلب على السلطان مراد ، القوى المعادية له فى الداخل والخارج ، فقد كتب للدول الأجنبية يخبرها بأن خلع السلطان عبدالعزيز أصبح ضرورة تحتمها الشريعة الإسلامية التى توجب أن يكون الخليفة مالكا لقواه العقلية ، ولما تمت أطراف المؤامرة تحركت قوة من المتآمرين من بينهم حسين عونى باشا وزير الحربية إلى قصر السلطان وتلوا عليه فتوى شيخ الإسلام القاضية بخلعه .

وفى نفس الليلة ولى السلطان مراد ـ الذى ألب عليه مدحت باشا القوى المعادية فى الداخل والخارج ـ ثم وجد السلطان عبدالعزيز مقتولا فى قصره فى اليوم الخامس من يونيو سنة ١٨٧٦ م .

وفى خلافة مراد قامت ثورة ضد دولة الخلافة العثمانية فى بلغاريا ، وتحركت

بريطانيا بأسلوبها المعروف ، ونادى زعيم المعارضة فيها « جلادستون Gladstone » بطرد العثمانيين جميعا من أوربا كلها لا من بلغاريا وحدها ٠

وأخذت بريطانيا وغيرها من الدول الأوربية تخطط لتقليص نفوذ الخلافة العثمانية من أوربا - فما هو إلا وقت قصير حتى قامت فى بلادالصرب حركة معادية لدولة الخلافة ، فأصبح حزب الحرب هناك هو صاحب الكلمة ٠

وفى السابع والعشرين من شهر يونيو سنة ١٨٧٦ م وجهت حكومة بلغراد إنذارا إلى الباب العالى ، طلبت فيه سحب الحاميات التركية - وما أسمته العصابات غير النظامية - من الحدود الصربية كلها ، كما طالبت بتعيين الأمير ميلان Milan نائبا للسلطان على البوسنة ٠

وفى اليوم الثانى من شهر يوليو سنة ١٨٧٦ م أعلن ميلان Milan الحرب على الباب العالى من مقر قيادته فى دليجراد ، وشاركه فى هذه الحرب الجبل الأسود ، واستطاع جنود الجبل الأسود أن يحرزوا انتصارا على جنود الدولة العثمانية فى الثامن والعشرين من يوليو سنة ١٨٧٦ م ٠

وفى نهاية شهر أغسطس سنة ١٨٧٦ م أعلن شيخ الإسلام خلع السلطان مراد لاختلال عقله ، فلم يمكث مراد فى الخلافة سوى أشهر قليلة ٠

وفى أول شهر سبتمبر من نفس العام رقى العرش أخوه السلطان عبدالحميد الثانى ٠

وفى بداية حكم السلطان عبدالحميد الثانى تولى مدحت باشا مقاليد الصدارة العظمى واستطاع أن يعقد هدنة مع روسيا فى البلقان لمدة شهرين ٠

وفى بداية عهده تطاولت بريطانيا على استقلال دولة الخلافة فاقترحت عقد مؤتمر للسفراء فى استانبول بقصد تقديم مقترحات جديدة لإصلاح دولة الخلافة !!! وطالبت هذه الدولة الممثلة فى سفرائها بأن تحتفظ هى بحق الموافقة على تعيين حاكم بلغاريا خلال السنوات الخمس الأولى ، كما طالبت بأن تعين لجنة دولية للمراقبة ٠

ورأى مدحت باشا أن يفوت على تلك الدول تدخلها فى شئون دولة الخلافة أو حدها من حرية الدولة واستقلالها ، فتبنى هو الإصلاح الداخلى وألف لجنة من ستة عشر موظفا مدنيا ، وعشرة من العلماء ، وقائدين كبيرين ، وعهد إلى تلك اللجنة وضع دستور للدولة ، فوضع ما سمى « بالقانون الأساسى » فى الثالث والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٧٦ م .

وأهم ما اشتمل عليه القانون الأساسى النقاط التالية :

١ ـ إلغاء امتياز استانبول الذى كان لها مثل إعفاء سكانها من الخدمة العسكرية ، وإعفائهم من ضريبة الدخل .

٢ ـ إطلاق لفظ العثمانيين على جميع رعايا الدولة .

٣ ـ اعتبار الإسلام دين الدولة ، على أن تتولى الدولة حماية جميع المذاهب المعترف بها .

٤ ـ إطلاق حرية الصحافة ضمن نطاق القانون .

٥ ـ إفساح المجال أمام جميع العثمانيين المتمكنين من اللغة التركية من تولى أيما منصب فى الدولة وفقا لكفايتهم .

٦ ـ إقامة التمثيل الشعبى من طريق مجلسين : أحدهما للنواب « المبعوثان » والثانى للشيوخ « الأعيان » على أن يتمتع أعضاء المجلسين بحصانة تنجيهم من الاضطهاد وبسبب آرائهم أو أصواتهم .

٧ ـ أن توضع القوانين التى يقترحها المجلسان موضع التنفيذ ، بعد أن يقرها كل منهما ويوافق عليها السلطان .

٨ ـ أن يعين السلطان أعضاء مجلس الأعيان ورئيسهم مدى الحياة ، وأن ينتخب نائب واحد عن كل خمسين ألف مواطن وأن لا يشغل هذا النائب أى منصب عام غير الوزارة ، وأن تكون مدة انتخاب النواب أربع سنين وأن يكون لهم الحق فى خوض المعركة الانتخابية مرة أخرى ، على أن يمثل كل منهم العثمانيين

جميعا لا منطقة بعينها ، وأن ينتخب الناخبون نائبهم من بين سكان منطقتهم .

٩ ـ أن يختار السكان رئيس مجلس النواب ونائبيه من بين النواب الذين يرشحهم المجلس لتولى هذه المناصب .

١٠ـ يناط وضع الميزانية العامة للدولة بمجلس النواب وتكون جلساته علنية يشهدها الجمهور .

١١ـ تنشأ محكمة عليا مؤلفة من عشرة أعضاء من مجلس الأعيان وعشرة من مستشارى الدولة ، وعشرة من مستشارى محكمة الاستئناف ، يكون من صلاحيتها مفاجأة الوزراء والرؤساء وأعضاء محكمة الاستئناف والمتهمين بالعصيان والخيانة العظمى .

١٢ـ أن تقوم إدارة الولايات على أساس « اللامركزية » .

١٣ـ أن يكون التعليم الابتدائى إلزاميا بالنسبة لجميع العثمانيين .

هذه صورة مجملة لأهم ما اشتمل عليه القانون الأساسى الذى فكر فيه مدحت باشا وأقره السلطان عبدالحميد الثانى فى سنة ١٨٧٦ م .

خامسا : أهم أعمال السلطان عبدالحميد الثانى :

السلطان عبدالحميد الثانى معلمة بارزة فى تاريخ دولة الخلافة العثمانية ولكن شخصيته وسيرته لم تدرس حتى الآن الدراسة المنصفة التى تضعه فى وضعه الصحيح ، ويوم تتم هذه الدراسة سيعرف الناس أن هذا السلطان قد درأ عن الأمة الإسلامية فى عهده ـ وربما فيما بعد عهده بسنوات ـ خطرا كان يتهددها فى صميمها ـ وهو خطر إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ـ حيث رفض ذلك رفضا قاطعا على الرغم من الإغراءات التى قدمت له والتى كان أبسطها تخليص دولة الخلافة من أزماتها المالية الطاحنة .

ومن أهم الأعمال التى تمت فى عهده :

١ ـ أقال مدحت باشا داعية الاعتماد على الدول الغربية ، ونفاه واتهمه بالخيانة العظمى .

٢ ـ اهتم بتدريب الجيش تدريبا جديدا على أيدى خبراء ألمان ، مع رفضه البات لأى إصلاح يقوم على النمط الأوربى .

٣ ـ قاوم حركة تركيا الفتاة مقاومة شديدة ، وقد كانت هذه الحركة تدعم وتؤيد من القوى الأوربية المعادية لدولة الخلافة والتى تستهدف تقويض الخلافة من أساسها .

وقد اتجه دعاة « تركيا الفتاة » بعد أن ضيق عليهم السلطان ـ إلى أوربا ، فى جنيف وباريس ، واتخذوا من بعض دول أوربا مراكز مقاومة للدولة العثمانية ، ومنطلقات يثبون منها إلى كل فرصة تمكنهم من الوصول إلى هدفهم ، مدعومين فى ذلك بأموال أعداء دولة الخلافة وأفكارهم وخططهم ودسائسهم .

٤ ـ استيقظت فى عهد السلطان عبدالحميد الثانى دعوة تنادى بأن يحل الإسلام محل النظم الأوربية المستوردة ، وقد نادى بذلك عدد من القادة والمصلحين وعلماء الإسلام ، كان منهم دون شك جمال الدين الأفغانى ، إن لم يكن على رأسهم .

٥ ـ وفى حكم السلطان عبدالحميد الثانى سقطت تونس العربية المسلمة فى براثن الاحتلال الفرنسى سنة ١٨٨١ م .

ومما هو جدير بالذكر ، أن دول أوربا المتحالفة ضد دولة الخلافة قد زاد نشاطها وأحكمت قبضتها على دولة الخلافة وعلى السلطان نفسه بالدسائس واصطناع المشكلات وتحريض الثائرين والعملاء ، مما أضعف السلطان والدولة ، وجعلها تتجه سريعا إلى الغاية التى أرادها لها أعداؤها حيث سقطت الخلافة العثمانية ، وحل محلها حكم تركى فى الظاهر ، أوربى فى الحقيقة ، أبرز ما يتصف به هو العداء للإسلام والمسلمين .

أثر جمال الدين الأفغانى فى الآستانة

ليس فى وسعى أن أتجاهل ذلك الموقف الذى وقفه جمال الدين الأفغانى من السلطان عبدالحميد عندما طلب السلطان من جمال الدين أن يحضر إلى الآستانة ، فذاك موقف له دلالات وأبعاد فى التعرف على تلك الشخصية الفذة شخصية جمال الدين ٠

ولعل فى هذا الموقف ردًّا على أولئك الذين يحلو لهم أن يشوهوا كرامة جمال الدين ، ويطعنوا فى اعتزازه بنفسه ، فيصوروه كما لو كان راغبا فى مال أو جاه مما كان ينثره السلطان هنا وهناك ٠

فبينما كان جمال الدين فى انجلترا فى حجاج ولجاج مع كبار الساسة من الإنجليز حول مملكة الفرس وسوء تصرف الشاه ناصر الدين ، وإنذاره للإنجليز بسوء عقبى إمدادهم للشاه وإعانتهم له ، على عسفه فى المملكة الفارسية ، بينما جمال الدين فى ذلك إذ ورد عليه كتاب من « المابين الهمايونى » بوساطة السفير العثمانى فى لندن : رستم باشا ، يطلب منه أن يقدم إلى الآستانة ، فاعتذر جمال الدين عن إجابة هذا الطلب بحجة انشغاله فى قضية إصلاح بلاده ، وعبثا حاول رستم باشا أن يثنى جمال الدين عن رفضه القدوم إلى الآستانة ٠

وهنا نستطيع أن نتصور قوة الرجل الذى يرفض دعوة السلطان عبدالحميد ، ونتصور كذلك مدى تعففه عما فى أيدى السلاطين من جاه أو مال ، كان يسيل لعاب الآخرين ٠

غير أن السلطان عبدالحميد لم يكف عن طلب جمال الدين ومجالسته بل الاستفادة منه ومن آرائه ومقترحاته ، فكتب إلى سفيره فى لندن رستم باشا عبارة يفهم منها أنه من المحتم على رستم باشا أن يبذل كل جهده فى سبيل إقناع جمال الدين

بالقدوم إلى الآستانة ، اتضح ذلك فى كتاب السلطان إلى سفيره حيث يقول له : « لا يقبل جلالته لكم عذرا إذا لم تقنعوا جمال الدين بالمجئ إلى الآستانة ليقابله ثم يعود إذا شاء ، منتظرين إشعاركم « تلغرافيا » .

وفى ذات الوقت ورد على جمال الدين كتاب من السلطان فيه من الثناء على جمال الدين والتحريض له على المجىء إلى الآستانة ، ما جعل جمال الدين يفكر ويدبر ، ثم يقر رأيه على ترك لندن والذهاب إلى الآستانة تلبية لرغبة السلطان ، وكان ذلك سنة ١٣١٠ هـ ـ ١٨٩٢ م .

وأحب أن أنبه هنا إلى أن السلطان عبدالحميد داهية عصره وعبقرى زمانه رأى أن رجلا كجمال الدين فى علمه وخبرته وتجاربه وآرائه الإصلاحية التى تسبقه إلى كل مكان ، رأى أن رجلا كهذا لا ينبغى أن يكون بعيدا عن هموم السلطان وآماله ومطامحه .

وعندما ذهب جمال الدين إلى الآستانة وقابل السلطان ، كان استقبال السلطان له أحسن استقبال ، فاحتفى به وأدناه من مجلسه وأمر بأن يهيأ له قصر فى محلة نيشانطاش .

وكان السلطان كثير الاستدعاء لجمال الدين وكثير التحدث معه ، حتى لقد كان يطول حديثه معه ساعات عديدة فى كل يوم وليلة .

ولقد استطاع جمال الدين أن يزن السلطان عبد الحميد بميزانه الصحيح حين قال فيه : « إن السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة ، خصوصا فى تسخير جليسه ، ولا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب ، ويخرج المناوئ له من حضرته راضيا عنه وعن سيرته وسيره ، مقتنعا بحجته ، سواء فى ذلك الملك والأمير والوزير والسفير ، ولكن يا للأسف ، إن عيب الكبير كبير ـ والجبن من أكبر عيوب الملوك »[1] .

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرت جمال الدين : ٣٤

ومن كلمات جمال الدين فى السلطان عبد الحميد قوله : « رأيت من السلطان ارتياحا لقبول كل ما ذكرته له من محاسن الحكم الدستورى ، وإن الإسلام أول من عمل به فى سلطانه ، أى الحكم الشورى ، وذلك عملا بحكم النص « وأمرهم شورى بينهم » .

وقال عنه : « رأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامى الدول الغربية وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجا وسلما ، وأعظم ما أدهشنى ما أعده من خفى الوسائل وأمضى العوامل كى لا تتفوق أوربا على عمل خطير فى الممالك العثمانية ، ويريها عيانا محسوسا أن تجزئه السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب يعم الممالك الأوربية بأسرها .

... وهكذا كانت يقظته لدول البلقان الصغيرة التى أحدثتها أوربا أُحبوله لتضعضع بها السلطنة العثمانية ، وتتذرع بها للتدخل فى الشئون ، ولتقتطع من أجزاء المملكة جزءا بعد آخر ، وكلما حاولت أوربا أن تجمع كلمة البلقان للخروج على الدولة بحرب كان السلطان يسارع بدهائه العجيب لحل عقد ما ربطوا وتفريق ما جمعوه من كلمة وكيد ، فالبلغار مع شدة شكيمتهم ودهاء أميرهم « البرنس فرديناند » رضخ طائعا لأمر عبد الحميد وليس الشعار العثمانى « الطربوش » وافتخر برتبة المشيرية ، وانتظم مع مشيرى الدولة فى حفلة صلاة الجمعة « السلاملك » .

أما أمير الجبل الأسود « نقولا » فكان أمره مع السلطان عبدالحميد كولد لا يرى الفرج إلا من أبيه ، كان كلما شكا قلة ذات اليد وطلب كفالة على استقراض زهيد يرسله له دون عوض ولا سند ، وأكثر جهاز ابنته التى زفها على ولى عهد إيطاليا كان من جيب السلطان عبدالحميد .

وهكذا بقية دول البلقان مع ذلك السلطان العظيم الشأن ... ضاقت أوربا ذرعا بسياسته وحيطته ، ويئست من أكثر دول البلقان فحولت كيدها بدس الدسائس ، وصرفت همتها بالاستغواء إلى أخف الدويلات حلوما وأكثرهم غرورا وطيشا وهى دولة

اليونـان ، فقـد بدأت تتحـرش بالدولـة العثمانية لتتدهـور بالحـرب مع السلطـان عبدالحميد »[١] .

وقد علق المخزومى باشا على ذلك بقوله : « بعد أن نظر جمال الـدين بعـين البصيرة ووقف على جريان السياسة وما هنالك من الدسائس ، جزم بوقوع الحرب اليونانية العثمانية ، وقد حصل ذلك وجمال الـدين على فراش المرض ، وحصلت النتيجة التى كان ينتظرها من تلك الحرب ، وأن أوربا وما تعملـه من المكايد مع السلطان عبدالحميد والدولة العثمانية ستكون نتيجة ردًّا للكيد فى النحر .

هذا ما كان من اليونان وما أمدتها به أوربا من المدد وما أسعفوها به من المال والعدد فقد ذهب سدى إذ لم يمض على الحرب إلا شهران أو أكثر حتى اكتسحت جنود السلطان عبدالحميد سهول ووهاد وجبال ومعاقل « تساليا » و « لازيسا »[٢] وفرت طيور أو وز اليونان من عقبان الجيش العثمانى ، فاستجار اليونان بالقيصر إذ ذاك أن ينقذ أثينا بتوقيف الحرب .. »[٣] .

ومن كلمات جمال الدين فى السلطان عبدالحميد قوله : « أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره وإعداد العدة اللازمة لإبطال مكايد أوربـا وحسـن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة ـ الذى فيه نهضة المسلمين عموما ـ فقد دفعنى إلى مد يدى له فبايعته بالخلافة والملك عالما علم اليقين أن الممالك الإسلامية فى الشرق لا تسلم من شرك أوروبا ولا من السعى وراء أضعافها وتجزئتها ، وفى الأخير ازدرادها واحدة بعد أخرى إلا بيقظة وانتباه عمومى وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم »[٤] .

وهذا معناه أن علاقة جمال الدين الأفغانى بالسلطان عبدالحميد لم تكن علاقة التابع بالمتبوع ولا الخادم بالمخدوم ـ وإن كان كثير من الناس يصبو إلى ذلك مع

١ ـ السابق : ٣٥

٢ ـ الصواب : سهول تساليا ووهادها الخ لأنه لا يفصل بين المضاف والمضاف إليه .

٣ ـ المخزومى : خاطرات جمال الدين : هامش ص ٣٥ ـ ٣٦ .

٤ ـ السابق : ٣٦

السلطان عبدالحميد ـ وإنما كانت علاقة الناصح بالمنصوح والعالم الواعى بمن يعظه ويذكره ·

وكم كان لجمال الدين من كلمات ومواقف مع السلطان ما كانت لتصدر إلا من رجل جرىء القلب صادق النصح لا يخشى فى الحق لومة لائم ·

ولقد استمرت صلة السلطان عبدالحميد بجمال الدين ، ودام إقباله عليه ، وجمال الدين لا يدخر وسعا فى إسداء النصح له وتنبيهه إلى الخونة والدساسين ـ مع علم السلطان بخيانتهم وتأكده من غشهم ونفاقهم ـ حتى قال جمال الدين يوما للسلطان : « جلالة السلطان مللتُ من تعاطينا الشكاية ، ومن غيرك صاحب الأمر ؟ خذ بحزم جَدك محمود ، وأقص الخائنين من خاصتك الذين يبعدون عن بلاطك حقائق تخريب الوزراء هنا والعمال فى الولايات وهم صنائعهم وجباة جيوبهم الخاصة ·

خفف الحجاب عنك واظهر للملأ ظهورا يقطع من الخائنين الظهور ، واعتقد أن نِعم الحارس الأجلُ « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ·

قال : عند ذلك تنفس السلطان الصعداء وقال : « ذكرتنى بعهد جدى محمود ، وما أبعد الفرق بين محيطى ومحيطه بين حالة أوربا فى زمانه وحالتها اليوم ، بين رعيته والرعية اليوم ·

كان الفساد فى عصره منحصرا فى فئة العساكر « الإنكشارية » فطهرها بالسيف واستبدلها بخير منها ، وكان المجموع صالحا ، بعكس ما أنا فيه يا جمال الدين ، ما استبدلت وزيرا بآخر إلا رأيت من مساوئ الخلف ما أسفت معه على السلف « كلما دخلت أمة لعنت أختها » ولا مناص من الصبر ، وسأفعل إن شاء الله على التدريج · « وكان أمر الله مفعولا » ·

كلفتك يا حضرة السيد أن تقبل مشيخة الإسلام فتصلحها فأبيت ، واعتذرت إذ طلبت أن تعمل عملا أساسيا فتغير معه الشكل الحاضر ، وهذا مما لا يسمح به الزمن مع غوائله ، فعذرتك بعدم القبول ، فاعذرنى إذا لم أقدم على التغيير بسرعة لا تتناسب مع الزمان والمكان ·

ولابد من كارثة تحدث فتشغل أوربا عنا ونغنم بها فرصة نصلح فيها أمرنا ونلم شعثنا إن شاء الله »[1] .

وإن ما قاله جمال الدين للسلطان فى تبريره عدم قبوله ما عرض عليه من وظائف لجدير بأن نسجله الآن ، لما له من دلالة على نوع جمال الدين من بين الرجال ، فقد قال للسلطان عندما عرض عليه وظيفة مشيخة الإسلام : « إن وظيفة العالم ليست بمنصب ذى راتب ، بل بصحيح الإرشاد والتعليم ، ورتبته ما يحسن من العلوم مع حسن العمل بالعلم »[2] .

ولقد كان جمال الدين يدرك أدق الإدراك وأتمه ظروف المشكلات التى تعيشها دولة الخلافة العثمانية ، ويدرك تماما ما يدبره أعداء المسلمين للإسلام وأهله فى تلك الفترة .

ولقد شاع بين السياسيين ـ بإيحاء من الأوربيين ـ تسمية هذا الصراع الأوربى الإسلامى « بالمسألة الشرقية » وهى تسمية تحمل من الدهاء والخبث ما يحقق للأوربيين مصالحهم حيث كانوا فى ذلك الوقت يستعمرون معظم بلدان العالم الإسلامى ، فلم يشأ الأوربيون أن يقولوا فى هذا الصراع : المسألة الأوربية المعادية للمسلمين أو يقولوا : مسألة الحروب الصليبية الجديدة ، أو يقولوا : مسألة تصفية العالم الإسلامى ، لأن كل واحدة من هذه التسميات تثير مشاعر الشعوب المسلمة فى مستعمرات الأوربيين الإسلامية ، فكانت كلمة المسألة الشرقية صرفا لأذهان المسلمين عن الحقيقة ، وعن الأهداف التى تكمن وراءها .

ولقد أدرك جمال الدين هذه المسألة وعرف تماما أبعادها وأهدافها ، وتحدث عنها حديث العارف الواعى حيث قال : « مختصر المسألة الشرقية هى عراك بين الغربى والشرقى وقد لبس كل منهما لصاحبه درعا من الدين ، فالغربى تذرع بالنصرانية والشرقي بالإسلامية ، وأهل الديانتين كالآلة الصماء بأيدى محركيها .

---

١ ـ السابق : ٣٩

٢ ـ السابق : ٣٩ .

فالقائمون بالنصرانية يسخرون الدين لأجل الدنيا ، ويحسنون أمر دنياهم وما تتطلبه مظاهر الحياة ، والعاملون بالإسلامية يسخرون الدنيا لأجل الدين وإذا هم لم يعملو بأحكامه يخسرون الدين والدنيا معه »[١] .

يغوص جمال الدين فى أعماق المشكلة ويتتبع فى وعى عميق جذورها وأصولها ويحدد فى وضوح أسبابها فيقول : « إن فتح القسطنطينية ـ تلك العاصمة الصماء ـ من قبل السلطان الفاتح سنة ٨٥٦ ـ ٨٥٧ هـ هى التى ولدت الحقد فى الملوك المسيحيين ضد المسلمين ، وأخذت من ذلك الوقت تجمع كيدها وتحصر همها لمناصبة الدولة العثمانية ، وتعمل على إذلالها وتضعضعها وإخراجها من فتوحاتها الأوربية بكل وسيلة وفى كل سانحة وفرصة .

والأكثر فى الحروب والتغلب والانتصار فيها إنما يكون بالقوة وبالعلم ، ولو أن الدولة العثمانية راعت من يوم تأسست أو من يوم ما استقلت به سنة ١١١١ هـ الموافق ١٦٩٩ م وراقبت حركات العالم الغربى وجرت معه حيثما جرى فى مضمار المدنية والحضارة ، وقرنت إلى فتوحاتها المادية القوة العلمية على نحو ما فعلت اليابان أقله .

نعم لو فعلت ذلك لما كان ثمة مسألة شرقية أو لما ظهر ذلك التباين الذى لا يثبت الحكم معه طويلا ، وهو تحكم الجهل بالعلم أو « حكومة جهل تحكم حكومات علم » ولا يتسنى اليوم للسيف المجرد أن يحكم بأمة يدافع عنها مدافع العلم .

وما مسألة الدين إلا ذريعة تظهر بعد استكمال القوة للوصول لتلك الغاية وهى دفع الجهل ، والحكومة الجاهلة عن الحكم بأمة عالمة لها تاريخها ولسانها وآثارها ولو كانت بالية .

وإذا كان للضغينة الدينية شىء من الدخل فى إيجاد المسألة الشرقية والاحتفاظ بها ، فإنها ليست كل الأسباب فى هذه المسألة ، بدليل أن سلاطين آل عثمان فتحوا وتوغلوا وضموا الممالك وكانوا يدينون بالإسلام ، ومن دخل فى ملكهم وتحت سيطرتهم

---

١ ـ السابق : ١٤٣ ـ ١٤٤

كانوا نصارى وأشد تمسكا بالنصرانية مما هم الآن ، فلو كان أمر الدين هو الباعث على هذا الحقد والمناهضة لكان الأولى أن يظهر إذ ذاك ، وعدم ظهوره بل رضوخ الطوائف والإمارات النصرانية للحكم العثماني الإسلامي أكبر دليل على أن مسألة الدين لم تكن هي وحدها الفاعلة في أمر المسألة الشرقية التي امتدت وستمتد إلى غير تركيا ، وستعم كل قارة وكل حكومة تتفق في شكلها وحكمها وتفريطها مع حكومة تركيا ·

وإذا تفحصنا عوامل تغلب الدول الإسلامية على الحكومات النصرانية لوجدناه[1] منحصرا في القوة والعلم ، وهكذا يدول أمر الدول انتصارا وانكسارا ·

والدول المسيحية اليوم إنما يغلبون الحكومات الإسلامية بالعلم مصدر القوة ، وينقلب المسلمون بالجهل مصدر الضعف ·

علم الأتراك يوم تسنى لهم فتح الممالك « علم الحروب وتعبئة الجيوش » وجهل الأوربيون ذلك ولم يضارعوهم فيه ، فانتصر الأتراك وانكسر الفرنجة ·

التزم الأتراك والسلاطين العظام منهم جانب الدين ، وكان على منصة المشيخة الإسلامية علماء أعلام وفقهاء ، وأجلاء عالمون عاملون بحقيقة[2] وأحكام الإسلام ، يصدر السلطان وأكابر دولته عن رأيهم وينزل على حكمهم ، فعدلوا في الرعية وأمنوا من دخل ذمتهم وسهلوا لهم الصعاب وحافظوا على جامعاتهم من دين ولسان وعادة ، فرضخ المستعمرون من الطوائف النصرانية لقوة العثمانيين وعدلهم وعلمهم بالنسبة لجهل غيرهم من تلك الأعصر ·

فظل النصارى في طاعة العثمانيين وظلوا في كل المعاني رعية لهم ، ما دامت تلك المؤهلات والصفات في الفريقين القوة والعلم في الحاكم والضعف والجهل في المحكوم · حتى إذا انعكس الأمر وبَانَ الجهل مصدر الضعف في الأمة الحاكمة وظهر

---

١ ـ اللام لا تدخل في جواب إذا ·

٢ ـ عطف على المضاف قبل إيراد المضاف إليه ، وكان الأصل أن يقول : بحقيقة الإسلام وأحكامه ·

العلم مصدر القوة فى الأمم المحكومة نهضت للتخلص من ربقة الاستعباد لمن دونهم فى العلم واستبسلت فى الرجوع لحكم ذاتها بذاتها •

وقد سهل عليهم كل صعب فى هذا السبيل إقرار الدولة لهم على جامعاتهم الكبرى من دين ولسان وتاريخ ، تلك النعمة التى كانت وتكون على الدولة أكبر نقمة ، ولا مناص لها من تحمل أعباء ذلك ، وهى سنة الوجود لأن الأمم المحكومة إذا تيسر لها المحافظة على جامعاتها من دين ولسان وتاريخ ولم تستحل وتنحل فى غير عنصرها ، فهى أرقب الناس للفرص وأعلق الخلق بإعادة مجدها وتجديد وإعادة سيرتها الأولى ، ولن يثنيها أشد العوامل عن المطالبة بها ، وتزداد نشاطا وتستمد قوة معنوية كلما آنست من حاكمها المستهين بها استطالة بغير حق واستهضاما لحقها بغير وجه مشروع ، وبقهر ليس له من الإنصاف نصيب وبقتل يحيى ميت العزائم [1] •

ولا يكتفى جمال الدين ـ كعادته ـ بأن يبث آراءه وينادى بإصلاحاته بين جلسائه وتلاميذه ومريديه ، وإنما يحرص الحرص كله على أن تصل آراؤه فى الإصلاح إلى المسئول الأول فى الدولة التى يقيم فيها ، صنع ذلك فى مصر وفى فارس وفى تركيا وكانت له مع رؤساء تلك الدول صولات وجولات •

حرص جمال الدين على أن تصل آراؤه فى الإصلاح إلى السلطان عبدالحميد ، فقال له مرة :« أتأذن لى فى تقديم لائحة فى تصوراتى لتحسين حال المملكة والتحوط بصونها من مطامع الأعداء ؟

قال السلطان : « لا أريد أن تكتب شيئا من ذلك ، إذ لا أحب أن يطلع على ما يدور بيننا أحد ، بل قل لى ما تشاء أن تكتبه بكل حرية وصراحة فأنا من السامعين •

قلت : أيعتقد جلالة السلطان أن مصر لو بقيت ولاية ترسل إليها من الآستانة مثل باكير باشا ومحمد باشا البدكشى وأمثالهما لجمع الأموال من غير وجهها وتوزيعها

---

١ ـ السابق : ١٤٥ ـ ١٤٦ •

على رجال الدولة هنا « الآستانة » فقط على ما هو مشهور وغير خاف على جلالتكم ؟ هل هو خير لمصر وأهلها وللسلطنة ؟ أم جعلها خديوية كما هى قبل الإنجليز خاضعة للدولة ومن الأجزاء المتممة للسلطنة يأتمر خديويها بأمركم والعساكر المصرية عثمانية تسرع إلى تلبية الأمر باللحاق مع جيوش السلطان . وبكل المعنى رعية خاضعة طائعة ؟

ففكر السلطان مليا وحول وجهه نحو النافذة عنى ، حتى ظننت أن الحديث قد اساءه وأنه لا يحب الخوض فيه ولا العود إليه . وإذا هو بغتة قد التفت وتوجه بكليته إلىّ وكأنه قد انتهى من ذكرى ما جرى من محمد على باشا وابنه إبراهيم باشا ، وكيف أنه كاد أن يستخلص السلطنة العثمانية فتحا بالقوة ٠

وقال : لو قلنا إن وجودها خديوية أحسن من بقائها ولاية ٠٠ ثم ماذا ؟ قلت : يا مولاى: إن السلطنة العثمانية تتألف اليوم من ثلاثين ولاية . ومساحة أملاكها فى آسيا فقط ستمائة وواحد وستين ألف ميل مربع (ومساحة بريطانيا وإيرلندا مائة وعشرون ألف ميل فتأمل) فتبدأ بالبعيد منها والمطموح فيها مثل طرابلس الغرب فتجعلها خديوية ، ثم إلى ولايات بغداد فالبصرة فالموصل فتجعلها خديوية . وإلى بيروت وسورية وحلب مع القدس فتجعلها خديوية ، ثم إلى جزائر بحر سفيد وكريد مع أدرنة وسلانيك فتجعلها خديوية » ٠

ويشترط عليها تعزيز العمارة البحرية قبل كل شىء . ثم الحجاز فتجعل خديويها الأقدر من الأشراف الهاشميين اليوم ، والأحسن سيرة ، ثم اليمن وخديويها يكون الإمام الزيدى ٠

أما الأناضول وولايته قونيه ، وأنقره ، وآيدين ، وأطنة ، وقسطمونى ، وسيواسى ، وديار بكر ، وبتليس ، وأرضروم ، ومعمورة العزيز ، وآن ، طرابزون فتقسم إلى ثلاث خديويات يكون لكل خديوية منفذ بحرى: الواحد[١] على البحر الأسود إما فى

١ ـ السياق يقتضى كلمة : الأول ٠ بدل الواحد ٠

سيواس أو صاموم ، والثانى فى بروسه والثالث فى أزمير .

وبلاد الألبان وهى ولايات قوصوه ويانيه واشعودره ومناستر . فتجعلها خديوية أيضا .

هذه يا مولاى عشر خديويات بل عشرة ممالك ، كل واحدة منها أعظم موقعا من اليونان وأكبر مساحة وأخصب أرضا وأنشط قوما وأرجح عقولا وما يقعدهم عن اللحاق بمن انفصل عن السلطنة العثمانية أو التفوق عليهم إلا شكل الحكم وقيود[1] وأغلال المركزية القائلة للهمم الموهنة للعزائم .

ومن يرسل لتلك الولايات من الولاة اليوم أحد رجلين : إما الخامل البليد المرتكب ، وهمه جمع المال وتوسيع الخراب ، وإما الرجل النسيط العاقل وليس له من الأمر شيء إلا الاستئذان من الباب العالى لترميم جسر فى بغداد مثلا سقط منه حجران أو أكثر ، فلا يصدر الإذن إلا بعد أشهر أو أعوام ، وبعد أن يكون طغيان النهر قد جرف كامل الجسر .

وهذه الخديويات يا مولاى أول من تفوضها إليهم أهل بيتك من أمراء آل عثمان فتخلصهم من القعود مع النساء وتربية الخصيان ، فيحسن بالضرورة كل منهم ما تولاه من أجزاء السلطنة ، ومصير ذلك التحسين والخير إليه ولأسرته ، ويكون لكل أمير وزير فاضل أمين .

ثم لا أرى مانعا يمنع من العهد ببعض الخديويات إلى من عرف من الوزراء بالإخلاص والهمة ورجاحة العقل ، ومن غير الوزراء أيضا ، وجلالة السلطان إذا شاء وفتش عنهم وجدهم فى غير حاشيته الذين يدخلون على بلاطه ، ولحضوره ، ويحسون آذانه بالباطل ، ويمنعون عنه كل حقيقة ، ويقصون عن قربه كل فاضل .

ثم قال : وقد رأيت السلطان وهو على تمام الإصغاء لما أقول ، قد تقطب وجهه وعلته كآبة امتعاض وحزن فقلت : يا مولاى : وعزة الحق وبولائى لأمير المؤمنين

---

١ ـ عطف على المضاف قبل إيراد المضاف إليه .

ونصحى للمسلمين ، إن ما ساقنى إلى ما قلته إلا الإخلاص والحرص على ملكك ، والغيرة على الدولة والممالك الإسلامية الشرقية التى ليس لجمع شتاتها وتوحد كلمتها إلا الاعتصام والانضواء تحت لواء الخلافة .

وجلالتك ترى أن أجزاء السلطنة أخذت تتفكك الجزء بعد الآخر فصار من الواجب نظم الممالك وأجزائها بسلك من النظام أوثق وأشد وأحكم وما وجدت ذلك السلك إلا بذلك الشكل الذى قدمته .

ولما انتهيت : هز السلطان رأسه وتناول لفافة من التبغ أسرع فى تدخينها وقال : ماذا تركت يا حضرة السيد للسلطان ؟ وما أبقيت لتخت آل عثمان ؟

قلت يبقى جلالة مولاى السلطان ملك أولئك الملوك ، وينضم إلى العرش العثمانى عشرة عروش غير عرش مصر ، ثم متى نهضت تلك المقاطعات والخديويات وأخذت نصيبها من الرقى والعمران وصارت « مثلا » خديوية العراق مثل خديوية مصر ثروة وانتظاما ـ لا شك فى أن إيران تسرع لمقام السلطنة العظمى للإتحاد معها ، إذ هى فى أمس الحاجة لشد الأزر ، ولصون كيانها من مطامع الغرب الموجه نحو عموم دول الشرق .

ثم أسرع الأفغان للانتظام فى ذلك السلك ، سلك اجتماع كلمة دول الشرق الإسلامية تحت راية الخلافة العظمى والسلطنة الكبرى .

ثم .. ومتى تم ذلك ـ وسيتم إن شاء الله ـ هل تقعد أهل الهند وراجاتها وأمراؤها ـ المائة وثمانين[1] مليونا من المسلمين عن نصرة الخليفة الأعظم ، واللحاق لشد ساعد إخوانهم ليدفعوا غارة الغرب عن الدول الإسلامية فى الشرق وعن هندهم أيضا ؟ أو ينهضون نهضة الرجل الواحد للتخلص من ربقة الاستعمار والمستعمرين ، ويرجع الشرق للشرقيين وماذلك على الله بعزيز .

قال : أما السلطان عبد الحميد فكان سيء الظن لا يأمن أحدا ويسيء الظن فى

---

١ ـ المائة والثمانون .

كل أحد فقال لى : يا حضرة السيد : هل اجتمعتم بإسماعيل كمال بك فى هذه الأيام ·

فانتقلت بسرعة إلى ما يرمى إليه السلطان ـ وهو أن إسماعيل كمال بك كان قد كلف أو تعين لولاية طرابلس الغرب ، وطلب توسيع صلاحيته وأن يكون له الحق فى عقد قرض لتحسين[1] وإصلاح الولاية وغير ذلك ، وقد سمعته من بعض الزائرين - وليس من نفس الرجل ·

أجبت : يا مولاى : أعتقد أننى لا أسخر ضميرى لجد العرب إسماعيل بن ابراهيم الخليل · إذن فما أبعد إسماعيل كمال أن يسخرنى أو أن أسخر له ·

وما اتّبعت فيما عرضته على جلالتكم إلا داعى النصح والإخلاص ، فلم يرد السلطان جوابا على ما ذكرته وسردته بل قال : مثلا تركيا هو : «آت اسكدار دن كجندى » ومعناه : إن الجواد قد اجتازأسكودار وهو مثل يضربه الأتراك لما فات من الأمر ولا حيلة فيه ·

ثم تنفس جمال الدين الصعداء وقال : هذا ما كان منى فى هذا الشأن يا شيخ بنى مخزوم ، وهذا ما كان من السلطان عبدالحميد سلطان العثمانيين وخليفة المسلمين الذى تعنو له وجوه ما يقرب من الثلاثمائة مليون ينتظرون من هذه الدولة هبة ليحيا بها حقهم ويموت ويهلك باطل غيرهم ·

كيف لا تذهب النفس حسرات ، وأكبر سلطان فى المسلمين هذا موقفه من الجمود عن قبول النصح ؟ وإصلاح الملك والمحافظة أو المطالبة بصريح حقه فى أجزاء سلطنته بل روح الممالك الإسلامية « باب الحرمين مصر » ·

وفى صون مصر فى حوزة الملك الإسلامى وكشف الإنجليز عنها صون للممالك العثمانية وغلق لكل بلية مهيأة فى المسألة الشرقية[2] ·

---

١ ـ عطف على المضاف قبل إيراد المضاف إليه ·

٢ ـ السابق : ١٥٥ ـ ١٥٧ ·

وبعد فهذه آثار جمال الدين الأفغانى فى الآستانة وتلك آراؤه الإصلاحية ، وخطته فى انتشال دولة الخلافة العثمانية من الهوة السحيقة التى أعدتها لها دول أوربا المتحالفة ضد الإسلام والمسلمين ·

الفصل الخامس :

العالم الإسلامى فى عصر جمال الدين

فارس

فارس

على عهد جمال الدين :

١٣٠٣ ـ ١٣٠٩ هـ

١٨٨٦ ـ ١٨٩١ م

« تمتعت بلاد فارس فى ظل الشاه ناصر الدين بنحو عشرين عاما من التطور الهادئ الذى لم يؤت بادئ الأمر ـ على كل حال ـ غير ثمرات قليلة بسبب من تأخر البلاد العام .

وفى سنة ١٨٦٤ م وافق الشاه ـ الذى كان معنيا بثمرات الحضارة الغربية بقدر ما كانت تساعده على توطيد سلطته وزيادة موارده ـ على مشروع بريطانى لخط برقى « تلغرافى » يربط بغداد ببوشير مارا بكرمان شاه وهمذان .

وفى سنة ١٨٧٠ م ربط الأخوة « سيمنس » هذا الخط بخط ممتد من لندن إلى تبريز من طريق الكسندوفسك واودسا ونفليس .

ثم إن الإخصائيين البريطانيين ما لبثوا أن أنشأوا خطوطا فرعية امتدت إلى سائر المقاطعات مما ساعد الحكومة المركزية على ضبط الأحوال فيها ضبطا أكثر فعالية .

وفى سنة ١٨٧٢ م منح رئيس الوزراء مجموعة ضخمة من الاحتكارات إلى البارون جوليوس دى رويتر البريطانى التبعة ، مقابل تعهده بمد الخطوط الحديدية وفتح المناجم ، وإنشاء بنك وطنى فى البلاد .

حتى إذا قام الشاه فى السنة التالية برحلة إلى أوربا ابتغاء الاطلاع على ما بلغته من الحضارة ، لقى فى بطرسبرج نفورا شديدا من هذه المشاريع فى حين لم يجد حماسة لها فى لندن ، وهكذا قرر لدن عودته ـ وكان على حق فى ذلك ـ إلغاء هذه الامتيازات .

وقام الشاه برحلتين أخريين إلى أوربا سنة ١٨٨٧ م وسنة ١٨٨٩ م وهى الرحلة التى لقى فيها جمال الدين فى ميونخ سنة ١٨٨٩ م بمناسبة المعرض الدولى فى باريس ، ولكن نتائج هاتين الرحلتين العملية فى بلاده لم تكن شيئا مذكورا بالنسبة إلى نفقاتهما ، والواقع أنه قص على رعاياه ما شاهده واختبره فى هاتين الرحلتين فى حجته إلى كربلاء سنة ١٨٧٣ م فى كتاب وصفه فى أسلوب يمتاز بالبساطة والجمال ، ويبتعد ابتعادا مرضيا عن زخرفة الأسلوب القديم فى كتابة التاريخ ·

وقد كان لهذا الأسلوب أثر محمود فى تكوين النثر الفارسى الحديث »[١] ·

صلة جمال الدين بالشاه

فى رحلة الشاه ناصر الدين إلى أوربا سنة ١٨٨٩ م التقى بالسيد جمال الدين الأفغانى فى ميونخ واصطحبه إلى طهران ، وكان جمال الدين قد مكث فترة فى بلاط الشاه بدعوة منه سنة ١٨٨٦ م لكنه اضطر أن يغادر البلاد بعد أن أحس بمخاوف الشاه منه ·

وفى هذه المرة أبدى الشاه اهتماما كبيرا بآراء جمال الدين الإصلاحية ، ولكنه ما لبث أن تنكر له تحت تأثير وزرائه على أصغر خان ·

وشعر جمال الدين بالمخاوف فاحتمى فى مسجد الشاه عبدالعظيم فى طهران ، وكان هذا المسجد ملجأ لا تنتهك حرمته ألبتة ·

واستطاع جمال الدين أن يواصل من ملجئه ذاك هجوما على الشاه على مدى سبعة أشهر ، بلغ فيها الضيق بالشاه حدا جعله يأمر بانتزاع جمال الدين من هذا المسجد وطرده خارج البلاد عبر الحدود التركية إلى العراق ·

---

١ ـ كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية : ٦٧٢

ومن هناك قصد جمال الدين لندن وفيها أخذ يثير الأوربيين على الحكومة الفارسية ويفضح استبدادها ، وهناك أخذت عدواته للشاه تأخذ شكلا صريحا وحادًا .

تلك كانت صلة جمال الدين بالشاه ناصر الدين بدأت بود من الشاه حقيقى أو مزعوم ولكنها انتهت بعداوة شديدة وحرب ضارية ، أدت فى النهاية إلى أن يصل غضب جمال الدين على الشاه إلى أقصاه فيهدد بقتله ، ثم يعلن ـ بعد أن يطلب منه ذلك السلطان عبدالحميد ـ أنه قد عفا عن الشاه .

غير أن حياة الشاه لم تطل بعد حملة جمال الدين عليه وفضحه لسياسته إذ قتل برصاص أحد مريدى جمال الدين فى احتفاله بالذكرى الخمسين لارتقائه عرش البلاد .

أحوال فارس على عهد جمال الدين « فى الداخل »

عندما توفى محمد شاه فى الرابع من شهر سبتمبر سنة ١٨٤٨ م ـ وكان جمال الدين آنذاك فى سن التاسعة من عمره ـ خلفه أكبر أولاده ناصر الدين شاه وكان عمره ستة عشر عاما .

والواقع أن حكم ناصر الدين شاه بدأ بداية سعيدة فيما يبدو ـ على الرغم من أنه اضطر أول الأمر إلى أن يقمع ثورة قام بها : خان قاجارى[١] بن أذربيجان ، وكان هذا الثائر قد لقى تأييدا فى خراسان وفى أفغانستان أيضا .

وعين الشاه ناصر الدين مرافقه العسكرى تقى خان ـ وهو ابن طاه كان يعمل فى خدمة وزيره محمد ـ وزيرا أول ، فاطرح تقى خان لقب الوزير واكتفى بلقب أمير نظام أى قائد الجيش الأعلى .

١ ـ أسرة قاجار حكمت إيران من سنة ١٧٩٤ ـ ١٩٢٥ م ـ التى أسسها آغا محمد خان .

وفى الحق إن جهوده فى سبيل القضاء على المساوئ الإدارية المتعددة اقترنت أول الأمر بالنجاح وعادت عليه بعداوة كثير من ذوى النفوذ ، وفيهم الملكة الوالدة نفسها ، حتى إذا كانت سنة ١٨٥١ م وفق هؤلاء الخصوم لتقى خان إلى أن يوغروا عليه صدر الشاه ، فأقصى عن البلاط ثم قتل بعد قليل ·

وجنى ناصر الدين ثمار ما كان والده قد زرعه من قسوة فى حكمة ، حيث وجد ناصر الدين شاه عديدا من الثورات فى مواطن مختلفة ، ثم واجه حركة تسمت باسم الدين ووجدت استجابة فى صفوف الرعية الشاعرة بالاضطهاد وتلك هى الحركة البابية ·

وقد سبق لنا أن تحدثنا فى الباب الأول من هذا البحث عن البابية حديثا مفصلا ، بقلم جمال الدين الأفغانى نفسه ·

ولا بأس أن نشير هنا إشارة خاطفة إلى مؤسس هذه الحركة سيد محمد على المولود فى بوشير سنة ١٨٢١ م · والذى وقف على عقيدة الشيخية الباطنية ، أثناء حجه إلى كربلاء ، وعندما عاد إلى بلاده شن حملة على التعاليم الشيعية فى فارس ، ولما توفى رئيس مذهب الشيخية « سيد كاظم الرشتى » انتخبه رجال المذهب خليفة له ·

وفى شيراز سنة ١٨٤٤ م بعد انقضاء ألف سنة على غيبة الإمام الثانى عشر الذى كانت الاثنا عشرية تترقب ظهوره استشعر سيد محمد على أنه مدعو ـ على حد قوله ـ إلى أن يكون الباب الذى يستطيع البشر الاتحاد بواسطته مع الإمام منفذ الإرادة الإلهية ·

ثم سمى نفسه فيما بعد : النقطة العليا ـ أى الوحى ـ ثم دعا نفسه « القائم » أى الرجل الذى سيقوم من آل الرسول فى آخر الزمان ·

ثم دعا نفسه « المرآة » التى يستطيع المؤمنون أن يشاهدوا بها الله نفسه ·

وكان العدد تسعة عشر ذا قدسية عنده لأنه يمثل القيمة العددية لكل من مجموع أحرف كلمتى :« واحد » و « وجود » ·

وخلط فى معتقده ذاك بين الزارادشتيه والفارسية المجوسية، وحرر النساء من الحجاب وأجاز لهن الاختلاط بالرجال وحظر دراسة الفقه والفلسفة ·

ودخلت هذه الحركة فى صراع مع الشاه ناصر الدين ، فحظر عليهم أى نشاط وقبض على الباب وأودعه السجن ولكنه فر منه بعد ستة أشهر ، ثم قبض عليه وأودع السجن ثانيا وبقى فيه ثلاث سنوات ، ولكن أتباعه نجحوا فى نشر مذهبهم فى طول بلاد فارس وعرضها ، وبخاصة ما حققته قرة العين من نجاح من الدعوة له ·

وفى صيف عام ١٨٤٨ م أحدث البابيون القلاقل فى مشهد ، ولكنهم استسلموا فى شهر أغسطس عام ١٨٤٩ م وأعمل فيهم الشاه السيف ـ على الرغم من وعدهم بالعفو ـ وفى زنجان أحدثوا ثورة وصمدوا فى وجه الشاه طوال عام ١٨٥٠ م ولكنهم انهاروا فى شهر يوليو ١٨٥٠ م وأعدم الباب مع أحد مريديه فى تبريز ·

وفى الخامس عشر من شهر أغسطس حاول عدد من أتباع الباب اغتيال الشاه فلم ينجح ، فشنت عليهم الدولة حملة عنيفة أعدمت فيها داعيتهم قرة العين فى آخر شهر أغسطس من العام نفسه ·

وفر زعماء الطائفة إلى بغداد ، وكان يتنازع قيادتهم صبح أزل وأخوه بهاء الله ، غير أن مقامهم فى بغداد لم يجعل الشاه مطمئنا فطلب من الباب العالى « السلطان » أن ينقلهم إلى مكان أبعد فى داخل دولة الخلافة ، فحملوا إلى استانبول سنة ١٨٦٤ م ثم نقلوا منها إلى أدرنة وهناك ادعى بهاء الله أنه المظهر الأول للإرادة الإلهية التى بشر بها الباب ، ونشب الخلاف حادا بينه وبين أخيه ، مما جعل السلطان ينقل بهاء الله إلى عكا ، وينفى صبح أزل إلى قبرص ، وقد رتبت له الحكومة الإنجليزية راتبا معينا ·

أحوال فارس على عهد جمال الدين « فى الخارج »

« قد كانت السنوات الأولى من حكم ناصر الدين شاه سنوات مشئومة فى صعيد السياسة الخارجية أيضا ، فقد تقلد زمام السلطة فى هراة سنة ١٨٥١ م شاب عديم الكفاية اسمه سعيد محمد ، فسعى إلى أن يرتبط مع فارس بمعاهدة تحالف ، وعلى الرغم من أن الشاه كان قد تعهد للحكومة البريطانية سنة ١٨٥٣ م بأن لا يوجه أيما قوة إلى هراة ، فقد احتل هذه المدينة سنة ١٨٥٦ م .

وحاولت بريطانيا بادئ الأمر أن تحمل دوست « محمد على » على أن يتصدى للفرس ، حتى إذا أبى تكليفها هذا اضطرت أن تنزل قواتها فى فارس نفسها .

وبعد معارك ثانوية دارت فى سبيل الاستيلاء على بوشير وخوزستان تعيّن على الشاه - فى معاهدة باريس سنة ١٨٥٧ م - أن يجلو عن أفغانستان ويعترف باستقلالها[١] ، ولكن الفرس كانوا قد وفقوا سنة ١٨٥٦ م إلى أن يطردوا ممثل أمير مسقط حاضرة عمان ، من ثغر بندر عباس المواجهة لبلاده ، والذى كان الأمراء قد استأجروه منذ سنة ١٧٩٨ م كما وفقوا إلى فرض سلطة الشاه على مقاطعتى : سجستان وبلوخستان اللتين كانتا حتى ذلك الحين مستقلتين استقلالا نسبيا .

بيد أن أفغانستان ما لبثت أن طالبت هى أيضا بضم سجستان إليها بعد عهد أحمد شاه ، وأكد شير على بن دوست محمد الذى خلف أباه سنة ١٨٦٣ م ضرورة هذا الضم .

وفى سنة ١٨٧٢ م قررت بعثة بريطانية لتخطيط الحدود ، تقسيم البلاد ، فلم تنل أفغانستان غير المناطق المجدبة المحاذية لحدودها[٢] .

---

١ - فصلنا هذا الكلام ونحن نتحدث عن أفغانستان فى الفصل الأول من هذا الباب .

٢ - كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية : ٦٦٦ - ٦٦٨ - بتصرف

أبرز أعمال الشاه ناصر الدين

لم تكن المملكة الفارسية تعرف الحياة النيابية « البرلمانية » ولا كانت تعرف الصحافة حتى منتصف القرن التاسع عشر عام ١٨٥١ م .

غير أن ناصر الدين شاه شرع ينشر إرادته الملكية ابتداء من سنة ١٨٥١ م ، وهى السنة الثالثة لحكمه ، فى صحيفة ما لبثت أن ألحقت بعد بصحف أخرى .

ولكن القارىء الفارسى لم يكن يستمد ثقافته الشعبية إلا من مجلة أسبوعية كانت تصدر فى استانبول ابتداء من سنة ١٨٧٥ م ، باسم « أَخْتَر » النجمة ، وقد عطلها السلطان عبدالحميد سنة ١٨٩٦ م بعد مصرع ناصر الدين شاه .

أما أولى الهجمات العنيفة التى شنت على الحكومة فقد ظهرت على صفحات جريدة « القانون » التى أسسها فى لندن سنة ١٨٩٠ م الامير « ملكوم خان » وكان أبوه أرمينا ـ بالاشتراك مع جمال الدين الأفغانى ، وقد طالب فيها لأول مرة بالتمثيل الشعبى ، وكان قد أسس خلال العقد السابع من القرن التاسع عشر (١٨٦٠ ـ ١٨٧٠ م) ناديا فى طهران ، ما لبثت الحكومة أن حلته ، ثم إنه نفى من البلاد ، ولكنه عين سنة ١٨٧٢ م سفيرا فى لندن .

والواقع أن السبب المباشر للثورة إنما نشأ ـ شأنه فى كثير من الأحيان عن حادث غير مهم فى ذاته ، أعنى « الجلد » الذى أمر بإنزاله حاكم طهران بعدد من التجار فى ديسمبر سنة ١٩٠٥ م بسبب من أرباحهم الفاحشة فى تجارة السكر ، وكانت العادة جرت فى فارس منذ القدم على أن يعتصم الناس فى أحد المساجد إذا آنسوا عنفا من جانب السلطان « وقد أطلق على هذه العادة اسم « بست » أى ملجأ كما فعل جمال الدين من قبل .

وفى مسجد الشاه عبدالعظيم الذى تحدى فيه الأفغانى ناصر الدين ، أخذ المستاءون من أحكام الجلد يجتمعون فى عدد متزايد يوميا ، ويلقون تأييدا كبيرا ،

لا من رجال الدين فحسب ، ولكن من ولى العهد فيما يظن ، ومن الوزير الذى سبق أن تولى الأمر قبل الوزير غير الشعبى الحاكم آنذاك أيضا ، حتى لقد اضطر الشاه إلى أن يعد بإقالة هذا الأخير ، ولكن الشاه لم يكن يعتزم الوفاء بوعده بعد أن تفرق شمل المجتمعين ، ومن هنا تم « بست » آخر فى ربيع سنة ١٩٠٦ م انتهى بهجرة كبار الزعماء الدينيين إلى مدينة « قم » المقدسة حيث يقوم ضريح فاطمة بنت الإمام السابع إلى جانب أضرحة عدد كبير من المتقين ·

وقد هددت هذه الهجرة النظام القضائى الخاضع لسيطرتهم بالشلل ، حتى إذا حاول عين الدولة أن يكره التجار على فتح الأسواق بالقوة لجأوا إلى المقر الصيفى للسفارة البريطانية فى « جولاهك » حيث احتشد فى جنائنها آخر الأمر اثنا عشر ألف رجل ، عندئذ اضطر الشاه إلى الرضوخ فى النهاية ، فعزل عين الدولة واستدعى رجال الدين من « قم » ولكن الشعب لم يعد مستعدا لأن يكتفى من الإصلاح بهذا القدر فاضطر الشاه إثر وساطة السفارة البريطانية إلى أن يعد بدعوة مجلس تمثيلى عام ينتخب من بين أمراء البيت المالك ورجال الدين والنبلاء وأصحاب الأراضى والتجار ورجال الأعمال ·

وفى أكتوبر توفى الشاه بعد بضعة أيام من افتتاحه الجمعية الوطنية (المجلس)[١] ·

نهاية الشاه ناصر الدين

حاول الشاه الخروج من الأزمة المالية التى تخبط فيها بسبب من رحلاته الأوربية المتسمة بالإسراف البالغ من طريق إخضاع التبغ لاحتكار حكومى ، وهكذا حول الإشراف على زراعة التبغ وتجارته كلها إلى نفر من الرأسماليين الأوربيين لقاء مبلغ سنوى قدره خمسة عشر ألف جنيه استرلينى يضاف إليها ربع الأرباح ، ولكن هذا الاستغلال الوحشى لإحدى مسرات الشعب الأكثر انتشارا ما لبث أن أثار عاصفة من الاستياء بين أفراد الرعية ، حمل لواءها رجال الدين أنفسهم ·

١ ـ السابق : ٦٧٥ ـ ٦٧٦ ·

والواقع أن أعظم مجتهدى البلاد دعا الناس إلى الإقلاع عن التدخين فأطاعه خلق كثير فى كل مكان ٠

وأخيرا اضطر الشاه بعد أن نشبت الاضطرابات فى البلاد إلى شراء الامتياز بنصف مليون جنيه واضعا بذلك أساس الدين الفارسى العام للبنك الملكى البريطانى الذى كان الشاه قد أنشأه سنة ١٨٨٩ م إرضاء « لدى رويتر » ولكن هذا الإجراء لم يكن كافيا لإخماد نار الاستياء الشعبى ، ففى سنة ١٨٩٦ م بينما كان الشاه يستعد للاحتفال بالذكرى الخمسين لارتقائه عرش البلاد خر صريعا برصاص أحد مريدى جمال الدين ، فيما كان يتلقى العرائض من رعاياه وفقا للعادة القديمة ٠

موقف حاسم لجمال الدين مع الشاه

عرفنا فيما سلف من البحث أن الشاه قد التقى بجمال الدين فى أوربا عند افتتاح معرض باريس سنة ١٨٨٩ م فاستزاره الشاه واعتذر له عما فرط ، وعتب عليه بعدم عودته إلى طهران ، وأخيرا دعاه إلى مرافقته فأجاب جمال الدين الدعوة وسار مع الشاه إلى بلاد فارس ، فلم يصل طهران حتى عاد الناس وفى مقدمتهم الأمراء والعلماء إلى الاجتماع به والانتفاع بعلمه ، والشاب لا يرتاب من أمره ٠

وأول ما كلفه به أن يسن ما يراه موافقا لروح العصر من القوانين ـ ربما كان ذلك من الشاه بسبب سياحته فى أوربا ـ فعمل جمال الدين بهمته المعهودة ، فسن القانون الأساسى لمملكة فارس لتكون حكومة ملكية شورية ، فما أتم قواعد الدستور الكلية ومواده واطلع عليه الشاه ناصر الدين ، إلا وأعظم الأمر ، إذ رأى أن حكمه سيكون مقيدا ، وأن أهل فارس سيكونون أوسع سلطة من الشاه بمجلسهم النيابى فقال لجمال الدين :

ـ أيصح أن أكون يا حضرة السيد وأنا ملك ملوك الفرس « شاهنشاه » كأحد أفراد الفلاحين ؟

فقال جمال الدين :

ـ اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك سيكونون[١] بالحكم الدستورى أعظم وأنفذ وأثبت مما هم[٢] الآن .

والفلاح والعامل والصانع فى المملكة يا حضرة الشاه أنفع من عظمتك ومن أمرائك به ، واسمح لإخلاصى أن أؤديه صريحا قبل فوات الأوان .

لا شك يا عظمة الشاه أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك ولكن هل رأيت ملكا عاش بدون أمة ورعية ؟

هذا الحديث الصريح من جمال الدين للشاه ناصر الدين جاء مصدقا لما وشى به الصدر الأعظم وخوف الشاه منه بقوله : إن ما يسنه جمال الدين من القوانين لا يفيد البلاد شيئا ، ولكنه ينزع سلطان الشاه منه ويعطيه إلى السوقة والفلاحين وغير ذلك من الوشايات ، فنفر الشاه نفورا بينا من جمال الدين وأعرض عنه .

فأحس جمال الدين بهذا التغير والنفور فاستأذن بالذهاب إلى بلدة شاه عبدالعظيم على بعد عشرين كيلو مترا من طهران فأذن له فسار إليها وتبعه جم غفير من العظماء والعلماء والوجهاء الذين كان يخطب فيهم ويستحثهم على إصلاح حكوماتهم ، وما منهم إلا وقد انفعل بخطب جمال الدين الحماسية ، وقبلت نفوسهم نزعة الاستقلال ، وسرت تلك الروح فى البلاد طولا وعرضا ، وذاع فيها عزم جمال الدين على إصلاح إيران ، فخاف ناصر الدين شاه عاقبة ذلك ، فأنفذ إلى بلدة شاه عبدالعظيم خمسمائة فارس قبضوا على جمال الدين وكان مريضا ، فحملوه من فراشه على برذون وساقوه بصورة فظيعة وعليه دور من الحمى درجة حرارتها أربعين ، ولم يسمحوا له باستراحة دقائق حتى أوصلوه إلى حدود المملكة العثمانية فى ولاية البصرة .

---

١ ـ الأفصح : ستكون ، حيث هى جمع لغير العقلاء .

٢ ـ الأفصح : مما هى الآن .

فلما شاع خبر نفى جمال الدين على تلك الصورة فى إيران حتى قامت قيامة محبية ومريديه ، وثاروا فى وجه حكومة الشاه حتى كادت الدماء تجرى أنهارا ، والثورة تثور ، ولكنها خمدت تحت الرماد لشدة ما خامر الشاه من الخوف على حياته ، وما اتخذه من الحيطة .

كل ذلك لم يغن عن الشاه فتيلا ، لأنه بعد مدة قتل بيد رجل من الفرس قال عند طعنه للشاه : يا لثارات جمال الدين[١] .

أثر جمال الدين فى فارس

علمنا فيما سلف من البحث أن سلطان فارس ناصر الدين شاه دعا جمال الدين الأفغانى إلى زيارة فارس ، فاستجاب جمال الدين وسافر إلى فارس سنة ١٣٠٣ هـ ١٨٨٦ م وقد أكرمه ناصر الدين شاه وقربه إليه ، وعينه وزيرا للحربية ، على أن يجعله رئيسا للوزراء فيما بعد .

وكان غير جمال الدين يستطيع أن يعد نفسه بهذا المنصب من السعداء ، وأن يدعوه ذلك إلى أن يتفانى فى خدمة الشاه ، وأن ينسى آراءه ودعوته وأهدافه ليغيب فى هذا الجاه عن أفكاره الإصلاحية تلك ، ولكن جمال الدين لم يكن من هذا الطراز من الرجال الذين تلهيهم المناصب عن مبادئهم ويصرفهم الجاه والقرب من السلطان عن ارائهم الإصلاحية ، وما كان لجمال الدين أن يكون كذلك ـ وهو المصلح المخلص فى دعوته وآرائه ، الذى تعيش الرغبة فى الإصلاح فى كل خلجة من خلجاته والذى يضحى من أجل ما يدعو إليه بكل راحة وبكل منصب وبكل جاه بل بكل علاقة تربطه بملك أو سلطان ، يوم يرى تلك العلاقة تعوق عمله أو تقف حائلا بينه وبين ما يدعو إليه من صلاح الأمة الإسلامية فى كل مكان .

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ٣١ ـ ٣٢ .

من أجل هذا قام جمال الدين بدعوته الإصلاحية فى فارس ، غير ناظر إلى علاقته بالشاه ، واستطاع بإخلاصه وصدقه وقدراته المتعددة أن يجتذب إليه عددا كبيرا من الوجهاء والأمراء وعددا غير محدود من الأنصار والمريدين ٠

وما مضت فترة طويلة حتى كان جمال الدين فى فارس حديث الناس ، وأصبح ذا سلطان على نفوس الناس ، دون أن يكون من أصحاب السلطان ، وتعلق به أشد التعلق أولئك المثقفون من أبناء فارس ، وظل نفوذه يتسع وسلطانه يقوى وسيرته تشغل الأسماع حتى خشى شاه فارس على نفسه من جمال الدين وما تبوأه فى نفوس الناس من مكانة ٠

وما مضى وقت طويل على جمال الدين فى فارس حتى واجه أهل الجمود من بعض العلماء بجديد من الكلام لم يألفه الناس منهم ، فخشوا منه على سلطانهم فى نفوس الناس ، ورأوه قد نجح فى أن يشغل الناس بآرائه ويصرفهم عما كان يردده هؤلاء العلماء من كلمات باردة أو ميتة وهنا بدأ هؤلاء العلماء يدسون لجمال الدين عند الشاه - والشاه أذن صاغية وأرض متقبلة لهذا اللون من الدس والإيقاع - فيوجهون إلى جمال الدين تهما أقلها أنه غير مخلص فى دعواه وغير نقى فى نواياه ، والسلطان يستجيب ويتغير على جمال الدين ويجفوه ٠

ويحس جمال الدين بما يحاك حوله وما ينصب له من شراك - وهو الأريب النابه ، فيستأذن الشاه فى رحلة إلى روسيا فيأذن له ٠

ذهب جمال الدين إلى روسيا فساح فيها مدة ثم انتقل منها إلى فرنسا ، ثم تشاء الأقدار أن يلتقى جمال الدين بالشاه فى باريس - ويلح عليه الشاه أن يعود معه إلى فارس على أن يجعله رئيس وزرائه ، ويفكر جمال الدين ويتردد ولكنه يقرر فى النهاية العودة مع الشاه إلى فارس من جديد ٠

وعندما عاد لم يخلد إلى الراحة ولم يركن إلى الهدوء ، ولم ينتظر تحقيق السلطان لوعوده ، وإنما هب يدعو إلى ما كان يدعو إليه ، وأقبل الناس عليه أفواجا ، وفرحوا بعودته كما لم يفرحوا من قبل ٠

وعرض جمال الدين على الشاه أن يجعل حكومته دستورية ـ على غرار نظام الحكومات المتقدمة ـ على النحو الذى ذكرناه آنفا ـ وعاد أعداء الإصلاح إلى مقاومته ، ونشط الجامدون من العلماء فى الكيد له من جديد ، وفى إخافة الشاه منه ومن دعوته ، ولم يزالوا كذلك حتى أفسدوا مابينه وبين الشاه ، ثم قرر الشاه طرده على النحو الذى ذكرناه ·

وغادر جمال الدين فارس إلى العراق ومنها إلى انجلترا ، وفى انجلترا أخذ يكتب ويحرر فى مجلة : « ضياء الخافقين » ـ وقد نهج فيها نهجه فى العروة الوثقى ، وحمل حملة شعواء على ناصر الدين شاه وأخذ يؤلب عليه الأحرار من أبناء فارس ·

وربما كانت حملات جمال الدين على الشاه سببا فى قتله بيد واحد من أبناء فارس ولم يكن خافيا على أحد ان علاقة جمال الدين الأفغانى بناصر الدين شاه كانت سيئة بل بالغة السوء ، فقد رأى جمال الدين تصرفات ناصر شاه عن كثب ، وهو معه فى فارس فى المرة الأولى وفى المرة الثانية ، لذلك كانت عداوته له عداوة شديدة وموضوعية ، وكانت أحاديثه التى يهاجمه فيها كثيرة ، قل أن يخلو منها مجلس من مجالس جمال الدين ، وقل أن تخلو هى من تندر بالشاه وفضح لأعماله ·

ولقد أيقن الشاه بأن جمال الدين سيجلب عليه الشر بهذه المهاجمات فأمر سفيره فى الآستانة أن يرجو السلطان عبد الحميد فى أن يوصى جمال الدين بأن يكف عن مهاجمته للشاه ، وقد رغب السلطان عبدالحميد إلى جمال الدين بأن يكف عن الشاه وأن يتناسى ما مضى ، طلب السلطان ذلك من جمال الدين بعبارة غاية فى اللطف وكمال الدعة ـ كما يقول المخزومى باشا ـ وكان فى يد جمال الدين منسبحة ، فجمعها لكفه وقال بصوت جهورى : « امتثالا لإشارة أمير المؤمنين ، فإنى من الآن قد عفوت عن الشاه ناصر الدين »

فأعظم الحاضرون هذا القول فى هذه اللهجة ، ولكن جمال الدين لم يبال بإعظامهم ولا بما تقولوه لاعتقاده أنه يحق له أن يعفو ، وأنه قد عفا عن الشاه » [1]

١ ـ المخزومى : خاطرات جمال الدين : ٣٣ ـ ٣٤ ·

غير أن المحققين ممن كانوا على صلة بجمال الدين الأفغانى ذكروا أن جمال الدين لم يكف عن تناول الشاه ولا عن الكيد له فى نفوس تلامذته من الإيرانيين ويؤكدون أنه توعد الشاه أمام بعض جلسائه ألا يكف عنه حتى ينزله قبره ٠

وربما كان موقف جمال الدين من الشاه هو الذى جعل السلطان عبد الحميد يتوجس أكثر الخوف من جمال الدين ويخشى مغبة ذلك على الشاه ـ بل ربما خشى من ذلك على نفسه هو ـ وبخاصة إذا لحظنا أن السلطان عبد الحميد كان شديد الوسواس متوقعا للشر من الأقرباء والبعداء ، وكان يسمع كثيرا لما يقال فى جمال الدين ، ولندع أحد المتصلين بجمال الدين يحدثنا فى هذا الموضوع :

يقول الأمير شكيب أرسلان فى علاقة الشاه بجمال الدين وفى تخوف السلطان عبد الحميد من استمرار جمال الدين فى التهجم على الشاه : « ٠٠٠ ولكن هذا الخلاف مع أبى الهدى لم يزعزع مكانة جمال الدين من السلطان ، وربما زاده لديه زلفى ، وإنما أدى إلى وحشة الخليفة منه استمراره ـ فى مجالسه التى كانت تنتابها الناس دائما ـ على القدح فى شاه العجم ، مما حمل سفير إيران على رفع الشكوى إلى السلطان ، فاستدعى السلطان إليه السيد جمال الدين وقال له : إن سفير العجم ترجانى أن أتكلم معك فى الكف عن الوقيعة فى الشاه ، وأنا بناء على أملى فيك وعدته بأن تكف عنه ٠

وقد روى لى السيد جمال الدين رحمه الله هذه القصة عندما رجعت من أوربا إلى الآستانة فى أواخر سنة ١٨٩٢ م فقال لى هكذا بالحرف : « فقلت للسلطان ما كنت ناويا أن أترك شاه العجم حتى أنزله فى قبره ، ولكن بعد أن أمر أمير المؤمنين بالكف عنه فلابد من طاعته »

بمثل هذا كان جمال الدين يخاطب الملوك ولا يبالى عن موقع مثل هذا الكلام منهم ، مع أن أشدهم حذرا ووسواسا كان السلطان عبد الحميد ، فلاعجب أن وقع فى نفسه شىء منه ٠

ولكن ليت السيد كف بالفعل عن أذى الشاه ، إذ لم يلبث أن عاوده الغضب الذى هو العيب الذى عوذ الله به حسناته العديدة والذى جر عليه كثيرا من المصائب حتى قال الشيخ محمد عبده فى وصفه : « وكثيرا ماهدمت الحدة ما رفعته الفطنة » .

ففى أحد الأيام قدم على جمال الدين رجل من العجم بابىّ المذهب اسمه « رضا آقاخان » صادف أنه وجد مع جمال الدين فى حبس واحد فى قزوين عندما اعتقله الشاه ، فحصلت بينهما صحبة أكيدة ، ثم تفارقا عندما أخرج جمال الدين من الحبس ونفى إلى بغداد ، ثم أخلى سبيل رضا آقاخان هذا ، ولما بلغه مجىء السيد إلى الآستانة جاء يزوره فيها ، فسر به السيد سرورا كثيرا ، وكان دائما يحادثه ويتكلمان على شقاء الأمة الإيرانية بسوء إدارة سلطانها ناصر الدين .

فقال رضا اقاخان يوما : إنه هو حاضر أن يفدى نفسه لتخليص أمته ، فقال له جمال الدين : « إن كان كذلك فاذهب وافعل » فذهب رضا آقاخان وبعد أشهر ، بينما كان ناصر الدين شاه فى جامع عبد العظيم فى طهران إذ دنا منه هذا الرجل وقتله غيلة وقال له : « يدى أز جمال الدين » أى خذها من يد جمال الدين .

ووردت الأخبار إلى الآستانة وتحدث بها الناس كما لا يخفى ، فأبدى السيد جمال الدين مزيد سروره بهذا الخبر وشرع يقول : « قد تحقق الآن أن الأمة الفارسية لم تمت وأنها أمة لم تنقطع منها الآمال ، لأن الأمة التى يقوم من أبنائها من يأخذ بثأرها ويفتك بالطاغى الذى على رأسها ، لا تكون قد فقدت جراثيم الحياة » وكلاما من هذا القبيل كان يردده .

ثم لما ورد عدد من مجلة « الأيلواستراسيون » التصويرية الفرنسية وفيها صورة القاتل رضا آقاخان مصلوبا معلقا والناس ينظرون من حوله هتف : « علو فى الحياة وفى الممات » وقال : انظروا كيف علقوه عاليا عليهم ، حتى يكون ذلك رمزا إلى أنهم كلهم كانوا من دونه ..

وكان الجواسيس ينقلون إلى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد جمال الدين ، فلم

يشك عبد الحميد فى كون القتل كان بسبب جمال الدين وأنه مازال وراء الشاه حتى أنزله فى قبره كما قال ...

فلما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضبا شديدا وأمر بتشديد المراقبة على جمال الدين ومنع أى أحد من الاختلاط به إلا بإرادة سلطانية فأصبح السيد فى قصره محبوسا » [1]

وبعد :

فيمكننا أن نلخص دعوة جمال الدين الإصلاحية ـ فى بلاد فارس ـ فى الخطوط العريضة التالية :

أولا :

كانت دعوته الإصلاحية دعوة عامة بمعنى أنها لاتخص إقليما إسلاميا بعينه ، وإنما تستهدف إصلاح العالم الإسلامى كله ، وإن انطلقت هذه المرة من إيران .

ثانيا :

كانت دعوته الإصلاحية هذه شاملة تتناول الدين والدنيا معا ، ولعل من أبرز مايسجل لجمال الدين بالفخر أنه أول المصلحين فى عصره الذين اتضحت لديهم الرؤية بالنسبة لعموم الدين الإسلامى وشموله وعالميته وتكامله ، فى حين كان بعض المسلمين قد شوهوا صورة هذا الدين ـ عن جهل أو سوء نية ـ حين وصفوا الإسلام بأوصاف كنسية وفدت علينا من الغرب حيث رددوا أن الدين يعنى بشئون الحياة الآخرة ، أما شئون الحياة الدنيا فلها من يعنى بها من الحكام وأصحاب السلطة الزمنية ، وكالذى أشاعوه فى أوساط المسلمين من تسميتهم علماء الإسلام « برجال الدين » كما يفعل النصارى وغيرهم .

---

١ ـ لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى : ٢٩٦/٢ .

أما جمال الدين فلم تنطل عليه هذه الخدع لأنه كان يفهم دينه فهما صحيحا ؛ فجاءت دعوته الإسلامية شاملة الدين والدنيا معا ·

ثالثا :

من معالم دعوة جمال الإصلاحية أنه كان ينادى بالثورة على الحكام المستبدين فى كل مكان ، ويندد بظلمهم ويكشف سوء نواياهم ، ويطالب بالثورة عليهم بكل وسيلة ، ولقد نجح فى ذلك نجاحا يلفت الأنظار ، ويدل على قدرته الفائقة فى الإقناع وفى إثارة العواطف وفى التصدى لكل انحراف عن الدين الإسلامى ، حقق ذلك النجاح فى كل بلد نزل به وبخاصة فى فارس ·

رابعا :

كان من معالم دعوته الإصلاحية التركيز الشديد على الدعوة إلى محاربة الإنجليز ، الذين كانوا - فى عصره - يحتلون كثيرا من بلدان العالم الإسلامى ، كما كان يدعو إلى محاربة كل مستعمر لأى شبر من أرض المسلمين ، ونادى فى ذلك باستعمال العنف ، وطالب بقيام الثورات ، وقد لقيت دعوته تلك استجابة فى نفوس المثقفين من أبناء العالم الإسلامى وبخاصة فى مصر وتركيا وفارس ·

خامسا :

تميزت دعوته الإصلاحية بأن تناولت الجامدين من علماء المسلمين فكشف فيها عن جهلهم وجمودهم وتبعيتهم الذليلة للحكام ، وسفه كثيرا من آرائهم وفضح سلبياتهم ، وأوضح كيف يمتطى الظالمون من الحكام بعض هؤلاء العلماء إلى حيث يشاءون من ظلم الرعية ·

وكانت الحرب بينه وبينهم لا تهدأ فترة وجيزة إلا وتعود جذعة ضارية ، وقد نجح جمال الدين فى إثارة جمهور الناس ضدهم ، ونجحوا هم فى أن يثيروا على جمال الدين الحكام وأن يوغروا صدورهم ضد آرائه ، وكان ذلك واضحا أشد الوضوح فى الآستانة وفارس .

تلك صورة مجملة لدعوة جمال الدين الإصلاحية نأمل أن يزيدها الباب الثالث من هذا الكتاب « منطلقات الإصلاح عند جمال الدين » وضوحا وتفصيلا بإذن الله تعالى .

الفصل السادس :

العالم الإسلامى فى عصر جمال الدين

روسيا وأوربا

جمال الدين فى روسيا وأوربا

أ ـ فى روسيا : من ١٣٠٠ هـ ـ ١٣٠٦ هـ
ب ـ فى أوربا : من ١٣٠٠ هـ ـ ١٣٠٣ هـ
ثم من ١٣٠٩ هـ ـ ١٣١٠ هـ

أ ـ فى روسيا

سبق أن قلنا فى التمهيد لهذا الباب من البحث إن روسيا كانت ذات أثر كبير فى تسيير الأمور فى دولة الخلافة العثمانية ، بالصلح معها تارة ضد بعض أعدائها وبمناصبتها العداء تارات ، ولم نستطع هناك أن نضع النقط فوق الحروف ، ولعلنا نفعل هنا إن شاء الله تعالى ٠

ليس خافيا على أحد ممن يعنون بالتاريخ الحديث للعالم الإسلامى ، أن دول العالم الممثلة فى روسيا ودول أوربا فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين الميلاديين قد وضعت نصب أعينها أن تقف من المسلمين ومن دولتهم الكبرى دولة الخلافة العثمانية موقف العدو الذى يتربص بعدوه الدوائر ٠

وليس بخاف كذلك أن روسيا القيصرية فى القرن التاسع عشر وروسيا الشيوعية فى القرن العشرين تعد نفسها عدوا لدودا لدول أوربا ، وتعتبرها دول أوربا كذلك ، لكن لا مانع من أن يقف الأعداء صفا واحدا وأن يتناسوا هذه العداوة ولو إلى حين فى سبيل القضاء على العالم الإسلامى ، أو ما كان يحلو لهم أن يسموه الشرق ٠

ولنوضح الأمور بصورة أكبر فنقول ناقلين عن كاتب أجنبى ليس بعربى وليس بمسلم هو العلامة فريرو Ferrero حيث يقول : « إن روسية وانجلترة مع تناظرهما وتنافسهما فى الشرق كانت كل منهما شادة أزر الأخرى » ومعنى ذلك أن روسيا كانت تقلم أظافر الأتراك والفرس والصينيين ، فبملاشاة قوتهم أصبحوا لا يقدرون على إغاثة الهنود والأفغان والمصريين والعرب الذين مدت يدها إليهم إنجلترا بالبطش والغضب .

وكذلك انجلترا باستيلائها على هؤلاء قد عطلت منهم كل قوة حربية فأصبحوا لا يقدرون أن يؤيدوا الدولة العثمانية ولا الدولة الفارسية ولا تركستان ولا الصين بشىء ، فكانت كل من روسية وانجلترا قد شدت إحداهما أزر الأخرى بطبيعة الحال ، وكان بينهما تضامن وإن لم يكن جرى عليه تواطؤ من قبل فهو جار بالفعل .

ومن الأمور التى تؤيد هذا ، وقوع هذا التضامن بدون تواطؤ بين أوربا وروسيا البولشفية نفسها مع شدة العداوة التى بين الفريقين .

فإن الدول الأوربية أثارت على البولشفيك الأميرال كولتشان ، والجنرال دينكين والجنرال يودينيش والجنرال فرانجل ، والمملكة البولونية ، وحاولت إثارة الأرمن والكرج ، وكل قوم ترجو فيهم النهضة لقتال الحكومة البلشفية التى ترى فيها الخطر الأعظم على كيان الهيئة الاجتماعية الأوربية .

وقد بذلت انجلترا وفرنسا فى تسليح هذه الأقوام وسوقهم على الروسية مئات الملايين ولا تزالان إلى هذه الساعة تتراصدان الفرص وتتربصان بالبولشفيك الدوائر .

لكن قد حذرت هاتان الدولتان كل الحذر من أن تحرك على البولشفيك قوة إسلامية ، فعرض بعضهم الرأى بالاتفاق مع تركيا وتسليحها وسوقها على روسيا من جهة القوقاز ، حيث ينضم إلى الترك هناك : الكرج والطاغستانيون والتتر ، فلم يقبل الحلفاء هذا الرأى أصلا ولا راق لهم تسليح العجم ولا الأفغان ولا بخارى ولا خيوة ولا فرغانة ولا غيرها من تركستان ، ولا رمى البولشفيك بهذه القوات كلها ، وما ذاك إلا لأنهم يرون الخطر الإسلامى أعظم من الخطر البولشفى مهما كان الخطر البولشفى عظيما .

ومن الأدلة البارزة على ذلك أنه لما نفر المرحوم أنور من البولشفيكيين وبرح موسكو سنة ١٩٢١ م إلى باطوم ، ومنها انسل إلى بخارى وأثار ثورة تركستان الهائلة التى حشد البولشفيكيون فيالق جرارة لقمعها ، لم يفكر أحد بأوربا فى إمداد أنور ضد البولشفيك ، بل عندما سقط أنور شهيدا فى أوائل أغسطس سنة ١٩٢٢ م فرح بمقتله الحلفاء ، ولم تخف الجرائد الإنجليزية سرورها ، وفى هذا مقنع لمن يبقى عنده شيء من الريب فى شدة تضامن أوربا بإزاء الشرق » (١)

أقول تلك كلمة كاتب أجنبى وذلك تعليق الأمير شكيب أرسلان عليها ، والكلمة والتعليق كلاهما يؤيدان ماذهبنا إليه من أن روسيا القيصرية أو الشيوعية وأوربا الأمس واليوم تعتبر الإسلام خطرا داهما يهددها فى حاضرها وفى مستقبلها .

ولعلنا بهذا الذى ذكرنا نكون قد أشرنا إلى السر وراء ذهاب جمال الدين الأفغانى إلى روسيا ، ونقاشه مع القيصر ـ على النحو الذى سنذكر بعد قليل ـ والسر فى تلك الرحلة ـ فى اختصار شديد ـ أن جمال الدين كان على استعداد لأن يذهب إلى أى مكان له تأثيره على أى بقعة من العالم الإسلامى . ولا يخفى ما كان لروسيا من تأثير على دولة الخلافة العثمانية .

ولقد كان السبب المباشر فى ذهاب جمال الدين الأفغانى إلى روسيا ذلك الموقف الذى وقفه منه شاه إيران ، فقد رحب به الشاه وأطرى فضله ونبله وفوض إليه فى الحال نظارة الحربية مع صفة مستشار خاص له ، ولكن لهجة جمال الدين كانت شديدة ، وإصراره كان كبيرا فى ضرورة تغيير كل قديم بال من إدارة الحكومة الفارسية ، وضرورة الأخذ بإنهاض الأمة ومشاركتها فى الحكم .

وقد التف أمراء الفرس وعلماؤها حول جمال الدين وأقسموا له أنهم يصدعون بما يأمر به ، فأشار بعدم التسرع ، ولزوم الأخذ بسنن التدرج ، غير أن الشاه لما رأى ما ناله جمال الدين من علو المنزلة ونفوذ الكلمة فى مملكته وما سحره من قلوب الأمراء

١ ـ لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى : تعليق شكيب أرسلان : ١/٣٣١ ـ ٣٣٣

والعلماء أوجس خيفة وداخله ريب عظيم واضطراب ، متخوفا على سلطانه ، فتنكر لجمال الدين ، وتغير سير الشاه معه ، فأدرك السيد مافى نفسه فاستأذن فى السفر لتبديل الهواء فأذن له ، فسار إلى روسيا ، وزار عواصمها من موسكو فبطرسبورج ، فلاقاه أهلها بالتجلة والإكرام لما سبق إلى مسامعهم من شهرته ·

واجتمع جمال الدين فى بطر سبرج بأعاظم رجالها من العلماء والسياسيين وهم يعلمون منزلة جمال الدين ، إذ كان وزيرا أول لحكومة الأفغان فى عهد الأمير محمد أعظم خان ، ونشر فى جرائدها مقالات ضافية فى سياسة الأفغان والفرس والدولة العلية والروسية والإنجليزية ، كان لها دوى شديد فى جو السياسة ·

أما نفرة السيد من سياسة الإنجليز وتفنيده لها بالبراهن القاطعة فقد أوسع له فى المملكة الروسية مجالا ، فأولوه غاية الإجلال والتكريم والإصغاء لأحاديثه والانتصار لسياسته ، حتى إن القيصر دعاه لقصره وتحادث معه طويلا ، وكان كثير الحفاوة به معظما له مصغيا لما يقوله ·

بعد تلك الأحاديث الطويلة ، سأل القيصر جمال الدين عن سبب اختلافه مع الشاه فذكر له رأيه فى الحكومة الشورية ، وضرورة اتباعها ، وأن الشاه ينفر من ذلك ، ولا يحب أن يقر به ·

قال القيصر : « إنى أرى الحق فى جانب الشاه إذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يحكَّم به فلاحو مملكته »

فأجاب جمال الدين بجرأة وفصاحة : أعتقد ياجلالة القيصر أن عرش الملك إذا كانت الملايين من الرعية أصدقاء له ، خير من أن تكون أعداء يترقبون الفرص ويكنون فى الصدور سموم الحقد ونيران الانتقام ·

فعلت عند ذلك وجه القيصر علامة غضب فقطب حاجبيه ، ولم يطل الحديث بعد ذلك مع جمال الدين بغير الشكل الذى استقبله به ، إذ كان وداعا باردا ، ثم أوعز

القيصر إلى أكبر رجال بلاطه أن يسرعوا متلطفين بإخراجه من روسيا » [1]

تلك كانت جولة جمال الدين فى روسيا ، ثم رحل منها إلى أوربا ٠

ب ـ فى أوربا

كانت صلة جمال الدين بأوربا فى أعقاب وجوده فى الهند حيث كان قد رحل إليها من مصر ، وأقام بها ثلاث سنين ، وفى أثناء إقامته تلك بالهند علم أن أحمد عرابى قام بثورة فى مصر على توفيق باشا ، وأن الإنجليز يريدون استغلال هذه الثورة للاستيلاء على مصر بحجة حماية توفيق أوحماية الأقليات ، أوحماية الشعب !!! أو أى حجة مما كانوا يجيدون ، وعلم جمال الدين بمخططهم هذا فأراد أن يشغلهم عن مصر بثورة يقوم بها فى الهند ، غير أن الإنجليز أدركوا خطة جمال الدين فضيقوا عليه الخناق فى الهند فاضطر إلى أن يرحل منها إلى أوربا ـ وفى الوقت نفسه كان الإنجليز قد قضوا على ثورة عرابى ، وقتلوا من قتلوا ونفوا من نفوا ، وكان من بين المنفيين الشيخ محمد عبده ، حيث نفى إلى بيروت ٠

اتجه جمال الدين إلى فرنسا ، وأقام فى باريس ، ومن هناك دعا إليه صديقه وتلميذه الشيخ محمد عبده حيث نفى إلى بيروت ٠

اتجه جمال الدين إلى فرنسا وأقام فى باريس ، ومن هناك دعا إليه صديقه وتلميذه الشيخ محمد عبده فذهب إليه سنة ١٣٠٢ هـ ـ ١٨٨٤ م

وكانت قد أنشئت فى مصر ـ من قبل ـ جمعية تسمى جمعية العروة الوثقى فدعا إليها جمال الدين ومحمد عبده المسلمين من مختلف البلاد الإسلامية فاستجاب لها كثير من خيار المسلمين ٠

فأنشأ جمال الدين ومحمد عبده مجلة سمياها « العروة الوثقى » وجعلا هدفها تبصير المسلمين بواقعهم ودعوتهم إلى النهوض بدينهم ودنياهم ، وتحريضهم على

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ٢٩ ـ ٣٠ ٠

الثورة على المستعمرين للبلاد ولا سيما الإنجليز ، وحثهم على الثورة على الحكام المستبدين فى العالم الإسلامى[1]

وكان من المتوقع أن يحارب الاستعماريون والمستبدون من الحكام هذه المجلة لأنها حرب عليهم وعلى سياستهم ، وقد كان ٠٠ فقد عمل المستعمرون وبخاصة الإنجليز متعاونين مع المستبدين من الحكام المسلمين ، فحالوا دون وصول أعداد هذه المجلة إلى أيدى قرائها ونجحوا فى ذلك لولا أن بعض أعداد المجلة كانت تصل إلى قرائها سرا ٠

غير أن قوى الاستعمار والاستبداد استمرت فى حربها للمجلة فتوقفت عن الصدور بعد أن صدر منها ثمانية عشر عددا فقط ٠

ثم عاد الشيخ محمد عبده إلى بيروت بينما بقى جمال الدين فى أوربا يتنقل بين بلادها حاملا عبء الجهاد قائما قدر طاقته بما كانت تقوم به جمعية العروة الوثقى ومجلتها ٠

وبقى جمال الدين فى أوربا إلى سنة **١٣٠٣** هـ وإن كانت أخصب فترات وجوده فيها تلك التى قضاها فى باريس وأنشأ فيها مجلة العروة الوثقى ٠

ثم توجه جمال الدين إلى إيران بعد دعوة الشاه ناصر الدين له ـ للمرة الثانية ـ وبقى بها إلى أن فسدت العلاقة بينهما ، فأخرج من إيران إلى العراق ومنها ذهب إلى انجلترا وأقام بها ، وهناك أسهم فى تحرير مجلة « ضياء الخافقين » التى أنشأها « حبيب سلمونى » فى لندن وساعده فيها جمال الدين ، فحذا جمال الدين فى مقالاته حذو نهجه فى مجلة العروة الوثقى ، غير أن جمال الدين ركز فى مقالاته على الهجوم على الشاه ناصر الدين وتأليب أهل إيران عليه ، وكان يكتب فيها باسم « السيد الحسينى » ٠

ويرى أحمد أمين أن هجوم جمال الدين على الشاه فى انجلترا كانت زلة لا تليق

---

١ ـ تحدثنا عن هذه المجلة بالتفصيل فى الباب الأول من هذا البحث فى الفصل الثانى

به ، حيث يقول : « هذه زلة كبيرة من السيد جمال الدين دعاه إليها حدته وحبه للانتقام إذ كيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية إسلامية فى بلاد أجنبية تتخذ من أقواله حجة للتدخل الذى طالما حاربه فى مجلة العروة الوثقى » وكيف استباح أن يفضح هذه العيوب ، ويغسل هذه الأثواب القذرة على مشهد من كل الناس ؟

لقد كان مدحت باشا فى موقف كهذا أنبل من السيد وأكرم إذ نفاه « عبد الحميد » وأخذه رجاله من دست الوزارة إلى السفينة ، لا مال ولا ثياب ولا أهل ، ومع هذا ، فما وضع قدمه فى أوربة حتى أخذ يسعى فى دفع الشر عن أمته ، ويتكلم الكلام الكثير فى فضل الأتراك على أوربة ، ولا ينطق بكلمة فى ذم « عبد الحميد » الذى عامله معاملة الشاه لجمال الدين ·

الحق أنها غلطة من غلطات السيد دعا إليها حدة مزاجه . [١]

ولست مع أحمد أمين فى اتهامه لجمال الدين ، فليس صحيحا بحال أن انجلترا تنتظر كلمات جمال الدين ضد الشاه لتتدخل فى إيران ، فقد كانت متدخلة بالفعل ، وما كانت خصومة جمال الدين مع الشاه إلا بسبب سكوت الشاه عن هذا التدخل ، أو كان ذلك أحد أسباب تلك الخصومة ·

وربما أجاز جمال الدين لنفسه أن يهاجم حكومة شرقية إسلامية فى بلاد أجنبية ، لأن تلك الحكومة تقدم تلك البلاد الإسلامية لقمة سائغة لتلك الدول الأجنبية تحتكرها وتسيطر عليها ، فالهجوم على الشاه وسياسته لا على الشعب المسلم ·

وإن إقامة جمال الدين فى أوربا أكثر من ثلاث سنوات لتعد من فترات حياته الخصيبة فى الدفاع عن الإسلام والشرق ، ومجادلة الأوربيين حول حق الشعوب الإسلامية فى الحرية والاستقلال ·

ولا يمكن أن نتحدث عن جمال الدين فى أوربا دون أن نعرض لذلك الحوار الذى دار بينه وبين المفكر الفرنسى « رينان » ·

---

١ ـ أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث : ١٠٤ ـ ١٠٥

فقد كان « رينان » وهو كاتب حاقد على الإسلام ـ قد ألقى محاضرة فى « السربون » أدارها حول نقاط ثلاثة تمس الإسلام والعرب ، فقد ادعى فى محاضرته تلك :

١ ـ أن المؤرخين أخطأوا حين قالوا : علوم العرب وفنون العرب وتمدن العرب وفلسفة العرب ، مع أن هذه الأشياء نتاج الأمم غير العربية أكثر منه نتاجا للأمة العربية ، فالتمدن أكثره من نتاج فارس ، والفلسفة من نتاج النصارى النسطوريين الوثنيين الحرانيين ، والفلاسفة الذين ظهروا فى دولة الإسلام كالكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد ، لم يكن منهم من العرب إلا الكندى ، فنسبة الحضارة والمدنية والعلم والفلسفة إلى العرب خطأ ، وعدم دقة فى التعبير .

٢ ـ أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر ، بل هو عائق لهما بما فيه من اعتقاد للغيبيات وخوارق العادات والإيمان التام بالقضاء والقدر ، ومن اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد أو أحرقت كتبه أو كان فى حماية خليفة أو أمير مؤمن فى الظاهر غير متدين فى الباطن ومع ذلك فما وصل إليه هؤلاء فى الفلسفة ليس له قيمة كبيرة . فهو ليس إلا فلسفة اليونان مشوهة ، والفلسفة التى أخذها الأوربيون عن المسلمين فى أسبانيا كانت فلسفة رديئة الترجمة مشوهة الأصل ، لم تستفد منها أوربا الفائدة الحقة إلا بعد ترجمتها ترجمة جديدة من منابعها ومع هذا يقول « رينان » : « إن فى دين الإسلام تعاليم ومبادئ عالية القيمة رفيقة المقام ، وما دخلت فى حياتى مسجدا من مساجد المسلمين إلا شعرت بجاذبية نحو الإسلام ، بل تأسفت ألا أكون مسلما » !!!
ولكن الإسلام حجب العقل عن التأمل فى حقائق الأشياء ..
وعقول أهل البلاد الإسلامية قاصرة ، وما يتميز به المسلم هو بغضه للعلوم واعتقاده أن البحث كفر وقلة عقل لا فائدة فيه .

٣ ـ إن العنصر العربى بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها ، فالزمن الذى كان يسود فيه العنصر العربى ـ وهو عهد الخلفاء الراشدين ـ لم تكن فيه فلسفة ، ولم يظهر فيه البحث العلمى ولا الفلسفة إلا حين انتصرت الفرس ونصروا العباسيين على الأمويين وسلموهم زمام الملك ، ونقلوا الخلافة إلى العراق مهد التمدين الفارسى القديم .

وختم « رينان » محاضرته بالإشادة بقيمة العلم ودعوة الأمم كلها شرقية وغربية إلى الهجوم عليه ، فالعلم روح كل هيئة اجتماعية وبه تتقدم الأمم وبه يتحقق العدل ، وبه يستخدم العقل القوة ، وهو لايساعد إلا على التقدم المؤسس على حرمة الإنسان وحريته .

وقد أهاجت محاضرة رينان خواطر المسلمين فى باريس فكتبوا حولها ردوداً ، ولكن جمال الدين رد على هذه المحاضرة فى هدوء وتؤدة ، فمدح رينان على بحثه وقال : إنه استفاد من محاضرته استفادة كبيرة ثم قال :

إن المحاضرة تشتمل على نقطتين أساسيتين : أن الديانة الإسلامية كانت ـ بما لها من نشأة خاصة ـ تناهض العلم . وأن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لعلوم ماراء الطبيعة ولا الفلسفة .

فأما عن النقطة الأولى : فان المرء ليتساءل بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها ، أصدر هذا الشر عن الديانة الإسلامية نفسها أم كان منشؤه الصورة التى انتشرت بها الديانة الإسلامية فى العالم ، أم أن أخلاق الشعوب التى اعتنقت الإسلام أو حملت على اعتناقه بالقوة وعاداتها وملكاتها الطبيعية هى جميعا مصدر ذلك ؟

لاريب أن قصر الوقت المخصص للمسيو رينان قد حال دون جلائه هذه النقطة .

ثم أخذ يبين أن ماوقع للمسلمين وقع مثله فى الأديان الأخرى ، فرؤساء الكنيسة

الكاثوليكية المبجلون لم يلقوا أسلحتهم بعد كما أعلم « وهم عاكفون على محاربة ما يسمونه بالتدليس والضلال » يعنى العلم والفلسفة ·

قال جمال الدين : وأما النقطة الثانية فالكل يعلم أن الشعب العربى خرج من حال الهمجية التى كان عليها وأخذ يسير فى طريق التقدم الذهنى والعلمى ، ويغذ السير بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية ، وقد تمكن فى خلال قرن من التكيف بالعلوم اليونانية والفارسية فتقدمت العلوم تقدما مدهشا بين العرب ، وفى كل البلدان التى خضعت لسيادتهم ، وقد كانت رومة وبيزنطة المدينتين الرئيسيتين لعلوم اللاهوت والفلسفة بل مبعث أنوار المعارف الإنسانية كلها ··

ثم جاء الوقت الذى وقف فيه علماء هاتين المدينتين عن البحث وتهدمت فيه نصبهم التى أقاموها للعلم ، ودرجت كتبهم القيمة فى طىّ النسيان ، وقد كان العرب فى ذلك الجهل حين شرعوا يتناولون ماتركته الأمم المتمدنة فأحبوا تلك العلوم المندثرة ورقوها ، وخلعوا عليها بهجة لم تكن لها من قبل ، أو ليس هذا دلالة بل برهانا على حبهم الطبيعى للعلوم ؟

صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به ، بيد أن هذه العلوم التى أخذوها بحق الفتح قد رقّوها ووسعوا نطاقها ووضحوها ، ونسقوها تنسيقا منطقيا ، وبلغوا مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق وتنطوى على التثبت والدقة النادرين ·

وقد كان الفرنسيون والإنجليز والألمان لايبعدون عن رومة وبيزنطة بعد العرب عنهما ، وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا حتى جاء اليوم الذى ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب ، فأحسن الأوربيون إذ ذاك استقبال أرسطو بعد أن تقمص الصورة العربية ولم يكونوا يفكرون فيه وهو فى ثوبه اليونانى على مقربة منهم ، أو ليس هذا برهانا آخر على مزايا العرب الذهنية وحبهم الطبيعى للعلوم ؟

وبينا يسلم مسيو رينان بأن البلدان الإسلامية فى غضون خمسة قرون من سنة ٧٧٥ م إلى أواسط القرن الثالث عشر كانت تحتوى علماء ومفكرين عظاما • وأن العالم الإسلامى إذ ذاك كان يفوق العالم المسيحى فى الثقافة الذهنية إذ يقول : إن أكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الأولى للإسلام كانوا كنابهى السياسيين من أصل حرانى أو أندلسى أو فارسى أو من نصارى الشام •

ولست أريد أن أغمط علماء الفرس صفاتهم الباهرة ولا أن أغض الطرف عن الدور الجليل الذى لعبوه فى العالم الإسلامى ، ولكن أرجو أن يسمح لى أن ألاحظ أن الحرانيين كانوا عربا ، وأن العرب لما احتلوا أسبانيا لم يفقدوا جنسيتهم بل ظلوا عربا ، وأن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرانيين ، وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة وهى : « الصابئة » ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية العربية ، وقد كانت أكثرية نصارى الشام عربا غسانيين اهتدوا بهدى النصرانية •

أما ابن باجة وابن رشد وابن طفيل فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندى بدعوى أنهم لم يولدوا فى جزيرة العرب ، وخصوصا إذا اعتبرنا أن لا سبيل إلى تمييز أمة من أخرى إلا بلغتها •

ثم ماذا يكون لو قصرنا نظرنا على الأصل الذى ينتمى إليه عظيم ، ولم نأبه للنفوذ الذى سيطر عليه والتشجيع الذى لقيه من الأمة التى عاش فيها ؟

لو فعلنا ذلك لقلنا إن نابليون لاينتمى إلى فرنسا • ولما صح لألمانيا أو انجلترا أن تدعى كلتاهما الحق فى العلماء الذين استوطنوهما بعد أن رحل أصولهم إليهما من بلد أخرى » (١)

ثم تعرض جمال الدين لأسباب انطفاء هذه الشعلة ، وختم رده بقوله : « إن العقل لايوافق الجماهير ، وتعاليمه لايفقهها إلا نخبة من المتنورين والعلم ـ على ما به

١ ـ أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث : ٩٤ ـ ٩٧ •

من جمال ـ لا يرضى الإنسانية كل الإرضاء ، وهى التى تتعطش إلى مثل أعلى وتحب التحليق فى الآفاق المظلمة السحيقة التى لا قبـل للفلاسفـة والعلماء برؤيتهـا أو ارتيادها » .

رد عليه الأستاذ رينان وبادله مدحا بمدح وإعجابا بإعجاب وقال : « تعرفت بالشيخ جمال الدين من نحو شهرين فوقع فى نفسى منه ما لم يقع لى إلا من القليلين ، وأثر فى تأثيرا قويا ، وقد جرى بيننا حديث عقدت من أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالإسلام هى موضوع محاضراتى فى السربون ... » [١]

وبعـد :

فهذه جولات جمال الدين فى أوربا وروسيا سخرها كلهـا فى سبيل رفـع شأن الإسلام والمسلمين ، وجادل عن الحق الذى يؤمن به ، وذهب إلى دهاقين الساسة الإنجليز والفرنسيين والروس وغيرهم ، ليدافع عن دينه وأهل دينه وليزيد النـاس بصرا بقضية الشرق الإسلامى ويضم إليه وإلى فكره أنصارا يستطيع بهم أن يخلص هذا الشرق الإسلامى من مستعمريه ومن حكامه المستبدين .

١ ـ السابق : ٩٨ .

الباب الثالث

جمال الدين المصلح المجدد

ويشتمل على تمهيد وثلاثة فصول

التمهيـد

الفصل الأول :

الدعوة إلى الوحدة الإسلامية فى ظل القرآن ٠

الفصل الثانى :

التصدى للفكر المنحرف عن الإسلام ٠

الفصل الثالث :

مواجهة أعداء الإسلام فى الشرق والغرب ٠

التمهيـــد

تمهيـــد :

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »[1] .

وقد كان جمال الدين الأفغانى من مجددى القرن الذى عاش فيه ، ما يشك فى ذلك أحد ممن يعرفون سيرته ، وقد هيأ الله جمال الدين لأن يجدد لأمة المسلمين دينها ، فنادى بالإصلاح ووفر نفسه وحياته على قضاياه .

وكانت نظرته الإصلاحية عامة شاملة تتناول إصلاح الدين والدنيا معا ، وذلك نتيجة لفهمه الصحيح العميق للدين الإسلامى ، حيث يشتمل هذا الدين على صلاح الدين والدنيا جميعا .

وكان من فقه جمال الدين أن قصد بدعواته الإصلاحية جميع المسلمين فى كل بلد إسلامى ، ونادى بالثورة على أصناف ثلاثة من الناس ، رأى أنهم أولى بأن يبدأ بهم وهم : المستعمرون والحكام المستبدون والعلماء الجامدون .

وكانت الثورة التى يدعو إليها جمال الدين ذات شقين : شق يعتمد على القوة والعنف ويتجه به نحو المستعمرين والمستبدين من الحكام ، وشق يعتمد على المنطق والحجة وإزالة الشبهة وتوضيح الأمور ويتجه به نحو العلماء الجامدين .

جعل جمال الدين همه أن يتعرف على المشكلات التى يعانـى منهـا العالـم الإسلامى ، وأن يبحث عن عللها وأسبابها : ليرسم لها طريق العـلاج عن تبصر وخبرة .

ولقد نجح جمال الدين أيما نجاح فى التعرف على هذه المشكلات وأسبابها : ولكنه لم يلق مثل هذا النجاح فى الحلول التى رسمها ، ولم يكن فشله النسبى فى التوصل إلى الحلول نتيجة لقصور فى فقهه للمشكلات أو لعجز عن تصور صحيح دقيق لها ، أو لسوء اختيار للحلول المناسبة لها ، وإنما كان نتيجة للظروف التى أحاطت بجمال الدين وبالعالم الإسلامى الذى عاش فيه .

١ ـ أبو داوود : سننه : الملاحم .

ولو شئنا أن نشير إلى الصورة المجملة فى عصر جمال الدين ، تلك التى أدت إلى إخفاقه النسبى فيما كان يطمع فى الوصول إليه ، لقلنا : إن قوًى عديدة معادية للإسلام تألبت على جمال الدين وعلى أسلوبه فى الإصلاح ، قوى بعضها من غير المسلمين وبعضها من المسلمين ٠

هذا جانب من تلك الصورة ٠

والجانب الآخر منها ذلك العالم الإسلامى المترامى الأطراف المتفرق الكلمة الذى صار أمما والأصل فيه أن يكون أمة ، ذلك العالم الإسلامى الذى يعيش فى تبعية ظاهرة أو مستترة ، أو مقنعة لأعداء الإسلام من صهيونيين وصليبيين ومستعمرين وأهل أهواء وضلال ، كل ذلك لم يمكن جمال الدين من أن يحقق نجاحا كبيرا فى إصلاحه وتجديده ٠

غير أن كل ذلك لا يقلل أبدا من عظمة الجهود البنَّاءة التى قدمها جمال الدين لعصره لكى يصلح فيه أمور المسلمين ويجدد لهم الثقة فى دينهم وفى قدرة هذا الدين على بناء حياة إنسانية راشدة ، تواكب أرقى ما وصل إليه العصر من تقدم ورقى وازدهار ٠

ولقد جاب جمال الدين العالم الإسلامى أغلبه ، وتعرف فى كل مكان زاره على الداء أسبابه ونتائجه ومن ثم فكر فى الإصلاح والعلاج ٠

ولقد تكون جولاته بين أفغانستان والهند وإيران ومصر والحجاز وتركيا وبخاصة الآستانة عاصمة دولة الخلافة الإسلامية ، لقد تكون هذه الجولات فى تلك الأماكن هى التى أمدت جمال الدين بوضوح الرؤية ، وأقدرته على تكوين صورة دقيقة الملامح واضحة الأبعاد لما يعانيه العالم الإسلامى من مشكلات وويلات ٠

وبعد أن استوعب جمال الدين هذه المشكلات وعرف أسبابها أخذ يرسم لكل مشكلة منها أسلوب العلاج الملائم لها ، ومن خلال هذا الركام الهائل من المشكلات التى عانى منها العالم الإسلامى آنذاك ، ومن خلال ما رسم جمال الدين لها من

علاج وما وصف من إصلاح ، استطعت أن أتصور لإصلاح جمال الدين منطلقات ثلاثة جعلت كل واحد منها فصلا فى هذا الباب ، وهى بغير شك منطلقات فى مجال الإصلاح أصيلة وفاعلة وهى كما تصورت :

الدعوة إلى الوحدة الإسلامية فى ظل القرآن الكريم ٠

والتصدى للفكر المنحرف عن الإسلام فى أى مجال ٠

ومواجهة أعداء الإسلام فى الشرق والغرب ٠

ومن خلال هذه المنطلقات نستطيع أن نتعرف على جمال الدين المصلح الإسلامى المجدد لكل ما بلى فى نفوس المسلمين من ثقتهم فى دينهم منهجا ونظاما ٠

وفى سبيل هذه الإصلاحات لقى جمال الدين فى حياته ما لقى من العنت والتضييق ، وعانى ما عانى من كيد الأباعد وبعض الأقارب ، ونهج ما نهج من فكر ، ومارس ما مارس من عمل وحركة ٠

ولقد كانت رغبته فى الإصلاح والتجديد أقوى من كل رغبة عنده ، حتى لقد انضم إلى الجمعية الماسونية التى تدعى تبنى إصلاح المجتمعات الإنسانية كلها ، ليتخذ منها ومن أعضائها ونظمها عونا له على إصلاح حال المسلمين ، فى حين غاب عنه ـ بكل تأكيد ـ ما تهدف اليه هذه الجمعية من أهداف خبيثة تناهض الإسلام والمسلمين ، وقد أكدنا أنه خدع فى الماسونية ، لأنه عندما عرف حقيقة الماسونية هجرها وانخلع منها بعد أن أبلى فى صفوفها بلاء معروفا[١] ٠

ولقد بدا لبعض من لم يدرسوا حياة جمال الدين واتجاهات فكره ومنطلقات إصلاحه ، بالعمق المطلوب القادر على أن يمد صاحبه بحكم صائب ، بدا لهؤلاء أن يتخذوا من انضمام جمال الدين للمحفل الماسونى سبة يسبونه بها وتهمة يطعنون بها فى أهدافه ووسائله ، بل بالغ بعضهم فرماه من أجلها بما رماه به من أوهام وأباطيل ٠

غير أن التدقيق والتمحيص فى حياة الرجل وسيرته ينفى عنه كل تهمة من هذا

---

١ ـ ناقشنا هذه القضية بتوسع فى الفصل الثالث من الباب الأول ، من هذا الكتاب ٠

القبيل ، نعم لا نستطيع فى هذا الكتاب أن نبرئ جمال الدين من كل عيب أو نقص ـ لأن الكمال لله وحده ، والعصمة ليست لأحد من خلقه إلا من اصطفى من نبى أو رسول ـ وإنما حسبنا أن ننصفه ، وأن يسوق الله الحق على صفحات كتابنا لينصف الرجل من ينصفه عن بينة ، ويهلك فى الخوض فيه من هلك عن بينة كذلك .

ولا يفوتنى هنا أن أنبه إلى أن موجة عاتية معاصرة يركبها بعض المستشرقين من أعداء الإسلام والمسلمين ، ويتابعهم فيها ـ من أسف ـ بعض الكتاب المسلمين تستهدف تشويه الأعلام والقادة والمفكرين من المسلمين فى مختلف العصور بقصد عزل الشباب المسلمين عن التأسى بهم والانطلاق فى المجالات التى انطلقوا هم فيها .

وما تجد فى عصرنا هذا واحدا من أولئك الأعلام إلا ناله رذاذ من شر هؤلاء الأشرار ـ ابتداء بالمصطفى القدوة عليه صلوات الله وسلامه ، ثم كبار صحابته ثم التابعين ، ثم أعلام الفكر على مر العصور .

أقول : إن هذه الموجة وراكبيها والمجدفين فى تيارها ، تحتم على كل دارس لسير هؤلاء الأعلام أو كل كاتب فى نواحى إصلاحهم أن يتحرى الصواب فيما يقول ، وأن يتقى الله فيما يقول أو يرسل من تهم وأوهام .

ولعل هذا البحث فى جملته ينصف جمال الدين امام تهم الصقت به ، وهو منها برىء ، ولعله أن يرسم لجمال الدين صورة توضح أهدافه وتنير السبيل أمام الذين يحبون أن يروا الحقائق كما هى ، والرجال كما ينبغى أن يوزنوا وكما يجب أن توزن أعمالهم .

والله ولى كل توفيق ومسدد كل خطوة تستهدف الحق .

الفصل الأول :

الدعوة إلى الوحدة الإسلامية فى ظل القرآن

وفيه :

١ ـ جمال الدين والوحدة الإسلامية فى ظل القرآن ·

٢ ـ أسباب فشل الوحدة بين المسلمين فى رأيه .. ويتناول :

أ ـ بعد المسلمين عن الإسلام ·

ب ـ تقصير العلماء والحكام ·

ج ـ التفرقة بين أبناء الأمة الواحدة ·

د ـ العصبيات والإقليميات ·

٣ ـ جمال الدين والجامعة الإسلامية ·

الدعوة إلى الوحدة الإسلامية فى ظل القرآن

ليس من المبالغة فى شيء أن نقول : إن جمال الدين الأفغانى عاش حياته كلها لا تفارقه الرغبة الملحة فى جمع كلمة المسلمين ، وتوحيد صفوفهم تحت راية القرآن الكريم وفى ظل المنهج الإسلامى للحياة .

فبعد أن طوف جمال الدين فى العالم الإسلامى أغلبه ، وتعرف بصدق وبدقة على أدوائه ، وأدرك تمام الإدراك مَنْ أعداؤه ، وعلم عِلْم اليقين أن قُوى عديدة تكيد له ، كل ذلك جعل جمال الدين يعتبر أكبر همومه وأسمى أغراضه أن تتوحد قوى المسلمين المبعثرة ، وأن تتحد كلمتهم المفرقة ، فى ظل هذا الدين ليتمكنوا بهذا من مواجهة عدوهم ومقاومته والتغلب عليه .

وليس من المديح والثناء على الرجل أن نقرر أنه كان ذا طموح لا يحد فى مجال الإصلاح والتجديد ، وإنما يظل ذلك القول وصفا لحقيقة الرجل وحقيقة أهدافه فى الحياة .

ولقد كان جمال الدين يرغب فى أن يصلح البشرية كلها من يدينون من أهلها بدين الإسلام ومن لا يدينون ، فلقد كان ينظر إلى العالم الذى يعيش فيه نظرة عميقة فاحصة لها من الشمول والعموم ما يجعلها تتجاوز العالم الإسلامى الذى يعنيه أمره بالدرجة الأولى إلى العالم كله إلى هذا الكون الفسيح ومن يعيشون فيه من أهل الأديان والملل والنحل من غير المسلمين .

ولقد فطن جمال الدين إلى أن الأمراض تفتك بالناس جميعا وأنها توشك أن تأتى عليهم ، وعرف جمال الدين نوع هذه الأمراض ، بل عرف العلاج الذى يبرىء الناس منها ، فشرع يصف هذا العلاج ويحدد الدواء ، غير أنه قد هاله أن اتساع الرقعة التى تشمل الكون كله قد تعجزه عن أن يصل إلى ما يريد ، وقد تتحدى قواه

وجهوده فتحول بينه وبين رغبته الملحة فى أن يأخذ بيد الإنسانية كلها إلى ما يصلحها فى دينها ودنياها •

أيقن جمال الدين بعجزه عن الوصول إلى هذا الهدف الإنسانى الكبير فرأى أن يضيق على نفسه رقعة العمل ، ليتمكن من النجاح فيما يريد ، فقصر جهده على أبناء الوطن الإسلامى دون سواهم ، وخصص جهاز دماغه ـ على حد تعبيره ـ لتشخيص دائه وتحرى دوائه •

ولقد اجتهد الرجل فى تشخيص الداء واجتهد كذلك فى وصف الدواء وحسبه ذاك لينال أجر المجتهد ، أما أنه لم ينجح فى مسعاه أو لم يوفق فى لم شمل المسلمين ، فهذا لا يعيبه ولا يعيب أسلوبه الذى لجأ إليه •

يتحدث جمال الدين عن همومه الإصلاحية ، وعن نظرته الشاملة المتعمقة لهذا الكون ، ورغبته الملحة فى إصلاحه فيقول : « وأول نظرة نظرتها فى الكون وفشلت بها ، أننى وضعت الكرة الأرضية بين يدى وقستها ببعض الأجرام فرأيت منها ما يكبر الأرض بمئات الملايين من المرات ، ثم تمعنت فيما حوته من الحيوان الناطق « الإنسان » فوجدته لا يتجاوز الألف والخمسمائة مليون تقريبا ، وهو مقدار زهيد بالنسبة لسطح الأرض ـ وكان ذلك فى زمن جمال الدين ـ ثم افترضت ذلك الجرم الذى يكبر عن الأرض بمائتى مليون مرة ، وأن الرجل هناك يعيش ألف سنة ، وأن ذلك الرجل صاحب أراض واسعة فيه ، فتخيل إلى أنه يملك من الأراضى ما مساحتها مساحة الكرة الأرضية ، وأن أولاده وأحفاد أحفاده من الممكن أن يبلغ عددهم إذا ازدوج بمئات من النساء مع طول العمر ، عدد أهل الأرض هذه أو ما يزيد •

فإذا صح مع هذا الخيال أن تكون الأرض برمتها ملكا لرجل فى قرية من جرم المريخ مثلا ، ونسله عدد أهل الأرض ، هل يكون بين أهل تلك القرية الذين هم أبناء رجل واحد ، مثل ما هم عليه أهل هذه الكرة من الاختلافات ؟

أجابنى الخيال : كلا ... بل يكون كل أهل قرية آمنين مطمئنين لا تحاسد بينهم

ولا هم يحزنون ، يغرسون ويزرعون ويجنون فيأكلون ، لا يعرفون للحرب معنى ، إذا لا ملك عليهم وليس بينهم أولى مطامع ، ملك شاسع واسع وخيرات مما يشتهون .. يعبدون مع أبيهم صاحب القرية إلها واحدا خالق الكل ومبدع الكائنات .

ثم رجعت لأهل جرم الأرض ، وبحثت فى أهم ما فيه يختلفون فوجدته الدين ، فأخذت الأديان الثلاثة وبحثت فيها بحثا دقيقا مجردا عن كل تقليد ، منصرفا عن كل تقييد ، مطلقا للعقل سراحه ، فوجدت بعد كل بحث وتنقيب وإمعان أن الأديان الثلاثة : الموسوية والعيسوية والمحمدية على تمام الاتفاق فى المبدأ والغاية ، وإذا نقص فى الواحدة شيء من أوامر الخير استكملته الثانية .

وإذا تقادم العهد على الخلق وتمادوا فى الطغيان أو أساءت الكهان فى الناموس أو نقصوا من جوهره أتاهم رسول بإرفاد وتأييد ، فأكمل لهم ما أنقصوه وأتم بذاته ما أهملوه .

وعلى هذا لاح لى بارق أمل كبير أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثل ما اتحدت الأديان فى جوهرها وأصلها وغايتها ، وأن بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطا نحو السلام خطوة كبيرة فى هذه الحياة القصيرة .

وأخذت أضع لنظريتى هذه خططا وأخط أسطرا ، وأحبر رسائل للدعوة ، كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب وكثب ولا تعمقت فى أسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد وتفرقهم فرقا وشيعا وطوائف .

ولكن لما علمت أن دون اتحاد أهل الأديان تلك الهوات العميقة وأولئك المرازبة الذين جعلوا كل فرقة بمنزلة « حانوت » وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة ورأس مال تلك التجارات ما أحدثوه من الاختلافات الدينينة والطائفية والمذهبية على حد قول الشاعر :

قد يفتح المرء حانوتا لمتجره   وقد فتحت لك الحانوت فى الدين
صيرت دينك شاهينا تصيد به   وليس تفلح أصحاب الشواهين

علمت أن أى رجل يجسر على مقاومة التفرقة ونبذ الاختلاف وإنارة أفكار الخلق بلزوم الائتلاف ، رجوعا إلى أصول الدين الحقه . فذلك الرجل هو هو يكون عندهم قاطع أرزاق المتجرين فى الدين ، وهو هو فى عرفهم الكافر الجاحد المارق المخردق المهرتق المغرق ... الخ .

ولما انتهى بى العلم إلى ذلك الحد ، انقلبت أفراحى بالخيال أتراحا ، ورجعت عن نظريتى ، والفشل ملء إهابى وجبتى .

ثم جمعت ما تفرق من الفكر ، ولممت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتنى الأفغان وهى أرض مس جسمى ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلى ، فإيران بحكم الجوار والروابط ، وإليها كنت صرفت بعض همتى ، فجزيرة العرب من حجاز مهبط الوحى ومشرق أنوار الحضارة ، ومن يمن وتبابعتها وأقيال حمير فيها ، ونجد وعراق ، وبغداد وهارونها ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها ، والأندلس وحمراؤها ، وهكذا كل صقع ودولة من دول الإسلام فى الشرق ، وما آل إليه أمرهم فيه اليوم .

فالشرق الشرق ...

وقد خصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه وتحرى دوائه فوجدت أقتل أدوائه وما يعترض فى سبيل توحيد الكلمة فيه داء انقسام أهليه وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا ، ولا تقوم على هذا لقوم قائمة(١) .

هكذا نظر جمال الدين إلى العالم كله ، وإلى العالم الإسلامى بخاصة ، وجعل همه جمع كلمة المسلمين وإيقاظ هممهم واتحادهم فى مواجهة الخطر الغربى الذى يحدق بهم ويوشك أن يقضى عليهم ، ولم يعرف جمال الدين ـ فى سبيل الوصول إلى هدفه ـ لونا من اليأس ولا نوعا من القنوط ، وإنما قضى عمره يهاجر بدعوته ويرحل بفكره وإصلاحه من بلد إلى بلد ، ويتوسم لهذه الدعوة من يستجيب لها من أمير أو سلطان

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ٤٧ ـ ٤٨ .

فيهرع إليه ويقبل عليه ، لا يكل ولا يمل ، وكثيرا ما كان واقع العالم الإسلامى يصدمه وواقع حكامه يذهله ويدهشه ، فتضيق أمامه الدنيا على اتساعها فيتخيل الفرج بعد الضيق ، ويرى الفجر يوشك أن يبدد ظلام هذا الليل الذى ران على العالم الإسلامى ، شأنه فى ذلك شأن المصلح الحق المؤمن بأن المستقبل لهذا الدين الحنيف ولهذا الحق الذى يدعو إليه .

وكان من تمام إدراك جمال الدين لواقع المسلمين الذى لا يرضى ، ومن رائع عمله لتلافى سلبيات هذا الواقع المريض ، أن دعا إلى إيجاد حركة دينية إسلامية تكون منطلقا للإصلاح عند المسلمين .

وأكد فى كثير مما قال أن هذه الحركة الدينية يجب أن تبنى على الفهم الصحيح للإسلام ، وعلى العمل الجاد فى سبيل الله وفى سبيل هذا الدين .

وكثيرا ما كان يكرر أن المسلمين ما ضعفوا ولا استكانوا إلا يوم ساء فهمهم لدينهم ويوم انحرفوا عن صراطه المستقيم .

وكان رأى جمال الدين فى إصلاح المسلمين من الآراء التى عرف بها وعرفتْ به ، ولقد تناقل رأيه ذلك أصدقاؤه وتلاميذه .

كتب الشيخ عبد القادر المغربى من الآستانة سنة ١٣١٠ هـ إلى الشيخ محمد رشيد رضا ، بعد أن كان المغربى قد زار جمال الدين مرتين أو ثلاثة ، ودار بينه وبين جمال الدين حديث وحوار فى مجال إصلاح المسلمين وتخليصهم من واقعهم السىء ، كتب الشيخ عبد القادر المغربى يقول : نقلا عن جمال الدين :

« قال السيد : إن بطرسبرج وفينا كباريس فى حسن الانتظام والزخرف ، وإن فينا أكبر من الآستانة » .

فقلت : الآستانة منذ ثلاثين سنة لم تكن هكذا بل كانت متأخـرة من عدة وجوه ، فهى لا تزال تتدرج فى مدارج المدنية لا سيا باهتمام أفندينا ولى النعم ، وهذا يدل على أن المسلمين عن قريب يبلغون من التمدن والترقى ما بلغت إليه أهالى البلاد الغربية .

فقال : إذا لم يُبْن تقدمنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه ، ولا يمكن أن نتخلص من ربقة الانحطاط والتأخر ·

فقلت : إذا نظرنا إلى حالتنا منذ ثلاثين سنة وقابلناها بما نحن عليه الآن نرى بونا عظيما ·

فقال : ما تراه الآن من حالتنا المستحسنة ظاهرا هو عين التقهقر والانحطاط ، لأننا فى تمدننا هذا مقلدين للأمم الأوربية ، وبسبب ذلك يخشى علينا بعد زمن غير طويل أن نخنع للذل والسلطة الأجنبية أو تتبدل صبغة الدين الإسلامى الذى من شأنه رفع راية السلطة والتغلب إلى صبغة خمول وذل بعض الشعوب القديمة ·

فقلت : ما الطريقة القويمة التى ينبغى أن نسلكها لنتوصل إلى التمدن الحقيقى ولمساواة شعوب أوربا ؟

فقال : لابد من حركة دينية ، لأننا إذا نظرنا فى سبب انقلاب حالة عالم أوربا من الخشونة إلى المدنية نراه الحركة الدينية ، وذلك منذ عصر « لوثر » رئيس الطائفة البروتستانتية ، فإنه لما رأى أهل أوربا تعتقد فى « البابا » اعتقادا يوجب عليها الخضوع له والاستكانة لأوامره وغير ذلك من الاعتقادات المسيحية الفاسدة قام بتلك الحركة الدينية التى نشأ عنها الانقسامات بين الشعوب ، وجعل كل شعب يغار من الآخر ويجاريه فى سلوك سبل النجاح ·

وخلاصة الأمر أن تمدن أوربا ينسب إلى تلك الحركة ومبدأه عن ذلك العهد ·

قلت : إن دينهم فاسد فأصلحوه ، وديننا بحمده تعالى للآن محفوظ من التبديل والتغيير ، فكيف تكون حركتنا الدينية وعلى أى شىء مبناها ؟

قال : حركتنا الدينية هى اهتمامنا بقلع ما رسخ فى عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقى : مثل حملهم القضاء والقدر على معنى يوجب أن لا يتحرّكوا لطلب مجد ، ولا لتخلص من ذل ،

ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان ، الذى حملهم على عدم السعى وراء الإصلاح والنجاح ، ومثل ... ومثل ...

فلابد من بث العقائد الدينية الحقة بين الجمهور وشرحها لهم على وجهها المناسب وحملها على محاملها الصحيحة التى تقودهم لما فيه خيرهم دنيا وأخرى .

ولابد - أيضا - من تهذيب علومنا وتنقيحها ، وتأليف كتب فيها قريبة المأخذ سهلة الفهم لنستعين بها على تقدمنا لا أن نجعلها علما مقصودا لذاته كعلم النحو والبلاغة يصرف الإنسان جل حياته فى الاشتغال فيهما ولا يقتدر على إنشاء مقالة يعبر بها عما يقوم فى نفسه من الأفكار والأمور التى يرجع إليها إصلاح فى الوطن وتعزيز للدين وتقوية للأمة .

وهنا شرع فى بيان سوء اشتغالنا فى العلوم على غير طائل ، حتى إن الغير اهتدى إلى لب تلك العلوم واستعان بها على تقويم اعوجاجه وتركنا نحن نتخبط فى مهامه الحيرة والغفلة ونتيه فى فيانى الجهالة غير مبالين بما ينجم عن ذلك من الدمار والانمحاء من صفات الوجود « فلابد من الحركة الدينية » انتهى ما كتبه المغربى من محاورته مع السيد[1] .

---

١ - الشيخ محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام : ٨٢/١ - ٨٣ .

١ ـ جمال الدين والوحدة الإسلامية

كان جمال الدين ـ رحمه الله ـ يدرك تمام الإدراك أنه لن تقوم للمسلمين قائمة إلا إن نبذوا خلافاتهم وطرحوا فرقتهم ، وعادوا كما يجب أن يكونوا وكما يوجب عليهم دينهم ، متحدين أصحاب غاية واحدة ، متكاتفين على تحقيق تلك الغاية بالغة ما بلغت جهودهم التى يبذلون ، أو أموالهم التى ينفقون ، أو مصالحهم الشخصية التى يتناسونها بالضرورة إلى أن يصلوا إلى تحقيق أهدافهم ٠

وكانت الفترة التى عاشها جمال الدين فترة احتلال الأجانب لبلاد المسلمين ، وبالتالى تحكم الظالمين المستبدين فى أمن الناس وأقواتهم ، مما يوجد كثيرا من المشكلات السياسية والاجتماعية القاسية ٠

فرأى جمال الدين أن اتحاد المسلمين هو وحده الذى يخلصهم من أعدائهم المستعمرين ، ومن حكامهم الظالمين المستبدين الخاضعين فى كثير من الأحيان لنفوذ العدو الأجنبى ، أو الخائفين منه ومن دسائسه على عروشهم وكراسىّ حكمهم ، أو على مصالحهم الشخصية ٠

جعل جمال الدين الدعوة إلى اتحاد المسلمين همه ، فنادى بها فى مصر وفى الهند وفى إيران وفى أفغانستان ، وفى كل مكان ذهب إليه من بلاد المسلمين ٠

طالب المسلمين بأن يتحدوا فيما بينهم ، ثم طالبهم بأن يتحدوا مع إخوانهم فى بقية الأقطار الإسلامية ، بل رأى هذه الوحدة علاجا لكل مشكلة يعيشها أبناء العالم الإسلامى ٠

يقول جمال الدين : « فإذا اتحد المصريون ونهضوا كأمة[١] لا ترى بدا من استقلالها ، ولا تقبل به بديلا ، وثبتوا على شىء من الجور والحيف والقتل فى بادئ

١ ـ هذه الكاف لا ضرورة لها وهى اثر من آثار الترجمة ٠

الأمر ، وصبروا ورابطوا وارتبطوا ، فبشر المصريين بحسن المآل ونيل الاستقلال إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أما الهند فقد بدت طلائع خير تبشر بقرب نهضتها من كبوتها وتوقظهـا من غفلتها ، وذلك أن الإنجليز قد جروا فى الهند على قاعدة « فَرِّقْ تَسُدْ » وقد تمكنت من تفريق المسلمين والوثنيين بعضهم عن بعض ، وغرست فى العنصرين بذور البغضاء بالميل تارة إلى جانب المسلمين وتارة إلى الآخرين ، وكان إيثارها للوثنيين أظهـر ، واعتمادها عليهم بتذليل بعضهم بعضا أقوى ، إذ ليس فيهم من البأس والنجدة ما فى المسلمين ، ولا ضاع لهم من العزة والسلطان ما ضاع للمسلمين ، فظل الوثنيون فى رضوخ واسترضاء للإنجليز ، يفرحهم ذلك الإيثـار الـطفيف فى سفـاسف الأمـور والوظائف ، ويبعدهم من المسلمين ، حتى جاء دور [1] القهر إليهم ، فأخذت تستلب ملك « نواب » الوثنيين وراجاتهم ، وتذيق أمراءهم أنواع الذل والهوان .

وبالإجمال ، فقد سقطوا تحت مكبس الضغط والتضييق مع إخوانهم المسلمـين فالتحمت الأجزاء المتفرقة وتقاربت القلوب المتنافرة ، وأخذت أفكارهـم تجـول فى المصير وسبل الخلاص ، ولسوف تعلو به أصواتهم .

آن لنسيم الحياة والنشاط أن يهب على الممالك الشرقية وأهلها ، فتهب من رقدتها وتستيقظ من غفلتها وسنتها ، فتجمع كلمتها وتوحد قوتها .

آن للأفغانيين أن يرفعوا أبصارهم ويستقبلوا باليقظة حظهم بفكر ثاقب وعقل رشيد ، ويتقدمـوا للاتفـاق مع إخوانهـم الإيرانيين ، فليس بينهـم ما يصـح عليه الاختلاف فى المصالح العمومية ، فالجميع من أصل واحد وتجمعهم رابطة واحدة وهى أشرف الروابط « الدين الإسلامى » .

وليعلموا أن استمرارهم على التخالف جلب ويجلب الضرر عليهم وعلى إخوانهم الفارسيين ، وعلى إخوانهم المسلمين فى الهند ، وعموم سكنتها .

---

١ ـ تستعمل كلمة دور خطأ كما هى واردة فى هذا التعبير ، وصوابها هنا : طور أوما يؤدى هذا المعنى .

وعلى الفارسيين والأفغانيين أن يراعوا الكلمة الجامعة والصلة الجنسية ، ولا يجعلوا الاختلاف الفرعى فى المذهب سببا فى خفض الكلمة الإسلامية وقطع الصلة الحقيقية ، فليس من العقل والحزم أن يقام من خلاف جزئى علة لاضمحلال الكل ·

وقد علم كل من القبيلين أن الاختلاف بينهما هو الذى جلب على كل منهم ماجلب ، فعلى الأفغانيين أن يجوزوا عن هذا الاختلاف الفرعى إلى الوحدة الأصلية ويمدوا سواعدهم لمحالفة إخوانهم ويجعلوا تلك « الوحدة » سياجا لأوطانهم وعدة لمكافحة أعدائهم ، ومنبعا فياضا لخير بلادهم ، وملاذا لجيرانهم ، ومثالا تنسج على منواله عموم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، فينالوا شرفا رفيعا ، ويورثوا أعقابهم مجدا مخلدا ·

وليس ببعيد على همم الإيرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أول القائمين بتحديد تلك « الوحدة الإسلامية » وتقوية الصلات الدينية ، كما قاموا فى بداية الإسلام بنشر علومه وحفظ أحكامه وكشف أسراره ، فلقد عملوا وما قصروا ، بل صرفوا قاصرى الجهد فى خدمة الشرع الشريف وتوسلوا لذلك بأجل الوسائل ·

نعم : البخارى ومسلم والنيسابورى والترمذى وابن ماجة وأبو داود والبغوى وأبو جعفر البلخى والكُلِينى وغيرهم ممن أنبتتهم أرض إيران ·

أبو بكر الرازى الطبيب الشهيد والإمام فخر الدين الرازى ممن نشأوا فى طهران ·

أبو حامد الغزالى حجة الإسلام وأبو إسحق الإسفراييني والبيضاوى وخواجه نصير الدين الطوسى والأبهرى وعضد الملة والدين وغيرهم من علماء الكلام والأصول ممن تفخر بهم بلاد فارس وهم فخر المسلمين ·

أبو على بن سينا الفيلسوف الشهير ، وشهاب الدين المقتول ، ومن كان على شاكلتهم ممن جبلوا من تراب فارس ·

إن أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربى وضبط أصوله

وتأسيس فنونه ، منهم سيبويه وأبو على الفارسى والرضى ، ومنهم عبد القاهر الجرجانى مؤسس علوم البلاغة لبيان إعجاز القرآن ، وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية .

وصاحب الصحاح الجوهرى من إحدى قراهم ، ومجد الدين الفيروز أبادى من إحدى بلدانهم ، والزمخشرى جار الله والسكاكى ، وأبو الفرج الأصفهانى ، وبديع الزمان الهمزانى وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن وشيدوا الدين كلهم من أرض فارس .

الطبرى أول المؤرخين والإصطخرى والقزوينى أول الجغرافيين كانوا من بلاد فارس .

الشبلى كان من نهاوند ، وأبو زيد البسطامى من بسطام ، والأستاذ الهروى وهو الأستاذ الحقيقى للشيخ محى الدين بن العربى كان من هراة وكلها من بلاد فارس .

هل يُنسى صدر الشريعة وفخر الإسلام البزدوى ؟ والآمدى والميرغينانى والسرخسى والسعد القفتازاتى والسيد الشريف ، والأبيوورى وكلهم من أبناء فارس ؟

القطب الشيرازى والصدر الشيرازى ورأس الحكمة فى المتأخرين مير باقر الداماد أمير فندركس وغيرهم ، كانوا من بلاد فارس .

أى فضل كان ، ولم يكن لهم فيه اليد الطولى ؟ أى مزية منّ الله بها على الإسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها ، نعم وفيهم جاء قول المصطفى صلى الله عليه وسلم « لو كان العلم فى الثريا لناله رجال من فارس » .

فالفارسيون إذا تذكروا أياديهم فى العلم ونظروا إلى آثارهم فى الإسلام نهضوا ليكونوا للوحدة الدينية دعامة ، كما كانوا للنشأة الإسلامية وقاية ، فهم بما سبق لهم أحق الناس بالسعى فى استرجاع ما كان لهم فى فتوة الإسلام وهم أجدر المسلمين بوضع أساس الوحدة الإسلامية ، وما ذلك ببعيد على طيب عناصرهم وقوة غرائمهم .

أظن حان وقت ندائهم بالوحدة مع الأفغانيين والتحالف معهم على مقاومة العادين ليكونوا بالاتحاد معهم حصنا حصينا وحرزا منيعا تقف دونه أقدام الطامعين .

أظنهم لم ينسوا أن استيلاء الإنجليز على الممالك الهندية إنما تم بوقوع الخلاف بينهم وبين الأفغانيين .

هل يخفى عليهم أن كل مسلم فى الهند شاخص بصره إلى طرف بنجاب ينظر قدومهم إذا اتحدوا مع إخوانهم الأفغانيين .

حصلت لهم تجارب كثيرة وشهدوا من مظاهر الحوادث ما فيه أكبر عبرة فهل يصح بعد هذا أن يستمروا على التجافى والتباعد ، مع علمهم أن الوحدة منبع الشوكة ؟

هذا آن التآخى والوفاق ، هذه أوقات التحالف والتواثق ، أحاط الأعداء ببلادهم شرقا وغربا وكل يشحذ سيفه ويسدد سهمه ، حتى تمكنه الفرصة من شن الغارة على أطراف بلادهم فلا يضيعوا الفرص ، وليعلموا أن اتفاق سلطنة الشاه مع إمارة الأفغان توجد قوة إسلامية جديدة فى الشرق تسرع للانضمام إليها والاتحاد معها سائر الطوائف الإسلامية مع أمرائها وحكامها ، وينبعث فيهم وفى سائر المسلمين حياة جديدة ، وتجدد لهم آمال جليلة ، وتنعش بذلك أرواح المؤمنين ، وما أجلها نعمة وأهيبها سطوة وأمنعها قوة إذا توسط عقد تلك الوحدة الإسلامية صاحب الخلافة العظمى والإمامة الكبرى جلالة السلطان ، فيستردوا المغصوب من ملكهم ويسترجعوا المنهوب من أموالهم ويستعيدوا مجدهم وما بان من عزهم ، ويرجعوا الملك الإسلامى كما كان مسيطرا ما بين نقطة الغرب الأقصى إلى أحساء الصين فى عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء ، وتعاد السيرة الأولى التى كانت لملوك الإسلام العظام الذين اداروا بشوكتهم أكثر المعمور من الكرة الأرضية . أولئك الذين ماكان يهزم لهم جيش ولا ينكس لهم علم ولا يرد قول على قائلهم .

كان الخليفة العباسى إذا نطق بالكلمة خضع لها نقفور الصين وارتعدت منها فرائص أعظم الملوك فى أوربا .

وكم نبغ فى القرون الوسطى من أقيال الملوك والسلاطين مثل : محمود الغزنوى وملكشاه السلجوقى ، وصلاح الدين الأيوبى ، وفى المشرق مثل تيمور الكوركان ،

وفى الغرب مثل السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم والسلطان سليمان ·

كانت لأساطيل المسلمين سيادة لا تبارى فى البحار الأبيض والأحمر والمحيط الهندى ، ولها الكلمة العليا فيها إلى زمن غير بعيد ·

كان مخالفوهم يدينون لملكوت فضلهم ، كما يذلون لسلطان غلبهم ، والمسلمون هم يملئون اليوم تلك الأقطار والأمصار لا يعوزهم للعود إلى ذلك المجـــد الباذخ والعز الشامخ إلا وحدة تتم بإذن الله ، وفضل يعم بحول الله ، وما على الله أمر عسير ، وهو جل جلاله على كل شيء قدير ، نعم المولى ونعم النصير ·

ويضرب جمال الدين للمسلمين الأمثال فى العز مع الوحدة والذل مع الفرقة فيقول : « أى سلطان كان يمكنه أن يكشف الإنجليز عن مستعمرة أمريكا لو لم يصدمها اتحاد الأمريكانيين ، وينهضون باسم الأمة الأمريكانية مستميتين فى طلب استقلالهم ؟

نعم لما رأت الإنجليز أن الأمة هى التى تقاومها وتخلع طاعتها أكرهت على العمل بدستورها وجرت على خطتها بترك البلاد لأهلها ·

ودهاة الإنجليز أعقل من أن يتوهموا إمكان إفناء أمة بأسرها تتفق وتستبسل وتطلب الموت فى سبيل استقلالها ·

هذا الذى علمناه وشهدت به الحوادث وأيدته الوقائع[١] » ·

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ١٨٧ ـ ١٩٠ ·

٢ ـ أسباب فشل الوحدة بين المسلمين

وتتناول :

أ ـ بعد المسلمين عن الإسلام ·

ب ـ تقصير العلماء والحكام ·

جـ ـ التفرقة بين أبناء الأمة الواحدة ·

د ـ العصبيات والإقليميات ·

٢ ـ أسباب فشل الوحدة بين المسلمين

آمن جمال الدين بأن وحدة المسلمين هى دواؤهم من كثير من الأدواء التى يعانون منها ، وأيقن ـ بعد بَصرَ وخبرة بواقع العالم الإسلامى فى عصره ـ بأن فشل المسلمين فى تحقيق هذه الوحدة سيجلب عليهم من المتاعب والمشكلات ما لا قبل لهم به ، وما لا كيان لهم معه .

أخذ جمال الدين يشخص داء الأمة الإسلامية ، ويحاول جاهدا أن يتعرف على السر فى ضعف دولها وهوانها وضياع أمرها ووقوعها فى أيدى أعدائها ، وقد بدا له منذ أخذ على عاتقه كشف هذا السر ووفر نفسه عليه أن سبب الأسباب فى هذا الضياع هو بعد هذه الدول المسلمة عن دينها الإسلامى الحنيف .

غاص جمال الدين فى أعماق التاريخ فرأى أن العرب قبل أن يمن الله عليهم بالإسلام كانوا أمة ذات نجدة وبأس وقوة جنس تحسد عليها ولكنهم على الرغم من كل ذلك لم يستطيعوا أن يتوحدوا فى أمة ولا أن يتحدوا فى قوة ، ولا أن يجعلوا من أنفسهم سلطانا يجمع أشتاتهم ويلم أطرافهم ، وذلك لأنه لم تكن لهم وحدة دينية ، فلما منّ الله عليهم بالإسلام وكانت لهم به هذه الوحدة استطاعوا أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس ..

وذهب جمال الدين فى هذا المجال كل مذهب ، وضرب من الأمثال ما من شأنه أن يبصر المسلمين ويدعوهم إلى الأخذ بأسباب الوحدة فى ظل أكمل دين وأتم منهاج ، فى ظل القرآن الكريم ، الذى استطاع أن يجعل من العرب ـ على الرغم من ظروفهم ـ بعد أن دخلوا فى الإسلام واتخذوه منهجا ، استطاع أن يجعل منهم بهذا الدين خير أمة أخرجت للناس .

يقول جمال الدين فى ذلك : « لا تتكون الدول ولا يخلص لها السلطان إلا بقوتين : قوة الجنس : التى تدعو للاتحاد لمغالبة من سواهم ، ويكون فيه النعرة والعصبية لجنسة ·

وقوة الدين : الذى يقوم مقام الجنسية فى جمع الكلمة وتوحيد الوجهة وطلب الغلب بتلك القوة لمن خالفهم فيها ·

فاذا أخذنا العرب قبل الإسلام وجدناهم أمة فيها النجدة والبأس والقوة والجنسية ، ولكن ما تيسر لها تكوين دولة ولا قام لها سلطان يجمع الكل ·

وذلك لأن قوة الجنس توزعت فى القبائل فكانت كل قبيلة تجمع فى نفسها من قوة الجنس كتلة صغيرة تغالب فيها غيرها من القبائل ·

وعلى هذه الصورة لم ينتفع العرب كأمة من قوتها الجنسية بل خسرت لأنها وزعتها بدلا من أن تجمعها ، ووجهتها لنفسها عوضا من أن تغالب بها غيرها ، فكانت قوة الجنس فى العرب على هذه الحال أشبه شىء بسلاح المنتحر ·

جاء الإسلام والأمة العربية على هذا الوضع من شتات القبائل مختلفة الأهواء ، بأسهم بينهم ، كل قبيلة تتعصب لقبيلتها يُغيرون ويقتلون ويسبون حلة بعضهم بعضا ، فدعاهم إلى دين يجمع الأهواء ويوحد الكلمة ويمنع الدعوة الى عصبية ، وأقام قواعده مقام القوة الجنسية مع حفظ ما ألفوه ورضعوه من الحرية بكل معناها ، ومساواة بأصح معناها ، وعدل شامل ، وبالإجمال بكل ما يطهر الأنفس ويلطف الشعور ·

فالعرب بذكائهم وحدَّةِ ذهنهم لم يطل عليهم الزمن حتى وجدوا من أنفسهم ارتياحا للدعوة ، ومن قلوبهم ملبيا ومجيبا للداعى ، فدخلوا فى دين الله أفواجا ·

وازداد العرب بالإسلام إقداما وبأسا وقوة ، تلك القوة التى كانوا قبل الإسلام يضعونها بينهم قد وجههم بها الإسلام ـ بعد أن اتحدت قلوبهم ـ إلى الممالك والأمصار فدانت لدعوة دينهم الأمم ودخلت فى طاعتهم الملوك وذلت لهم الأكاسرة ، فملئوا أكثر معمور الأرض عدلا وفتحا ، من جبال پيرينى الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا إلى جدران الصين فى أقل من ثمانين سنة ·

وهكذا دام مجد الإسلام فى تعالٍ ، وملكهم فى اتساع فى دُور الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين إلى عصر الرشيد والمأمون ، وهناك بلغ مجد الدولة الإسلامية الأوج ، وأخذ من بعدها زمنا فى التوقف ، ثم بدأ فى التقهقر والانحطاط إلى دركة لم يبق معها من تلك العظمة والإجلال إلا رسوم وألقاب فَقَدَتْ مسماها وانعكس معناها ٠

فهل تم هذا الانحطاط والتقهقر بدون سبب ؟ كلا ٠

هل حصل لقلة عدد المسلمين ؟ لا ٠

بل إن عدد المسلمين فى دور انحطاط دولهم كان أكثر من يوم مجدهم وإبان عزهم [١] ٠

ثم أخذ جمال الدين يبحث عن الأسباب التى حالت بين المسلمين والوحدة فى الفترة التى عاشها ، وقد استطاع أن يرجعها إلى أربعة أسباب ، هى :

بعد المسلمين عن الإسلام بتركهم الحكم بما أنزل الله ، وتقصير العلماء والحكام ، قصرّ العلماء فى النصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وتقصير الحكام واضح فى تبعيتهم لأعداء الأمة الإسلامية وظلمهم واستبدادهم بمن يرعون من المسلمين ٠

وثالث الأسباب عنده تلك التفرقة بين أبناء الأمة الواحدة ، التفرقة المذهبية التى تفتت الوحدة وتقضى على القوة والعزيمة ٠

ورابع هذه الأسباب عنده هذه العصبيات والأقليميات التى غذاها ونماها أعداء الأمة الإسلامية ، وروج لها الغافلون والسذَّج من بعض المسلمين ٠

وسنتحدث عن كل سبب من هذه الأسباب على حدة ، ونستدل عليه بكلمات جمال الدين ، وصيحاته التى صاحها فى الأمة الإسلامية ٠٠

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ١٦٣ ـ ١٦٥ ٠

أ ـ بُعد المسلمين عن الإسلام

سبب الأسباب عند جمال الدين فى فشل المسلمين فى الوحدة هو بعد المسلمين عن التمسك بالإسلام والأخذ بمنهجه فى حياتهم ، ولم ير جمال الدين وسيلة أو سببا يهيىء المسلمين للوحدة ويجعلها فى متناولهم إلا أن يعيشوا فى ظل القرآن الكريم ويلتزموا بكل ما أمر به الدين ٠

يتحدث جمال الدين عن السبب الأعظم فى هذا الفشل الذى حال بين المسلمين والوحدة فيقول : « ٠٠٠ إذن فالسبب الأعظم والفاعل الأكبر فى السقوط هو إهمال ما كان سببا فى النهوض والمجد وعزة الملك ، وهو ترك حكمة الدين والعمل بها ، وهى التى جمعت الأهواء المختلفة والكلمة المتفرقة ، وكانت للملك أقوى من عصبية الجنس وقوته ٠

نعم لما فشى الجهل فى الخلفاء وبعدوا عن العلم بحقيقة الدين وحكمته ٠٠ وَهَن وضعف أساس الملك وتزلزل أقوى دعامة له ، فرجعت القواد والرؤساء إلى توزيع قوى الجنسية ومتفرق عصبيات القبائل من : وائلىٍّ ومضرىٍّ ويمنىٍّ ٠

ولم يعد لسلطان الدين تلك القوة الجامعة المانعة من عصبية ٠

وقد زاد فى ضعف الخلفاء بلية الإكثار من الأغراب ، وجعلهم قوة استعاضوا بهم عن قوة عصبيتهم وجنسهم فأرتقى كثير من المماليك إلى أعلى مراتب القواد ، وترأسوا الدواوين ومدوا أيديهم إلى الأموال واستبدوا بالقرى والسواد ، وتصرفوا بأموال الدولة حسب الهوى ، فوقع الخلفاء بين فقدان قوة الدين وقوة الجنس ، ولا يكون مع هذا إلا الانحطاط وبالتالى الانقراض ـ كما حصل وا أسفاه ـ ! « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ٠

وهكذا ترى الممالك فى دور تأسيسها معززة الجانب بأهل عصبيتها أولى الغيرة على الملك وصونه ، لا يدخل فى مناصب الدولة الرئيسية غريب عن الجنسية ولا تبدو

لذلك أقل ضرورة بعكس دور التقهقر ، فأول ما تبدو طلائعه فى استخدام الغريب وهو يخلق التملق والتزلف والمسكنة ، وبالإجمال كل ما تأباه نفوس أهل عصبية الملك من الأخلاق ، يتمكن من التقرب ويتدرج فى المراتب ، ويقرب من كان على شاكلته من أهل جنسه وقبيله حتى يسقط بآخر الأمر الملك والمملكة بأيديهم ، وما أكثر الأمثلة على ذلك فى بطون التاريخ ، كالقائد أفشين والديلميين آل بويه وغيرهم ٠

ثم إن ما جرى لدول الإسلام العربية فى دور تأسيسها وانحطاطها جرى للعثمانيين ويجرى على غيرهم من الدول ٠

ومتى رأيت الغرب المناوئ قد دب وتسنم ذرى المراتب الهامة فى الدولة فبشرها بسوء المصير ٠

هل يمكن لنا اليوم أن نرى مستشار خارجية انجلترا هنديا أو مصريا ؟ أو هل يخطر ذلك ببال انجليزى ؟ كلا !! ثم كلا !!

ولكنك ترى ذلك فى الدولة العثمانية اليوم ، وهى فى دور الضعف والتقهقر ، فمستشار نظارة الخارجية العثمانية « أرتين باشا » أرمنى ، وسفيرها لدى أنكى دول الأرض لها ، وأشدها عداء وهى انجلترا « موزوروس باشا » رومى ، وحاكم جزيرة كريد « قسطاكى باشا » ٠٠ وهكذا مناصب الدولة العثمانية مشحونة بيور غاكى وقسطاكى وآغوب وأوخانس ٠٠ الخ

وكل فرد من هؤلاء الرجال له أمةٌ محكومة من الدولة العثمانية باذلة جهدها للتخلص من الحكم العثمانى ، تعمل فيها دسائس الدولة الغربية لتناهض الدولة سعيا وراء استقلالها ٠

فمع هذه الآمال والأمانى هل يعقل أو ينتظر من أولئك الرجال إخلاص فى خدمة الدولة أو تعزيز جانبها والعمل على صونها وتعاليها ؟ ومصلحتهم القومية ومصلحة أممهم فى خلاف ذلك (١) ٠

١ ـ السابق : ١٦٣ ـ ١٦٦ ٠

ويحاول جمال الدين أن يتلمس الأسباب لضياع وحدة المسلمين وذهاب ريحهم وتفرق كلمتهم . فيراها أحيانا أسبابا تعود إلى سوء تصرفات حكام المسلمين . فتشتد حملته عليهم ، ويكاد يدخل فى حرب مع بعضهم - بل ربما دخل هذه الحرب - كما حدث مع الشاه ناصر الدين شاه إيران وغيره كالخديو توفيق فى مصر .

فقد كان جمال الدين يرى أن الخديو توفيقا يجب أن يموت شهيدا فى سبيل دينه وفى سبيل وطنه الذى يدوسه الإنجليز . يقول جمال الدين فى ذلك :

« يتوكأ الإنجليز على توفيق باشا فى حركتهم بمصر ويتخذونهُ آلةً لتخريب بلاده وهدم ملكه وما يكون من شر ينسبونه إليه ، وما عساه يوجد من خير يصلون نسبته بهم ، ويردونه إلى أنفسهم ، وفيما بين ذلك يبغضون إليه الولاية الإسلامية ، ويحببون إليه إغفال الأصول الدينية ، وهو يميل معهم ويمدهم فى مقاصدهم ، ويطوع البلاد لهم بما بقى له من السلطة الصورية كما يتظاهر بالتدين والمحافظة على الصلوات ، فإن كان باطنه يطابق ظاهره وكان معتقدا بدين الإسلام فعليه أن يتنحى عن الأمور ويترك الملك لمن يستطيع إنقاذه ، مما هو فيه فتبرأ ذمته من العار الذى يلحقه ويلحق بيت محمد على من تصرفه ، فإن لم يكن هذا فعليه أن يجهر بعقيدته ويقاوم الإنجليز بما فى جهده ويموت شهيدا فى سبيل دينه ووطنه ، وإلا فليس يغنى عنه من الله شيئا أن يظهر عند أهل خاصته وحاشيته أنه ناقم على الإنجليز كاره لوجودهم فى بلاد مصر ، ويود لو يخرجون كما أنبأتنا به الأخبار الخصوصية من القطر المصرى .

وإذا تمادى توفيق باشا فى سيره الملتوى . فعلى المصريين أن لا يقعوا صيدا فى يد الإنجليز بهذه الحِبالة البالية ، وهذا الفخ الواهن ، ولينظروا فى شئونهم وما توجبه عليهم فروض دينهم ، وإلا فما الله بغافل عنهم [1] »

هذا ما كان من جمال الدين مع الخديو توفيق وكذلك كان أمره مع شاه إيران ، ولم يكن بعيدا عن ذلك موقفه مع السلطان عبدالحميد .

---

١ - جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى ٣٩٨ .

ويظل جمال الدين يتلمس أسباب فشل المسلمين فى أن تضمهم الوحدة فى ظل دينهم ويرى بُعد المسلمين عن الإسلام هو أوسع أبواب الفشل ، وأقوى أسباب الضياع والفرقة ، ويرى بنظره الثاقب وبصيرته النافذة أن معظم الدول الإسلامية آخذة فى التفلت من دينها ، تاركة حدود الله وما أنزل على عباده من كتاب ، مقبلة على ما سَنّ البشر لأنفسهم من نظم وقوانين ، منخدعين بما يردده أصحاب هؤلاء القوانين من افتيات على شريعة الله ، وما يقومون به من جهود مستميتة لعزل دين الله عن عباده وينعى بل يهاجم أولئك الحكام الذين خضعوا لأعدائهم من الأجانب .

ب ـ تقصير العلماء والحكام

رأى جمال الدين أن سببا قويا من أسْباب فشل المسلمين فى وحدتهم يعود إلى العلماء والحكام .

العلماء بما استحفظوا عليه من الحق ، والحكام بما استرعاهم الناس مصالحهم ، وكان على هؤلاء وأولئك واجب تبصير المسلمين بواقعهم ، وانتشالهم من هذا الواقع السيء بالفرقة والانقسام إلى ما يجب عليهم من وحدة تعيد إليهم قوتهم وتجمع كلمتهم وتمكنهم من طرد أعدائهم الذين يسيطرون على بلادهم .

رأى جمال الدين قصور العلماء والحكام وتقصيرهم سببا قويا من أسباب الفشل فى الوحدة ، فأخذ ينعى عليهم ما هم فيه من ضياع وشتات ، ولم يوجه كلامه إلى العلماء والحكام وحدهم ، وإنما ضم إليهم كل داع إلى الفرقة وكل مؤيد للانقسام ، وكل جاهل لا يرى قوة المسلمين فى وحدتهم ، ولا يدرك أن عزهم فى تمسكهم بدينهم ، لا بتغنى بعضم بأمجاد السابقين من الآباء والأجداد فى هذا الماضى البعيد .

ناقش جمال الدين هذه القضية وغاص إلى أعماقها وخرج منها بالعبرة والعظة ونادى على العلماء والحكام وسائر المسلمين بأن ينظروا إلى تاريخهم ليفيدوا منه لا ليناموا ويستكينوا مخدرين بما فعل الآباء والأجداد .

يقول جمال الدين فى ذلك : « الكون يشهد والآثار تدل ، ولا من ينكر على أن للعرب وغيرهم من العجم آثار ومفاخر أتت من وراء الهمم وصدق العزائم ، ولكنها للأسف دفنت فى أجدات الأجداد وجاورت عظام أولئك العظام ، أعلام المروءة عصبة الرحمة أولياء الشفقة أهل النجدة أسود الحمية وغوث المضيم يوم الشدة ، شوامخ القوة رواسى العدل :

تلك بعض صفات السلف ، عثر عليها الخلف بالنبش وهى فى جبانة « الجبن »

والخمول ، وقرأها فى سطور كتاب حادث الدهر وأوراق سجل رجال العالم ، فطفق ينخر ويعدد ويصول ويطول ، ويقول : نحن مَنْ لمعت سيوف أجدادهم بالمشرق وانقضَّت شُهُبُها على المغرب : فذلت لهم رقاب القياصرة والأكاسرة وخضعت لأمرهم الأمم .

خفقت أعلام فتوحاتهم فوق ممالك الأرض فطهروا من جراثيم الظلم والجور وملئوها بالرحمة والعدل ...

وهكذا لاتزال تسمع كلا من العربى والفارسى وغيرهما من الشرقيين يقول : « نحن أحفاد أولئك الأجداد ونحن سلالة وذرية [1] أولئك الأقيال الأمجاد ، ونحن ونحن مما يثير الأشجان ويزيد الأحزان » .

نعم أولئك آباؤنا وأجدادنا قد جاد الزمان بهم فجادوا ، ولكن واسوأتاه وامعرَّتاه ، واخجلتاه ، إذا هم سألونا عما فعلنا بمخلفاتهم ، وما أورثوه لنا واستخلفونا عليه من الممالك والأقطار وعظيم المدن والأمصار .

نعم أين أنتم أيها الأجداد الأمجاد الأنجاد القوامون بالقسط الآخذون بالعدل الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الأمة ، ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلَفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم ، انحرفوا عن سنتكم وحادوا عن طريقكم فضلوا عن سبيلكم ، استبدلوا كل فضيلة برذيلة[2] وأتوا على كل أمر الله بعكسه ، نبذوا حكمة الدين واتباع شرع سيد المرسلين وتفرقوا فرقا وأشياعا الملوك منهم أنزلوا عن عروشهم جورا ، وذوو حقوق حرموا حقوقهم ظلما ، وأعزة باتوا أذلة ، وأجلاء أصبحو حقراء ، وأغنياء ، أمسوا فقراء ، وأصحاء أصبحوا سقاما ، وأسود

---

١ ـ كان الصواب أن يقول : ونحن سلالة أولئك الأقيال الأمجاد وذريتهم ، حتى لا يفصل بين المضاف « سلالة » والمضاف إليه « أولئك » بحرف عطف ومعطوف هو « وذرية » .

٢ ـ الصواب : كل رذيلة بفضيلة ـ لأن الباء تدخل على المطروح ـ وهكذا يقتضى سياق الكلام لأنه يتحدث عن نقائصهم .

تحولت نعاما ، فأصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفا ، وتحترق الأكباد حزنا .

أصبحوا فريسة للأمم الغربية ، لا يستطيعون ذودا عن حوضهم ولا دفاعا عن حوزتهم ، ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ويوقظ النائم ويهدى الضال إلى سواء السبيل ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون .

نعم إن للأرواح إشراقا بهياكل الروحانية على ما تلبس من الأجسام الترابية فى هذه الدار الفانية ، ومناجاة لمن فيه ذلك الاستعداد « إذ الإمداد لا يكون إلا على قدر الاستعداد » .

فإذا أصغينا بالحس الروحى إلى ما نريد أن تناجينا به أرواح أجدادنا لوجدناهم [1] يحرقون علينا الأرّم ويزعجهم الألم وينادوننا : أيها الأحفاد تفتخرون بسيوف لمعت بالمشرق ! نعم ، وقد تركنا لكم تلك السيوف مشحوذة فى أغمادها فهل تقلدتموها ، وهل سللتموها بوجه من اكتسح بلادكم وضرب عليكم المذلة والمسكنة .

تفتخرون بما فتحناه وتركناه لكم من الممالك وما تحملناه فى سبيل ذلك من المخاطر والمهالك ، ولا تخجلون ولا تحزنون ، وقد سلبتها منكم الأعداء وأنتم من مقاعد جبنكم وذِلّكم تنظرون ولا تتحركون ولا تنهضون ، حتى ولا تنطقون .

تفتخرون بصبرنا وثباتنا وإقدامنا وبسالتنا واعتصامنا بحبل الله واتباع سنن نبيه الكريم ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ وأنتم على عكس الأمر من أخلاق وصفات .. وما أبعدكم بهذا عن الفخر وأبعد الفخر عنكم ، ولأنتم أولى بإطراق الرأس وغض الطرف خجلا وحياء من الله ومن أرواحنا فى الملأ الأعلى ، التى تبرأ إلى الله من صنعكم وقلة إيمانكم بالله والعمل بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تفخرون بتمسكنا بأصول الدين وحسن اليقين والتزام الكتاب والسنة والعمل بأحكامها ، وأنه قد استحكمت بيننا رابطة الأخوة فكنا كالبنيان المرصوص ، نعم هكذا كنا ...

---

١ ـ الصواب وجدناهم دون اللام ، لأن اللام لا تدخل فى جواب إذا .

أما انتم فلم يبق من جامعة بينكم إلا العقيدة الدينية ـ وليس فى الجميع ـ مجردة عما يتبعها من الأعمال ، انقطع التعارف بينكم وهجر بعضكم بعضا هجرا غير جميل ، علماؤكم وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لا تواصل بينهم ولا تراسل مع جمودهم ·

فالعالم التركى فى غيبة عن حال العالم الحجازي ، والعالم الهندى فى غفلة عن شئون العالم الأفغانى وهكذا ..

بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم لا جامعة تجمعهم ولا صلة إلا مايكون بين أفرادالعامة لدواعخاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم والآخر ، أما فى هيئتكم الكلية فلا وحدة لكم ، بل لا أنساب بينكم ، وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها كأنه جزء منفصل أو عضو مبتور ·

تفخرون بأنه غلب على صفاتنا التعقل والتروى وانطلاق الفكر من الأوهام ، والعفة والسخاء والقناعة والدماثة ولين الجانب ، والوقار والتواضع ، وعظم الهمة والصبر . والحلم والشجاعة والإيثار والنجدة والسماحة والصدق والوفاء والأمانة وسلامة الصدر من الحقد والحسد ، والعفو والمروءة والحمية ، وحب العدالة والشفقة ·

نعم مَنّ الله علينا وهكذا كنا ، وأنتم أيها الأحفاد ماذا غلب على أكثركم غير السفه والقحة والبذاء والبله والطيش والتهور والجبن والدناءة والجزع والحقد والحسد والكبرياء والعجب واللجاج والسخرية والغدر والخيانة والكذب والنفاق والشح ·

أفبهذه الأخلاق تحبون أن تغلبوا ، وتعجبون كيف تسلبون أملاككم وتذلون أم بهذا ترومون اللحاق بنا وقد خالفتمونا سيرة وسيراً شيما وأخلاقا !!

هذا بعض ما تحس به أرواحنا من مناجاة أجدادنا لنا ، وما أطبق[1] أقوالهم هذه على الحق ، وما أقربها من الصواب والواقع ، أىّ بينة لنا على أننا خلف ذلك

١ ـ الصواب : أشد انطباق .. لأن الفعل خماسى ·

السلف . وهل يعقل لو ورثنا أخلاقهم ، وحافظنا على فضائلهم واقتفينا أثرهم ولم نحد عن سيرهم وسيرتهم .

نعم لو عملنا بعض ذلك هل كان يسهل سلب الميراث منا ، وأن يستبد بملكنا غيرنا أم بقينا نحن الوارثين ؟

إن دعوى حق الأحفاد فى ميراث الأجداد هى فى محكمة « الكون » ، والبينة التى يصدر من بعدها الحكم هى إثبات التحلى بفضائل السلف والتخلق بأخلاقهم والنسج على منوالهم والتزام ما لزموه من السنن وجروا عليه بالقول والعمل ، فعسى أن نوفق للإدلاء بتلك الحجة فتستقيم لنا المحجة ، إذ كفانا من الذل ما لاقينا ، ومن البلاء ما عانينا .

من العجيب الغريب ، وما يدعو إلى الحيرة ما نراه فى المسلمين ، فهم بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل فى ملكهم وولايتهم من البلدان ، وكلهم مأمورون بذلك لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين فى الجنس ولا المختلفين فيه ، وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام .

ومن فروضهم فى سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الارواح والأموال وركوب كل صعب واقتحام كل خطب ، ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم فى حال من الأحوال ، حتى ينالوا الولاية خاصة لهم دون غيرهم .

وبالغت الشريعة فى طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره لو جبت عليه الهجرة من دار حربه .

يحس كل مسلم لهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة وما يفرضه عليه الايمان ، وهو هاتف الحق الذى بقى له من إلهامات دينه ، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين فى هذه الأيام بعضهم فى غفلة عما يلم بالبعض الآخر ، ولا يألمون لما يألم له بعضهم .

فأهل بلوخستان كانوا يرون حركات الإنجليز وعبثهم فى أفغانستان ، ينظرون إلى ذلك لا يجيش لهم جأش ولا تبدو لهم نعرة على إخوانهم .

والأفغانيون كانوا يشهدون تداخل الإنجليز فى بلاد فارس ولا يضجُّون ولا يتململون ، وكلاهما يعلمان ما فى الهند من ظلم وجور وفتك وسلب ولا يتحركون ، وإن جنود الإنجليز تضرب فى الأراضى المصرية ذهابا وإيابا تقتل وتفتك ولا ترى نجدة فى نفوس إخوانهم المشرفين على مجارى تلك الدماء والناظرين إلى تلك المصائب والبلاء .

نعم هذا ما يجرى من الأمور ، وساء معه المصير ، وإن النفس لتتوق إلى معرفة الأسباب وإن كان الإتيان على ذكرها مما يطول ، فلا بأس من الإلمام بها على وجه الإجمال .

لا ريب أن الأفكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانات النفسية وإن كانت هى الباعثة على الأعمال ، وعن حكمها تصدر ، ولكن الأعمال هى التى تثبتها وتقويها وتطبعها فى الأنفس وتطبع الأنفس عليها ، حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق وتترتب عليه الآثار التى تلائمها .

نعم إن الإنسان إنسان بفكره وعقائده ، إلا أن ما ينعكس من مرايا عقله من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثر ، فكل شهود يحدث فكرا ، وكل فكر يكون له أثر فى داعية يدعو إليها ، وعن كل داعية ينشأ عمل ثم يعود من العمل إلى الفكر دور يتسلسل ولا ينقطع الانفعال بين الأعمال والأفكار مادامت الأرواح فى الأجساد ، وكل قبيل هو للآخر عماد ، آخر الفكر أول العمل ، وأول العمل آخر الفكر .

إن للأخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها فى الاعتصاب والالتحام ، لولا ما تبعث عليه الضرورات وتدعو إليه الحاجات من تعاون الأنسباء وأهل العصبية على نيل المنافع ، وتضافرهم على دفع المضار .

وبعد كرور الأيام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذا يصرفه فى آثارها بقية الأجل ، ويكون انبساط النفس لعون القريب والتأثر لما يصيبه من نكبة أو ضيم جاريا مجرى الوجدانيات الطبيعية كالإحساس بالجوع والعطش والشبع وما أشبه ، بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعده « طبيعيا » ولو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها ولم تدْعُ ضروراتُ الحياة والظروف إلى ما يمكن تلك الصلة ويؤكدها أو وجد صاحب النسب قوة ومظاهرة فى غير أهل نسبه ، أو ألجأته الضرورة إلى ذلك ذهب أثر الرابطة النسبية ، ولم يبق منها إلا صورة فى الذهن تجرى مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات ٠

وعلى هذا المثال من رابطة النسب وهى أقوى الروابط بين البشر يكون القول والأمر فى سائر الاعتقادات التى لها أثر فى الاجتماع الإنسانى من حيث ارتباط بعضه ببعض ٠

إن لم يلازم العقد للرابطة ضرورة أو قوة الداعية إلى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلا من أشكالها فلن يكون منشأ لآثاره ، وإنما يتهيأ له فى الصورة العلمية رسم يلوح فى الذاكرة عند الالتفات كما هو فى المحفوظات كما قدمنا ٠

بعد تدبر هذه الأصول والنظر فيها بعين الحكمة يظهر لك السبب فى سكون المسلمين إلى ما هم فيه مع شدتهم فى دينهم والعلة فى تباطئهم عن نصرة إخوانهم وهم أثبت الناس فى عقائدهم ، لأنه لم يبق من جامعة بين المسلمين فى الأغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال التى من آثارها جلب المنافع ودفع المضار ، وما يستلزم ذلك من تعارف وتواصل وتبادل بالشعور والتحسس ٠

وقد انعكس كل ذلك ولم يبق إلا تدابر وتقاطع وجفاء إلى غير ذلك مما سبق ذكره فى حالة الأمة وعلمائها ٠

وكما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين ٠

أليس بعجيب أن لا يكون سفارة للعثمانيين فى مراكش ، ولا لمراكش عند العثمانيين ؟

أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين فى المشرق ؟

هذا التدابر والتقاطع وإرسال الحبال على الغوارب ، عَمّ المسلمين حتى صح أن يقال : لا علاقة بين قوم منهم وقوم ، ولا بلد وبلد إلا طفيف من الإحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم ، وربما يتعرفون بمواقع ممالكهم وأمصارهم بالصدفة إذا التقى بعض ببعض فى موسم الحج العام ، وهذا النوع من الإحساس هو الداعى إلى الحزن وانقباض الصدر ٠

كانت الملّة كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه فتداعت للتناثر والانحلال وكاد كل جزء يكون على حدة وبمثل هذه الحال تضمحل هيئة الجسم ٠

بدأ هذا الانحلال والضعف فى روابط الملة الإسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع العباسيون - بعد المأمون - باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه فى الدين والاجتهاد فى أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضى الله عنهم ٠

كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة حتى بلغ إلى حد لم يسبق له مثيل فى دين من الأديان ، ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت إلى اقسام خلافة عباسية فى بغداد ، وخلافة فاطمية فى مصر والمغرب ، وأموية فى أطراف الأندلس ٠

تفرقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة إلى وظيفة الملك ، فسقطت هيبتها من النفوس وخرج طلاب الملك والسلطان يستجمعون لأنفسهم وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة ، وزاد الاختلاف شدة ، وتقطعت

الوشائج بينهم بظهور جنكيز خان وأولاده وتيمور لنك وأحفاده ، وإيقاعهم بالمسلمين قتلا وإذلالاً ، حتى أذهلوهم عن أنفسهم ، فتفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعا ، وانفرد كل بشأنه وانصرف إلى ما يليه فتبدد الجمع إلى آحاد وافترق الناس فرقا ، كل فرقة تتبع داعيا ، إما إلى ملك أو مذهب ، فضعفت آثار العقائد التى كانت تدعو إلى الوحدة وتبعث على اشتباك الوشيجة وتقوية الرَّابطة ، وصار ما فى العقول منها صورا ذهنية تحويها مخازن الخيال ، وتلخصها الذاكرة عند عرض ما فى خزائن النفس من المعلومات ، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة تأخذ بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر إلى المسامع على طول الزمان ، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت كما يكون على الأموات من الأقارب لا يدعو إلى حركة لتدارك النازلة ولا دفع الغائلة .

وكان الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التى شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذى وقع فى الملك بتمكين الاتفاق الذى يدعو إليه الدين ، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق فى مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطا لروح حياة الوحدة ، ويصير كل واحد منها كحلقة فى سلسلة واحدة ، إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر ، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ فى جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ، ويجعلون لهم مراكز فى أقطار مختلفة يرجعون إليها فى شئون وحدتهم ، ويأخذون بأيدى العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر ، ويجمعون أطراف الوحدة إلى معقد واحد يكون مركزه فى الأقطار المقدسة وأشرفها « معهد بيت الله الحرام » حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من فوارع العيون ، والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل ، وتطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ، ويكون كذلك أدعى إلى نشر العلوم وتنوير الأفهام وصيانة الدين من البدع المضرة ، فإن أحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف .

فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك الأمر ومحو بدعته قبل فشوها بين العامة ، وليس بخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها واقتدارها على رفع ما يغشاها من النوازل •

وإنى لآسف غاية الأسف إذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهى أقرب الوسائل ، وإنى لأرجو أن تهب إلى هذه الوسيلة أرباب العزة والحمية ويؤازرهم ملوك المسلمين وعلماؤهم فيؤيدونهم بما يوحد جمعهم ويجمع شتيتهم ، وما هو بالعسير أن يبثوا الدعاة إلى ما يبعد عنهم ، ويصافحوا بالأكف من هو على مقربة منهم ، ويتعرفوا أحوال بعضهم[1] فيما يعود على دينهم ودنياهم بالفائدة ، أو ما يخشى أن يمسهم بضرر ، ويكونوا بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة والرمق باق والآمال مقبلة وإلى الله المصير[2] •

هكذا يحمّل جمال الدين الأفغانى علماء الإسلام التبعة ، وهكذا يرى أن العلاج فى أيديهم طرف منه •

ولا يكتفى جمال الدين بأن يوضح عيوب العلماء ويظهر تقصيرهم وقصورهم ، كما يحلو لكثير من الناس أن يفعلوا ، وإنما يضم إلى ذلك اقتراحه للعلاج ، وتصوره للخروج من هذه الحال •

وكأنى به يقترح ما يقترح من علاج ليسد باب التعلل على من يريد أن يتعلل فيقعد عن واجبه وينصرف عن عمله •

يقول جمال الدين : « ••• هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة وأملاكنا ممزقة ، والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقى فى أيدينا ثم لا نبدى حركة ، ولا نجتمع على كلمة ، وندعى مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد ؟

واخجلنا لو خطر هذا ببال مسلم يجرى على لسانه شاهد الإسلام •

---

١ ـ الصواب : يتعرفوا أحوال بعضهم بعضا •

٢ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى : ٢٠٣ ـ ٢١٠ •

إن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة فى حفظ حوزة الإسلام ، كل هذه صفات كامنة فى نفوس المسلمين قاطبة ، ولكن دهاهم بعض ما أشرنا إليه فى أعداد[١] ماضية ، فألهاهم عما يوحى به الدين فى قلوبهم وأذهلهم أزمانا عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوانحهم ، فسهوا وما غووا ، وزلوا وماضلوا ، ولكنهم دهشوا وتاهوا ، فمثلهم كمثل جوَّاب المجاهيل من الأرض فى الليالى المظلمة ، كل يطلب عونا وهو معه ولكن لا يهتدى إليه .

وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لإيصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض ، لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم فى أقرب وقت ، وليس بعسير عليهم ذلك بعد ما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع ، وفى تلك البقعة يحشر الله من جميع رجال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم ، فما هى إلا كلمة تقال بينهم من ذى مكانة فى نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض ، وتضطرب لها سواكن القلوب .

هذا ما أعدته لهم العقائد الدينية ، فإن أضفْتَ إليه ما أذاب قلوبهم من تعديات الأجانب عليهم ، وما ضاقت به صدورهم من غارات الغرباء على بلادهم ، حتى بلغت أرواحهم التراقى ، ذهبت إلى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حداً يوشك أن يكون فعلا ، وهو ما يؤيد الساعين فى هذا المقصد ، ويهيىء لهم فوزا ونجاحا بعون الله الذى ما خاب قاصده وهو ربى إليه أدعو وإليه أنيب .[٢]

---

١ ـ يقصد أعداد مجلة العروة الوثقى .

٢ ـ جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى : ١١٩ .

ج ـ التفرقة بين أبناء الأمة الواحدة

ما ترك جمال الدين سببا من أسباب فشل المسلمين فى عقد الوحدة بينهم إلا بحث عنه ، وما ورد على ذهنه احتمال فى هذا المجال إلا تحدث عنه ووضحه • وإذا كان أول الأسباب فى هذا الفشل هو بعد المسلمين عن الإسلام ، فإن تقصير العلماء والحكام وقصورهم عن التوجيه والتصدى للباطل فى مختلف صوره وأشكاله ، كان سببا ثانيا لا يقل فى صنع الفشل عن السبب الأول •

ينظر جمال الدين بعين المصلح المجدد فيرى من أسباب فشل المسلمين فى الوحدة تلك التفرقة التى ادخلت على الأمة الإسلامية ولم تكن منها ، وهى التفرقة المذهبية بين المسلمين ، فيتناول القضية من جذورها الأساسية ، ويرد هذه التفرقة إلى مصدريها الأولين : أهل السنة والشيعة ، فيخصصها بحديث يرفض فيه هذه القسمة : سنى وشيعى ، وينعى على من ينادون بها أو يروجون لها جهلهم وغفلتهم ، ويواجههم بما يحرج ويخجل من القول •

يؤكد جمال الدين أن قضية سنى وشيعى فرقة بين المسلمين لا مبررلها ، ويقرر أن مطامع الملوك وجهل الناس هو الذى أدى إلى هذه الفرقة •

وما دام الأصل فى المسلمين أنهم أمة واحدة ، تلقت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الله ، وطولبت باتباع سنة المعصوم صلى الله عليه وسلم فيما قال أو فعل أو أقر ، فإن التفرقة بين أبناء هذه الأمة خروج بتلك الأمة عن وحدتها •

المسلمون جميعا أمة واحدة ربهم واحد لا إله سواه ، ورسولهم محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، ودينهم الإسلام الذى أكمله الله وارتضاه للبشرية كلها دينا ونظاما ، وهم بهذا خير أمة أخرجت للناس ، واصطفيت لتكون الأمة الوسط ، هؤلاء المسلمون بهذه الصفات خاطبهم الله بقوله : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون [١] »

١ ـ سورة « المؤمنون » الاية : ٥٢

وبقوله سبحانه : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون [١] » فما ينبغى لهذه الأمة الواحدة أن تتفرق أو تختلف ، فإن فعلت فى عصر من العصور أو فى مكان من الأمكنة ، فإن السبب فى هذه الفرقة هو البعد عن الالتزام بهذا الدين بتحكيم الهوى واطراح ما أنزل الله من كتاب وما سَنْ نبيه عليه الصلاة والسلام من سنن وما شرع من منهاج ٠

وفى نفس الوقت فإن الداعين إلى هذه التفرقة ، أو أولئك الذين لا يقفون منها موقف التصدى هم أنفسهم من أسباب فشل الوحدة بين المسلمين ٠

وقف جمال الدين من قضية تفريق المسلمين شيعا وأحزابا ، موقف المسلم الواعى المدرك لأبعاد القضية ، الموقن بأن أسبابها هى البعد عن التمسك بالدين ٠

يقول جمال الدين فى قضية تفرقة المسلمين إلى سُنِّى وشيعى : « ظهر لآل البيت النبوى فى أوقات وأزمنة مختلفة ، أحزاب وشيع ، فمنهم من ضل كالمؤلهة ـ وهم يقولون بألوهية على بن أبى طالب ٠ومنهم المفضلة والغلاة فى محبة أهل البيت ، وقد دخل الاثنان تحت حكم من قال : « يهلك فينا أهل البيت اثنان : محب غالٍ وعذول قالٍ » ٠

أما المفضلة من الشيعة وهم يقلدون فى المذهب الإمام جعفر الصادق وهو من أكابر فقهاء أهل البيت ، فهذا الجمهور من المسلمين لمجرد تقليدهم للإمام جعفر ومغالاتهم فى حب الآل ، وتفضيلهم للإمام على ، لا يجب أن نخرجهم من عداد المسلمين ، ونجسم أمر هذه الفروق فى الفروع ، ونجعلها واسطة للتفرقة والنزاع فالخصام فالاقتتال ٠

تلك الأمور التى سهل وجودها جهل الأمة وسَفَه الملوك الطامعين فى توسيع ممالكهم ٠

فالملوك من السنيين هولوا ، وأعظموا أمر الشيعة لاستهواء العوام بأوهام غريبة ،

---

١ ـ سورة الأنبياء : الآية : ٩٢

وعزويات عجيبة على شيعة أهل البيت ليتسنى لهم بذلك تحزيب الأحزاب وتجييش الجيوش ، ليقتل المسلمون بعضهم بعضا ، بحجة الشيعة والسنية ، وجميعهم يؤمنون بالقرآن وبرسالة محمد صلى الله عليه وعلى آله •

أما مسألة تفضيل الإمام على والانتصار له يوم قتال معاوية وخروجه عليه ، فلو سلمنا أنه كان فى ذلك الزمن مفيدا أو ينتظر من ورائه نفع لإحقاق حق أو إزهاق باطل ، فاليوم نرى أن بقاء هذه النعرة والتمسك بهذه القضية ، التى مضى أمرها وانقضى مع أمة قد خلت ، ليس فيها إلا محض الضرر ، وتفكيك عرى الوحدة الإسلامية •

ثم قال : لو أجمع أهل السنة اليوم ووافقوا المفضِّلة من الشيعة ـ من عرب وعجم ـ وأقرّوا وسلموا بأن على بن أبى طالب كان أولى بتولى الخلافة قبل أبى بكر ، فهل ترتقى بذلك العجم ؟ أو تتحسن حال الشيعة ؟

أو لو وافقت الشيعة أهل السنة بأن أبا بكر تولى الخلافة قبل على بحق فهل ينهض ذلك بالمسلمين السنيين وينشلهم مما وقعوا فيه اليوم من الذل والهوان وعدم حفظ الكيان ؟

أمَا آن للمسلمين أن ينتبهوا من هذه الغفلة ومن هذا الموت قبل الموت ؟

يا قوم ـ وعزة الحق ـ إن أمير المؤمنين على بن أبى طالب لا يرضى عن العجم ولا عن عموم أهل الشيعة إذا هم قاتلوا أهل السنة ، أو افترقوا عنهم لمجرد تفضيله على أبى بكر ، وجميعهم لا يحسنون أمر دنياهم •• والناس أبناء ما يحسنون •• وكذلك أبوبكر . فلا يرضيه أن تدافع أهل السنة عنه ، وأن تقاتل الشيعة لأجل تلك الأفضلية التى مر زمنها ، والتى تخالف روح القرآن الآمر أن يكونوا « كالبنيان المرصوص » •

أما قضية التفضيل فلو استحقت هذا البحث بعد تلك الأجيال ، لكفى أن يقال لحل إشكالها : إن أقصر الخلفاء الراشدين عمرا تولى الخلافة قبل أطولهم عمرا » •

فلو تولى الخلافة بعد النبى صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب لما مات أبوبكر وعمر وعثمان ولم يتيسر لهم خدمة الإسلام والمسلمين بما استطاعوا أن يخدموه به رضوان الله عليهم أجمعين ·

حكمة الله فى خلقه : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » [١] ·

١ ـ محمد باشا المخزمى : خاطرات جمال الدين : ١١٣ ـ ١١٤

د ـ العصبيات والإقليميات

قضية العصبية والإقليمية من أبرز الأسباب التى أدت إلى فشل المسلمين فى إيجاد وحدة فيما بينهم فى أى عصر من العصور التى عاش فيها المسلمون فى فرقة واختلاف .

وقد وقف جمال الدين من هذه القضية موقف المسلم الذى لا يرى عصبية بين المسلمين إلا الإسلام ، العالم المسلم الذى يؤكد أن كل عصبية جنسية أو عرقية أو إقليمية لا تقدم للمسلمين إلا ما يضرهم وما يبدد شملهم ويمزق وحدتهم ، ويحاول جمال الدين أن يفلسف هذه المفاهيم ويتعمق فى فهم أبعادها ونتائجها وأسبابها .

يقول جمال الدين فى ذلك : « إن استقراء حال الأفراد فى كل أمة ، واستطلاع أهوائها يثبت لجلى النظر ودقيقه وجود تعصب للجنس ونعرة عليه عند الأغلب منهم ، وان المتعصب ليتيه بمفاخر بنيه ، ويغضب لما يمسهم حتى يقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطلب السبب ، ولا بحث فى علة هذا الوجدان حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية ، إلا أنه يبطل ظنهم ما نراه فى حال طفل ولد فى أمة من الأمم ثم نقل قبل التمييز إلى أرض أمة أخرى وربى فيها إلى أن عقل ، ولم يذكر له مولده فإنا لا نرى فى طبعه ميلا إليه بل يكون خالى الذهن من قبله ، ويكون مع سائر الأقطار سواء ، بل ربما كان آلف لمرباه وأميل إليه ، والطبيعى لا يتغير .

ولهذا لا نذهب إلى أنه طبيعى ، ولكن قد يكون من الملكات العارضة على الأنفس ترسمها على الواحها الضرورات ، فإن الإنسان فى أى أرض كان ، له حاجات جمة وفى أفراده ميل إلى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة إذا لم يصبغوا بتربية زكية ، وسعة المطمع إذا صحبها اقتدار تدعو بطبعها إلى العدوان فلهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء البعض الآخر ، فاضطروا بعد منازلة الشرور أحقابا طوالا إلى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة حتى وصلوا إلى الأجناس فتوزعوا أمما كالهندى والإنجليزى والروسى والتركمانى ونحو ذلك ، ليكون كل قبيل منهم بقوة

أفراده المتلاحمة قادرا على صيانة منافعة وحفظ حقوقه من تعدى القبيل الآخر ، ثم تجاوزوا فى ذلك حد الضرورة كما هى عادة الإنسان فى أطواره فذهبوا إلى حد أن يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه ، علما بأنه لابد أن يكون جائرا إذا حكم ولئن عدل فإن فى قبول حكمه ذُلاً تحس به النفوس وينفعل له القلب .

فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية تَبعَ هو الضرورة فى الزول كما تبعها فى الحدوث بلا ريب ، وتلجئ الضرورة للاعتماد على حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضاءل لعظمته العظماء وتخضع لسلطته النفوس بالطبع ، وتكون بالنسبة إليه متساوية الأقدام ، وهو مبدأ قهّار السموات والأرض ، ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه مساهما ومشاركا للكافة فى الاستكانة والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين ، فإذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى ، وأيقنت بمشاركة القائم على أحكامه لعامتهم فى الرضوخ لما أمر به ، اطمأنت الأنفس فى حفظ الحق ، ودفع الشر إلى صاحب هذه السلطة المقدسة ، واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة إليها ، فيمحى أثرها من النفوس والحكم لله العلى الكبير ..

هذا هو السر فى إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ، ورفضهم أى نوع من أنواع العصبيات ماعدا عصبيتهم الإسلامية ، فإن المتدين بالدين الإسلامى متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه ويلتفت ويعرض من الرابطة الخاصة إلى العلاقة العامة وهى علاقة المعتقد لأن الدين الإسلامى لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق إلى الحق فقط ، وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى إلى عالم أعلى ، بل كما كانت كافلة لهذا ، جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد وبيان الحقوق كليها وجزئيها ، وتحديد السلطة الوازعة التى تقوم بتنفيذ المشروعات وإقامة حدود وتعيين شروطها حتى لا يكون القابض على زمامها إلا من أشد الناس خضوعاً لها ، ولن ينالها بوراثة ولا امتياز فى جنس أو قبيلة أو قوة بدنية أو ثروة مالية ، وإنما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضاء الأمة فيكون الوازع عند المسلمين فى الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية التى لا تميز جنس وجنس واجتماع آراء الأمة ، وليس للوازع أدنى امتياز عندهم إلا لكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفع عنها ، وكل

فخار تكسبه الأنساب ، وكل امتياز تفيده الأحساب لم يجعل له الشارع أثرا فى وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض ، بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة ممقوتة على لسان الشارع ، والمعتمد عليها مذموم والمتعصب لها ملوم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية » والأحاديث النبوية والآيات المنزلة متضافرة على هذا ، ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة فى التقوى ـ اتباع الشريعة ـ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ..

ومن ثم قام بأمر المسلمين فى كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال من لا شرف له فى جنسه ولا امتياز له فى قبيلة ولا وَرِثَ الملك عن آبائه ولا طلب بشىء من حسبه ونسبه ، وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعة للشرع وعنايته بالمحافظة عليه .

وإن بسطة الملك فى الوازعين من المسلمين كان الله يسديها إليهم على حسب امتثالهم للأحكام الإلهية واهتدائهم بهديها ، وتجردهم من الاعتلاء الشخصى ، وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق غيره فى أبهة ورفاهية معيشة وأن يستأثر على المحكومين بخط زائد رجعت الأجناس إلى تعصبها ووقع الاختلاف وانقبضت سلطة ذلك الوازع .

هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن لا يعتقدون برابطة الشعوب وعصبات الأجناس وإنما ينظرون إلى جامعة الدين ، لهذا ترى العربى لا ينفر من سلطة التركى ، والفارسى يقبل سيادة العربى .. والهندى يذعن لرئاسة الأفغانى ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض .

وإن المسلم فى تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل مادام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهبا مذهبها .

نعم إذا شذ أو حاد فى سيره عنها وطلب الإمرة بما ليس من حقه انصدعت منه القلوب وانحرفت عن محبته النفوس وأصبح وإن كان وطنيا فيهم أشنع حالا من الأجنبى عنهم .

إن المسلمين اختصوا من بين أرباب الأديان بالتأثر والأسف ، عندما يسمعون بانفصال بقعة إسلامية عن حكم إسلامى بدون التفات إلى جنسها وقبيلها .

ولو أن حاكما صغيرا بين قوم مسلمين من أى جنس كان اتبع الأوامر الإلهية وثابر على رعايتها وأخذ الناس بحدودها وضرب بهم مع المحكومين فى الخضوع لها ، وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة لأمكنه أن يجوز بسطة فى الملك وعظمة فى السلطان وأن ينال الغاية من رفعة الشأن فى الأقطار المعمورة بأرباب هذا الدين ولا يتجشم فى ذلك أتعابا ولا يحتاج إلى بذل النفقات ولا تكثير الجيوش ولا مظاهرة الدول العظيمة ، ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية ، ويستغنى عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الأصول الأولى من الديانة الإسلامية القويمة ، ومن سيره هذا تبعث القوة وتتجدد لوازم المنعة .

أكرر القول بأن السبب هو أن الدين الإسلامى لم تكن وجهته كوجهة سائر الأديان إلى الآخرة فقط ، ولكن مع ذلك أتى بما فيه مصلحة العباد فى دنياهم وما يكسبهم السعادة فى الدنيا والنعيم فى الآخرة وهو المعبَّر عنه فى الاصطلاح الشرعى « بسعادة الدارين » وجاء بالمساواة فى أحكامه بين الأجناس المتباينة والأمم المختلفة .

إن بعض المسلمين يعز عليهم الصبر أحيانا ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم وخروجهم فى معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية فيلجئون للدخول تحت سلطة أجنبية ويسعون إليها منوَّمين مغرورين ، على أن الندم يأخذ بأرواحهم عند أول خطوة يخطونها فى هذا الطريق ، فمثلهم كمثل من يريد الفتك بنفسه حتى إذا أحس بالألم رجع واسترجع .

وإن ما يعرض على الممالك الإسلامية من الانقسام والتفريق إنما يكون منشؤه قصور الوازعين وحيدانهم عن الأصول القويمة التى بنيت عليها الديانة الإسلامية ، وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الأقدمين ، فإن منابذة الأصول الثابتة ، والتحول من المناهج المألوفة أشد ما يكون ضررها بالسلطة العليا ، فإذا رجع الوازعون فى الإسلام إلى قواعد شرعهم ، وساروا سيرة الأولين السابقين لم يمض قليل من الزمان إلا وقد آتاهم الله بسطة فى الملك وألحقهم فى العزة بالراشدين أئمة الدين [١] ..

---

١ ـ السابق : ٢٧٠ ـ ٢٧٢

ويدرك جمال الدين بفهم المصلح وفقه العالم النافذ البصيرة أن علاج الأمة الإسلامية من كل داء من أدوائها هو العودة إلى الأخذ بما جاء فى القرآن الكريم من هداية ، فينادى على الأمة الإسلامية قائلا : « القرآن وتعاليمه ودين الإسلام ومن دان به ، والسيرة المحمدية ومن عمل واقتدى بها من الأصحاب ، لو أمكن للناس أن يعملوا بها لتوفرت لديهم السعادة وأنواع الخير ، ولخف عنهم كثير من الويل والشر ٠

أقول هذا وعزة الحق وأنا غير متحيز ولا منتصر للإسلام على غير هدى ، ولا يداخلنى بمعتقدى هذا أدنى عامل من عوامل التعصب ٠

لذلك أقول ثم أقول : القرآن القرآن ، وإنى لآسف إذ دفن المسلمون بين دفيته « الكنوز » وطفقوا فى فيافى الجهل يفتشون عن الفقر المدقع ٠ خالفوه فى كل ما أمر ، وعملوا عكس ما قال ، حتى كأنما القرآن أمرهم بالاختلاف وحذرهم من الائتلاف ، وحثهم على انتقاضهم على أنفسهم ، وتشتت كلمتهم ، وأن لا يعتصموا بحبل الله جميعا ، بل يتفرقوا ليفشلوا وتذهب ريحهم !!! (١) ٠٠

هذه صيحة جمال الدين فى الأمة الإسلامية لتحيا بالقرآن ولتتحد فى ظله ولتضم صفوفها تحت رايته ، وليكونوا كما أراد لهم ربهم سبحانه ، حيث يقول : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » ٠٠

---

١ ـ السابق : ٩٩

٣ ـ جمال الدين والجامعة الإسلامية

كان جمال الدين الأفغاني وسيظل ـ فى نظر من يعنون بدراسة الظروف السياسية للعالم الإسلامى فى الفترة التى عاشها جمال الدين ـ هو صاحب فكرة الجامعة الإسلامية وواضع لبناتها الأولى ، وأهم الدعاة إليها وأكثرهم إخلاصا وتفانيا من أجلها .

بل يعد جمال الدين أستاذا ومعلما للداعين إلى الجامعة الإسلامية فى عصره بما توفر له من نظر عميق وفهم دقيق للظروف التى أحاطت بالعالم الإسلامى آنذاك ، تلك الظروف التى جعلت من بلدان العالم الإسلامى أغلبه مناطق صراع بين أبناء العالم الإسلامى وأعدائهم من الأجانب الصليبيين الزاحفين على بلاد المسلمين بروح صليبية تتخذ من الحيلة والمكر والبطش وسائل تستولى بها على خيرات بلاد المسلمين وتقضى على معنوياتهم ، وتباعد بينهم وبين دينهم ومنهاجه فى الحياة ، وتجعل من أهم أهدافها تفريق هذا العالم الإسلامى وتمزيق صفوفه والقضاء على كل عنصر من عناصر الوحدة أو الاتحاد بين أبنائه ..

تلك الظروف هى التى جعلت جمال الدين يرى الخلاص من هذا العدو الغاصب ومن هذه الفرقة المضيِّعة فى الجامعة الإسلامية .

ومن الحق أن نقول : إن الجامعة الإسلامية بمفهومها الواسع ومعناها الإسلامى الأصيل وهو وحدة المسلمين فى ظل القرآن الكريم ، كانت وستظل هدف كل جيل من أبناء الأمة الإسلامية يعيش ظروف فرقة وانقسام .

فلقد ذاقت الأمة الإسلامية حلاوة الوحدة وجنت أطيب ثمارها منذ زمن باكر فى تاريخ الإسلام فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى حياة خلفائه الراشدين المهديين من بعده ، وفى فترات زمنية عديدة على مر التاريخ الإسلامى ، وفى ظل

عديد من الحكام المسلمين الذين استطاعوا أن يهيئوا لأبناء الأمة الإسلامية أسباب الوحدة •

من الإنصاف أن نقرر ذلك ، ومن الإنصاف أن نقول : إن الرغبة فى ايجاد هذه الوحدة والجامعة بين المسلمين والعمل من أجلها كان على يد جمال الدين وفى دعوته صوتاً جديدا ونغمة غير مألوفة فى عالم إسلامى يقع كله أو جله فى أيدى أعدائه من الصليبيين •

نعم : سَبق جمال الدين بدعوة إلى جامعة إسلامية فيما دعا إليه الإمام محمد بن عبدالوهاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ الموافق ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢ م) حيث كان يؤكد فى دعوته على وجوب وحدة المسلمين ، غير أن الفترة التى عاشها جمال الدين : (١٢٥٤ ـ ١٣١٥ هـ الموافقة ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م) والتى فصل بينها وبين دعوة محمد بن عبدالوهاب أكثر من قرن من الزمان ، هذه الفترة بين الرجلين أكدت لجمال الدين أن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية قد فترتْ وسكت صوتها ، فألهب ذلك جمال الدين وأثار حماسه ليجدد الدعوة ويشحذ العزيمة ويجعل الجامعة الإسلامية هدفه الكبير •

وإذا كانت دعوة محمد بن عبدالوهاب لم تلق من الرواج والامتداد فى الزمن ما يجعلها تظل محتفظة بحيويتها وتدفقها فى واقع المسلمين حتى تصل إلى الوقت الذى عاش فيه جمال الدين ، فإن أمر الطرق الدينية التى أنشئت بعد دعوة محمد بن عبدالوهاب والتى كان من أهم ما تدعو إليه توحيد الأمة الإسلامية وجمع كلمتها ، كالطريقة السنوسية ـ على قصور فيها ـ والطريقة المهدوية ـ على انحراف وخروج فيها ـ والنقشبندية ـ على قصور فيها ـ وغير هذه الطرق فى تلك الفترة كثير ، إن أمر هذه الطرق لم يكن خافيا على جمال الدين ولا غائبا عن تصوره ، وإنما كان يدرك أن هذه الطُرُق بما تدعو إليه ليست الطريق الصحيح الموصل إلى إيجاد جامعة بين المسلمين تتصدى لهذا التيار الصليبى الجارف الذى يمثله أعداء الأمة الإسلامية من الأوروبيين الصليبيين ، والذى يستهدف القضاء على وحدة المسلمين تمهيدا للقضاء عليهم •

عاش جمال الدين للجامعة الإسلامية ولوحدة المسلمين وجمع كلمتهم ، ما يشك فى ذلك واحد ممن عرفوا الرجل ولا واحد ممن قرأوا سيرته ، المسلمون وغير المسلمين فى هذه المعرفة سواء .

يقول المستشرق الأمريكى لوثروب ستودارد فى كتابه « حاضر العالم الإسلامى » عن جمال الدين الأفغانى وجهوده فى مجال إيجاد جامعة إسلامية تجمع بين المسلمين يقول :

« كان جمال الدين يعامل سجيته وطبعه وخلقه ، داعيا مسلما كبيرا فكأنه على وفور استعداده ومواهبه إنما خلقه الله فى المسلمين لنشر الدعوة فحسب ، فانقادت له نفوسهم وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم ، فليس هناك من قطر من الأقطار الإسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين إلا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية لا تخبو نارها ولا يتبدد أوارها .

وكان يختلف عن السنوسى منهاجا ، فجمال الدين انكب على السياسة وشئونها وذاك على علوم الدين وترقيتها .

غير أن السيد جمال الدين الأفغانى كان أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة فى الشرق الإسلامى ، وتمثل عواقبها فيما إذا طال عهدها وامتدت حياتها ورسخت فى تربة الشرق ، وأدرك شؤم المستقبل وما سينزل بساحة الإسلام والمسلمين من النائبة الكبرى ، إذا لبث الشرق الإسلامى على حال مثل حاله التى كان عليها .

فهبَّ جمال الدين يضحى بنفسه ويفنى حياته فى سبيل إيقاظ العالم الإسلامى وإنذاره بسوء العقبى ، ويدعوه إلى إعداد ذرائع الدفاع لساعة يصيح فيها النفير .

فلما اشتهر شأن جمال الدين خشيت الحكومات الاستعمارية أمره وحسبت له ألف حساب ، فنفته بحجة أنه هائج المسلمين ، ولم تخَف دولةٌ جمالاً وتضطهده مثل ماخافته واضطهدته الدولة البريطانية، فسجنته فى الهند مدة ، ثم أطلقت سراحه فجاء

إلى مصر حوالى سنة ١٨٨٠ م وكانت له يد فى الثورة العرابية التى أوقدت نارها فى وجه الغربيين •

فلما احتل الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢ م نفوا جمالا للحال ، فزايل مصر وأنشأ يسيح فى مختلف البلدان حتى وصل إلى القسطنطينية ، فتلقاه عبدالحميد بطل الجامعة الإسلامية بالمبرة والكرامة ، وقربه منه ورفع منزلته فسحر جمال الدين السلطان الداهية بتوقد ذكائه ونفسه الكبيرة ، فقلده السلطان رياسة العمل فى سبيل الدعوة للجامعة الإسلامية •

ويغلب أن ما ناله السلطان عبد الحميد من النجاح فى سياسته فى سبيل الجامعة الإسلامية إنما كان على يد جمال الدين المتوقد الهمة المشتعل العزم •• [١] •

ثم يلخص ستودارد جهود جمال الدين فى مجال دعوته وعمله من أجل الجامعة الإسلامية فيقول : « وهاك ملخص تعاليم جمال الدين » • العالم النصرانى على اختلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسا هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص ، فجميع الدول النصرانية متحدة معاً على دك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا •

الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل •

فالنصرانية لم يزل التعصب مستقرا فى عناصرها متغلغلا فى أحشائها ومتمشيا فى كل عرق من عروقها ، وهى أبدا ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى الممقوت •

وحقيقة هذا الأمر ونتيجه واقعتان فى كثير من الشئون الخطيرة والمواضع

---

١ ـ لو ثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى : ١/٣٠٥ ـ ٣٠٦

الكبرى ، حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الإسلامية مستوية مع الأمم النصرانية .

تنتحل الدول النصرانية أعذاراً لها فى كرِّها وهجومها وعدوانها على الممالك الإسلامية وإذلالها وإكراهها بقوها : إن الممالك الإسلامية هذه إنما هى من الانحطاط والتدلى بحيث لا تستطيع أن تكون قوامة على شئون نفسها بنفسها .

وفوق جميع هذا ، فهذه الدول النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية وتتذرع بألوف الذرائع من نواح أخرى ، حتى بالحرب والحديد والنار ، للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون فى بلادهم وديارهم فى سبيل الإصلاح والنهضة .

جميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عداء الإسلام ، وروح هذا العداء متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهدا خفيا مستترا متواليا لسحق الإسلام سحقا .

تأخذ النصرانية شواعر [1] كل مسلم وآماله ورغباته التى تجول فى صدره .. ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء ، فإن ما يدعوه الفرنجة عندنا فى الشرق تعصبا مذموما محرما هو عندهم فى بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة والقومية المقدسة والوطنية المعبودة ، وإن ما يدعونه عندهم فى الغرب إباءة النفس والشمم والشرف الوطنى والعزة القومية يعدونه فى الشرق غلوا مكروها وإفراطا فى حب الوطن ضارا ومقتا وشنأة للأجنبى الغربى [2] .

وجميع هذا يوضح أن العالم الإسلامى يجب عليه أن يتحد اتحادًا دفاعيا عاما ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الذياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى ، إنما يجب عليه اكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته [3] .

١ ـ الصواب : مشاعر ولعله خطأ من الناقل .

٢ ـ منقول من مقال بتوقيع « × » موسوم بـ « الجامعة الإسلامية والجامعة التركية » نشر فى مجلة العالم الإسلامى فى مارس سنة ١٩١٣ م . ويقول كاتبه : إنه استقاه من مسلم ثقة كبير المنزلة والشأن .

٣ ـ لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى : ١ : ٣٠٦ ـ ٣٠٧

وبعد أن ينقل ستودارد تعاليم جمال الدين وجهوده وكلماته من أجل الجامعة الإسلامية يعلق على ذلك قائلا :

« هذه دعوة جمال الدين على الإيجاز ، التى أفنى حياته فى سبيل نشرها بالبلاغة الساحرة والحجج الدامغة ، فكانت كالغيث الجود أصاب التربة الجدباء ·

ولا عجب أن يكون جمال الدين ذلك الرجل الموقظ الكبير وتكون كل نَسْمَةٍ نفخها فى المسلمين عاصفة زعزعا ·

وقد بات اعتداء الدول الفرنجية وعدوانها وبغيها منتشرا فى كل قطر من أقطار العالم الإسلامى ، فتفاقم الخطب واشتد البلاء [١] ·

وبعد : فتلك نظرة جمال الدين للجامعة الإسلامية وهذه كلماته فيها وهى كلمات إذا ضممناها إلى ما تحدثنا فيه فى بداية هذا الفصل عن جمال الدين والوحدة الإسلامية ، أخذنا من مجموع الأحاديث هنا وهناك صورة شاملة متكاملة توضح لنا فى غير لبس ولا خفاء ، أن جمال الدين كان يرى وحدة المسلمين فى شكل جامعة ردًا حاسما ومفيدا على أطماع الغربيين من الصليبيين فى بلاد المسلمين ، لهذا راح يدعو إلى الوحدة والجامعة فى ظل القرآن الكريم ويجوب بدعوته أقطار العالم الإسلامى وبخاصة ما هو واقع منه تحت نير الاستعمار ·

---

١ ـ السابق : ٣٠٨/١

الفصل الثانى :

مقاومة أعداء الإسلام والتصدى لهم

وفيه :

١ ـ تمهيد

٢ ـ الإنجليز والإسلام ٠

٣ ـ سياسة انجلترا فى الشرق الإسلامى ٠

٤ ـ الفرنسيون والإسلام ٠

٥ ـ المستعمرات والمستعمرون ٠

٦ ـ جمال الدين يستعدى العثمانيين على الإنجليز ٠

٧ ـ جمال الدين يستعدى المصريين على الإنجليز ٠

٨ ـ جمال الدين يقارن بين الشرقى والغربى ٠

مقاومة أعداء الإسلام والتصدى لهم

تمهيد :

مايشك دارس لسيرة جمال الدين الأفغانى فى أنه وجه عناية خاصة وبذل جهدا كبيرا فى التصدى لأعداء الإسلام ومقاومتهم ، فقد وقف جمال الدين جانبا كبيرا من فكره وكتابته لتعرية أولئك الأعداء وكشف زيفهم وما يتسترون به من خدع وأحابيل .

ولقد عاش جمال الدين فترة من الزمان كان فيها أعداء الأمة الإسلامية فى موقف الأقوياء أصحاب السلطة والنفوذ فى حين كان أبناء الأمة الإسلامية فى موقف الضعفاء الذاهلين عن واجبهم المغلوبين على أمرهم ، أحسّ جمال الدين بذلك وآلمه ، وأخذ على عاتقه أن يتصدى لهؤلاء الأعداء .

ومن عجب أن تكون هذه الفترة التى عاشها جمال الدين هى فترة تحالف القوى المتعددة ضد الأمة الإسلامية ، وفترة تكالب أوربا على نهب البلدان المسلمة التى تعيش فى كنف خلافة الدولة العثمانية ، بل الفترة التى استطاعت فيها دول أوربا أن تقتسم فيما بينها معظم العالم الإسلامى ، وأن تتحين الفرص للقضاء النهائى على دولة الخلافة .

وكان على رأس تلك الدولة الأوربية الحاقدة على الإسلام والمسلمين دولة انجلترا ، حيث أوشكت هذه الدولة أن تكون وريثا لمعظم أملاك دولة الخلافة العثمانية ، وريثا يرث بالمكر والحيلة ، والحرب والقتل مالا حق له فى إرثه بحال من الأحوال .

لذا لم يكن عجبا أن ينال الإنجليز من لسان جمال الدين وكتاباته وأحاديثه ماهم

جديرون به من مذمة وتجريح ، وكيف يسكت جمال الدين عن الإنجليز وخبيث سياساتهم ودنئ وسائلهم فى العالم الإسلامى وقد أخذ على نفسه أن يصلح وأن يجدد للأمة الإسلامية من أمر دينها ماتستطيع به أن تواجه أعدائها ؟

كيف يسكت جمال الدين عن الإنجليز وقد احتلوا بلاده « أفغانستان » فترة من الزمان ، خلفت مرارة فى حلوق المسلمين جميعا ؟

كيف يسكت جمال الدين عن الإنجليز وفضح سياستهم وكشف حاقد عدائهم للأمة الإسلامية وقد رأى الإنجليز يسيطرون على الهند ، ويعملون فيها ماوسعهم ضد الإسلام والمسلمين ؟ كيف يسكت عنهم وهم فى عداء المسلمين فى مصر والسودان مالا يقبله كريم ولا يرضى به مسلم ؟

كيف يسكت عنهم وهو يراهم يتحالفون مع فرنسا ، عدوهم التقليدى ، فى سبيل القضاء على دولة الخلافة العثمانية وتوزيع أملاكها فيما بينهم ؟

لم يهتم جمال الدين ـ وهو بصدد مقاومة هؤلاء الأعداء وفضح نواياهم ـ بشىء مثل ما اهتم بفضح نوايا الإنجليز فى مصر وفى الهند ، وفى كل مكان وجد لهم فيه مطمعا فيما يسمى بالشرق الإسلامى ، وماحلا لدهاة الساسة أعداء الأمة الإسلامية أن يسموه آنذاك « المسألة الشرقية » وفى الحق هى المسألة الإسلامية ، أوهى : كيف تزدرد البلدان الإسلامية ؟

وقف جمال الدين أمام هذا التيار الجارف فى حرب الإسلام والمسلمين ، ورأى أن دعوته الإصلاحية التى يدعو إليها وحركته التجديدية التى يقف نفسه عليها ، وأحاديثه ومقالاته التى ملأ بها الآفاق وأسمع بها الدنيا ، رأى أن كل ذلك لن يؤتى أكله إلا إن كانت هناك مقاومة لأعداء الإسلام ، وتغلب عليهم ، ورأى أن هذه المقاومة لن تكون مجدية ، وأن هذا التغلب على الأعداء لن يكون ، مالم تسبقه حملة واعية تستهدف كشف هؤلاء الأعداء وفضح لخبيث نواياهم ، وكشف لدنىء مخططاتهم ضد الإسلام والمسلمين .

ولقد كانت كلمات جمال الدين من هؤلاء الأعداء ـ وهم أصحاب الكلمة والنفوذ فى أغلب الحكومات المنسلمة فى الشرق الإسلامى كله ـ تكلفه من حريته ومن حركته شيئا كثيرا ، وكان غيره فى هذه الظروف يهادن ويعد ذلك مكرا بالعدو وحيلة عليه ، ولكن جمال الدين لم يهادن ولم يهدأ ولم يكف عن إعلان مايؤمن أنه الحق ، مهما كلفه من حياته أو من حريته ٠

ولقد دفع جمال الدين كثيرا من حريته ، وكثيرا من راحته ، فلقد ضيق الإنجليز عليه الخناق ، وطاردوه فى الهند وفى مصر ، وأخرجوه منهما منفيا مغلوبا على أمره ، مشيعا بغضب الحكام وسخطهم ، بل طاردوه فى كل مكان ذهب إليه ، وربما كانت لهم أصابع فى إفساد مابينه وبين شاه إيران ، وربما كانوا أصحاب الرأى فى حبسه فى فارس ، وأصحاب المشورة فى تحديد إقامته فى الآستانة بل ربما كانت لهم يد فى أن تنتهى حياته على تلك الصورة ٠

ولقد كان لهم بكل تأكيد يد فى تعطيل جريدة العروة الوثقى بعد أن منعوا دخولها فى كثير من بلاد المسلمين الخاضعة لنفوذهم ، وبالتأكيد كانت لهم يد فى تعطيل جريدة ضياء الخافقين التى تصدر فى انجلترا ، لأن جمال الدين ينشر فيها ، وبكل تأكيد كانوا أصحاب تدخل فى إفساد مابين جمال الدين وعدد من حكام المسلمين الذين غاضبوا جمال الدين وسخطوا عليه ٠

وكان جمال الدين يدرك كل هذا ويجد فيه أكثر من دليل ، لكنه لم يبال ولم ينظر إلى الأمور إلا من خلال منظاره هو : منظار المصلح المجدد الذى يؤمن بأن أكبر عقبة فى طريق إصلاح الأمة الإسلامية هم الإنجليز وكل عدو محتل لشبر أرض من بلاد المسلمين ، ومن هنا لم تقف رغباته الشخصية فى طريق ما يدعو إليه أبدا ، ولم يحرص على مال أو جاه ، وإن كان عرض عليه المال مرارا وعرض عليه الجاه فى أكثر من مكان ذهب إليه ٠

عين وزيرا للحربية وعرضت عليه رئاسة الوزراء ، وعرضت عليه رئاسة السودان أيام ثورة المهدى ، وعرض عليه غير ذلك ..

ولكن أنى لذلك أو أكثر منه أن يصرف المصلح عن إصلاحه أو يصد الحر الكريم عن دعوته وهدفه ؟

لطالما حاول الإنجليز احتواء جمال الدين ، ولكن روحه كانت أكبر بكثير من أن يحيط بها باعهم ، وأخلاقهُ كانت أجل بكثير من أن تشتريها أموالهم ، وعزيمته وارادته كانت أقوى بكثير من أن تلين لحيلهم وخداعهم ، ونزعته الإصلاحية التجديدية كانت أعتى من أن ينال منها حديدهم أو نارهم .

ولقد حلا لبعض الكاتبين عن جمال الدين الأفغانى أن يقيس اعماله وأفكاره بنتائجها [1] فأنحى عليه باللائمة بل اتهمه بأنه كان سببا فى أن يزيد الأعداء من تشديد قبضتهم على بلاد المسلمين .

والحق أن هذا القياس ظالم لجمال الدين من جانب ، ومجانب للصواب من جانب آخر ، فإن الذى كان يؤاخذ عليه جمال الدين هو السكوت عن أعداء الإسلام لاكشفهم وفضح نواياهم ، وأما قضية النتائج فليست فى أحسن الأحوال وأكثرها ملاءمة مضمونة أو محتومة ، كائنة ماتكون المقدمات .

---

١ ـ هو المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى كتابه : المجددون فى الإسلام .

٢ ـ الإنجليز والإسلام

من خلال ماعرف جمال الدين عن الإنجليز وسياستهم نحو العالم الإسلامى أيقن أنهم ألد أعداء الإسلام فى تلك الآونة ، وأدرك أنهم وراء كل شر يصيب بلدا من بلدان الإسلام فى الشرق كله ، ومن البديهى أن جمال الدين لم يكن وحده الذى يعرف هذه الحقائق ، ولكنه كان أجرأ العارفين على الجهر بهذه الحقائق وكشف أبعادها •

كتب جمال الدين تحت نفس العنوان الذى اخترناه هنا وهو : « الإنجليز والإسلام » يقول : « الحكومة الإنجليزية عدوة المسلمين عداء شديدا لالتهامها الممالك الإسلامية ، تغذ السير إلى آرابها منها سالكة جادتها المعهودة من اللين والمواربة والخديعة والمخاتلة ، فإن بلغ بها السعى حدا من الغرض فذلك ، وإن عجزت أخذت طريقا آخر لانتزاع قطعة من أيدى المسلمين بأية وسيلة ، وتسليمها لقوم من سواهم أياً كانوا ؛ كأن لها لذة فى نكاية أهل الدين ، وكأنها تبغى السعادة فى تذليلهم ومحو ما يكون من ملكهم، وكمال بهجتها فى أن تراهم أذلاء عبيدا لايملكون من أمرهم شيئا •

وفى تصانيف « جلادستون » وخطبه الضافية أيام الحرب العثمانية مع الروس ، ومقالات أشباهه نبأ بل أصدق الأنباء عما تكنه صدور الإنجليز من العداوة للمسلمين •

لهذه الحكومة طمع التمكن فى أرض مصر ، ولها من كل حبل قبضة ، وفى كل سبيل خطوة لتنال مطمعها •

وهمتها اليوم فى إرضاء بعض الدول على استبدادها بالأمر فى مصر بما تسول لسياستها من أوهام المنافع وخيالات الفوائد ، وفى تثبيط بعضها بالمراوغات

والتهديدات ، فإن بلغت همتها مبلغ القصد فهو خير ماتطلب ، وإلا عقدت عزمها على نقل الولاية فى مصر من أيدى المصريين والعثمانيين إلى أيدى أقوام آخرين ٠

هذا ماتشير إليه جريدة « الديلى نيوز » الوزارية الإنجليزية عند كلامها عن قناة السويس حيث تقول : يمكن القطع بحياد القناة على الأساس الموضوع فى برقية « اللورد جرانفيل » المرسلة إلى الدول فى ٣ يناير سنة ١٨٨٣ م ، وليست تلك الحيدة إلا حكما من أحكام النظام الذى وضعته الوزارة الإنجليزية ليكون قاعدة تقوم عليها هيئة الحكومة المصرية بعد جلاء العساكر عنها ٠

ولكن لا يرى الإنجليز فى حيدة القناة وحدها ضمانا صحيحا لوقاية مصر من غارة دولة أجنبية عليها ، ولا كفالة كافية لاستقلالها ، بل يمكن أن يذهب الرأى إلى ضرورة حيدة مصر نفسها ، بأن تحول حكومتها إلى حكومة سويسرية أو بلجيكية فى أفريقيا وتوضع تحت حماية الدول عموما ، فتؤمن الإغارة عليها من أحداها ٠ إذا آل الأمر إلى هذه الحالة « والعياذ بالله » فهل يسمح أرباب الحماية أو السيادة بتفويض أعمال الإدارة والقضاء والمالية للمصريين العارفين بشئون بلادهم ؟

كيف نظن هذا وقد سجل عليهم الإنجليز أنهم أضعف من أن يقوموا بعمل جزئى أو كلى فى خدمة أوطانهم ، وأن من الضرورى لحياتهم أن يكونوا آلة صماء فى أيدى غيرهم من الأوربيين ، وقد يعقب ذلك لو حصل تشكيل مئات من المجالس فى القطر المصرى ، كلها تشبه المحاكم المختلطة ٠

أما مجالس الفصل والقضاء ابتدائية واستئنافية فالأمر فيها بينٌ ، وأما إدارة الداخلية والمالية وفروعها فلا تستقل بها دولة من الدول ، فإن طبيعة الأمر تأباه ، فلا يتولى أعمالها إلا مجالس مؤلفة من أقوام مختلفة الأشكال واللغات متبائنى الحكومات ٠

ولو تفضل السائدون على المصريين عند بداية العمل لسمحوا بأن يكون فى كل مجلس واحد منهم إلى زمان ٠

أولئك الأعضاء الأجانب وهم نواب دولهم لايكون سيرهم إلا كما سار إخوانهم

من قبل ، كل منهم يستدعى من أبناء جلدته من يستخدمه فى وجه من وجوه الأعمال التى يولى النظر فيها وتقع بينهم المنافسات ، ثم تكون المحاباة ، كل يتغاضى عما يأتيه الآخر ليتغاضى الآخر عنه ، فلا تكون مدة حتى تضيق أرض مصر بالأجانب ولا يعود فيها مقر لوطنى .

هذا إلى مايتبعه من إقامة عسكر مختلط للمحافظة فى المدن والأقاليم ، فلا يبقى للمصريين إلا خسائس الأعمال يفلحون الأرض ويعانون الأعمال الشاقة ولكنهم أجراء عسفاء لغيرهم يؤدون ثمرات مايكسبون إلى من لا يعرفون ، ويخرجون عن جميع ماكانوا نالوه فى الأزمان الأخيرة من عهد محمد على إلى الآن .

ولا يمر زمن طويل إلا ويئولون إلى مآل وحشيىً أمريكا ينحسرون إلى بعض الأطراف القاصية عن العمران ، أو يندمجون مع الأجانب فلا يوقف لهم على أثر صحيح ، وتصير الأراضى المصرية مأهولة بأخلاط مختلفة كما فى أراضى أمريكا الجنوبية والشمالية ، ويقوم لفيف أولئك الأغراب مقام أبناء الأرض الصادقين وهذا مما لا يسر (وإن راق فى نظر بعض المباركين) .

وأملنا فى الدولة العثمانية أن تقوم على قدم ثبت عليها الأسلاف الأولون ، وتقدم بعزيمة ثابتة على المطالبة بحقوقها فى مصر وإعادتها إلى حالتها الأولى قبل التدخل الإنجليزى ، ثم تلقى بزمام الحكومة فيها إلى ذوى عزم من المصريين صيانة لحوزة الإسلام .

وفى الظن أن دولة روسيا لا تفوتها هذه الفرصة لمساعدة العثمانيين لتستميل إليها قلوبهم ، ولا تختلف عنها دولة فرنسا ، فإن مصالح الدولتين فى فتوحاتها بالبلاد الشرقية تقضى على السياسيين فيهما (إن كانوا كما يقال سياسيين) بالاتحاد مع العثمانيين »[1]

هكذا يكشف جمال الدين نوايا الإنجليز فى مصر ، ويفضح أساليبهم فى عداء

١ ـ جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى : ٣٦٩ ـ ٣٧١

الدولة العثمانية والمسلمين ، ويحمل العثمانيين التبعة فى التصدى لسياسة الإنجليز فى مصر ، ويستعدى على الإنجليز روسيا وفرنسا فى دهاء سياسى يحسد عليه فى ذلك الوقت .

وبالضرورة لم يكن غائبا عن جمال الدين أن روسيا وفرنسا وانجلترا جميعا وحدة مادام الأمر ضد الإسلام والمسلمين ، ولكنها السياسة والحكمة التى لجأ إليها عساه يفلح فى فك هذه الوحدة بين الأعداء .

ويدرك جمال الدين أن ساسة الإنجليز يخططون للاستيلاء على معظم البلدان الإسلامية ، فى حين يظهر بعضهم ، أو بعض من يوالونهم من الحكام المسلمين أن سياسة انجلترا تستهدف نوعا من المصلحة للمسلمين ، فيحاول جمال الدين أن يكون النذير لكل من خدعه ساسة الإنجليز عن نفسه ، أو لكل من سولت له نفسه أن يكون نصيرا لسياسة الإنجليز طمعا فى جاه أو كرسى حكم ، ثم تأتى الأحداث لتؤكد صدق نظر جمال الدين ، ولتقطع لكل من كان له قلب أو ألقى السمع إلى مايدور من أحداث فى العالم الإسلامى بأن الإنجليز أعداء المسلمين وإن أظهروا غير هذا العداء ، وأنهم يحبون للأمة الإسلامية الشر كل الشر وإن جادلوا عن باطلهم بما يوهم ضعاف العقول بأنه حق .

يكتب جمال الدين ليفضح مشاعر الإنجليز الحقيقة نحو المسلمين ، فيختار عنوانا ساخرا ، لعله من أسماء الأضداد ، بل هو من أسماء الأضداد حقا ، فيكتب مقالا بعنوان : « وداد الإنجليز للمسلمين » يقول فيه :

« يظهر من الرسائل والبرقيات الواردة من القاهرة أن الإنجليز وفقوا لإلهاب حرب صليبية بين الحبشة ومسلمى السودان ، والله يعلم ماذا تكون العاقبة إذا طار شررها .

ربما لا يوجد مسلم يعتقد بدين محمد إلا ويسعى ببذل روحه وماله لإحباط أعمال الإنجليز ورد كيدهم ، خصوصا مسلموا الهند المغرورون بخديعة حكامهم ودعواهم أن دولتهم نصيرة الإسلام وحليفة الدولة العثمانية .

فمما نقلته الأخبار بتاريخ ١٩ يونيو ١٨٨٤ م أن من أحكام الاتفاق الذى عقده « الأميرال هفيت » مع ملك الحبشة أن تكون مصوع مباحة لإرساء المراكب الحبشية ابتداء من شهر سبتمر ، فإما أن يكون هذا بنزعها من أيدى المصريين بل العثمانيين بل المسلمين وجعلها بلدا انجليزيا ، يبيحها الإنجليز لمن شاءوا ، ويمنعونها من أرادوا ، وإما أن يكون بتقديمها إقطاعا لملك الحبشة ، ومن أحكامه أن يأذن الملك للحامية المصرية أن تقيم حصونا على حدود مملكته ، حتى إذا هجم السودانيون عليها باعتبار أنها حصون مصرية تذرع الملك لمواثبتهم بدعوى أنها فى حدود بلاده ، فتشب الحرب ويحمى وطيسها بين مسيحى الحبش ومسلمى السودان ·

ولما كان غرض الحكومة البريطانية أن تضم مصر وملحقاتها إليها كما يدل عليه اهتمامها بمد سكة الحديد بين سواكن وبربر ، أخذت على الملك عهدا بقبول ماتحكم به ملكة انجلترا عند عروض مشاكل بينه وبين الحكومة المصرية ، وإن جرى الحكم على العرف ولم تلاحظ فيه الأصول السياسية ·

هذه هى الدولة التى بلغ الخافقين صوت دعواها أن من بين نيتها انقراض هذا الدين وأهله من وجه الأرض وإن لم يكن ذلك عليها بيسير » (١)

هكذا تعبث انجلترا ببلاد المسلمين وتوقع العداوة فيما بينهم ، وهكذا يقف جمال الدين بالمرصاد لكل تدبير تقوم به الحكومة الإنجليزية ضد الإسلام والمسلمين ·

وكأن جمال الدين قد أخذ على نفسه عهدا أن يتصدى للسياسة الإنجليزية المعادية للإسلام والمسلمين فى كل مكان وفى كل مجال ، فكلما حاول الإنجليز أن يحتالوا على المسلمين بخدعة انتصب جمال الدين يكشف هذه الخدعة ويحذر منها المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، ينشر ذلك فى جريدته : العروة الوثقى ، ويملأ به أسماع الذين يجالسونه أو يزورونه أو يتصلون به ، غير مبال فى ذلك بشىء ولا بأحد ، وتلك هى المقاومة العازمة القوية لكل عدو يكيد للإسلام والمسلمين ·

---

١ ـ السابق : ٣٨٩ ·

يحاول الإنجليز أن يتوددوا للمسلمين فى الهند بإدخال عدد كبير منهم فى دين الإسلام حتى يأمنهم الهنود ويصافوهم ، فيكشفوا لهم عن مدى ارتباطهم واستجابتهم لدعوة محمد أحمد المهدى فى السودان ، فيكون للإنجليز من ذلك فائدة مزدوجة فى الهند وفى السودان ، فيضربوا ضربتهم عن علم وبصيرة .

ويتنبه جمال الدين للحيلة ، فيسارع كاتبا فى التحذير منها ، فينشر مقالا فى العروة الوثقى تحت عنوان : « حيلة إنجليزية » يقول فيه :

« ذكرت كثير من الجرائد الهندية ، وفيها جريدة (أخبار عام) أن عددا وافرا من الإنجليز يدخلون فى دين الإسلام هذه الأيام » .

وكثرت الظنون فى هذا العارض الجديد، الإجماع على أن ليس الباعث عليه حسن العقيدة فى هذا الدين ، والإذعان لأحكامه القدسية ، وإنما القصد منه أن يخدعوا المسلمين بمشاكلهم ، ليركنوا إليهم ويحسنوا الظن بهم ، فيبيحوا لهم بما تكنه صدورهم من خواطر الميل إلى دعوة محمد أحمد السودانى .

وهذا يدل على أن هذه الدعوة أخذت من قلوب الهنديين وعظمت منزلتهم فيهم وتوقع الإنجليز شرا من فشوها وامتداد شهرتها بين مسلمى الهند ، وطلبوا للاحتياط هذه الوسائل .

وقالت بعض الجرائد : إن الخشية من الإذعان لدعوة السودانى ، قد انضم إليها الرهبة من قرب الروس لتخوم الهند ، فكان من مجموعها فزع شديد حمل الإنجليز على التودد للمسلمين ، والظهور فى مظاهر العدول المنصفين ، بل الأصفياء المخلصين ، حتى إن الاخلاص والعدالة تحمل الكثير منهم على التدين بالدين الإسلامى ليملكوا بذلك قلوب السذَّج ، ويمحصوا بعض الصدور من الحقد عليهم ، ويتقوا به شرًّا عاجلا أو آجلا . ولكن الصيف ضيعت اللبن » .[1]

ولعل أجمع ما كشف به جمال الدين خطط الإنجليز الرامية إلى الاستيلاء على

---

١ ـ السابق : ٣٨٧ .

بلاد المسلمين ، وأحابيلهم التى ينصبونها ليوقعوا فيها فرائسهم من المسلمين ، ومحاولاتهم المستميتة التى تستهدف إيجاد الإِحَنْ بين المسلمين ، لعل أجمع ماكتبه جمال الدين فى ذلك المجال مقاله ذاك الذى نشره فى العروة الوثقى بعد أن برئ من مرض ألم به ، والذى عنونه بقوله : « هؤلاء رجال الإنجليز وهذه أفكارهم » والذى جاء فيه :

« تأخر صدور الجريدة أياما لضرورة مامسّنا من ضعف فى المزاج مع مصادفة رداءة الهواء فى البلاد الفرنسية هذه الأيام . والحمد لله على زوال المانع ، إلا أننا مع ذلك لم نقصر فى أداء الواجب من العمل الذى قمنا به فى المدافعة عن حقوق المسلمين ، فقد خلقنا ـ والشكر لله ـ لهذا العمل وطبعنا عليه ، ونرجو ديان السموات والأرض أن نموت فى هذه السبيل ، وأن نبعث فى زمرة السالكين فيها .

رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة) إلى لندن إجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لملتنا ، ومن يؤمل فيهم صدق النية فى رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الإنجليزية ، وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية التى مامرت قدم شرقى إلا سقطت منها فيا يعسر الخلاص منه ، وليسبر أغوار المطامع الإنجليزية التى لايدرك منتهاها .

تلك المطامع التى بعد ما التهمت ثلث المسكونة وطوقت كرة الأرض بالفتح والاستملاك لم تزل فى مدٍّ لا جزر معه .

ولا يزال رجال الحكومة فى بريطانيا فى نهم شديد لابتلاع ممالك العالم ، وكلما أساغوا قطرا طلبوا إليه آخر .

وليستطلع خفايا المقاصد من أثناء الأفكار وغضون الأقوال ، وليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين فى التلوين ، ويتبين كيف يتمكنون من إبراز محاسن الأعمال فى صفات رديئة يستنكرها كل ناظر إليها ، وإظهار السيئات فى ألوان بهجة تسر الناظرين كيلا يغتر الجاهل ولا يزل العالم .

لاقى (محرر الجريدة) كثيرا من رجال السياسة الإنجليزية ، وأنفذ الناس رأيا فيها ، وقد جرت بينه وبينهم محادثات طويلة فى الأحوال المصرية .

ومن محادثاته التمهيدية مانشر فى بعض الجرائد الإنجليزية كجريدة « البال مال جازيت » وجريدة « التروث » التى يحررها النائب الشهير « مستر لابوشير » وجريدة « التايمس »

وسيذكر شىء مما جرى بينه وبين بعض الأكابر من رجال الحكومة مما يستفيد منه الشرقيون (١) عموما والمصريون خصوصا .

وستأتى جريدتنا على بعض ما استنبطه من فحوى أقوالهم وأدركه من مرامى أفكارهم .

أما الآن فنأتى على جملة واحدة من محادثة طويلة كانت بينه وبين « اللورد هرتنكتون » وزير الحربية الإنجليزية ، ليأخذ كل مصرى منها حظه ويصيب كل شرقى سهمه ، ويقف جميعهم على مواقع الشرقيين من أنظار الحكومة الإنجليزية .

سأل « اللورد هرتنكتون » وزير الحربية الإنجليزية :

ـ ألا يرضى المصريون أن يكونوا فى أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الإنجليزية وألا يرون حكومتنا خيرا لهم من حكومة الأتراك ، وفلان باشا وفلان باشا ؟

فأجاب الشيخ (محرر جريدتنا) :

ـ كلا .. إن المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون إلا قليلا ، وفيهم من محبى أوطانهم مثل مافى الشعب الإنجليزى ، فلا يخطر ببال أحد منهم الميل إلى الخضوع لسلطة من يخالفه فى الدين والجنس ، ولا يصح لحضرة « اللورد » وهو على علم بطبائع الأمم أن يتصور مثل هذا الميل فى المصريين .

فقال الوزير :

ـ هل تنكر أن الجهالة عامة فى أقطار مصر ، وأن الكافة لا تفرق بين الحاكم الأجنبى

١ ـ ترد كلمة « الشرقيين » على لسان جمال الدين فيقصد بها « المسلمين » فى الأغلب الأعم .

والحاكم الوطنى ، وأن ماذكرته من النفرة من سلطة الأجانب إنما يكون فى الأمم المهذبة ؟

فاحتد الشيخ حدة تليق بمسلم لا يتهاون فى أداء مافرضه الـدين وأوجبتـه الشريعة وقال :

ـ أولا :

إن النفرة من ولاية الأجنبى ، ونبذ الطبع لسلطته مما أودع الله فى فطرة البشر ، وليس بمحتاج للدرس والمطالعة ، وهو شعور إنسانى ظهرت قوته فى أشد الأمم توحشا كقبائل الزولا ، الذين لم تنسوا ماكابدتموه منهم فى الدفاع عن أوطانهم .

ـ وثانيا :

إن المسلمين مهما كانوا وعلى أى درجة وجدوا لا يصلون من الجهل إلى الدرجة التى يتصورها الوزير ، فان الأميين منهم ، ومن يقرأون ويكتبون لا يفوتهم العلم بضروريات الدين ، ومن أجلاها وأظهرها عندهم ألا يدينوا لمخالفيهم فيه ، وإن لهم فى الخطب الجمعية ومواعظ الوعاظ فى مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الابتدائية ، وإن جميع ما يتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافقهم ويحدث فيهم من الإحساسات الشريفة الإنسانية ما لا ينحطون معه عن سائر الأمم ، خصوصا المصريون الذين ينطقون باللسان العربى ويفهمـون دقائـق ما أودع فى ذلك اللسان ، وهو لسان دينهم .

ـ وثالثا :

إن أرض مصر زمن محمد على قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ما هو موجود فى بلاد أوربا ، وأخذ كل مصرى نصيبا منها على قدره ، ولا تخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون وكاتبون ، والأخبار العمومية توصلها إليهم الجرائد العربية ، ومن لم يقرأ يستنبىء الأخبار من القارئين .

فبهذا أضافوا إلى الشعور الطبيعى والتقليدى محبة وطنية منشؤها التهذيب العمومى قوى بها الميلان الأولان [1] ، ولا أظنهم يخالفون فى ذلك سائر الأمم [2]

انتهى كلام محمد عبده ووزير الحربية ٠

أين العلماء الأذكياء ؟ أين الجهلة الأغبياء ؟ أين الأباة الأعلياء ؟ أين السفلة الأدنياء ؟

ليرى كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الإنجليزية ، كل ذى شكل إنسانى وصورة بشرية ، يدرك ما وراء هذه الأسئلة ، وما تشف عنه هذه الظنون العجيبة ٠

هذا « اللورد هرتنكتون » وزير الحربية الإنجليزية يظن أن الجهل بلغ من المسلمين عموما والمصريين خصوصا إلى حد سلب عنهم كل إحساس إنسانى ، وأنهم فى حضيض من الجهل ، لا يميزون فيه بين الغريب والقريب ، ولا بين العدو والحبيب ، هذا دليل على أن الإنجليز (إلا من أنار الله بصيرته ووفقه لفهم الصواب) يعتقدون أن الأمم الشرقية والأمة المصرية فى درجة الحيوانات السائمة ، والدواب الراعية ، لا تتألم إلا من الجوع ، وفواعل الطبيعة المادية ، وليس لها من الإحساس إلا نوع من الانفعالات البدنية ، ولا تعرف من شئونها إلا ما به تقوم حياتها الحيوانية ، فتألف راكبها ، والعامل عليها ، ومستخدمها فى أى عمل من الأعمال الشاقة مادام يقدم لها طعاما وشرابا ، وأنها تهش وتبش لرؤية من يقدم لها غذاءها وعشاءها ، وإن كان من أشد البلاء عليها بما يسومها من مشاق الأعمال فإذا عجزت عن العمل دبحها وتغذى بلحومها ٠

ألا فاعجبوا إن كانت هذه عقيدة رجال الحكومة الإنجليزية فى الأمم التى يتسلطون عليها !!! فأى معاملة تكون منهم لها ؟ ألا يعاملونهم معاملة العجماوات

١ ـ يقصد : الميل إلى النفرة عن ولاية الأجنبى والميل إلى أن لايدينو لمن يخالفهم فى الدين ٠

٢ ـ يستأنف جمال الدين حديثه بعد أن ذكر حديث محمد عبده ٠

والحيوانات الرُتّع ؟ بلى ، وهكذا يعاملون ، وهذا تصرفهم فى البلاد الهندية ، يشهد بأفصح لسان على مايعملون ·

فالمصريون الآن بين أمرين أفضلهما أيسرهما :

إما أن يتكاتفوا ويتضافروا ويبذلوا أموالهم وأرواحهم فى حفظ شرفهم الإنسانى ومكانتهم العربية ، وأداء حق عقيدتهم الدينية ، ويخلصوا أنفسهم من عبودية قوم لاينظرون إليهم إلا كما ينظرون إلى البغال والحمير ·

وإن هموا بذلك وجدوا لهم من إخوانهم المسلمين أنصارا ينتظرون الآن حركة منهم ، وهذا أشرف الأمرين وما هو عليهم بعسير ·

وإما أن ينسلخوا من جميع الخصائص الإنسانية ، ويخلعوا حلية الإيمان ويتبرأ منهم شرف العرب ، وليحملوا ناف [1] العبودية على أعناقهم ، وليقاسموا الحيوانات فى حظوظها ، وليستعدوا لكل ذلة ، وليتقبلوا كل ضيم ، وهذا أعسر الأمرين وأدناهما ·

وما أظن مصريا يختاره لنفسه ، ولئن اختاره « معاذ الله » فسيذهب الله بهم ويورث الأرض قوما آخرين ، فإن الله غيور على دينه غيور على العدل منتقم من الضالين ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » [2]

وبعد : فهكذا أوضح جمال الدين موقف الإنجليز من الإسلام والمسلمين ، وكشف عن خططهم وأطماعهم فى بلدان العالم الإسلامى ، وتصدى لهم بهذه الصورة الدالة على شجاعته وصلابته ، واستعداده للتضحيات فى سبيل ما يدعو إليه ·

---

١ ـ الناف مايوضع فوق عنق الدابة ليربط به ماتقاد منه ـ وهى عامية مصرية لم أعثر عليها فى القاموس المحيط ولا معجم مقاييس اللغة ولا فى تاج العروس ولا فى تهذيب اللغة ·

٢ ـ السابق : ٣٩٩ ـ ٤٠٢ ·

٣ - سياسة انجلترا فى الشرق الإسلامى

أقامت انجلترا سياستها فى الشرق الإسلامى على أساس أن تستولى على بلدان العالم الإسلامى بأى وسيلة من الوسائل ، وكان نجاحها فى تنفيذ ما ترسم من خطط فى الهند حافزاً لها على مزيد من الرغبة فى التهام أكبر عدد من بلدان العالم الإسلامى .

وكان نظرها إلى مصر والسودان يمتد إلى ما وراء الاستغلال والاحتكار ، كان يمتد إلى الاستيلاء الكامل ، بحيث تصبح مصر والسودان جزءا من الإمبراطورية البريطانية ، ومن أجل ذلك جندت ما جندت من القوى الخفية والظاهرة ، واصطنعت من الوسائل ما لا تقبله الأخلاق ولا تقره الإنسانية فى أى صورة من صوره .

وعرف جمال الدين هدف السياسة الإنجليزية فى الشرق الإسلامى وهو المؤمن بأن الإنجليز ألد أعداء الإسلام والمسلمين ، وأراد أن يعرى هذه السياسة ويكشف عن مخبوءاتها فكتب مقالا ضافيا فى « العروة الوثقى » ما أشك فى أن هذا المقال وأمثاله هو الذى جعل حكومة الإنجليز تحارب جريدة العروة الوثقى حربا مرحلية انتهت بإغلاق الجريدة وما كانت قد عاشت من عمرها إلا مدى إصدار ثمانية عشر عددا من أعدادها . كتب جمال هذا المقال فى أسلوب ساخر قوى هازئ بسياسة انجلترا فى الشرق الإسلامى ، محذرها من العواقب منذرها بالفشل الذريع ، فقال :

« هلع على ما فى البيت ، فهلوع لإغلاق الباب ، فانخلع المصراع وانقض الجدار من ورائه .

هذا شأن دولة بريطانيا فى الهند وقناة السويس ، قصارى بغيتها أن تكون فى أمن على هذا الباب ، وكان سهلا عليها أن تخلص النية فى مسألة أرباب الولاية عليه ، فيقونه بأرواحهم وأموالهم ، ثم هى تفوز بفوائده إلى الأبد .

إلا أن جيشان الأوهام وموحشات الأحلام دفعتها لمباشرة حمايته بنفسها ، فإذا الأمر أصعب من أن ينال ، وأساس البيت أوهى من أن يدوم ·

أرادت دولة انجلترا بعد تبوئها أرض مصر أن تدخلها تحت حمايتها ، وأن تبدل العساكر الوطنية بانجليزية[1] ، وأن تقيم فى السودان سلطنة مستقلة ·

وحاولت فى ذلك إرضاء المصريين بأنه من الضروريات لتنظيم أحوالهم وإقرار الراحة بينهم ، وتسكين روع العثمانيين بحفظ الحق وتخفيف الوزر ، وكان لكل أن يستبشر بهذه الخدمة الجليلة إن تمت ، لولا ما لدولة انجلترا من تقسيم الممالك التيمورية فى الهند ، وإقامتها لكل قسم حامية من قبلها ، وكان هذا أكبر الأسباب وأصغرها لاستيلائها على الأقطار الهندية ·

وإنا لنأسف على التفاوت بين الزمانين والتباين بين المكانين ، فلا الإحسان الإنجليزى يمكن تتميمه ، ولا العثمانيون والمصريون يستبشرون بنوله ، وخطر الأمرين غير يسير ·

ظهرت دعوى المهدوية فى السودان واشتد أزر القائم بها بمسارعة الإنجليز إلى التداخل فى مصر بحجة حفظ باب الهند ، وعظم خطب الداعى بعد ما أراق دماءً غزيرة ، ودبت روح دعوته إلى سواحل البحر الأحمر وحدود مصر الطبيعية ، وأمالت القلوب إليه بعد نفرتها من السلطة الإنجليزية ·

يقرب من الظن أن نفثاته مازجت أفئدة العرب فى فيا فى طرابلس أو قاربت ، وأن هذه النيران التى يشعلها بالبكاء على الدين والنواح على امتهانه ، لا تلبث أن تنقض شرارة منها على جزيرة العرب ، وفيها يصعد عويل الدين ونحيبه إلى عنان السماء ، وعند ذلك يحس باب الهند بين ألسنة النيران من جهتين بل من ثلاث جهات ·

---

١ ـ الصواب أن يقال : وأن تبدل بالعساكر الوطنية عساكر إنجليزية · لأن الباء تدخل على المطروح · وقد تكرر هذا الخطأ فى كتابات جمال الدين ·

أيبعد عند العقل وبريطانيا لاهية بإنقاذ الباب أن تتقد النيران فى البيت ؟

إن خطر اليوم أشد مما اهتمت بدفعه سابقا ، ماذا أخذت من الوسائل لدفع هذه الغائلة ؟

أرسلت غوردون باشا إلى السودان لتفريق كلمة المحاربين ورقية محمد أحمد الحمدانى .

السودانيون لم تلتئم جراحهم من ظلم غوردون أيام كان حاكما مستبدا عليهم ، وفى علمهم أنه أعدى أعداء الديانة الإسلامية ، فقد طلب وهو فيهم قسيسا من السويس لنشر المذهب البروتستانتى بين مسلميهم ، فهل تمكنه الفصاحة الإنجليزية من أن يمحص صدور العرب من الضغينة الدينية والدنيوية ، بعد ما رسخت أعواما ؟ ويمحوها فى بضعة أيام ؟

وهل يسهل عليه إرضاء محمد أحمد بعدما قام بدعوة عظيمة كهذه بمنحه لقب أمير كردفان ؟ أو هل يقنع صاحب هذه الدعوة بمثل هذا اللقب بعد ما تسنى له من الفتوحات واستولى على تلك البلاد بدون إذن غوردون ؟

قد يظن هذه الظنون من لا وقوف له على حقيقة دعوى المهدوية وموقعها من قلوب المسلمين ، ويكفى لكشف بعض ما فى الغيب ما اتفقت عليه الجرائد الإنجليزية والفرنسية ، وأثبتته المخابرات الرسمية من إخفاق غوردون فى سعيه كما تراه فى غير هذا المقام[١] .

ساقت خمسة آلاف وفى بعض الروايات أربعة آلاف جندى تحت قيادة « الجنرال كراهام » إلى سواحل البحر الأحمر لاسترجاع شرف « بيكر » باشا وثأر ضباطه من الإنجليز ، (أما هكس باشا وضباط جيشه فلبعدهم عن البحر لا شرف لهم ولا ثأر) .

---

١ ـ يشير إلى عدد من المقالات فى العروة الوثقى عن غوردون باشا : منها : غوردون باشا . وهول الأمر على غوردون .

وغلب هذا الجيش المدرب الكامل العدة الشاكى السلاح من أجود طرز . ثلاثة آلاف من عراة العرب السودانيين « بمعنى أنه قتل منهم ثمانمائة بدوى » والقبائل على عصبيتها لم تجبن بعد .

هل بهذا تدفع الغوائل ؟ أيظن ذو عقل أن فاتحا فتك بعشرة آلاف جندى مرة ، وألفين وخمسمائة مرة أخرى ، جميعها تحت إمرة مشاهير من قواد جيش انجلترا ، يخور عزمه لانهزام شرذمة من المنتسبين إليه ؟

وهل يؤثر هذا وهنا فى اعتقاد المذعنين لدعوته . سبحان الله ! كان لغلبة هذا الجيش رجة فى انجلترا ، وخيل لحكومتها أنها نجاح فى العمل ، وربما نشأ هذا الخيال من التهنئات التى وردت إليها من الدول وسفرائها مما لم ينله نابليون الأول وغليوم الثانى .

أقول وحق ما أقول : إن الضير شديد ، فإن ترك امتد وطاف الدانية والقاصية ، وليس فى إمكان « غوردون » ولا أحذق سياسى فى انجلترا أن يخمد لهبه . والمناوشات البريطانية تحضره فتزيده اشتعالا ، وإنما يتيسر إطفاؤه لأولى العزم من العثمانيين والمصريين لكونهم على شاكلة صاحب الدعوى وبيدهم عنانها .

كان من حذق الإنجليز لو اكتفوا فى حفظ باب الهند بعض العثمانيين وخضوع المصريين مع القوة البريطانية ، والتفتوا إلى ترميم سياج الهند من الجهة الشمالية ماذا يفيدهم سد الباب إذا وهى الأساس فتداعت الجدران وخر السقف ؟

إن قبائل التركمان فى « مرو » مع شرس طباعهم لحقوا بدولة الروس اختيارا بعد ما كانوا مستقلين فى أمورهم لا يدينون لسلطة أجنبية عنهم ، فأى ما نع يمنع تركمان سرخس وهم سنيون من الاقتداء بهم تخلصا من حكومة فارس المخالفة لهم فى المذهب ؟

فإن تم هذا فتح لروسيا طريق فراه إلى قاين إلى سجستان ، وأى قوة تصدها عن طمعها ؟ وإن حلت فى سجستان أو فراه فأية عقبة بينها وبين الهند ؟

إن قبائـــل أزبـــك من سكان « ميمنـــة » و« أندخـــو » و« شيورغـــان » و« سر بول » وسائر بلاد بلخ إلى « ويلميان » فى ضجر من الحكومة الأفغانية ، أفلا يتبع هؤلاء أثر أبناء أعمامهم التركمان ، فإن غفلوا فتحت لهم الروسيا بابا من الملاطفة وذهبت بهم فى طرق من سياسة اللين لتشويقهم إلى الدخول فى حمايتها والتملص من نير الأفغانيين ، وليس فى قوة حكومة الأفغان كبحهم إن أرادوا لضعفها فيهم .

إن قبائل هزارة من الشيعة الساكنين فى الجبال الممتدة من هراة إلى كابـول ينتحلون الأسباب للخروج على حكومة الأفغان ، نفرة من سلطة السنيين ، وقد كانوا فى الحرب الأخيرة بين الإنجليز والأفغان متفقين مع الإنجليز فهؤلاء بعد ما يرون جيرانهم انحازوا إلى الروس ، أفلا ينزعون إلى مجاراتهم ، خصوصا إذا لمعت لهم بوارق الوعود الروسية ؟

هذا كله يكون ، فتشرف روسيا بعده على الميدان المتسع الممتد من هراة إلى قندهار إلى غزنة ، بل إلى كابل من جهات كثيرة ، فهل بعد هذا يبقى للهند سياج ؟ وهل يمكن أن يقام فى وجه الروسيا مانع من المسير إليه ؟

وهل ينفع عند ذلك الوقوف على بابه (قناة السويس) ؟

أليس يسهل على الروس عند إشرافهم على تلك المواقع الإيقاع بين قبائـل الأفغان وبين المرشحين للإمارة ، ويتخذون منهم أحزابا كما فعلوا « بخوانين القرم » .

تقربت دولة الروسيا إلى ألمانيا والنمسا فى هذه الأيام وانعقدت بينهم معاهدة على حفظ السلم فى أوربا إلى زمن غير قصير ، ولم يكن هذا التقرب مبنيا على ما يخيله السياسيون فى كل دولة على حسب مصالحهم ، وإنما رأت الروسيا أن الوقت وقت العمل فى آسيا ، فطلبت الراحة من جهة حدودها الأوربية لتتفرغ لإجراء مقاصدها فى أطراف الهند .

وإن الفزع من هذا الانتقال الفجائى قد ظهر أثره فى جميع الجرائد الإنجليزية .

ليت الإنجليز صرفوا قوتهم ووجهوا عزيمتهم لدفع ما يلم بهم من الخطر القريب ،

ولم يقعوا فى شرك المسألة المصرية[١] ، فإن ما كانوا يخافونه من مصر كان وهما صرفا ، فلما طرقوها أوقدوا فتنة ما كانت تخطر ببال أحد ، ثم هم فى عجز عن علاجها ، وإنا نظن ـ كما يزعم الوزراء العثمانيون ـ أن الإنجليز ليس فى إمكانهم أن يكسروا سورتها بأنفسهم ولابد من يوم يلجأون فيه إلى ذوى العزيمة من العثمانيين والمصريين وإلى الله عاقبة الأمور[٢] .

هكذا كشف جمال الدين خطة انجلترا وسياستها فى الشرق الإسلامى وعراها تماما من ثوب زيف ارتدته لتموه به على المسلمين فى مصر أو فى الهند أو فى السودان .

وهو فى هذا المقال يحاول أن يحرش روسيا بانجلترا ، ويثير انجلترا على تحركات روسيا المتوقعة ، وذلك ليصرف عن العالم الإسلامى شر ما تخطط له انجلترا من تخطيط فيه القضاء على الإسلام والمسلمين .

---

١ ـ المسألة المصرية والمسألة الشرقية : كلمات أشاعتها الدول الكبرى آنذاك لكى تحل محل المسألة الإسلامية ، إذ تثير هذه الكلمة الأخيرة عواطف الملايين من المسلمين نحو مشكلات إخوانهم فى الدين .

٢ ـ جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى : ١٩٥ ـ ١٩٩ .

٤ ـ الفرنسيون والإسلام

لا يفرق جمال الدين بين انجلترا وفرنسا فى عدائهما للإسلام ، ورغبتهما فى القضاء على الإسلام ، والاستيلاء على بلاد المسلمين ، ويعرف جمال الدين أن الحكومات فى انجلترا وفرنسا ورثت روحا صليبية فى عداء الإسلام ، منذ اندلعت تلك الحروب الصليبية التى كانت تغذيها وتوجهها الكنيسة ، ويدرك جمال الدين أن العلماء والمتعالمين من أهل أوربا لا يقلون عداء للإسلام والمسلمين عن حكوماتهم وملوكهم ، وما قصة جمال الدين مع رينان الفرنسى ـ الذى تهجم على الإسلام وعلى حضارته فى محاضرة له ـ ببعيدة عن الأذهان .

وكما جعل جمال الدين همه كشف خبيث نوايا الإنجليز وفضح خططهم وخدعهم ، فإنه اهتم كذلك بأن يكشف ألاعيب فرنسا ، ويعرى سُوء نواياها نحو العالم الإسلامى .

كما حاول أن يفصح عن الصلة المشبوهة بين انجلترا وفرنسا فى استغلال بلدان العالم الإسلامى واحتكار خيراته والسيطرة عليه .

يكتب جمال الدين مقالا مدويا أفاقت منه عقول وأبصرت عيون واستنارت بصائر ، وكان شجى فى حلوق أعداء الإسلام والمسلمين . يكتب هذا المقال تحت عنوان : « انجلترا وفرنسا » يقول فيه :

« أصغت آذان الراغبين فى الوقوف على نهاية الحوادث المصرية لاستماع مايتحدث به بين الحكومات الأوربية من يوم دعت انجلترا جميع الدول العظام للاجتماع فى مؤتمر ينظر بعض المسائل المصرية ، إلا أنها منعت دون حجاب الكتمان ، وإنما كانت تصل إليها دندنة أو جلبة أو غمغمة أو جمجمة ، وكل حس يصلها يثير رواكد

الأوهام فتهيج فيها غرائب الصور والأشكال ، والمذّاعون[1] من أرباب الجرائد فى أوربا هم أشبه بالداعين إلى الألاعيب والكوديات كانوا يذهبون من الكلام وجوها مختلفة ، ويتنافسون فى التمثيل والتصوير للتغرير والتهويل حتى أبرزوا الأرض فى صورة السماء ، والسماء فى صورة الأرض خصوصا فيما يتعلق بالمفاوضات التى كانت جارية بين وزارتى فرنسا وانجلترا ، فكان يخيل لمتصفح جرائدهم أن البحار غاصة بالمراكب ، والمدرعات يصادم بعضها بعضا ، وأن فضاء البر أعضل بالجيوش المتلاحمة ، لا يجد السالك من بينها سبيلا .

وتجسم الخيال لأرباب الأذهان الحادة ،فكان منهم مهندسو حرب يعينون مواقع العساكر وطرق المصاولة ، وجموع المتلاحمين تجول فى أذهانهم يمينا وشمالا ، ويموج بعضها فى بعض ، وكأنما كانت مخيلاتهم معرضا لجيوش العالمين ، وكأن فى كل فوج داعيا وفى كل قبيل مناديا يقول : حقى هذا .. فهيعات تتعالى وزفرات تتصاعد وإرغاء وإزباد وتقطيب فى الوجوه ، وشزر فى المناظر . وفى كل ذلك هول يأخذ الألباب .

والعارفون بقوة فرنسا البرية والبحرية والذين يقدرون حقوقها حق قدرها كانوا يعتقدون أن تمثال العظمة البريطانية أصبح منكس الرأس منحنى الظهر ، قد هوى بهامته إلى ركبته يتوارى من الناس خجلا بما ظهر من ضعفه وعجزه ، وأن حكومة انجلترا ستعود بالخيبة (وإن أعدت فيالق من التهديد وجحافل من الأوغاد) وتقوت هذه الأوهام بما يطنطن أرباب الجرائد .

وولعت النفوس بالوقوف على الحقيقة وانبعثت رسل الأفكار تجوس خلال الشئون والأطوار ، لتصل إلى شىء من هذه الأسرار ، واجتمعت الأرواح فى الآذان لعلها تسترق سمعا عن تلك المداونات ، وكمنت كل نفس فى مشكاة باصرتها لعلها

---

١ ـ مذع له : كمنع حدثه ببعض الخبر وكتم بعضا ـ الفيروز أبادى : القاموس المحيط ٨٧/٣ والمذاعون : الكذابون ومن لا وفاء لهم ولا يحفظون أحدا فى الغيب ... السابق .

تستشف من وراء الحجاب ماينبئ عن الحقيقة أو يقربها من الفهم ، والجميع واقفون وراء حجاب الملعب الشائق وبعد طول الانتظار كشف الستار .

فإذا عائدة الإنجليز جالسه فى هيكل آمون وبيدها تاج يحكى رأس الثور (تاج الفراعنة) متهيئة أن تضعه على رأسها والملوك العظام وقوف بين يديها مستعـدون لتهنئتها ، كأنما كانت هذه المفاوضات والمخابرات إعـدادا وتجهيزا لإجلاسهـا على كرسى ميناس الأول ورمسيس الأول ، لا حول ولا قوة إلا بالله .

قام رئيس الوزراء الفرنسى فى مجلس النواب خطيبا لبيان الاتفاق الذى عقده مع حكومة انجلترا ، ليرى النواب رأيهم ، وقبل ذكره أنفق ما لديه من البلاغة والفصاحة وحسن البيان لإقناعهم بقبول ما أجراه ، تلطف فى الكلام وأبدع وصوب وصعد ، وأتى على ترغيب يشوبه ترهيب ويأس يحوطه أمل ، وأدرج فى طى خطابه أن فرنسا قبل هذا العهد الجديد لم تكن على شيء ، وبه نالت أشياء ، وأومأ إلى أن وزارته لو طلبت أزيد مما حصلت لأدى الأمر إلى ممانعة الحكومة الإنجليزية ، وأفضى الخلاف إلى انقلابها ، وربما تخلفها وزارة تطمح إلى الاستيلاء على مصر .

وجاء فى نطقه بما حرك الطباع ومال بالأسماع حيث قال : يلزم للسياسي قبل إبرام حكم أن يلاحظ جميع أطرافه ولواحقه .

فهذه الكلمة الرفيعة جددت فى السامعين آمالا ، وظنوا أن المراقبة الثنائية قد أعيدت ، أو تقرر اشتراك فرنسا مع انجلترا فى الاحتلال العسكرى أو إبرام الحكم بخروج الإنجليز من مصر ، وبالجملة إنهم فازوا فوزا عظيما .

وبعد مقدمات طويلات[1] بيّن الاتفاق فإذا هو بعد إمعان النظر على هذا النحو : أن الإنجليز سادات مصر يفعلون فيها ما يشاءون ، وليس لنا أن نعارضهم ، فلا المراقبة الثنائية عادت ولا الاشتراك فى التداخل العسكرى أو النظر الإدارى حصل ، ولا قررت حرية القتال على أصل ثابت ولا تحقق جلاء الإنجليز على صورة قطعية ،

---

١ ـ الأفصح طويلة .

ولا تأصلت مراقبة دولية ، كما كان يتوهم بعض السياسيين ، بل كما كان يلجأ إليه الإنجليز عند نهاية العجز على ما أشار إليه كثير من سياسييهم ·

فانقبضت صدور النواب ، فلما رأى[1] شدة تأثرهم دفعة واحدة ، فأحس منهم القنوط ، حاول إحياء آمالهم بقوله :

إنا سلكنا فى اتفاقنا هذا مسلك سائر الدول ، ومن السنن المتبعة فيها تنازل كل من طلاب الاتفاق عن شيء مما عليه الاختلاف ، حتى يتقاربوا فيسهل اتفاقهم - يوهم بهذا أنه وإن ترك كل حق لفرنسا فى مصر إلا أن الإنجليز أيضا تساهلوا معه فى أمور ...

هذه المسامحة التى لم تكن منتظرة من حكومة فرنسا ذهبت بالظنون إلى ما وراء الظاهر المعروف ·

ومنه ما بعث مراسل جريدة « التاج بلات الألمانية » فى ڤينا على قوله : يظن ههنا (فى ڤينا) أن الدول ستعارض هذا الاتفاق رغما[2] من كل وهم ا.هـ .

وليس ببعيد أن يكون نعير الإنجليز وهديرهم وإرهابهم للوزارة ترك الحق بالكلية ، أو ربما ظن رئيس الوزراء أن اشتداده فى اقتضاء حقه أو حق من له بهم علاقة صحيحة يوجب تغييرا فى وزارة « جلادستون » فيقوم خَلَفُها على الاغتصاب بالقوة وانتهاك كل حق فتضيع الحقوق الفرنسية بلا منة من فرنسا فى ضياعها ·

فسارع إلى موافقتها على ما تشاء وطرح مصلحة فرنسا فى مصر بين يديها لتكون المنة فى استيلاء الإنجليز على مصر للفرنسيين ·

ولكننا نظن أن هذا النوع من المعاملة لا يفيد فرنسا أكبر مما يجلب عليها من الضرر ، فإن التساهل وسوء السياسة الذى كان من الحكومة الفرنسية مع بريطانيا فى الهند عندما كان للأمتين منافسة فيها ، آلت إلى تغلب الإنجليز على جميع الممالك

---

١ - يقصد رئيس الوزراء الفرنسى ·

٢ - الصواب : على الرغم ·

الهندية ، ورجع الفرنسيون بخفى حنين ، ولم يمح أثر ذلك الخسران من خواطر الأمة الفرنسية إلى الآن ، والمستقبل أشبه بالماضى من الماء بالماء ·

وقد يقال : إن الحكومة الفرنسية حولت نظرها عن مصر إلى جهة أخرى ·

وبقى رجاؤنا فى نواب الأمة الفرنسية ، فإنهم وإن أظهروا ثقتهم بالوزارة بعد مجادلات طويلة ، إلا أنهم شرطوا عليها أن لا تبرم حكما فى المؤتمر إلا بمشورتهم « اللهم حقق الرجاء » ·

وإنا فى عجب من حرص مجلس « البرلمان » الإنجليزى حيث يعارض « جلادستون » فى هذا الاتفاق مع أن أقرب نتائجة الاستيلاء ·

وقد طلب « البرلمان » من « جلادستون » مثل ما طلب نواب فرنسا من وزيرها ·

أما حقوق العثمانيين والمصريين فلم نر لهم بين المنتفعين ذكرا اللهم إلا أن يقوم أربابها على المطالبة بها ، عند ذلك نرى لها فصلا من هذه الأبواب[1] ·

هكذا كشف جمال الدين عما أبرمته انجلترا وفرنسا من اتفاق حول مصر ، وحول تقسيم خيراتها بين أعدائها وفى هذا الكشف استنهاض لهمم المصريين أولا والعثمانيين ثانيا ، وسائر بلدان العالم الإسلامى ليقفوا فى وجه هذا التآمر ، وليقاوموا خطط هؤلاء الأعداء الذين يخططون للقضاء على حاضر العالم الإسلامى ومستقبله ·

وبهذا يكشف جمال الدين أن فرنسا لا تختلف فى عدائها للإسلام والمسلمين عن انجلترا ، وإنها شريكة والغة فى الطمع والرغبة فى التهام العالم الإسلامى ، ويعيد إلى الأذهان أن فرنسا كانت شريكة لانجلترا فى استغلال الهند المسلمة واحتكار خيراتها ، غير أن انجلترا استطاعت ـ بدهائها وبسكوتها عن فرنسا فى مناطق أخرى فى العالم الإسلامى وبخاصة فى المغرب العربى ـ أن تستبد بالهند دون فرنسا ·

والخوف كل الخوف عند الفرنسيين أن تستطيع انجلترا للمرة الثانية ـ ولو بالدهاء والسكوت عن فرنسا فى مطامع فى بلاد إسلامية ـ أن تستبد بمصر دون فرنسا ، حتى

---

١ ـ السابق : ٣٦٠ ـ ٣٦٣ ·

لا يتكرر ما حدث فى الهند ، فتخرج فرنسا من هذه الغنائم ـ التى سكت عليها أصحابها الشرعيون ـ صفرا .

هكذا أوضح جمال الدين أن حقيقة فرنسا فى عداء الإسلام والمسلمين وفى المطامع فى خيرات البلاد الإسلامية كحقيقة انجلترا ، لا تختلف عنها فى شىء ، على الرغم من تشدق الفرنسيين بالحرية والعدالة والمساواة !!!

٥ ـ المستعمرات والمستعمرون

ظل جمال الدين واقفا كالطود الأشم فى مواجهة الاستعمار والمستعمرين ، وفى الحق لقد عانى المستعمرون من جمال الدين أكثر مما عانوا من جيش مسلح يقف أمامهم ، وماظن المستعمرين برجل ذكى داهية يفسد عليهم خططهم ، ويستعدى الناس كل الناس عليهم ؟

لقد أخذ جمال الدين على عاتقه أن يكشف سر المستعمرين وأن يفضح شرهم ، وأن يجرم نواياهم وأفعالهم ، بتوضيح رغبتهم الشرهة فى الاستيلاء على خيرات الشعوب ، وتحطم معنوياتهم ، ليسهل عليهم الاستيلاء والإقامة والسيطرة أطول فترة ممكنه .

وقد كان لجمال الدين الأفغانى فى مقاومة الاستعمار والمستعمرين خطة تتكون من خطوات :

أولاها : كشف زيف الكلمة وردها إلى أصلها الذى تدل عليه تطبيقاتها ، فهو يقول : إن كلمة الاستعمار من أسماء الأضداد والصواب أن تكون استخرابا لأن الأعمال التى يقوم بها المستعمرون تخريب للبلاد وإفساد لها على أهلها .

وثانيتها : أن يهون من شأن الاستعمار والمستعمرين ويقنع بأنهم مهما تدججوا بالسلاح فهم ضعفاء ، لأنهم غاصبون ليسوا أصحاب حق ، ففيهم دائما خوف اللص ووعدته .

وثالثتها : أن يغرى بهم الشعوب المستعمرة ويحرشهم بهم ، ويؤكد لهم بأكثر من دليل أن الاستعمار مهما طالت مدته فهو بالقطع إلى زوال ، وإن المستعمرين مهما أرهبو أهل البلاد وقمعوهم فإن نهايتهم دائما هى الطرد من البلاد التى اغتصبوهاوخروجهم منها مذمومين مدحورين .

ورابعتها : أنه دائما يحمل إلى الشعوب الإسلامية المستعمرة بشرى التخلص من عدو رابض خبيث كريه ، لو تكاتفت الجهود وتساندت القوى وقويت العزائم •

وجمال الدين فى خطته تلك إنما يؤكد أنه مصلح عريق وداعية ناجح أصيل ، يرمى بنظره إلى البعيد عن الحواس فيدرك بحسه ما لا يدركه سواه من الناس وهكذا كان شأنه وشأن جميع الأصلاء من المصلحين •

يتحدث جمال الدين عن رأيه فى المستعمرات والمستعمرين فيأتى فى ذلك بما يعجب ويطرب ومايُعد فى زمنه سبقا للأحداث ودقة بالغة فى توقع النتائج فيقول :

« لقد برز الأوربيون بضروب السياسة لتوسيع ممالكهم وتفننوا بإيجاد الوسائل المؤيدة لذلك وكان أسبقهم فى الدهاء وأكثرهم فى الاستيلاء الإنجليز ، وهم فى مقدمة من رأى من دول الغرب أن فتح البلاد وتملكها بالجيوش والكفاح والقتال من مزعجات الأمور ، وأن الدخول من باب المكر واللين والخديعة والختل أوفر وأسهل ، وأقرب وأفعل ، فاعتمدت هذا الأخير سلاحا ونالت به نجاحا وفلاحا ، وتركت الأول وهو «الحرب والقتال» وفتح البلاد غلبا وقهرا ، ورجعت للثانى وألبسته من الأسماء طيلسانا لين الملمس هين الملبس ودعته بالاستعمار ومايؤخذ من الممالك مستعمرات ، ومن يحكم الناس فيها بمستعمرين •

وجرت فى هذا المضمار فكانت « المجلى » وحازت قصب السبق وتبعها غيرها من الدول فكانوا « السكيت »

إن هذا الاستعمار لغة واصطلاحا مصدرا واشتقاقا : لا أراه إلا من قبيل أسماء الأضداد وهو أقرب إلى الخراب والتخريب وإلى الاسترقاق والاستعباد منه إلى العمار والعمران والاستعمار •

لا تسير دول الاستعمار إلا إلى البلاد الغنية فى ثروتها ومعادنها وخصب تربتها ، ومن كان أهلها فى الدرك الأسفل من الجهل ، قد خيم عليهم الخمول ، لا يبدون حراكا ولا يقربون عراكا •

وإذا صادفت دول الاستعمار على طريق الشذوذ فى بعض الممالك أو المقاطعات مقاومة من سلطان أو أمير فماهى إلا مناوشة صغيرة حربية مع تلك المعدات الحديثة ، وقد سقط الملك أو الأمير أسيرا ، فسيق مع أهل بيته ذليلا حقيرا ، وحجر عليه فى أضيق البلدان وأبعدها عن العمار وتدخل المملكة أو الجزيرة أو المقاطعة وتنتظم فى سلك المستعمرات فتصبح أعزة البلاد أذلاء ، ويحل محل الحرية الشخصية الاستعباد وكم الأفواه ، وينتصب الميزان ليحاسب من تطرف عينه من الأهلين أو يشخص ببصره أو يلتفت إلى ورائه ، ليس لأحد من خيرات بلاده شيء ، وكل الضرائب والضربات والشر والويلات لأهل البلاد وعليهم ، لا يشاركهم بذلك أحد ·

هذا إذا كان الدخول للبلاد « بلعبة الحرية » وأما إذا دخلوا من باب الانتصار للأمير أو تثبيت الملك ، أو قمع الثورة ، وكانوا فى ذلك اللباس ، لباس الأصدقاء الأمناء المخلصين ، أو محبين للشعب ورقيه وتعليمه ودروس الحكم الذاتى ليستغنى عنهم وبحكم بلاده بذاته !!!

فهناك تبقى مظاهر الأمور محفوظة وبعض التقاليد التافهة مأمونة يشكلون للأحكام ، وإدارة مهام البلاد هياكل من الناس ، ويتركون معهم أمير البلاد قبة جوفاء يرجع منها صدى الصوت فقط ، وليس لهم من الأمر إلا اتباع الأمر لا غير ·

ومختصر القول أن الاستعمار بمعناه الصحيح ومبناه الصريح : هو تسلط دول وشعوب أقوياء علماء على شعوب ضعيفة جهلاء ، ولا يخرج عامل الغلب والقهر ، عما ذكرناه فيما سبق وهو « القوة والعلم يحكمان ويتحكمان بالضعف والجهل » سنة ثابتة وقانون متبع فى الكون ·

ولما كان لحياة الأمم والدول أدوارًا [1] وآجالا ، ولحدوثها وتكونها وتعاليها ثم توقفها وانحطاطها أسبابا وعوامل ·· هكذا وجب أن يكون الاستعمار خاضعا لتلك النواميس

---

١ ـ كلمة الدور ترد على ألسنة كثير من الكتاب غير دقيقة المعنى ، والصواب هنا « أطوارا » بدل أدوارا ·

الكونية بمعنى أنه يصل إلى حد محدود وأجل معلوم ، وانقضاء أجل الاستعمار إنما يتم بزوال الأسباب التى مكنت أهله من التسلط وأكرهت الشعوب على الخضوع لهم •

نعم متى ضعف ماكان سببا فى الصعود يحصل الهبوط والانحطاط ، ومتى زال ماكان سببا فى السقوط يحصل الصعود ، دور للحاكم والمحكوم وقاعدة هى بحكم اللازم والملزوم •

يحصل للضعيف من صدمة القوى دهشة ورجفة ، ويحدث من آثار العلم على الجاهل خشية ، فيقف بين هاتين القوتين منذهلا حائرا ذليلا صاغرا ، كما هو الحال مع أهل الاستعمار والمستعمرين ، إذ يمر الدور الأول بين تجبر وتكبر وعسف وجور وأهل المستعمرات قد أدهشتهم المفاجأة وأذهلتهم الصدمة ، فيقابلون كل قول بالسمع والطاعة ويفعلون ما يؤمرون بكمال الخضوع فيصادرون بمعنوياتهم من حرية شخصية وعزة نفسية وحرمة ملية أو جامعة قومية •

ثم يأتى دور القضاء على مادياتهم فيحرمون من خيرات بلادهم ومن كسب تجارتهم واستثمار مناجمهم ، وبالإجمال الحرمان المطلق من كل خير ، وإنزال كل شر وضير ، فيرزحون آخر الأمر تحت أثقال الضرائب وتتحمل أجسامهم ما لا تطيق فعند الوصول إلى هذا الحد من إرهاق الحد ، تظهر على الأمة عندئذ بعض آثار الحياة وهو ما يشبه « الاختلاج » فإذا التقوا أفرادا أخذ كل منهم ينظر إلى الآخر فيهزون رءوسهم هزا ضعيفا ويفركون أيديهم فركا غير منتظم ، ويحكون رقابهم ، وأرباب اللحى منهم يسبلون لحاهم وينتفون عثنونهم ، هذه هى أول مظاهر الشعور ، ثم تجول الأفكار وبعده يبدأ الهمس ثم الهذرمة ، ثم ، ثم •• إلى أن يعلو الصوت ويرتفع السوط ويحكم السيف ، ويأتى من بعده حكم العادل وهو سبحانه وتعالى ولى المظلومين •

ولو جاز لدولة أن تشذ فتعامل المستعمرات بشىء من العدل لا ترهقهم ظلما ، ولا

تسومهم جورا وعسفا للزم أن يكون ذلك الشذوذ بمعاملة الإنجليز لمستعمرة « أمريكا » وبينهم من جامعات اللسان والدين والمذهب والأخلاق ما يدعو للعطف ويحمل على الإقلال من العنف •

ولكن هيهات !! فليس لقاعدة الاستعمار من شاذ ، وكلنا يعلم ما عاناه الأمريكانيون من جور الحكومة الإنجليزية وتفننها بأنواع المظالم ، وسلب أموالهم بأشكال الضرائب •

وآخر ضريبة أو ضربة نبهت الأمريكانيين ودفعتهم لطرح نير الإنجليز بقوة السلاح ونهوض الأمة ؛ ضريبة « ورقة التمغة » فإن صكوك البيع وكافة العقود والعهود إذا لم تكن محررة على تلك الورقة لا يعمل بها •• وناهيك ما فى هذا الحكم من الجور ومن ضياع أملاك وحقوق •

نعم : لجأ الأمريكانيون فى بدء أمرهم إلى مايلجأ إليه الضعيف • إذ بعثوا بالشكوى إلى عاصمة الإنجليز ومجلس إشرافهم عقب أن عقدوا جمعية عمومية فى مدينة نيويورك ، وبعد أن أوسعوا « مأمور بيع ورق التمغة » ضربا واتفقت كلمة الجميع على الرفض ، وهذا أول طلائع القوة ـ التى لا ترضخ الإنجليز لقوة سواها ـ وهو اجتماع كلمة الأمة ، خدرت أعصاب الأمريكانيين بإبطالها ورقة التمغة ، وبالوقت ذاته أحدثت مايمكنها من سلب مال الولايات المتحدة ، فوضعت رسم « الجمرك » على ما يدخل إليها من الشاى ، وهذا الرسم أكثر سلبا للمال من « التمغة » وعمدت للتنفيذ على استعمال القهر والقوة •

ولما كانت روح الحياة فى الأمريكانيين قد دبت وجازت وتخطت دورة الاختلاج و«الهمس » ووصلت إلى دور ارتفاع الصوت وسل السيف ، فرمت بالشاى الوارد إلى البحر ، ووقفت للقوة الإنجليزية بقوة الأمة الأمريكانية ، وألقت مقاليد أمورها وإدارة حروبها الوطنية إلى بطل حريتهم واستقلالهم الجنرال « واشنطون العظيم » :

السيف أصدق أنباء من الكتب ∴ فى حده الحد بين الجد واللعب

قل لى : لو ثابر الأمريكانيون دهرا على بث الشكوى من ولاة الإنجليز إلى مجلس وزراء الإنجليز ، واستنفدوا المداد ، وسودوا ما فى الأرض من قرطاس تظلما واستغاثة ، هل كان يفيدهم فى استقلالهم شيئا ؟ أو يكشف عنهم بلاء استعمار البريطانيين ؟

لا والذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف ، فقوة كل أمة كامنة فى أفرادها لا يظهرها إلا الاتحاد ، ولا يخفيها إلا التفرق فمن رام من الأمم استعادة مجدها ، والتخلص ممن أذلها فليس غير طريق « الاتحاد » مايوصل إلى الغاية ، وينقذ من البلاء ، ولا غير حب الموت ماينجى من الموت ٠

وبنيل المرء إحدى الراحتين ، فإما أن يعيش بحريته واستقلاله سعيدا وإما أن يموت دونها « بطلا شهيدا »

أرونى مملكة أو أمة انغمس ملوكها وأمراؤها بالسفه والسرف ، وعم الجهل طبقات الشعب وتفرقت كلمتهم فاستكانوا للذل والهوان لم تسقط تلك الملوك والأمراء عن عروشها ، ولم يستعبدها الاستعمار ويحل فيها الدمار !!!

وهاتوا مملكة أو قارة اتفقت كلمة أهلها وأنفت من الذل ورفضت الاستعباد واستلت السيف ، وطاب لها الحتف ، ولم تنل استقلالها والتمتع بحريتها ، ولو كان المستعمر أعظم الدول قوة واقتدارا !!!

هل من حاجة للإتيان بالأدلة وضرب الأمثلة ، على أن أصغر الأمم ناهضت أعظم الدول وظفرت بحاجتها ونالت حريتها واستقلالها ؟

من هم اليونان « سكنة ولاية المورة » قبل أقل من عصر ؟ عندما ناهضت الدولة العثمانية ـ تلك الدولة التى كانت تحكم ستين مليونا من النفوس إذ ذاك ـ واليونان إلى اليوم لم يتجاوزوا فى متفرق المعمور مليونين ٠

كم هو عدد المصريين ؟ وهل تجاوزوا بعد استقلالهم مليونين ونصف مليون نسمة تقريبا ؟

وما هو جبل الأسود ؟ ومجموع سكانه لم يبلغوا عدد سكان محلة « بك أوغلو » فى الآستانة وما هى قوته وجيشه بالنسبة لقوة وجيش الدولة العثمانية ؟

وهكذا القول فى بلغاريا ورومانيا ..

فبعد هذه الأدلة المحسوسة والأمثلة الملموسة يصح أن يبقى أدنى ريب فى أن المستعمرات لأى دولة مهما تعاظمت قوة واقتدارا كالثوب العارية لا يلبث حتى يسترد عند طلب صاحبه بالسنن المعروفة والطرق الموصوفة .

وهل يشك المصريون وهم يزيدون على العشرة ملايين [1] وكلهم أحفاد الغزاة الفاتحين من أعز قبائل العرب ، وإخوانهم الأقباط أحفاد أولئك الأشداء الذين آثارهم تدل على عظم هممهم ؟

إنهم إذا نهضوا لابد أن يظفروا بالاستقلال والحرية وإعادة القديم لذلك القطر السعيد .

بلى .. إنهم سينهضون إن شاء الله ويعملون متحدين معتصمين بحبل الله ، وينالون ما يتمنون بحول الله ، والله على كل شيء قدير [2]

هكذا يعلم جمال الدين الشعوب المستعمَرة كيف تثور على أعدائها وتغتصب منهم حريتها واستقلالها ، وينذر الأمم المستعمِرة أن أمرها إلى ضياع وتحكمها إلى تهاو وانحلال ، ويضرب على هذا وذاك الأمثال ويسوق الشواهد .

---

١ ـ الصواب : العشرة الملايين .

٢ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ١٩٨ ـ ٢٠٣

٦ ـ جمال الدين يستعدى العثمانيين على الإنجليز

كان جمال الدين راغبا رغبة أكيدة فى أن تستعيد دولة الخلافة العثمانية سالف عزها وأن تقف فى وجه أعدائها الصليبيين الأوربيين وقفة تعيد لها ما ضاع من ممالكها . وذهب فى رغبته تلك مذاهب جعلت بعض الناس يظن به الظنون •

وعلى قدر رغبة جمال الدين فى ذلك كان إيمانه بأن مستقبل الإسلام والمسلمين فى دولة خلافة كبرى تمنح الحكم الذاتى لممالكها العشر ـ على نحو ما أوضحنا رأيه فى هذا الباب من الكتاب [١] ـ لكن مارغب فيه جمال الدين ومآمن به فى هذا المجال شيء ومادبرت دول أوربا وماخططت لدولة الخلافة شيء آخر •

وما كان لكيد رجل واحد ـ ليس رئيس حكومة ولا سلطان دولة ـ أن يبلغ مايبلغه كيد دول أوربية عديدة كلها يرغب فى القضاء على دولة الخلافة العثمانية حقدا على الإسلام من جانب وعقابا لدولة الخلافة أن مدت سلطانها ونفوذها على كثير من دول أوربا من جانب آخر •

وفى مجال الاستعمار والمستعمرين ووقوع كثير من بلدان العالم الإسلامى فى أيدى أعدائه ، كان جمال الدين يحمل تبعة ذلك لدولة الخلافة التى يراها قصرت وضيعت ووقفت وقوف العاجزين •

ولما رأى جمال الدين مصر الإسلامية قد وقعت فريسة فى أيدى الإنجليز ، أخذ يحمل دولة الخلافة التبعة ويطالبها بالوقوف فى وجه الإنجليز ليجلو عن مصر وفى الوقت نفسه يحمل المصريين واجب الدفاع عن أرضهم ودينهم وحريتهم واستقلالهم •

---

١ ـ الفصل الأول من الباب الثالث •

كتب جمال الدين يعلن عن هذا الرأى ، تحت عنوان : « الباب العالى والإنجليز » فقال :

« يهتم المسلمون فى كل أرض بأمر مايجرى فى مصر ، بل تذهب نفوسهم حسرات كلما رأوا أو سمعوا أن جنديا أجنبيا يجول فى نواحيها مقاتلا أو حاميا ، وليس شأن مصر عندهم كغيرها من البلاد ، فإنها بهرة [1] الإسلام وباب الحرمين الشريفين ، فكل نازلة بها ترزأ الدين وتصدع من أركانه .

والمسلمون فى قلقهم هذا ينظرون إلى الدولة العثمانية ويقلبون وجوههم فى سماء سلطتها الحسية والمعنوية ، يرجون منها عزمة ثابتة تنقذ بها الأراضى المصرية من تبوىء الأعداء ويحفظ بها شرف المسلمين ومكانتهم بين الأمم ، وتصان بهـا ولاية الإسلام من السقوط فى حبائِل هذه الدولة الداهية « دولة الإنجليز » التى أخذت على نفسها أن تبيد ولاية هذا الدين ، وتحول حابله على نابله .

هذا فضلا عما يراه كل مسلم من أن عزة الدولة العثمانية وشوكتها ليس إلا بسلامة ملكتها على مصر ، فإن قضى فيها الأمر لغيرها « والعياذ بالله » أصبحت حقوق العثمانين فى جميع ممالكهم معرضة للخطر .

فهذه دولة الإنجليز كمرض يظهر أثره ضعيفا لا يحس به عند بدئه ثم يذهب فى البدن فيفسده ويبليه بدون أن يشعر المصاب بالألم ، هكذا شأن الإنجليز فى لينهم وتلطفهم وحلاوة وعودهم ، تملقهم وخضوعهم ، يسلبـون المالك ملـكه ، بل الحـى حياته ، وهو مأخوذ بما يشعوذون له .

ولا ريب فى أن الإهانة التى تمس الدولة العثمانية تنال جميع المسلمين فى الشرق والغرب فإن كل مسلم له الحق يعد هذه الدولة دولته ولو تباعدت الأقطار .

إن الهنديين إلى اليوم وما بعد اليوم يباهون بها ويحسبون أنفسهم فى عداد الأمم التى لم تذهب سلطنتها ، ويعتقدون أن لهم سلطانا قويا فى الدولة العثمانية ، بل يرون

---

١ ـ البهرة : الوسط .

أن خلاصهم من قيود الرق الإنجليزى لابد أن يكون يوما ما بسعيها ، وقد ظهرت أيام الحرب الأخيرة آثار لحمتهم معها باللحمة الملية بما لم يبق رينة لمرتاب فى شدة صلتهم بها •

لهذا كنا نعجب لسكوت الدولة العثمانية فى هذه الأزمان الأخيرة عندما اشتدت مقارعات السياسيين من كل دولة ، وتصارعوا فى المفاوضات والمجادلات محاماة عما لهم من المصالح فى مصر ، مع أن الدولة كانت أحق وأولى من جميع الدول بالاهتمام وبذل الجهد للمناضلة عن حقوقها الثابتة إرضاء لخواطر المسلمين عموما واستبقاء لحسن عقيدتهم فيها وحماية عن ممالكها وأهم مملكة منها ، إلى أن اطلعنا على إعلان بعث به الباب العالى إلى الدول بطريق « التلغراف » فيما يتعلق بالاتفاق المنعقد بين فرنسا وانجلترا فى المسألة المصرية ، أتى فيه على بيان العواقب السيئة التى تنشأ من طول مدة الاحتلال الإنجليزى فى مصر ، وأظهر أن مجرد تحديد المدة لايكف الإنجليز عن حرصهم ، وغاية ما فيه أنه يستتبع مداعاة الدول والدولة العثمانية مع الإنجليز ، وبرهن على أن بقاء العساكر الإنجليزية فى مصر ليس بضرورى فى حل المسألة ، فإن كانت الدول لا ترى فى العساكر الأهلية كفاية لصيانة البلاد من الخلل ، فالباب العالى مستعد لإرسال العساكر إليها على ماتقتضيه حقوقه فيها •

كما عرضه على الدولة البريطانية وجرى البحث فيه ، ولكن حال دون الإجراء موانع سياسية •

فإن لم تقبل الدول أن يستقل الجيش العثمانى بحل هذا المشكل فإنه يعرض عليها أن يحتل مصر جيش مختلط يؤلف من عثمانيين وانجليز وفرنسيين وإيطاليين وإسبانيين ، وإلى الدول تعيين الأجل فى الوجهين •

وزاد الباب العالى فى إعلانه هذا خدشا لخواطر الإنجليز حيث قال : إن الإنجليز قد أنهوا أعمالهم فى محو العصيان وتثبيت سلطة الخديوى إلا أنهم لم يأتوا فى تحسين حال مصر وتقويم نظامها إلا بما فيه إجراء بعض مقاصدهم السابقة •

وإنا نقول ـ كما يهتف به كل مسلم ـ إن من فروض الدولة العثمانية أن لاتدع

وسيلة للذود عن مصر وكف يد الإنجليز عنها ، وأن تكون همتها فى ذلك كهمتها فى الذود عن نفس الآستانة ، وليس لها أن ترهب هذه الرعود وتلك البروق التى لا تعقب مطرا .

ومن الحق أن نقول : إن فى مكنة العثمانيين أن يقوضوا هذا البيت البللورى « بيت العظمة الإنجليزية » بحجر واحد ، فاذا اشتدت الأزمة يتيسر لهم السعى فى الوئام بين الإيرانيين والأفغانيين والبلوجيين ، ولا يكلفهم هذا إلا كلمتين يستندان إلى أصل دينى قويم ، وعندها يعرف الإنجليز مقام أنفسهم فى الأقطار الهندية والممالك الشرقية .

هل تسلط الإنجليز فى الأراضى الهندية الواسعة إلا بسبب المخاصمات المذهبية التى كانت بين الأفغانيين والإيرانيين ، ولو نظرنا إليها نظرا لتحقيق لما رأيناها مما يوجب شق العصا وتفريق الكلمة ، ولا ريبة عندنا أن رفع الشقاق وتجديد الوفاق بين تلك الأمم أيسر شىء على الدولة العثمانية لما لها من المكانة العليا فى نفوس المسلمين قاطبة .

ولا يظن أن اعتصام الإنجليز فى جزائر بريطانيا والهند ، يقصر بالعثمانيين عن النكاية بهم ، لانقطاع السبل بين هؤلاء وأولئك وانسداد المسالك بين الممالك العثمانية والانجليزية فإن الظن يختلف عند وجود الاتفاق بين الأفغان والإيرانيين واتحاد كلمة الفرس مع العثمانيين ، هذه طريق محمرة وبندر عباس إلى بلوجستان مفتوحة للمسالك مطروحة للسابل وهى الطريق التى سلكها أول جيش إسلامى بعث به الحجاج بن يوسف لفتح السند .

إن هذه الجولة لو كانت لأثارت فى وجوه الإنجليز غيرة يضلون فيها عن رشادهم ، ومعلوم أن الحى لا يسلم نفسه للموت بلا مدافعه مادام قادرا عليها .

يكفى لقيام مليون من المقاتلين الأفغانيين والبلوجيين تحرك خمسة آلاف عثمانى إلى أحيائهم .

لست أبالى أن أقول الحق إذا حصل التساهل فى أمر مصر ، وانفتح باب المطامع

لكل دولة صغيرة أو كبيرة ، وعزت بعد هذا وسائل التلاقى ، فلتأت الدولة العثمانية على ما فى الوسع ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم • [1]

هكذا يرى جمال الدين واجب الدولة العثمانية وهكذا يحدد مسئوليتها نحو أى بلد من بلدان العالم الإسلامى يقع فريسة فى براثن أسوأ الأمم استعمارا « بريطانيا »

ويرى جمال الدين أن دولة الخلافة العثمانية ـ على الرغم من كل الظروف السيئة التى تحيط بها آنذاك ـ صاحبة الحق والشرعية فى أن تدفع العدو الأجنبى الدخيل عن أرض مصر أو الهند أو إيران أو أفغانستان أو أى بلد من بلدان العالم الإسلامى ، أو لعلنا نقول : تلك آمال جمال الدين فى دولة الخلافة العثمانية •

ولا يحمل جمال الدين التبعة لدولة الخلافة وحدها ، ولكنه يطالب الشعب المسلم الذى احتلت أرضه أن يضحى ويجاهد ويقدم الشهداء فى سبيل نيل حريته واستقلاله ، بل يطالب كل الشعوب الإسلامية أن تساند أى بلد إسلامى فى سبيل طرد العدو الغاصب من أرضه •

يهيب جمال الدين بكل الشعوب الإسلامية أن تقف فى وجه الإنجليز ، فيقول : « ألا فليعلم الشرقيون من هنود ومصريين وغيرهم ممن سقطوا بين مخالب الإنجليز ، أن لهذه الدولة خطة تجرى عليها ودستورا تعمل به فى البلاد ، وذلك أنها إذا رأت البلاد فى قبضة سلطان أو أمير ، نازلته وضمنت لنفسها الفوز ، إما بقوة الرجال أو بقوة المال والمكر والاحتيال ، فلا تبالى بريطانيا بأفراد ولو كانوا سلاطين أو أمراء ، ولا بجيوشهم وقوادهم ، وإنما الذى تخشاه ، وتفرق منه ، قيام الأمة بواجبها •

هذا هو السلاح الوحيد القاطع لحول بريطانيا وحيلها ، وهذا الذى رأيناه يخلص البلاد وينجى العباد من نير الإنجليز » [2]

تلك رؤية جمال الدين للعالم الإسلامى وللأسلوب الواجب عليه فى مقاومة الإنجليز المغتصبين •

١ ـ جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى : ٣٧٢ ـ ٣٧٤ •

٢ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ١٨٦ •

٧ ـ جمال الدين يستعدى المصريين على الإنجليز

يقف جمال الدين من قضية احتلال الإنجليز لمصر وقفة المصلح المخلص الناصح المشفق ، فيوجب عليهم القيام بعمل كبير جليل يعادل الحرية والاستقلال ، ويحتم عليهم الوقوف فى وجه الإنجليز وقفة من يريد أن يسترد حريته أو يموت فى سبيلها ، وبخاصة إذا كان سالب هذه الحرية هم الإنجليز أسوأ البلاد استعمارا ، وأدناها إلى استعمال الوحشية والقمع فى معاملة طلاب الحرية وعشاق الاستقلال ٠

يثير جمال الدين المصريين على الإنجليز فيذكرهم ـ وهم غير ناسين ـ بما فعله الإنجليز فى بلادهم ، ليزدادوا حقدا على الإنجليز ورغبة فى التخلص منهم ، فيقول :

« ... ومن سنين دخلوا مصر ، وهى أرض الراحة والسلام ، وأهلوها فى رغد من العيش وأمن من الغوائل ، فإذا هى اليوم ببركة العدل الإنجليزى[١] وحسن الإدارة البريطانية أرض الفتن ومجالات الحروب ومضارب الخلل والفساد ٠

قضت العدالة بحرمان آلاف الوطنيين وطردهم من وظائفهم فى الحكومة وهم ذوو أهل وعيال لا عيش لهم إلا من رواتب الخدمة الوطنية ، وحل محلهم فى الوظائف أخلاط من الإنجليز ، وكسدت أسواق التجارة وغلت أيدى الزارعين عن العمل فى الفلاحة بفقد الأمن وعموم الاضطراب وامتنعت الأرض عن الإنبات بإهمال الأعمال العامة ، واستولى الفقر على الفلاحين حتى عجزوا عن وفاء ديونهم وقصرت أيديهم عن أداء ما عليهم من الضرائب لحكومتهم ٠

ومع كل هذا نرى الإنجليز لا تأخذهم ريبة فى أنهم عادلون قوامون بالقسط وإن حلولهم فى أى قطر وسلطتهم على أى شعب مقرونة بالسعادة والرفاهة والأمن والراحة ، ويعجبون كل العجب من انحراف المصريين عنهم ، ونفرة قلوبهم منهم

---

١ ـ سمى جمال الدين مقاله الذى اقتطفنا منه هذا النص : العدالة الإنجليزية ٠

ويقولون : يا سبحان الله ! كيف يوجد بينهم جمعيات سرية أو جهرية تتحالف على بعضهم ، وتجتمع على الأنفة من العبودية لهم ، وكيف يختلج فى خاطر مصرى أن ينقم على الإنجليز .

ولما أحسوا بحركة الخواطر واشتعال الحرية فى نفوس بعض المصريين وتوجسوا الخيفة من إقدامهم على كلمة الحق وهى : « بلادنا لنا ، ونحن أعلم بمصلحتنا من غيرنا ، ولا نريد أن نكون طعمة للإنجليز» أرادوا أن يقيموا برهانا على عدلهم ويوطنوا النفوس على الرضا بحكمهم ، ويمحوا كل ضغينة من قلوب المصريين بالقوة العسكرية ، كأنهم بإطلاق النيران وسل السيوف يودعون فى القلوب محبة وفى النفوس رضاية[1] ، وهى طريقة جديدة فى إزالة التنافر وإيجاد التآلف ، وربما كانت سنة قديمة عند الإنجليز .

وجاء فى برقية من مراسل « التايمس » فى القاهرة أن العساكر الإنجليزية انتشرت فى شوارع القاهرة شاكية السلاح لتعزيز قوة حفظ الأمن ، والحامل على ذلك ما تأكد عند حفاظ الأمن من الإنجليز أن فى تلك المدينة جمعيات جهرية أو سرية أو أن فيها أشخاصا مصريين يحبون بلادهم ولا يودون أن يكون السلطان فى حكومتها لأجنبى عنهم ، خصوصا إن كان ظالما فيهم ، أو أن فى تلك المدينة من يخطر بباله أن يقول كما يقول أدنى رجل من الإنجليز : إن مصلحة وطننا مقدمة على كل مصلحة ، أو أن فيها من يحدث نفسه بأن الإنجليز لا خير فى ولايتهم ، ويرى شقاء بلاده فى سوء إدارتهم فهاج غيظ مأمورى الإنجليز وبعثهم على الشدة فى طلب الوقوف على مكان أولئك الذين لا يميلون إليهم ليؤاخذوا كل ذى سريرة بما اختلج فى صدره من الانتقاد على أعمالهم ، ومن عزمهم أن يستعملوا من أجهزة الإضاءة ما يشرق به النور ليلا فى كل شوارع المدينة وأزقتها من القلعة إلى أضيق حارة فيها ، ليحققوا ما ظنوه ، ويكشفوا ما توقعوه (وهم فى عملهم هذا يراعون مصلحة المصريين ويأسفون على

---

١ ـ الصواب : رضا ، ولم أجد رضاية فى القاموس المحيط .

حالهم ، حيث كفروا نعمة النظام ولم يعترفوا للإنجليز بهذا الإحسان الذى تفضلوا به عليهم من مدة سنين ويأسفون) ويرون من العدل أن تشرب قلوب المصريين مودتهم بقوة السلاح حتى تكون سيئاتهم حسنات ، وربما لا يتم لهم من ذلك ما يقصدون[1] .

بعد هذا التصوير لسياسة الإنجليز فى مصر ، يتوجه جمال الدين إلى المصريين يستعديهم على الإنجليز ويطالبهم بالتضحية فى سبيل نيلهم لحريتهم ، فيقول : « أيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم ، قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسا .

زحف العدو إليكم تحت راية المحبة ، ثم قلب لكم ظهر المجن ، وتناول بيده الظالمة شؤونكم العامة ، من عسكرية ومالية ، وإدارة وقضاء ، ولم يبق لكم شيئا إلا الحرمان من خدمة أوطناكم ، وأنتم أحق بها ، وطالما دفعتم عنها فى الأيام السابقة ، هذا وهو لم يأمن من طوارق السياسة الخارجية ، ولم يمح القوى الداخلية ، بطلب استمالة القلوب إليه ، وجمع النفوس عليه ، فكيف به إذا رسخت أقدامه وارتكزت أعلامه ، وخلا له الجو من المعارضين ؟ ما ترجون من مطاولته ؟

وماذا تأملون فى إرخاء العنان له ؟

وماذا تهابون فى معارضته والأخذ على يده ؟

أما رجاء الخير منه فوهم فاسد وخيال باطل ، فقد رأيتم أنه أفسد شئونكم وأقلق راحتكم ، وحرم رجالكم من الخدم ، وأفقر آلافا مؤلفة من العائلات ، ووهب من بلادكم لأعدائكم ، وأضر بمنافعكم العامة من زراعة وتجارة وصناعة ، فأغلق أبواب الكسب فى وجوهكم ، وقصد إلى التدخل فيما يختص بأمور دينكم (كالأوقاف) ، وعمد إلى خرق سياجكم وإزالة قوتكم بطرد جنودكم ، وهذه أوائل أعماله فكيف تكون نهايتها ؟

---

١ ـ جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى : ٣٥٨ ـ ٣٥٩ .

فماذا تخشون منه ؟ هل تخشون أن تنقص أموالكم وثمرات كسبكم ، إذا أديتم حقوق وطنكم وحاربتم عدوكم ، ربما يختلج هذا بخاطر بعضكم ، وهو من عجيب الخواطر ·

أنتم واقعون بسكوتكم فيما تخافون منه ، انتقصت الأموال والثمرات ، وفاضت العبرات وزادت الحسرات وان زدتم فى الخضوع زادكم عدوكم خسارة وأوسعكم خرابا ودمارا ، إن رسخت قدم العدو بينكم لا يبقى منكم غنى إلا افتقر ، ولا عظيم إلا احتقر ، وإن شئتم فانظروا مستقبلكم فى مرآة حاضركم واقرأوا حالكم فى تاريخ من سبقكم ·

هل تخشون إذا قمتم بفروضكم أن يأتى الخطر على حياتكم ؟ يمكن أن يعرض هذا الوهم بخيال طائفة منكم ، ولكن فلتعلموا أن عدوكم فى هذا الوقت ضعيف العزيمة خائر القوة ، الدول متألبة عليه يترقب منها فى كل آن مطالبته بنتائج أعماله ومحاسبته على عواقب تصرفه ، ثم هو يخشاكم كما يخشى الدول أو أشد خشية · إنه مسرع فى سيره منطلق إلى مقصده بغاية ما يمكنه ليتخذ لنفسه قرارا مكينا ومقرا أمينا ، ولا يخفاكم أن المسرع فى حربه يكبه على وجهه عثرة فى مدرة ·

فلو ظهرت منكم فى هذا الوقت مقاومة خفيفة أو مؤاخذة طفيفة أو تظاهرتم بالنفرة وعدم الرضا عن سيره فيكم وجهرتم بذلك لرأيتم أن ماءه سراب وسحابه جهام وسيفه كهام ، وأوقفتم سيره واستعليتم بقوتكم على ضعفه ، وأقمتم للدول حجة قوية فى كبحه ورد جماحه وإلزامه باحترام الحقوق العامة والخاصة ونزع قوة العمل من يد استبداده ، وتخويلها لسلطة تحفظ بها الموازنة بين حقوقكم وحقوق أوربا كافة ·

أما لو تركتم عدوكم حتى ينتهى لمقره ، ويقوى على أمره ، ويدوخ السودان ، ويحيط بجيوشه أعالى البلاد المصرية ـ لا أناله الله ذلك ـ صعب بعد هذا تعريفه وإيقافه عند حده ، وضعفت حجة الدول فى معارضته ، إن أقدم حجة للدول عليه هى عجزه عن القيام بما كتب على نفسه من تقرير الراحة ، وإصلاح ما كان يظن من الخلل فى مصر ، فلو تمكن عدوكم بسكوتكم من إظهار قدرته · وإقامة الدليل على

كفاءته للولاية عليكم ، فقد فاز بالسيادة فيكم وأصبحت دماؤكم وأموالكم وجميع شئون حياتكم فى قبضة جوره ·

فى إمكانكم الآن أن تضروا بعدوكم وليس فى إمكانه أن يضر بكم ، فإذا مضى زمن انعكست القضية وأصبحتم فى عجز عن مقاومته وأصبح وفى يده عصى الجبروت لإذلالكم ·

إن كنتم تخافون من الموت أو التذليل فهو الآن على بعد منكم ، أليس يؤخذ منكم الأبرياء بالشبه الباطلة ، ويهانون ويذلون وكثير منهم يقتلون ؟

إن عدوكم هذا سيحاسبكم على خطرات قلوبكم وحركات دمائكم فى أبدانكم ، ويفعل بإخوانكم فى ديار غير دياركم ما يفعله بكم[1] ثم لا يبقى على أحد منكم ، فأنتم اليوم أصحاب أمركم ، وهذا قصده إليكم ، وفى إمكانكم أن تستعينوا بالله فى التحصن من خطر آجل بدون ضرر عاجل ، فإن شئتم فارحموا أنفسكم وإلا فأنتم ساقطون فيما منه تخافون ·

يا قوم : يؤثر فى كتبكم من كلام سلفكم : « الشجاع محبب حتى لعدوه والجبان مبغض حتى لأبيه وأمه · » ·

تعلمون أنه ما عز قوم بالخضوع ولا استهين شعب بالإباء ، لماذا تعدون أنفسكم فى الدرجة الدنيا عمن سواكم ؟ ألستم تتشابهون فى الخلقة مع أعدائكم ؟ ألستم تمتازون عنهم بالإيمان الصادق والعقائد الصحيحة ؟ ألستم تنتسبون إلى أولئك الأبطال الذين دوخوا البلاد وسادوا العباد ؟ ألستم تدعون أنكم أشرف عنصرا وأكرم جوهرا ؟

فإن قمتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم أكثر مما يصيب أعداءكم ؟ إن كان الموت فهم يخشونه ، إن كان الخسار فهم يرهبونه ، إنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون ·

---

١ ـ جملة ما يفعله بكم : زدناها ليستقيم المعنى . ولعلها كذلك فى الأصل ·

لأى شىء يخاطر عدوكم بماله ودمه للتغلب على ما ليس له ؟ ولأى سبب لا تقدمون بشىء من شهامتكم فى حفظ ما هو لكم ؟ إن هذا لشىء عجاب ـ هل نذكركم بقول شاعركم :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

ليس هذا مقام التذكير ، وليس المكان مكان المباراة فى المجد والمسابقة إلى معالى الأمور ، إنما الكلام الآن فى الدفاع عن الحياة وصيانة ضرورات المعيشة ، فإن لم يستفزكم طلب العلا وسمو الهمم فليستفزكم تصور الشقاء المنتظر الذى رأيتم بوادره ، ونعوذ بالله أن تدرككم أواخره .

استغفر الله لا تزال ترجى فيكم النجدة والشمم والرفعة ، لا يزال دينكم يترقب منكم حمية عليه وغيرة لدفع الغائلة عنه .

إن صاحب الدين صلى الله عليه وسلم ينتظر فيما يعرض عليه من أعمالكم نهضة لإعلاء كلمة الحق ، وإنقاذه من مخالب أعدائه ، وإن الله فى عز جبروته لن يدعكم على ما أنتم عليه حتى يعلم الصادقين منكم ويعلم الصابرين : « يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله » ، « ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »(١) .

هذه كلمات جمال الدين التى وجهها للمصريين يستعديهم على المستعمر الإنجليزى ويحملهم تبعة التقصير ، وهى تفيض إخلاصا وحبا للإسلام والمسلمين .

---

١ ـ جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى : ١٨٩ ـ ١٩٢ .

٨ ـ جمال الدين يقارن بين الشرقى والغربى

عاش جمال الدين الفترة التى رأى فيها العالم الإسلامى وقد أطبق عليه أعداؤه من كل جانب ، فآلمه ذاك وآذاه ، وما كان له وهو المصلح المجدد أن يسكت على هذا الواقع السيئ الذى يعيشه المسلمون فى ظل الاحتلال والاستعمار ، فسخر عقله وقلمه وحياته كلها ليخلص بلاد المسلمين من أيدى أعدائهم ، فكان من خطته أن يظهر حقيقة هذا العدو المستعمر من جانب ، وأن يثير فى نفوس المسلمين حميتهم الدينية وحماسهم لأوطانهم وأعراضهم من جانب آخر .

وكان من أهدافه أن يهون من شأن المستعمر وشأن قوته وجبروته لأنه غاصب والغاصب جبان ولص مخادع يذعر لأول صيحة يصيحها فيه صاحب الدار ، وفى الوقت نفسه يحمس المسلمين ويشجعهم ويذكر بواجباتهم نحو دينهم وأوطانهم ليغريهم بالثورة على هذا العدو المستعمر ، فيخلصوا بلادهم وبلاد إخوانهم المسلمين من ذل الاحتلال ووصمة تحكم الأجنبى الدخيل .

يرى جمال الدين أن تسلط الدول الأجنبية على البلدان الإسلامية حَجْرٌ يجب أن يرفع وذل يجب أن يحارب ويقاوم ، ولكنه يحاول ـ من أجل أن يقنع أهل الشرق بمقاومة أعدائهم وأعداء دينهم ـ أن يكشف عن طبائع الشرقيين وطبائع الأوربيين وبخاصة الإنجليز منهم ، بقصد تحريض الشرقيين على أعدائهم .

كتب جمال الدين فى الحجر الذى يطبقه الغربيون على أهل الشرق وقارن من خلال ما كتب بين الشرقى والغربى فقال :

« أبتدئ بوصف الإنجليزى على أقصر الطرق ، فهو قليل الذكاء عظيم الثبات كثير الطمع والجشع عنود صبور متكبر » .

والعربى أو الشرقى كثير الذكاء عديم الثبات قنوع جزوع قليل الصبر متواضع .

يثبت الإنجليزى حتى على الخطأ إذا تسرع وقاله أو باشره - والشرقى لا يثبت على الصواب ولا على طلب حقه ، فيفوز الأول فى خير النتائج بفضيلة « الثبات » ويخسر الثانى كل حق برذيلة « التلون وعدم الصبر » ولذلك فأكثر ما ورد فى القرآن الكريم ذكر الصبر ولزومه مثل قوله تعالى « واصبروا وصابروا ... » « والذين صبروا .... » « ولو أنهم صبروا .... » « وبشر الصابرين ... » الخ .

كل هذا يدل بصراحة على أن الأمة العربية خصوصا والمسلمين عموما أحوج إلى الصبر والثبات من كل ما فى الأخلاق المؤدية للسعادة البشرية ، فتراهم يستهويهم الوعد الكاذب عن علم ويرضون به ، إذا كان الموعد قريبا ، ولا يصبرون على الوعد الصادق إذا كان أمره بعيدا ، فيخسرون فى الحالين ولا يستثمرون غير الفشل .

أما المصريون والشرقيون عموما ، سواء كان لقاء الإنجليز أو غيرهم من دول الغرب ، فمثلهم كمثل رجل مثر ترك من الأموال والأملاك ما هو معلوم بعضه ومجهول أكثره ، وخلف ورثة على غاية السرف والتبذير .

وبمثل تلك الحالة من مورث ووارث نرى الشريعة قضت بوضع الحجر على الوارث السفيه المبذر ، واعتبرته قاصرا غير مختار ، ولا حر التصرف بملك ومتروكات مورثه .[1] .

نعم وقع الشرقيون بما ترك لهم من الميراث تحت حكم المبذرين والمسرفين والسفهاء ، وقضى على الشرق وأهله (تداول الأيام) أن يكون الحاكم وواضع الحجر عليهم هو الغرب .

إن الفرق ظاهر بين وضع الحجر على الوارث المسرف من الحاكم الشرعى وبين

---

١ - الصواب : بملك مورثه ومتروكاته - حتى لا يفصل بين المضاف والمضاف إليه وقد نبهنا على هذا الخطأ أكثر من مرة فى هذا البحث .

حكم الغرب بوضع حجره على الشرق وأهله ، لأن الحجر الشرعى يمكن رفعه بإثبات صلاح سيرة الوارث ، وتبين حقه بإرجاع حرية تصرفه بمال مورثه ، أما حجر الغرب فهو مما لا تؤثر فيه بينات على الرشد ولا تعمل فيه عوامل تولية وحجج منطقية ليرفع حجره .

والسبب أن الغرب فى الحقيقة ليس من مصلحته إصلاح سير ، ولا إصلاح سيرة المسرف المبذر لترجع إليه حقوقه ، بل من أقصى أمانيه أن يتمادى الشرقى فى غيه وإسرافه لكى يطول عهد الحجر ، ومع تمادى الزمن أن يتم بعد الاستعمار التملك والاستعباد ، فما لبث الشرقيون فى السفه والسرف ـ ونتيجتها عدم الكفاءة لتولى حكم أنفسهم ـ يلبث حكم تلك الوصاية .

ما من دولة غربية تطرق باب مملكة شرقية إلا وتكون حجتها ، أما حفظ حقوق السلطان ، أو إخماد فتنة قامت على الأمير ، أو إنفاذ نصوص « الفرامين »[1] أو غير ذلك من البهتان والختل والخداع ، وواهى الحجج ، فإذا لم تكف تلك الأضاليل للبقاء تذرعت إما بحجة حماية المسيحيين أو حماية الأقليات أو حقوق الأجانب وامتيازاتهم ، أو حرية الشعب أو تعليمه أصول الاستقلال أو إعطاء الشعب حقه تدريجا من الحكم الذاتى أو إغناء الشعب الفقير بالإشراف على موارد ثروته ، فالشعب الشرقى الخامل يرى فى هذه المواعيد الخلابة ما قاله الشاعر :

مازال يغدق آلاءً ويشفعها   بما يفوق أمانى النفس بالعظم

فيرتاح إلى تلك المواعيد ويرضخ إلى حجر الغربى ، ويقدم فى كل يوم نوعا من الطاعة وشكلا من الإكرام ، ورضوخا لأوامر فيها أنواع الضرائب ، يتسابقون متهافتين على التعبد له ، ولا تهافت الفراش على لهيب النار .

---

١ ـ الفرمان : أمر سلطانى واجب التنفيذ .

يفعلون ما يأمر به الغربى ، ويؤدون كل ما يطلب فى بادئ الأمر على مضض يكتمونه ويغالطون أنفسهم ، إنها حالات وقتية أو سحابة صيف عن قريب تقشع ، ويرجعون معللين أنفسهم أن الغربيين سيوفون لهم بوعدهم وينالون تلك الأمانى ، إذ يتركونهم بعد إسداء نعمة التعليم لهم ، شعبا حرا مستقلا بإدارة شئونه ، مختارا بوضع ضرائبه ، عالما بإيراده ومصرفه ، منتقيا من أبنائه حكاما ، من أنزههم نفسا ، وأحسنهم سيرة وسيرا وأصدعهم بالحق قولا وفعلا .

هذا ما يتعلل به الشرقى !!!

وأما ما يفعله الغربى فهو :

برنامج يحمله من بلاده فى محفظته ، ثم ينقله إلى ذاكرته وحافظته مسطور فيه :

« شعب خامل جاهل متعصب ، أراض خصبة ، معادن كثيرة ، مشاريع كبيرة هواء معتدل ، نحن أولى بالتمتع بكل هذا » .

وللوصول إلى الاستيلاء الممتع يضع خطة هى :

أولا :

إقصاء كل وطنى حر يمكنه الجهر بمطالب وطنية .

ثانيا :

تقريب الأسقط همة والأبعد عن المناقشة والمطالبة بالحق .

ثالثا :

الدخول على البلاد بتفريقها طوائف وشيعا ، فتؤثر طائفة على الأخرى ولو بأمور طفيفة تافهة ، حتى تستحكم النفرة من بعضهم[1] ، فيضعون بأسهم بينهم .

---

١ ـ الصواب : تستحكم النفرة من بعضهم لبعض .

وهكذا ، من باب الوظائف ليس فقط يجعلون الطائفة الواحدة تنازع أختها من الطوائف ، بل يجعلون أبناء بيت واحد ينازع بعضهم بعضا .

كل هذه حالات تزيد الوصى جرأة وتماديا فى الحكم الكيفى ، وغل أيدى الشعب ورجاله المخلصين عن النهوض بالوطن ، والتخلص من ربقة الاستعباد وفك أغلال الحجر .

وهذه المطالب من فك حجر ، واستقلال ، لا تتم إلا بالأخذ بأفعل العوامل ، مثل ترقيه الهيئة بالعلم الصحيح ، والوقوف على مواضع الضعف ، ومعرفة الواجبات لهم وعليهم وكيفية الوصول للمطلوب ، والدخول من الأبواب لأخذ حق الضعيف من القوى .

وأهم من جميع ما ذكر : اتفاق الكلمة وجمع الأهواء المختلفة[1] .

ثم يهيب جمال الدين بالشرقيين أن يلجأوا إلى الدواء الناجع فى القضاء على أعدائهم والتخلص من تحكمهم فيهم ، فيقول : « لدى أهل الشرق دواء سريع التأثير فى الشفاء ، ولكنه عظيم الخطر ، مفزع للجبناء منهم ، وقد وصفه حكماء الشعر من العرب بقولهم :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنود

وقولهم :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

هذا النوع من الدواء توارثه الغربيون ، وعملوا بكل معانيه ، فتسنى لهم من العظمة والاستطالة والحكم بالشرقيين ما نراه محسوسا مشهوراً ، وبين أيدينا ومن خلفنا .

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ٨٠ ـ ٨٢ .

أما الشرقيون وقد وجدوا فى هذا الدواء الشافى والواقى ، مرارة ومشقة وقتية وعناء ، فطرحوه ، ونبذوه جانبا ، ورضوا من مجد باذخ وملك مسيطر (بعير ، ووتد !) قد لا يملكونهما اليوم تمام الملك ، فحق عليهم قول الشاعر :

ولا يقيم على ذلٍّ يراد به ‌‌‌‌ إلا الأذلان عـير الحـى والوتد[1]

وبعد :

فلعلنا فى هذا الفصل من الكتاب نكون قد وفقنا إلى تجلية صورة المصلح المجدد وهو يقف لأعداء الإسلام والمسلمين بالمرصاد ، ويقاوم خططهم وتدبيرهم ، ويكشف عن حقيقة نواياهم نحو العالم الإسلامى .

إن جمال الدين الأفغانى قاوم أعداء الإسلام بما أزعجهم حقا ، وبصر المسلمين ونصحهم بما جعل منهم فيما بعد قوة تتصدى لأعدائهم بكل رغبة فى التضحية والفداء .

١ ـ السابق : ٨٣ .

الفصل الثالث :

التصدى للفكر المنحرف عن الإسلام

وفيه :

١ ـ تمهيد ·

٢ ـ الحركات المنحرفة عن الإسلام ·

وتتناول :

أ ـ البابية ·

ب ـ المهدوية ·

جـ ـ الدهرية ·

د ـ الداروينية أو مذهب النشوء والارتقاء ·

٣ ـ الانحرافات الفكرية التى تصدى لها جمال الدين ·

وتتناول :

أ ـ القول بسد باب الاجتهاد ·

ب ـ محاولة إقصاء الفصحى ·

جـ ـ الفهم الخاطئ للتعصب ·

د ـ انحراف خطبة الجمعة عن هدفها ·

٤ ـ آثار المدنية الغربية فى الأمة الإسلامية ·

وتتناول :

أ ـ حقيقة المدنية الغربية ·

ب ـ ناشئة الأمة الإسلامية التى جرفها التيار الغربى ·

التصدى للفكر المنحرف عن الإسلام

التمهيـــد

تمهيـــد :

كانت الفترة التى عاشها جمال الدين الأفغانى فتـرة ضعف سياسى للعالـم الإسلامى معظمه ، ومع هذا الضعف السياسى تعمل التيارات المعادية عملها ، وتجد متنفسا لتحقيق أغراضها والتنفيس عن أحقادها ·

وقد رأى جمال الدين تسلط أعـداء الإسـلام وبخاصـة الإنجليز على العالـم الإسلامى تسلطا يصح معه القول بأن المسلمـين قد أصبحـوا غربـاء فى ديارهـم مقهورين فى أوطانهم ، يعيشون فى ظل وصاية مفروضة وتبعية محتومة ، فقد صار أمر البلاد بأيدى أعدائها من الإنجليز ، ومقاليد الحكم والسلطان موكولة إلى بعض الحكام المسلمين الأتباع للإنجليز أو الضعفاء أمامهم ·

كان ذلك أمر الهند ـ أعظم الممالك الإسلامية وأكثرها عددا ـ وأمر أفغانستان وإيران ، وأمر مصر والسودان ، وأمر كثير من البلدان الإسلامية فى الشرق الأقصى والأوسط والأدنى ، بل كان ذلك شأن كثير من بلاد المسلمين فى المغرب العربى ، وفى الأندلس التى خرجت من أيدى المسلمين خروجا مطلقا ·

وكان من شأن الإنجليز إذا احتلوا بلدا إسلاميا أن يثيروا فيه الفتن ويعملوا على خلق الإحن الطائفية ـ ويجعلوا من هذه وتلك فرصة لزيادة أحكام قبضتهم على البلاد بحجة المحافظة على الأمن ، وحماية الأقليات ·

ولم يكن إحداث البدع وتشجيع الانحرافات الفكرية عن الدين الإسلامـى بعيدا عن مخططات الإنجليز أو وسائلهم فى القضاء على الفكر الإسلامى وحضارة الإسلام فى مختلف أشكالها وأنواعها ·

ولم تكن الحملات المسعـورة التى تستهدف تشويه الإسلام عقائده وعباداتـه وفكره وثقافته شيئا عفويا يقوم به المبشرون أو بعض المستشرقين من عند أنفسهم أو

بوحى من أحقادهم على الإسلام وصليبيتهم ، وإنما كان للإنجليز يد وأى يد فى العون والدعم والتشجيع وإعداد المناخ الملائم لهذه الحملات الضالة المضلة ، وإن كثيرا من المؤتمرات التبشيرية والاستشراقية لتشهد على صحة هذا وتؤيده أكبر تأييد ٠

من هنا لم يكن مستغربا ولا داعيا للعجب أن يدعم الإنجليز كل فكر منحرف عن الإسلام ، وكل تضليل للمسلمين ، بل لم يكن غريبا أن يخترعوا هم من الأفكار والضلالات ما يصرفون به المسلمين عن دينهم ومنهجه فى الحياة ٠

ومن هنا يلحظ المتأمل ـ فى هذه الاونة التى عاشها جمال الدين ـ نمو عدد من الأفكار المنحرفة عن الإسلام وترعرعها فى صفوف المسلمين ، كما يلحظ اهتماما زائدا بالدعوات الهدامة فى مجتمعات المسلمين ٠

وعلى رأس هذه الدعوات والحركات المنحرفة عن الإسلام المعادية له ـ مما تصدى له جمال الدين فى أحاديثه وخطبه ومقالاته ٠

البابية ٠

والمهدوية ٠

والدهرية ٠

و « الداروينية » أو نظرية النشوء والارتقاء ٠

ومما تصدى له جمال الدين مما يعد فكرا منحرفا عن الإسلام ، أو يعد نتيجة للوقوع تحت تأثير أفكار الغرب وحضارته ، والذى لهج به كثير من الغافلين من المسلمين :

القول بسد باب الاجتهاد ٠

والدعوة إلى إقصاء الفصحى عن الأدب والحياة ٠

والفهم الخاطئ لوظيفة خطبة الجمعة ٠

ونظر جمال الدين إلى هذا الفكر المنحرف وعرف من أين أتى وإلى أين يسير

فاهتم بقطع روافده ، وكانت تلك الروافد عنده هى حضارة الغرب الغازية ومدينته الغالبة المفروضة فرضا على العالم الإسلامى ، يأخذ بها ليدع ما أنعم الله به عليه من حضارة لا تطاولها حضارة ومدنية لا تغنى عنها مدنية ، فأخذ جمال الدين يناقش المدينة الغربية مالها وما عليها نقاشا موضوعيا هادفا ٠

ووجه للأمة الإسلامية من عظاته ونصائحه ما يصرف ناشئتها عن الانجراف فى تيار الحضارة الغازية المعادية ٠

وقد قال جمال الدين كلمته وأسمع من كان له قلب أو ألقى السمع ، ولا عليه أن تنال دعوته النجاح أو تعجز عن تحقيقه ، فحسبه أن لم يسكت عن الباطل والضلال ، وبحسبه أن واجه بكلامه هذا كل حاكم ظالم وكل مستعمر غاشم ، لم يبال ماذا يخسر من راحته وحريته ٠

الحركات المنحرفة عن الإسلام

أ ـ البابيـــة

فى مجال حديث جمال الدين عن البابية والبهائية ، كتب عن البابية ما يعد أجمع ما كتب فيها وأوفاه ، فقد تتبع فى مقاله ذاك تاريخها وأشهر رجالها ، وقد نقل عنه البستانى فى دائرة معارفه هذا المقال كاملا ، وقد تحدثنا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب عن ذلك المقال فذكرناه كاملا .

ونحب أن نوضح هنا أبرز ما قاله جمال الدين عن هذه الحركة المضادة للإسلام التى غذاها الإنجليز بالفكر والمال والسلطان ، ففى مقاله ذلك يقول عنها : « دين ظهر فى بلاد العجم سنة ١٨٤٣ م (١٢٥٩ هـ) بدعوة رجل من أهل شيراز هو السيد على محمد ، وكان من أمره : بعد أن حج إلى مكة أن ادعى أنه باب المهدى ، وأقام على تقرير هذه الدعوى مدة ، وأسس ذلك الدين من عناصر إسلامية ونصرانية ويهودية وثنية ، ولقب نفسه النقطة أو خالق الحق ، مدعيا أنه ليس نبيا بسيطا بل هو ملخص للآلهة ، ومنح أحد أتباعه لقب « الباب » وأرسل دعاة إلى جهات مختلفة ..

... ولما رأى إقبال الناس عليه وإجابتهم دعوته ترفع فى دعواه فقال : إنه هو النبى ، وإن الله قد أنزل عليه كتابا يسمى بالبيان وأنه المشار إليه بقوله تعالى « خلق الإنسان علمه البيان » .

ومن كلامه عن ديانة الباب قوله : وأما ديانة الباب فتثبت مبدأ واحدا كسائر الأديان على ما يتراءى من قول أتباعه ، وتحكم بصدق جميع المرسلين السابقين ، وتقرب من قول النصارى بحلول اللاهوت فى الناسوت ، وتنبئ عن ثواب وعقاب للأرواح بعد مفارقة الأبدان لكن على وجه يشبه الخيال ...

ومن أحكامه أنه يجب تخريب جميع البقاع المقدسة كمكة وبيت المقدس وقبور الأنبياء .

ويصح أن يقال : إن دينهم إلى الآن لم يقر على نظام واحد بل هو كالرمال السيالة تحدث بسيرها تلا فى محل ثم تنتقل ، وتحدث تلا آخر بشكل آخر فى محل آخر ...[1] .

ومقال جمال الدين عن البابية عرف بها وأوضح ما فيها من زيغ وانحراف عن الإسلام ، وفى نفس الوقت حذر المسلمين من أن يقعوا نهبة لهذه الأفكار المنحرفة الضالة المضلة .

ولا أحب هنا أن أفيض فى الحديث عن البابية ، وكيف أدت إلى البهائية ، وإنما أكتفى بالإشارة الخاطفة فأقول : « فى مؤتمر برشت ١٢٦٤ هـ ـ ١٨٤٧ م أعلن البابيون انسلاخهم عن الإسلام ، وحاربوا الإسلام واللغة العربية ، ودخلوا مع حكومة فارس فى حروب ومنازعات أدت فى النهاية إلى إصدار الحكم بإعدام الميرزا « النقطة » .

وخبا صوت هذه الفلسفة الضالة المضلة ، وكبا جواد تلك الفرقة المنحرفة المعادية للإسلام حينا من الزمان ، ثم أخذ أتباع « النقطة » يعملون فى الخفاء والسرية ، ودخل معهم فى هذا الضلال عدد كبير من اليهود .

وفى عام ١٢٨٥ هـ ـ ١٨٦٨ م خرجت البابية من عكا باسم جديد هو : البهائية نسبة إلى زعيمها الجديد ميرزا حسين على المازندرانى الذى يلقب « بهاء الله » .

ومن المقرر أن حياة البهائيين فى عكا بين جماعات اليهود أثرت فيها تأثيرا كبيرا ، وباعدت بينها وبين الإسلام إلى حد أنها أصبحت وجها آخر لليهودية .

ولما مات البهاء فى عكا خلفه ابنه عباس أفندى الذى كان فى خدمة الحلفاء أثناء الحرب العالمية الأولى ، فأنعمت عليه بريطانيا بلقب « سير » وبرتبة فارس .

---

١ ـ البابية : من بحثنا هذا الفصل الثانى ص٦٨

ولما توفى عام ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣١ م خلفه ابن بنته « شوقى ربانى » الذى مات دون أن ينجب ولدا ٠

وقد رعى اليهود ـ ولا يزالون يرعون ـ البهائية ، ودفعوا بها إلى أقطار الأرض ، يؤيدونها بالفكر والحيلة والمال ، فأصبحت حركة « صهيونية أمريكية » وأسفرت عن وجهها الصهيونى حين توفى « ميرزا شوقى ربانى » فاجتمع المجلس الأعلى للطائفة البهائية فى إسرائيل وانتخب صهيونيا أمريكيا اسمه « ميسون » ليكون رئيسا روحيا لجميع أفراد الطائفة البهائية فى العالم كله[١] ٠

وبعد : فإن جمال الدين المصلح المجدد ، جعل من صميم إصلاحه وتجديده أن يتصدى لكل فكر منحرف عن الإسلام ، فكتب عن البابية أوسع ما كتب عنها فى وقته ، وكشف فيها عن الزيف والضلال ٠

---

١ ـ للمؤلف : الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام ١٣٧ ـ ١٣٨ ٠

ب - المهدوية
أو حركة محمد أحمد المهدى بالسودان

وقف جمال الدين من هذه الحركة موقفا يحتاج إلى تأمل ودراسة ، فهو من أحد جانبيها يرى ما فيها من الزيغ والانحراف عن الإسلام ، فيكشف عن هذا الزيغ وذاك الانحراف .

ومن الجانب الثانى يراها شوكة فى جنب الإنجليز تقض مضاجعهم وتؤرق وجودهم فى السودان البلد المسلم ، فيبدو فى كتاباته كما لو كان راضيا عن مسلك محمد أحمد المهدى ضد الإنجليز .

كتب جمال الدين عن هذه الحركة فبدت كتابته كما لو كانت تأييدا وتشجيعا لهذه الحركة لما فيها من مقاومة للإنجليز المستعمرين الأجانب أعداء الإسلام فى كل بلد ينزلون فيه ، وفى أحيان أخرى بدت كتابة جمال الدين عن هذه الحركة وفيها الحرص الشديد على رصد الانحراف فيها عن جادة الدين ، كما بدا ذلك فى كلمات صاحبها .

وفى حين ثالث نحس من كتابة جمال الدين عن المهدى وحركته أنه يخاف انتشار هذه الدعوة ويخشى استفحال أمرها ، ويدعو المسلمين إلى حربها والوقوف فى وجه داعيتها ، كما لو كانت حركة استعمارية .

ونحن فى هذه الصفحات نود أن نعرف بحركة المهدى كما تحدث هو عنها فى خطابات عديدة وجهها إلى الناس ، ثم نتحدث عن رأى جمال الدين فى هذه الحركة .

أولا :

صاحب الحركة وداعيتها

هو محمد أحمد المهدى المولود فى سنة ١٢٦٠ هـ (١٨٤٤ م) والمتوفى فى سنة ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) بالسودان وهو « زعيم دينى تصوف ودخل الخلوة ، وكثر مريدوه الذين لبسوا الجبة المرقعة دليلا على الفقر والمساواة فسموا « الدراويش » .

أنشأ الطريقة المهدية التى أخذها عن الإدريسية ، أعلن دعوته سنة ١٢٢٩ هـ (١٨٨١ م) وصرح بأنه المهدى المنتظر ، وأطلق على أتباعه الدراويش اسم « الأنصار » .

ثار على الحكومة ، وهزم الحملات التى جردتها لتأديبه ، واستولى أتباعه على السودان ودخلوا الخرطوم ، ثم أخمدت الثورة فى سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م)[١] .

ومن أبرز أتباعه والدعاة لحركته عثمان دقنه المولود فى سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٦ م) والمتوفى سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م) ، فقد عاون المهدى بشرقى السودان وانتصر على حامية سنكات المصرية سنة ١٣٠١ هـ (١٨٨٣ م) واصطدم بقوات « بيكر » غربى سواكن ـ موطنه ـ فهزمها .

وحاربه القائد الإنجليزى (كتشنر) فاستطاع عثمان دقنه الإفلات منه والنجاة بنفسه سنة ١٣٠٤ هـ (١٨٨٦ م) .

وقد أصبح عثمان دقنه صاحب الكلمة النافذة بشرقى السودان ، وفى سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١) م حارب القوات المصرية والإنجليزية فانهزم وتشتت شمله ولكنه عاد فقاتل فى معركة أم درمان سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) حيث هاجم القوات المصرية والإنجليزية ، غير أنه انهزم ويئس .

ومن بعض خطابات محمد أحمد المهدى نستطيع أن نتعرف على دعوته : أهدافها ووسائلها ، وكثيرا من أبعادها .

١ ـ الموسوعة العربية الميسرة : ١٧٦٤ ـ ط القاهرة ١٩٦٥ م .

فقد أخذ محمد أحمد المهدى يدعو لنفسه ويعلن أنه المهدى المنتظر ، ففى شعبان من سنة ١٢٩٨ هـ أعلن أن رسالته وهى المهدية الكبرى واجبة الاتباع ، وحدد لأتباعه شهر رمضان من نفس العام لموافاته فى جزيرة « أبا » للهجرة إلى مكان يكون فيه قوام الدين ٠

وأخذ يكتب فى ذلك عديدا من المنشورات ٠

وقد انتشر أمر هذه المنشورات التى كتبها محمد أحمد المهدى ، فعلم بذلك رؤوف باشا حكمدار السودان آنذاك ، واطلع على بعضها ، فكتب لمحمد أحمد يسأله عما نسب إليه من توزيع تلك المنشورات ، وقد انتحل له عذرا بقوله : « لعل بعض العداة كتب هذه المنشورات ونسبها إليكم » ٠

فرد عليه المهدى بهذه الرسالة التى ننقل نصها ، والتى تتضح فيها دعوة المهدى وأبعادها ، وما فيها من انحراف عن الإسلام ٠

يقول المهدى فى تلك الرسالة: « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الولى الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد :

فمن عبد ربه محمد المهدى بن السيد عبد الله إلى « الحكمدار » بالخرطوم ، وبعد :

فعلى مقتضى المكاتبة ، فالأمر المطلوب كشفه أن دعائى الخلق على تقويم السنة والهجرة بالدين مما عليه الطباع الزمنية أمر من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، والإعلام بأنى المهدى المنتظر من سيد الوجود ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرارا عديدة مع الهواتف الإلهية وعلامات أخبر بها سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ٠

فمن تبع صار من المقربين الفائزين ، ومن تخلف خذله الله فى الدارين ، وصده بقوته التى يعجز عن معارضتها جميع العالمين ٠

وأما المواعظ للمؤمنين فهى مبينة ، فمن لم يصدق طهره السيف ، وليكن المعلوم أنه أتانى من الحضرتين النبوة وحضرة الأقطاب سيف ، وأعلمت أنه لا ينصر على معه أحد ٠

من أتانا بالعداوة يأخذه الله إما بالخسف أو بالغرق ، وذلك إعلام منه صلى الله عليه وسلم ، وكل ذلك لم أعمل فيه بشيء من نفسى ولا لغرض ، وإنما هو من الله وإلى الله ، ومعلوم قوله تعالى : إن تنصروا الله ينصركم .. الآية وقوله صلى الله عليه وسلم : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك .. وإلى غير ذلك من الأدلة الظاهرية والباطنية ، وفيما ذكرته كفاية يكتفى بها أهل العناية ، والسلام ، سنة ١٢٩٨ هـ[1] .

وفى خطاب آخر أرسله إلى شيخ الإسلام الشيخ محمد الأمين جاء فيه قوله :

« .. وقد أخبرنى صلى الله عليه وسلم بأخبار ليست عند الأولياء ، ولا عند العلماء ، وقد قال تعالى : « ويخلق ما لا تعلمون » وقد جمع النبى صلى الله عليه وسلم أرواح الذين أنكروا مهديتى من الأولياء العارفين والعلماء العاملين ، ووبخ عليهم غاية التوبيخ ، وعدد عليهم النعم الدينية والدنيوية والظاهرية والباطنية ، ما صرف عنهم من البلايا الحسية والمعنوية ، وقال لهم : ما شكرتم نعمة الله تعالى حيث أنكرتم مهدية فلان ، وقد أعطاكم الله نعما فما شكرتموها حيث لم تصدقوا بمهدية فلان ، وفلان هذا قد شكر نعم الله فولاه عليكم وأعطاه المهدية ، فكيف تنكرون فى المهدية له ؟ قالوا : تبنا يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : اطلبوا منه العفو . فطلبوا منى العفو ، فمن له سعادة صدق بأنى المهدى المنتظر ، ومن لا جعل الله له عوارض تصده عن التصديق بالمهدية لى .

وقد دلت كرامات على صدق إخبارى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن لا تنفع الكرامات والآيات من أراد الله شقاوته .

وقد أخبرنى النبى صلى الله عليه وسلم مرارا أن من شك فى مهديتى كفر بالله ورسوله ، وأن من عادانى كافر ، وأن من حاربنى يخذل فى الدارين وأولاده غنيمة

---

١ ـ د. مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل مصر والسودان فى القرن التاسع عشر ص ٦٥٠ ط دار الثقافة ـ بيروت .

للمسلمين ، وليكن معلوما عندكم أنى لا أفعل شيئا إلا بأمر النبى صلى الله عليه وسلم[١] .

وبعد : فإن هاتين الرسالتين كافيتان للدلالة على ما فى دعوة محمد أحمد المهدى من انحراف عن الإسلام ، وما فيها من تضليل المسلمين بهذه الدعاوى الباطلة الضالة المضلة .

ثانيا :

رأى جمال الدين فى حركة المهدى :

من كلمات جمال الدين فى هذه الحركة كلمات تؤكد تخوفه منها وخشيته من خطرها إذا هى انتشرت فى المسلمين أو استفحل أمرها ، يقول جمال الدين فى هذه الحركة تحت عنوان : « معاملة محمد أحمد للرسل المسيحيين » : « جاء إلى الخرطوم ضابط مصرى كان فى عبيد ، وأخبر أن رسل الكاثوليك فى تلك المدينة تحت كنف محمد أحمد ، على حرية تامة تجرى عليهم الأرزاق من طرفه ، للواحد منهم فى كل شهر خمس « تليرات » ريالان ونصف ، وأن كنيستهم مفتحة الأبواب وإن كانت المدارس معطلة للضرورة .

وهذا العمل منه يرشد إلى أن له دهاء وذكاء وخبرة بما يجب الأخذ به فى معاملة أرباب المذاهب والأديان المخالفة لدينه ومذهبه .

وهذا يزيدنا خوفا من استفحال أمره وانتشار دعوته[٢] .

وفى مقال آخر لجمال الدين عن هذه الحركة يصرح بأنها حركة منحرفة عن الإسلام لا يقف صاحبها عند غاية فيقول :

« صرح اللورد جرانفيل فى مجلس اللوردات بأن المقاومة الشديدة التى لاقوها

---

١ ـ السابق : ٦٥٥ .

٢ ـ جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى : ٢٤٣ .

من قبائل العرب ورئيسهم عثمان[١] فى سواحل البحر الأحمر ، لم يكن القصد منها إلا الرغبة فى تمكين سلطة محمد أحمد فى البلاد السودانية ، يريد من هذا أنه لم يحملهم على الثبات والترامى على الموت عدوانهم للإنجليز ولا طمعهم فى توسيع الفتح ، وإنما كان الحامل هو الدفاع عن شوكة محمد أحمد فى السودان خاصة ·

وهذا من اللورد إما غفله أو تغافل عن لواحق دعوة المهدوية بل لوازمها التى لاتنفك عنها ، فإن بهذه الدعوى لايقف فى سيره عند غاية ، ولايقنع بملك ، وإنما يريد بسط دعوته فى أقطار العالم ، وإحياء الأوامر الإلهية التى جاء بها صاحب شريعته الذى يدعى النيابة عنه فى تبليغها وصيانتها فى نفوس الناس كافة ·

وسواء كان صادقا فى دعواه أوكاذبا فلن يتم له أمر ولن تتمكن له سلطة فى بقعة من بقاع الأرض سودانا كان أو مصرا أو غيرهما من البلدان إلا بتقدمه إلى ما وراءها حتى يعلى كلمة دينه ، ويرد إلى الحق من انحرف عنه ، ويكون له التصرف التام فى قلوب المسلمين ، ويأخذ منها مكانا عليا يشرف منه على مطامح دعواهُ فى غيرهم من الأمم ·

وسواء يسر الله له النجاح فى تلك أو ذلك أو باء بضده ، هذا لا كلام لنا فيه الآن ، ولكننا نتكلم فى الخصائص الطبيعية لهذه الدعوى العظيمة[٢] ·

وبعد الوقوف على ما بينا يسقط من النظر قول « اللورد جرانفيل » فى مجلس اللوردات : إن حكومته لم يرد لها خبر يحملها على الظن باستعداد محمد أحمد لقبول إمارة كردفان والاكتفاء بها ، ولا يعلم هل قبول محمد أحمد لتلك الولاية يكون حجابا بينه وبين التقدم إلى سواها ·

فقد علمت أن محمد أحمد لم يقم بدعوى الملك ولا طلب حق له فى الإمارة كان يرثه عن آبائه ، وإنما قام بدعوى لا نهاية لأطرافها إلا عند حدود السطوة الإسلامية ،

١ ـ يقصد عثمان دقنة وهو من أهم اتباع محمد أحمد المهدى ·

٢ ـ كلمة العظيمة هنا لا تعنى تعظيم الدعوة ـ وإنما تعنى أنها مهولة ، كما يدل على ذلك سياق الكلام ·

فليس يكافىء قوة دعوة إسلامية إلا عزم إسلامى ، ولن يكافح هذا الموحى ويرده الى قدره إلا رجال مسلمون يدافعون عن الدعوى بما يقوى على إضعافها أو محوها ، فإن لم يرد كحكومة اللورد خير إلى الآن عما ذكره فليطمئن قلبه بعدم وروده فى المستقبل ، ولا نظن خيرا يأتيه إلا بنقيض ما توهمه ، نسأل الله حسن العاقبة .

وبعد تحرير هذه الأحرف جاءت الأخبار مصدقة لما قلنا .

ففى برقية من مكاتب « التايمس » فى خرطوم : أن ثلاثة دراويش جاءوا مراسلين من قبل محمد أحمد إلى الجنرال « غوردون » وأرجعوا إليه علامات الشرف التى كان بعث بها إلى مرسلهم ، وبلغوه أن محمد أحمد يرفض لقب « أمير كوردفان » وينصح « الجنرال » أن يدخل في دين الإسلام فهو خير له[1] .

هذه نظرة جمال الدين إلى الحركة المهدوية المنحرفة عن الإسلام ، كما بدت من خلال ما كتب ، يعلن فيها فى شجاعة وثقة أنها حركة منحرفة عن الدين الإسلامى خارجة على نظامه وجادته .

ويعلن فى الوقت نفسه أنه يحمد لهذه الحركة وقفتها فى وجه الإنجليز أعداء الإسلام والمسلمين ، وترفعها عن منحهم وعطاياهم .

وهو بهذا وذاك يتصدى لها ويحذر منها لأنهـا انحرفـت عن الإسـلام ، وهـو لا يسكت عن كل دعوة أو حركة تنحرف عن هذا الدين .

---

١ ـ جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى : ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

جـ ـ الدهريـــة

أما الدهرية والدهريون فقد أولاهم جمال الدين من عنايته واهتمامه ما كشف عن حقيقتهم بل فضح زيفهم ، ويكفيه فى مجال التصدى لهذه الفئة الضالة المنحرفة أنه ألف رسالة تعد من أجمع ما كتب وأوفاه فى الرد على هؤلاء الدهريين .

وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الرسالة وذكرنا ملخصاً لها ونحن نتحدث عن مؤلفات جمال الدين[1] ، ونكتفى هنا بذكر مقتطفات من تصديه للرد على الدهرية والدهريين .

قال جمال الدين تحت عنوان « الدهريون فى الهند » : « دخل الإنجليز بلاد الهند ، ولعبوا بعقول أمرائها وملوكها على نحو يضحك العقلاء ويبكيهم ، وكانوا يوغلون فى أحشاء الهند ويتخطفون أراضيه قطعة بعد قطعة ، وكلما سادوا فى أرض أدلوا على سكانها وأظهروا الضجر والسآمة من الإقامة بينهم قائلين : إن الإنجليز لا يشتغلون إلا بالأعمال التجارية ، أما مقارنة الإدارة والسياسة فليست من شئونهم ، وإنما يدعوهم إلى احتمال أثقالها الشفقة على الملوك والأمراء العاجزين عن سياسة ممالكهم ، ومتى قدر الأمير أو الملك على ضبط بلاده فلا يبقى انجليزى فيها ، لأن لهم أشغالا مهمة أخرى تركوها لمحض الرحمة .

وبهذا سلب الإنجليز كل مالك ملكه بحجة أن العمل فى الملك ثقيل على النفس متعب للفكر والبدن ، فالأولى لصاحب الملك أن يستروح وأن يموت فقيرا ذليلا ، تخلصا من عناء التدبير .

---

١ ـ الفصل الثانى من الباب الأول من هذا البحث ص٥٩ .

وينادون بأنه متى سنحت الفرصة وجاء الوقت الذى لا يكون للأعمال المعاشية ولا المعادية تأثير على الأبدان ولا على الأفكار فإنهم مستعدون لترك البلاد « يوم الحشر » .

واليوم يقولون نفس هذا الكلام بعينه فى مصر !!

ولما استقرت أقدامهم فى الهند وألقوا بها عصاهم ، ومحيت آثار السلطنة التيمورية نظروا إلى البلاد نظرة ثانية فوجدوا فيها خمسين مليونا من المسلمين ، كل واحد منهم مجروح الفؤاد بزوال ملكهم العظيم ، وهم يتصلون بملايين كثيرة من المسلمين شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وأحسوا أن المسلمين ما داموا على دينهم ، ومادام القرآن يتلى بينهم فمحال أن يخلصوا فى الخضوع لسلطة أجنبى عليهم ، خصوصا إن كان ذلك الأجنبى قد خطف الملك منهم بالخديعة والمكر تحت ستار المحبة والصداقة ، فطفقوا يتشبثون بكل وسيلة لتوهين الاعتقاد الإسلامى ، وحملوا القسس والرؤساء الروحانيين على كَتْب الكتب ونشر الرسائل محشوة بالطعن فى الديانة الإسلامية ، مفعمة بالشتم والسباب لصاحب الشريعة (برأه الله مما قالوا) فأتوا من هذا العمل الشنيع ما تنفر منه الطباع ولا يمكن معه لذى غيرة أن يقيم على أرض تنشر فيها تلك الكتب ، وأن يسكن تحت سماء تشرق شمسها على مرتكبى ذلك الإفك العظيم ، وما قصدهم بذلك إلا توهين عقائد المسلمين وحملهم على التدين بمذهب الإنجليز ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى أخذوا فى تضييق سبل المعيشة على المسلمين ، وتشديد الوطأة عليهم والإضرار بهم من كل وجه ، فضربوا على أيديهم فى الأعمال العامة وسلبوا أوقاف المساجد والمدارس ، ونفوا علماءهم وعظماءهم إلى جزائر « اندومان » و « فلفلان » رجاء ألا تفيدهم هذه الوسيلة إن لم تفدهم الأولى فى رد المسلمين عن دينهم ، بإسقاطهم فى أغوار الجهل بعقائدهم ، حتى يذهلوا عما فرضه الله عليهم .

فلما خاب أمل أولئك الحكام الجائرين فى الوسيلة الأولى ، وطال عليهم الأمد فى الاستفادة من الثانية ، نزعوا إلى تدبير آخر فى إزالة الدين الإسلامى من أرض الهند

أو إضعافه ، لأنهم لا يخافون إلا من المسلمين أصحاب ذلك الملك المنهوب والحق المسلوب ، فاتفق أن رجلا اسمه : « أحمد خان بهادور » ـ لقب تعظيم فى الهند ـ كان يحوم حول الإنجليز لينال فائدة منهم ، فعرض نفسه عليهم ، وخطا بعض خطوات لخلع دينه والتدين بالمذهب الإنجليزى ، وبدأ سيره بكتابة كتاب يثبت فيه أن التوارة والإنجيل ليسا محرفين ولا مبدلين لينال بذلك الزلفى عندهم ٠

ثم راجع نفسه فرأى أن الإنجليز لن يرضوا عنه حتى يقول : « إنى نصرانى » وإن هذا العمل الحقير لا يؤتى عليه أجرا جزيلا ، خصوصا وقد أتى بمثل كتابه ألوف من القسس والبطارقة ، وما أمكنهم أن يحولوا من المسلمين عن الدين إلا أشخاصا معدودة ، فأخذ طريقا آخر فى خدمة الإنجليز بتفريق كلمة المسلمين وتبديد شملهم ٠

فظهر بمظهر الطبيعيين (الدهريين) ونادى بألا وجود إلا للطبيعة العمياء ؛ وليس لهذا الكون إله حكيم (إن هذا إلا الضلال المبين) ، وأن جميع الأنبياء كانوا طبيعيين لا يعتقدون بالإله الذى جاءت به الشرائع (نعوذ بالله) ٠

ولقب نفسه بالنيشرى « الطبيعى » وأخذ يغرى أبناء الأغنياء من الشبان الطائشين فمال إليه أشخاص منهم تملصا من قيود الشرع الشريف ، وسعيا وراء الشهوات البهيمية ، فراق لحكام الإنجليز مشربه ورأوا فيه خير وسيلة لإفساد قلوب المسلمين ، فأخذوا فى تعزيزه وتكريمه وساعدوه على بناء مدرسة فى « عليكرة » وسموها مدرسة المحمديين ، لتكون فخا يصيدون به أبناء المؤمنين ليربوهم على أفكار هذا الرجل (أحمد خان بهادور) ٠

وكتب أحمد خان تفسيرا على القرآن ، فحرف الكلم عن مواضعه وبدل ما أنزل الله ٠

وأنشأ جريدة باسم « تهذيب الأخلاق » لا ينشر فيها إلا ما يضلل عقول المسلمين ويوقع الشقاق بينهم ، ويلقى العداوة بين مسلمى الهند وغيرهم ، خصوصا بينهم وبين العثمانيين ٠

وجهر بالدعوة لخلع الأديان كافة (لكن لا يدعو إلا المسلمين) ونادى : الطبيعة ... الطبيعة ... ليوسوس للناس بأن أوربا ما تقدمت فى المدنية وما ارتقت فى العلم والصنعة ، وما فاقت فى القوة والاقتدار إلا برفض الأديان والرجوع إلى الغرض المقصود من كل دين (على زعمه) وهو بيان مسالك الطبيعة (قد افترى على الله كذبا) .

ولما كنا فى الهند أحسسنا من بعض ضعفاء العقول اغترارا بترهات هذا الرجل وتلامذته ، فكتبنا رسالة فى بيان مذهبهم الفاسد ، وما ينشأ عنه من المفاسد ، وأثبتنا أن الدين أساس المدنية وقوام العمران ، وطبعت رسالتنا فى اللغتين الهندية والفارسية[١] .

إن أحمد خان ومن تبعه خلعوا لباس الدين وجهروا بالدعوة إلى خلعه ابتغاء الفتنة بالمسلمين وطلبا لتفريق كلمتهم ، وزادوا على زيفهم أنهم يزرعون الشقاق بين أهل الهند وسائر المسلمين ، وكتبوا عدة كتب فى معارضة الخلافة الإسلامية .

هؤلاء الدهريون ليسوا كالدهريين فى أوربا ، فإن من ترك الدين فى البلاد الغربية تبقى عنده محبة أوطانه ، ولا تنقص حميته لحفظ بلاده من عاديات الأجانب ، ويبذل فى ترقيتها والمدافعه عنها نفائس أمواله ، ويفدى مصلحتها بروحه .

أما أحمد خان وأصحابه فإنهم كما يدعون الناس لنبذ الدين يهونون عليهم مصالح أوطانهم ويسهلون على النفوس تحكيم الأجنبى فيها ، ويجهرون فى محو آثار الغيرة الدينية والجنسية ، وينقبون على المصالح الوطنية التى ربما غفل الإنجليز عن سلبها لينبهوا الحكومة عليه فلا تدعها ، يفعلون هذا ، لا لأجر جزيل ولا شرف رفيع ، ولكن لعيش دنىء ونفع زهيد .

(هكذا يمتاز دهريو الشرق عن دهريى الغرب بالخسة والدناءة بعد الكفر والزندقة) .

١ ـ يشير إلى رسالته الشهيرة فى الرد على الدهريين ، التى تحدثنا عنها بتوسع فى الفصل الثانى من الباب الأول من هذا البحث .

أحسن الإنجليز إلى أحمد خان بتوظيف ولده مولوى محمود عضوا فى مجلس قرية من قرى الهند لا تزيد عن (شبراخيت) فى مديرية البحيرة .

ومن حبائله لصيد الضعفاء من المسلمين أنه يعدهم ويمنيهم بأنهم لو تبعوه لأدخلهم فى وظائف الحكومة بما له من الجاه عند جائرة الإنجليز .

وحكومة الإنجليز لم توظف من أصحابه إلا أربعة أعضاء فى مجالس القرى ، ولا يوجد وطنى هندى فى مثل هذه الوظائف سواهم .

هذا هو المجد الذى ناله أحمد خان ثمنا لدينه ووطنه ، فهو كما قال صديق نواب حسن خان ملك بهويال صاحب التصانيف المشهورة : إن أحمد خان دجال آخر الزمان .

نعم ساعده الحكام الإنجليز على استخدام بعض من يقدمهم ، لكن لا فى الحكومة الإنجليزية الهندية ، ولا على الخزينة الإنجليزية ، وإنما يلزم الحاكم أحد النواب الباقين على صورة استقلالهم أن يوظفوهم فى بعض الوظائف الدانية .

راق هذا المشرب فى أعين الحكام الإنجليز وابتهجوا به وظنوه موصلا إلى غايتهم من محو الدين الإسلامى من البلاد الهندية .

هؤلاء الدهريون صاروا جيشا للحكومة الإنجليزية فى الهند يسلون سيوفهم لقطع رقاب المسلمين ، لكن مع البكاء عليهم والصياح بهم : إنا لا نقتلكم إلا شفقة عليكم ورحمة بكم وطلبا لإصلاحكم ورفاهة عيشكم .

ورأى الإنجليز أن هذه أقرب الوسائل لنيل المقصود من ضعف الإسلام والمسلمين .

كان التلميذ الأرشد لأحمد خان والوزير الأول والمدبر له فى جميع شئونه : رجلا اسمه « سميع الله خان » .

سميع الله خان هو أعظم الدهريين دهاء ، وأشدهم اجتهادا فى تضليل المسلمين ، وأدقهم صلة وأقواهم مكرا فى إيجاد الوسائل لتفريق شمل المؤمنين ، وتمكين الحكومة الإنجليزية فى أرض الهند .

يقوم هذا الخادم خطيبا فى محافل المسلمين فتسبق دموعه كلامه ، ويأتى بغاية ما عنده من الفصاحه لهدم أركان الديانة الإسلامية ، وإبطال عقائدها الأصلية ، ويتجرأ على حضرة الألوهية ويطعن فى الرسالة وصاحبها ، كل ذلك وهو ينتحب كأنما يرثى الدين وأهله ٠

إذا دخل فى بلد من البلدان لأداء هذه الخدمة واظب أياما على دخول المساجد وحضور المحافل الدينية ، واستدرج الناس بعذب الكلام ولطف الوعد وجذبهم إليه من حيث لا يشعرون ، فاذا اجتمع عليه بعض الناس اغترارا بطلاوة ظاهرة ، بدأ فى دعوتهم إلى مشربه الكدر (خلع الدين) ٠

هذا العدو المبين للإسلام والمسلمين قد نال بمساعيه هذه وظيفة قاض (فى الشريعة الإنجليزية) فى بلدة أكره وهى بلدة لا تزيد عن « دسوق » فى مديرية الغربية[1] ٠

قالت جريدة « التايمس » بعدما مدحت سميع الله خان بكل ما يمدح به : إن هذه الوظيفة (قاض فى بلد صغير) هى أعلى وظيفه ينالها هندى وطنى ٠

(أيحتاج لإثبات العدالة الإنجليزية إلى شاهد أكبر من هذا ؟!!) ٠

« نورث بروك » اللورد الإنجليزى الذى أشرنا إلى طرف من تاريخه فى الهند فى العدد الماضى[2] ، عرف سميع الله خان حق المعرفة عندما كان « حكمدارا » فى الهند ، ووقف على أنه أصدق الناس فى خدمة الإنجليز وأقدرهم على أدائها ، ولهذا طلبه ذلك « اللورد » ليكون كاتم سره فى مصر ليستعمله فى تنفير المصريين من الدولة العثمانية ، وفى إقناع المصريين بأن حكومة انجلترا تريد بهم خيرا ، ويستخدمه فى استمالة قلوب العلماء لأنه واحد منهم (على دعواه) ٠

---

١ ـ هى الآن فى محافظة كفر الشيخ بجمهورية مصر العربية ٠

٢ ـ يقصد : عددا من أعداد العروة الوثقى ٠

وقد يكون من نيته أن يدخل الجوامع ويعظ ويخطب ويروى عن الإنجليز ما لا صحة له ، وما تكذبه المشاهدة ولكن ... رجاؤنا فى نباهة المصريين وصدق عقائدهم الدينية وشدة ارتباطهم بالدولة العثمانية ألا ينخدعوا لهذا الراكس[١] الهندى ، لا نجح الله له مقصدا ولا أناله مبتغى[٢] .

هكذا تصدى جمال الدين لهذا الفكر المنحرف عن الإسلام المعادى للمسلمين ، ولم يبال فى تصديه هذا بغضب الإنجليز مروجى هذا الفكر ، المحتضنين لدعاته ، وتلك سمة بارزة فى جمال الدين الأفغانى وهى أنه لا يخاف فى قول الحق والجهر به بطش الظالمين ولا عنت المتجبرين ، وهى فى الوقت نفسه سمة يجب أن تبرز فى كل مصلح من المصلحين .

---

١ ـ الراكس بلسان : السنسكريت : الشيطان المريد .

٢ ـ جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى : ٤١٢ ـ ٤١٧ .

د ـ « الداروينية » أو مذهب النشوء والارتقاء

« اقترن مذهب التطور فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر بأسمين عظيمين هما : اسم الفرد رسل ولاس ، واسم شارل داروين ·

وذاعت شهرة داروين بالمذهب حتى كاد أن ينسب إليه ويعرف به فيقال مذهب داروين كما يقال مذهب التطور أو مذهب النشوء والارتقاء ·

وقد عدل أخيرا عن تسمية المذهب بالنشوء والارتقاء ، وبقيت الداروينة غالبة عليه »(١) ·

و« الداروينية » رأى فى التطور فصله تشارلس داروين ، وكان له أثر كبير لا فى الميدان « البيولوجى » وحسب ، بل فى الفلسفة وميادين المعرفة الأخرى ، وأدت به دراساته إلى التساؤل عن الاعتقاد فى الخلق الخاص بكل نوع من الأنواع (وهى نظرية كان يعتقد فيها علماء عصره) فتقدم ببياناته عن تطور الأشكال الحية جميعها من أصل واحد مشترك ، إذ لاحظ نزعة الكائنات نحو التضاعف العددى الرياضى مع ثبات أعداد النوع الواحد تقريبا ·

فخلص إلى أن هناك كفاحا من أجل البقاء بين أفراد النوع الواحد ، وأكد وجود تغير فردى فى داخل النوع ، وأن الأفراد ذات التغير الأكثر ملاءمة يكون لها حظ أوفر من البقاء ، وأن بعض هذه التغيرات ينتقل للخلف ويحتفظ بها فى الأجيال التالية ، وهذا هو مبدأ الانتخاب الطبيعى ...

ولقيت الداروينية التى تسمى بمذهب الانتخاب الطبيعى من علماء القرن الحاضر بعض النقد لعدم تفرقتها بين التغيير المكتسب الذى لا يورث والصفات الجينية التى تورث ·

---

١ ـ عباس محمود العقاد : عقائد المفكرين : ٦٧ ط بيروت ١٩٦٩ م

ولذلك أدخلت عليها تحويرات اقتضتها المعرفة الحديثة بأصول الوراثة ويكاد يعتنقها مع هذه التحويرات جميع علماء العصر الحاضر[1] .

وقد كان لجمال الدين الأفغانى رأى ومناقشة لهذا المذهب ، وبخاصة أن الفترة التى عاشها جمال الدين كانت فترة اهتمام بهذا المذهب ، ورغبة من بعض الناس فى إذاعته ونشره كالدكتور شبلى شميل ، واتهام للمذهب بأنه يتنافى مع الايمان بالخالق والخلق من بعض العلماء .

وقد تحدث جمال الدين عن هذا المذهب عندما سئل عن البيت المشهور لأبى العلاء المعرى :

والذى حارت البرية فيه   حيوان مستحدث من جماد

هل يقصد المعرى فى هذا البيت من الشعر ارتقاء الحيوان من الجماد ؟

وهل يوافق مذهب داروين فى النشوء والارتقاء ؟ ذلك المذهب الحديث الذى أوجده داروين وأقام علماء الأرض وأقعدهم .

أم قصد المعرى معنى آخر ؟ وتماسّ اتفاقا أو عرضا مع أهل مذهب النشوء والارتقاء ؟

قال جمال الدين : لا أغالى ولا أبالغ إذا قلت : ليس على سطح الأرض شىء جديد بالجوهر والأصول .

تبتكر فى الكون محدثات ، وتحدث أمور وتقرر علوم ، يؤخذ بها ويعمل بها أجيال ، ثم تطرأ عوامل مختلفة تندثر بها تلك المحدثات ، وتجهل تلك العلوم إذ يحجبها الخفاء ، وتحفظ أحيانا بعض رفات آثارها « طبقات الأرض » وكذلك ما يحدث بها من عظائم الأمور ، قد تذهب مع جيلها وربما يبقى شىء من أثرها فى خرائب أهلها .

وهكذا القول فيما يزهو ، وما يتمحص ويتقرر من العلوم عند أجيال قد تموت مع أربابها ، أو تمحى بمحو ما أودعت فيه من الكتب والأسفار .

---

١ ـ الموسوعة العربية الميسرة . ط القاهرة ١٩٦٥ م ص ٧٧٤ ـ ٧٧٥ .

فالسعيد من الخلف من يعثر على أثر من آثار السلف فينتبه بكليته إليه ، ويعمل على بعثه من موته إما بإخراجه من الخرائب ، وإما ينقب طبقات الأرض ، وإما بمفاجأة أرواح قائليه ٠

وهكذا يعيد الإنسان الكرة على قديم مبتكرات الأسلاف من المحدثات ، والأمور العظيمة ، والعلوم والفنون الغربية اليوم ، وذلك بسوق غريب وعوامل عجيبة ، تعمل فى عقل الإنسان فى سائرِ الأزمان ٠

بينما الإنسان اليوم سائر فى البحث والتجربة يقصد أمرا فإذا هو عرضا - يعثر على نتائج لم تكن بحسبانه ، فينشط لها عقله ، ويصرف إليها همته ، ولا يزال يكد ويجرب ويجد حتى يتيسر له وضع أساس الاكتشاف أو الاختراع أو تقرير قواعد كلية لعلم أو فن ٠

أما مقصد أبى العلاء فظاهر واضح ليس فيه خفاء ، فهو يقصد النشوء والارتقاء أخذا بما قاله علماء العرب قبله بهذا المذهب ، وقد مر ذكره ولا بأس من إعادته :

إذ قال أبو بكر بن بشرون فى رسالته لأبى السمح عرضا فى بحث الكيمياء « إن التراب يستحيل نباتا ، والنبات يستحيل حيوانا ، وإن أرفع المواليد هو الإنسان « الحيوان » وهو آخر الاستحالات الثلاثة وأرفعها ، وإن أرفع مواليد التراب « ومنه المعادن » النبات ، وهى أدنى طبقات الحيوان ، سلسلة تنتهى عند الإنسان .. الخ ٠

فإذا كان بناء مذهب النشوء والارتقاء على هذا الأساس فالسابق فيه علماء العرب وليس داروين ، مع الاعتراف بفضل الرجل وثباته ، وصبره على تتبعاته وخدمته « للتاريخ الطبيعى » من أكثر وجوهه ، وإن خالفته وخالفت أنصاره فى مسألة « نسمة الحياة » التى أوجدها الخالق سبحانه وتعالى ، لا على سبيل الارتقاء من السعدان[1] فالإنسان ، أو من الزوابع المائية ، أو أن البرغوث سيكون بعد ألوف أو ملايين من السنين فيلا عظيما ، لأننا نرى اليوم فى البرغوث ما يشبه خرطوم الفيل وغير

---

١ - السعدان : نوع من القرود ٠

ذلك من المباحث التى دونتها فى رسالة : نفى مذهب الدهريين ردًا على داروين وأشياعه .

وأرى إغراقا فى نسبة الإبداع والابتكار للنشوء والارتقاء والانتخاب الطبيعى له .

ولو قال بذلك مثل : « بخنر » و« هكسلى » و« سبنسر » وغيرهم من علماء الغرب ممن جاز ترك مناقشتهم ، فلا يسعنى أن أمر على ذكر حكيم شرقى انخرط مع من ذكرت من العلماء ممن أيدوا مذهب « داروين » وأخذوا بناصره ، وهجموا على مألوف الشرقيين بقواعد ذلك المذهب ، فمن حيث الجهر بمعتقد يعتقده الإنسان أنه اعتقاد صحيح ولو خالف الجمهور ، فالدكتور شميل له فى نشر مذهب « داروين » وتحمله أعباء المفكرين له ـ عن غير علم وتحقيق ـ يعد للشميل فضل ، ولكن لا أرى الدكتور شبلى قد تخلص مع جرأته الأدبية ، وبعض رسوخه فى الفلسفة من وصمة التقليد الأعمى لعلماء الغرب ، وبمعنى أوضح إنه أراد أن ينتصر لداروين وأن ينشر مذهبه رغم[1] أهل الأديان ، وفى ذات الوقت عارض أستاذه وصاحب المذهب المنتصر له .

إذ لا يخفى أن القصد من مذهب الماديين الوصول إلى أن الإنسان تدرج من الحيوان ، وأعظم دليل لهم ما يرى فى السعدان والقرود وأعلى أنواعه « الأورانج أوطان » من الذكاء والحركات وتركيب الأعضاء .

ثم إنهم نظروا فى أجنة ذوات الفقر ـ ومنها الإنسان ـ فرأوه يمر نموه بدرجات الحيوانات التى دونه حتى الأحفورية أو السابقة لها .. الخ .

ولكى يتوصلوا إلى جحود خلق الإنسان بتقويمه الحسن هذا رأيناهم يركضون وراء الأحافير ، ويغوصون فى طبقات الأرض ، وإمامهم فى مذهب النشوء والارتقاء هو « داروين » بلاشك .

---

١ ـ الصواب : على الرغم من ..

وهذا الحكيم لما وصل إلى النقطة الجوهرية وهى « موجود نسمة الحياة » فلم يسعه إلا أن قال : « إن الخالق هو الذى نفخ نسمة الحياة فى الأحياء » وهذا قوله بالنص الواحد : « إنى أرى أن الأحياء التى عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أولية نفخ فيها نسمة الحياة » !!

إن قول « داروين » هذا ينفى ظهور الحياة على سبيل طبيعى ، ولكنه لم يرق لعلماء الطبيعة الماديين ، وأنكروا على « داروين » هذا القول واتهموه بالخوف من أهل دينه ، وقالوا : إن قوله هذا يجعل المذهب ناقصا ، بل ينقضه من أساسه ، لأن الغاية كما ذكرنا من مذهب الطبيعيين « إنكار الخالق » وإسناد الأعمال إلى الطبيعة .

هذا مقام الحيرة لمريدى مذهب « داروين » فإما أن يكون إمام مذهبهم « داروين » قال قوله السابق من علم وتحقيق ، وفيه كما قالوا نقض لأساس المذهب وإما أن يكون الخوف الذى اتهموه به من أهل الأديان حمله على الجهر بهدم أساس مذهب الطبيعيين .

وبالنتيجة يريد الدكتور شميل والأستاذ « برن » وغيرهما أن يوافقوا ، « داروين » إذا أصر على إنكار الخالق ويخالفوه إذا أقر بوجوده .

وبالاختصار إن كل ما جاء فى مذهب الطبيعيين من حصر الأحياء بأنواع قليلة ، وتفرع الكثير منها وعنها ، كل هذا لا يضر التسليم به ، كما أنه لا يفيدهم أن الحياة وظهور الأحياء نتيجة طبيعية لقوى الطبيعة ، نعم إذا أمكنهم إثبات التوالد الذاتى ، كان لأقوالهم معنى ولمذهبهم مستندا .

هذا الذى رأيت ما يؤاخذ به الحكيم شبلى الشميل ، وقد خالف إمامه وأستاذه « داروين » وفيما عدا ذلك فإنى أقدر شميل قدره فى دقة بحثه وتحقيقه ، وجرأته على بث ما يعتقده من الحكمة ، وعدم تهيبه من سخط المجموع لما يجهله من حقائق العلم[١] .

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ١١٤ ـ ١١٦ .

وبعــــد :

فإن هذه الحركات المنحرفة عن الإسلام التى تصدى لها جمال الدين والتى تمثلت فى البابية والمهدوية والدهرية و « الداروينية » كانت جانبا هاما من الجوانب التى يجب أن يهتم بها من كان مصلحا مجددا كجمال الدين الأفغانى .

فكل هذه الحركات استهدفت تضليل المسلمين عن دينهم ، وصرفهم عن التمسك بمنهجه ونظامه ، وهى جميعها ـ باستثناء حركة المهدى بالسودان ـ كانت موضع تأييد الإنجليز وتشجيعهم ، بل كان بعضها من ابتكار الإنجليز واختراعهم .

وجمال الدين ـ عندى ـ عدو الإنجليز الألد ، قد أخذ على نفسه عهدا أن يكشف من خدع الإنجليز ما يستطيع كشفه ، وأن يعريهم أمام سكان العالم الإسلامى ، أملا فى إقصائهم عن بلدان العالم الإسلامى ، بنشر الوعى الإسلامى من جانب ، وبالدعوة إلى الثورة عليهم من جانب آخر .

٣ ـ الانحرافات الفكرية التى تصدى لها جمال الدين

كما تصدى جمال الدين للحركات المنحرفة عن الإسلام ، فكشف باطلها وحذر منها ،ووقف لها بكل مرصد يرقب أقوالها وأعمالها ، كذلك تصدى للأفكار المنحرفة عن الإسلام ، فأوضح مافيها من زيف ، ونبه المسلمين على ما تنشره فيهم من ضلال ٠

ولقد كانت الفترة التى عاشها جمال الدين مناسبة تماما لأن تفرخ فيها الأفكار الضالة والاتجاهات المنحرفة عن الإسلام ، إذ هى فترة سيطرة العدو الأجنبى على بلاد المسلمين وغزوه لعقولهم وتشويهه لثقافتهم ، وتحويله عددا غير قليل منهم إلى أولياء لفكر الغرب وحضارته ٠

فلقد شاعت فى هذه الفترة أباطيل روجها المستعمر وغذاها بكل خبيث من القول والعمل ، ولقد تكون بعض هذه الأفكار المنحرفة عن الإسلام قد ولدت فى فترة سبقت تلك الفترة ـ نتيجة لظروف سياسية أو اجتماعية أو ثقافية بعينها ـ ولكن تلك الأفكار فى هذه الفترة عادت جزعة ، تحاول أن تباعد بين المسلمين وبين دينهم ومنهجه ونظامه ٠

ولقد كان على رأس هذه الانحرافات الفكرية : القول بسد باب الاجتهاد وأن على المسلمين أن يجمدوا على ماورثوه من أسلافهم فى ظروف ومجتمعات ربما لا تلائم ظروفهم ومجتمعاتهم التى يعيشون ٠

وكان من هذه الانحرافات : محاولة إقصاء اللغة العربية الفصحى عن ألسنة الناس وثقافتهم حربا للقرآن والسنة النبوية من جانب وإهمالاً لتراث الإسلام المسطور أغلبه بالعربية من جانب آخر ٠

وكان منها : إشاعة فهم خاطىء للتعصب يرمى به المسلمون على ألسنة أعداء الإسلام والمسلمين ، حيث اتهم المسلمون بأنهم متعصبون متزمتون رجعيون ، والإسلام برىء تماما من أن يرضى لأهله هذا التعصب المقيت ، فضلا عن أنه حارب هذه النزعة بغير هوادة •

وكان من هذه الانحرافات أن خرج بعض الناس بخطبة الجمعة عن وظيفتها وهدفها ـ وهو تعليم المسلمين وتثقيفهم فى أمور دينهم ووعظهم وإرشادهم إلى ما يصلحهم فى دنياهم وأخراهم ـ إلى كلمات ميتة باردة لا تحقق للمسلمين فائدة ولا تزيدهم من خير ولا تصرف عنهم من شر •

كل هذه الانحرافات وقف لها جمال الدين وتصدى للباطل الذى روجته وخوف المسلمين عاقبة الاستجابة لها ، وقال فيها مايجب أن يقوله العالم الناصح ، والمصلح المجدد الغيور على دينه وإخوانه المسلمين •

ولننظر الآن فيما قال جمال الدين فى هذه الانحرافات الفكرية عن الإسلام •

الانحرافات الفكرية التى تصدى لها جمال الدين

أ ـ القول بسد باب الاجتهاد

لكل عصر معوقاته وسلبياته ، وربما كان من هذه المعوقات مايمتد خطره وضرره إلى عصور لاحقة ، وكذلك كان الأمر فى قول بعض العلماء المسلمين بسد باب الاجتهاد ، فإن هذا القول ردده بعض العلماء منذ أخريات القرن الخامس الهجرى ، ولكنه ظل يعبر العصور والدهور حتى وصل إلى الفترة التى عاشها جمال الدين ووجد من الناس من يروجه ويقتنع به ، وهو قول يؤدى ـ عند الأخذ به ـ إلى تعويق المسلمين ووقف الحركة الإسلامية عن الانطلاق والحيلولة بينها وبين مواكبة المتغيرات المستمرة فى حياة الناس •

ولقد عاش جمال الدين حياته وهو يفهم موقف المسلمين فى عصره فهما دقيقا عميقا ، يدرك معه مدى تخلفهم وقعودهم عما يجب أن يكونوا عليه ، ويدرك كذلك أن أهم سبب فى هذا التخلف والقعود هو قول بعض العلماء المسلمين بسد باب الاجتهاد ، وما يترتب عليه من ضرر يلحق بالمسلمين ويحول بينهم وبين الخروج من دائرة الضعف والتخبط والتبعية ، وماذا يفعل المسلمون إذا سد أمامهم باب الاجتهاد ـ مع كل مستحدث ومتغير من وسائل حياتهم الدنيا ؟ ليس أمامهم بديل ـ كما كانت عليه الحال فى عصر جمال الدين ـ إلا أن يأخذوا من النظم والقوانين الأجنبية المعادية للإسلام ، وقد حدث هذا فعلا فى عصر جمال الدين ، واتسع أمره بعد جمال الدين حتى أصبح الاعتماد على النظم والقوانين الأجنبية فى تنظيم حياة الناس هو الأصل ، وأصبح الاجتهاد فى بعض الأمور على ضوء مصادر التشريع الإسلامى هو النادر أو القليل •

ثار جمال الدين على من يقولون بسد باب الاجتهاد ، ونادى بأعلى صوت بأن أولئك المجتهدين القدامى ماوقفوا عندما انتهى إليه أسلافهم ، بل أطلقوا لعقولهم العنان ، وكونوا من خلال ذلك تصورات تحقق للمسلمين مصالحهم فى ظل هذا الدين الإسلامى المرن المواكب لكل المنطلقات الاجتماعية والسياسية فى ظل مصادر تشريعه ، فى أى عصر من العصور فكان جمال الدين يرى أن الجمود على ما قرره السابقون ضياع للمسلمين فى حاضرهم ما لم يكن هذا الذى قرروه ملائما لمن يعيشون فى عصر لاحق •

« ذكروا يوما فى مجلس جمال الدين قولا للقاضى عياض [١] واتخذوه حجة ، واشتد تمسكهم بذلك القول حتى أنزلوه منزل الوحى بأنه لا يأتيه الباطل لا من خلفه ولا من أمامه ، فقال جمال الدين : يا سبحان الله !! إن القاضى عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله وتناوله فهمه ، وناسب زمانه •

فهل لا يحق لغيره أن يقول ماهو أقرب للحق وأوجه ، وأصح من قول القاضى عياض أو غيره من الأئمة ؟

وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم ، قد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا وقالوا ، وأدلوا دلوهم فى الدلاء فى ذلك البحر المحيط من العلم ، وأتوا بما ناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم ، وتتبدل الأحكام بتبدل الزمان •

فقيل : يفهم من قول الأستاذ أن القاضى عياض أو من تقدمه من الأئمة إذا قالوا قولا جاز لمن بعدهم أن يقول ما يتراءى له ، سواء أكان مخالفا أو موافقا ، ولا يخفى أن مثل هذا القول يحتاج إلى الاجتهاد ، وباب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود لتعذر شروطه •

---

١ ـ أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبى السبتى عالم المغرب وإمام أهل الحديث فى وقته • ولى قضاء سبته وغرناطة ، مولده سبتة سنة ٤٧٦ هـ وتوفى بمراكش ٥٤٤ هـ

فتنفس جمال الدين الصعداء وقال :

ما معنى باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأى نص سد باب الاجتهاد ، أو أى إمام قال لا ينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين ؟ أو أن يهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث ، أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما ، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية ، وحاجيات الزمان وأحكامه ، ولا ينافى جوهر النص ٠

إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا بلسان قومه العربى ، ليفهمهم ما يريد إفهامه ، وليفهموا منه ما يقوله لهم (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) وقال : (إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) ٠ وفى مكان آخر : (إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) ٠

فالقرآن ما أنزل إلا ليفهم ، ولكى يعمل الإنسان بعقله لتدبر معانيه ، وفهم أحكامه والمراد منها ، فمن كان عالما باللسان العربى ، وعاقلا غير مجنون ، وعارفا بسيرة السلف وما كان من طرق الإجماع ، وما كان من الأحكام مطبقا على النص مباشرة أو على وجه القياس وصحيح الحديث ، جازله النظر فى أحكام القرآن وتمعنها والتدقيق فيها ، واستنباط الأحكام منها ومن صحيح الحديث والقياس ٠

ثم قال : لا أرتاب فى أنه لو فسح فى أجل أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل ، وعاشوا إلى اليوم لداموا مجدين مجتهدين ، يستنبطون لكل قضية حكما من القرآن والحديث ، وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم ازدادوا فهما وتدقيقا ٠

نعم إن أولئك الفحول من الأئمة ورجال الأمة ، ـ اجتهدوا وأحسنوا ـ جزاهم الله عن الأمة خيرا ـ ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، أو تمكنوا من تدوينها فى كتبهم ، والحقيقة أنهم مع ماوصلنا من علمهم الباهر وتحقيقهم واجتهادهم إن هو بالنسبة لما حواه القرآن من العلوم ، والحديث والصحيح من السنن

والتوضيح إلا كقطرة من بحر ، أو ثانية من دهر ، (والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده) وعلمهم مالم يكونوا يعلمون » (١)

هكذا ينكر جمال الدين على من يقولون بسد باب الاجتهاد ، لأن فى الأخذ بقولهم ـ كما يرى ـ تضييعاً لمصالح كثيرة من مصالح المسلمين التى تقتضيها حياتهم التى يعيشون ٠

وذاك عندى من أقوى الأدلة على أن جمال الدين مجدد فى هذا الدين ، لايجمد عند رأى ، ولا يرى المسلمين فى حاجة إلى أمر يصلح دينهم أو دنياهم إلا سارع فى العمل بما يحقق هذه المصلحة ، بازاحة ما يعترضها من معوقات ٠

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ١١١ ـ ١١٢ ٠

ب ـ محاولة إقصاء الفصحى

لقد كان من أروع ما في جمال الدين الأفغاني بعد نظره ، وحسن تقديره للعواقب ، فكما وقف متصديا لكل فكر منحرف عن الإسلام صراحة ، ولكل اتجاه تتضح فيه عداوته للإسلام وللمسلمين ، كذلك كان شأنه مع كل فكر أو اتجاه يكيد للإسلام والمسلمين وإن لم يبد في نظر الناظر واضحا في كيده أو مكشوفا في مكره وخداعه •

فلقد أدرك جمال الدين خطة أعداء الإسلام في حربهم للغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم ، وحرص في كل منطلق من منطلقات إصلاحه أن يؤكد أن لغة القرآن هي لغة المسلمين التي يجب أن يعتزوا بها وأن يعنوا بتعلمها إن كانوا غير عرب إلى جانب لغتهم القومية •

ولقد كان لجمال الدين فضل كشف خطط الأعداء في التقليل من شأن اللغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم ، ليحولوا بذلك بين المسلمين وبين كتابهم ودستور حياتهم ، كما كان له فضل الكشف عن خططهم في إحلال لغة الأجانب محل اللغات القومية لبعض المسلمين من غير العرب ليقضوا بذلك على تراثهم وحاضرهم وشخصيتهم •

كما كان لهؤلاء الأعداء من بعد جمال يد طولى في حرب الفصحى باللهجات العامية في العالم العربي •

تساءل الشاعر المؤرخ التركي ضيا باشا عن السر في عدم ترك الأتراك أثرا في البلاد التي فتحوها ، بينما ترك العرب آثارا في كل بلد فتحوه !! وذلك حيث يقول ـ فيما يرويه جمال الدين عن مفكرة لضيا باشا ـ « توغلنا في الفتوحات حتى توسطنا كبد أوربا ، ودخلنا ڤينا ، واضطررنا للتخلي عنها ، وليس لنا ثمة أدنى أثر أدبي أو مادي ،

وهكذا بالاستدلال سيكون حالنا فى بقية تركية أوربا مثل : بلغاريا والفلاخ ، والبغدان والصرب والجبل الأسود وغيره من البلدان .

إنه ليحزن المؤرخ كلما تكرر قول الشاعر العربى :

إن آثارنا تدل علينا .... فانظروا بعدنا إلى الآثار

أما العرب ففى كل ما فتحوه من البلاد ، حربا كان أم صلحا ، قد تركوا من الآثار الأدبية والمادية ما لا يقوى على ملاشاته الأدهار . فالمسلم أو المسيحى أو اليهودى فى مصر والشام والعراق يحافظ كل منهم قبل كل شىء على نسبته العربية فيقول : « عربى » ثم يذكر جامعته الدينية .

وآثارهم المادية فى الأندلس لا تقل عن آثارهم المدنية فى باقى الأمصار ، فهى تنطق بأفصح بيان على ممر الدهور ، أنها حكمت من تلك الأمة .

والأغرب : أن التركى والجركسى والأرناءوطى ، وغيرهم من العناصر يستعرب متى وجد ، أو سكن فى بلاد العرب بأقرب الأوقات ، ويمتزج فى المجموع حتى تخال أنه عربى قح .

وأما فى حكمنا فلم نستطع أن نستترك أدنى فئة ممن حكمناهم من الأمم ، بكمال العدل الإسلامى والسماح التركى ولين الجانب . أ . هـ .

ثم قال جمال الدين تعليقا على كلام ضيا باشا الذى نقله عنه بالحرف - كما قال - : قال : « لو كان ضيا باشا حيا لأزلت ريبه من حال قومه الأتراك ، قلنا : وكيف ذلك ؟

قال : إن المرحوم ضيا باشا أشكل عليه الأمر ، لما اعتقد أن الأتراك قد شابهوا العرب تماما ، بمعنى أنهم دخلوا فى دين الإسلام ، وجروا على سننهم بالفتوحات من حيث العدل ولين الجانب . ولكن فاته أن لكل دين لسانا ، ولسان دين الإسلام « العربى » .

ولكل لسان آداب ، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق ، وعلى حفظها

تكون العصبية ، فالأتراك أهملوا أمرا عظيما ، وحكمة نافعة قالها السلطان سليم وهى : قبول اللسان لسان الدولة وتعميمه بين من دان بالإسلام من الأعاجم ، ليفقهوا أحكامه ويمشوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه ، ومكارم أخلاقه ومحاسن عوائد أهله •

فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهرى فقط ، بل بفهم أحكامه والعمل بآدابه ، وذلك ما تم ، ولا يتم إلا باللسان وهو أهم الأركان •

قامت السلاطين العظام من آل عثمان بفتوحات جليلة وعملت خيرات ومبرات جزيلة ، وقربوا إليهم من كان فى عصرهم من فحول العلماء من المسلمين ، وقد تفردوا إذ ذلك بمعرفة اللسان العربى وبعض علومه ، وعرف أولئك الفحول قدر اللسان العربى ، وغالوا فى التقدير حتى إنهم كانوا على قيل : لا يعطون وظيفة علمية إلا لمن يحفظ القاموس العربى « الفيروزأ بادى » ـ وهذا لو صح غلو غير معقول وليس هو من الفائدة فى شىء ـ •

بقيت الأتراك فى فتوحاتهم على تلك الصورة فى مجموعهم بداوة صرفة ، لم يتخذوا غير القوة المادية آلة ، ولم ينقلوا سواها للبلاد •

نعم : إنهم تدينوا بالإسلام على أبسط حالاته وأشكاله بكمال التعبد ولكن على بعد سحيق من فهم معانى القرآن وآداب اللسان •

والعرب لو كانوا مثلهم لما استطاعوا أن يكونوا أحسن أثرا منهم ، ولما كان لهم حضارة ولا مدنية ، ولبقوا بداوة محضة ، همهم فتح البلاد للاستغلال وجمع الأموال للرفاه والترف ، أو البذخ والسرف ، الأمر الذى قضى على الدولة التى خلت قبل الإسلام وبعده والتى ما كان ليقضى عليها سواه •

فالانغماس فى السفه والترف والبذخ والسرف من العوامل الأساسية فى حالتى الاضمحلال والانقراض ، وأقل نتائجه صرف الهمم عن معالى الأمور ، وعدم الاكتراث بما يحتاجه الملك من التعهد بأسباب دوام العمران ، وأشد ما فيه من المخاطر

احتقار مطالب الجمهور التى كلما تمادى الملك المحجب وعونته من المترفين المسرفين . فى إهمالها والضغط على طالبيها تحتشد الأحقاد فى الصدور وتستحكم منهم النفرة . ولا يلبث كل ذلك طويلا حتى يظهر فى حين لا يرقبه الملكِ المستبد . ولا أعوانه الذين غصبوا حق الأمة وهضموا حقوقهم العامة بصفتهم « خاصة » .

فالأتراك قد اتفقوا شكلا مع العرب ، وأما النتيجة من حيث هى نتيجة مؤلمة فواحدة للقومين والأمنين .

أما فضل العرب بترك الآثار العمرانية والأدبية فليس له كبير أهمية بالنظر إلى نتائج الأمور ومصيرها ..

إن عدم ترك الأتراك أثرا بعد أن توغلوا فى فتحهم لأوربا ودخولهم فينا وتخليهم عن تلك الأمصار بدون آثار أدبية أو عمرانية لا يعد حطة ، كما أن بقاء آثار العرب فى الأندلس لا يحسب لهم شرفا بعد أن استؤصل ظلهم وزال ملكهم وانقرضت دولتهم ، بل فى معتقدى أنه من أقدس واجبات من استطاع أن يأتى بتلك الآثار ، وتجشم لإبرازها وإبداعها تلك المهالك والأخطار والأموال أن يعد لحفظها فى حوزته وتحت سلطانه ما استطاع من قوة لا أن تبقى أثرا بعد عين .

والأثر فى مثل هذه الحال أدعى للحزن لأنه أفصح من كل بلاغة على التفريط ، وأنطق على السَّفَه وعدم الكفاءة من كل حجة وبرهان ، بل أرى أن عدم ترك الأتراك على هذا النمط أولى من تركه لعدم التأثر ـ وإن خالف هذا القياس بعض الأوربيين ـ فالإفرنسيس مثلا : ألَّف مهرةُ كتبتهم شناعات الحرب السبعينية سنة ١٨٧٠ م وصوروا ضعفهم تجاه الألمان وعدم تدبرهم للأمور ، وهفوات قوادهم وأسباب خذلانهم ، وما أتاه عدوهم من الجرائم والتمثيل بصورة أفظع من أن يصورها العدو الألمانى ، فهم يذكرون ذلك ليثأروا ، ولكن على اهتمام متواصل لترقى الأمة ، وإعداد ما يستطيعون من قوة .

وأما العرب والترك ففى كل فتوحاتهم سواء فيه من ترك آثارا أو لم يترك ، فقد

تركوا من بعدهم خلفا من الأبناء يذكرون مجد الفتح ويفتخرون بأعمال آبائهم وأجدادهم ، وعن إعداد القوة هم غافلون ، وعن واجباتهم لاهون ، وإن ذكَّرتهم لا يذكرون ، وإن أيقظتهم لا يفيقون ، بل هم فى غفلتهم راقدون ، وعلى القدَر كل شيء يحيلون ، ولو عملوا بالقانون الإلهى وبقوله : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى » لكان أوفر خيرا للأمة .

والسعى أدل السبل على النجاح وأحسن ما تربى عليه الناشئة .

أما انتشار اللسان العربى فيما عدا بلادهم ، فليس للفاتحين أدنى دخل فيه ولا اتخذوا له أسبابا ووسائل ، بل إن ما وجد فى اللسان العربى من الآداب الباهرة والحكم والأمثال والمواعظ ، ذلك هو الذى أحله من الانتشار هذا المحل .

حتى إن العرب قبل الإسلام وهم فى تلك الحالة الجاهلية ، والبداوة المحضة وبعدهم عن كل حضارة كانوا يحلون بآداب لسانهم من أعظم الملوك مثل كسرى أنوشروان محلا رفيعا ، ويأخذون الجوائز ويثرون بتجارتهم مع الأعاجم بآداب لسانهم وما يجرى على ألسنتهم من الحكمة التى تأخذ بمجامع القلوب .

هكذا كان الذكاء العربى الفطرى المتوقد يناسبه سلاسة اللسان وأدبه ، فكان إذا ظهر بين العرب حكيم طبيب مثل الحارث بن كلدة مثلا ، استطاع بآداب اللسان وفرط الذكاء أن يقارع ويضارع أكبر حكيم من الفرس مع حضارته ومدنيته ، وكذلك الشاعر فى قبيلته إذا نبغ ولو كان وضيع النسب أجلته القبيلة أو اعتبرته حامى ذمارها بأدبه وشعره وأغنته بالمال والماشية .

وأما فى الحضارة الإسلامية وفى دولها فكثير ممن برع بالأدب فأوصله إلى مرتبة الوزارة فالإمارة ، وأما من أثرى بأخذ جوائز الخلفاء والملوك من الأدباء فلا يعدون كثرة .

هذا بعض مالآداب اللسان من التأثير المادى ، وأما التأثير المعنوى فيكفى أنه

من أكبر الجوامع التى تجمع الشتات وتنزل من الأمة أكبر المفاخر ، فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير ، فحافظت على لسانها محكومة وترقبت الفرص ونهضت بعد دهر ، فردت ملكها وجمعت من ينطق بلسانها إليها ، والعامل فى ذلك إنما هو اللسان قبل كل ما سواه ، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ونسوا مجدهم وظلوا فى الاستعباد ما شاء الله[١] .

هذا جهد جمال الدين فى كشف محاولات من يرغبون فى إقصاء الفصحى عن ألسنة المسلمين ، وهذا منطقه فى قيمة اللسان عموما فى صنع الأمة واللسان العربى بالنسبة للمسلمين .

فلسان دين الإسلام ـ كما قال جمال الدين ـ هو اللسان العربى ، ونجاح العرب فى فتوحاتهم ـ فى الماضى ـ جاء نتيجة فهمهم للإسلام ـ القرآن والسنة ـ والعمل بآدابها ، وذلك ما تم ولا يتم إلا باللسان العربى ، الذى هو أهم أركان النجاح فى تلك الفتوحات .

والأتراك ما فشلوا ـ فى سرعة ضياع ما فتحوه من بلاد من أيديهم ـ إلا لأنهم تدينوا بالإسلام على أبسط حالاته وأشكاله بكمال التعبد .. ولكن على بعد سحيق من فهم معانى القرآن وآداب اللسان .. وما وجد فى اللسان العربى من الآداب الباهرة والحكم والأمثال والمواعظ ، ذلك هو الذى أحله من الانتشار هذا المحل ، وليس فى أدب اللسان العربى فى هذا المجال أروع مما جاء فى القرآن الكريم وفى سنة المعصوم صلى الله عليه وسلم ، فضلا عما فيه من روائع الشعر والنثر وفنون القول ، ومكارم الأخلاق .

ويؤكد جمال الدين أن أدب اللسان له تأثير معنوى يعد من أكبر الجوامع التى تجمع شتات الأمة وتنزلها أشرف المنازل ، وتحول بين أعدائها وبين العدوان عليها ،

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ٥٧ ـ ٦٢ .

بل تستطيع بتمسكها بلسانها أن تنهض مهما كبت وأن تسترد ملكها مهما بقى فى أيدى أعدائها ٠

والحق أن جمال الدين حاول أن يتخذ من ضرورة تمسك المسلمين بلسانهم العربى الفصيح لسان القرآن الكريم سلاحا تستطيع به الأمة أن ترد عن نفسها عادية المستعمر الغاشم المحتل لأرضها ، فلو فقدت الأمة لسانها لفقدت تاريخها ونسيت مجدها وظلت فى الاستعباد ما شاء الله ٠

فالراغبون فى إقصاء الفصحى إذن يرغبون فى إقصاء الأمة الإسلامية عن تاريخها وأمجادها وكتابها ، وبذلك تضيع الأمة ويسهل على عدوها أن يتغلب عليها ، ويصبح يسيرا عليه إن احتل أرضها أن يبقى فيها ٠

ولقد كان الإنجليز يحتلون معظم بلدان العالم الإسلامى فى عصر جمال الدين وكان من هدفهم أن يبقى احتلالهم لتلك البلاد أطول فترة ممكنة ، وكان من وسائلهم فى التمكين لأنفسهم فى العالم الإسلامى أن يقضوا على تاريخه وأدبه ولسانه ، وكان عملهم فى هذا المجال ذا شقين :

شق يستهدف إقصاء اللغة العربية الفصحى لغة القرآن ، وشق يستهدف محاربة اللغة القومية للشعب المسلم الذى يقع فى براثنهم ، لتحل محلها لغتهم وأدبهم ٠

وكما اهتم جمال الدين بتوضيح أثر اللسان العربى فى بناء الأمة وإبائها الضيم ومقاومتها لأعدائها ، كذلك اهتم بأن يكشف خطة أعداء الأمة الإسلامية فى إضعاف لغاتهم القومية لتحل محلها لغة هؤلاء الأعداء ، فإذا سادت فى العالم الإسلامى لغتهم ـ وقد حدث هذا فى كثير من بلدان العالم الإسلامى ـ سادت ثقافتهم وحضارتهم ، وخملت نتيجة لذلك ثقافة الإسلام وحضارته ٠

تحدث جمال الدين عن هذا فقال : « ٠٠٠ كما علمنا أن معدات المرض وجراثيمه فى الشرق التى قد أتت من مطامع الغرب ودخلت إليه من باب خمول الشرقيين ـ تنحصر فى أمور رئيسية سبق التنويه بذكر بعضها مثل إقصاء أصحاب المعارضة والأحرار الحقيقيين ٠

كذلك يجب أن نعلم أن عوامل غريبة مهلكة تبدو فى أول مظهرها خفيفة الوطأة سهلة المأخذ لا ضرر من التسامح بها وهى : أسلوب عجيب لإضعاف لغة القوم والتدرج بقتل التعليم القومى وتنشيط القائلين من الشرقيين بأن ليس فى لسانهم العربى أو الفارسى أو الأوردو الهندى أو .. الخ • آدابا تؤثر ، ولا فى تاريخهم مجدا يذكر ، وأن المجد كل المجد لذلك الشرقى الخامل أن ينفر من سماع لغته وأن يتباهى بأنه لا يحسن التعبير بها ، وأن ما تعلمه من الرطانة الأعجمية هو منتهى ما يمكن الوصول إليه من المدركات البشرية •

« قال : لقد شاهدت وسمعت من مثل هذه المضخكات المبكيات عدة أشخاص من زعانف الشرقيين ، وقد وقفوا على منابر الخطابة يتزلفون إلى طالب الرزق فى بلادهم من الغربيين ، فأنكروا من قومهم ولسانهم كل فضيلة ، وتغنوا بجمل غريبة ورطانة أعجمية حشوها المدائح التى ربما تكون أوصلتهم إلى بلغة من عيش ، عند ذلك المكتسح لبلادهم ، ولسوف ينبذ من كان مثلهم مكانا قصيا ، فلا الأجنبى يحميه ولا الوطن يحويه •

لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا عزم لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمى ، وتحيى آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم ، وتنسج على منوالهم •

وهذا كله يتوقف على تعليم وطنى يكون بدايته الوطن ووسطة الوطن وغايته الوطن •

ويجب أن يكون الوطن فى مفهوم الشرقيين كقاعدة حسابية : اثنان فى اثنين يعملان أربعة ، فلا تستطيع المذاهب أو الطوائف أن تدعيها خاصة ولا أن تحاول نقضها •

هذا هو الوطن ، وهكذا يجب أن يكون التعليم الوطنى »[١] •

---

١ ـ السابق : ٨٥ ـ ٨٦ •

جـ - الفهم الخاطئ للتعصب

شاعت فى عصر جمال الدين شائعة - روجها أعداء الإسلام - تنعى على المسلمين تعصبهم للإسلام ، وترميهم بالجمود والرجعية والتعصب الأعمى ، وأخذ بعض قصار النظر يفهمون من كلمة التعصب ما لا يرضاه جمال الدين ، ولا يرضاه الواعون من المسلمين ، وما هو غير صحيح .

كتب جمال الدين تحت عنوان : « التعصب » مقالا ضافيا استوعب فيه معنى الكلمة وأبعادها ، والفهم الخاطئ لها ، كما تحدث فيه عما يجب على المسلمين نحو تعصبهم لإسلامهم .

استهل جمال الدين مقاله : « التعصب » بآية قرآنية كريمة هى : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء » ثم قال :

« لفظ شغل مناطق الناس خصوصا فى البلاد الشرقية ، تلوكه الألسن وترمى به الأفواه فى المحافل والمجامع حتى صار تكأة للمتكلمين يلجأ إليه العيبى فى تهتهته والذملقانى[1] فى تفيهقه .

أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير فقلما تكون عبارة إلا وهو فاتحها أو حشوها أو خاتمها ، يعدون مسماه علة لكل بلاء ومنبعا لكل عناء ، ويزعمونه حجابا كثيفا وسدا بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح ، ويجعلونه عنوانا على النقص وعلما للرذائل .

والمتسربلون بسرابيل الإفرنج الذاهبون فى تقليدهم مذاهب الخبط والخلط لايميزون بين حق وباطل ، هم أحرص الناس على التشدق بهذا البدع الجديد فتراهم

---

١ - الذملقانى : السريع الكلام .

فى بيان مفاسد التعصب يهزون الرءوس ويعبثون باللحى ويبرمون السبال[1] ، وإذا راموا به شخصا للحط من شأنه أردفوه للتوضيح بلفظ إفرنجى « فناتيك[2]» فإن عهدوا بشخص نوعا من المخالفة لمشربهم عدوه متعصبا وهمزوا به وغمزوا ولمزوا ، وإذا رأوه عبسوا وبسروا وشمخوا بأنوفهم كبرا ، وولوه دبرا ، ونادوا عليه بالويل والثبور .

ماذا سبق إلى أفهامهم من هذا اللفظ ، وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدأ لكل شفاعة ومصدرا لكل نقيصة ، وهل لهم وقوف على شىء من حقيقته ؟

التعصب قيام بالعصبية ، والعصبية من المصادر النسبية ، نسبة إلى العصبة ، وهى قوم الرجل الذين يعززون قوته ، ويدفعون عنه الضيم والعداء ، فالتعصب للنفس الإنسانية تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه ، ووجوه الاتصال تابعة لأحكام النفس فى معلوماتها ومعارفها .

هذا الوصف هو الذى شكل الله به الشعوب ، وأقام بناء الأمم ، وهو عقد الربط فى كل أمة ، بل هو المزاج الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد ، أو ينشئها بتقدير الله خلقا واحدا ، كبدن تألف من أجزاء وعناصر تدبره روح واحدة ، فتكون كشخص يمتاز فى أطواره وشئونه وسعادته وشقائه عن سائر الأشخاص .

وهذه الوحدة هى مبعث المباراة بين أمة وأمة وقبيل وقبيل ، ومباهاة كل من الأمتين المتقابلتين بما يتوفر لها من أسباب الرفاهية وهناء العيش ، وما تجمعه قواها من وسائل العزة والمنعة ، وسمو المقام ونفاذ الكلمة ، والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأشخاص ، أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال فى جميع لوازم الحياة بقدر ما تسعه الطاقة .

---

١ ـ السبال : جمع سَبَلة : الدائرة فى وسط الشفه العليا أو ما على الشارب من الشعر أو طرفه أو مجتمع الشاربين أو ما على الذقن إلى طرف اللحية كلها أو مقدمها . القاموس المحيط . ٣ـ٤٥٣

٢ ـ فناتيك : متعصب · Fanatic

التعصب روح كلى مهبطه هيئة الأمة وصورتها وسائر أرواح الأفـراد حواسـه ومشاعره ، فإذا ألم بأحد المشاعر ما لا يلائمه من أجنبى عنه انفعل الروح الكلى ، وجاشت طبيعته لدفعه ، فهو هذا مثار الحمية العامة ومسعر النعرة الجنسية ٠

هذا هو الذى يرفع نفوس آحاد الأمة عن معاطاة الدنايا وارتكاب الخيانات فيا يعود على الأمة بضرر ، أو يئول إلى سوء عاقبة ٠

وإن استقامة الطباع ورسوخ الفضيلة فى أمة يكون على حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها ، يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حى لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم ، ولا يرى القدمان فى تطرفهما انحطاطا فى رتبـة الوجود ، وإنما كل يؤدى وظائفه لحفظ البدن وبقائه ٠

وكلما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمة بضـعف التعصـب فيهـم استرخـت الأعصاب ، ورقت الأطناب ورقت الأوتار وتداعى بناء الأمـة إلى الانحـلال كما يتداعى بناء البنية إلى الفناء بعد هذا يموت الروح الكلى وتبطل هيئة الأمة ، وإن بقيت آحادها فما هى إلا كالأجزاء المتناثرة إما أن تتصل بأبدان أخرى بحكم ضرورة الكون وإما أن تبقى فى قبضة الموت إلى أن ينفخ فيها روح المنشأة الآخرى (سنة الله فى خلقه) ٠

إذا ضعفت العصبية فى قوم رماهم الله بالفشل وغفل بعضهم عن بعض ، وأعقب الغفلة تقطع فى الروابط ، وتبعه تقاطع وتدابر فيتسع للأجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم ، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم كما بدأهم بإفاضة روح التعصب فى نشأة ثانية ٠

نعم : إن التعصب وصف كسائر الأوصـاف ، له حد اعتـدال وطرفـا إفـراط وتفريط ، واعتداله هو الكمال الذى بينا مزاياه ، والتفريط فيه هو النقص الذى أشرنـا لرزاياه ، والإفراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء ، فالمفرط فى تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق ، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة وينظر إلى

الأجنبى عنه كما ينظر إلى الهمل ، لا يعترف به بحق ، ولا يرعى له ذمة ؛ فيخرج بذلك عن جادة العدل ، فتنقلب منفعة التعصب إلى مضرة ، ويذهب بهاء الأمة بل يتقوض مجدها ، فإن العدل قوام الاجتماع الإنسانى وبه حياة الأمم وكل قوة لا تخضع للعدل فمصيرها إلى الزوال ، وهذا الحد من الإفراط فى التعصب هو الممقوت على لسان الشارع صلى الله عليه وسلم فى قوله : « ليس منا من دعا إلى عصبية » •

التعصب كما يطلق ويراد منه النعرة على الجنس ومرجعها رابطة النسب والاجتماع فى منبت واحد ، كذلك توسع أهل العرف فيه فأطلقوه على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضا ، والمتنطعون من مقلدة الإفرنج يخصون هذا النوع منه بالمقت ويرمونه بالتعس ، ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل ، فإن لحمة يصير بها المتفرقون إلى وحدة ، تنبعث عنها قوة لدفع الغائلات ، وكسب الكمالات لا يختلف شأنها إذا كان مرجعها الدين أو النسب ، وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين فى أقوام مختلفة من البشر ، وعن كل منهما صدرت فى العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الإنسانى ، وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه ومعاونته على حاجات معيشته وبين ما يصدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب •

فتعصب المشتركين فى الدين المتوافقين فى أصول العقائد بعضهم لبعض إذا وقف عند الاعتدال ولم يدفع إلى جور فى المعاملة ، ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو نقض لذمته فهو فضيلة من أجل الفضائل الإنسانية وأوفرها نفعا وأجزلها فائدة ، بل هو أقدس رابطة وأعلاها ، إذا استحكمت صعدت بذور المكنة فيها إلى أوج السيادة وذروة المجد ، خصوصا إن كانوا من قبيل قوى فيهم سلطان الدين ، واشتدت سطوته على الأهواء الجنسية ، حتى أشرف بها على الزوال كما فى أهل الديانة الإسلامية •

ولا يؤخذ علينا فى القول بأنه أقدس الروابط ، فإنه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة ، ويصل ما بينهم فى المقاصد والعزائم والأعمال ، وكذلك

يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر ، بل الأجناس المتحالفة فى المنابت واللغات والعادات ، بل المتباعدة فى الصور والأشكال ، ويحول أهواءها المتضاربة إلى قصد واحد ، وهو تأصيل المجد وتأييد الشرف ، وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لهم ، هذا الأثر الجليل عهد لقوة التعصب الدينى ، وشهد عليه التاريخ بعد ما أرشد إليه العقل الصحيح ، وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شيء منه .

ثغثغ[1] جماعة من متزندقة هذه الأوقات فى بيان مفاسد التعصب الدينى ، وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به إخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف هو الذى يصدهم عن السير إلى كمال المدنية ويحجبهم عن نور القلم والمعرفة ، ويرمى بهم فى ظلمات الجهل ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم فى دينهم ، ومن رأى أولئك المثغثغين أن لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية الدينية ومحو أثرها ، وتخليص العقول من سلطة العقائد ، وكثيرا ما يرجفون بأهل الدين الإسلامى ، ويخوضون فى نسبة مذام التعصب إليهم .

كذب الخراصون . إن الدين الإسلامى أول معلم فأرشد أستاذ وأهدى قائد للأنفس إلى اكتساب المعلوم والتوسع فى المعارف ، وأرحم مؤدب وأبصر مروض يطبع الأرواح على الآداب الحسنة والخلائق الكريمة ويقيمها على جادة العدل وينبه فيها حاسة الشفقة والرحمة ، خصوصا دين الإسلام ، فهو الذى رفع أمة كانت من أعرق الأمم فى التوحش والقسوة والخشونة ، وسما بها إلى أرقى مراقى الحكمة والمدنية فى أقرب مدة وهى الأمة العربية .

قد يطرأ على التعصب الدينى بين التغالى والإفراط مثل ما يعرض على التعصب الجنسى فيفضى إلى ظلم وجور ، ربما يؤدى إلى قيام أهل الدين بإبادة مخالفيهم ومحق

---

١ ـ ثغثغ كلامَه : خلط فيه . والثغثغة .. الكلام لا نظام له . القاموس المحيط للفيروزأبادى ١٠٩/٣ .

وجودهم ، كما قامت الأمم الغربية واندفعت على بلاد الشرق لمحض الفتك والإبادة ، لا للفتح ولا للدعوة إلى الدين فى الحرب الهائلة المعروفة بحرب الصليب/كما فعل الأسبانيون بمسلمى الأندلس ، وكما وقع قبل هذا وذاك فى بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحى ، إن صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود فى القدس فأحرقهم ، إلا أن هذا العارض لمخالفته لأصول الدين قلما تمتد له مدة ، ثم يرجع أرباب الدين إلى أصوله القائمة على قواعد السلم والرحمة والعدل ·

أما أهل الدين الإسلامى فمنهم طوائف شطت فى تعصبها فى الأجيال الماضية إلا أنه لم يصل بهم الإفراط إلى حد يقصدون فيه الإبادة وإخلاء الأرض من مخالفيهم فى دينهم ، وما عهد ذلك فى تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب ، ولنا الدليل الأقوم على ما نقول ، وهو وجود الملل المختلفة فى ديارهم إلى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم فى عنفوان القوة وهى فى وهن الضعف ·

نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالك وامتداد الفتوحات ، وكانت لهم شدة على من يعارضهم فى سلطانهم ، إلا أنهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الأديان ، ويرعون حق الذمة ، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه ، ويدفعون عنه غائلة العدوان ·

ومن العقائد الراسخة فى نفوسهم : « أن من رضى بذمتنا فله ما لنا وعليه ما علينا » ولم يعدلوا فى معاملتهم لغيرهم عن أمر الله فى قوله : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ، اللهم إلا ما لا تخلو عنه الطبائع البشرية ·

ومن نشأة المسلمين إلى اليوم لم يدفعوا أحدا من مخالفيهم عن التقدم إلى ما يستحقه من علو الرتبة ، وارتفاع المكانة ، ولقد سما فى دول المسلمين على اختلافها إلى المراتب العالية كثير من أرباب الأديان المختلفة ، وكان ذلك فى شبيبتها وكمال

قوتها ، ولم يزل الأمر على ما كان ، وفى الظن أن الأمم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل إلى اليوم ـ فسحقا لقوم يظنون أن المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم ـ !!

لم يسلك المسلمون من عهد قريب مسلك الإلزام بدينهم والإجبار على قبوله مع شدة بأسهم فى بدايات دولهم ، وتغلغلهم فى افتتاح الأقطار واندفاع هممهم للبسطة فى الملك والسلطة ، وإنما كانت لهم دعوة يبلغونها فإن قبلت ، وإلا استبدلوا بها رسما ماليا يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الإسلامى .

هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين أيام شوكتهم الأولى ، فإنهم ما كانوا يطأون أرضا إلا ويلزمون أهلها بخلع أديانهم والتطوق بدين أولئك المنتصرين وهو الدين المسيحى كما فعلوا فى مصر وسورية ، بل وفى البلاد الإفرنجية نفسها .

هذا فصل من الكلام ساق إليه البيان وفيه تبصرة لمن يتبصر وتذكرة لمن يتذكر .

ثم أعود بك إلى سابق الحديث فيما كنا بصدده : هل لعاقل لم يصب برزيئة فى عقله أن يقول : إن الاعتدال من التعصب الدينى نقيصة ؟

وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسى إلا بما يكون به التعصب الدينى أقدس وأطهر وأعم فائدة ؟ لا نخال عاقلا يرتاب فى صحة ما قررناه ، فما لأولئك القوم يهذرون بما لا يدرون ؟ أى أصل من أصول العقل يستندون إليه فى المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسى فقط واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل ، ويعبرون عنه بمحبة الوطن ؟

وأى قاعدة من قواعد العمران البشرى فى التهاون بالتعصب الدينى المعتدل وحسبانه نقيصة يجب الترفع عنها ؟

نعم : إن الإفرنج تأكد لديهم أن أقوى رابطة بين المسلمين إنما فى الرابطة الدينية ، وأدركوا أن قوتهم لا تكون إلا بالعصبية الاعتقادية ، ولأولئك الإفرنج مطامع فى ديار المسلمين وأوطانهم ، فتوجهت عنايتهم إلى بث هذه الأفكار الساقطة بين

أرباب الديانة الإسلامية وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها ، لينقضوا بذلك بناء الملة الإسلامية ويمزقوها شيعا وأحزابا ، فإنهم علموا كما علمنا وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا فى دينهم واعتقادهم ، وتسنى للمفسدين نجاح فى بعض الأقطار الإسلامية ، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلا وتقليدا فساعدوهم على التنفير من العصبية الدينية بعد ما فقدوها ، ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس التى يبالغون فى تعظيمها واحترامها حمقا منهم وسفاهة ، فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيئ لنفسه مسكنا سواه فاضطر للإقامة بالعراء معرضا لعوامل الجو وماتصول به على حياته .

من هذا ما سلك الإنجليز فى الهند لما أحسوا بالعراء بخيال السلطنة يطوف على أفكار المسلمين منهم لقرب عهدها بهم ، وفى دينهم ما يبعثهم على الحركة إلى استرداد ما سلب منهم ، وأرشدهم البحث فى طبائع الملل إلى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية ، ومادام الاعتقاد المحمدى والعصبية الملية سائدة فيهم فلا نؤمن بعثتهم إلى طلب حقوقهم ، فاستهووا طائفة ممن يتسمون بسمة الإسلام ويلبسون لباس المسلمين ، وفى صدورهم غل ونفاق ، وفى قلوبهم زيغ وزندقة وهم المعروفون فى البلاد الهندية « بالنيشرية » أى الدهريين ، فاتخذهم الإنجليز أعوانا لهم على فساد عقائد المسلمين ، وتوهين علائق التعصب الدينى ليطفئوا بذلك نار حميتهم ، ويخمدوا ثائرة غيرتهم ويبددوا جمعهم ويمزقوا شملهم ، وساعدوا تلك الطائفة على إنشاء مدرسة كبيرة فى « عليكرة » ونشر جريدة ، لبث هذه الأباطيل بين الهنديين حتى يعم الضعف فى العقائد ويرثَّ أطناب الصلات بين المسلمين فيستريح الإنجليز فى التسلط عليهم وتطمئن قلوبهم من جهتهم كما اطمأنت من جهة غيرهم .

وغر أولئك الغفل المتزندقين أن رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية ويدنونهم من بعض الوظائف الخسيسة ـ تعس من يبيع ملته بلقمة وذمته برذال العيش .

هذا أسلوب من السياسة الأوربية أجادت الدول اختياره وجنت ثماره ، فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم ، فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل فى البلاد العثمانية والمصرية وغيرها من الممالك الإسلامية ، ولم تعد صيدا من الأمراء والمنتسبين إلى العلم والمدنية الجديدة ، واستعملتهم آلة فى بلوغ مقاصدها من بلادهم .

وليس عجبا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الإسلام أن يميلوا مع هذه الأهواء الباطلة ، ولكنا نعجب من أن بعضا من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم فى إيمانهم يسفكون الكلام فى ذم التعصب الدينى ، ويهجرون فى رمى المتعصبين بالخشونة ، والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ويفسدون شأنهم ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المارقين ، يطلبون محو التعصب المعتدل ، وفى محوه محو الملة ودفعها إلى أيدى الأجانب يستعبدونها مادامت الأرض أرضا والسماء سماء .

والله ما عجبنا من هؤلاء بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الأمم الإفرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الأفكار بين الشرقيين ولا يخجلون من تبشيع التعصب الدينى ورمى المتعصبين بالخشونة .

الإفرنج أشد الناس فى هذا النوع من التعصب وأحرصهم على القيام بدواعيه ، ومن القواعد الأساسية فى حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم ، وإذا عدت عادية مما لا يخلو عنه الاجتماع البشرى على واحد ممن على دينهم ومذاهبهم فى ناحية من نواحى الشرق سمعت صياحا وعويلا وهيعات ونباءات[1] تتلاقى أمواجها فى جو بلاد المدنية الغربية وينادى جميعهم : ألا قد ألمت ملمة ، وحدثت حادثة مهمة ، فأجمعوا الأمر وخذوا الأهبة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها حتى لا تنخدش الجامعة الدينية ، ونراهم على اختلافهم فى الأجناس وتباغضهم وتحاقدهم وتنابذهم فى السياسات ، وترقب كل

---

١ ـ نباءات : أصوات : معجم مقاييس اللغة : أحمد بن فارس بن زكريا ٣٧٦/٥ .

دولة منهم لعثرة الأخرى حتى توقع بها السوء يتقاربون ويتآلفون ويتحدثـدون فى توجيه قواهم الحربية والسياسية ، لحماية من يشاكلهم فى الدين وإن كان فى أقصى قاصية الأرض ، ولو تقطعت بينه وبينهم الأنساب الجنسية •

أما لو فاض طوفان الفتن وطم وجه الأرض وغمر البسيطة من دماء المخالفين لهم فى الدين والمذهب ، فلا ينبض فيهم عرق ولا يتنبه لهم إحساس ، بل يتغافلون عنه ، ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ مدة الغاية من حده ، ويذهلون عما أودع فى الفطرة البشرية من الشفقه الإنسانية والمرحمة الطبيعية ، كأنما يعدون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السائمة والهمل الداعية ، وليس من نوع الإنسان الذى يزعم الأوربيون أنهم حماته وأنصـاره ، وليس هذا خاصـا بالمتدينـين منهـم ، بل الدهـريون ومـن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين فى تعصبهم الدينى ، ولا يألون جهدا فى تقوية عصبيتهم ، وليتهم يقفون عند الحق ، ولكن كثيرا ما تجاوزوه • أما إن شأن الأفرنج فى تمسكهم بالعصبية الدينية لغريب •

يبلغ الرجل منهم أعلى درجة فى الحرية « كجلادستون » ثم لا نجد كلمة تصدر عنه إلا وفيها نفثة من روح بطرس الراهب[1] ، بل لا ترى روحه إلا نسخة من روحه •

فيأيتها الأمة المرحومة هذه حياتكم فاحفظوها ، ودماؤكم فلا تريقوها ، وأرواحكم فلا تزهقوها ، وسعادتكم بثمن فلا تبيعوها دون الموت •

هذه هى روابطكم الدينية فلا تغرنكم الوساوس ولا تسهوينكم الترهات ، ولا تدهشكم زخارف الباطل ، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها العربى بالتركى والفارسى بالهندى والمصرى بالمغربى ، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية حتى إن الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر ، وإن تناءت دياره وتقاصت أقطاره •

---

١ ـ هو داعية الحروب الصليبية ومؤلب أوربا على الاسلام والمسلمين •

هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم ، وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها ، ولكن عليكم فى رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل ، وعليكم أن تتقوا الله وتلزموا أوامره فى حفظ الذمم ومعرفة الحقوق لأربابها وحسن المعاملة وإحكام الألفة في المنافع الوطنية بينكم وبين أبناء أوطانكم وجيرانكم من أرباب الأديان المختلفة ، فإن مصالحكم لا تقوم إلا بمصالحهم ، كما لا تقوم مصالحهم إلا بمصالحكم ، وعليكم أن لا تجعلوا عصبة الدين وسيلة للعدوان ، وذريعة لانتهاك الحقوق فإن دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه بأشد العقاب .

هذا ولا تجعلوا عصبيتكم قاصرة على مجرد ميل بعضكم لبعض ، بل تضافروا بها على مباراة الأمم فى القوة والمنعة والشوكة والسلطان ومنافستهم فى اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الإنسانية .

اجعلوا عصبيتكم سبيلا لتوحيد كلمتكم ، واجتماع شملكم ، وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص إلى ذروة الكمال ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان[١] .

هكذا تصدى جمال الدين للفكر المنحرف عن الإسلام فى مجال الفهم الخاطئ للتعصب ، وأوضح أن هذا الفهم يستهدف العمل على انحلال العروة بين المسلمين وتشتيت شملهم وتمزيق وحدتهم .

---

١ ـ جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى ـ ٧٩ ـ ٨٨ .

د ـ انحراف خطبة الجمعة عن هدفها

ينظر جمال الدين فيا حوله ، فلا تغادر عينه انحرافا عن جادة الحق إلا وترصده ، ولا تترك نظراته انحرافا عن الإسلام إلا تصدى له ، وما كانت تفوت جمال الدين ظاهرة من ظواهر الانحراف فى مجتمعات المسلمين هنا وهناك فى أى مكان ينزل فيه .

ولقد كانت المجتمعات الإسلامية فى مختلف بلاد المسلمين واقعة آنذاك تحت تأثير الضغوط الإنجليزية المحتلة لها ، وهى ضغوط معنوية ومادية . ذات أهداف قريبة وأخرى بعيدة ، ومن الواضح أن أسمى أهداف الإنجليز البعيدة أن يبعدوا المسلمين عن الإسلام ، وأن يحولوا بينهم وبين التمسك بمنهجه أو العيش فى ظل نظامه ، وكان من أهدافهم القريبة الابتداع فى الدين الإسلامى بالاستعانة بالقاصرين من المسلمين ليشقوا بهم الطريق ويفتحوا ببدعهم باب الضلال .

ولقد كان من هذه البدع ما كان من انحرافات فكرية غزت العالم الإسلامى مدعومة بتشجيع الإنجليز وتأييدهم .

ولقد كان لخطبة الجمعة فى ذلك الحين نصيب من الكيد والدس ، كما كان للمسجد كله من هذا الكيد نصيب أوفى نصيب [١] ، وكان جمال الدين من البصر والبصيرة بحيث أدرك ما يحاك حول المسجد وما يراد لخطبته وخطبائه فلم يرض عما يقال فى خطبة الجمعة من كلام تافه يردده خطباء الجمعة لا يفيد المسلمين فى حاضرهم ولا فى مستقبلهم ، فوقف جمال الدين لهذا الانحراف الذى لحظه فى خطبة الجمعة ، وهاله ما يرى ويسمع من خطباء المساجد مما يعد انحرافا عن وظيفة المسجد بعامة وانحرافا بالخطبة على وجه الخصوص .

١ ـ للمؤلف : المسجد وأثره فى المجتمع الاسلامى : هناك توسع فى الحديث عن حرب الاستعمار للمسجد فى العصر الحديث من ص ١٢٧ إلى ١٣٨ من ذلك الكتاب .

فقال جمال الدين فى هذه الموضوع كلمة جامعة مركزة جاء فيها : « منبر الخطبة فى المساجد الجامعة شيده المصطفى صلى الله عليه وسلم ليرتفع منه صوت التعليم للمسلمين ، ولإيقاظ وتحريك الهمة والحث على جمع الكلمة ، وما فيه من سعادة الدارين ، يصير إلى ما صار إليه اليوم !!

وعلى منابر البصرة والكوفة ارتقى مثل أمير المؤمنين على بن أبى طالب وغيره من أكابر الصحابة والتابعين ، بحور البلاغة وفحول الفصاحة وحسن البيان ، يرتقى ذلك المنبر اليوم أجهل الأعراب والعجم ويخطب الناس وقد ركبوا بعضهم احتشادا ، وغص بهم فناء الجامع على رحبه ، ولا تكون الخطبة إلا أن : « الورد اللطيف فتح من عرقة الشريف » وهكذا أكثر خطباء المنابر فى الأمصار فلا حول ولا قوة إلا بالله[1] .. »

ماذا كان يريد جمال الدين من خطبة الجمعة ؟ كان يريد أن تكون الخطبة توجيها وتبصيرا للمسلمين بقضاياهم الهامة فى أمور دينهم ودنياهم ، وكان يريد من خطيب الجمعة أن يكون ذا ثقافة واسعة وذا نظرة شاملة فاحصة لقضايا العالم الإسلامى يبصر بها ويوجه إليها ، ويجمع حول فهم الإسلام الصحيح لتلك القضايا آراء المسلمين ويوحد من أجل جهاد أعداء المسلمين صفوف المسلمين .

كان جمال الدين يريد كل هذا من خطبة الجمعة ومن خطيبها ، فضلا عما يجب أن تحتوى عليه الخطبة من عظة وإرشاد ودعوة إلى تقوى الله .

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى : ١٩٤ .

٤ ـ آثار المدنية الغربية فى الأمة الإسلامية

كانت الفترة التى عاش فيها جمال فترة سيطرة أعداء الأمة الإسلامية على بلاد المسلمين ، كما كانت فترة ضعف المسلمين وانحلال عقدتهم وهوان أمرهم ، وخضوعهم لثقافة العدو الغالب وحضارته ومدنيته ·

ولسنا هنا بصدد الحديث المفصل عن المدنية الغربية معطياتها وأهدافها ، وما يؤخذ منها وما يترك ، لأنه ما من حضارة إلا وفيها مما يلائم حياة الناس ومعاشهم شيء أو أشياء ، وما من حضارة تستطيع أن تعيش بمعزل عن الحضارات المحيطة بها ، ولكن المجال هنا مجال الحديث عما تحتوى عليه المدنية الغربية من تناقضات وزيف ، وما تدل عليه من تمدن حقيقى ، أو تمدن زائف كما يرى جمال الدين الأفغانى ·

ولقد كانت لجمال الدين وقفة مع تلك المدنية الغازية ، نظر فيها إلى محتوى تلك المدنية وما تحمله فى ثناياها من تناقض ، وما تنطوى عليه من مغالطات ، وأخذ جمال الدين يقيس هذه المدنية الغربية بمقياسها الصحيح وهو مدى ما تحققه للناس من فائدة ·

كان جمال الدين يرى إقبال المسلمين فى مختلف أوطانهم على المدنية الغربية يعبون منها ويأخذون منها ما يلائم وما لا يلائم ، وهاله أن تنمحى شخصياتهم فى تلك المدنية ، فأخذ على عاتقه أن يكشف عن هذه المدنية غطاءها ، لتبدو للناس فى صورتها الحقيقية المجردة من الزيف والبهارج ·

فناقش فى هذه المدنية عددا من القضايا الإنسانية الكبرى ، وأوضح أن موقف هذه المدنية من تلك القضايا موقف ينطوى على كثير من المغالطات وكان من أبرز تلك القضايا التى أشار إليها جمال الدين الأفغانى :

- قضية موقف هذه المدنية من الحروب ·
- وقضية مفهوم العلم فى تلك المدنية ·
- وقضية تضليل الأسماء والمصطلحات ·
- وقضية مفهوم الوطن فى هذه المدنية ·

وكشف جمال الدين عن الزيف والخداع فى فهم هذه المدنية لتلك الأصول التى تنبنى عليها حياة الإنسان فى كل عصر من العصور ، كالعلم والوطن والحروب والسلام ·

وحرص جمال الدين فى حديثه عن المدنية الغربية أن يدعو المسلمين إلى التمسك بمدنيتهم دون الانخداع بغيرها ، لكنه لم يقف من هذه المدنية الغربية موقف من يرفضها كلها ، وإنما يرى أن الأخذ بالنافع والملائم لحاجات الناس من أى مدينة هو الأصلح والأحسن ·

ولقد اهتم جمال الدين فى حديثه عن آثار المدنية الغربية فى الأمة الإسلامية بأمرين :

أولهما : حقيقة هذه المدنية الغربية ·

وثانيهما : ناشئة الأمة الإسلامية التى يجرفها التيار الغربى ·

وهما أبرز أمرين يجب الحديث فيهما فى ذلك الوقت لتستفيق الأمة الإسلامية من انخداعها بهذه المدنية الغازية من جانب ، وليكون أبناء الأمة الإسلامية فى موقف يلائم عراقة حضارتهم وعظمة مدنيتهم ، فلا يرتمون فى أحضان مدنية الغرب وهم مغمضو العيون ، من جانب آخر ·

أ ـ حقيقة المدنية الغربية

اهتم جمال الدين بأن يتحدث عن المدنية الغربية حديثا يكشف فيه عن أبعادها الحقيقة ، ويفضح خداعها ويواجهها بالتمدن الحقيقى الذى يجب أن يقضى على الحروب الطاحنة بين البشر ، فالمدنية الحقيقية تنبنى على العلم النافع ، والعلم النافع يجب أن يوجه صاحبه إلى كل مافيه خيره وخير الناس أجمعين ، وذلك بالضرورة يتطلب موقفا معينا من الحروب وويلاتها ٠

ويؤكد جمال الدين أن المدنية الأوروبية لم تقف من الحروب موقف المتمدنين الحقيقيين ، كما يتضح هذا فى مقاله حول هذا الموضوع ٠

كتب جمال الدين منكرا ما نراه من المدنية والعلم مع استمرار الحروب ، فقال أكثر من مرة فى معرض أحاديثه « تنازع الفناء » فقيل له : إنما يريد الأستاذ أن يقول : « تنازع البقاء » ؟ قال : كلا ، بل تنازع الفناء ، لأن البقاء الذى لا يعتريه فناء ليس فيه تنازع ولا نزاع ، وكل ما تراه من حيوان أو نبات أو جماد ، فهم يسيرون فى كل ثانية نحو الفناء ، ولو بتبدل الشكل وفنائه بالتحول ٠

والتنازع الذى نراه قائما بين الحيوان والنبات ، إنما هو على أشياء تفنى فى النتيجة ، وطالما المنتزع والمنازع والمنزوع منه سواء فى المصير إلى الفناء ، فكان الأصح أن يقال : « تنازع الفناء » ٠

قلنا : وهل اصطلاح العالم المتمدن على هذا التعبير خطأ لهذه الدرجة حتى يستبدل ويضع لفظة « البقاء » مكان « الفناء » ٠ ؟

قال : ما تعنون بالتمدن أو العالم المتمدن ؟

قلنا : الرقى النسبى بالمكتسبات العلمية والمادية ، فأمة الإنجليز مثلا والفرنسيس والألمان والأمريكان ومن ماثلهم من الأمم هم مدنيون متمدنون بأفرادهم ومجموعهم ·

قال : لا يقدر الفرد ، ولا تقدر الأمة ولا تقدر الأشياء ولا تقدر المكتسبات العلمية إلا بنسبة ما يترتب على ذلك من الفائدة ، فلنأخذ من ذكرتم من الأمم المتمدنة ومكتساباتهم العلمية وما صنعوه وعملوه وكسبوه وربحوه ، وما ترتب على ذلك ، وما حصل من المنافع والفوائد للبشر من وراء تلك المكتسبات والمدنية والثروة ، ثم نعدد ما رأينا ، هل رأينا غير مدن كبيرة وأبنية شامخة ، وقصور مزخرفة ومعامل ينسج ويصنع فيها القطن والحرير بأصباغ كياوية مختلفة ألوانها ، ومعادن ومناجم واحتكار تجارات أتت لهم بثروات وكنوز ·

ثم هل غير التفنين باختراع المدافع المريعة والقذائف ، وباقى المخربات القاتلات للإنسان تتبارى تلك الأمم الراقية المتمدنة اليوم ؟

ثم لو جمعنا كل ما فى ذلك من المكتسبات العلمية وما فى مدنية تلك الأمم من خير ، وضاعفناه أضعافا مضاعفة ووضعناه فى كفة ميزان ، ووضعنا فى الأخرى الحروب وويلاتها لا شك أن كفة المكتسبات العلمية والمدنية والتمدن ، هى التى تنحط وتغور ، وكفة الحروب وويلاتها هى التى تعلو وتفور ·

فالرقى والعلم والتمدن على ذلك النحو وفى تلك النتيجة إن هو إلا جهل محض وهمجية صرفة وغاية التوحش !!!

قال : وعندى أن الإنسان اليوم هو أحط درجة من إنسان الجاهلية حتى ومن الحيوان الناهق ، لأنه ربما يكون للإنسان فى دوره[1] الأول فى حروبه الوحشية وعوامل الجاهلية معذرة فى طلب الحاجيات للحياة بسهم وقوس وسيف وسمهرى ، وقلما تفعل تلك المعدات فى قتل النفوس إذا قيست بما لدينا اليوم من المدمرات

---

١ ـ الأفصح طوره · لأن الدور فى العربية يعنى غير ما يريده جمال الدين ·

والأسباب والمهلكات وباقى المعدات ، نعم لدينا كل ذلك نعده ونستعمله ليس للحاجيات بل لأدنى صور الكماليات ٠

أما كون الإنسان أحط من الحيوان الناهق ـ لعدم استفادته العلم الحقيقى ـ فأعظم أدلته « الحروب » !!!

خذ أوحش الحيوانات المفترسة ، أسَم الحشرات القتالة فلا ترى بين تلك الأنواع ما تشاهده من حين لآخر بين الإنسان ٠

هل رأيت أو سمعت أن ثلاثمائة ألف أفعى وقفت تجاهها مثلها وتقلبت بينهم الأنياب ، واقتتلوا ، أو قتلوا بعضهم بعضا ؟ أو العقارب ؟

أو هل وقفت الأسود صفوفا وتناهشت لحوم بعضها بعضا وسالت دماؤها ؟ أو الحمير فعلت مثل ذلك ؟ كلا ثم كلا ..

إذن فالإنسان فى مدنيته الحاضرة ٠٠ وفى مكتسباته العلمية والأدبية ، والعملية ، وفى بذل ثمرات سعيه فى سبيل الحروب ، أو استثمار ثروته منها ، وفى مرضاة موقدها ، أو رضائه عنها ، ووقوفه فيها تلك المواقف التى لا تقفها الحيوانات ولا الحشرات فهو أحط منها . وليس ثمة مدنية ولا علم ، بل جهل وتوحش ٠

ثم قال : قرأت فى القرآن أمرا تغلغلت فى فهمه روحى وتنبهت إليه بكليتى وهو : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » فاندهشت الملائكة لهذا النبأ ، ولهذه المشيئة الربانية إذ علمت أن ذلك الخليفة سيكون الإنسان ، وأن ذلك الإنسان ـ الخليفة ـ سيصدر منه موبقات وسيئات ، أعظمها وأهمها أنه « يسفك الدماء » ٠

فقالت بملء الحرية المتناسبة مع الملأ الأعلى وعالم الأنوار والأرواح الذى لا يصح أن يكون هناك شيء من رياء ونفاق .. « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ٠

ووقفت الملائكة عند هذا الحد من الطعن فى الإنسان ولم تذكر باقى السيئات

من أعماله إذا رأتها لغوا بالنسبة لهذين الوصمين ، الفساد وسفك الدماء ! لذلك برزت بهما حجة ، واتخذتهما برهانا على أعظام جعل الانسان خليفة وفيه ذلك الاستعداد للعمل بالرذيلتين ٠

وهنا أول ما يتبادر للذهن أن قول الملائكة هذا أتى اعتراضا على المشيئة الربانية ، وفيه من عدم التأدب مع الله ما فيه ، وهم أولى الخلائق بالتأدب ، ومعرفة عظمة الخالق ، وقد جاء فى حقهم أنهم : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ٠

ومتى صح هذا كان الأقرب للصواب أن الملائكة أرادت أن تعلم ما أعده الله لصون الإنسان ـ وقد جعله خليفة له فى الأرض ـ عن الفساد وسفك الدماء ، يدلنا على ذلك قوله تعالى : « إنى أعلم ما لا تعلمون » وبأبسط المعانى أن الله تعلى أفهم الملائكة : أنكم علمتم ما فى خليفتى فى الأرض وهو الإنسان من الاستعداد لعمل الفساد وسفك الدماء وجهلتهم ما أعددته لصونه ، وصرفه عن الإتيان بالنقيصتين المذكورتين ألا وهو : « العلم » ٠

فقال : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض ٠٠ » الآية

فلا تثريب على من يقول : إن الله أراد أن يقول للملائكة : أيتها الملائكة إننى قد علمت آدم « خليفتى فى الأرض » علما جهلتموه أنتم ، وأن بذلك العلم يصان الإنسان ، ويكف عن الفساد وسفك الدماء ، فلا يحدث من خليفتى ما خشيتموه وأعظمتم أمره ، وذلك الصون للإنسان حصره « بالعلم » ٠

وجاء فى القرآن تعظيم قدر العلم الصحيح ـ لا ما نراه من القشور فنسميه علما ـ بمثل قوله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ومثل :

« لا يعقلها إلا العالمون » ، فترى حكم المساواة فى القرآن قد جاء عاما بين الناس إلا فى هاتين الآيتين ، إذ منع فى الأولى المساواة بين العالم والجاهل ، وفى الثانية أن يكون غير العالم عاقلا ٠٠

فمما تقدم يفهم أن العلم الصحيح الذى يمكن للآدمى أن يصل إليه هو العلم الذى به ينتهى الإنسان عن الفساد فى الأرض سفك الدماء ، والعلم الذى لا يصون الإنسان من هذين النقصين ليس هو بالعلم الذى تعلمه آدم ليدحض حجة الملائكة على أنه سيفسد ويسفك الدماء بل هو يناقضه ويشهد على ذلك النقيض ما نشاهده اليوم فى أوروبا والعالم المتمدن ، مما جعل رقيهم النسبى فى المكتسبات العلمية نقيضا للبرهان ٠

ولا بد أن يصل العالم الإنسانى إلى درجة من حقيقة العلم يمتنع بها عن إراقة دماء بعضهم بعضا ، وليس بين القاتل والمقتول لا نزاع ولا خصام ، حتى ولا تعارف بالوجوه بغير صفوف القتال ـ يساقون للمجازر لإرادة ملك مسرف مغرور ، أو تهويل أفراد يقبضون على زمام الأحكام ويسوقون الخلق كالأنعام يغتنمون فرصة الحرب ليكنزوا من ورائها الذهب والفضة ٠

ثم قال : إن الإنسان لتعروه الدهشة عندما يرى أفراد الأمة يسوق بعضهم بعضا للثكنات فصفوف القتال ، وجلهم غير راض عنها بل نافر منها إذ يعلم أن من ورائها يتم الأطفال وموت الشيوخ وهتك الأعراض ٠٠ يهولون عليهم ، ويستهوونهم باسم « الوطن » والوطن بقاع من الأرض ، ولو أنصف الناس بعضهم بعضا لوسعتهم ، وما فضل الأرض إلا أنها تتحمل أثقال البشر ، يمرحون فوقها ويقتتلون عليها وهم لها فى الأخير تاركون ، وإلى جوفها داخلون ، فما أحرى الإنسان أن يعيش مع أخيه فوق أديمها ـ وهو رفات العباد ـ بصحيح الإخاء ، وشىء من الهناء ريثما يدرك الجميع الفناء ٠

ومما يزيد فى الدهشة والحيرة ، أن الحروب وويلاتها لا يحتاج فى توقيفها وإبطالها

إلا إلى توقف الأمة عن إجابة الداعى إليها .. وطلب الرجوع إلى العدل المطلق مع تحكيم الإنصاف المحض ، فإذا فعلت ذلك كل أمة ولو أهاجها ملكها ، أو هول عليها أميرها ، أو وزراؤها ، ورؤساؤها فبمن يقاتلون ؟

والأمة محجمة عن الحرب ، لا ترضى بالقتال وتطلب تحكيم العقل والعدل ، وهل يرى المسيطرون غير ترك الطمع مخرجا من ذلك الموقف الحرج ؟ وهل يستطيعون غير ترك الضعفاء يأخذون حقهم بقوة الحق ؟ بلى لا ينقذهم غير ذلك ..

نعم : إن عدم إجابة الأمم لداعى الحرب واتفاقها على تحكيم العقل والعدل فيما فيه يختلفون هو الذى يكفى البشر شر الحروب والقتال ، ويجعل الخلق فى سلام دائم هناء مقيم .

هناك يصح أن يقال : إن البشر ، أو بنى آدم قد تعلموا ، وحصل لهم مكتسبات علمية ، أو على اصطلاحكم « تمدنوا ! » ليس بمعنى أنهم تركوا القفر وعمروا المدن وسكنوها ، كلا بل بصحيح العلم الذى إنما يكون له قدر على نسبة ما يترتب عليه من الفائدة .

ثم قال : وأعظم ما يبعث على الأمل فى إبطال الحروب إذا ارتقى العالم الإنسانى فى حقيقة العلم ، وعم طبقاته ، أنك لو أخذت اليوم عموم عساكر بريطانيا ، وتخيلتهم حقيقة مثل : « نيوتن » و « داروين » وغيرهما . وفرنسا مثل « باستور » وأمثالهم من باقى الأمم ، فهل يقفون صفوفا للاقتتال ، لعدم احترام سفير لأن كرسيه وضع فى المأدبة الملوكية فى غير الموضع الذى يريده ؟

وهل يريقون دماء مئات الألوف من تلك الأنفس الزكية لذلك ، أو لأجل بقعة من الأرض يطمعون بضمها للمملكة ، أو ليستعمروها .

قال : لا أظن ! ولا تظنون ذلك ولا هم يفعلون[1] ..

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ٩٠ ـ ٩٥ .

ب ـ ناشئة الأمة الإسلامية يجرفها التيار الغربى

فى تلك الفترة التى عاشها جمال الدين كان العالم الإسلامى يعانى من تيارات عاتية فاسدة فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، تحاول كلها أن تقتلع المسلم من دينه وتحوله إلى تابع لتلك المدنية الغربية الزائفة يجرفه تيارها إلى حيث لا يجد من دينه ومنهجه ونظامه شيئا يتمسك به أو يعتز بانتمائه إليه •

وكان شباب العالم الإسلامى ـ وقد تأثر بمناهج تعليم غربى معادية للإسلام ـ اكثر تأثرا واستجابة لهذه التيارات من غيره من أبناء الأمة المسلمة ، ولعل أولئك الشباب من المسلمين الذين ذهبوا إلى البلاد الغربية يتلقون فيها تعليمهم كانوا أشد تأثرا واستجابة من سواهم •

رأى جمال الدين أن ناشئة الأمة الإسلامية قد انغمسوا فى كل ما هو معاد لدينهم مخالف لمنهج هذا الدين ، لأنهم ثقفوا ثقافة غربية ، وكان على أيديهم وبجهودهم الدعوة إلى الأخذ بهذه الحضارة الغربية أخذا لا يميز فيها بين ما يتفق مع الإسلام وما يختلف معه •

ولقد آتى على الناس حين من الزمان ـ فى تلك الفترة ـ كان الاعتقاد فيه أن الأخذ بحضارة الغرب وثقافته هو التقدم والترقى ، وأن التمسك بالإسلام رجعية وجمود •

رأى جمال الدين ذلك وهالته تلك الآثار السيئة التى أحدثتها ناشئة الأمة الإسلامية فى كثير من بلدان العالم الإسلامى ، فأولى ذلك مزيدا من اهتمامه وعنايته ، وراح يعالج القضية من جذورها وأصولها فأسهب فى الحديث عن التقليد المفسد المضل ، وأفاض فى الحديث عن الوسائل والأسباب التى تؤدى إلى نهوض الأمم من سقوطها وإلى قيامها من عثرتها •

ولقد كان انجراف ناشئة الأمة الإسلامية بتيار الحضارة الغربية ظاهرة خطرة يجب أن يتصدى لها المخلصون من العلماء والمفكرين ، وانحرافا عن الدين يجب أن يقف له المصلحون بكل مرصد .

كتب جمال الدين فى ذلك مقالا ضافيا عالج فيه هذه الظاهرة مهتما بأسبابها ، فجاء مقالا جيدا فى تشخيص الداء جيدا فى التعرف على الدواء .

قال محمد باشا المخزومى : « قيل للسيد جمال الدين : إن فى الشرق ناشئة ممن ثقفوا وتعلموا وكتبوا وعلموا مرامى الغرب نحو الشرق وليس بالقليل عددهم فما بالهم لم يؤثروا فى صالح المجموع ورقيه وإصلاح الهيئة الاجتماعية من قومهم ؟

فقال : إن أشد وطأة على الشرق ، وأدعى إلى تهجم أولى المطامع من الغربيين وتذليل الصعاب لهم ، وتثبيت أقدامهم هم أولئك الناشئة الذين بمجرد تعلمهم لغة القوم والتأدب بأسفل آدابهم ، يعتقدون أن كل الكمال إنما هو فيما تعلموه من اللسان على بسائطه ، وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات ، وقراءة سير ومسير من قطع مراحل من الغربيين فى سبيل الأخذ فى ترقية أمته بدون أن يسبروا من ذلك غورا أو يفهموا لتدرجهم معنى .

ويعتقد الناشىء الشرقى أن كل الرذائل ، ودواعى الحطة ومقاومات التقدم إنما هى فى قومه ، فيجرى مع تيار غريب فى امتهان كل عادة شرقية ومن كل مشروع وطنى يتصدى له فئة من قومه أو أهل بلده ، ويأنف من الاشتراك فى أى عمل لم يشارك فيه الأجنبى ولو اسما ، ويسارع لتقديس وتصويب كل خطأ يأتيه الغريب ، ويسهل له كل صعب فى مطلبه ، ويطلعه على هنات قومه وزللهم وموقع الضعف منهم .

وبالإجمال يكون الآلة القاطعة الفاعلة للغريب فى جسم قومه ، والوسيلة الممكنة من الاستئثار فى البلاد ، واستعباد العباد ، بدون أن يشعر أنه سيلاقى شر ما يصنع قبل أمته ، وينزل فى تاريخها مع الأدنياء الخائنين وإذا أحس البعض فى شنيع فعلته

فإنما يؤثر مصلحته الخاصة ونفعه الخسيس المؤقت على صالحه العام مع مجموع من جمعته وإياهم الجامعات الكبرى ٠

وسواء فى الأمر من علم وارتكب تلك الخطيئات ، أو من أتاها جهلا بغير علم ، فالشرق والشرقيون ابتلاهم الله ـ بما فرطوا ـ حتى بهذه العلة ، ولا أرى لهم مخرجا من ضيقهم وشفاء من أدوائهم إلا باشتداد الأزمة وقوة الضغط ، حتى يفقدوا بقية ما ترك لهم من شبه الراحة التى أخلدوا إليها ، أو سعة العيش الضيق الذى سول لهم الخمول الرضا به ، وحتى يزاحموا على ما لا يخطر لهم ببال من دين لا يتمكنون من التعبد به كما يرومون ، ومن تجارة لا يجدون لها مالا أو مجالا ، ومن حرية شخصية يفقدونها ، ومن قهر وإذلال الإغراء ، وتعزيز الأذلاء السفهاء ، حتى يحيق بالمجموع بلاء يساوى بين الكل ويكون فيه المسلم الشرقى وأخوه المسيحى سواء ، يظهر فى بدء الأمر للأخير « المسيحى » ميزة تقدم على الأول « المسلم » بشىء من تافه الوظائف تنويها بكرامة تدينه بالمسيحية ، ولمعرفته اللسان وتمكينا لداعى التنافر وعدم الاتحاد ، وكل ذلك إلى حين ، ومن ثم يرجع الاثنان إلى التساوى فى المذلة والهوان ٠

ثم قال : لقد كثر اختلاف الناظرين فى وسائل النهوض من السقوط وتضاربت الآراء فيها ، وحامت ظنون كثيرة حولها ، فتفنيدا لباطل الظنون ونفيا لريب المرتابين والواهمين بقرب الوسائل مع بعدها وقلة نفعها ، أقول اليوم ما قلته قبل أعوام :

أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئا مذكورا ثم انشق عنها عماء العدم ، فإذا هى بحمية كل واحد منها ، كون بديع النظام قوى الأركان شديد البنيان ، عليها سياج من شدة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم ، تخمد فى ساحتها عاصفات النوازل ، وتنحل بأيدى مديريها عقد المشاكل نمت فيها أفنان العزة بعد ما ثبتت أصولها ورسخت جذورها ، وامتد لها السلطان على البعيد عنها والدانى إليها ، ونفذت منها الشوكة وعلت لها الكلمة وكملت القوة ، فاستعلت آدابها على الآداب ، وسادت أخلاقها وعاداتها وأحنست مشاعر سواها من الأمم بأن لا سعادة إلا فى انتهاج

منهجها، وورود شريعتها ، وصارت وهى قليلة العدد ، كزة الساحات ، كأنها للعالم روح وهو لها بدَنَ عامل ؟

وبعد هذا المجد كله ترى بنيانها قد وهى ، وانتثر المنظوم منها وتفرقت فيها الأهواء ، وانشقت العصى ، وتبدد ما كان مجتمعا وانحل ما كان منعقدا ، وانفصمت عرى التعاون وانقطعت روابط التعاضد وانصرفت غرائم أفرادها عما يحفظ وجودها ، ودار كل محيط بشخصه المحدود بنهايات بدنه لا يلمح فى مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية وهو فى غيبة من أن ضروريات حاجاته ومرافق حياته وكمالاته لا تنال إلا على أيدى الملتحمين معه بلحمة الأمة ، وأنه أحوج إلى شد عضدهم من تقوية ساعده وإلى توفير خيرهم من تنمية رزقه ، وكأنه بهذه الغيبة فى سبات يخيله الناظر إليه صحوا ، وذبول يظنه المغرور زهوا ، وأخذ القنوط بآمال أولئك المشدوهين فأبادها وحدثت لهم قناعة إليهم والرضا بكل ذل ٠

ولئن تنبه خاطر للحق فى خيال أحدهم ، أو استفزه داع من قلبه إلى ما يكسب ملته شرفا ، أو يعيد إليها مجدا عده هوسا وهذيانا ، أصيب به من ضعف فى المزاج أو خلل فى البنية أو حسب أنه لو أجاب داعى الذمة لعاد عليه بالوبال ، وأورده موارد الهلكة ، أو لصار من أقرب الأسباب لزوال نعمته ونكد معيشته ، وهكذا يحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالا من اليأس ، فتغل يده عن العمل ، وتقف قدماه عن السعى ، ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه ، ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبله ٠ وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا ، وقيما على ما أورثوه لأعقابهم ، ويبلغ هذا المرض من الأمة حدا يشرف بها على الهلاك ، ويطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد وطعمة لكل طاعم ٠

نعم رأيت كثيرا من الأمم لم تكن ثم كانت ، وارتفعت ثم انحطت وقويت ثم ضعفت وعزت ثم ذلت ، وصحت ثم مرضت ، ولكن أليس لكل علة دواء ؟ بلى !!

ما أكثر ما قلت وأسفاه ! نعم وأسفاه ! ما أصعب الداء وأعز الدواء وما أقل العارفين بطرق العلاج ، كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها ، وهم أمة لم تفترق إلا لأن كلا عكف على شأنه !! استغفر الله ، لوكان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالا به ، ولكنه انصرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه .

نعم : ربما التفت كل واحد إلى ماهو فى فطرة كل حى ، من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه ، وهو لا يدرى من أى وجه يحصلها ، ولا بأية طريقة يؤمن عليها ، كيف تبعث الهمم بعد موتها ، وما ماتت إلا بعد أن سكنت زمانا طويلا إلى ما ليس من معاليها .

هل من السهل رد التائه إلى الصراط المستقيم وهو يعتقد أن الخلاص فى سلوك سواه خصوصا بعد ما استدبر المقصد ، كيف يمكن تنبيه المستغرق فى منامه المبتهج بأحلامه وفى أذنه وقر ، وملامسه حذر ؟

هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقة ، من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها وتتناءى أطرافها ، وتتباين عاداتها وطبائعها ، وتتخالف آراؤها ، وقد تراكم فوقها الجهل ، وخيل للعقول أن كل قريب بعيد ، وكل سهل وعر ، وعزة الحق إنه لشىء عسير يعيى فى علاجه النطاسى ويحار فيه الحكيم البصير ؟

هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على الداء وأسبابه الأولى ، والعوارض التى طرأت عليه ؟

إن كان المرض فى أمة فكيف يمكن الوصول إلى علله وأسبابها إلا بعد معرفة عمرها ، وما اعتراها فيه من تنقل الأحوال وتنوع الأطوار ، أيمكن لطبيب يعالج شخصا بعينه أن يختار له نوعا من العلاج قبل أن يعرف ما عرض له من قبل فى حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض ؟ وإلا فإن كثيرا من الأمراض تتولد جراثيمها فى طور من أطوار العمر ثم لا تظهر إلا فى طور آخر ، لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها .

إنه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد ، سنى عمره محدودة ، وعوارض حياته محصورة ، فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الأجل ، وافرة العدد ؟ لهذا يندر فى أجيال وجود بعض رجال يقومون بإحياء أمة ، أو إرجاع شرفها ومجدها إليها ، وإن كان المتشبهون بهم كثيرين .

وكما أن المتطبب القاصر فى الأمراض البدنية لا يزيد علاجه المرض إلا شدة لولا مساعدة الصدفة[1] والاتفاق أحيانا بل ربما يفضى بالمريض إلى الموت ، كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها ووجوه العلة فيها ، وأنواعها ، وما يكتنف ذلك من العادات وما يوجد فى أفرادها من المذاهب والاعتقادات وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الأرض ، ومكانتها الأولى من الرفعة ، ودرجتها الحالية من الضعة ، وتدرجها فيما بين المنزلتين فإن أخطأ طالب إصلاحها فى اكتناه شيء مما ذكرنا تحول الدواء داء والوجود فناء .

فمن له حظ من الكمال الإنسانى ، ولم يطمس من قلبه موضع الإلهام الإلهى ، لا يجرؤ على القيام بما يسمونه « تربية الأمم » وإصلاح ما فسد منها ، وهو لا يحس من نفسه أدنى قصور فى أداء هذا الأمر العظيم علما وعملا ، نعم يكون ذلك من محبى الفخفخة الباطلة وطلاب العيش فى الوظائف التى ليسوا من حقوقها فى شيء .

ظن قوم فى زماننا أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد ، وأنها تكفل إنهاضها وتنبيه الأفكار وتقويم الأخلاق ، كيف يصدق هذا الظن ؟ وإنا لوفرضنا أن كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون إلا نجاح الأمة مع التنزه عن الأغراض ، فبعد أن عم الذهول واستولت الدهشة على العقول ، وقل القارئون والكاتبون فلا تجد لها قارئا ، ولئن وجدت القارئ فقلما تجد الفاهم ، والفاهم قد يحمل على غير ما يراد منه ، لضيق فى التصور ، أو ميل مع الهوى فلا يكون منه إلا سوء التأثير فيشبه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافا .

---

١ ـ فيما يقوله جمال الدين عن الصدفة نظر ليس هنا محل بحثه والرد عليه .

على أن الأمة إذا كانت فى درك الهبوط فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها مع قصر المدة وتدفق سيول الحوادث إن هذا وحقك لعزيز !

ويظن قوم آخرون أن الأمة المنبعثة فى أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهوائها ، وأخلادها إلى ما دون رتبتها بدرجات ورضاها بالدون من العيش والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا من مشربها ، بل لمن كان خاضعا لسيادتها راضخا لأحكامها مع هذا كله[1] أنه يتم شفاؤها من هذه الأمراض القتالة بإنشاء المدارس العمومية دفعة واحدة ، فى كل بقعة من بقاعها ، وتكون على الطراز الجديد المعروف بأوربا حتى تعم المعارف جميع الأفراد فى زمن قريب ، ومتى عمت المعارف كملت الأخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوة ، وما أبعد ما يظنون فإن هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوى قاهر ، يحمل الأمة على ما تكره أزمانا حتى تذوق لذته وتجنى ثمرته ، ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائبا عن سلطته وقائما مقامها فى تنفيذ ما أراد من خيرها ويلزم لهذا الأمر ثروة وافرة تفى بنفقات تلك المدارس وهى كثيرة .

وموضوع كلامنا الضعف ودواؤه فهل من الضعف سلطة تقهر ، وثروة تغنى ؟ ولو كان للأمة هذان ، لما عدت من الساقطين فإن قالوا يمكن التدرج مع الاستمرار والثبات ، وافقناهم على الإمكان لو لا ما يكون وما هو كائن من طمع الأقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلا لا يستنشقوا نسيم القوة فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر ؟

على أننا لو فرضنا مسالمة الدهر ومنحت الأمة مدة من الزمن تكفى لبث تلك العلوم فى بعض الأفراد ، والاستفادة منها شيئا فشيئا ، فهل يصح الحكم بأن هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية وأن ما يصيبه البعض منها يهيئه للكمال اللائق به ويمكنه من القيام بإرشاد الباقى من أبناء أمته .

---

١ ـ المعنى : ويظن قوم أنه الأمة التى .. يظن مع هذا كله .. الخ

واعجبا كيف يكون هذا ؟ والأمة فى بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها ، لا ندرى كيف بذرت بذورها ، وكيف نبتت واستوت على سوقها وأثمرت وأينعت وبأى ماء سقيت ؟ وبأية تربة غذيت ! ولا وقوف لها على الغاية التى قصدت منها فى مناشئها ، ولا خبرة لها بما ترتب عليها من الثمرات وإن وصل إليها طرف من ذلك فإنما يكون ظاهرا من القول لا بناء عن الحقيقة .

فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بتلك العلوم وسوقها إلى الأذهان المشحونة بغيرها يقوم من أفكارهم ، ويعدل من أخلاقهم ويهديهم طرق الرشاد ويعمل فى إفادة إخوانهم ؟

لعل الأقرب أن ناقلى تلك العلوم – وهم من أمة هذا شأنها – مع ما ينعكس إليهم من الأوهام المألوفة فيها ، وما رسخ فى نفوسهم على عهد الصبا ، وما يعظمونه من أمر الأمة التى تلقوا عنها علومهم ، يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعهم إلا فسادا .

ماذا يكون من أولئك الناشئين فى علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ، ولو صدقوا فى خدمة أوطانهم يكون منهم قذف ما فى خزائن خواطرهم ، يؤدون ما تعلموه كما سمعوه لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطباعها ، وما مرنت عليه من عاداتها فيستعملونه على غير وضعه ، ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه ، وغفلتهم عن آتيه ، يظنونه على شكل ما بلغهم ، هو الكمال لكل نفس والحياة لكل روح ، فيرومون من الصغير ما لا يرام إلا من الكبير ، وبالعكس ، غير ناظرين إلا إلى صور ما تعلموه ولا مفكرين فى استعداد من يعرض عليهم ، وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد أو يزيدها خيالا وضعفا ، وما هذا إلا لكونهم ليسوا أرباب تلك العلوم ، وإنما هم حملة نقله .

فهؤلاء الناشئون – إلا من وفقهم الله بعنايته الإلهية – يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلذ لها غذاء ، فتفيض منه على طفلها وهو رضيع ليساهمها فى اللذة ، وسنه سن اللبان لا يقبل سواه ، فيسرع إليه المرض ، وينتهى به التلف ، فتكون منزلتهم

فى الأمة منزلة الآلة المحللة ، يشتتون بقية الجمع ويبددون أخريات الالتئام ، إن كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط فهؤلاء المغرورون يصدمونهم بما يذهلهم عنها ، وربما لا يقصدون إلا خيرا إن كانوا من المخلصين ، ويوسعون بذلك الخروق حتى تعود أبوابا ويباعدون ما بين الضفاف حتى تصير ميادين لتداخل الأجانب فيهم تحت اسم النصحاء وعنوان المصلحين وطلاب الإصلاح ويذهبون بأمتهم إلى الثناء والاضمحلال وبئس المصير .[1]

ثم أخذ جمال الدين يضرب الأمثال ببعض الدول الإسلامية التى أخذت بهذا الأسلوب فى الإصلاح . ويوضح النتائج التى انتهت إليها بعد الأخذ بهذا الأسلوب فى إصلاح الأمة ، فيقول :

« شيد العثمانيون والمصريون عددا من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون له من العلوم والمعارف والصنائع والآداب ، وكل ما يسمونه « تمدنا » وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى .

هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ هل صاروا أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد ؟

هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة ؟

هل نجوا بها من ورطات ما يلجئهم إليه الأجانب بتصرفاتهم ؟

هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور ؟

هل نالوا بها من المنعة ما يدفع غارة الأعداء عليهم ؟

هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف فى الأفكار حدا يزحزح عزائم الطامعين عنهم ؟

---

١ ـ السابق : ٢١٠ ـ ٢١٥

هل وجدت فيهم قلوب ما زجتها روح الحياة الوطنية التى تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة ، وتسعى إليها وتطلبها ولو تجاوزت محيط الحياة الدنيا ولو بادت فى سبيلها خلفها دارت على شاكلتها كما كان فى كثير ممن عز من الأمم ؟

نعم : ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ، ويصوغونها فى عبارات متقطعة ، بتراء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ، وسموا أنفسهم « زعماء الحرية » أو بسمة أخرى من السمات ووقفوا عند هذا الحد .

ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم ، فقلبوا أوضاع المبانى والمساكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون ، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود مايكون منها فى الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم ، وعرضوها معرض المباهاة فنسبوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم واعتاضوا أعراض الزينة مما يرون منظره ولا يحمد أثره فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم ، وأهلكوا العاملين فى المهن ، لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة من الحاجيات الجديدة ، وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد ، وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة ، وهذا جدع لأنف الأمة يشوه وجهها ويحط بشأنها ، وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها ، وفاجأتهم قبل أوانها .

علمتنا التجارب ونطقت مواضى الحوادث بأن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ وكُوى لتطرق الأعداء إليها ، وتكون مداركهم مهابط الوساوس ـ بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واحتقار من لم يكن على مثالهم ، شؤما على أبناء أمتهم يذلونهم ، ويحقرون أمرهم ، ويستهينون بجميع أعمالهم وإن بقى فى بعض رجال الأمة بقية الشمم ، أو نزوع إلى معالى الهمم ، انصبوا عليه ، وأرغموا من أنفه ، حتى يمحى أثر الشهامة وتخمد حرارة الغيرة ويعيد أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم

السبل ، ويفتحون الأبواب ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم ·

ولا أخشى لوما إذا قلت : لو كان فى البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلب الإنجليز على بعض أراضيها ، لما بارحوها أبد الآبدين ، لأن نتيجة العلم عند الناشئة المقلدين « ليست إلا توطيد المسالك والركون إلى قوة مقلديهم ، واستقبال مشارق فنونهم يبالغون فى تطمين النفوس وتسكين القلوب حتى يزيلوا الوحشة التى قد يصون بها الناس حقوقهم ، ويحفظون بها استقلالهم ، ولهذا متى طرق الأجانب أرضا لأية أمة ، ترى هؤلاء المتعلمين فيها أول من يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم ، بعد الاستبشار بقدومهم ، ويكونون بطانة لهم ، ومواضع ثقتهم ، كأنما هم منهم ، ويعدون الغلبة الأجنبية فى بلادهم أعظم بركة عليهم وعلى أعقابهم ·

فما الحيلة ؟ وما الوسيلة ؟ « فالجرائد » بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها ، و« العلوم الحديثة » ونقلها « بالناشئة » لسوء استعمالها مارأينا من آثارها والوقت ضيق والخطب شديد !!!

أى جهورى من الأصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات !!

أى قاصفة تزعج الطباع الجامدة وتحرك الأفكار الخامدة !!

أى نفحة تبعث هذه الأرواح فى أجسادها وتحشرها إلى مواقف صلاحها وفلاحها !

الأقطار فسيحة الجوانب ، بعيدة المناكب ، المواصلات عسرة بين الشرقى والغربى والجنوبى والشمالى ، الرؤوس مطرقة إلى ما تحت القدم ، أو منغضة إلى ما فوق السماء ، ليس للأبصار جولان إلى الأمام والخلف واليمين والشمال ، ولا للأسماع إصغاء ، ولا للنفوس رغبات ، ولكن للأهواء تحكم وللوساوس سلطان ·

ماذا يصنع المشفقون على الأمة ـ والزمن قصير ـ ؟ ماذا يحاولون والأخطار محدقة بهم ؟ بأى سبب يتمكنون ورسل المنايا على أبوابهم ؟

لا أطيل عليك بحثا ، ولا أذهب بك فى مجادلات بعيدة من البيان ، ولكنى أستلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب ووسيلة تحيط بالوسائل ـ وقد مر ذكرها معنا فيما سبق ـ .

أرسل فكرك إلى نشأة الأمة التى خملت بعد النباهة وضعفت بعد القوة واسترقت بعد المنعة ، واطلب أسباب نهوضها الأول حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل ، فقد يكون ما جمع كلمتها وأنهض همم آحادها ، ولحم ما بين أفرادها وصعد بها إلى مكانة تشرف منها على رءوس الأمم وتسوسهم ، وهى فى مقامها بدقيق حكمتها ، إنما هو « دين » قويم الأصول محكم القواعد ، شامل لأنواع الحكم ، باعث على الألفة داع إلى المحبة مزك للنفوس مطهر للقلوب من أدران الخسائس ، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياها ، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبانى الاجتماعات البشرية ، وحافظ وجودها ، ويتأدى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية .

فإن كانت هذه شرعة تلك الأمة ، ولها وردت وعنها صدرت ، فما تراه من عارض خللها وهبوطها عن مكانتها ، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريا وحدوث بدع ليست منها فى شىء ، أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة وأعرضوا عما يرشد إليه الدين ، وعما أتى لأجله ، وما أعدته الحكمة الإلهية له ، حتى لم يبق منه إلا أسماء تذكر وعبارات تقرأ مجردة ، فتكون هذه المحدثات حجابا بين الأمة وبين الحق الذى تشعر بندائه أحيانا بين جوانحها .

فعلاجها الناجح إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها ، والأخذ بأحكامه على ماكان فى بدايته ، وإرشاد العامة بالمواعظ الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق ، وإيقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة ، وبيع الأرواح لشرف الأمة ، ولا سبيل لليأس والقنوط ، فإن جراثيم الدين متأصلة فى النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة ، والقلوب مطمئنة إليه « وفى زواياها نور خفى من محبته » فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسرى نفسها فى جميع الأرواح لأقرب وقت ، فإذا قاموا لشئونهم ووضعوا

أقدامهم على طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم ، فلا يعجزهم أن يبلغوا فى سيرهم منتهى الكمال الإنسانى ٠

ومن طلب إصلاح أمة ، شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه فقد ركب بها شططا وجعل النهاية بداية ، وانعكست التربية وانعكس فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ، ولا يزيد الأمة إلا نحسا ولا يكسبها إلا تعسا ٠

من يعجب من قولى : إن الأصول الدينية الحقة ، المبرأة من محدثات البدع ، تنشىء للأمم قوة الاتحاد ، وائتلاف الشمل ، وتفضيل الشرف على لذة الحياة ، وتبعثها على اقتناء الفضائل ، وتوسيع دائرة المعارف ، وتنتهى بها إلى أقصى غاية فى المدنية ٠٠ فإن عجبى من عجبه أشد ٠

ودونك تاريخ الأمة العربية ، وما كانت عليه قبل بعثة الدين ، من الهمجية والشتات ، وإتيان الدنايا والمنكرات ، حتى جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها ونور عقلها وقوم أخلاقها وسدد أحكامها فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة العدل والإنصاف ٠

وبعد أن كانت عقول أبنائها فى غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة ، والتبحر فيها ، ونقلوا إلى ديارهم طب بقراط وجالينوس وهندسة إقليدس وهيئة بطليموس وحكمة إفلاطون وأرسطو ، وما كانوا قبل الدين فى شىء من هذا ٠

ولقائل أن يقول : ها هى دولة اليابان ، وقد ارتقت بتقليد الغربيين وبدون توسط الدين !!

فالجواب : نعم إن الدولة اليابانية وهى أمة شرقية لا تختلف عن أهل الصين بشىء لا فى المذاهب ولا فى الإقليم ولا فى العوائد والأخلاق واللسان ، وقد عزت ونمت وارتفعت ، وما كان الفاعل فى كل ذلك إلا أخذها بالأحسن والسير فى تقليد المرتقين فى المدنية على أحسن خططهم ، وانتهاج أقوم صراطهم ومناهجهم ٠

تركوا عبادة الأوثان وصحتها أو عدمه جانبا ، وجروا وراء العلم الدنيوى فقلدوا أعظم الأمم تقليدا صحيحا ، وأدخلوا على بلادهم قواعد المدنية السالمة ، والموافقة لمجموعهم ونبذوا ما كان مألوفا فى الغرب ، ولا يوافق طباعهم فى شرقهم وتدرعوا فى التدريج واتخذوا سنن الارتقاء سلما لقومهم ، واهتموا فى المولود الحديث ليجعلوه ، وليكون « سواء » فيه الأنثى والذكر مخلوقا يابانيا نافعا لقومه أولا ، وبالتالى للإنسانية ، فظفروا ببغيتهم ، ووجدوا ضالتهم بأقرب الأوقات وأقصر الأزمنة .

أما القول بأن ارتقاء تلك الأمة الشرقية قد تم بدون توسط الدين وفعله فالجواب : نعم إن اليابان لم ينتفعوا بالوثنية من حيث هى دينهم ، ذلك لأن الديانة الوثنية وإن كانت لا تخلوا من آداب وأخلاق ، فليس فى أصولها ما ينفع فى أحكام أمور الدنيا ، وما يحتاجه الإنسان من مطالب المدينة . والدين ولو كان فى أصوله كل ما يدعو إلى السعادة وفى قواعده ما ينهض ويصعد إلى ذرى المجد ، إذا بقى عقيدة مجردة عن الأعمال فلا يحدث عنه أثر ولا ينتفع المتسمون به ، بل بتركهم الأعمال بتلك الأصول ، يتدهوردون من شاهق عز إلى حضيض ذل ، وفيما سبق من القول فى هذا المعنى كفاية .

والدين الذى فى أصوله ما ينفع فى الأمور الدنيوية أيضا ، لابد وأن يكون من جملة أصوله الحث على التحلى بالفضائل والاستكثار من مكارم الأخلاق والصفات الحميدة والاستزادة من نافع العلوم والفنون .

نعم جاء فى القرآن الكريم ـ حثا على العلم وبيانا لجليل فضله ـ منع أن يكون غير العالم عاقلا فقال : « وما يعقلها إلا العالمون » ، ومنع المساواة بين العالم والجاهل فقال : « هل يستوى الذين يعلمون والذى لا يعلمون » وقد مر ذكر ذلك وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » وأمثال ذلك كثير .

ومما ساعد الأمة اليابانية على رقيها ، وخلص سيرها من العرقلة موقعها ومجتمع

جزائرها فى أقصى الشرق فوجدت من الدهر مسالمة وعن أنظار أولى المطامع من الغربيين بعدا ، ينضم إلى ذلك سبب من أكبر الأسباب وعامل من أقوى العوامل ، ألا وهو ميل الإمبراطور « الميكادو » إلى تقييد حكومته بالدستور ، وقوله الشورى عن طيب خاطر ، وسعيه بإخلاص وراء ذلك ، فقد بعث من أفراد أسرته وعقلاء رعيته بعثات لأوربا لدرس أشكال وقواعد الحكم النيابى الدستورى ، حتى إن إمبراطور النمسا « فرانسواجوزيف » لم يتمالك نفسه فقال لابن عم « الميكادو » وهو على مائدته فى « فينا » : عجبا من إمبراطوركم ، كيف يسعى لإيجاد الحكم الدستورى النيابى فى مملكته ، ونحن فى أوربا نود لو أمكننا التخلص من تحكم النواب فى البلاد !!

أجابه « البرنس » ـ الأمير ـ اليابانى : إن جلالة الميكادو (معناه : العادل) يحب أربعة أشياء : يحب بلاده أولا ورعيته ثانيا ويحب العدل ثالثا ، وراحة نفسه رابعا ، وما وجد ما ينيله ما يحب إلا بالحكم الدستورى النيابى ، واشتراك الأمة بإنهاض نفسها وصون ملكها .

نعم : إن مصدر الشقاء ومنبع البلاء فى الشرق وممالكه إنما كان من الامتيازات الأجنبية « كابيتولاسيون »[1] تلك الامتيازات التى سبق أن ذكرنا كيف كان بدء أمرها ، وكيف أخذت فى الشرق الأقصى ـ الصين واليابان ـ والشرق الأدنى ـ البلاد العثمانية وفارس ـ وكيف أعطيت على سبيل الرحمة أولا ثم عادت نقمة أخيرا .

وعلمت اليابان أن لا قوة مع الجهل ولا ضعف مع العلم ، فكتمت غيظها وتحملت جور الغربيين وامتيازاتهم ، وانصرفت للأخذ بالتقليد الصحيح ، وثابرت على بعث البعثات العلمية اليابانية لأوربا بالمئات ، وقسمتهم شعبا على شعب العلوم والفنون ، من مالية وسياسية وعلمية وزراعية وطب وهندسة .. الخ

---

١ ـ الكلمة الإنجليزية التى تعبر عن الامتيازات الأجنبية هى : Capitulations, Foreign Privileges

فلم يمض على سعى اليابان هذا ربع جيل [١] حتى انتظمت محاكمهم ، وعم العلم الصحيح فى ناشئتهم وعرف القسم فيهم ما يجب أن يعلمه ويعلمه للطبقات الأخرى من قومه فى المدارس الوطنية اليابانية ٠

فتهيأ لهم بذلك المسعى هيئة اجتماعية وقومية صحيحة ومدنية لم يترك معها مجال للمكابرين من الغربين « الإفرنج » أن يدعوا أو يفتروا عليهم بأنهم شرقيون ولا يحسنون أمر الإدارة أو معرفة الحقوق العمومية أو العدالة المطلقة البشرية ، بل بالعكس ظهر أن محاكم القونصلاتات وتلك الامتيازات الأجنبية من محاكمة الجانى القاتل الأوربى تجاه « قنصله » والمفلس الاحتيالى الإفرنجى تجاه محكمة دولته « القنصلية » أبعد بمراحل عن عدل محاكم اليابان وقصاصاتهم العادلة ، ونزاهة حكام اليابان ، وصدق وجدانهم ، وعدم تسلط أى قوة من أموال أو جاه أو نفوذ عليهم ، بعكس القناصل والمحاكم القنصلية هناك ، فأجمع رأى معتمدى دول أوربا بطلب عموم الرعايا أن يطلبوا من الميكادو قبول طلبهم بإلغاء الامتيازات « كابيتولاسيون » وأن تفصل قضاياهم ، وتجازى مجرموهم فى محاكم اليابان ، فترددت حكومة « الميكادو » فى قبول مطلب السفراء هذا ، ولم تقبل فصل قضايا الأجانب فى محاكمها ، محتجة أن حكامهم إنما يسع وقتهم فصل قضايا اليابانيين فقط ، ولا متسع لهم لإضاعة الأوقات بشئون الأجانب ، وأشارت تشفيا بلزوم احتفاظهم بامتيازاتهم ، فاشتدت الدول ، وطال الأخذ والرد حتى قبلت اليابان أخيرا بتشميل عدلها للأجانب وبلَغْو [٢] امتيازاتهم ٠

وقد كان فى خدمة اليابان عدة من الأخصائيين الأجانب فى شعبات إدارتها لسنين محدودة ، برواتب معينة ، وكانت كلما أتم اليابانى عمله فى شعبة من الشعب وعاد لوطنه أرفقوه بذلك الأخصائى ، فكان فى دقائق تلك الشعبة وما تحتاجه من علم

---

١ ـ لعله يقصد ربع قرن اما الجيل فلا تدل على مدة زمنية بعينها ٠

٢ ـ الصواب : إلغاء

وفهم وعمل ، يبرز اليابانى على رئيسه الإفرنجى ، حتى خجل أولئك الرؤساء المأجورون من أنفسهم ، وطلبوا إعفاءهم من الخدمة قبل انقضاء الأجل المعقود ، ورضوا بحرمانهم من الراتب باعتراف أن اليابانى أقدر منهم على أداء وظائفهم وما جلبوا لأجله واستؤجروا له ٠

هكذا تم لليابان الفوز بالتقليد النافع ، وجلب المفيد اللازم من العلوم والفنون والصنائع ، وبرزت بين صفوف الدول العظام ، دولة شرقية لها من بأسها منعة ، ومن علمها واتحادها قوة تخشى ، وحد يتقى ، والناس أبناء ما يحسنون ، ولله فى خلقه شئون ..(١)

وهكذا واجه جمال الدين انحراف ناشئة العالم الإسلامى عن دينهم بانخداعهم فى مدنية أوربا ، وتقليدهم لعادات الأوربيين وتقاليدهم دون نظر فيما ينفعهم وما يضرهم ، اى فيما يتفق مع دينهم ومنهجه ونظامه وما يختلف معه ٠

ندد جمال الدين بهذه الناشئة ، ووصفهم بأنهم أصحاب فكر منحرف وثقافة شائهة وتقليد أعمى ٠

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ٢١٥ ـ ٢٢٢

الباب الرابع

جمال الدين الأديب الاسلامى

جمال الدين الأديب الإسلامى

ويشتمل على تمهيد وثلاثة فصول

التمهـيد :

الفصل الأول : جمال الدين وأدب المقالة ·

الفصل الثانى : جمال الدين المحدث الخطيب ·

الفصل الثالث : جمال الدين الأديب الإسلامى ·

التمهيـــد

تمهيد :

نحاول فى هذا الباب الأخير من البحث ، أن نجلى صورة جمال الدين أديبا إسلاميا ، يفيض أدبه بما أودع قلبه من حب لهذا الدين ، وتنثال عواطفه مفعمة بما تذخر به روحه من إعجاب بقدرة هذا الدين على صنع حياة الإنسان بأجمل ألوانها ، ويسيل فكره مقنعا ـ بناصع الأدلة ودامغ البراهين ـ بأن المنجى للإنسانية كلها من كل خطر يحدق بها هو الاعتصام بهذا الدين وحده ، وتتواكب عباراته لتعانق هذا الفكر وتلك المشاعر ، سامقة شامخة آخذة سهلة ، تصل بالقارئ إلى حيث يستمتع بهذا العطاء ويقتنع بهذا المنطلق إن كان من المنصفين .

الأديب الإسلامى بكل معطياته الفكرية الإصلاحية ، الأديب الإسلامى الذى لا تكون له رؤية للناس والأشياء إلا من خلال الإسلام .

وإذا كان الأدب بعامة يعكس الحياة الإنسانية بكل ما فيها ، ويقوِّم هذه الحياة ويوجهها نحو الأحسن والأنفع ، وإذا كان الأديب الحق صاحب أثر وتأثير فى تقويم الحياة وتوجيهها نحو ما يصلحها ويصلح بها ، ونحو ما يجعلها جميلة ويكون جميلا بها .. وإذا كان الأديب يوجه الحياة والأحياء ويقومهم من خلال رؤيته الشخصية واستعداده الخاص ، وقدراته الذاتية ، وهى بلا شك محدودة بحدود عقله وطاقته ، وهى حدود بشرية قاصرة فى كل حال ...

إذا كان ذلك .. فإن الأديب « الإسلامى » بهذا الوصف ينظر إلى الحياة والأحياء ، ويقوِّم ويوجِّه لهذه وأولئك من خلال رؤية الإسلام للناس والأشياء ووضع كل فى إطاره الصحيح ، وهى لا شك رؤية شاملة متكاملة لا يعتريها قصور ولا يحدها عجز البشر وقصورهم ، إذ هى رؤية الوحى من لدن سميع بصير ، ترسم للناس طريقهم القويمة فى الحياة الدنيا ، لتصل بهم إلى فوز وفلاح فى الحياة الأبدية الخالدة .

الأديب الإسلامى حينما ينظر إلى الناس والحياة من خلال هذه الرؤية ، ويلتزم الصدق والإخلاص فيما يرى وفيما يقول وبما ينصح ويوجه ، يكون عندئذ الناقد البصير والناصح الذى يجعل الحق ـ والحق وحده ـ نصب عينيه ، والذى تكون لكلماته ـ بهذه الصفات ـ آثار عميقة فى نفوس من يقرأ ومن يسمع ٠

وجمال الدين الأفغانى ـ عندى ـ هو الأديب الإسلامى الذى نظر إلى الحياة والأحياء ، من خلال هذه الرؤية الإسلامية الشاملة المتكاملة ، فما فاته الصواب فى رأى من آرائه ، ولا فى نصيحة من نصائحه ، إلا كما يفوت المجتهد عندما يخطىء فيكون له أجر واحد ٠

وبحسبى فى هذا التمهيد أن أشير ـ فى مجال تأكيد أنه الأديب الإسلامى الحق ـ إلى كلمات من كلماته تدلنا على مدى التزامه بهذا الدين ، وعلى أنه لا رؤية له للناس والحياة إلا من خلال ما يرى الإسلام ، وما تعطيه نصوصه من مفاهيم ، تلك الكلمات هى ماتحدث به جمال الدين وهو بصدد البحث فى علاج الأمة الإسلامية ـ التى عاصرها ـ من أمراضها وإنقاذها مما هى فيه حيث يقول : «.. فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها ، والأخذ بأحكامه على ما كان فى بدايته ، وإرشاد العامة بالمواعظ الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق ، وإيقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة ، ولا سبيل لليأس والقنوط ـ فإن جراثيم الدين متأصلة فى النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة ، والقلوب مطمئنة إليه ، وفى زواياها نور خفى من محبته ، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسرى نفسها فى جميع الأرواح لأقرب وقت ٠

فإذا قاموا لشئونهم ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم ، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم ، فلا يعجزهم أن يبلغوا فى سيرهم منتهى الكمال الإنسانى .. ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه فقد ركب بها شططا وجعل النهاية

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ٢١٨ ـ ٢١٩ ٠

بداية ، وانعكست التربية وانعكس فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ولا يزيد الأمة إلا نحسا ولا يكسبها إلا تعسا •

وبعد :

فإنى فى هذا الباب من البحث سوف أتحدث عن جمال الدين وأدب المقالة وعن جمال الدين المحدث الخطيب ، وعن جمال الدين الأديب الإسلامى ، وبهذه الفصول الثلاثة أرجو أن أجلى صورة جمال الدين الأديب الإسلامى ، ومن الله التمس العون والسداد •

الفصل الأول :

جمال الدين وأدب المقالة

ويتناول :

١ ـ أدب المقالة .

٢ ـ جمال الدين وأدب المقالة .

٣ ـ مقالات جمال الدين .

٤ ـ جهوده فى مجال المقالة الصحفية .

أولا : أدب المقالة

خَلَف فنُّ المقالة ـ من بين أجناس الأدب النثرية الحديثة ـ فنَّ الرسالة ، على الرغم من أن الرسالة كانت فى مختلف عصور الأدب العربى تحتل المكانة الأولى بين فنون النثر ، وبخاصة عندما نهج فيها عبدالحميد الكاتب طريقا جديدا ، وطريقة فنية أصِّلتها وجعلت منها فنًّا نثريا رفيع القدر ، عالى الذكر ، ولقد أصاب ابن النديم عندما قال عن عبدالحميد بن يحيى الكاتب : « وعنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، وهو الذى سهل سبل البلاغة والترسل »[1] .

فالحق أن عبدالحميد صاحب طريقة فى فن الرسالة لم يسبق إليها ، وهى طريقة استطابها الناس عموما وعشقها الكتاب على وجه الخصوص .

فلما كان أبو عثمان الجاحظ من بعد عبدالحميد ، انطلق بفن الرسالة إلى قمة نضجه ، وغاية اكتماله ، وأضاف الجاحظ إلى هذا الفن من روحه وخصائصه المعروفة فى الكتابة مما تعارف عليه النقاد من : كثرة الافتنان والاستطراد والتوازن وقصر العبارة ، فأصبحت الرسالة على يد الجاحظ أبرز فنون النثر وأحلاها على أقلام الكتاب ، وظلت الرسالة كذلك قرونا عديدة من الزمان حتى امتدت إلى هذا العصر الحديث ، مع عناية بالمحسنات البديعية والزخارف اللفظية تشتد فى عصر وتتراخى فى آخر .

غير أن الرسالة كانت لغة الفئة الممتازة من الناس ، يقبل عليها خاصة المثقفين ، ولا تستطيع أن تنزل إلى مخاطبة جمهور الناس وعامتهم .

---

١ ـ ابن النديم : الفهرست : ١١٧ ط ليبزك ١٨٧١ م .

لذلك نقول مطمئنين : إن المقالة فى هذا العصر قد حصرت الرسالة فى أضيق مجالاتها حيث تكون الرسائل الرسمية أو الشخصية الإخوانية فحسب ، مما أبعد الرسالة عن مخاطبة الجماهير ، أو أخملها ·

ولذلك جاءت المقالة لتكون فى المكانة الأولى بين فنون النثر فى هذا العصر ولتصبح بالنسبة لجماهير القراء ملء السمع ونهبة العين وموضع الاهتمام ·

ولقد كانت المقالة فى هذا العصر استجابة للمتغيرات الاجتماعية والسياسية والأدبية التى مرت بنا ، فكل القضايا الاجتماعية التى عشناها وعانيناها ، كقضية الفقر وقضية الجهل وقضية المرض ، وقضية المرأة وقضية التعليم والتربية ، وقضية غزو الحضارة الأوربية لنا ، وما ترتب على ذلك من نشوء عادات وتقاليد غريبة على المجتمعات العربية ، كل تلك القضايا عالجتها المقالة الأدبية وناقشت أبعادها وملأت بها صفحات الجرائد والمجلات والكتب ·

وجميع المشكلات السياسية التى عانينا منها فى هذا العصر ، كمشكلة الحماية والانتداب والوصاية والاستعمار ، ومشكلة النفوذ الأجنبى ، والسيطرة على مقدرات أوطاننا الاقتصادية ، ومشكلة المواجهات العنيفة التى كانت بيننا وبين أعدائنا ، ومسائل الوطنية والقومية والحركات الإصلاحية ، كل ذلك عالجته المقالة الأدبية وأثارت حوله من الاهتمام والعناية الشىء الكثير ·

ومعظم القضايا الأدبية والنقدية التى فرضتها هذه المتغيرات ، قد عالجها فن المقالة ، بل لا نبالغ إن قلنا إن بعض المجلات ـ وبخاصة الأدبية ـ كانت مجلات للمقالة وحدها على وجه التقريب ، كمجلة الرسالة ومجلة الثقافة وغيرهما ·

وقد أسهمت الصحافة ـ بنت هذا العصر ـ فى أن تجعل من المقالة فنا يكاد يطغى على كل فن أدبى سواه ، إذ وسَّعت الصحافة من القاعدة العريضة التى تقرأ المقالة ، واقتحمت على الناس بيوتهم ونواديهم فى المدن والقرى ، واستطاعت الصحافة التى يقرأها عامة الناس أن تفرض على المقالة سمات بعينها تنحو بها نحو

البساطة والبعد عن التأنق والتعمق والنظرة الفلسفية لتستطيع أن تخاطب هذه القاعدة العريضة من جانب ، ولتواكب مقتضيات عصر السرعة من جانب آخر ·

ولقد كانت المقالة الصحفية سياسية أو اجتماعية أبرز وأقرب إلى نفوس القراء من المقالة الأدبية الخالصة ، ذلك أن المقالة الأدبية لم تتأصل على يد كبار كتابها إلا بعد فترة غير قصيرة من شيوع المقالة السياسية والمقالة الاجتماعية ·

ونستطيع أن نتعرف على تغيرات فنية كثيرة ميزت المقالة السياسية فى هذه الفترة التى عاشها جمال الدين الأفغانى ·

فلم تعد المقالة تهتم بالزخرف اللفظى والمحسنات البديعية على النحو الذى كان سائدا قبيل هذا العصر الحديث .. فى الكتابة النثرية عموما ·

ولم تعد تتعمد الغوص وراء المعانى الفلسفية ، أو تتعمق الفكرة إلى الحد الذى يكد الذهن أو يجهد القارئ ، لأنها تخاطب جميع الطبقات ولا تختص بطبقة ذات ثقافة معينة ·

هذا من حيث الشكل واللفظ والبناء ، أما من حيث المضمون والمحتوى ، فقد اتخذت المقالة بعامة ـ سياسية أو اجتماعية أو أدبية ـ من المتغيرات التى فرضت نفسها على المجتمع كالمشكلات السياسية والمسائل الاجتماعية والقضايا الأدبية موضوعات لها ، فطالعتنا المقالات السياسية وموضوعاتها نابعة من الظروف السياسية ككشف خطط المستعمر الأجنبى ، ونقد أعمال الحاكم المستبد والدعوة إلى الثورة على الظلم وهضم الحقوق السياسية للمواطنين ، وعلى الامتيازات الأجنبية لهؤلاء الدخلاء الغاصبين ، وطالعتنا المقالات الاجتماعية وموضوعاتها نابعة من السلبيات الموجودة فى المجتمع كالفقر والجهل والمرض ، فنادت بالإصلاح الشامل والدعوة إلى تنمية المجتمع وتطويره ونقله من التخلف إلى التحضر ، وتخليصه من عيوبه وسلبياته ·

وكذلك فعلت المقالة الأدبية فيما تناولته من موضوعات اجتماعية أو سياسية ، أما

الموضوعات الأدبية البحتة والموضوعات النقدية فقد دعت فيها المقالة الأدبية إلى كثير من نواحى الإصلاح الأدبى ٠

ومما يذكر بالفخر للمقالة السياسية بالذات أنها استطاعت أن تكون شجى فى حلوق الأعداء من المستعمرين ومن الحكام الظالمين ، حتى لقد كانت المقالة السياسية لبعض الكتاب تقض مضجع الحاكم وتذهب صوابه فلا يجد وسيلة يقاوم بها هذا السلاح إلا أن يزج بصاحبه فى السجن ، وأصبح مشاهير الكتاب لهذا الفن الأدبى « المقالة السياسية » كجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبدالله النديم هدفا للمستعمرين وللحكام الظالمين ، ولعل ذلك هو السبب فى طرد جمال الدين من كل بلد يذهب إليها ومن الجدير بالذكر هنا أن نقول : إن جمال الدين حين أتى إلى مصر فى المرة الثانية وأقام فيها تلك المدة من السنين ، وكتب فيها ما كتب وخطب ما خطب ، لم يلبث أن كان طريدا منها للمرة الثانية ، وما هى إلا فترة وجيزة حتى نفى محمد عبده واختفى عبدالله النديم ، وكل ذلك بسبب مواقفهم ومقالاتهم ٠

ثم تلقف لواء المقالة السياسية من بعد جمال الدين ومحمد عبده جيل ثان من الكتاب ثم أسلموها إلى جيل ثالث وهكذا ... وفى كل جيل منهم أعلام للمقالة السياسية وضحايا لظلم الحكام وحقد المستعمرين ٠

وكذلك كان الشأن فى المقالة الاجتماعية ، وإن كانت لم تزعج الحكام بمثل ما أزعجتهم المقالة السياسية ، ولقد كان من رواد المقالة الاجتماعية من يعدون بحق مصلحين من أحسن طراز ٠

وكان جمال الدين كذلك من كتاب المقالة الاجتماعية الممتازين ، وله فى هذا المجال حصيلة طيبة سوف نتحدث عنها فيما بعد ٠

وبعد :

فهذه لمحة خاطفة عن أدب المقالة فى العصر الحديث ، بعامة ، وفى الفترة التى عاشها جمال الدين الأفغانى على وجه الخصوص ، نرجو أن تكون قد دلت واوضحت فى حدود ما أردنا ٠

ثانيا : جمال الدين وأدب المقالة

كانت زيارة جمال الدين لمصر للمرة الثانية ، وإقامته فيها ما يقرب من ثمانية أعوام ١٢٨٨ ـ ١٢٩٦ هـ مجالا ومنطلقا لدعوته الإصلاحية التى تناولت الفكر والسياسة والاجتماع واتخذت من المقالة السياسية والاجتماعية متنفسا وطريقا يحاول من خلالها أن يوصل أفكاره الإصلاحية للناس •

وجمال الدين ـ وإن غلبت عليه فى أول أمره صفة المصلح الدينى .. إلا أن إقامته بمصر فى هذه الآونة ، جرته إلى معترك السياسة وجعلت منه سياسيا صلبا له رؤية نافذة إلى أعماق السياسة فى مصر وفى العالم الإسلامى كله •

ولعل ظروف مصر فى تلك الآونة هى التى دفعت جمال الدين دفعاً إلى هذا المجال ، فقد كانت مصر آنئذ فى حكم الخديو إسماعيل باشا ، وكانت سياسة إسماعيل حافلة بالسلبيات وفيها كثير من الانحرافات وسوء التدبير ، مما أوقع البلاد فى عهده فى أعتى مشكلاتها السياسية والاقتصادية ، حيث أدت تلك السياسة إلى تدخل الأجانب فى إدارة البلاد ووزارتها فاشترك إنجليزى وفرنسى لتولى وزارتى المالية والأشغال ، وبدا واضحا لكل بصير أن البلاد يسير أمورها الدخلاء الأجانب ، وأن هؤلاء يضمرون الشر لمصر ولغيرها من بلدان العالم الإسلامى •

وهنا برز جمال الدين وتعالت صيحاته ، ونادى بالإصلاح السياسى فى مصر وفى سائر بلدان العالم الإسلامى لتشابه العدو وتشابه خططه ووسائله : وقر فى نفس جمال الدين أن يتجرد لمقاومة الظلم والاستبداد ، ولحرب الاستعمار والمستعمرين فى كل رجا من أرجاء العالم الإسلامى •

عندئذ وجه جمال الدين تلاميذه ومريديه إلى المطالبة بالنظام الشورى والحياة النيابية ، وحثهم على الدعوة إلى الاصلاح الاجتماعى فى كل مجال يحتاج إلى إصلاح ·

وأعلنها حربا على الاستعمار والمستعمرين وكل نفوذ أجنبى ، واتخذ من دروسه وخطبه وأحاديثه ومقالاته منبرا يعلو فوقه صوت الحق والحرية والاستقلال ·

وكانت الصحافة فى ذلك الوقت ألسنةً ومنابر أخرى تتردد على صفحاتها تلك الآراء الإصلاحية التى بثها جمال الدين فى تلاميذه ومريديه ·

ولا يستطيع من يؤرخ لأدب هذه الفترة من العصر الحديث إلا أن يعد جمال الدين الأفغانى فى خطبه وأحاديثه ومقالاته وآرائه الإصلاحية سببا من أسباب رقى الحياة الفكرية والسياسية والأدبية ·

ولا يملك النقاد إلا أن يعتبروا مقالات جمال الدين قد أسهمت إسهاما حقيقيًا فى رقى فن المقالة على وجه العموم ، والمقالة السياسية والاجتماعية بوجه خاص ·

ونود أن نوضح أثر جمال الدين فى المقالتين الاجتماعية والسياسية على النحو التالى :

جمال الدين والمقالة الاجتماعية ·

تعد المقالة الاجتماعية نتيجة طبيعية لنمو الأمة فى وجدانها وصورة تعكس ما تعيشه أى أمة من أحداث وتغيرات ، وما تعانيه من مشكلات اجتماعية عديدة ، وهى من أجل هذا تفرض على كتابها خصائص معينة تمكنها من أداء وظيفتها تلك على وجه دقيق هادف ·

ولعل أبرز ما يميز المقالة الاجتماعية عن غيرها من المقالات : توخى الوضوح ؛ وضوح الفكرة ووضوح الأسلوب ، وذلك يدعو إلى تجنب التعقيدات والبعد عن المبالغات والتهاويل ، وترك الإغراق فى الخيال ·

ومع توخى الوضوح فلابد من تعمد الإقناع بمحتوى الفكرة ومضمونها ، وذلك بجمع الأدلة والبراهين ، والخضوع للمنطق الصحيح والقياس السليم ، مع الاعتماد فى ذلك على التاريخ البعيد والقريب لاستنبائه والاستفادة من أحداثه ، والاستدلال بشواهده والاعتماد على وقائعه ٠

ومع الوضوح والإقناع لابد من دقة التفاصيل وتحديد الغايات والأهداف ، وذلك بالبعد عن الأقيسة الشعرية والأخيلة المهومة ٠

نعم قد يلجأ كاتب المقال الاجتماعى إلى الخيال فى حدود ضيقة بل ضيقة جدا عندما يكون القصد إثارة العواطف وجذب المشاعر نحو قضية ما من القضايا الاجتماعية الهامة ٠

ومن مميزات المقالة الاجتماعية ـ فى عرف النقاد ـ أن تتجنب فيها الزخارف اللفظية وأن يقل فيها الاهتمام بالسجع وسائر المحسنات البديعية ، ذلك أن هذه الزخارف إذا جعلها الكاتب من أهدافه ، كان من شأنها ـ فى الأعم الأغلب ـ أن تصرفه عن تفصيل المعانى وسوق الحجج والبراهين والشواهد التى تقنع القارئ بما يقرأ ٠

والقضايا الاجتماعية فى عمومها بحاجة إلى أن يقتنع بها الناس قبل أن ينفعلوا بمعطياتها ، وحاجة الكاتب فيها إلى البرهان والدليل أشد من حاجته إلى تنميق الألفاظ وتزيين العبارات بالحلى والمحسنات ٠

ومع كل ذلك فلابد أن يبتعد كاتب المقالة الاجتماعية عن الغريب من الكلمات والعبارات لتركه او لبعد العهد باستعماله ، ومادام الهدف هو الإقناع ؛ والإقناع يحتاج إلى توضيح فلامجال للتأنق باستعمال غرائب الكلمات أو مهجورها ، أو ما كان بعيدا عن اللغة السائدة فى المجتمع ٠

فإذا كانت تلك هى مميزات المقالة الاجتماعية أو خصائصها ، فإنها دون شك مميزات وخصائص حدث الاهتمام بها والتعارف عليها فى هذا العصر الحديث ، ذلك أن الأمر قبيل هذا العصر كان مختلفا غاية الاختلاف ٠

وهذا الاهتمام بتلك الخصائص له بواعثه ودواعيه ، ومن أبرز هذه البواعث والدواعي - عندى - ما كان ينادى به جمال الدين الأفغانى من آراء إصلاحية فى المجتمع تقوم دائما على الحجة والبرهان ، وتستهدف الإقناع وتعتمد على الاستدلال ، وما كان يعلمه جمال الدين لتلاميذه من حملة الأقلام من ضرورة العناية بالفكرة والمحتوى ، والعقل والمنطق ، حتى يصل كلامهم إلى عقول الناس وأفهامهم .

عرف تلاميذ جمال الدين ذلك منه وجعلوه هدفا لهم فى كل ما يكتبون من المقالات الاجتماعية ، ونستطيع أن نلمس ذلك عندهم ، وبخاصة فيما كتبه تلاميذه : الشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقانى وسعد زغلول ، فهؤلاء تعلموا من جمال الدين ومن طريقته فى الكتابة ، كيف يغلبون الفكرة على العاطفة ، وكيف يتجنبون المقدمات الطويلة ، وفهموا عنه كيف يتجهون فى كتاباتهم إلى الموضوعية والإقناع .

وقد شجع جمال الدين بعض تلاميذه على إصدار الصحف ، وحثهم على أن يكتبوا فيها كتابة تدعو إلى الإصلاح الذى يدين به الرجل ويسخر نفسه وحياته له .. وقد استجاب له فى ذلك غير واحد من الكتاب .

استجاب له : أديب إسحق فأصدر جريدته :

مصر : التى صدرت فى الاسكندرية سنة ١٢٩٩ هـ - ١٨٨١ م .

والتجارة : التى صدرت فى الإسكندرية سنة ١٢٩٦ هـ - ١٨٧٨ م بالتعاون مع سليم نقاش .

واستجاب له : يعقوب صنوع فأصدر جريدته :

« أبو نضارة » التى صدرت سنة ١٢٩٥ هـ - ١٨٧٧ م .

وكتبوا فى تلك الجرائد على النحو الذى كان يفضله جمال الدين .

وكتب جمال الدين نفسه فى هذه الصحف وفى غيرها باسم مستعار : تارة : « مظهر بن وضاح ، وتارة : « السيد » .

وبهذا ندرك ما كان لجمال الدين الأفغانى من أثر فى المقالة الاجتماعية .

جمال الدين والمقالة السياسية :

المقالة السياسية ـ فى تلك الفترة التى نتحدث عنها .. كانت استجابة طبيعية لما يعانيه المفكرون والمصلحون والواعون من الناس من أحوال سياسية مضطربة ، وصدى لما يحس به الناس من ظلم واستبداد ، وانعكاس لما يثقل كاهل الأمة من الشعور بالخضوع لأجنبى غاصب دخيل ، يسخر الأمة وطاقاتها لصالحه وصالح أهدافه •

ولقد كانت تلك الفترة التى نتحدث عنها فترة إقامة جمال الدين الأفغانى بمصر ، من أحرج الفترات السياسية التى مرت بها البلاد • ولا بدع فى ذلك ولا عجب ، فهى فترة الرقابة الثنائية الأجنبية على البلاد ، وصندوق الديْن ، واشتراك الأجانب ـ قسرا ـ فى الوزارة المصرية ، فترة خضوع حكام البلاد للأجانب الدخلاء وتميز هؤلاء الأجانب عن أبناء البلاد •

لذلك ولغيره كانت فترة انتفاضات ثورية هنا وهناك ، وفترة دعوات حادة وتوجيهات قارسة ومقالات ملتهبة •

ومن أجل هذه الظروف فرضت المقالة السياسية على كتابها خصائص بعينها تميزها عن غيرها ، لتكون بهذه الخصائص أداة جيدة للاتصال بالقراء وإثارة الجماهير •

ونستطيع أن نلحظ من تلك الخصائص ، تميز المقالة السياسية بالسهولة والوضوح ، بحيث لا يحتاج القارئ لها إلى كبير جهد ليدرك مرماها بعد فهم معناها ، فينفذ من خلال لفظها السهل إلى معناها الواضح إلى مرماها البعيد ، ولا غرو فهى لغة تخاطب بين الكاتب وقرائه من الخاصة والعامة على حد سواء •

والمقالة السياسية تؤثر الأدلة الخطابية التى تؤثر فى القراء وتثير عواطفهم بأكثر مما تفعل الأدلة العقلية المنطقية الصارمة ، ومادامت موضوعات السياسة فى الغالب تقوم على الفروض والاعتبارات والميول العاطفية أكثر مما تقوم على الحقائق ، فإن مخاطبة

عواطف الناس بتلك الأدلة الخطابية أدعى إلى نجاح الكاتب السياسى فيما يكتب وأدنى إلى مس عواطف الجماهير وقلوبهم ·

وتتميز المقالة السياسية بأنها تعتمد على التكرار بقصد زيادة الفكرة إيضاحا ومحاولة جذب القارئ إلى جانب الرأى الذى ينادى به الكاتب عن طريق الصور السريعة المؤثرة ، دون الالتجاء إلى التحقيق العلمى أو التدقيق الفنى باتباع أسلوب الاستقراء ، ودون حاجة إلى مقدمات يدخل بها الكاتب على موضوعه أو يمهد بها لرأيه ·

ومما يجدر بالمقالة السياسية أن تتخذه من سمات ، أن تبتعد إلى حد ما عن الخيال وما يتطلبه من صرف للقارئ عن الحقيقة المشاهدة مع قلة الاحتفال بجمال اللفظ أو التأنق فى اختياره أو الإفراط فى تنسيته فتزيينه ، مما يصرف القارئ ـ فى الغالب ـ عن اللب إلى القشرة وعن الجوهر إلى العرض ·

نعم تفاوت كتاب المقالة السياسية ـ فى تلك الفترة ـ فى استيفاء تلك الخصائص ، فكان منهم من لا يستطيع التخلص من جنوحه إلى الخيال عندما يحول كل قضية يتحدث عنها إلى قطعة أدبية ، كما رأينا ذلك عند أديب إسحق ·

هذا المقال السياسى بتلك الخصائص مدين للظروف السياسية فى وجوده على هذا النحو ، وهو دون مبالغة مدين لجمال الدين الافغانى بميله إلى الوضوح والبساطة والموضوعية ·

ولقد كانت مقالات جمال الدين السياسية فى الصحف والمجلات ، مما ينشره باسمه أو باسم مستعار خير دليل على توفر هذه الخصائص التى ذكرنا فى المقالة السياسية ، فأثره فى المقال السياسى غير منكور ، وأثره فى تلاميذه وتوجيههم إلى الكتابة السياسية على هذا النحو يعترف به كل واحد من الدارسين لجمال الدين الأفغانى ولجهوده فى مجال الكتابة النثرية ·

وبعد ، فما دام حديثنا عن جمال الدين وأدب المقالة ، فإن من تمام الحديث عن

المقالة أن نذكر شيئا عن المقالة الأدبية بعد حديثنا عن المقالتين الاجتماعية والسياسية •

المقال الأدبى فى هذه الفترة التى نتحدث عنها قفز قفزة واسعة عما كنا نعرفه عنه من قبل ، إذ قد تناول المقال الأدبى موضوعات كانت من قبل وقفا على الشعر ، كموضوعات الوصف وموضوعات التهنئة والتعزية والدعوة والاعتذار ، والرجاء والشفاعة ، وما إلى ذلك من موضوعات كان الغالب عليها أن تصاغ فى قالب شعرى •

وقد نجح النثر الأدبى فى تناول هذه الموضوعات ، واستطاعت أقلام الكتاب أن تنتزع هذه الموضوعات من الشعر ، وأن تصوغها نثرا أدبيا مؤثرا ، فيه من الجودة والبراعة ما يثير ويعجب •

ولقد تميز المقال الأدبى بخصائص فصلت بينه وبين أخويه المقال الاجتماعى والمقال السياسى ، بحيث نستطيع أن نتعرف من هذه الخصائص على الاهتمام بالتأنق فى العبارة والتدقيق فى اختيار الألفاظ ، والعناية بالموسيقى ـ مع عدم إهمال الفكرة والمحتوى ـ ذلك أن هذا اللون من المقالات يستهدف بالدرجة الأولى امتاع القارىء وجذب مشاعره والتأثير فى عواطفه ، وكل ذلك يحتاج إلى اللفظ المنتقى ذى الجرس العذب الذى يحلو فى الأذن ويخف على القلب ، وبهذه الميزة يدنو المقال الأدبى من الشعر دنوا واضحا •

ومن تمام جمال اللفظ فى هذا المقال أن يعنى كاتبه بتنميق ألفاظه وحسن التنسيق بينها فى صورة صوتية تعتمد على المحسنات اللفظية والمعنوية دون تكلف أو استكراه ، وتلك خاصة تعطى لكاتب المقال الأدبى ما لا يعطاه كاتب المقال الاجتماعى أو السياسى ، وتتيح له استخدام وسائل الجمال الفنى فى الأدب بغير حدود أو قيود •

غير أن الملاحظ فى كتاب المقال الأدبى فى تلك الفترة أن بعضهم قد بذل جهودا غير قليلة ليتخلص من هذه المحسنات اعتقادا منهم بأنها عبء وثقل وقيد على التعبير الأدبى المنطلق ، كما عرفنا ذلك عن نجيب حداد وغيره •

ولكننا لا نوافق هذه الطائفة من الكتاب على رأيهم فى المحسنات البديعية ، وإنما نرى أن فيها ما يحسن ويحلو ويقرب الأسلوب من العقل والنفس ، أما ذاك الذى يتخوفونه من المحسنات فإنما هو قاصر على المتكلف منها ، سواء أكان التكلف فى الإسراف أو فى الاستكراه ، ولعل موقفهم ذاك إنما جاء نتيجة لما كان يثقل الأسلوب ـ قُبيل العصر الحديث ـ من محسنات بديعية متكلفة •

ومما يتطلبه المقال الأدبى فى كاتبه أن يكون عالما بأسرار اللغة ، خبيرا بجيد الكلام ، مستظهرا لكثير من المنظوم والمنثور ، ولابد أن يكون صاحب حصيلة وافرة من المفردات والتراكيب الجيدة ، قادرا على أن يسبك هذه الألفاظ والتراكيب فى عبارات جيدة السبك رصينة البناء متأنقة اللفظ طلية الكلمات ، وما أظنه بقادر على ذلك حتى يكون ذا طبع أصيل وذا حس مرهف وذوق رقيق ، مع فطنة ومعرفة دقيقة لمواطن الجمال فى التعبير •

وعنصر الخيال فى هذا اللون من المقال عنصر هام وفعال ، فكاتبه مطالب بأن يمزج كل حقيقة يتحدث عنها فى مقاله بالعاطفة والخيال ، ولا وسيلة أمامه أروع من تصوير تلك العواطف بهذه الأخيلة ، فالخيال وحده لغة الانفعالات والعواطف المعبر عنها بصدق وقوة وجمال ، وذلك ذلك مطابب أساسى فى المقال الأدبى •

هذا هو المقال الأدبى كما استطعنا أن نتعرف عليه من خلال النصوص الأدبية فى فن المقالة الأدبية فى تلك الفترة التى نتحدث عنها ، وتلك هى خصائصه التى جاءت فيه نتيجة لنمو الذوق الأدبى ، ونمو الثقافة العامة والاطلاع على الآداب العالمية فيما ترجم فى هذه الفترة من أعمال كبار الأدباء العالميين •

ومن الإنصاف أن نقول : أن جمال الدين الأفغانى لم يكن ذا أثر مباشر فى تطوير هذا اللون من المقالات ، وإنما كان له فيه أثر غير مباشر ، فجمال الدين دون شك كان أحد أسباب تنمية الثقافة العامة فى المجتمع الذى عاشه ، بما كان يطرحه

من مسائل ، وما كان يثيره من مشكلات ، وما كان يكتبه وينشره من موضوعات ، ومن الإنصاف كذلك أن نقرر أن أثر جمال الدين فى المقالتين الاجتماعية والسياسية كان أعمق وأكبر من أثره فى المقالة الأدبية .

ولنستمع إلى أبرز تلاميذ جمال الدين الأفغانى ؛ الشيخ محمد عبده يحدثنا عن أثر جمال الدين فى تطور الأساليب النثرية بعامة اجتماعية أو سياسية أو أدبية .

يقول الشيخ محمد عبده عن أستاذه : « كان أرباب العلم فى الديار المصرية القادرون على الإجادة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل ، وما كنا نعرف منهم إلا عبدالله باشا فكرى ، وخيرى باشا ، ومحمد باشا سيد أحمد ـ على ضعف فيه ـ ومصطفى باشا وهبى على تخصص فيه ـ ومن عدا هؤلاء فإما ساجعون فى المراسلات الخاصة ، وإما مصنفون فى بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها .

ومنذ عشر سنوات نرى كتبة فى القطر المصرى لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم ، وأغلبهم أحداث فى السن ، شيوخ فى الصنعة ، وما منهم إلا أخذ عنه أو عن أحد تلاميذه أو قلد المتصلين به[١] .

وقال الشيخ محمد رشيد رضا عنه : « إنه هو الذى كسر مقاطر التقليد الفكرى والدينى واللغوى ، فكان إمام النهضة العلمية والقلمية والدينية فى مصر وغيرها ، كما كان إمام النهضة الاجتماعية والسياسية[٢] .

---

١ ـ محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ١٠٠/١ ط المنار بمصر ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣١ م .
٢ ـ السابق : ١٠٢ .

ثالثا : مقالات جمال الدين

كتب جمال الدين الأفغانى عديدا من المقالات فى عديد من الصحف والمجلات ، حتى إننا لنعد أغلب ما ألفه جمال الدين وأعظم ما خلفه هو تلك المقالات وقد تناولت هذه المقالات شتى الموضوعات التى تشغل العالم الإسلامى فى تلك الفترة ، سواء فى ذلك المسائل الاجتماعية والمشكلات السياسية والموضوعات الفلسفية واللغوية ·

ونستطيع أن نعد تلك المقالات جميعا مقالات إسلامية باعتبار ما تناولته من موضوعات تهم العالم الإسلامى بالدرجة الأولى لما تنادى به من إصلاح ·

وأول ما أحب تسجيله فى هذا المجال ما جاء فى كتاب خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى لمحمد باشا المخزومى ، لما كان بين الرجلين من صلة وثيقة ، ولما لهذا الكتاب ـ من بين الكتب التى ألفت فى جمال الدين من أهمية كبرى فى رصد آراء جمال الدين وخاطراته ـ ·

وسوف أقسم مقالاته فى هذا الكتاب إلى أقسام ثلاثة :

مقالات اجتماعية ، ومقالات سياسية ، ومقالات إسلامية عامة يمكن أن تعد من هذه أو تلك ، ومقالات فلسفية ·

أ ـ المقالات الاجتماعية :

١ ـ مقالته فى تأثير آداب اللسان وأن القضاء على لسان أمة هو الخطوة الأولى للقضاء على الأمة نفسها[١] ·

٢ ـ مقالته فى المرأة وفى الزواج ، وفيما يثار حول قضية المرأة من مساواتها بالرجل[٢] .

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين ص ٦١ ط دار الفكر ـ لبنان ١٣٨٥ هـ ·
٢ ـ السابق : ٦٥

٣ ـ مقالته فى تناقض المدنية مع استمرار الحرب[١] .

٤ ـ مقالته فى تشخيص ما ألم بالإسلام والمسلمين من الانحطاط ، مع توفر ما فى الدين من دواعى النهوص ، على عكس من نهض وليس فى دينه ما يحمله على النهضة[٢] .

٥ ـ مقالته فى التعصب المحمود ، وتوضيحه أن هذا التعصب ضرورى لحياة الأمم ، وكشفه للتعصب المذموم[٣] .

٦ ـ مقالته فى التعصب الجنسى والتعصب الدينى[٤] .

٧ ـ مقالته فى لوم الناشئة الشرقية المسلمة على تقليدهم للغرب دون نظر فاحص إلى هذا التقليد ، هل ينفع أم يضر[٥] .

٨ ـ مقالته فى أن المسلم سواء فيه العربى والأعجمى إنما يعجب بماضيه وأسلافه وهو فى أشد الغفلة عن حاضره وكيف يجب أن يكون[٦] .

٩ ـ مقالته فى الاشتراكية ، ورأيه فى أنها لا تخالف الدين[٧] .

ولنا على رأيه هذا تحفظ تحدثنا عنه فى الباب الأول من الكتاب .

---

١ ـ السابق : ٩٠ .

٢ ـ السابق : ٢٢٥ .

٣ ـ السابق : ٢٥٠ .

٤ ـ السابق : ٢٧٠ .

٥ ـ السابق : ٢١٠ .

٦ ـ السابق : ٢٠٣ .

٧ ـ السابق : ١١٨ .

ب ـ المقالات السياسية .

١ ـ مقالته لعلماء الهند وعظمائها ، وتحريضهم على الإنجليز المستعمرين [١] .

٢ ـ مقالته فى المجلس النيابى المصرى [٢] .

٣ ـ مقالته فى الأحزاب السياسية فى الشرق [٣] .

٤ ـ مقالته فى مصر والمصريين ، وصورة الحكم الذى يجب أن تحكم به مصر خصوصا والشرق عموما [٤] .

٥ ـ مقالته فى الوطن وفى التفرد بالسلطة [٥] .

٦ ـ مقالته فى تأثير فضائل الوفود والفاتحين وضرب به المثل فى العرب وفتوحاتهم وانتشار لسانهم [٦] .

٧ ـ مقالته فى المقارنة بين ترك الآثار فى البلاد المفتوحة من الترك والعرب [٧] .

٨ ـ مقالته فى أن ترك الأثر مع التفريط فى صون الملك وعدم حفظه أدعى للتأثر ، وليس فيه شىء من الفخر [٨] .

٩ ـ مقالته فى الإنجليز وكشف نواياهم ، والمقارنة بين الإنجليزى والعربى فى الطباع وفى كثير من الصفات ، وفلسفته فى الحجر الذى فرضه الغربيون على أهل الشرق [٩] .

ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى : ص ١٠ .

٢ ـ السابق : ٢١ .

٣ ـ السابق : ٤٩ .

٤ ـ السابق : ٥٢ .

٥ ـ السابق : ٥٤ .

٦ ـ السابق : ٥٦ .

٧ ـ السابق : ٥٧ .

٨ ـ السابق : ٦٠ .

٩ ـ السابق : ٨٠ .

١٠ ـ مقالته فى الوسائل التى تؤدى إلى رفع الحجر عن المسلمين[١] .

١١ ـ مقالته فى المسألة الشرقية ووجهة نظره فى حل هذه المسألة[٢] .

١٢ ـ مقالته فى الامتيازات الأجنبية[٣] .

١٣ ـ مقالته فى المستعمرات والمستعمرين[٤] .

١٤ ـ مقالته فى القوة الآلية ورده على من زعم إمكان استهلاك العدد الكثير بالقليل[٥] .

١٥ ـ مقالته فى السلطنة العثمانية وضرورة تقسيمها إلى عشر خديويات[٦] .

جـ ـ المقالات الإسلامية العامة :

١ ـ مقالته التى أكد فيها أن الدين لم يخالف الحقائق العلمية ، وكل ما ورد فيه مما يتوهم معه هذه المخالفة يجب الرجوع فيه إلى التأويل[٧] .

٢ ـ مقالته فيما اشتمل عليه القرآن من تدبير الممالك والإشارات إلى مقدمات العلوم والفنون الحديثة[٨] .

٣ ـ مقالته فى الدولة الإسلامية ، وتوضيحه للأسباب التى أدت إلى تأخرها وانحطاطها[٩] .

---

١ ـ السابق : ٨٦ .

٢ ـ السابق : ١٤٣ .

٣ ـ السابق : ١٦٠ .

٤ ـ السابق : ١٩٨ .

٥ ـ السابق : ٢٦٤ .

٦ ـ السابق : ١٥٤ .

٧ ـ السابق : ٩٥ .

٨ ـ السابق : ١٠٠ .

٩ ـ السابق : ١٦٣ .

٤ ـ مقالته فى نصح الإيرانيين والأفغانيين بالاتحاد فى وجه عدوهم[١] .

٥ ـ مقالته فى التنفير من قولهم : سنى وشيعى ، وتأكيده على أن هذه التفرقة مما أحدثته مطامع الملوك ومما تسبب عنه الجهل[٢] .

٦ ـ مقالتـه فى الأديان الثلاثـة وتوضيحـه أن هذه الأديان متفقـة فى المبـدأ والغاية[٣] .

٧ ـ مقالته فى إنكاره على من يقول بسد باب الاجتهاد[٤] .

د ـ المقالات الفلسفية :

١ ـ مقالته فى تربية الطفل تربية إسلامية تجعل منه رجل المستقبل[٥] .

٢ ـ مقالته حول أن حقائق الأشياء ثابتة وأن الإحاطة بها لفرد متعذر[٦] .

٣ ـ مقالته فى أن الحق لا يكون مع الأكثرية أحيانا[٧] .

٤ ـ مقالته فى التصوف[٨] .

ولنا تحفظ على رأيه فى التصوف كتبنا فيه بحثا مستقلا بعنوان : مع جمال الدين ورأيه فى التصوف .

---

١ ـ السابق : ١٨٨ .

٢ ـ السابق : ١١٢ .

٣ ـ السابق : ١٣٧ .

٤ ـ السابق : ١١١ .

٥ ـ السابق : ٨٧ .

٦ ـ السابق : ١٣٠ .

٧ ـ السابق : ١٣٤ .

٨ ـ السابق : ١٤٠ .

٥ ـ مقالته فى ميل الشرقيين فى هذا العصر إلى حب التطويل فى المقال والتسويف فى الأعمال ، على عكس ما كان عليه السلف[١] .

٦ ـ مقالته فى أن أضعف ما فى هذا العصر حق لضعيف ، وأقوى ما فيه باطل لقوى ، وهى مقالة فى نقد هذا العصر وما يسوده من قيم[٢] .

٧ ـ مقالته فى مناقشة مذهب النشوء والارتقاء « الداروينية »[٣] .

٨ ـ مقالته فى مذهب الجبرية والمعتزلة ، ورأيه فى القضاء والقدر[٤] .

٩ ـ مقالته فى إبطال مذهب الدهريين « النيشريين »[٥] وله فى ذلك رسالة خاصة طبعت فى كتاب صغير مستقل ، كتبها بالفارسية فى الهند سنة ١٢٩٨ هـ ـ ونقلها إلى العربية الشيخ الامام محمد عبده .

١٠ ـ مقالته فى البابية وهى رسالة نقلها عنه البستانى صاحب دائرة المعارف المشهور[٦] .

أما مقالات جمال الدين فى جريدة ضياء الخافقين ـ التى أنشأها : حبيب سلمونى فى « لندن » سنة ١٨٩٢ م وساعده فيها جمال الدين الأفغانى ـ فإنها غير كثيرة من ناحية ، ولا تختلف فى مضمونها عما كان يثيره جمال الدين فى مقالاته من قضايا اجتماعية وسياسية .

وكذلك كانت مقالاته الأخرى التى كان ينشرها فى بعض المجلات والجرائد بتوقيعه أو توقيع « السيد » أو بأى توقيع آخر « مستعار » لا تخرج فى مضمونها عما كان ينادى به جمال الدين من آراء إصلاحية ، وما كان يذيعه فى تلاميذه ومريديه من

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ص ١٩١ .

٢ ـ السابق : ١٢٢ .

٣ ـ السابق : ١١٤ .

٤ ـ السابق : ٢٣١ .

٥ ـ السابق : ٢٩٠ .

٦ ـ البستانى : دائرة المعارف : ٥ : ٢٦ ـ ٢٨ ط طهران .

أحاديث وكلمات تستهدف كشف نوايا المستعمرين ـ وبخاصة الإنجليز ـ نحو الشرق الإسلامى والمسلمين ·

وأهم المجلات والجرائد التى نشر فيها جمال الدين هى :

١ ـ مرآة الشرق · أنشأها سليم عنحورى فى القاهرة سنة ١٨٧٩ م [١] ·

٢ ـ مصر · أنشأها أديب إسحق وأخوه عونى فى الإسكندرية سنة ١٨٨١ م [٢] ·

٣ ـ التجارة · أنشأها سليم نقاش وأديب إسحق فى الإسكندرية سنة ١٨٧٨ م [٣] ·

وكانت جريدتا مصر والتجارة من أهم أركان النهضة الإنشائية فى الجرائد كما يقول : جورجى زيدان [٤] ·

٤ ـ المحروسة · أنشأها سليم نقاش فى الإسكندرية سنة ١٨٨٠ م ، ثم انتقلت إلى القاهرة [٥] ·

---

١ ـ الفيكونت فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية ٤ / ٣٨٢ · ط بيروت ١٩١٤ ·

٢ ـ السابق : ٤ / ١٦٢ ·

٣ ـ السابق : ٤ / ٢١٤ ·

٤ ـ السابق : ٤ / ٢١٦ ·

٥ ـ السابق : ٤ / ٢١٦ ·

رابعا : جهوده فى مجال المقالـة الصحفية :

كان جمال الدين الأفغانى يدرك ما للصحافة من أثر جليل فى نشر الفكر وما لها من أهمية فى تنوير عقول الناس ، وتبصيرهم بالواقع السيء الذى كان مفروضا عليهم من عدو أجنبى دخيل ، وحاكم مستبد تابع لهذا العدو ، يهادنه وينفذ خططه فى سبيل بقائه على كرسى الحكم .

وكان جمال الدين يعرف حق المعرفة أن هذا الشرق الإسلامى لن يستيقظ من سباته ولن يتخلص من عدوه ، ولن يحرر فكره ووطنه من هذا الاحتلال ، إلا أن يقدم من التضحيات كفاء ما يصبو إليه من الحرية والعدالة ، كما كان يدرك أن الناس لن يقبلوا على تلك التضحيات من ذوات أنفسهم ، وإنما يجب على أصحاب الأقلام أن تتضافر جهودهم وتتعاون أفكارهم وأقلامهم ، لتنير للناس طريقهم نحو التخلص من العدو والعيش فى ظل حكم إسلامى تسوده العدالة الحقيقية .

لذلك أولى جمال الدين الصحف والكتابة فيها كل اهتمامه ، فكتب هو ما شاء الله له أن يكتب ، ووجه تلاميذه إلى العمل فى الكتابة والصحافة ، وحثهم على إنشاء الفصول الأدبية والمقالات الاجتماعية والسياسية والإسلامية بعامة ، ليؤدوا أمانة العلم ويقوموا بواجب القلم .

ففى مصر كتب جمال الدين فى عدد من الجرائد والمجلات ، مقـالات هادفـة بناءة ، أفاقت بها العقول واستنـارت الأفهـام ، وكانـت بحـق تمهيدا لكل حركة إصلاحية هادئة أو ثائرة عرفتها مصر بعد جمال الدين .

ومن هذه الجرائد التى كتب فيها : جريدة مصر التى أنشأها أديب إسحق فى القاهرة .

وجريدة أبو نظارة زرقاء التى أنشأها يعقوب صنوع فى القاهرة أيضا .

وجريدة « مرآة الشرق » التى أنشأها سليم عنحورى فى القاهرة كذلك ٠

وجريدة « المحروسة » التى أنشأها سليم نقاش فى الإسكندرية ٠

وجريدة « التجارة » التى أنشأها سليم نقاش وأديب إسحق فى الإسكندرية ٠

وجريدة « مصر الفتاة » التى كان يحرر فيها أديب إسحق والذى كان جمال الدين يغذيها بتوجيهاته عن طريق تلميذه المخلص أديب إسحق ٠

ولما رحل جمال الدين إلى باريس وأقام فيها قريبا من ثلاث سنوات ، أنشأ هناك مع تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده جريدة العروة الوثقى ، يدعو فيها المسلمين إلى الاتحاد سياسيا ودينيا تحت لواء الخلافة الإسلامية ، والتى تعد بحق صورة حية نابضة تمثل فكر جمال الدين ودعوته الإصلاحية ٠

وفى باريس كتب جمال الدين فى جرائدها فصولا عديدة يتحدث فيها عن سياسة روسيا وإنجلترا وتركيا ومصر ، ونقلت كثيرا من هذه المقالات صحف إنجلترا ٠

وعندما رحل إلى روسيا فارا من فارس ، والتقى هناك بكبار العلماء والمفكرين كتب فى صحف روسيا فصولا طويلة تبحث فى أحوال الدول : الفارسية والأفغانية والعثمانية والروسية والإنجليزية ، كان لها بحق وصدق تأثير عظيم القدر فى عالم السياسة ٠

هذه جهود جمال الدين الأفغانى فى تحرير المقالات الصحفية وكتابتها ، وليست وحدها التى تدل على جهوده فى المقال الصحفى ، وإنما ضم إليها جهوده فى إنشاء الصحف والمجلات أو المعاونة فى إنشائها ، فقد أعطى جمال الدين من مكانته وجاهه لأصحاب الصحف الشىء الكثير ، فكان يدعم الصحفيين والكتاب فيساعدهم على إنشاء الصحف ، أو يوحى إليهم بإنشاء تلك الصحف ، كما سنرى بعد قليل ٠

وعلى الرغم من أن جمال الدين كان شجى فى حلوق الحكام الظالمين ، إلا أنهم كانوا يقيمون له ولرغباته وطلباته أكبر وزن ، ولعلهم كانوا يخشون غضبته ـ وما كان أسرعه إليها ـ فكانوا يسارعون إلى تلبية طلباته وبخاصة تلك التى تتصل بمعاونة مريديه ومؤيديه ٠

فلم يكن غريبا ـ والأمر كذلك ـ أن يساعد جمال الدين على منح امتياز لإصدار أكثر من صحيفة يقوم عليها بعض تلاميذه .

فقد عمل جمال على إنشاء جريدة « أبو نظارة زرقاء » وجريدة « مصر » وجريدة « مرآة الشرق » وجريدة « التجارة » ، وأسهم وهو فى لندن فى إنشاء جريدة « ضياء الخافقين » .

فضلا عن إنشائه جريدته الذائعة الصيت « العروة الوثقى » فى باريس .

أما جريدة « أبو نظارة زرقاء » فيقول عنها مؤلف تاريخ الصحافة العربية : هى جريدة فكاهات ومسليات ومضحكات صدرت فى الحادى والعشرين من آذار سنة ١٨٧٧ م ، ثلاث مرات فى الشهر ، ومحررها يعقوب صانوع « جمس سانووا » أستاذ الألسن الشرقية ومؤسس فن التمثيل العربى فى مصر .

كان ليعقوب صانوع صديقان مرتبطين معه بروابط المحبة وهما : السيد جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده .. فاتفق ثلاثتهم على إنشاء جريدة هزلية لانتقاد أعمال الخديو إسماعيل ، ثم قر رأيهم على أن يتولى أولهم ـ يعقوب صنوع ـ إدارتها ، فأوعز السيد جمال الدين إلى يعقوب إيجاد عنوان للجريدة يليق بمسلكها[1] .

وأما جريدة « مصر » التى أنشأها أديب إسحق بمعاونة جمال الدين سنة ١٨٧٧ م فيقول عنها سليم عنحورى : « وبعد أن ذهب المنشئ الكاتب أديب إسحق إلى الإسكندرية قصد تمثيل الروايات تحت رئاسة الفاضل المغفور له سليم نقاش سنحت عوارض قضت بإلغاء التمثيل ، فأصبح أديب خالى الوفاض بادى الأنفاض ، فبعث به المرحوم حنين الخورى إلى القاهرة مصحوبا بكتاب وصاة إلى جمال الدين الأفغانى ، فأحسن هذا لقياه لما توسمه فيه من أمارات الذكاء ومخايل النجابة ، ولزمه ثمت ملازمة اللام للألف ، وأقبل عليه إقبال الهائم العانى الكلف »

١ ـ الفيكونت فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية : ٨١٣ ط بيروت المطبعة الأدبية سنة ١٩١٣ م

فحصل له امتياز صحيفة اسمها « مصر » واتخذ له دكانا بباب الشعرية ، هيأ له فيها من أدوات الطبع بالحرف البولاقى المشهور ما قوى معه على إصدار تلك الصحيفة .

... ولجمال الدين الأفغانى فى جريدة « مصر » مقالتان مشهورتان سمى إحداهما « الحكومات الشرقية وأنواعها » والأخرى « روح البيان فى الإنجليز والأفغان » ترنحت لهما أعطاف العلماء طربا ، وكان لهما تأثير عظيم على أذهان أرباب السياسة الأوربية ، حتى إن « جلادستون » رئيس وزراء إنجلترا أثبت فى بعض الجرائد مقالة تشهد لجمال الدين أنه من أئمة علماء الشرق حالة كونه من ألد أعداء الإنجليز(١) .

أما جريدة « مرآة الشرق » فهى صحيفة سياسية أدبية نصف أسبوعية أنشأها باقتراح من الخديو إسماعيل فى ٢٤ شباط ١٨٧٩ م شاعر دمشق الفيحاء سليم بك عنحورى ... وقد تنازل سليم عنحورى عن حقوقه فى « مرآة الشرق » إلى مديرها أمين بك ناصيف الذى عهد بتحريرها إلى الشيخ محمد عبده وإبراهيم بك اللقانى ، فنجحت نجاحا باهرا لأنه جعلها لسان حال الشيخ جمال الدين الأفغانى ، وتحت رعاية سليمان باشا أباظة(٢) ..

وأما جريدة « التجارة » التى أنشأها أديب إسحق وسليم نقاش فى الإسكندرية فقد أومأ جمال الدين إلى كاتبيه : الشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقانى أن يخدما تينك الصحيفتين قلما وسعيا ما استطاعا إلى ذلك سبيلا ، وجعل يواصلهما بشذرات من قلمه البديع ، وخطرات من فكره المزرى بلألاء الرقيع ، حتى كان سبب شهرتهما كما كانا بتعظيمهما له فى النعوت والألقاب من قبل : مهبط أسرار الحكمة واسطرلاب فلك العلوم واسطقس هيولى الفلسفة إلى غير ذلك مما اعتادا أن يصنعاه بسبب نماء شهرته وانتشار صيته(٣) .

وكان من خلق جمال الدين الأخذ بناصر كل منتم الى العلم وشد أزر كل ذى ميل

---

١ ـ سليم عنحورى : سحر هاروت ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

٢ ـ دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية : ٣/١٥ ـ ١٦ .

٣ ـ محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام : ١/٤٦ .

للأدب ، ومع أنه كان كثير الأنفة شديد الوطأة على الحكام يعاملهم بالعجب والخيلاء ، ويرنوا إليهم بعين المقت والازدراء ، تراه بالعكس كثير التعظيم والتكريم لأولياء العلم وأنصاره مهما كانوا خاملين قاصرين ، يبذل لهم الأنس والدعة ، ويخفض جانب الرقة والدماثة ويؤاسى مجتاحهم ومحتاجهم بكل ما يقدر عليه ، وتصل يده إليه[1] .

وبعد ... فتلك هى جهود جمال الدين الأفغانى فى مجال المقالة الصحفية وهى جهود إصلاحية إسلامية بناءة ، ولسنا نبالغ حين نقول إن وجود جمال الدين فى مصر أزكى فيها روح الدين وروح الوطنية وروح الثورة من أجل الحرية والعدالة ، ولقد كان وجوده وجهوده حائلا قويا يحول بين الأتباع الذين يجاهرون بمالأة المحتل الدخيل ، لذلك ما ترك جمال الدين مصر مطرودا منها حتى أصبحت الصحافة فيها تمثل حزبين كبيرين : أحدهما حزب يؤيد الاحتلال صراحة وينتصر للإنجليز ويستحسن خطتهم ، وقد ظل هذا الحزب على إيمانه بهذا النهج حتى بلغ غايته وتوج أهدافه بظهور جريدة « المقطم » سنة ١٨٨٩م التى أنشأها يعقوب صروف وفارس نمر ومكاريوس ، فكانت هذه الجريدة لسان حال المحتلين تخدم نواياهم وتنصرهم فى كل حال ، وتلك ردة عما كان ينادى به جمال الدين .

والثانى : حزب ينادى بتحرير البلاد من المحتل الدخيل ، ويزكى روح الوطنية فى الناس ويدافع عن حقوق الوطن الضائعة وكرامة المواطنين المنتهكه ، وظل هذا الاتجاه ينمو ويتعاظم حتى توج بظهور جريدة « المؤيد » التى أنشأها الشيخ أحمد ماضى والشيخ على يوسف .. وهى بحق باكورة الجرائد الإسلامية المهمة التى علا صوتها دفاعا عن حقوق الوطنيين[2] .

وفى الختام أرجو أن أكون قد أوضحت موقف جمال الدين من أدب المقالة . والحمد لله فى الأولى والآخرة .

---

١ ـ السابق : ٤٥/١ .

٢ ـ دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية : ٥/٣ .

الفصل الثانى:

جمال الدين المحدث الخطيب

ويتناول :

١ ـ جمال الدين المحدث الخطيب

٢ ـ النثر الأدبى فى عصر جمال الدين

٣ ـ موضوعات النثر فى هذه الفترة

وتشمل :

أ ـ الموضوعات السياسية .

ب ـ الموضوعات الاجتماعية .

ج ـ الموضوعات الإسلامية .

١ ـ جمال الدين المحدث الخطيب

سنحاول فى هذا الفصل أن نلقى الضوء على جانبين هامين من جوانب شخصية جمال الدين الأدبية ، ذانك هما جانبا قدرته فى الحديث وقدرته فى الخطابة ، وما من شك فى أن القدرة فى هذين المجالين تنم عن أصالة أدبية فى صاحبها بل تنم عن استكمال كثير من صفات الأديب .

وليس من المبالغة فى شىء أن نقول : إن جمال الدين كان أديبا أصيلا استكمل كثيرا من صفات الأديب ، من حديث وخطابة وكتابة فنية ، يقول عنه الشيخ مصطفى عبد الرازق : « ... رجل أوتى حظا عظيما من سمو النفس ومتانة الخلق وتوقد الذكاء وقوة الذاكرة ودقة الملاحظة ، إلى علم غزير ونشاط لا يكل ، وشجاعة لا تعرف الخوف ، وبلاغة فى الكتابة والخطابة خارقة للعادة ، مع نفوذ ساحر ، وسمت مهيب جليل ، جذبت إلى السيد مزاياه الباهرة قلوب كثير من الأمراء وأرباب المقامات العالية ، وأهل العلم والأدب ، فكانوا يوافونه فى « القهوات[١] والمتنزهات العامة حيث كان سامره مجلس علم وحكمة وأدب وسياسة .

والتفت حوله أذكياء الطلاب ومن بينهم عدد من خيرة مجاورى الأزهر ، فكان يلقى عليهم درسا فى الأدب والمنطق والتوحيد ، والفلسفة وعلم التصوف ، وأصول الفقه ، فى مسامرات خالية التكاليف والقيود .

وكانت مدرسته بيته ، ولم يذهب إلى الأزهر قط مدرسا ، وإنما كان يذهب إليه زائرا ، وأكثر ما كان يزوره فى يوم الجمعة[٢] .

---

١ ـ المنتديات التى تقدم القهوة والشاى والمشروبات ، وهو تعبير مشهور فى مصر .

٢ ـ جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى : المقدمة : بعنوان : جمال الدين لمصطفى عبد الرازق ص : ٢١ .

ووصفه سليم عنحورى فى كتابه « سحر هاروت » بقوله : « يلبس السواد ويتزيا بزى العلماء ، طلى الكلام ذرب اللسان مليح النكتة سمح الكف طلق المحيا وقور السمت ... يكره الكتابة ويتثاقل منها ، فإذا رام إنشاء مقاله ألقى على كاتب من مثل : إبراهيم اللقانى إلقاء قلما يراجعه ويصلحه ، فيجىء من أول وهلة ، مسبوكا مفرغ المعالى بقوالب لفظ لا تنقص عنها ولا تزيد[1] » ·

« وكان يحمل تلاميذه على العمل فى الكتابة وإنشاء الفصول الأدبية والاجتماعية والسياسية فاشتغلوا على نظره وبرعوا بين يديه ، وكانوا طليعة النهضة الأدبية فى مصر ، وكانوا مؤسسى بنيانها ·

وانتظم السيد فى الماسونية وتقدم فى درجاتها ، ثم أنشأ محفلا وطنيا جمع فيه نبهاء طلابه ومريديه ، حتى صار عدد أعضائه نحو ٣٠٠ ، وكان هو رئيسه يمرن فيه تلاميذه على الخطابة ويلهمهم مبادئه ويعدهم للعمل ، ويوقظ فيهم عواطف الوطنية ، ويعلمهم الشغف بحياة الحرية وبالنظم الدستورية[2] » ·

ثم يواصل سليم عنحورى فى حديثه عن جمال الدين المحدث الخطيب فيقول : « وكان السيد جمال الدين ذا إلمام واسع فى الشئون السياسية ، إلا أنه كان متطرفا فى حرية الأفكار إلى درجة متناهية ، فأخذ يعقد الاجتماعات السرية والعلنية ، ويلقى الخطب الرنانة ، حاضًّا المصريين بلهجة شديدة على المطالبة بحقوقهم والتنصل من ربقة الظلم ·

وقد وقف يوما فى سنة ١٨٧٩ م فى ساحة « محمد علي » المعروفة بالمنشية الكبرى فى الإسكندرية ، وخاطب الفلاح المصرى على مسمع من محافظ المدينة وقواد الجيش ، والعلماء والأعيان قائلا : « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت منها

---

١ ـ فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية : ٢٩٥/٢ ·

٢ ـ جمال الدين الأفغانى : جريدة العروة الوثقى : مقدمة مصطفى عبد الرازق : ٢٢ ·

ما تسد به الرمق ، وتقوم بأود العيال ، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلوب الذين يأكلون ثمرة أتعابك[١] » .

ويصفه الفيكونت فيليب دى طرازى تحت عنوان : « مجلسه وخطابه » فيقول : « كان أديب المجلس كثير الاحتفاء بزائريه على اختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم ، ويخرج لوداعهم ، ولا يستنكف من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم إذا ظن فى زيارته تزلفا .

وكان ذا عارضة وبلاغة لا يتكلم إلا اللغة الفصحى ، بعبارات واضحة جلية ، وإذا آنس من سامعه إلتباسا بسط مراده بعبارة أوضح ، فإذا كان السامع عاميا تنازل إلى مخاطبته بلغة العامة .

وكان خطيبا مصقعا لم يقم فى الشرق أخطب منه[٢] » .

وبعد ... فلعل هذه الكلمات التى تحدث بها المقربون إلى جمال الدين والعارفون به حق المعرفة ، لعل هذه الكلمات فى مقدرة جمال الدين فى فنى الخطابة والحديث ، تؤكد ـ إلى جانب ما سنذكر ـ أن جمال الدين أديب ذو أصالة مكنته من زمام البيان خطابة وأحاديث فضلا عن قدرته التى تحدثنا عنها ـ فى الفصل السابق من هذا الباب ـ فى فن المقالة ، وما أوتيه فيها من مقدرة تبهر الناس ، وبخاصة فى عصره والفترة التى عاش فيها ـ إذ كانت فترة انتقال من ضعف فى الأداء اللغوى وضحالة فى الفكر ونضوب نسبى للقرائح إلى تطلع للأخذ بأسباب القوة والسلامة والفصاحة ، والتعمق فى الفكر والعلم ـ وقد كان جمال الدين دون مبالغة أحد أسباب هذه النهضة الأدبية العلمية ، فضلاً عن جهوده فى النهضة السياسية الإصلاحية ـ كما أوضحنا آنفا ـ فضلا عن جهوده المستميتة فى الإصلاح الإسلامى ـ التى تحدثنا عنها فى الباب الثالث من هذا البحث ـ

١ ـ فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية : ٢/٢٩٥ .
٢ ـ السابق ٢/٢٩٨

فالحق الذى لا أشك فيه أن جمال الدين كان موهبة أدبية فى عصره وقـدرة خطابية بيانية تجعل منه بحق أديبا أصيلا .

ولكى تتضح لنا الصورة بشكل أدق وأعمق ، نرى أن نتحدث عن النثر الأدبى بعامة فى الفترة التى عاشها جمال الدين ، لتتبين لنا من خلال ذلك قدرة الرجل ومواهبه .

٢ ـ النثر الأدبى فى الفترة التى عاشها جمال الدين

مما هو معروف عند دارسى الأدب فى العصر الحديث ، أن الفترة التى سبقت هذا العصر الحديث ، كانت فترة ضعف فى الأدب عموما وفى النثر الأدبى على وجه الخصوص ، ولقد ظلت أعراض الضعف مسيطرة على الكتاب حتى كانت وسائل النهضة الاجتماعية والسياسية والثقافية التى عاصرت محمد على باشا فى مصر ، قد أخذت تعمل فى تطوير الحياة نحو الأحسن وتطوير الأدب نحو الأحسن كذلك .

ولكى لا نذهب بعيدا عن جمال الدين والنثر الأدبى فى عصره ، نقول : إن المدرسة النثرية الديوانية التى ترى بوضوح فى : عبد الله باشا فكرى تناولت من فنون النثر : الرسائل فى مجالاتها التقليدية مثل التعازى والتهانى والاعتذار والرجاء .

كما تناولت الوصف الأدبى فى مجالاته المعتادة كوصف مظاهر الطبيعة والمناظر الجميلة ، وفى مجالاته التى استحدثتها الحضارة ، تلك المستحدثات التى دخلت على الناس حياتهم ، فشغلت الوصف الأدبى ما شغلته وكما يجب أن تشغله المتغيرات المستمرة فى كل عصر .

كما تناولت هذه المدرسة النثرية الديوانية ما لابد أن تتناوله من أمور شخصية أو مشاعر خاصة يفرضها على الأديب نمط الحياة التى يحيها ونوع التطور الذى يحس به .

غير أن هذه المدرسة وقفت عند هذا الحد ، لم تتجاوزه إلى ما لا بد لها من الخوض فيه والحديث عنه كقضايا السياسة ، والمشكلات الاجتماعية التى ولدتها الحياة الجديدة ، وكدعوات الإصلاح الدينية والسياسية والاجتماعية ، فإن من ينظر إلى تلك المدرسة لا يجدها قد اهتمت بهذه المسائل والقضايا ، على الرغم من أهميتها ، وعلى

الرغم من أن عبد الله باشا فكرى له وزنه الأدبى فى هذه المرحلة ، ولمذهبه أو لمدرسته ـ كما يقال ـ مريدون وعشاق !!

ويظل أمر عبد الله باشا فكرى ومذهبه على هذا النحو من القصور والبعد عن لب القضايا والمشكلات الاجتماعية والسياسية والإصلاحية ، حتى يظهر جمال الدين الأفغانى ، وحتى تتغير صورة النثر الأدبى على يديه تغيرا ملحوظا ٠

لما كانت أخريات عهد إسماعيل باشا ، وعهد ولده توفيق باشا ، أصبحت للنثر الأدبى سوق رائجة ، وتناول موضوعات متعددة واستطاع أن يواكب الأحداث وأن يرصدها ويسجلها ، وكان لابد لمن يتابع حركة النثر الأدبى فى ذلك الوقت أن يلحظ تلك الألوان الجديدة التى تفيض بالحياة والحرارة وتتدفق على ألسنة عدد من الكتاب وتسيل بها أقلامهم ، وما من شك فى أن جمال الدين الأفغانى كان على رأس هؤلاء الكتاب ، بل كان أستاذا لمعظمهم إن لم يكن أستاذا لهم أجمعين ٠

فلقد كان يحذو حذو جمال الدين فى هذه الكتابة النثرية الأدبية الحية عدد من مشاهير الكتاب وأرباب البيان وصانعى السياسة والأحداث مثل :

الشيخ محمد عبده وعبد الله النديم ومصطفى نجيب وإبراهيم اللقانى والشيخ على يوسف وأحمد عرابى وقاسم أمين ، وغير أولئك كثيرون ممن برعوا فى الكتابة النثرية بصفة عامة وفى الخطابة على وجه الخصوص ٠

ولابد لنا ـ هنا ـ من وقفة قصيرة نصف فيها النثر فى هذه الفترة التى حدثت فيها نهضة حقيقية فى الأدب والثقافة ، فضلا عن السياسة والاجتماع بتأثير جمال الدين الأفغانى وتلاميذه ومريديه ٠

ومما يعيننا فى وصف النثر الأدبى فى هذه الفترة أن نشير إلى موضوعات دخلت عليه فأعطته من الحيوية والإيجابية ما أعطته ، وخرجت به من ذلك الإطار الضيق الذى كان يخنقه فى الفترة السابقة ، إلى حيث مواكبة الأحداث ، بل الإسهام ـ بعدد من المقالات الحماسية ـ فى صنع الأحداث والتوجيه إليها ٠

موضوعات النثر فى هذه الفترة

هذه الموضوعات التى شغلت النثر الأدبى فى هذه الفترة نستطيع أن نصنفها إلى أصناف ثلاثة :

موضوعات سياسية ٠

وموضوعات اجتماعية ٠

وموضوعات إسلامية خالصة ٠

وفى كل صنف من هذه الأصناف كان لجمال الدين وتلاميذه فيه إسهام كبير وفاعلية ملحوظة فى التوجيه والمشاركة ، فى مجالى الحديث والخطابة على النحو الذى سنذكره الآن ٠

أ ـ الموضوعات السياسية

أما الموضوعات السياسية التى شغلت الكتاب والخطباء ، فى هذه الفترة فهى كثيرة وهامة ، نعدد من أبرزها :

١ ـ الدعوة إلى الثورة على الظلم ، والظالمين من الحكام ، ولقد كان جمال الدين بحق أول من فتح هذا الباب وأغرى به الكتاب والخطباء ، حين كان يتصدى ـ فى غير مبالاة ـ لكل ظلم ولكل حاكم ظالم ، ثم تبارى فى هذا الموضوع غير واحد من الكتاب ـ على ما فى الكتابة فى هذا الموضوع من المخاطرة والتعرض لغضب هؤلاء الحكام الظالمين ـ فشارك جمال الدين فى الكتابة فيه : الشيخُ محمد عبده ، وعبد الله النديم ، وإبراهيم اللقانى وغيرهم ٠

ومادمنا بصدد الحديث عن جمال الدين فسوف نستشهد له وحده من بين هؤلاء الكتاب ٠

من ذلك ما قاله فى التحريض على الحكام الظالمين ، بتنوير الأذهان والدعوة إلى إيجاد حياة نيابية صحيحة، تصون كرامة الفرد وتحمى حقوق الأمة من عسف الظالمين

وجبروت المستبدين ، فى مصر التى كان يراها من أهم بلدان العالم الإسلامى ، يقول « كأن القوة الفرعونية أخذت على الدهر عهدا أن لا تبرح وادى النيل ، فكلما قضى فرعون تقمص بآخر ، وكلما انقرضت عائلة فرعوينة ادعت إرثها عائلة ، وجاءت ولو من وراء البحار ، والتصقت بالنسب الفرعونى بأقل مشابهة ، من خلق الغطرسة والتأله على الناس ، وكثيرا ما كان يردد فى هذا المجال قوله تعالى : « فاستخف قومه فأطاعوه .. » ويقول : « عجيب هو نصيب المنتصر لمصر والمصريين إذا مكث بين ظهرانيهم ، فموسى خرج منها خائفا يترقب متهما موشى به من مظلوم نصره على ظالمه ، وفرعون معبود فيها ، ويوسف الصديق زج فى السجن متهما وهو لم يأت الفاحشة ، نعم فى النتيجة حصحص الحق وزهق الباطل .

ولسوف تخلص مصر لأهلها إذا هم عملوا بالحزم ، وهيئوا ما يلزم من العزم ، وما يتطلبه حكم الذات من القوى ، ولسوف تفعلون ذلك بعوامل الضغط والمسك بالخناق ، وإذا ما فعلوا واجتمعت الكلمة وتوحدت الأهواء نحو الغاية حصل البأس ، وإذا لم يضعوا هذا البأس بينهم بسوق التحاسد أو بفعل الدسائس قل تَم الأمر وفاز القوم ودخلوا فى دورة الحياة الصحيحة .

لا تحيا مصر ولا يحيا الشرق بدوله وإماراته إلا إذا أتاح الله بكل منهم رجلا قويا عادلا يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان ، لأن بالقوة المطلقة الاستبداد ، ولا عدل إلا مع القوة المقيدة .

وحكم مصر بأهلها إنما أعنى به الاشتراك الأهلى بالحكم الدستورى الصحيح .

ثم قال : « إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب فأهم هذه الأشياء (الحرية) و (الاستقلال) لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك والمسيطر ، للأمة عن طيب خاطر ، والاستقلال كذلك ، بل هاتان النعمتان إنما حصلت وتحصل عليها الأمم أخذا بقوة واقتدار ، يجبل التراب منها بدماء أبناء الأمة الأمناء ، أولى النفوس الأبية والهمم العالية .

أما تغيير شكل الحكم المطلق بالشكل النيابى الشورى فهو أيسر مطلبا وأقرب منالا ، إذ يكفى فيه أحيانا إرشاد الملك ونصحه من عقلاء مقربيه ، فيفعله ويشرك معه أمته ورعيته ، ويرى بعد التجربة راحة وتضامنا على سلامة ملكه ، وعزة بالتفاف طبقات الرعية حول عرشه بقلوب خالصة مخلصة وحب صميمى ، فيكون للملك الدستورى عظمة الملك ، وعلى نواب الأمة أعباء نوائب المملكة ودرء المفاسد عنها والذود عن سلامتها بالأموال والأرواح .

ولكم رأينا من عقلاء الملوك من حكم عقله فأرشده إلى استبدال مطلق الملك بالملك الشورى[١] فاستراح وأراح .

وهذا هو الشكل من الحكم الذى يصلح لمصر ولدول وإمارات الإسلام فى الشرق ، وبتوضيح وإفصاح : لا يسلم على الغالب الشكل الدستورى الصحيح مع ملك ذاق لذة التفرد بالسلطان ، ويعظم عليه الأمر ، كلما صادمه مجلس أو غلبه على هواه .

لذلك قلت : إذا أتاح الله رجلا قويا عادلا لمصر وللشرق يحكمه بأهله ، ذلك الرجل إما أن يكون موجودا أو تأتى به الأمة فتملكه على شرط الأمانة ، والخضوع لقانونها الأساسى ، وتتوجه على هذا القسم وتعلنه أنه يبقى التاج على رأسه ما بقى هو محافظا أمينا على صون الدستور ، وأنه إذا حنث بقسمه وخان دستور الأمة ، إما أن يبقى رأسه بلا تاج أو تاجه بلا رأس .

هذا ما يحسن بالأمة فعله إذا هى خشيت من أمرائها وملوكها عدم الإخلاص لقانونها الأساسى أو عدم قابليتهم لقبول الشكل الدستورى قلبا وقالبا ، وإلا فالأمير الصالح القريب ، أولى من البعيد الغريب[٢] .

---

١ ـ الأصل فى الباء أن تدخل على المطروح ـ والصواب : استبدال الملك الشورى بالملك المطلق .
٢ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى : ٥٢ ـ ٥٤ .

أما الحكم الجمهورى فلا يصلح للشرق اليوم ولا لأهله ، وسيأتى بيان ذلك .

تلك نفثة من نفثات جمال الدين يهيب فيها بمصر والمصريين أن يقفوا فى وجه الظلم والظالمين .

وهذه نفثة أخرى يدعو فيها إلى الثورة ويحرض على الجهاد فى سبيل الحرية والكفاح لنيلها ، يقول : « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد وربيتم فى حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسوقكم حكوماتهم إلى الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم ومواد غذائكم التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم بالعصا والمقرعة والسوط وأنتم معرضون ، فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفى رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة ، تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لا حس لكم ولا صوت .

انظروا أهرام مصر وهياكل ممفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوه وحصون دمياط فهى شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم .

هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ... عيشوا كباقى الأمم أحرارا سعداء[٢] » .

---

١ ـ السابق : ٥٤ .

٢ ـ محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام : ٤٦/١ .

٢ ـ الدعوة إلى الثورة على الاستعمار والمستعمرين:

فرض هذا الموضوع نفسه على الأدب والأدباء ، لأن الفترة التى نتحدث عنها كانت بحق فترة استغلال المستعمر لمعظم بلدان العالم الإسلامى ، استغلالا يستهدف القضاء على معنويات المسلمين قبل الاستيلاء على مادياته .

رأى ذلك جمال الدين وعايشه فلم يستطع أن يقف موقف من يخاف المستعمر أو يهاب بطشه وجبروته .

أهاج جمال الدين بأحاديثه وخطبه خواطر الشعراء والكتاب وانطلق هو ومريدوه يتحدون المستعمر وسجونه ومشانقه وكل ما يملك من أساليب البطش والوحشية ، فيكشفون خططه ويفضحون سيِّئ نواياه نحو الإسلام والمسلمين ، غير مبالين ولا هيابين .

ولقد لقى جمال الدين من النفى والتشريد ما لقى على أيدى المستعمرين لكنه لم يكف عن التهجم عليهم وعلى خططهم وتحريض الناس عليهم ، وليس من المبالغة أن نقول : إن جمال الدين الافغانى كان ألد أعداء الاستعمار والمستعمرين ، وكان يعمل بكل ما يستطيع من حول أو حيلة ليجعل أبناء العالم الإسلامى كله يتحدون ليواجهوا هذا العدو الغاشم ـ كما أوضحنا ذلك فى حديثنا عن مقاومته للمستعمرين فى الفصل الثانى من الباب الثالث من هذا البحث ـ .

ولقد كان صوت جمال الدين مدويا فى العالم الإسلامى كله يريد أن يشعلها حربا ضارية على الاستعمار والمستعمرين فى كل رجا من أرجاء العالم الإسلامى .

ولقد مهد جمال الدين ـ كما أوضحنا فى الباب الثالث من هذا البحث ـ لحرب الاستعمار والمستعمرين بالدعوة إلى وحدة المسلمين فى ظل القرآن ونبذ أسباب الخلاف والفرقة ، والدعوة إلى شحذ همم العلماء والحكام ، وإلى طرح العصبيات والإقليميات جانبا ، مهد جمال الدين بكل ذلك ليستطيع المسلمون مقاومة أعدائهم من المستعمرين .

ومن أجل أن يغرى الناس بأعدائمُ من المستعمرين ، كتب مقالات عديدة يكشف فيها عن نوايا الإنجليز نحو الإسلام ، وسياساتهم فى الشرق الاسلامى ، ويكشف عن نوايا الفرنسيين من الإسلام ، وأفرد عددا من الأحاديث عن المستعمرات والمستعمرين ، وأخذ فى أحاديثه وكتاباته يستعدى العثمانيين على الإنجليز ويستنهض همم المصريين ليقفوا فى وجه الإنجليز ، ويقارن بين الشرقى والغربى ليستنهض همم الشرقيين جميعا لمواجهة الاحتلال الإنجليزى لبلادهم وطردهم منها مذمومين مدحورين ·

ولقد أفضنا فى الباب الثالث من هذا البحث وبخاصة فى الفصلين الأول والثانى منه فى الاستشهاد بكلمات جمال الدين المحرضه على محاربة المستعمر ، مما لا نرى أن نعيده هنا ·

غير أنى سأكتفى بذكر كلمة من افتتاحية العروة الوثقى كتبها جمال الدين يشخص فيها واقع المسلمين ويطالبهم بمقاومة أعدائهم عن طريق الإفاضة فى ذكر ما تعانى منه الدول الإسلامية على يد هؤلاء المستعمرين الدخلاء ·

يقول جمال الدين : « بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته ، خصوصا فى المسلمين منهم ، فملوك أنزلوا عن عروشهم جوراً ، وذوو حقوق فى الإمرة حرموا حقوقهم ظلما ، وأعزاء باتوا أذلاء ، وأجلاء أصبحوا حقراء ، وأغنياء أمسوا فقراء ، وأصحاء أضحوا سقاما ، وأسود تحولت نعاما ، ولم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر من إفراط الطامعين فى أطماعهم ، خصوصا من جراء هذه الحوادث التى بذرت بذورها فى الأراضى المصرية من نحو خمس سنوات بأيدى ذوى المطامع فيها ·

حملوا إلى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها ، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها ، وألزموها ما ليس فى قدرتها فاستعصت عليه قواها ، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطامع ، فكانت الحركة

العرابية فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين ، فاندفع بهم سيل المصاعب بل طوفان المصائب على تلك البلاد ، وظنوا بلوغ الأرب ، ولكن أخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا ...

ثم يواصل قائلا : إلا أن غاشية النهم ذهبت بعقول المنهومين ووقرت أسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهند إلى مكة ومن مكة إلى مصر ، والكرير[1] الممتد من مصر إلى مكة ومن مكة إلى الهند ، وكلها تتلاقى بين تراقى المغرورين بقوتهم المسترسلين فى جفوتهم .

إن الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، مع ملاحظة العلل التى أدت بهم إلى ما هم فيه ، فتقاربوا فى النظر وتواصلوا فى طلب الحق وعمدوا إلى معالجة الحق وعلل الضعف ، راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ، مؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف ، وإن فى الحاضر منها لنهزة تغتنم وإليها بسطوا أكفهم ، لا يخالونها تفوتهم ولئن فاتت فكم فى الغيب من مثلها ، وإلى الله عاقبة الأمور[2] .

٣ ـ الدعوة إلى الأخذ بنظام الإسلام فى الحكم « نظام الشورى » :

كان الشرق الإسلامى فى تلك الفترة قد بلى بحكام مستبدين ظالمين ، ورمى بأجانب عنه يتحكمون فيه وفى مقدراته ، ونظر جمال الدين فوجد علة كل هذا هو الاستبداد وعدم الأخذ بنظام الشورى .

فنادى بالشورى بأعلى صوت ، وواجه كل حاكم مستبد بأن الشورى هى الطريق الواحدة لعودة الحياة السياسية إلى صورتها الحقيقية التى تؤمن حياة الناس

١ ـ الكرير : صوت فى الصدر كصوت المختنق والمجهود .

٢ ـ جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى : الافتتاحية : ٤٣ ـ ٤٦ .

فى حاضرهم ومستقبلهم . ويكاد جمال الدين فى هذه الفترة يكون أول من دعا إلى الشورى ، وأول من حرك فكرتها فى نفوس المصلحين من أمثال محمود سامى البارودى ، وعبد الله النديم ، ومحمد عبده ، وأديب إسحق ، فكل هؤلاء نادوا بالشورى وجندوا من أجل الدعوة إليها أقلامهم وأحاديثهم .

وهكذا أصبحت الدعوة إلى الأخذ بنظام الشورى فى الحكم موضوعا هاما من موضوعات النثر فى الفترة التى عاشها جمال الدين .

وكان لجمال الدين الفضل فى هذه الدعوة ، وكان له الفضل فى توجيه بعض الكتاب إلى خوض غمارها .

ولقد وصلت دعوة جمال الدين إلى الشورى وإلى غيرها من نواحى الإصلاح إلى مسامع الخديو توفيق ، فطلب أن يحضر إليه جمال الدين ليناقشه فيما يدعو إليه : وجاء جمال الدين إلى مجلس الخديو توفيق فى قصر عابدين ، وكان بينهما الحوار التالى :

قال الخديو توفيق : إنى أحب كل المصريين ، ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن من الأسف إن أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح أن يلقى عليه ماتلقونه من الدروس والأقوال المهيجة ، فيلقون بأنفسهم فى تهلكه ... » .

فرد عليه جمال الدين قائلا : ليسمح لى أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص : إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر إليكم ، وإن قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم فى إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى ، فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة لتسن القوانين وتنفذها باسمكم وإرادتكم ، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم[١] .

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين : ٢١ .

ب ـ الموضوعات الاجتماعية

الموضوعات الاجتماعية التى تناولها النثر الأدبى فى هذه الفترة تدل دلالة قوية على أن النثر قد واكب المتغيرات وسجلها بأمانة وإخلاص ، وخرج بحديثه عنها وانشغاله بها عن دائرته الضيقة التى أشرنا إليها فى مذهب عبد الله باشا فكرى ، ومن حذا حذوه من الكتاب .

وما من شك فى أن المجتمعات الإسلامية فى مختلف أقطار العالم الإسلامى كانت تعيش آنئذ ظروفا اجتماعية سيئة ، جاءت نتيجة لما جرى لهذه الأقطار من أحداث سياسية ، تمثلت فى فساد الحكام حينا وفى ضغوط الأعداء المتآمرين الذين استطاعوا أن يستغلوا خيرات هذه الأقطار ، وأن يقضوا على كيانها النفسى والمعنوى وأن يحولوا بينها وبين أن تنهض من كبوتها .

هذه الأحداث السياسية ولدت فى المجتمعات الإسلامية مشكلات طاحنة تمثلت فى انتشار الفقر وشيوع الجهل واستشراء المرض ، وما ترتب على هذا من انحرافات فى الخلق أدت إلى انحرافات فى السلوك ، بشكل مباشر ، وما ترتب عليه من تعلق بأذيال الحضارة الغربية حضارة الغالب وما فيها مما لا يتفق مع آداب الإسلام وأخلاقه ، بشكل غير مباشر ولكنه ملفت للنظر ومثير للتساؤل حقا .

مثير للتساؤل وبخاصة فيما يتصل بهذا الإقبال على الحضارة الغربية بكل ما فيها دون تمييز بين ما يتعارض فيها مع الإسلام أو ما لا يتعارض .

هذه الموضوعات الاجتماعية برزت بصورة أكثر وضوحا فى الفترة التى عاشها جمال الدين ، وأسهم جمال الدين فى إبرازها على نحو لم تألفه حياة الناس من قبل جمال الدين ، إذ حاول جمال الدين أن يثير هذه القضايا من منطلق الهجوم على الحكام الظالمين والمستعمرين المستغلين لخيرات البلاد ، وهو أسلوب لم يألفه الناس من قبل جمال الدين ، بل لم يجدوا من يجرؤ عليه هذه الجرأة .

ونستطيع أن نشير إلى هذه الموضوعات التى شغلت النثر الأدبى فى هذه الفترة فيما يأتى :

١ ـ الفقر :

وكان نتيجة طبيعية لتحكم فئة قليلة ظالمة من الناس فى خيرات الأمة ، مع تجاهل الكثرة الكاثرة من أبناء الأمة الذين لا يجدون ، مما ترتب عليه حياة أقرب ما تكون إلى نظم الاقطاع .

كما كان الفقر نتيجة لاستغلال الأجنبى لخيرات البلاد وتحويل كل مقدراتها لصالحه وصالح بلاده المستعمرة .

ثم هو نتيجة طبيعية للحكم الفاسد الذى يقوم على الاستبداد وتجاهل مصالح العامة ، ويتنكب أسلوب الإسلام ونظامه فى الحياة وفى سياسة الأحياء ، فللإسلام منهج يحارب كل ظلم وكل فساد وكل استبداد وكل أجنبى دخيل ، ويدعو إلى كل خير وينهى عن كل شر .

وفى كل مجال من هذه المجالات التى أدت إلى الفقر أو ساعدت على انتشاره كان لجمال الدين باع وذراع ، فلم يهاجم الحكام الظالمين أو المستعمرين أحد بمثل ما هاجمهم جمال الدين ، ولم ينبه الفلاحين والعمال إلى الثورة على الظالمين والإقطاعيين أحدٌ بمثل ما فعل جمال الدين ـ وليست كلماته وأحاديثه وخطبه فى هذا المجال ـ بعيدة عنا فى هذا البحث ، فإن الباب الثالث منه حافل بهذا وذاك وذلك .

٢ ـ الجهل :

ولم يكن من المتوقع مع أسلوب الحكم الفاسد المستبد المتعاون أحيانا مع عدو أجنبى دخيل ، أن يكون هناك اهتمام بالعلم والتعليم ، أو تكون رعاية من الدولة لمدارسه ومعاهده ، بل كان بعض الظالمين من الحكام توسوس لهم شياطينهم بأن انتشار التعليم سوف يكشف للمتعلمين من أبناء الشعب حقيقة الحكام ويعرفهم بحقوقهم فى أوطانهم ، ومن ثَم وقف بعض هؤلاء الحكام ضد العلم والتعليم ، بل إن بعض هؤلاء أغلق بيديه المدارس والمعاهد ودور التعليم .

ولعل فيما دار بين جمال الدين وتوفيق باشا ـ مما ذكرناه فى الموضوعات السياسية آنفا ـ ما يوضح رأى توفيق فى الشعب حين وصفه بأنه شعب جاهل خامل ٠

ولقد وقف جمال الدين من هذا الموضوع موقفا تحدى فيه الحكام الظالمين وتحدى فيه المستعمرين الذين افتتحوا من المدارس مايضر بالمتعلمين فيهـا فى دينهـم وفى وطنيتهم ، وأخذ يبصر الناس والناشئة منهم على وجه الخصوص بخطر الجهل من جهة وخطر الانجراف فى تيار الثقافة الغربية ـ دون تبصر أو تمييز ـ من جهة ثانية ٠

٣ ـ المرض :

من المعروف أن المرض نتيجة طبيعية لتفشى الفقر والجهل ، فبالفقر تسوء التغذية فتقل مناعة الجسم ضد ما يصيبه ، وتفتر العزائم والهمم ، وبالجهل يتخبط الناس فى مزيد من العادات السيئة التى تضر بأجسادهم ، وتصبح الوقاية من الأمراض عملا غير ممكن لكل جاهل ٠

وليس غريبـا مع الفقـر والجهـل أن تنتشر الأمـراض بل أفتـك الأمراض كالأوبئة وغيرها ، وهذا ما كان يعانى منه عدد من بلدان العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ٠

ولم يكن من هم الحكام الظالمين أو المستعمرين الأجانب أن يبذلوا جهوداً تحفظ على الناس أبدانهم أو تقيهم الأمراض والأوبئة ، فليس من مشروعات الحكومات آنئذ ما يعنى بهذا الجانب ، فيبنى المشافى ويدعم مشروعات النظافة أو مشروعات تنقية مياه الشرب أو غيرها مما يباعد بين الناس والأمراض والأوبئة ٠

ولم يسكت جمال الدين عن هؤلاء الحكام المهملين المقصرين وإنما وجه إليهم وإلى سياستهم مزيدا من النقد ومزيدا من الهجوم الضارى العنيف ، وشاركه فى ذلك عدد من تلاميذه ٠

٤ ـ الانحرافات الأخلاقية :

مع الحياة السياسية الفاسدة ، ومع المجتمع الذى يتفشى فيه الفقر ويعم الجهل وتنتشر الأمراض ، لابد أن ينحرف الناس عن جادة الأخلاق القويمة ، لأن هذا الانحراف يكون فى الغالب نتيجة للحكم الظالم ، ولسياسة الحكام المستبدين الذين يخضعون الناس لجبروتهم ويرهبونهم بقهرهم وعسفهم ، فما يسع الناس ـ والحال كذلك ـ إلا أن يتحلوا بالصفات التى ترضى هؤلاء الظالمين الجبارين ، حتى يعيشوا بمنجى من ظلمهم وقهرهم ، وأسواطهم وسجونهم وأذنابهم وعيونهم ، ولن تكون هذه الصفات إلا من الصفات الرذيلة مثل : النفاق ، والكذب ، والخداع ، والملق ، والذل ، والوصولية والأنانية .

ولابد ان يكون مع هذه الصفات صفات أخرى لا تقل عنها سوءا من سكوت عن الحق وممالأة للباطل وانتشار للرشوة ، وعدم مبالاة بالمصالح العامة ، وإهمال فى أداء العمل وقصور فيه وتقصير .

وكل ذلك على حساب المجتمع كله ، بل كل ذلك من السلبيات التى تعوق نمو المجتمع وتبدد ثروته ، وتزيد الغنى الظالم فيه غنى وظلما ، كما تزيد الفقير المستكين فقرا واستكانة .

ولا يرضى الحاكم الأجنبى الدخيل شىء مثل ما يرضيه أن يرى المجتمع الذى يسيطر عليه ويستغله قد انحرف عن جادة الخلق ، وقد ابتعد عن أدب الإسلام وهديه ، إنه عندئذ يصبح مجتمعا ضعيفا ذليلا خانعا ، يسهل على المستعمر أن يعيش فى بلاده وأن يستغل خيرات أرضه .

وتكون الصيحة الموقظة للناس الموجهة لهم نحو دينهم وقيمه الخلقية طعنة نافذة إلى سياسة المستعمر والحاكم الظالم ، سريعا ما يعملون على إخمادها .

وهكذا كان موقفهم من جمال الدين وما يقوله فى حديثه وخطبه ، ما يسمحون له بأن يستقر فى أرض ولا أن يمارس توجيهه ونصحه فى مكان ، وإنما جعلوه يعيش

شريدا طريدا من وطن إسلامى إلى وطن ، حتى ضاق عليه العيش فى معظم بلدان العالم الإسلامى ، فذهب إليهم فى عقر دارهم فى فرنسا وانجلترا ، ولم يخمد له صوت ولم تضعف له عزيمة وإنما كان دائما صاحب الأحاديث والخطب والمقالات التى تبصر المسلمين بأعدائهم وتعرفهم على ما فى واقعهم من انحراف عن دينهم وأخلاقه وآدابه .

ولعل فيما ذكرناه فى الفصل الثالث من الباب الثالث من هذا البحث ما يغنينا عن إعادته أو إعادة بعضه فى هذا المقام .

كذلك شارك جمال الدين فى حرب هذه الانحرافات الأخلاقية غير واحد من تلاميذه ومريديه .

٥ ـ الانخداع بالمدنية الغربية :

لما كان العالم الاسلامى يعيش ـ فى هذه الفترة ـ فريسة لهذا العدو الأجنبى الأوربى ، ولا يجد فكاكا من تبعيته له ولا مهربا من معاناته فى ظل هذا الاحتلال ، ولما كان هذا العدو من المكر والدهاء بحيث جعل من أهدافه تدمير معنويات المسلمين مع الاستيلاء على خيرات بلادهم .

لما كان الأمر كذلك اجتهد هذا العدو الأجنبى أن يوهم الشعوب المسلمة التى يحتل بلادها أن المدنية الغربية الغالبة القاهرة إنما وصلت إلى ما وصلت إليه من تقدم وقوة لأنها طرحت الدين جانبا ، ولقد نجح العدو فى الوصول إلى هذا الهدف عند بعض المسلمين وخصوصا من تثقفوا بثقافة العدو وآمنوا بمذهبه فى الحياة ومنهجه وأسلوبه فى العيش ، فما كان من هؤلاء إلا أن أخذوا يدعون إلى الارتماء فى هذه المدنية الجديدة متناسين مدنيتهم وحضارتهم ، زاعمين أن التمسك بمدنية الإسلام وحضارته لن يهيىء للمسلمين تقدما كالذى تهيئه لهم مدنية الغرب وحضارته ـ وهى دعاوى رددها أعداء الإسلام قديما وحديثا من مستشرقين ومبشرين ومستعمرين ـ وأرادوا بها

عزل المسلمين عن الإسلام سر قوتهم ، ليسهل عليهم حكم بلادهم واستغلال خيراتها ·

وكان من خطة العدو أن كل من تعلم فى بلاده وتثقف ثقافته ووالى مدنيته وحضارته ، يعود إلى موطنه الإسلامى ليتولى أعمال القيادة والإشراف والتوجيه ، ويعطى من المال والجاه والسلطان كفاء ما يتنكر لمدنيته وحضارته ·

كذلك كان المتخرجون فى المدارس التى يؤسسها المستعمرون ويطبقون فيها الخطط الأجنبية والمناهج الأجنبية يتولون من الأعمال وينالون من الأموال ما يميزهم عن غيرهم من إخوانهم أبناء البلاد وبخاصة تمييزهم عن من تعلموا فى الأزهر علوم الإسلام واللغة العربية ·

وكل ذلك من شأنه أن يباعد بين الناس ودينهم ، ويزيد من انحرافهم عن أخلاق الدين وآدابه ·

ولقد اهتم جمال الدين بهذا الموضوع وأولاه من عنايته فى حديثه وخطبه ومقالاته ما يستحق من رعاية ·

ولقد ذكرنا ما قاله جمال الدين فى المدنية الغربية وفى الناشئة الذين انخدعوا فيها فى الفصل الثالث من الباب الثالث من هذا البحث ونحسب أن فى العودة إليه ما يعرفنا بدقة على موقف جمال الدين من هذا الانحراف وحربه له بكل أسلوب ممكن ·

٦ ـ قضية المرأة :

وهى من أبرز القضايا التى فرضتها علينا مدنية الغرب وحضارته ، فلقد دأب الناس منذ القدم على أن يقلد المغلوب الغالب ، وأن ينبهر الضعيف بالقوى ، وأن يعجب صاحب الحياة البسيطة بصاحب الحياة المبهرجة المعقدة ·

وقد كان ذلك شأن الناس مع المدنية الغربية حينما غزت بلادنا ·

وكان من أبرز ما حاولنا أن نقلد فيه الغرب أن تكون نساؤنا كنسائهم فى السفور والمشاركة فى العمل وممارسة ما يناسبها من الأعمال وما لا يناسبها ·

ولقد حاول عدونا أن يخرج المرأة المسلمة عن سمتها الإسلامى وعن وظيفتها الأصيلة فى الحياة وهى الزوجية والأمومة وما تتطلبه هذه الوظيفة من ثقافة معينة ، وأن يعود بالمرأة المسلمة إلى حال هى أقرب ما تكون إلى الفوضى والتخلف منها إلى المدنية والتحضر .

فماذا بعد سفور المرأة وتهتكها على النحو الذى تشكو منه الآن بعض المجتمعات الأوربية ؟

ماذا بعد هجرها لبيتها وأمومتها لتصارع الحياة وتصارعها الحياة وتزحم وتزاحم ؟

ماذا بعد هذا إلا ضياع الأجيال الناشئة لفقدها لحنان الأمومة ومعطياتها الفطرية .

إن المرأة المسلمة مطالبة بأن تطلب العلم كالرجل ، ولكن العلم الذى يناسبها ويناسب وظيفتها فى الحياة وهى أشرف الوظائف وأنبلها تنشئة الأجيال وتربية الصغار والإشراف عليهم فى مختلف أطوار حياتهم التى تحتاج إلى إشراف .

ولقد بدأت قضية المرأة آنئذ بالدعوة إلى ضرورة أن تتعلم المرأة ؛ كأنها لم تكن تتلقى العلم فى معاهد ومدارس قبل ذلك بكثير !! ثم بالدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل .

كأنها تعيش فى ظل الإسلام غير متساوية مع الرجل فى الحقوق والواجبات كل فيما هيأه الله له !!

وكأن المرأة فى الإسلام قد حرمت من حقوقها فى التعلم وفى ممارسة الحياة !!

ثم تطورت القضية إلى الدعوة إلى سفور المرأة بدعوى تحريرها من إسار الحجاب وذل التستر عن أعين الأجانب عنها ، كأن الأصل فى المرأة أو فى المساواة المطلوبة لها أن تكشف ما أمر الله أن تستره وأن تسفر عما يوقعها ويوقع غيرها فى الإثم أو الحرج !!

وكان على رأس الداعين بأن تظل المرأة فى ظل الإسلام وفى هدى القرآن جمال الدين الأفغانى فى مقال له طويل نذكر منه قوله : « أما أمر مساواة المرأة بالرجل

والحجاب وهتكه وحقوق المرأة ٠٠ الخ فقد قرع آذانى مرارا وقرأت فى هذا الموضوع مقالات ورسائل ، ولكن لا أكتمكم أننى لم أعثر فى كل ذلك على مقال صريح أو تحديد لمطلب المساواة ، أو على بيان الغاية من هتك الحجاب أو الفائدة التى تترتب عليه أو تأتى من ورائه ٠

وعندى : لا مانع من السفور إذا لم يتخذ مطية للفجور ٠[1]

ولا أظن أن ضجيج بعض الناشئة فى الشرق والمتفرنجين منهم يقصدون بطلبهم مساواة المرأة مع الرجل فى التكوين ذلك لأنه ممتنع بل مستحيل فإذا صح هذا الامتناع من هذه الوجهة فلا مناص من أن تبقى المرأة كما هى مرأة تكوينا ، والرجل رجلا ٠٠

ثم يواصل ٠٠ فإذا شاركت المرأة الرجل فى الصناعات ٠٠ وهى لا تكون إلا خارج البيت ـ فمن يدير مملكة البيت ؟ ومن يربى الطفل ، ومن يحفظ فى لوحه الصقيل رسوم الشجاعة والفضيلة والإقدام غير المرأة ؟

ومن يربى أقيال الملوك فى أخلاقهم ، غير تلك الملكة وهى المرأة ؟ اللهم إذا أرادت أن تبقى ملكة لا أن تبقى ملكة وملكا فى آن واحد ٠

ليس من يحط من قدر المرأة ويمتهن خلقها ويدهورها لدركات الابتذال إلا ذلك الطائش المغرور الذى يغريها على ترك مملكتها « بيتها » وأن تزاحم الرجل فى سقائه بجلب العيش الذى لو فرضنا أنها أفادت بعض الفائدة المادية فيه ، وعاونت به لا شك أن الخسارة تكون من وراء تركها المنزل وتدبيره ، والطفل وتربيته أعظم بكثير من تلك المنفعة التى لا تبقى على الأخلاق ولا تفسد إلا الأنسال والأعراق ٠

أما رفع الحجاب فما رأيت لمن قال بلزومه وخطب فيه أو كتب أقل نفع له أو فائدة

---

١ ـ المقصود بالسفور كشف الوجه فقط . وهو جائز فى رأى بعض الفقهاء ما لم يؤد إلى فتنة . أما ما يفهم من السفور الآن فهو شئ يسمى تهتكا لأن المرأة كشفت شعرها وذراعيها وساقيها وكثيرا مما حرم الله كشفه من جسمها ٠

تأتى من ذاته أو من ورائه والذى أراه أن الحجاب ستار إذا رفع طفرة وفجأة إنما تظهر على الغالب من تحته شناعات الخلاعة والتبرج واستهوان[١] الفجور وعدم المبالاة بالرقابة العامة ، ولو اقتصر النساء على الاكتفاء بالسفور لم يتخذ كما قلنا مطية للفجور ، لما كان فى الأمر ما يحتاج إلى أخذ ورد ، ولكن إذا رأين السفور متممات لا تتم إلا فى خارج البيت فهناك الطامة وفواجع الطفرة واختلال التوازن فى أعمال الشريكين ·

ثم قال ـ رحم الله أبا الطيب المتنبى فإنه لو وجد فى زماننا ورأى مانراه من المتبرجات من شرقيات مقلدات للغربيات وغربيات بائحات ، وشرقيات وراءهن سائحات ، وبتسفلهن عاملات وبشططهن وإسرافهن آمرات فاعلات ، ومن الأخلاق الطاهرة ـ أخلاق البداوة السالمة الصحيحة ـ عاريات مارقات ، أظنه إنما كان يرى فى أخلاق نسوة « أهل الأنجلو سكسون » مجمل أخلاق البداوة ومحاسنها وصفاء عيش من يعمل بها ،ولرأى فى أكثر نسوة من سواهم تلك الحضارة السافلة ·

قيل لجمال الدين : إن الذين يطلبون مساواة المرأة بالرجل ، ودخولها فى معترك الحياة من كل وجهة إنما يحملهم عليه ما يقرأونه فى سيرة نساء المسلمين فى الصدر الأول ، وإن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ ركبت الجمل وشجعت فى الحرب وبرزت وخطبت ، كذلك نساء الصحابة كن يرافقن الجيش ويخضن المعامع ويخدمن الجرحى ·

قال : « غريب ما يقولون وما يدعون !!! إن ركوب السيدة عائشة الجمل ومرافقة نساء الأصحاب الجيش ، كل ذلك حالات استثنائية لا يصح أن تتخذ قاعدة تجرى عليها النساء فى كل حين ·

أما ركوب السيدة عائشة الجمل ، فقد تنبأ عنه المصطفى صلى الله عليه وسلم ،

---

١ ـ الصواب : واستهانة بالفجور

وذكر ذلك المركب الخشن وأنها ستنبحها كلاب حوشب .. الحديث . وليس فيه أدنى فخر لتتشبه به بقية النساء .

بقى علينا ذهاب نساء الأصحاب لساحات الحروب وخدمتهن الجيش وهو أمر مستحسن للتى لم يكن لها زوج مقعد ، أو والد أو والدة وأطفال لأن الجهاد وهو فرض ، فقد استثنى منه المعيل ، واشترط فيه إجازة الوالدين ، وإن خدمتها أولى من الذهاب للجهاد إذا هما لم يأذنا كما ورد فى الحديث وسيرة الأئمة .

هذا شأن الرجل فما بالك بالمرأة .

نعم : إذا لم يكن للمرأة مانع من الموانع أو كان زوجها أو ابنها أو أحد أقاربها اللّحُ فى الجيش ، وذهبت للخدمة بنية صالحة وذيل طاهر ، عد لها ذلك فضيلة وحسنة .

وبالاختصار ـ كما سبق القول ـ أن تلك حالات استثنائية لا يصح أن يؤخذ منها مساغ أو جواز للمرأة أن تبارح بيتها لتتشبه بالرجل فى خوض المهالك والمكاره ، وفطرة الله قد أغنتها عنها ، وكفتها شرها ، وما أسقمه رأيا وأبعده عن الصواب أن تبرز المرأة لتقتل أو تقتل ..»(١)

وبعد :

فهذه الموضوعات النابعة من المجتمع والمتأثرة بالتغيرات التى حدثت فيه وبخاصة ما جلبته علينا المدنية الأوربية الغازية ، هذه الموضوعات فرضت وجودها على النثر الأدبى ، ووجدت من كتابه تجاوبا واهتماما ، فأمدت النثر الأدبى بمادته ، وأمدها النثر الأدبى على ألسنة الكتاب والخطباء بما زادها أهمية وعمقا ، ونالت هذه الموضوعات على يد جمال الدين ومريديه اهتماما خاصا أبرز فيها الجانب الذى يقره الإسلام ويدعو إليه .

---

١ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى : ٦٧ ـ ٧٠

ج - الموضوعات الإسلامية

إذا كان جمال الدين قد خاض فى الموضوعات السياسية لأنه رجل سياسة ، واهتم بالموضوعات الاجتماعية لأنه مصلح اجتماعى له وزنه وخطره ، فإن الموضوعات الإسلامية الخالصة هى حصانه وسيفه وميدانه ·

فإذا دار جدل حول تعمق جمال الدين فى قضايا السياسة وإدراكه لأبعاد مسائل الاجتماع ومشكلاته ، فإن هناك تسليم من كل من عرف جمال الدين أو درس حياته ، بان تصدره للحديث عن القضايا الإسلامية يجعله من أولئك الأفذاذ القلائل الذين يقولون فى تلك القضايا ما هو حق وصواب وما هو موضع الرضا والإعجاب من معظم الفاهمين الواعين ·

هذه الموضوعات الإسلامية - التى تناولت شتى فروع الحياة - والتى تصدى لها جمال الدين بإيمان العالم وأمانته ، وبمنطق الفيلسوف وقوة حجته ، هذه الموضوعات حركها جمال الدين فى نفوس المسلمين بعامة وفى نفوس المصلحين منهم على وجه الخصوص ، حركها فيهم على نحو لم يشاركه فيه من علماء القرن الذى عاش فيه ، على نفس مستوى العمق والشمول والإيجابية التى أودعها جمال الدين فى هذه الموضوعات ·

فقد كانت لجمال الدين رؤية لأبعاد هذه المسائل والقضايا ربما لم تتوفر فى غيره من المصلحين ، الأمر الذى يجعلنا نقول بحق وصدق : إن جمال الدين واحد من أولئك الذين يبعثهم الله على رأس كل قرن ليجددوا للأمة الإسلامية دينها ، كما جاء فى الحديث الشريف : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »

وإذا كان القرن الثانى عشر الهجرى قد هيأ الله له من المجددين محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية ، وولى الله الدهلوى فى الهند ، فإن القرن الثالث عشر

الهجرى وإن هيأ الله له الشوكانى فى اليمن وجمال الدين الأفغانى فى أفغانستان وإيران ومصر وتركيا ـ أى فى أهم بلدان العالم الإسلامى آنذاك ـ إلا أن جمال الدين ينفرد عن الشوكانى بأن دعوته كانت تشمل الدين والدنيا معا ، هذا من جانب ·

ومن جانب ثان فإن جمال الدين لم تسيطر عليه شخصية بعينها يقلدها ويجمد عندما نادت به هذه الشخصية من أنواع الإصلاح ، كما فعل الشوكانى وهو يحذو حذو ابن تيميه بل يجمد على أفكاره لا يتجاوزها وإن فصل بين الرجلين أكثر من أربعة قرون فى تاريخ وفاتيهما · [1] وما قدر الشوكانى كم تفعل هذه القرون من تغيير فى الناس ومصالحهم ومقتضيات عيشهم والظروف العامة التى تحيط بهم والتى تتجدد كل حين ·

وليس مما يلام عليه جمال الدين أن أفكاره الإصلاحية الإسلامية كان يبثها فى الناس ثائرا مهيجا للعواطف كما وصفه بذلك كثير من مريديه وأعدائه ، لأن الإصلاح الإسلامى الذى أراده الرجل كان يتعارض مع مصالح المستعمرين المتجبرين الغاصبين ، وكان يقتضى هِمما وعزائم لها من القوة والمضاء ما يمكنها من مقاومة هذا العدو الغالب المعد أحسن إعداد مادى وعسكرى وما يكون ذلك فى البدء إلا بإثارة الخواطر وتهييج العواطف عند السامعين والقارئين ·

ولعلنا قد أوضحنا هذا الجانب من الموضوعات الإصلاحية الإسلامية التى أبرزها جمال الدين ونحن نتحدث عن جمال الدين المصلح المجدد لهذا الدين فى الباب الثالث من هذا البحث ، ولعلنا هناك قد أوضحنا كذلك إصرار جمال الدين على هذا الإصلاح ، وأوضحنا ما ارتآه من وسائل توصله إلى تحقيق أهدافه فى منطلقاته الإصلاحية تلك ·

ولكننى فى هذا المجال أحب أن أنبه إلى قضيتين هامتين شغلتا فكر جمال الدين

---

١ ـ توفى أحمد بن تيميه سنة ٧٢٨ هـ وتوفى الشوكانى سنة ١٢٥٠ هـ عليهما رحمة الله ·

الأفغانى ، وأثارتا فنونه النثرية من أحاديث ومقالات وخطب ، وأعطيتاه أبعادا إسلامية هامة يتحدث عنها ٠

هاتان القضيتان هما :

أولا : رد التهم والشبه التى أثارها أعداء الإسلام ؛ ضد الإسلام والمسلمين ، والتى يمكن أن نلخصها فى أن المسلمين ـ كما يزعم هؤلاء الأعداء ـ لا يتقدمون فى المدنية ولا يأخذون منها بالنصيب الوافر ، لأنهم يتمسكون بأصول دينهم ويحافظون على سننه وآدابه !!!

ولقد تصدى جمال الدين لهذه القضية وحشد لها من الأدلة والبراهين والشواهد ، ما يؤكد بطلانها وما تتضمنه من بهتان وافتيات على الحق وقد ذكرنا لجمال الدين ـ فى الفصل الأول والثالث من الباب الثالث من هذا البحث كثيرا من كلماته وأحاديثه ومقالاته فى هذا المجال ٠

والحق الذى نؤمن به : أن المسلمين إن كانوا فى هذا الواقع السيء الذى يعيشون والذى يحس به عدوهم وصديقهم ، فإن السبب فى ذلك ليس تمسكهم بدينهم ، وإنما إهمالهم هذا الدين وسننه وآدابه ٠

ولنا أن نتساءل قائلين : كم من الدول الإسلامية اليوم تحكم بما أنزل الله فى المواطنين المسلمين الذين تحكمهم ؟

وفى ضوء الإجابة نستطيع أن نعرف السر فى تأخر المسلمين وتفرق كلمتهم ، ووقوعهم فرائس لأعدائهم وأعداء دينهم من الشرق والغرب ٠

ثانيا : دعوته المستميتة وعمله الدائب على تقوية الروابط بين المسلمين بإزالة أسباب الخلاف أولا ، ثم بإزالة العدو الغاصب من ديارهم ثانيا ، ثم بتأمين المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة بين الدول الإسلامية كلها ثالثا ٠

ولقد صال جمال الدين فى هذه القضية وجال ، فدعا إلى الوحدة الإسلامية فى ظل القرآن ، واهتم كثيرا بتوضيح أسباب فشل الوحدة بين المسلمين وناقش نتائج بعد

المسلمين عن القرآن : ثم نادى بالجامعة الإسلامية ، ووقف فى وجه الأفكار المنحرفة عن الإسلام وقفة المصلح المؤمن ·

وقد ذكرنا من مقالاته وأحاديثه وخطبه فى هذا المجال ما نرى أنه يؤكد وقفته الجادة المستبصرة فى وجه دعاة الفرقة وتشتيت العالم الإسلامى واستغلال أرضه وخيراته ·

فإذا أضفنا إلى هاتين القضيتين ما سبق أن تحدثنا عنه وأيدناه بكلام جمال الدين حين ذكرنا منطلقات الإصلاح عنده وحصرناها فى تيارات ثلاثة :

أولها : الدعوة إلى الوحدة الإسلامية فى ظل القرآن الكريم وما دلت عليه هذه الدعوة من تجرده لقضية توحيد المسلمين وجمع شملهم ، وإدراكه العميق لأسباب تفرق المسلمين من عصبيات وإقليميات وتقصير من الحكام والعلماء ·

وثانيها : مقاومته لأعداء الأمة الإسلامية من إنجليز وفرنسيين واستعدائه المسلمين على هؤلاء الأعداء ، ووقوفه أمام خططهم ومؤامراتهم وقوف المؤمن المخلص المصلح الصادق الأمين ·

وثالثها : تصديه للفكر المنحرف عن الإسلام سواء كان ذلك فى شكل حركات هدامة كالبابية والدهرية ، أو فى شكل فكر منحرف عن الإسلام كالقول بسد باب الاجتهاد ومحاولة إقصاء لغة القرآن ، والفهم الخاطىء لتمسك المسلمين بدينهم ورميهم بالتعصب ، أو كان فى شكل مدنية زائفة تغزو فكر المسلمين وبلادهم وتحاول أن تقصيهم عن دينهم بإغراقهم فى لجج هذه المدنية ·

هاتان القضيتان وتلك المنطلقات الثلاثة وما تفرع عن كل منطلق منها من موضوعات ، كانت الموضوعات الإسلامية الخالصة التى تحدث فيها جمال الدين وكتب وخطب ، وجاء نثره الأدبى محتفلا بها ، حريصا على تسجيلها وعلى إبداء الرأى الإسلامى فيها ·

وبعد :

فإن جمال الدين الأفغانى المحدث الخطيب ، قد استطاع أن يسخر أحاديثه وخطبه لما يؤمن به من إصلاح وما يحاوله من تجديد ، مما يؤكد لدىّ أن الأديب المسلم الملتزم لا يرى إلا من خلال دينه ومنهج هذا الدين ، ولا يحكم على شيء إلا من خلال حكم الدين على هذا الشيء ·

ولعلنا فى هذا الفصل من البحث قد أكدنا ذلك ودعمناه بالشواهد والبراهين من النصوص التى قالها جمال الدين ·

من خطابات جمال الدين[1]

مولاى : أنت الحق وأنت مع الحق أينما كان لا تحيد من الرشد ولا تميد عن السداد ، ولا تتهاون فى فريضة العدل ، ولا تقصر فى واجبات كمال النفس وطهارتها وتصدع بالصدق وتقول الحق ، لا يأخذك فيه لومة لائم ، ولا يلويك عنه هيبة ظالم ولا يصدك خشية غاشم ، ولا تكتم شهادة خوفا من الجائرين واسترضاء للخائنين ، وأنت كنت تعلم حقيقة مجلسنا وأساسه وسبب وقوع الفساد فيه ، ما خفى عليك شيء ، وكنت عارفا بواقع أمرى مطلعا على سريرتى وسرى .. فكيف صبرت مع كونك مجبولا على الحق مقسورا على حمايته أن ينسب إلى عثمان باشا الضابط ما نسب من الأكاذيب والافتعالات ، وقال افتراء وكذبا أنى كنت رئيسا على مجمع قد وضع أساسه على فساد الدين والدنيا حتى أذعن الخديو بلا روية إلى قوله فأمر بنفيى بأشنع صوره .

أمثلك يهاب أن يقول الحق ويخشى أن يصدع بالصدق ؟

أمثلك يكتم الشهادة ؟ أمثلك يرى الظلم ويتهاون فى رفعه ؟ ويتقاصر فى دفعه ؟ حاشاك حاشاك ، ما هكذا الظن بك ..

ثم يا مولاى أرسلت « العارف » إلى صاحب الدولة رياض باشا لقبض أموالى وكتبى التى بقيت فى مصر ، فأرجو رجاء من يعتقد أنك أمل لكل من تنظر إليه بنظر عنايتك كما هو سجيتك وعادتك ـ وأنا الآن فى القنال أذهب إلى لندن ومنهـا إلى باريس مسلما عليكم سلام المشتاق إليكم .

---

١ ـ لوحة ١٢ تصوير ٣٢ : مجموعة إسناد ومدارك جاب نشده دربارة سيد جمال الدين مشهور به أفغانى جمع آورى وتنظيم : أصغر مهدوى ـ إيرج أفشار ١٣٤٢ جانجانه دانشكاه نهران .

الفصل الثالث :

جمال الدين الأديب الإسلامى

ويتناول :

١ ـ الأدب الإسلامى والأديب الإسلامى .

٢ ـ جمال الدين والصحافة .

٣ ـ جمال الدين والقصة .

٤ ـ خصائص أسلوبه فى الكتابة .

ويشمل :

أ ـ من ناحية الألفاظ والعبارات .

ب ـ من ناحية الأفكار والمعانى .

جـ ـ مآخذ لغوية على أسلوبه .

د ـ الطابع العام لأسلوبه .

١ ـ الأدب الإسلامى والأديب الإسلامى

قبل أن أتحدث عن الأديب الإسلامى أرى من الضرورى أن أتحـدث عن الأدب الإسلامى ، لألقى ضوءا على مفهوم هذه الكلمة وأبعادها ، كما بدت لى ، فأقول :

كانت كلمة « الأدب » بمعناها العام تدل على الخلق الكريم النبيل ، وما يتركه من أثر فى الحياة العامة والخاصة .

وإذا كان المعنى الحقيقى للأدب يتصف بطابع عملى ، فإن له معنى مجازيا يدل به على جملة المعارف التى تسمو بالذهن والتى تبدو أكثر صلاحية فى تحسين العلاقات الاجتماعية ، وخاصة اللغة والشعر وما يتصل به[١] وأخبار العرب فى الجاهلية .[٢]

إذا كان للأدب هذا المعنى الحقيقى وذاك المعنى المجازى ، فإن تاريخ كلمة « أدب» يعد مرآة لتطور الثقافة العربية من أصولها الجاهلية حتى اليوم ، وهو يفصح عن هذا التطور إفصاحا يوازى ما يفصح عنه تاريخ كلمتى « علم » و« دين » بل يفوقه إفصاحا[٣] .

ويرى بعم المستشرقين أن الأدب يدل على : الصفة الكريمة للنفس وطيب النشأة والتحضر والظرف » وإذا سلم بهذا المعنى فإن الأدب يرادف تهذيب أخلاق البدوى وعاداته بالإسلام[٤] .

---

١ ـ أى بالذهن .

٢ ـ البغدادى : خزانة الأدب : بتصرف : ٤ / ١٢٤ .

٣ ـ دائرة المعارف الإسلامية : مادة أدب : ٢ / ٤٦٨ ط دار الشعب ـ القاهرة .

٤ ـ السابق : ٢ / ٤٦٨ Hand Book. Wensinck

وأيًّا ما كان معنى الأدب الحقيقى أو المجازى العملى أو الثقافى الحضارى ، فإن هذا العصر الذى نعيش فيه ، قد ظهرت فيه فكرة تنادى بالأدب الإسلامى وتقوم على أساس أن الأدب الإسلامى يجب أن يفرض نفسه على المجتمعات الإسلامية ، وأن يكون نافذة على القيم الإسلامية البناءة للمجتمع ، وتوجب على الأديب أن يصدر فى كل إنتاجه الأدبى عن المثل الإسلامية ، بحيث لا يخالف هذه المثل فى صغير ولا كبير .

هذه الفكرة ـ وإن أدت إليها وإلى وجودها تلك الانتفاضة الإسلامية التى مهد لها المصلحون الإسلاميون فى القرنين الهجريين الأخيرين من أمثال محمد بن عبدالوهاب وجمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده وأبى الأعلى المودودى وأبى الحسن الندوى وحسن البنا وغيرهم ، وأسهم فيها أدباء ومسلمون امتلأ أدبهم بالاتجاهات الإسلامية من أمثال : محمد إقبال ومصطفى صادق الرافعى وأحمد محرم وعباس محمود العقاد ـ هذه الفكرة وإن جاءت نتيجة لتلك الانتفاضة إلا أنها أصبحت ـ بعد أن أسهم فيها هؤلاء الأدباء بأدبهم ـ تيارا قويا يسرى فى الشباب المسلم الواعى المقبل على دينه المؤمن بأن خيره فى حاضره ومستقبله هو فى الأخذ بمنهج هذا الدين والعمل وفق نظامه وآدابه .

ولأن هذا التيار ـ فى تقديرى ـ يجب أن يشق أنسب مجاريه وأن يصل إلى غاياته ، دون أن تضل به منعرجات هنا ومنحنيات هناك ، أجد من الضرورى فى هذا البحث ـ الذى أعدّه هو وسابقه[1] عن الرافعى ـ جزءاً من هذا التيار ـ أن ألقى بعض الضوء الكاشف على الأدب الإسلامى كما أتصوره وكما يجب أن يكون .

فأقول مستلهما توفيق الله سبحانه

---

١ ـ البحث السابق : هو : نحو أدب إسلامى معاصر : مصطفى صادق الرافعى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه ـ نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٣٩٥ هـ .

الأدب الإسلامى ـ كما أتصور ـ هو الأدب الذى يصدر عن القيم الإسلامية ويمجدها ، ويحاول غرسها فى نفوس الناس ٠

ومن هذا التحديد ، نستطيع أن نقول مطمئنين : إن أى فن من فنون الأدب وأجناسه فى الشعر والنثر ، إذا اشتملت على شىء مما يخالف نهج الإسلام ، فليست من الأدب الإسلامى الذى نريده٠

وعلى ضوء هذا فإن شعر الهجاء ، وشعر المديح ـ القائم على الملق أو النفاق ـ وشعر الغزل ـ الخارج عن حدود الخلق الإسلامى ـ لا ينبغى أن يعد من الأدب الإسلامى فى شىء ٠

كما أن القصص الذى يثير الغرائز ويكشف عن المباذل والمساخر ، لا يجوز أن يعد من الأدب الإسلامى كذلك ٠

والأدب الذى ينزل فيه كاتبه ـ وهو ينقد عمل أديب آخر ـ إلى مستوى من القول لا يقره الإسلام ، ولو فى كلمات قارسة تلجئه إليها المنافسات أو المناقشات ، دون تقيد بما أحل الله وما حرم ـ فليس من الأدب الإسلامى فى قليل أو كثير ٠

« الأدب الإسلامى بعد هذا التحديد ـ هو ذلك الأدب الذى أنتجته عقول الأدباء المسلمين الملتزمين فى فكرهم بالإسلام ومنهجه ونظرته إلى الحياة والأحياء ، الإسلام الذى جاد به القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وليس الإسلام ـ الحديث ـ كما يهرف بذلك من لا يعرف من الكتاب مسلمين وغير مسلمين ٠

هو ذلك الأدب الذى يعبر عن هذا الوجود كله من زاوية التصور الإسلامى الصحيح لهذا الوجود ٠

هو التعبير الجميل الموحى عن الحياة والأحياء من خلال النظرة الإسلامية الجميلة ـ دائما ـ عن الحياة والأحياء ٠

الأدب الإسلامى هو ذلك الأدب الذى يلتقى فيه الحق بالجمال . الحق بكل ما يذخر به من مثل عالية وقيم رفيعة بناءة للحياة والأحياء ، والجمال بكل ما أودع

فيه من صفات تجبب فيه نفوس الناس كما فطرها الله على الصفاء وحب الحياة والأحياء ـ دون أن تلوث هذا الجمال تذييفات المزيفين ، ودون أن تشوه نفوس الناس أطماع أو أحقاد .

كل قيمة إسلامية فى هذه الحياة ـ وأكثر ما فى الحياة من شىء جعل الإسلام له قيمة ـ تحرك الأديب المسلم وتهز أعماقه وتدفعه دفعا إلى أن يعبر عن مكنوناته ومشاعره نحوها فى تلك العبارات الموحية الهادفة التى تستحق أن تسمى أدبا إسلاميا[1] .

والأديب الإسلامى ـ بناء على هذا التصور ـ هو من يلتزم بمنهج الإسلام وقيمه ومثله فى كل ما يقول ، ومن يلتزم وسائل الإسلام وأهدافه فى بناء المجتمع وتوجيهه ونقده وتحديد معالم النهضة والإصلاح فيه .

من هذين الحدين للأدب الاسلامى وللأديب الاسلامى سوف ننظر إلى جمال الدين الافغانى فى هذا الفصل من البحث بإذن الله تعالى .

ولا أحب أن يفوتنى الآن التنبيه على أمر ـ هو عندى ذى بال ، وهو أن كثيرين من الكتاب والشعراء الذين يوصفون ـ عند بعض النقاد ـ بأنهم أدباء إسلاميون ، وهم ليسوا كذلك بمقتضى ما حددناه للأدب الإسلامى من معنى وما حددناه للأديب الإسلامى من إطار يحيط به وفلك يدور فيه بل الأولى أن يقال عن هؤلاء : أدباء مسلمون ـ طالما لم يلتزموا الحدود التى أوضحنا فى الأدب الإسلامى ـ والفرق بيِّن لكل ذى تمييز .

كذلك الأمر بالنسبة لحصيلة هائلة من الأدب فى عصور متعددة يطلق عليها بعض الناس أدبا إسلاميا والأولى أن نطلق على تلك الحصيلة : « أدب مسلمين » طالما أن هذه الحصيلة لم تلتزم أدب الإسلام وخلقه ، فامتزجت فيها القيم الإسلامية بغير ما هو إسلامي كالفحش فى القول ـ هجاء وغزلاً ومجونا ـ أو النفاق والملق أو مدح الناس بما ليس فيهم ، إذ كيف والحال هكذا نسميه أدبا إسلاميا ؟

وكيف نسمى أديبا يسف فى استخدام ألفاظه وعباراته ، ويتهم الناس بالباطل ،

---

١ ـ المؤلف : نحو أدب إسلامى معاصر : مصطفى صادق الرافعى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه . ٢٢ ط ١٣٩٥ هـ .

ويكشف عورات المسلمين ، بينما هو مأمور من الشرع أن يسترها ، فضلا عن آخر يتتبع عورات المسلمين فى شعره أو نثره ، كيف نسمى هذا أديبا إسلاميا ؟

كما أحب ـ هنا ـ أن أثير قضية تعد فيما أنا بصدده عن جمال الدين الأديب الإسلامى ـ من أهم القضايا ، وهى قضية الأدب ومدى صلته بالإسلام ، أو قضية صبغ الأدب بالصبغة الإسلامية ، كما يجب أن تصبغ كل ألوان الحياة فى المجتمع المسلم ·

فأقول :

نحن معشر المسلمين نعلم أن ديننا الإسلامى ميز هذه الأمة التى تنتمى إليه بأنها خير أمة أخرجت للناس ، ذلك أن المبدأ الذى تدين به وهو دين الإسلام ، فيه من العمومية والشمول والإحاطة ما ليس فى مبدأ سواه ، وأنه مع هذه العمومية والشمول صالح لكل زمان ومكان ، وأن هذا الدين قد خصه الله بمنهج شامل متكامل هو القرآن الكريم الذى حمل إلى الأمة الإسلامية تبيانا لكل شىء ، وكان ومازال وسيظل الهدى والنور فى كل أمر وفى كل طريق ·

وقد حمل القرآن بهذا وذاك البشرى للمسلمين العاملين بمنهجه السائرين فى دربه ، فى قوله سبحانه : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين »[1] ·

وإذا كان الأدب تصويرا للحياة وتوجيها لها ، فإن هذه الحياة ، فى المجتمعات المسلمة حياة إسلامية رسم الإسلام أبعادها ووضح حدودها ، والأدب حين يصور هذه الحياة الإسلامية أو حين يوجه حياة المسلمين نحو ما يطالبهم به دينهم ، فإنما هو أدب إسلامى حق ·

فإذا حاول الأديب الإسلامى أن يصور حياة غير إسلامية ، ليبرز من خلال أدبه

---

١ ـ المؤلف : مع العقيدة والحركة والمنهج فى خير أمة اخرجت للناس · نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٣٩٨ هـ ·

وفنه سلبيات تلك الحياة ، مبصرا للمسلمين ، محذرا لهم من أن ينخدعوا بها أو ينسجوا على منوالها ، فهو أديب إسلامى كذلك .

بل إن الأديب الإسلامى عندما يتناول فى أدبه ظاهرة من الظواهر الاجتماعية المنحرفة عن الإسلام ـ فى مجتمع مسلم ـ ليوضح للناس هذا الانحراف ويبين لهم عيوبه ، فهو أديب إسلامى فيما يقول .

ولسنا نخشى على أديب إسلامى عندما ينهج فى أدبه هذا النهج أن يتحول إلى واعظ من أولئك الثقلاء المنفرين الذين لا همّ لهم إلا رمى الناس بالقصور والتقصير ، وإبراز عيوبهم فى أسلوب استعلائى منفر ، ذلك أننا لا نتصور الأديب الإسلامى الحق عاجزا عن أن يعرف الأسلوب الملائم الذى يجعل كلامه متقبلا عند سامعيه ، كما لا نتصوره غافلا عن استخدام الجنس الأدبى من شعر أو قصة أو مسرحية أو غيرها مما يراه أدخل فى نفوس الناس وأقرب إلى قلوبهم وعواطفهم .

ولسنا مع من يقولون بثقل الوعظ عموما وعدم تقبل الوعاظ ، لأن الموعظة الحسنة مجال من مجالات الدعوة وأسلوب جيد من أساليب تقويم الأخلاق والسلوك .

ولقد تحدث الله سبحانه عن الوعظ فى خمس وعشرين آية فى القرآن الكريم . بل إنه سبحانه قد سمى كتابه الكريم كله موعظة فقال سبحانه :

« يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين »[١] .

وقال عن القرآن الكريم : « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين »[٢] وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم ـ والأمر لكل داع إلى الله من بعد ـ أن يدعو الناس إلى الله بأساليب ثلاثة مجتمعة أو متفرقة : الحكمة المصحوبة بالدليل والبرهان ، والموعظة الحسنة المدعومة بالعبرة المؤثرة ، والجدال المقنع بالطريقة الأحسن ، فقال سبحانه

---

١ ـ سورة يونس : الآية ٥٧ .

٢ ـ سورة آل عمران : الآية ١٣٨ .

وتعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »[1] .

وليس لدينا بعد هذا البيان قبول لقولهم أن أسلوب الوعظ ثقيل على النفوس ، ولا ادعاؤهم أن الناس ينفرون من الوعظ أبدا .

الأديب الإسلامى القادر على اختيار الجنس الأدبى الملائم للناس وعلى انتقاء الأسلوب الأدبى الأدخل فى عقولهم وقلوبهم لا عليه بعد ذلك أن يتحدث عن المبادئ التى ينادى بها والقيم التى يدعو إليهابشكل مباشر كما لو كان يعظ ، أو بشكل غير مباشر حينما يستعين بالرمز والإشارة فى أدبه فيجذب الناس إلى ما يريد لهم من خير .

ولنا ـ بعد هذا العرض الوجيز ـ أن نقول : إن الأدب يجب أن يكون فى خدمة الإسلام ، وأن يرتبط بمبادئه ، وأن يدعو لها عن طريق الإعلان عن هذه المبادئ والتعريف بها والإغراء بمعطياتها حينا ، وعن طريق علاج النفوس وتطهيرها من كل ما يخالف هذه المبادئ من شرور وآثام بما يقدمه الأدب من فنون وأجناس ، وما يختاره من أساليب .

والأديب الإسلامى هو الذى يستطيع بأدبه أن يهز مشاعر الناس بما يعرض من أحداث فى قصصه أو مسرحياته أو شعره ، وهو بذلك لابد أن يترك أثرا باقيا فى النفوس مادام أديبا أصيلا يعرف ما يجب عليه .

وليس فى قولنا هذا ما يشير من قريب أو من بعيد إلى أننا ندعو إلى أن يصبح الأدب بمعزل عن التعبير عن عواطف الأديب الشخصية ومشاعره الخاصة ، ذلك أن الأديب الذى نتحدث عنه أديب مسلم ، فهو حين يعبر لا يعبر عن عواطفه فحسب ، إنما سينتج من خلال هذه العواطف التى صور ، وهذه المشاعر التى رسم أدبا موضوعيا يعالج ويقوم ويوجه من خلال تصوير هذه العواطف الشخصية .

ولسنا نرى أن يتحول الأدب الاسلامـى إلى ما عرف فى هذا العصر بأدب

---

١ ـ سورة النحل : الآية : ١٢٥ .

الكفاح أو الأدب الاجتماعى كما ينادى بذلك بعض الاشتراكيين لأن هذا اللون من الأدب ، وإن لم يتعارض فى كثير من الأحيان مع ما نريد من الأدب الإسلامى ، إلا أنه يهمل الجانب الذاتى للأديب وهو ما لا نحب أن يهمل .

والخلاصة التى نريد أن نصل إليها من هذا الكلام أن الأدب الإسلامى ـ كما نرى ـ ليس أدبا « رومانتيكيا » يتخذ من التعبير عن المشاعر الشخصية والأنات الشعورية هدفا وغاية .

وليس الأدب الإسلامى ـ كذلك ـ منتميا إلى ما يقال عنه : مذهب الفن للفن الذى يرى أن من حق الأدب أن يصبح غاية فى ذاته وفنا للفن وكفى .

وإنما الذى نريد أن يجمع الأدب الإسلامى بين المذهبين ـ فيعبر الأديب الإسلامى عن مشاعره الخاصة وعواطفه الشخصية ليرقى بذلك مشاعر الآخرين وعواطفهم من خلال نظراته الموضوعية فيما يثير من أحاديث وأحداث حول عواطفه ومشاعره ، ولا يكون الأدب لذات الأدب ولا الفن لذات الفن إلا من خلال ما يمكن أن يقدم الأديب من تجربة نافعة فى هذا المجال .

وبعد : فما نشك فى أن الحركة الأدبية فى العصر الحديث قد نهضت إلى حد يلفت الأنظار ، وأن الأدب فى هذا العصر قد أصبح حقا أدبا حيا قويا مقوما موجها ، وبخاصة إذا قورن بعصور الأدب العربى الأخرى .

وما نشك كذلك فى أن الموضوعات التى عالجها الأدب شعره ونثره فى هذا العصر ، سواء أكانت موضوعات اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو أدبية ، إنما تعكس بصدق حيوية هذا الأدب وأصالته وقدرته على تصوير الحياة المعاصرة وعلى توجيهها وتقويمها .

وما نشك فى أن البحث وراء هذه النهضة الأدبية للتعرف على أسبابها وبواعثها ، وعلى الروح التى بعثت فى الشرق الإسلامى هذه الرغبة الدافقة فى الوحدة الإسلامية ، وفى ضرورة العودة إلى ظلال القرآن ، وعلى الدوافع الحقيقية لهذه اليقظة

القوية التى استهدفت التخلص من كل حاكم مستبد ، ومقاومة كل ظالم مستغل ، وعلى السر فى ذلك الإصرار على التخلص من نفوذ الأجنبى فى بلاد المسلمين ·

لانشك فى أن البحث عن كل ذلك يقفنا فى النهاية على أن جمال الدين الأفغانى كان وراء كل سبب وباعث ، وكان محرك كل روح طامحة وكل رغبة فى الحق قوية ، وأنه كان فاتحة خير وحرية ورقى لهذه الفترة الزمنية التى عاشها - بغض النظر عما تسببت فيه للرجل من أزمات آنية ومشكلات سياسية كبيرة ·

فكل يقظة إسلامية فى العالم الإسلامى الذى عاش فيه جمال الدين مدينة له ولفكره ولكتاباته وأحاديثه وخطبه ومقالاته ·

وكل القيادات السياسية الإسلامية فى رقعة العالم الإسلامى كله مدينة فى تنورها وفى جرأتها فى الحق وفى قدرتها على مواجهة الحكام المستبدين والمستعمرين الدخلاء ، مدينة فى كل ذلك لهذا الرجل المصلح المجدد جمال الدين الذى لم يعرف الخوف من حاكم ظالم ولم يهادن مستعمرا أجنبيا ·

وكل القيادات الفكرية الإسلامية فى العالم الإسلامى كله آنئذ - القيادات التى استطاعت أن تقف فى وجه الظلم والبغى والانحراف عن جادة الإسلام بما أعطت من فنون أدبية فى الشعر والنثر والخطابة فألهبت بها عواطف الناس ووجهتهم نحو ما يجب أن يتجهوا إليه ، كل تلك القيادات مدينة فى كل ذلك لجمال الدين الأفغانى ·

حتى أولئك الأعلام الذين سمعنا عنهم فى تلك الفترة فى مجالات العلم والسياسة والأدب من أمثال : الشيخ محمد عبده ، وعبدالكريم سلمان وإبراهيم اللقانى وسعد زغلول وإبراهيم طلباوى ومحمود سامى البارودى وعبدالسلام المويلحى وإبراهيم المويلحى ، وعلى مظهر ، وسليم نقاش وأديب إسحق ويعقوب صنوع ، كل هؤلاء كانوا أقرب إلى جمال الدين واستطاعوا أن يستفيدوا منه ما لم يستفيدوه من سواه ، بل كانوا به وبتوجيهاته السديدة وآرائه الصائبة أعلاما فى مجالاتهم المتعددة ·

يقول عنه الإمام محمد عبده فى ترجمته له : لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل

أو يطهر العقيدة أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور أو يستلفت الفكر إلى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ، وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة[١] .

والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر وتنبهت عقول وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد خصوصا فى القاهرة .

... وأخذ الشيخ جمال الدين فى حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير وإنشاء الفصول الأدبية والعلمية فى مواضيع[٢] مختلفة لا تخرج جامعتها عن إصلاح الأفكار وتهذيب الأخلاق ، فتسابقت إلى ذلك الكتاب وتبارت الأقلام وأخذت الحرية الفكرية تظهر فى الجرائد إلى درجة يظن الناظر فيها أنه فى عالم خيال ، أو فى أرض غير أرض الخبال ومن يطلع على إعداد جريدة مصر وجريدة التجارة وجريدة مرآة الشرق والأهرام وصداها ، يرى حقيقة ما ذكرنا[٣] .

ثم يعلق الشيخ رشيد رضا على ذلك بقوله : « انتهى ما أردنا نقله من كتاب أسباب الحوادث العرابية ، وهو على إيجازه صريح فى أن السيد جمال الدين كان هو مبدأ هذه النهضة الفكرية فى مصر .

وكان بعد ذلك يغذيها بإرشاده وجرائد تلاميذه حتى صار له حزب سياسى عظيم فى ذلك الحزب الأدبى الذى لم يكن يخطر على البال[٤] .

وما دمنا بصدد الحديث عن جمال الدين الأديب الإسلامى ، فلا بأس أن نذكر ما قاله عنه تلميذه وصفيه الشيخ الإمام محمد عبده ، وهو يتحدث عن قدرته الأدبية ، قال : « ... له سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى الصورة اللائقة بها، كأن

---

١ ـ يقصد : العطلة الدراسية .

٢ ـ الأفصح : موضوعات .

٣ ـ محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام : ١/٣٧ ـ ٣٨. ط القاهرة ١٣٥٠ هـ

٤ ـ السابق : ١ / ٣٨ .

كل معنى خلق له ، وله قوة فى حل ما يعضل منها ، كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها ٠

كل موضوع يلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه ، فيأتى على أطرافه ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه ، فيظهر المستور منه ، وإذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ، ثم له فى باب الشعريات قدرة على الاختراع كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع ٠

ويؤكد الشيخ محمد عبده ريادة جمال الدين فى فن الكتابة ورياسته وأنه أستاذ جيل ومعلم جهابذة من الكتاب. فيقول : « كان أرباب العلم فى الديار المصرية القادرون على الإجادة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل ٠

وما كنا نعرف منهم إلا : عبدالله باشا فكرى ، وخيرى باشا ، ومحمد باشا سيد أحمد - على ضعف فيه - ومصطفى باشا وهبى - على تخصص فيه - ومن عدا هؤلاء ، فإما ساجعون فى المراسلات الخاصة ، وإما مصنفون فى بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها ٠

ومن عشر سنوات ترى كَتَبَةً فى القطر المصرى لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم ، وأغلبهم أحداث فى السن شيوخ فى الصنعة ، وما منهم إلا أخذ عنه أو عن أحد تلاميذه أو قلد المتصلين به»[١]٠

وبعد : فإن جمال الدين الأفغانى هو الأديب الإسلامى الحق بكل ما تحمله الكلمة من صفات تحدثنا عنها فى هذا البحث ٠

---

١ - عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث : ١/ ٢٦٧ ط الثامنة ٠ ١٩٧٠ القاهرة ٠

٢ ـ جمال الدين والصحافة

تحدثنا فى الفصل الأول من هذا الباب[١] وهو فصل « جمال الدين وأدب المقالة » عن جهود جمال الدين فى الصحافة ، وأوضحنا هناك كيف عاون عددا من الصحفيين على أن يصدروا صحفا وكيف وجههم لأسلوب الكتابة الملائم للموضوعات التى يجب أن يطرقوها ، وكيف أيدهم بعدد من مقالاته التى كان يوقعها باسمه حينا وباسم مستعار حينا آخر ·

وسنحاول فى هذا المجال أن نتعرف على جمال الدين الأديب الصحفى ، الذى بذل فى أدب الصحافة جهدا جعله ينفرد بين كتاب الصحافة فى عصره بأنه شيخ وإمام ، سواء أكانت تلك المشيخة أو هذه الإمامة ، تقاس بعدد المقالات الصحفية ، أو تقاس بأثر هذه المقالات ·

وأحب ـ بين يدى هذا الحديث عن جمال الدين والصحافة ـ أن أشير بكلمات قصار إلى فن الصحافة وأثره فى الفترة التى سبقت حياة جمال الدين ، لعلى بذلك أجلى موقف الرجل وأكشف عن مواهبه وقدراته فى هذا المجال ·

فأقول :

من معالم العصر الحديث ـ الذى أوشك أن يبلغ من العمر قرنين من الزمان حتى الآن ـ التى تميزه عن كل عصر سبقه من عصور أدب اللغة العربية : الصحافة ·

فقد أسهمت هذه الصحافة إسهاما حقيقيا فى النهضة السياسية والاجتماعية وكانت من أبرز أسباب النهضة الأدبية ·

---

١ ـ الباب الرابع والأخير من البحث : وهو جمال الدين الأديب الإسلامى ·

وقد جرنى ما للصحافة من أهمية فى تطوير الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية إلى أن تحدث عن تاريخها فى العصر الحديث ، فأقول :

إن أول جريدة صدرت باللغة العربية فى العالم الإسلامى كله ـ فى هذا العصر الذى نتحدث عنه هى جريدة « الحوادث اليومية » التى كان يحررها إسماعيل بن سعد الخشاب ، وتعد هذه الجريدة جدة الصحف فى لغة الناطقين بالضاد .

وكانت هذه الجريدة تطبع فى المطبعة التى أحضرتها الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٩ م .

وكانت البعثة العلمية التى رافقت حملة « نابليون » على مصر هى التى نشرت جريدة الحوادث اليومية باللغة العربية .

كما نشرت جريدتين أخريين أصدرتهما باللغة الفرنسية وهما :

١ ـ بريد مصر[١] .

٢ ـ العشار المصرى[٢] .

غير أن هذه الصحف الثلاثة توقفت برجوع الحملة الفرنسية إلى بلادها سنة ١٨٠١ م[٣] .

وما نشك فى أن هذه الصحف ـ وإن لم تعش طويلا ـ قد نبهت إلى أهمية هذا النوع من الاتصال بالناس ، ومخاطبتهم ، والحديث إليهم فى كثير مما له أهمية فى حياة الإنسان .

فلما كان عهد محمد على باشا ـ عقب الحملة الفرنسية ـ أسس مطبعة بولاق سنة ١٢٣٨ هـ ـ ١٨٢٢ م .

---

١ ـ Le Courrier de L'egypte

٢ ـ Le dècade Egyptienne

٣ ـ فليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية : ٤٥/١

ولقد أسهمت هذه المطبعة فى خدمة العلم والأدب والتراث لكل الناطقين باللغة العربية فى العالم العربى وفى عدد من بلدان العالم الإسلامى ٠

ثم رأى محمد على أن الحاجة ماسة إلى إيجاد جريدة تقوم بنشر أوامر الحكومة وإذاعة إعلاناتها ، وسائر الحوادث ، فأنشأ فى ١٨٢٨/١١/٢٠ م جريدة « الوقائع المصرية » وعاونه فى ذلك كلوت بك مؤسس مدرسة « قصر العينى الطبية » ٠

وقد فوض محمد على باشا إدارة هذه الجريدة إلى رفاعة الطهطاوى ـ مؤسس مدرسة الألسن ـ فى مصر ٠

وكانت الوقائع فى أول أمرها تصدر باللسان التركى ٠

ثم صدرت باللسانين العربى والتركى ٠

ثم أصبحت تصدر باللسان العربى وحده ، واستمرت على ذلك ولا تزال تصدر حتى الآن ٠

وهى أقدم جريدة باللغة العربية فى العالم الإسلامى كله ، وأطول هذه الجرائد عمرا ٠

فإذا تجاوزنا هذه البدايات ، ومشينا مع مظاهر النهضة الحضارية التى أخذ يعيشها العالم العربى ، طالعتنا بعد ذلك جرائد ومجلات تعد بالعشرات بل بالمئات ، بحيث أصبح هذا الحشد الهائل من الجرائد والمجلات يمثل الصحافة العربية فى عصرنا الحديث ٠

ولقد أسهمت الصحافة العربية فى النهضة الأدبية المعاصر إسهاما جيدا ملموس الأثر واضح التأثير متعدد الجوانب ، ففى جانب من هذه النهضة حدث إحياء للآداب العربية ونشر للمعرفة والثقافة ، وفى جانب ثان حدث نقل للتراث العربى وإعادة لنشره يسرت الاطلاع عليه لجمهور غفير من القراء ٠

وفى جانب ثالث أحدثت الصحافة تطويرا لأسلوب الكتابة الأوربية ، تخلص فيه من قيود السجع والمحسنات البديعية المتكلفة ، ذلك أن الصحافة استطاعت أن تجعل

من الأدب ـ الذى هو لغة الخاصة فى كل عصر ـ لغة للخاصة والعامة ، حيث حاول الكتاب والمنشئون أن يختاروا فى كتابتهم الأسلوب السهل الجميل الميسر الذى يدركه قراء الصحف فى عمومهم ·

هذه الجوانب التى عددنا مما أسهمت به الصحافة فى النهضة الأدبية ، يضاف إليها ما أحدثته الصحافة من نهضة وتنوير وتقويم للحياة السياسية ، تمثلت فى كشف خطط المستعمر وألاعيبه ، وفى التعرف على أساليب مقاومته وفى مقاومة الحكام الظالمين ، وفى المطالبة بالحياة النيابية ، وفى تكوين الجماعات والجمعيات والمنتديات التى تعنى بمناقشة القضايا السياسية والتى تطورت فيما بعد من جميعات وجماعات إلى أحزاب سياسية ذات برامج وأهداف ·

كما أحدثت الصحافة العربية نهضة اجتماعية كبيرة تمثلت فى بسط قضايا المجتمع والبحث لها عن حلول ، فكان هناك حوار وصل إلى حد الجدل فى مسائل التعليم وتعليم المرأة بالذات ، وفى مشكلات الفقر والجهل والمرض ، وفى تطوير الريف وأدوات الزراعة ، وفى توجيه الصناعات والمهن ، وفى تكوين الجمعيات والنقابات والنوادى الاجتماعية ، كل ذلك أسهمت الصحافة العربية فى نهضته وتطويره ، مما أحدث ـ دون شك ـ رأيا عاما واعيا بين الناس يدرك أبعاد قضايا أمته على الصعيدين العربى والإسلامى فى مجالات السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة والفكر والأدب ·

وأروع ما قدمت الصحافة العربية لأبناء العالم الإسلامى أن أحدثت صلة وثيقة بين أبناء العالم الإسلامى عن طريق ما تنشره من قضايا هذا العالم الإسلامى ، وأوضح مثل لذلك ـ فيما نحن بصدد البحث فيه ـ « جريدة العروة الوثقى » التى كانت توزع على مختلف بلدان العالم الإسلامى ، والتى كانت تثير من قضاياه ما يكون موضع اهتمام كل مسلم غيور على دينه وأمته ، والتى حاربتها دول الاستعمار حربا ضارية استطاعت فى النهاية أن توقفها[1] ·

١ ـ تحدثنا عن هذه الجريدة بالتفصيل فى الفصل الثانى من الباب الأول من هذا البحث وأشرنا إلى ما نشر فيها من مقالات ·

فما موقف جمال الدين من هذه الصحافة ؟

أدرك جمال الدين أكثر من غيره ما للصحافة من أثر فى تكوين الرأى العام ، وعرف حق المعرفة ما لها من أثر وخطر فى مجال مقاومة الظلم والحكام المستبدين ، والمستعمرين الغاصبين ، فوجه اهتمامه إلى جانبين هامين فى الصحافة :

أولهما : العمل على إنشاء أكبر عدد ممكن من الصحف والمجلات ، وقد فعل على النحو الذى تحدثنا عنه فى الفصل الأول من الباب الرابع من هذا البحث حين تكلمنا عن : جهوده فى مجال الصحافة ·

ثانيهما : العمل على توجيه الكتاب نحو اختيار الأسلوب الملائم فى الكتابة الصحفية ، وأخذ ينصح ويوجه على النحو الذى تحدثنا فيه فيما سلف من البحث [١] ·

كما اهتم جمال الدين بأن يكتب فى هذه الصحف والمجلات عديدا من المقالات فى مصر وفى غيرها من بلدان العالم الإسلامى ، منبها للأذهان مثيرا للعواطف مغذيا للعقول والأفهام ، فكانت مقالاته هذه تنويرا حقيقيا لكل من قرأها من أبناء العالم الإسلامى ، كما كانت شجى فى حلوق المستعمرين والحكام الظالمين ·

ولقد تسببت مقالات جمال الدين فى نفيه وسجنه وتشريده وتغريبه ، ولكنه المصلح الجرىء فى الحق الذى لا يبالى أين يقع قول الحق من الظالمين والمستبدين ، وتحمل فى سبيل هذا الحق ما تحمل فى كل وطن إسلامى نزل فيه أو دعى إليه ·

ومن أهم أعمال جمال الدين الأدبية فى الصحافة ـ فى تقديرى ـ مقالان أحدهما نشره فى جريدة مصر التى ساعد على إصدارها والتى كانت تصدر فى مدينة الإسكندرية ·

والثانى مقال نشره فى صحيفة « الديبا » بفرنسا ، ورد فيه على محاضرة كان قد ألقاها « مسيو رينان » هاجم فيها الإسلام والعرب .

---

١ ـ الفصل الأول من الباب الرابع من هذا البحث ·

أما المقال الأول فكان عنوانه : « الحكومات الشرقية وأنواعها » وعنونه بعضهم «الحكومة الاستبدادية » ٠

وقد أحدث هذا المقال دويا هائلا فى الناس وآثار ثائرة عدد من الحكام وهذا المقال يعد من أهم ما كتب جمال الدين ٠

وقد نشره فى العدد الثالث والثلاثين من جريدة مصر[١] وتحدث فيه عن استبداد الحكومات الشرقية من خلال مشاهداته لنماذج منها فى مصر أو فى الآستانة أو فى إيران ، وقد جاء فى هذا المقال :

« إن طول مكث الشرقيين تحت نير المستبدين الذين كان اختلاف أهوائهم الناشىء عن تضاد طبائعهم وسوء تربيتهم مع عدم وجود رادع يردعهم ومانع يمنعهم ، وقوة خارجية تصادمهم فى سيرهم ـ سببا أوجب التطاول على رعاياهم وسلب حقوقهم ، بل اقتضى التصرف فى غرائزهم وسجاياهم ، والتغير فى فطرتهم الإنسانية حتى كادوا لا يميزون بين الحسن والقبيح ، والضار والنافع ، وأوشكوا أن لا يعرفوا أنفسهم وما انطوت عليه من القوى المقدسة ، والقدرة الكاملة ، والسلطة المطلقة على عالم الطبيعة ، والعقل الفعال الذى تخضع لديه البسائط والمركبات ، ويطيع أمره النافذ جميع المواليد من الحيوان والنبات ـ وإن امتداد زمن توغلهم فى الخرافات التى تزيل البصيرة ، وتستوجب المحو التام والذهول المستغرق ؛ بل تستدعى التنزل إلى الرتبة الحيوانية ـ ومداومتهم من أحقاب متتالية على معارضة العلوم الحقيقية التى تكشف عن حقيقة الإنسان ، وتعلمه بواجباته وما يلزمه فى معاشه ، وتبين له الأسباب الموجبة للخلل فى الهيئة الاجتماعية ، وتمكنه من دفعها والسعى فى إطفاء نورها بما ورثوه عن آبائهم من سفه القول ؛ وسخف الرأى والجد فى اضمحلال كتبها وضياع آثارها واستبدالها بما أوقعهم[٢] فى ظلمات لا يهتدون إلى الخروج منها أبدا ٠

---

١ ـ صدر هذا العدد فى ٢٢ من شهر صفر ١٢٩٦ هـ ـ ١٨٧٩/٢/٦ م ٠

٢ ـ الصواب أن تدخل الباء على المطروح ـ كما نبهنا على ذلك فى غير موضع من مواضع كتابة جمال الدين الأفغانى ٠

كل هذه الأسباب تمنع القلم عن أن يجرى على قرطاس بين شرقى فى البلاد الشرقية يذكر الحكومة الجمهورية وبيان حقيقتها ومزاياها وسعادة ذويها الفائزين بها ، وأن المسُوسِين بها أعلى شأنا وأرفع مكانة من سائر أفراد الإنسان ، بل هم الذين يليق بهم ان يدخلوا تحت هذا الاسم دون من عداهم ، فإن الإنسان الحقيقى هو الذى لايحكم عليه إلا القانون الحق المؤسس على دعائم العدل الذى رضيه لنفسه ، يحدد به حركاته وسكناته ومعاملاته مع غيره على وجه يصعد به إلى أوج السعادة الحقيقية ، وقصده عن أن يرقم على صفحات الأوراق ما يكشف عن ماهية الحكومة المقيدة ، ويوضح عن فوائدها وثمراتها ، ويبين أن المحكومين بها قد هزتهم الفطرة الإنسانية فنبهتهم للخروج من حضيض البهيمية ، والترقى إلى أول درجات الكمال ، وإلقاء أوزار ما تكلفهم به الحكومة المطلقة ، وتطلب مشاركة أولى أمرهم فى آرائهم وكبح شره النهمين منهم ، الطالبين للاستئثار بالسعادة دون غيرهم ـ ولهذا أضربنا صفحا عن ذكرها وأردنا أن نذكر فى مقالنا هذا ـ الحكومة الاستبدادية بأقسامها فنقول :

إن الحكومة الاستبدادية بأعتبار عناصرها الذاتية ، وأقانيمها[١] الحقيقية التى هى عبارة عن : أمير أو سلطان ووزراء ، ومأمورى إدارة وجباية ستنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول منها :

الحكومة القاسية وهى التى تكون أركانها ـ مع ـ اتسامهم بسمة الإمارة والوزارة والإدارة والجباية ـ شبيهة بقطَّاع الطريق ، فكما أن قاطع الطريق يقطع طرق السابلة ويسلبهم أموالهم ومؤنهم وثيابهم التى تقيهم الحر والبرد وسائر مواد حياتهم ـ ويتركهم فى البوادى والقفار حفاة عراة جياعا ، تقطعت بهم حبال الوسائل. ولايلاحظ أن فيهم الهرم والصغير والعاجز والضعيف الذين لا يستطيعون التخلص من المهالك ، ولا يقتدرون على النجاة ، ولا يبالى بموتهم وهلاكم عن آخرهم ، ولا تأخـذه فى ذلك الشفقة والرحمة ٠

١ ـ الأقنوم : الأصل والجمع أقانيم ـ وهى رومية ـ الفيروز أبادى القاموس المحيط ٠

كذلك هؤلاء الأركان يغتصبون ضياع رعاياهم وعقاراتهم ، ويستولون على مساكنهم وبساتينهم ، وينتزعون بالضرب والحبس والكى وغيرها من أنواع العذاب ما بأيديهم من ثمرات اكتسابهم ، ويدعونهم فى مخالب المصائب معرضين للأسقام والآلام ، وأهدافا لسهام البلايا التى ترميهم بها عواصف الرياح الزمهريرية والسموم ، ولا يخشون اضمحلالهم وإبادتهم بالكلية ومحق حياتهم بالمرة ، بل يستبشرون بذلك كأنما هم أعداؤهم ولا يشعرون أنهم قواد السلطة وأساسها ، ومن أفراد هذا القسم الحكومة التيمورية والتترية وغيرهما ، كما تشهد بذلك التواريخ .

القسم الثانى :

الحكومة الظالمة ، وأولياء هذه الحكومة تماثل الأخساء والمترفين الذين يستعبدون أناسا خلقوا أحرارا ـ فكما أنهم يكلفون عبيدهم بأعمال شاقة وأفعال متعبة ، ويجبرونهم على نقر الأحجار وخوض البحار وطى المفاوز وجوب البلاد فى صرة الشتاء وهجير الصيف ، ويؤلمون أبدانهم بالسياط إذا لجئوا آناً ما إلى الراحة التى تجذبهم الطبيعة إليها ـ ويحجبونهم بأشغالهم المستغرقة لأيام حياة هؤلاء المظلومين ـ عن مزايا جواهر عقولهم المقدسة حيث لا يجدون فرصة من دهرهم للنظر فى الآفاق وفى أنفسهم كى يرتقوا من الإحساس البهيمى إلى عرش الإدراك الإنسانى ويشاركوا أبناء جنسهم فى اللذائذ الروحية ، ويجتنوا ثمار عقولهم ليؤازروهم بنتائجها من الصنائع البديعة ، والمخترعات الرفيعة ، فيسعدوا مع السعداء ومع ذلك يحرسون حياتهم ويحرضون على استيفائها استبقاء للخدمة منهم بتقديم قوت من أردأ ما يقتات به لسد الرمق ، وثياب خشنة رثة لتحفظهم من أظفار العواصف وبراثن القواصف ، فلا يكون حالهم مع سادتهم إلا كحال البهائم والأنعام الأهلية ، لا يعيشون إلا لغيرهم ولا يتحركون إلا برضاه ، بل بمنزلة آلة غير شاعرة بأيدى مستعبديهم يستعملونهم كما يشاءون .

كذلك هؤلاء الولاة مع رعاياهم ، فإن الرعايا لا يزالون يتحملون المتاعب

والأوصاب ويكدون أيام سنيهم ، ويسهرون لياليها مشتغلين بلا فتور بالغرس والحرث والحصد والدرس والندف والحلج ، والغزل والنسج ، مهتمين بالحدادة والنجارة والملاحة والتجارة ساعين فى حفر الأنهر وإنباع المياه وإنشاء الجداول والجسور متكبدين آلام التغريب فى الحر المبيد والبرد المميت ، كى ينالوا ـ أى الحكام ـ أرغد العيش بطيب المطعم والمشرب والملبس والمسكن ، ويحوزوا الراحة والرفاهية والحظ والسعادة ـ وهؤلاء الظلمة لا يفترون عن السعى فى سلب ما بأيديهم جبرا ، وغصب ثمار مكاسبهم وفوائد متاعبهم رغما .

ومن أقسام هذه الحكومة غالب حكومات الشرقيين فى الأزمان الغابرة والأوقات الحاضرة ، وكذلك أكثر حكومات الغربيين فى الدهور الماضية ..

القسم الثالث :

الحكومة الرحيمة ، وهى تنقسم إلى قسمين :

الأول منهما : الحكومة الجاهلة ، ودعائم هذه الحكومة تحاكى الأب الرحيم الجاهل ـ يحث أبناءه على اقتناء الأموال واكتساب الثروة واستحصال السعادة والاقتصاد فى المعيشة بدون أن يتبين طرقها ويمهد لهم سبلها لعدم علمه بها .

والثانى منهما : الحكومة العالمة وقد قسمها إلى قسمين ، شبه القسم الأول بالأب العالم المأفون وأطال فى وصفها .

ثم تكلم عن القسم الثانى من هذه الحكومة وسماها الحكومة « المتنطسة » وأساطينها الحكماء وقال إنها تضارع الأب المتدبر المتبصر الذى لا يبرح ساعيا فى إعداد الأسباب الموجبة لسعادة أبنائه .

ونجد هؤلاء الحكماء والأساطين يعلمون أن قوام المملكة وحياة الرعايا بالزراعة والصناعة والتجارة ، ويعرفون أن كمال هذه الأمور وإتقانها لا يكونان إلا بأمرين : أحدهما وهو فى الواقع علتهما :

أولهما : العلوم الحقيقية النافعة والفنون المفيدة .

وثانيهما : إعداد آلات الزراعة وأدوات الصناعة وتسهيل طرق التجارة البرية والبحرية ، ويفقهون أن حفظ أساس المدنية وصون نظام المعاملات وفصل المنازعات لا يكون إلا بالسياسة المؤسسة على دعائم العدل والإنصاف ٠

ويقرون بأن استكمال سعادة المملكة وصيانة استقلالها لا يكونان إلا بارتباطاتها السياسية وعلائقها التجارية مع الممالك الأخرى ولا يتم ذلك إلا برجال عارفين ، ودهاة متبصرين محبين لأوطانهم ، محنكين بالسياسة عالمين بالحوادث قبل ظهورها ٠٠٠ »

ثم أفاض جمال الدين فيما يجب أن تكون عليه الحكومة العادلة ـ مما لم نجد داعيا إلى ذكره ـ إذ قد ذكره جمال الدين فى عدد من المقالات التى كتبها والتى استشهدنا بها فيما سلف ـ ثم وجه كلامه إلى الإنسان ـ الذى هو فى الحق هدف كل حكومة عادلة ـ يبصره بحقه على الحكومات فقال :

« يأيها الإنسان الشرقى[1] ، صاحب الأمر والنهى ، هناك حكومة رحيمة حكيمة فعليك بها والقيام بشأنها وحفظ واجباتها ـ وإلا فبحياتك[2] التى أفتديها براحة العالم أن ـ تعفونا ـ من تحمل ثقل تشدقك بالرحمة والعدالة والحكمة والفطنة ٠

أتريد أن تظلمنا ونكافئك بالشكر ؟ وتغتصب حقوقنا ونجازيك بالثناء ؟ أو تظن أنك تقدر أن تَغُر كل العالم وتعمى بصائرهم ، وأن تنزل بباطلك عندهم منزلة الحق ؟ وأن تجلس بجورك مجلس العدل ؟ وأن تقيم سيئاتك مقام الحسنات ؟ وان تعتقد رذائلك مقعدا لفضائل ؟ ولعلك اغتررت بتمجيد وتعظيم المبصبصين[3] وتمجيد المتزلفين ٠

---

١ ـ سبق أن أوضحنا أن جمال الدين ـ غالبا ـ ما يطلق كلمة الشرقى ويريد بها المسلم والشرق ويريد بها العالم الإسلامى ، حتى أصبح ذلك إصطلاحا عنده ٠

٢ ـ بحياتك : فيها قسم بحياة الإنسان .. وهذا لا يجوز ٠

٣ ـ الأصوب أن يقال بتمجيد المبصبصين وتعظيمهم ، حتى لا يفصل بين المضاف والمضاف إليه بأجنبى . وقد نبهنا إلى مثل ذلك الخطأ أكثر من مرة ٠

لو كنت تعلم مقامك من النفوس ، ومنزلتك لدى أرباب البصائر والعقول ، لودعت هذه الدنيا الخئون التى ألهتك ، وفارقت حياتك العزيزة التى طالما افتديتها بالمروءة والإنسانية ·

أما أنتم يا أبناء الشرق فلا أخاطبكم ولا أذكركم بواجباتكم ، فإنكم قد ألفتم الذل والمسكنة ، والمعيشة الدنية واستبدلتم القوة بالتأسف والتهلث ·

صرتم كالعجائز !! لا تقدرون على الدرء والإقدام ، والدفع والمنع والرفع ، فإنا لله وإنا إليه راجعون »[١] ·

هذا عن مقاله الأول الذى أثار ضجة ودويا فى الأوساط السياسية والاجتماعية والصحفية ، وكان شجى فى حلوق الحكام وبخاصة من كان منهم من الظالمين المستبدين ·

وأما المقال الثانى الذى نعده من أبرز مقالاته الصحفية ، فهو المقال الذى نشره فى صحيفة « الديبا » الفرنسية والذى رد فيه على « مسيو رينان » فى محاضرته التى ملأها بالافتيات على الحضارة الإسلامية والثقافة العربية ·

ألقى « رينان » محاضرة فى السربون دارت حول تهم ثلاثة وجهها للإسلام وللعرب :

الأولى : ادعاؤه أن نسبة الحضارة والمدنية والعلم والفلسفة إلى العرب خطأ أو عدم دقة فى التعبير ·

فما ينبغى فى زعمه أن يقال : علوم العرب وفنون العرب وتمدن العرب وفلسفة العرب ، لأن هذه الأشياء فى تصوره نتاج للأمم غير العربية ، فالتمدن عنده أكثره من نتاج الفرس ، والفلسفة أكثرها من نتاج النصارى النسطوريين الوثنيين الحرانيين ، والفلاسفة الذين ظهروا فى دولة الإسلام كالكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد لم يكن منهم من العرب إلا الكندى ·

---

٤ ـ العدد ٣٣ من جريدة مصر ·

الثانية : ادعاؤه أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر ، بل هو عائق لها ، بما فيه من اعتقاد للغيبيات وخوارق العادات والإيمان التام بالقضاء والقدر •

وزعمه أن من اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد أو حرقت كتبه أو كان فى حماية خليفة أو أمير مؤمن فى الظاهر غير متدين فى الباطن ، ومع ذلك فما وصل إليه هؤلاء فى الفلسفة ليس له قيمة كبيرة ، فهو ليس إلا فلسفة اليونان مشوهة ، والفلسفة التى أخذها الأوربيون عن المسلمين فى أسبانيا كانت فلسفة رديئة الترجمة ، مشوهة الأصل ، لم تستفد منها أوربا الفائدة الحقة إلا بعد ترجمتها ترجمة جيدة من منابعها الأصلية •

••• ثم يواصل رينان قائلا : ولكن الإسلام حجب العقل عن التأمل فى حقائق الأشياء ، وعقول أهل البلاد الإسلامية قاصرة ، وما يتميز به المسلم هو : بغضه للعلوم واعتقاده أن البحث كفر وقلة عقل لا فائدة فيه •

الثالثة : ادعاؤه أن العنصر العربى بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها ، فالزمن الذى كان يسود فيه العنصر العربى ـ وهو عهد الخلفاء الراشدين ـ لم تكن فيه فلسفة ، ولم يظهر فيه البحث العلمى ، ولا الفلسفة إلا حين انتصر الفرس ونصروا العباسيين على الأمويين وسلموهم زمام الملك ، ونقلوا الخلافة إلى العراق ـ معهد التمدن الفارسى القديم •

ولقد رد على « رينان » الأستاذ « مسمر رئيس البعثة المصرية بفرنسا إذ ذاك ، ولكنه جاء ردا ضعيفا أوشك أن يسلم فيه بالتهمة الأولى ، ولكنه دافع عن التمدن الإسلامى ، وقال : إن الإسلام لا يمنع أهله من التقدم العلمى ، واتهم « رينان » بأنه لم يطلع عما كتب عن العلوم والفنون والآداب العربية •

غير أن الذى يعنينا هنا هو رد جمال الدين الأفغانى •

وقد اشتمل رد جمال الدين على « رينان » على النقط التالية :

أولا : مدح رينان على بحثه وقال إنه استفاد من محاضرته استفادة كبيرة ·

ثانيا : اهتم بزعم « رينان » أن الديانة الإسلامية كانت ـ بما لها من نشأة خاصة ـ تناهض العلم ·

ثالثا : اهتمامه بالرد على ادعاء « رينان » بأن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لعلوم ما وراء الطبيعة ولا الفلسفة ·

قال جمال الدين : « إن المحاضرة تشمل على نقطتين أساسيتين .. إحداهما : أن الديانة الإسلامية كانت ـ بما لها من نشأة خاصة ـ تناهض العلم ، والثانية : أن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لعلوم ما وراء الطبيعة ولا الفلسفة ·

فأما عن النقطة الأولى : فإن المرء ليتساءل ، بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها ، أصدر هذا الشر عن الديانة الإسلامية نفسها أم كان منشؤه الصورة التى انتشرت بها الديانة الإسلامية فى العالم ، أم أن أخلاق الشعوب التى اعتنقت الإسلام أو حملت على اعتناقه بالقوة ، وعاداتها وملكاتها الطبيعية هى جميعا مصدر ذلك ؟

لا ريب أن قصر الوقت المخصص « للمسيو رينان » قد حال دون جلائه هذه النقطة ·

ثم أخذ جمال الدين يبين أن ما وقع للمسلمين وقع مثله فى الأديان الأخرى ، فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المبجلون ، لم يلقوا أسلحتهم بعد كما أعلم ، وهم عاكفون على محاربة ما يسمونه بالتدليس والضلال « يعنى العلم والفلسفة » ·

ثم قال جمال الدين : « وأما النقطة الثانية ، فالكل يعلم أن الشعب العربى خرج من حال الهمجية التى كان عليها وأخذ يسير فى طريق التقدم الذهنى والعلمى ، ويغذ السير بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية ، وقد تمكن فى خلال قرن من التكيف بالعلوم اليونانية والفارسية ، فتقدمت العلوم تقدما مدهشا بين العرب ، وفى كل البلدان التى خضعت لسيادتهم ·

وقد كانت رومة وبيزنطة المدينتين الرئيسيتين لعلوم اللاهوت والفلسفة ، بل مبعث أنوار المعارف الإنسانية كلها ، ثم جاء الوقت الذى وقف فيه علماء هاتين المدينتين عن البحث وتهدمت فيه نصبهم التى أقاموها للعلم ، ودرجت كتبهم القيمة طى النسيان ·

وقد كان العرب فى ذلك الجهل حين شرعوا يتناولون ما تركته الأمم المتمدنة فأحيوا تلك العلوم المندثرة ، ورقوها وخلعوا عليها بهجة لم تكن لها من قبل ·

أوليس ذلك دلالة بل برهانا على حبهم الطبيعى للعلوم ؟

صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به · بيد أن هذه العلوم التى أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها ووضحوها ، ونسقوها تنسيقا منطقيا وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق وتنطوى على التثبت والدقة النادرين ·

وقدكان الفرنسيون والإنجليز والألمان لايبعدون عن رومة وبيزنطة بعد العرب عنهما ، وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا ، حتى جاء اليوم الذى ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب ، فأحسن الأوربيون إذ ذاك استقبال أرسطو بعد أن تقمص الصورة العربية ، ولم يكونوا يفكرون فيه وهو فى ثوبه اليونانى على مقربة منهم ·

أو ليس هذا برهانا آخر ناصعا على مزايا العرب الذهنية وحبهم الطبيعى للعلوم ؟

« وبينا يسلم « رينان » بأن البلدان الإسلامية فى غضون خمسة قرون من سنة ٧٧٥ م إلى أواسط القرن الثالث عشر كانت تحتوى علماء ومفكرين عظاما ، وأن العالم الإسلامى إذ ذاك كان يفوق العالم المسيحى فى الثقافى الذهنية إذ يقول :

« إن أكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الأولى للإسلام كانوا كناب السياسيين من أصل حرّانى أو أندلسى أو فارسى ، أو من نصارى الشام ·

ولست أريد أن أغمط علماء الفرس صفاتهم الباهرة ، ولا أن أغض الطرف عن الدور[1] الجليل الذى لعبوه فى العالم الإسلامى •

ولكن أرجو أن يسمح لى أن ألاحظ أن الحرانيين كانوا عربا ، وأن العرب لما احتلوا أسبانيا لم يفقدوا جنسيتهم بل ظلو عربا ، وأن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرانيين ، وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة وهى « الصابئة » ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية العربية ، وقد كانت أكثرية نصارى الشام عربا غسانيين اهتدوا بهدى النصرانية •

أما ابن باجة ، وابن رشد ، وابن طفيل ، فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندى ، بدعوى أنهم لم يولدوا فى جزيرة العرب ، وخصوصا إذا اعتبرنا أن لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها •

ثم ماذا يكون لو قصرنا نظرنا على الأصل الذى ينتمى إليه العظيم ولم نأبه للنفوذ الذى سيطر عليه ، والتشجيع الذى لقيه من الأمة التى عاش فيها ؟

لو فعلنا ذلك لقلنا : إن نابليون لا ينتمى إلى فرنسا •

ولما صح لألمانيا أو انجلترا أن تدعى كلتاهما الحق فى العلماء الذين استوطنوهما بعد أن رحل أصولهم إليها من بلدان أخرى •

ثم ختم جمال الدين رده على « رينان » بقوله :

« إن العقل لا يوافق الجماهير ،وتعاليمه لا يفقهها إلا نخبة من المتنورين . والعلم ـ على ما به من جمال ـ لا يرضى الإنسانية كل الإرضاء ، وهى التى تتعطش إلى مثل أعلى ، وتحب التحليق فى الآفاق المظلمة السحيقة التى لا قبل للفلاسفة والعلماء برؤيتها أو ارتيادها[2] » •

وبعد ... فهذان مقالان لهما من الأهمية فى مجال الصحافة ما لهما ، وليس معنى

---

١ ـ نبهنا من قبل على أن هذه الكلمة أجنبية عربت وأنها تستعمل فى غير ما يجب أن تستعمل فيه •

٢ ـ أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث : ٩٢ ـ ٩٧ بتصرف •

ذلك أن جمال الدين لم يكن له أهم من هذين المقالين ، وإنما المعنى الذى أريد أن هذين المقالين كان لهما من الدوى الصحفى أكثر مما كان لسواهما من مقالات جمال الدين ٠

نعم كان لكثير من مقالاته السياسية أو الاجتماعية دوى وأثر ولكن كان دون ما احدثه هذان المقالان ٠

وكانت لمقالاته الإسلامية آثار حاسمة ، ولكن ـ أيضا ـ دون أن تحدث من الأثر والدوى ما أحدثه المقالان المذكوران ٠

٣ ـ جمال الدين والقصة

نعترف فى مستهل هذا الحديث بأن القصة فى هذه الفترة التى عاشها جمال الدين الأفغانى ، لم تبلغ مبلغ المقالة فى مجال الأدب ، ولا كان لها تأثير يقارب تأثير المقالة فى الناس •

ومع ذلك فإن كبار الكتاب كجمال الدين الأفغانى كان يحس بتأثير القصة فى المستقبل القريب ، وكان يدرك عن وعى وبعد نظر ، أن القصة وشيكا ما تصبح أبرز الأشكال الأدبية ، من حيث قدرتها على جذب اهتمام الناس والتأثير فيهم ، وكان يدرك أنها ستكون لغة عامة الناس وأقرب إلى نفوسهم •

ولم يكن جمال الدين وحده هو الذى أدرك قيمة القصة وانتشار أثرها فى الناس . وإنما أدركه سواه من الكتاب والمصلحين فى عصره أو الفترة التى سبقته بقليل ، كرفاعة الطهطاوى وعلى باشا مبارك ، وكمحمد إبراهيم المويلحى الذى عاصر جمال الدين وأهداه روايته « حديث عيسى بن هشام » •

فقد استهل رفاعة الطهطاوى كتابة الرواية التعليمية برواية مترجمه هى « وقائع تلياك » وكتابه : « تخليص الإبريز » وقد استطاع رفاعة الطهطاوى فى روايتيه المذكورتين أن يوجه ـ من خلال محتواهما ـ أول هجوم مباشر على الاستبداد السياسى فى مصر ، كما أن رفاعة فى كتابه تخليص الإبريز دعا إلى الاتحاد والتآزر بين أبناء الأمة ، ولما اشتمل عليه محتوى كتابه تخليص الإبريز من هجوم على الفساد السياسى والاستبداد ، فان رفاعة لم يستطع أن يطبع كتابه فى مصر وإنما طبعه فى بيروت[١] •

أما على باشا مبارك فإن له فى مجال الرواية الحديثة روايته « علم الدين » وهى من الروايات التعليمية مثل « تخليص الإبريز » لرفاعة الطهطاوى •

---

١ ـ طبعت الرواية المترجمة فى مصر سنة ١٨٣٤ م وطبعت الرواية المؤلفة فى بيروت ١٨٦٧ م

وكلاهما من النقد الاجتماعى والسياسى الذى يستهدف تعليم الناس وتنوير أذهانهم ، وكلاهما عمل تعليمى جليل القدر رفيع المنزلة ، يسهم بحق فى بناء الفرد ثم بناء الأمة .

يقول على مبارك فى مقدمة روايته « علم الدين » : « ولا شىء أنفع له ـ أى الوطن ـ وأجلب للخير والبركة إليه من تعليم أبنائه ، وبث المعارف والفنون النافعة فيهم ، حتى يعرفوا حقوقه ويكونوا يدا واحدة فى نفعه وخدمته وإيصاله إلى غاية ما يمكن أن يصل إليه من الغبطة والسعادة .. وهذا لا يكون إلا بالعلم والمعرفة وحسن التربية ، فإن الجاهل لا يحسن نفع نفسه فضلا عن نفع غيره ... وقد رأيت النفوس كثيرا ما تميل إلى السير والقصص وملح الكلام بخلاف الفنون البحتة والعلوم المحضة ، فقد تعرض عنها فى كثير من الأحيان لا سيما عند السآمة والملال من كثرة الاشتغال وفى أوقات عدم خلو البال ، فحدانى هذا إبَّان نظارتى لديوان المعارف إلى عمل كتاب أضمنه كثيرا من الفوائد فى أسلوب حكاية لطيفة ينشط الناظر إلى مطالعتها ويجد فيها رغبته فيما كان من هذا القبيل ، فيجد فى طريقه تلك الفوائد ينالها عفوا بلا عناء حرصا على تعميم الفائدة وبث المنفعة .. فجاء كتابا جامعا اشتمل على غرر الفوائد المتفرقة فى كثير من الكتب العربية والأفرنجية فى العلوم الشرعية والفنون الصناعية وغرائب المخلوقات وعجائب البر والبحر .. مفرغا فى قالب سياحة شيخ عالم مصرى وُسم بعلم الدين مع رجل إنجليزى كلاهما هيان بن بيان نظمهما سمط الحديث لتأتى المقارنة بين الأحوال المشرقية والأوربية » (١)

فإذا كان محمد المويلحى،أخذت الرواية على يده تصبح عربية اللحمة والسدى ، فقد كشفت روايته « حديث عيسى بن هشام » عن صلته الوثيقة بالتراث العربى القديم ، حيث تأسى أسلوب المقامة فجعل روايته حديثا وذلك أقرب إلى المعنى المتعارف عليه للمقامة ، واختار أن يكون هذا الحديث لعيسى بن هشام ـ وهو بطل

١ ـ على باشا مبارك : علم الدين . المقدمة .

مقامات بديع الزمان ـ كذلك حفلت روايته ببعض الحلى اللفظية التى تكثر دائما فى المقامة ٠

كما كشفت هذه الرواية عن صلته بزعماء الإصلاح فى عصره حيث أهدى روايته لوالده رمزا للصلة التى تربطه به من ناحية ، ولكونه شق له طريق التأثر بالمقامة فى كتابه حديث « موسى بن عصام » الذى اعتمد على أسلوب المقامة اعتمدا كبيرا ، وبعد والده أهدى الكتاب إلى الحكيم جمال الدين الأفغانى الذى يهدف إلى بعث مجد المسلمين وإيقاظ عقولهم ، وإلى الشيخ محمد عبده الذى كان يهدف إلى الإصلاح الاجتماعى وإصلاح اللغة ببعث تراثها القديم ، ثم إلى الشيخ الشنقيطى الذى كان عالما لغويا كبيرا ، وأخيرا إلى الشاعر البارودى الذى تمثلت فيه حركة إحياء التراث العربى الشعرى فى بدايتها[١] » ٠

ويصرح محمد المويلحى فى مقدمة روايته بأن له من وراء تأليفها هدفا إصلاحيا ـ ولا غرو فهو متأثر بجمال الدين تأثرا كبيرا وله معه صلات وعلائق ورسائل متبادلة .. فيقول : « وبعد : فهذا الحديث .. حديث عيسى بن هشام .. وإن كان فى نفسه موضوعا على نسق التخييل والتصوير فهو حقيقة مترجمة فى ثوب خيال ، لا أنه خيال مسبوك فى قالب حقيقة ، حاولنا أن نشرح به أخلاق أهل العصر وأطوارهم ، وأن نصف ما عليه الناس فى مختلف طبقاتهم ، من النقائص التى يتعين اجتنابها والفضائل التى يجب التزامها[٢] » ٠

وإذا كان غير جمال الدين ممن سبقوه قد أدركوا أهمية القصة فى توجيه الناس وبخاصة عامة مثقفيهم ، فإن جمال الدين كان أكثر إدراكا لأهمية القصة وأهمية تأثيرها فى الناس ٠

---

١ ـ عبد المحسن طه بدر : تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر (١٨٧٠ ـ ١٩٣٨ م) ط دار المعارف القاهرة ١٩٦٨ م ص ٦٥ ـ ٦٨ ٠

٢ ـ السابق : ص ٦٩

تحدث العقاد عن قدرة جمال الدين الأفغاني على الإصلاح والخبرة بأبوابه وأسبابه ، وفطنته إلى الأساليب التى تفيد المجتمع وتصلحه ، فقال :

« على ذكر جمال الدين الأفغاني والأزمة الإيرانية وماكتبناه فى الأسبوع الماضى من علاقته بتلك الأزمة ، تحضرنى الآن نصيحة من نصائحه تدل على نصيبه الموفور من القدرة على الإصلاح والخبرة بأبوابه وأسبابه ، لأنه فطن فى زمانه لفعل القصة الاجتماعية فى تنبيه الشعوب الغافلة ، ولم يكن شغله الشاغل بالإصلاح الدينى صارفا له من هذا الجانب الفنى الذى يجهله الكثيرون أو يتجاهلونه ، كلما انصرفوا بجملتهم إلى الدعوة الدينية .

تولى أعمال السفارة الإنجليزية بطهران ـ عند مفتتح القرن التاسع عشر ـ أديب مشهور ولد بمدينة أزمير وساح مع أبيه فى بلاد الشرق الأوسط حيث كان يعمل لحساب الشركة الكبرى المعروفة باسم شركة الهند الشرقية ، فدرس الحياة الشرقية دراسة وافية ، وأعانته نشأته بين الشرقيين على النفاذ إلى بواطن حياتهم الشخصية وحياتهم الاجتماعية ، ثم أعانته ملكة الفكاهة النادرة على تصوير هذه الحياة فى صور هزلية لا نظير لها فى الآداب الأوربية ، اللهم إلا تلك الروايات التى ألفها وليام بكتال Pekthal واشتهرت إحداها المسماة بأبناء النيل بين قراء الإنجليزية من المصريين ، لأنها تتناول الحياة المصرية على الأسلوب الذى أجاده من قبله سفير الإنجليز بطهران ، حين كتب عن الحياة الإيرانية منذ مائة وخمسين سنة .

لم يجتمع الخبث والفطنة والفكاهة والأدب فى رجل سياسى كما اجتمعت فى جيمس موريز Morier مؤلف كتاب « حاجى بابا الأصفهانى » أو مغامرات حاجى بابا كما سماه عند ظهوره ، فمن صفحته الأولى إلى صفحته الأخيرة لا يفرغ القارئ من صورة إلا لنتقل إلى صورة ، ولا يطرح الكتاب من يده إلا على شوق إلى استئناف النظر فيه ، ويخيل إليك وأنت تقلب الصفحات واحدة بعد واحدة أن الكتاب سينفجر ضاحكا فى الصفحة التالية أو التى بعدها ولكنك تتبعه فتراه مصرا

على كتان الضحك « بل الابتسام » كأنه أقسم على الجد والوقار قبل تناول القلم ، فلا عليه ضحكت أنت ملء شدقيك كلما نظرت إلى صورة من صور ذلك المتحف الحافل ... أما هو فلا سمح الله ... لا ضحك ولا ابتسام إلا الوقار كل الوقار ، والاحتشام جد الاحتشام ٠

وعلى الطريقة التى نؤثرها أحيانا للدلالة بالمثل الواحد على الأمثلة المتعددة نكتفى هنا بخلاصة صورة من صور الكتاب الكثيرة ، وهى صورة طبيب البلاط ، وقد خاف على مكانته ومورد رزقه من منافسه الطبيب الإفرنجى الذى ساقه الشيطان إلى طهران ٠

فبعد عشرين صورة لهذا الطبيب الشاهانى فى أوضاع مختلفة يبدو لنا الرجل جالسا فى مخدع أسراره ودسائسه ، وبين يديه مخلوق بائس طالب عمل طالما تردد عليه ، ثم قفل من عنده خائبا على غير جدوى .. أما اليوم فالعمل حاضر والمكافأة موعودة والبشاشة والقبول بديل من التجهم والإعراض ٠

يقول الطبيب للرجل البائس طالب العمل : إن هذا المنحوس الإفرنجى سيقطع أرزاقنا ويسقط أقدارنا .. إنه شفى الصدر الأعظم بمعجزة خارقة فلا حديث للوزير الكبير ولا للشاهنشاه إلا بهذا الطبيب صانع المعجزات ... فما لم نعرف هذه الصناعة فلا عيش لى فى البلاط ولا عيش لك عندى ، وأمرى وأمرك إلى الله ، إن لم تبادرنى بعونك قبل الصباح ٠

ويعجب المخلوق البائس ما الذى فى وسعه أن يصنعه ، وكيف يحتاج الطبيب الشاهانى بجلالة قدره إلى عونه وإسعافه ، فيسأل فيجاب على الأثر :

فى وسعك ياصاح أن تمرض كما مرض الصدر الأعظم وتقصد إلى الطبيب الإفرنجى ليشفيك كما شفاه ! ومتى حصل الدواء بين يديك واستدرجت صاحبنا إلى إفشاء سره فقد تم المقصود ، وعلينا بعد ذلك بقية التدبير ٠

ويعود المخلوق البائس سائلا : وكيف ينال هذا الشرف فيمرض كما يمرض الصدور العظام ؟

فيقول له الطبيب الشاهانى : إن الصدر الأعظم قد مرض على أثر أكلة فخمة أفرط فيها من الدسم والتوابل ، وكان الطبيب الإفرنجى حاضرا فعرف داءه ووصف له دواءه ، وهذه الأكلة الممرضة ميسورة لك أضعافا مضاعفة كما تقترح وحيث تريد .

ويقول المخلوق البائس فى نفسه : إن أكلة كهذه تمرض الصدر الأعظم ولكنها تشفينى أنا وتقوينى وتعطينى من اللحم والشحم ما يسمننى ويغنينى ثم يظهر القبول لولى نعمته وينصرف إلى الطبيب الإفرنجى وفى صدره تدبير آخر ، فلا يأكل ولا يسرف فى تناول الدسم والتوابل ، بل يزعم للطبيب الإفرنجى أنه قادم من الحريم الشاهانى ، وأن السيدة التى أصيبت بالتخمة كما أصيب الصدر الأعظم لا تقدر على الخروج ولا يجيز لها العرف أن تعرض نفسها عليه ، ويصف له الطبيب طريقة العلاج وهو يبرأ من التبعة إن كان فى وصف الرجل للمرض خطأ أو تحريف ...

ولا تمضى هنهية حتى يكون هذا المحتال عند طبيبه الشاهانى الدجال ، ويكلمه وهو يتلوى ، ويتلوى وهو يهم أن يلفظ ما فى جوفه ، وليس فى جوفه كثير ولا قليل !! ولكنها الصنعة التى يستحق بها مضاعفة الثواب ووظيفة العمل التى تردد من أجلها على الأبواب .

هذه صورة واحدة مختصرة من مئات الصور فى الكتاب ، وكلها على هذا النسق من البساطة مع المبالغة الفكاهية ، وقلما عاش فى إيران نموذج من نماذج الحياة الإيرانية قبل جيلين أو ثلاثة أجيال إلا كانت ملاحه هناك على مثال كهذا المثال ، يعرض لك صورة الشاه والوزير والطبيب والعالم والفقيه ، كما يعرض لك صورة الجندى والحارس والتاجر والحلاق والحمال .

سمع جمال الدين بكتاب « حاجى بابا » هذا ، واطلع على بعض فصوله فلم يتأفف منه ولم ينظر إليه كما ينظر المصلح الجاد المتزمت إلى هزل الفن وألاعيبه المححكة ، بل عرف قيمته فى دعوة الإصلاح وقال :

إن الإيرانيين والشرقيين على التعميم ينتفعون بهذه المضحكات إذا نظروا إلى صورتهم فيها كما يراها الأوربيون ويتحدثون بها من وراء ظهورهم أو فيما ينشرونه من المصنفات بلغاتهم ·

وأمر بعض مريديه أن يترجم إلى الفارسية ليتخذه المطلعون عليه مرآة تعرض عليهم عيوبهم كما يراها الغرباء عنهم من قريب . وتلك هي الفطنة التي تنم على بداهة المصلح الكبير ، لأن أثر الفن القصصي في المجتمع لم يكن من المعلومات الشائعة بين المصلحين من أبناء عصر جمال الدين ·

ومن الأمور التي يستغربها قراء العصر الحاضر أن هذا الكتاب مترجم إلى اللغة العربية منذ ستين سنة[1] وأنه ظهر في سنة ١٨٩١ م بعد زيارة جمال الدين لمصر بسنوات ، ولا ندري هل كانت ترجمته بإيعاز من المصلح الحكيم أو كانت محض مصادفة واتفاق ، إلا أنه لم يظهر بالأسلوب الذي يؤثر عن تلاميذ جمال الدين ، ولم يذكر مترجمه شيئا عن جمال الدين في مقدمته ، فهو إذن من الآثار الكثيرة التي أسفرت عنها نهضة الترجمة قبل جيلين ، ثم طواها الزمن لطول العهد وتغير الأساليب وغلبة الأسلوب الحديث على الأسلوب الذي استطاعه المترجمون في ذلك الحين[2] ·

وبعد ... فلعلنا بهذا الذي ذكرناه عن جمال الدين الأفغاني والقصة ، نؤكد أن الأفغاني أديب متفتح واسع الأفق بعيد النظر ، يحاول أن يتخذ للإصلاح الذي يدعو إليه كل سبيل من السبل التي يراها بحسّ المصلح وضمير المخلص وإيمان المجدد الإسلامي ، فلم يفته أن القصة سبيل من هذه السبل التي تبصر الناس بما يجب أن يتبصروا به في شئون حياتهم وما يعانون من مشكلات ومسائل وقضايا ·

ولعل جمال الدين بإدراكه لأثر القصة في نفوس الناس وقدرتها على التوجيه والإرشاد من المصلحين المبتكرين الذين يهتدون ببداهتهم إلى ما لا يهتدى إليه سواهم من المصلحين ·

---

١ ـ كتب العقاد هذا المقال سنة ١٩٥١ م ·

٢ ـ العقاد : بين الكتب والناس : ٣٩٧ ـ ٤٠٢ ط ١٩٦٦ م بيروت ·

وذلك كله يدعم ما نقول من أن جمال الدين أديب إسلامى ، متميز ـ لأنه أديب إسلامى ـ بشمول نظرته وعمقها ، وبحرصه على أن يلجأ إلى جميع الوسائل التى يراها قادرة على توصيل آرائه الإصلاحية إلى الأمة الإسلامية التى كانت مقبلة على الأخذ من الحضارة الأوربية بنصيب كبير ، من أبرزه فى مجال الأدب فن القصة .

وفى الحق إن ما توقعه جمال الدين من إقبال الناس على القصة كان صحيحا إلى أبعد الحدود .

فلو عاش جمال الدين الأفغانى ربع قرن أو ثلث قرن فقط بعد الزمن الذى توفى فيه لرأى بعينه كيف ثارت ضجة كبيرة حول القصة وكيف رأى بعض الناس بل بعض الكتاب والنقاد أن فنون الأدب كلها دون القصة بل عالة عليها ، بل ذهب بعضهم إلى حد القول بأن الأديب مهما كتب فلا أدب له ولا كتابة ما لم تكن له قصة .

ولو عاش جمال الدين الأفغانى بعد زمنه بربع قرن لرأى ضجة أخرى حول القصة ـ بعد انتشار الدراسات النفسية ـ تنادى بأن القصة هى المجال الوحيد لتطبيق هذه الدراسات فى الكتابة الأدبية وأنها الوسيلة القريبة لفهم العلاقات بين النفوس البشرية ، وتفسير المواقف والمشكلات التى تنجم من غرائب الطباع .

ولو عاش جمال الدين أكثر مما عاش لرأى أن انتشار الكتابة والقراءة ـ نتيجة للتوسع فى التعليم والمدارس والمعاهد والجامعات ـ أدى إلى انتشار القصة فى جمهور كبير من القراء يفوق مئات المرات جمهور الشعر وغيره من الفنون الأدبية الحديثة .

ولو عاش جمال الدين أكثر مما عاش لرأى صناعة السينما تتسبب فى انتشار هائل للقصة ، بل لرأى كيف استغلت الشيوعية القصة وجعلتها من أشرف أجناس الأدب لأنها تخاطب أوسع قاعدة من الجمهور وتبث فيهم دعايتها .

وإنه لبعد نظر من الأديب الإسلامى أن يتوقع للقصة كل هذا الشيوع والانتشار ، فيوجه بعض تلاميذه ومريديه إلى ترجمة القصة التى أشرنا إليها آنفا ، وفى

هذا التوجيه ما فيه من دعوة غير مباشرة لتأليف القصة والاهتمام بها فى مجال الدعوة والإصلاح والتقويم .

وبعد ... فإذا كنت قد تحدثت فى هذا الفصل الثالث من الباب الرابع من هذا البحث عن الأدب الإسلامى والأديب الإسلامى ، وعن جمال الدين والصحافة وجمال الدين والقصة فإن من تمام الصورة التى أود رسمها لجمال الدين الأديب الإسلامى أن أتحدث فى نهاية هذا الفصل عن خصائص أسلوب هذا الكاتب الإسلامى الكبير .

وأنا إذ أتحدث عن هذه الخصائص لا أدعى أننى قد آتى فيها بالصورة الكاملة ولا بالتحليل الأخير ، وإنما أحاول وأجتهد فى رسم هذه الخصائص وقد أوفق فيما أذهب إليه من تحديد هذه الخصائص ، وقد يجانبنى هذا التوفيق الذى أنشده ، وبحسبى أن يكون ما أذكره من خصائص أسلوب جمال الدين بداية أرجو أن تكتمل على يد باحث أو باحثين أكثر توفيقا منى فى هذا المجال .

وكل ما سوف أذكره من خصائص أسلوب جمال الدين فى أدبه إنما استخلصته من مقالاته ونصوصه ، معرضا تماما عن كل حكم مسبق أعرفه عن أدب جمال الدين مما تحدث به بعض الدارسين لجمال الدين وأدبه .

وربما حدث نوع من التقارب أو التشابه بين ما سأذكره عن خصائص أسلوبه وما ذكره بعض الدارسين ، وإن كنت أقول ـ فى غير مبالغة ـ إن كل ما كتب عن أسلوب جمال الدين وخصائصه الفنية لا يعدو أن يكون كلمات متناثرة هنا أو هناك من بحوث بعض الذين كتبوا عن جمال الدين ، والله الموفق والهادى إلى سواء السبل .

٤ ـ خصائص أسلوبه فى الكتابة

تميزت الكتابة الأدبية فى الفترة التى سبقت جمال الدين الأفغانى بطوابع خاصة وسمات معروفة ، نرى من اللازم أن نتحدث عنها فى صورتها المجملة ، لنتخذ من هذا الحديث تمهيدا تاريخيا للحديث عن الطابع الذى ميز كتابة جمال الدين الأدبية .

ولسنا نعنى بالفترة التى سبقت جمال الدين ، ذلك العصر الأدبى الذى اصطلح على أن يسمى بالعصر العثمانى ، الذى سبق العصر الحديث .

وإنما نعنى بها زمنا أقرب إلى جمال الدين من ذلك ، وهو عصر « الخديو إسماعيل وما قبله بسنوات قليلة » .

وإذا كانت الكتابة الأدبية تتأثر ـ كما هو معروف ـ فى جودتها ونضجها بعوامل النهضة العامة ، الاجتماعية والسياسية والتعليمية والثقافية، فإنه من الضرورى لنا أن نشير إلى ذلك إشارة سريعة لنتعرف على الأسباب التى أدت إلى نهضة النثر عموما ، ونهضة الكتابة الأدبية ، « فن المقالة » على وجه الخصوص ، لنرى من بعد ما ميز كتابة جمال الدين الأدبية وما كان لها من خصائص وسمات .

وإذا كان محمد على باشا قد وضع أسس نهضة شاملة للبلاد بما تقدم به من أعمال حضارية حقة ، فإن من أبرز أعماله ذلك الاهتمام الشديد بالتعليم والثقافة ، فعلى يديه أنشئت المدرسة الحربية ومدرسة الطب وعدد من المدارس الصناعية ، ومدرسة الألسن وغيرها ؛ فإن اهتمامه بالنواحى الأدبية كان محدودا إذا قيس باهتمامه بالنواحى الفنية والتطبيقية ، ولعل عذره فى ذلك أنه بحث عن الوسائل التى تمكنه من إعداد جيش قوى يواجه به أعداءه ، دون أن يتعرف على الأثر الهام الذى تصنعه النهضة الأدبية فى الأمة كلها فكرها وعلمها وثقافتها .

فلما كان عهد عباس وسعيد أوشكت البلاد أن تعود إلى الوراء كثيرا ، بل إلى أسوأ مما كان عليه الأمر قبل محمد على ، فقد أغلقت فى عهدهما المدارس إلا مدرسة ابتدائية واحدة ، ومدرسة حربية ومدرسة للطب وأخرى للصيدلة ، فخبا ضوء كان يوشك أن ينير الأفق كله ، وضعف تيار العلم والثقافة والأدب حتى لم يعد قادرا على تحريك المواهب أدنى تحريك .

ثم كان عصر إسماعيل ـ الذى عايش جمال الدين جانبا منه ـ فحاول أن يصلح ما أفسده سلفاه ، فاهتم بالمدارس فأعاد فتحها ، واهتم بالتعليم العالى بنوع خاص فأعاد فتح مدرسة الهندسة ودعم مدرسة الطب وفتح مدرسة الحقوق ، وفتح أول مدرسة لتعليم البنات وهى المدرسة السيوفية سنة ١٨٧٣ م ومدرسة دار العلوم ، وعددا من المدارس الصناعية والزراعية كل ذلك فى مجال التعليم وحده .

أما الثقافة ونشر المعرفة وتشجيع العلم والبحث ، والصحافة ، فقد نالت فى عصر إسماعيل من الاهتمام ما جعلها حقا من أهم الأسباب فى إحداث نهضة كبيرة نال الأدبَ منها حظ غير قليل.

فقد افتتح إسماعيل باشا: « دار الكتب الخديوية أو المصرية فيما بعد » ـ وكان لها ولا يزال أكبر الفضل على العلم والعلماء والأدب والأدباء فى شتى فروع المعرفة .

ومما ينسب إلى عصر إسماعيل بمزيد من الفخر أنه كان عصر الجمعيات العلمية ، فأنشأ ـ بجهود المصلحين والرواد ـ جمعية المعارف ، لنشر الثقافة عن طريق التأليف والترجمة والنشر ، وكان لهذه الجمعية مطبعة خاصة أسسها محمد باشا عارف وعدد من أعيان البلاد .

ثم أنشئت الجمعية الجغرافية سنة ١٨٧٥ م ، وعنيت منذ إنشائها وإلى الآن بالبحوث الجغرافية والعلمية ، واهتمت بتدوين هذه البحوث وأصبح لها مجلة دورية .

وفى عهده أعيدت الحياة إلى المجمع العلمى الذى أصبح اسمه : مجلس المعارف المصرى ، وأنشئت الجمعية الخيرية الإسلامية .

وفى عصر إسماعيل نشطت الصحافة إلى حد كبير ، فظهرت بمصر مجلة « اليعسوب » وهى مجلة طبية أصدرها محمد البقلى وإبراهيم الدسوقى سنة ١٨٦٥ م ٠

وظهرت جريدة « وادى النيل » لعبد الله أبى السعود سنة ١٨٦٦ م

وجريدة « نزهة الأفكار » لإبراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال سنة ١٨٦٩ م

وجريدة « روضة المدارس » لعلى مبارك ، وكانت عملا صحفيا أدبيا جليلا ، حرر فيها : عبد الله فكرى وإسماعيل الفلكى وأحمد ندا والشيخ عثمان مدوح وصالح مجدى والشيخ حسونة النواوى ٠

وجريدة « أبو نظارة زرقاء » ليعقوب صنوع ١٨٧٧ م

وجريدة « مرآة الشرق » لسليم عنحورى ١٨٧٩ م

وغيرها من الجرائد التى بلغ عددها فى عصرى إسماعيل وتوفيق أى من سنة ١٨٦٢م إلى سنة ١٨٩٢ م ثلاثا وثلاثين جريدة فى مدينة القاهرة وحدها [١]

كما كان ذلك العصر عصر ازدهار فى الطباعة والترجمة والتأليف والنشر وإحياء التراث بوجه عام ٠

غير أن هذه النهضة الشاملة فى العلم والأدب لم تستطع أن تترك أثرها الإيجابى الفاعل فى نفوس عدد من الكتاب والأدباء امتدت بهم الحياة إلى هذه الفترة وكانوا يعيشون عصر محمد على وعباس وسعيد ، فاستمروا على ما ألفوه من قبل فى أساليبهم ، ولم يتقبلوا ما أعطته هذه النهضة من جديد قبولا حسنا ٠

ولا يفوتنا أن ننبه هنا إلى أن اللغة التركية منذ حياة محمد على وفى حكم عباس وسعيد كانت تزحم اللغة العربية ، بل تخملها أحيانا عن قصد وإرادة ، لأن الحاكم آنئذ يقدم التركية على العربية فى دواوينه ومنشوراته ، ولندع الشيخ المهدى أستاذ الأدب فى مدرسة القضاء الشرعى يحدثنا عن هذه المزاحمة للعربية الفصحى ، حيث يقول فى مذكرات الأدب التى نشرها فى مطلع هذا القرن : « كانت اللغة العربية

١ ـ فيليب دى طرزى : تاريخ الصحافة العربية : ١٦٦/٣ ٠

مضطهدة فى عهد عباس الأول ، إلى حد أن من تكلم بها من طلبة المدارس الحربية توضع فى فيه العقلة التى توضع فى فم الحمار حينما يقص ، ويبقى كذلك نهارا كاملا عقوبة له على تحريك لسانه بلغة القرآن فى أثناء فسحته »[(١)]

ومن الطبيعى فى هذه الفترة التى سبقت عصرى إسماعيل وتوفيق أن تكون النهضة الأدبية محدودة بسبب هذا الاهمال للفصحى وهذا الإخمال للمتمسكين بها .

ولئن كانت النهضة الأدبية قد بدأت فى عهد محمد على باشا ومثلها حينئذ رفاعة الطهطاوى فى بعض كتبه ، إلا أنها كانت بداية غير قويمة ، فالكتاب فى تلك الفترة التى سبقت عصر إسماعيل ـ عصر جمال الدين ـ لم يستطيعوا أن يتخلصوا من عيوب الكتابة التى كانت تسيطر على عدد كبير منهم ، وبخاصة فيما يتصل بالسجع وسائر المحسنات البديعية المتكلفة ، فضلا عما ران على بعضهم من مظاهر الضعف والتكلف فى الفكر والأسلوب .

ومجمل القول أن النهضة الأدبية التى سبقت جمال الدين لم تستطع أن تتجاوز الكتابة الديوانية ، والمسائل الشخصية ، والأمور الأدبية البحتة كرسائل التعزية والتهنئة والاعتذار والرجاء ، ووقفت عاجزة حقا من أن تخوض غمار الكتابة الفنية فى الاجتماع والسياسة والإصلاح .

فلما كان عصر جمال الدين والسنوات الثمان التى قضاها فى مصر ، وتوجيهاته للأدباء والكتاب فى فن الكتابة ـ على النحو الذى فصلناه ونحن نتحدث عن جمال الدين وأدب المقالة ـ تناولت الكتابة الأدبية أهم المسائل والقضايا فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والإصلاح بصفة عامة . وكان ذلك كله بفضل جمال الدين وتوجيهه ـ على النحو الذى أوضحناه ونحن نتحدث عن جمال الدين المحدث الخطيب ـ فغدا النثر الأدبى يتناول موضوعات سياسية واجتماعية واسلامية خالصة . وكان الكتاب يستمدون هذه الموضوعات من الواقع الذى تعيشه الأمة آنذاك . وهو

١ ـ شوقى ضيف : الأدب العربى المعاصر فى مصر : ١٧١ . دار المعارف .. القاهرة ١٩٧١ م

واقع بغيض يسيطر عليه الأجنبى الدخيل من جانب والحاكم المستبد الممالئ لهذا الأجنبى من جانب آخر .

ولقد كان النثر الأدبى بفضل توجيهات جمال الدين يواكب كل حركة فى داخل البلاد وكل سياسة ترسم للبلاد من خارجها ، وإن الناظر إلى تلك الصحف التى كانت فى هذه الفترة ليرى كيف نهضت الكتابة الأدبية ، وبخاصة فى الصحف التى كان يوجهها جمال الدين أو يكتب فيها .

وكان جمال الدين الأفغانى من أولئك الذين يعتزون بلغة القرآن الكريم أيما إعتزاز- على الرغم من أنها ليست لغته الأولى التى انطلق بها لسانه أول ما انطلق - ينكر أشد الإنكار موقف أولئك الذين فتنوا بحضارة الغرب فأرادوا أن يتحدثوا لغته ويهملوا لغتهم ، وأعلنهم بأنهم بذلك يساعدون المستعمر ويجعلونه حربا عليهم وعلى لغتهم وحضارتهم وأمتهم ، ولقد وقف موقفا صلبا من أولئك العرب الذين يباهون بأنهم لا يحسنون من لغتهم شيئا يمكنهم من التعبير بها عما يريدون .

كما كان لجمال الدين أكثر من موقف يشيد فيه بلغة القرآن ، ويدعو إلى التمسك بها والاعتزاز بتراثها ، وربطها بحاضر الأمة السياسى ومستقبلها فى مجال الحرية ومقاومة الأجنبى الدخيل .

ولنتحدث الآن عن خصائص أسلوب جمال الدين فى الكتابة الأدبية ، بعد هذا التمهيد الذى قدمنا لكتابة الأدبية فى الفترة التى سبقته .

وهذه الخصائص إنما استقرأنا فيها مقالاته وخطبه وأحاديثه التى ذكرنا فى هذا البحث فنقول وبالله التوفيق :

أ - من ناحية الألفاظ والعبارات

أولا :

اتصف أسلوب جمال الدين من حيث ألفاظه وعباراته بأنه خلا تماما من القيود اللفظية الثقيلة المتمثلة فى المحسنات البديعية والسجع المتكلف والزخارف اللفظية الممقوتة .

تلمس هذا من خلال قراءتنا له ، ومن خلال نصائحه لتلاميذه بأن يتحرروا فى كتابتهم من هذه القيود والأغلال ٠

وهذه الصفة فى أسلوب جمال الدين ، جعلت ألفاظه وعباراته واضحة الدلالة على ما تحتوى من فكر وما تشتمل من مضمون ، وكان ذلك أدخل فى نفوس القراء والسامعين وأدعى إلى أن يقبل الناس على كتابته وعلى أحاديثه وخطبه ، مما بدا أثره واضحا فى الإقبال على الصحف التى ينشر فيها جمال الدين ، والإقبال على المحافل التى يخطب فيها ، وعلى مجالسه وندواته ٠

ولعل فيما قدمنا من نصوص لجمال الدين ـ وبخاصة الباب الثالث بفصوله الثلاثة من هذا البحث ـ دليلا أقوى دليل على ما نصف به أسلوبه من بساطة وابتعاد عن التكلف والتعقيد ٠

ثانيا :

البعد عن الكلمات والعبارات الغريبة أو الوحشية ، ذلك أن الأسلوب ـ كما عرفه ابن خلدون هو : « المنوال الذى ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذى يفرغ فيه » وهذا المنوال أو هذا القالب كلما ابتعد عن الحوشى والغريب كلما كان أدخل فى النفس وأقرب إلى العقل ، فإن تضمن الأسلوب كلمات من هذا الغريب ـ الذى لا يظهر معناه إلا بالتنقير فى كتب اللغة المبسوطة كما قال صاحب الإيضاح ـ [1] فقد الألفة التى هى عنصر أساسى فى الأسلوب الجيد ٠

وما كان لجمال الدين وهو المصلح الموجه الذى يرغب أن يصل فكره وإصلاحه إلى عقول الناس بيسر وسهولة ، ما كان له أن يلجأ إلى هذه الغرابة أو الوحشية ، فيفقد أهم ما يسعى إليه وهو أن يفهم الناس عنه ما يقول ٠

بل إن جمال الدين كان يبتعد عن الغريب فى أسلوبه حتى ينزل إلى مستوى كلمات هى فى ألسنة عموم الناس ـ بشرط أن تكون فصيحة ـ ، كما أوردنا ذلك فى ثنايا البحث ٠

١ ـ صاحب الإيضاح هو الخطيب القزوينى ٠

ثالثا :

يميل جمال الدين فى أسلوبه إلى استعمال الترادف والكلمات الزائدة التى لو حذفت مانقص شيء من المعنى ، ولو كان جمال الدين يستعمل ذلك فى الشعر لغفر له ، لأن النقاد يتجاوزون عن أشياء فى الشعر ولا يتجاوزون عنها فى النثر .

ولعل كلمات جمال الدين تحت عنوان « الشرف » توضح لنا ذلك حيث يقول :

« .. فئة ترى الشرف فى تشييد القصور والتعالى فى البنيان وزخرفة الحوائط والجدران ...

وفئة أخرى تتوهم أن الشرف فى لبس الفاخر من الثياب ، والتزين بألوان الألبسة وأنواعها ، والتحلى بحلى الجواهر الثمينة ، مرصعة بالأحجار الكريمة ، كالماس والياقوت والزمرد ونحوها ... » (١)

رابعا :

يلاحظ على أسلوب جمال الدين أنه واضح ظاهر الدلالة على المعنى الذى يريد ، ولذلك كان كلامه أسرع إلى قلوب سامعيه ، ومن المعروف لدى النقاد أن الكلام يكون واضحا إذا تكوّن من مفردات دقيقة فى معناها ، ثم ركبت هذه المفردات بعضها مع بعض تركيبا يتفق مع قواعد النحو وقضاياه ، وكذلك كان أسلوب جمال الدين ، ولعل سر ذلك أن جمال الدين ملم بقواعد النحو وقضاياه ، الأمر الذى حال بينه وبين الوقوع فى الأخطاء النحوية الظاهرة .

وفيما قدمنا من نصوص من كلامه ما يؤيد ماذهبنا إليه الآن فى هذه الميزة التى ميزت أسلوب جمال الدين .

غير أنى لا أزعم أن جمال الدين لم يفته شيء من قواعد اللغة ، وإنما لكل كاتب هنواته وهفواته ، وقد كان لجمال الدين من ذلك مأشير إليه فى الآتى :

---

١ ـ جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى : ١٣٩ .

خامسا :

وردت على أسلوب جمال الدين بعض المآخذ اللغوية التالية :

١ ـ الخروج عما سمع عن العرب فى بعض الصيغ والأوزان مثل ما روى عنه عبد الله البستانى ، من أنه قال فى هجاء بعض البلداء : هذا رجل من نسل البقروت !

فعابوا عليه استعمال كلمة « البقروت » بأنها لم ترد فى كلام العرب فأجاب : ألا تقولون جبروت ورهبوت وملكوت ؟ فهل تريدون أن أنكر نفسى ٠

٢ ـ عطفه على المضاف قبل إيراد المضاف إليه كما جاء فى قوله :

« بينما موجد ومسبب ومهيىء تلك النعم ذلك العامل الفقير » [١]

وقوله : « سهول ووهاد وجبال ومعاقل تساليا » [٢]

والصواب فيهما : بينما موجد تلك النعم ومسببها ومهيئها ٠٠ الخ وسهول تساليا ووهادها وجبالها ومعاقلها ٠٠ الخ ٠

وقد تكرر هذا من جمال الدين فى مقالاته وأحاديثه مرات عديدة ٠

٣ ـ عدم تقيده بالفصيح الوارد عن العرب وذلك فى تأثره ببعض العبارات المترجمة عن لغات غير العربية ، كاستعماله الكاف داخلة على الحال ٠ مثل قوله : « ونهضوا كأمه » [٣] وقد تكرر منه ذلك فى مواضع عدة ٠

٤ ـ إدخال اللام فى جواب إذا ، وهى لا تدخل على هذا الجواب مثل قوله : « إذا تفصحنا ٠٠٠ لوجدنا » [٤] وقوله : « إذا أصغينا ٠٠٠ لوجدناهم » [٥] وقد تكرر منه ذلك أيضا ٠

---

١ ـ الخاطرات : ١٢٠

٢ ـ الخاطرات : ٣٥ ٠

٣ ـ الخاطرات : ١٦٤ ٠

٤ ـ الخاطرات : ١٤٥ ٠

٥ ـ الخاطرات : ٢٠٥ ٠

٥ ـ إدخاله الباء التى تدخل على المطروح فى الاستبدال على غير المطروح ، كما فى قوله وهو يعدد نقائص بعض الناس : « استبدلوا كل فضيلة برذيلة » [١] والصواب : استبدلوا كل رذيلة بفضيلة .. وقد تكرر منه هذا أكثر من مرة .

٦ ـ استعماله لمصادر مخالفة لقواعد الصرف ، كقوله : « استهوان الفجور » [٢] والصواب : استهانة وقوله : « وقبلت اليابان بلغو امتيازهم » والصواب بالإلغاء ..

٧ ـ عدم دقته فى استعمال بعض العبارات الواردة عن العرب على صورة لا تقبل التغيير ، كقوله : « رغما من قرب العهد » [٣] وقوله « وأن ينشر مذهبه رغم أهل الأديان » [٤] والصواب أن يقول : على الرغم من ..

٨ ـ خروجه على المعروف من قواعد الصرف فى صيغ التعجب كقوله : « ما أطبق أفواههم على الحق » [٥] والفعل انطبق خماسى يتعجب منه بالإتيان بمصدره مع كلمة أفعل قبله فيقال : ما أحسن أو ما أشد انطباق أفواههم على الحق .

٩ ـ تكراره لكلمة بين دون أن يسبقها ضمير كقوله : « عندما كانت الحرب قائمة بين دوست محمد وبين رانجت » [٦] والصواب أن يقال : بين دوست محمد ورانجت دون تكرار بين .

١٠ـ إدخاله ال على ما لا تدخل عليه كقوله : « لاضمحلال الكل » [٧] لأن ال لاتدخل على كل ، لأن كلا ممعنة فى التنكير ، كما لا تدخل على غير لنفس السبب ، وقد تكرر منه ذلك مع كلمة كل وكلمة بعض فى قوله : « وأن ما يصيبه البعض » [٨]

---

١ ـ العروة الوثقى : ١٩٦ .
٢ ـ الخاطرات : ٦٧ .
٣ ـ الخاطرات : ١٢٥ .
٤ ـ الخاطرات : ١١٦ .
٥ ـ الخاطرات : ٢٠٨ .
٦ ـ الخاطرات : ١٦٦ .
٧ ـ الخاطرات : ١٨٨ .
٨ ـ الخاطرات : ٢١٤ .

١١ـ استعماله أحد المعطوفين فى العدد بأل وإهمالها فى الثانى كقوله : « المائة وثمانين » [١] والصواب : المائة والثمانين • وقد تكرر منه ذلك •

١٢ـ فصله بين المضاف والمضاف إليه بحتى فى قوله : « ولا تعمقت فى أسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد » [٢] فإن حتى هنا ليست فى موضعها •

١٣ـ استعماله لكلمات ليس لها فى العربية نفس الدلالة التى يريدها لها مثل كلمة « دور » بمعنى طور أو أثر أو ما هو قريب من ذلك • كقوله : « جاء دور القهر » [٣] وقد تكرر منه ذلك وهو من آثار الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية •

١٤ـ استعماله بعض الأفعال خطأ كقوله : « واستلموا قيادة عساكره » والاستلام إنما يكون للحجر الأسود ، وأما الآخر فالتسلم وليس الاستلام[٤] •

١٥ـ استعماله بعض التراكيب التى يؤدى استعمالها إلى استحالة كقوله : « ويتعرفوا أحوال بعضهم» والصواب • يتعرف بعضهم أحوال بعض •

إلى غير ذلك من هنوات وهفوات يقع فيها الكتاب بل كبار الكتاب لكننا ذكرناها لأننا نتحدث عن أسلوبه ماله وما عليه •

ب ـ من ناحية الأفكار والمعانى

إذا كانت مقاييس نقد الفكرة والمعنى تتطلب من الكاتب الأصيل أن تكون أفكاره ومعانيه صحيحة لا يأتيها الخطأ من جهة جهله بالحقائق التى يتحدث عنها ولا من جهة واقع التاريخ ولا من جهة معنى اللغة ، وتتطلب منه كذلك أن يكون مبتكرا

---

١ ـ الخاطرات : ١٥٥ •

٢ ـ الخاطرات : ٤٧ •

٣ ـ الخاطرات : ١٨٧ •

٤ ـ الفيروز أبادى : القاموس المحيط : ١٣٢/٣ •

فيما يسوق من معانى وأفكار ، وتتطلب منه الوفاء بالمعنى بحيث لا ينقصه شيء هو فى حاجة إليه ، وتتطلب منه أن تكون معانيه شريفة يقرها الدين ويرضاها الخلق ، وتتطلب منه أن يتخير لمعانيه وأفكاره أحسن الوسائل التى تجعلها قريبة إلى نفوس الناس وعقولهم ، وأن تكون معانى إنسانية رفيعة القدر ملائمة للإنسان أكرم من خَلَقَ الله فى هذه الأرض ، وكل ذلك يحمل الأديب الأصيل على الصدق وعدم التناقض فيما يقول ، وعلى الوضوح فيما يكتب .. أقول : إذا كانت مقاييس نقد المعنى تتطلب من الأديب الأصيل كل هذا فإن ما كتبه جمال الدين الأفغانى قد استوفى هذا كله أو أغلبه .

وما أحسن ما كتبه الأستاذ الإمام محمد عبده فى قدرة جمال الدين على تفتيق المعانى ، حيث يقول : « لهذا الرجل سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها ، وكأن كل معنى قد خلق له .

وله قوة فى حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفتك عقدها .

كل موضوع يلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه ، فيأتى على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه ، فيظهر المستور منه .

وإذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ، ثم له فى باب الشعريات قدرة على الاختراع ، كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع .

وله لَسَنٌ فى الجدل وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيها أحد ، إلا أن يكون فى الناس من لا نعرفه ، وكفاك شاهدا على ذلك أنه ما خاصم أحدا إلا خصمه ، ولا جادله عالم إلا ألزمه .

وقد اعترف له الأوربيون بذلك بعد ما أقر له الشرقيون .

وبالجملة : فإنى لو قلت : إن ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ

البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ • ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »[1] •

بعد هذه الكلمة من تلميذه وصفيه وأعرف أصدقائه به نود أن نتحدث عن أبرز ما يميز المعانى والأفكار التى كان يتداولها جمال الدين فى كتاباته مما نعده من سماتها الخاصة فنقول :

أولا :

عمق النظرة واستقصاء أطراف الموضوع الذى يتحدث عنه ، بل التوفر على الإحاطة به من جميع نواحيه وأبعاده ، بحيث يقرأ القارئ ما كتب جمال الدين فى ذلك الموضوع فلا يشعر أنه بحاجة إلى أن يستزيد شيئا على ما كتب •

وقد قدمنا له من هذه الموضوعات عددا غير قليل ـ ونحن نستشهد بنصوصه فى الباب الثالث من هذا الكتاب ، مثل : موضوع التعصب والعصبيات وموضوعاته عن المستعمرين والمستعمرات ، وكلامه عن البابية والدهرية ، وكلامه عن ناشئة الأمة الإسلامية الذين انحرفوا منخدعين بالمدنية الزائفة •

فهو فى هذه الموضوعات قد استقصى أبعادها وأحاط بها من جميع نواحيها وما ترك فيها زيادة لمستزيد •

وليست هذه الموضوعات وحدها هى التى تعمقت فيها نظرته واستقصى فيها كل ما يتصل بها ، وإنما غير هذه الموضوعات كثير ، مما صنع فيه نفس الصنع ونهج فيه نفس النهج •

ثانيا :

وضوح هذه المعانى وسهولة إدراكها لدى القراء ، وهى صفة تميزت بها أفكار جمال الدين ومعانيه ، وموضوعاتها التى كتب فيها ، فلم يلتو عليه معنى ولم تتعقد أمامه

---

١ ـ السيد محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام : ٣٤/١ ط المنار ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣١ م

فكرة ، ولم تتلبد سماء فكره بغيوم الإبهام والغموض ، وإنما تأتى أفكاره فى إشراق الشمس وفى صفاء سماء الصيف •

وفيما قدمنا من نصوص نماذج تؤكد هذا وتقيم عليه الدليل وراء الدليل •

ثالثا :

غلبة الصبغة الإسلامية على كل أفكاره وموضوعاته ، وربما كانت هذه سمة يتفرد بها جمال الدين بين الأدباء ، وهى الصفة الخليقة بأن تجعله أديبا إسلاميا ملتزما بالإسلام فى كل ما يكتب وفى كل ما يعالج من موضوعات •

ففى الموضوعات العديدة التى تحدث فيها جمال الدين ، وفى الأفكار المتنوعة والمعانى المتعددة التى كتب فيها وأراد أن يقنع بها ، لا نجده قد نسى فى واحد منها ـ فضلا عن أكثر من واحد ـ أنه أديب مسلم يصدر فى كل ما يقول عن الإسلام هديه ونظامه ورؤيته للناس والأشياء ، وما فاته ذلك فى أى موضوع من الموضوعات التى تناولها حتى العلمية الخالصة منها كموضوع النشوء والارتقاء « الداروينية » الذى جعل همه فيه أن يرد على داروين والداروينية ، إنما رد من منطلق إسلامى واضح •

رابعا :

تميزت كتابة جمال الدين الأدبية بأنها تحمل سمة الكاتب المصلح الذى تعينه قضايا الأمة الإسلامية كلها ، فلا نحس فيما كتب أنه ذو نزعة إقليمية فيما يصدر عنه من رأى ، ولا نشعر أنه يعالج موضوعا من زاوية ضيقة محدودة بحدود الجنس أو العرق أو اللغة ، لأن ذلك يتنافى مع النظرة الإسلامية الشاملة للعالم الإسلامى كله •

كذلك لا نستطيع أن نقول : إن جمال الدين قد اهتم بالقضايا السياسية فى العالم الإسلامى دون غيرها ، وإنما كان لجميع القضايا التى عانى منها العالم الإسلامى فى عصره نصيب من اهتمامه لا يقل عن نصيب القضايا السياسية ، وذاك من أبرز سمات الكاتب الإسلامى الأصيل •

وفيما قدمنا من مقالاته دليل على ذلك الذى نقول •

جـ ـ من ناحية الطابع العام لكتابته الأدبية

بعد أن تحدثنا عن مقومات أسلوبه الأدبى من ألفاظ وعبارات وأفكار ومعان نرى من تمام الصورة أن نتحدث عن الطابع العام الذى يميز أسلوبه ، ليكون ذلك أدعى إلى التعرف الدقيق على مقدرته الأدبية ·

وقد بدا لى أن أبرز ما يميز أسلوب جمال الدين بصفة عامة ذلك الطابع الذى يتمثل فى الأمور العامة التالية :

أولا :

تجنب المقدمات الطويلة التى كان الناس يلجأون إليها ـ عادة ـ عندما يكتبون فى موضوع من الموضوعات ·

وجمال الدين عندما اتخذ ذلك طابعا له فى كل موضوع تناوله بالبحث جعل ذلك من أهم وصاياه لتلاميذه فيما يكتبون ، وتلك سمة من سمات الأصالة لدى كبار المصلحين المخلصين فيما يقولون ويفعلون ·

وأغلب ما تكون هذه المقدمات الطويلة عبئا على القارئ وعبئا على الأديب نفسه ، ومجالا للتكلف ، وهى بعد : نزعة تقليدية أهون ضررها أنها تبدد بعض جهد الكاتب وتصرفه عن المضى فى الموضوع ، والنفاذ إلى صميمه وهو بعد فى كامل نشاطه ، الأمر الذى يكون دائما على حساب الموضوع وعلى حساب الموضوعية فى تناوله ·

أدرك جمال الدين ذلك فتجنب هذه المقدمات الطويلة ، وكان كاتبا موضوعيا فى كل ما كتب ، ينفذ إلى صميم الموضوع من خلال جمله الأولى فيه ·

وإذا كان قد بدا فى بعض ما كتب جمال الدين كلمات وعبارات ربما يعدها بعضهم مقدمات ومداخل للموضوع الذى يكتب فيه ، فإن ذلك أبعد ما يكون عن الإطالة

التى ننفيها عن أسلوبه فى حديثنا هذا ، ثم هى مقدمات ومداخل يتطلبها الموضوع ويحتاج إليها حسن عرضه والدقة فى الحديث عنه ٠

ثانيا :

إكثاره من الجمل الاعتراضية فى كتابته ، وذاك لون من الإطناب كما عده علماء البلاغة ، وجعلوه قسما للتذييل والتكميل والتتميم وغيرها ٠

وما عاب الاعتراض واحد يعتد به من البلغاء ، بل قال بعض أعلام البلاغة العربية : « ووجه حسن الاعتراض على الإطلاق حسن الإفادة مع أن مجيئه مجئ ما لا معول عليه فى الإفادة فيكون مثله مثل الحسنة تأتيك من حيث لا ترتقبها ٠

ومن الناس من لا يعتد فائدة الاعتراض بما ذكرناه ، بل يجوز أن تكون دفع توهم ما يخالف المقصود ... »[١] ٠

ويسمى بعض علماء البلاغة الاعتراض حشوا ويقسمونه إلى قسمين ، يقول فى ذلك الإمام عبدالقاهر : « وأما الحشو ـ أى الاعتراض ـ فإنما كره وذم ، وأنكر ورد لأنه خلا من الفائدة ولم يحل منه بعائدة ٠

ولو أفاد لم يكن حشوا ولم يدع لغوا ، وقد تراه مع إطلاق هذا الاسم عليه ، واقعا من القبول أحسن موقع ، ومدركا من الرضى أجزل حظ ، ذاك لإفادته إياك على مجيئه مجيء ما لا يعول فى الإفادة عليه ، ولا طائل للسامع لديه ، فيكون مثله مثل الحسنة تأتيك من حيث لم ترقبها والنافلة أتتك ولم تحتسبها ... »[٢] ٠

وفى أحاديث جمال الدين وكتاباته التى سقناها فى ثنايا الكتاب أمثلة عديدة لاعتراضه بين المسند والمسند إليه ، وبين فعل الشرط وجوابه وبين المبتدأ وخبره ، ولكنه فى ذلك كله يحمل إلى القارئ فائدة جليلة ، وهو يدل ـ فى تقديرى ـ على أن جمال الدين كان مرتب الفكر حاذقا فى فنه حذقا لا يؤتاه إلا الموهوبون من الكتاب ٠

---

١ ـ الخطيب القزوينى : الايضاح : « الإطناب » ٠

٢ ـ عبد القاهر الجرجانى : أسرار البلاغة : ٢٥ ٠ ويلاحظ أن الخطيب قد نقل عن عبد القاهر بعض قوله فى الاعتراض ـ دون أن يشير الى ذلك النقل ـ

ثالثا :

يميل جمال الدين فى كتابته أو أحاديثه إلى أن يلخص كلامه ويجمع أهدافه ـ التى يسعى إلى تحقيقها ـ من موضوعاته لتعلق بذهن القارئ لا تفوته منها مهمة ٠

لذلك نراه فى كثر مما يكتب ـ وبخاصة إذا طال ما يكتبه ـ يقول : « وعلى الجملة ...»أو يقول : « والخلاصة ... » ثم يأتى عقب هذا بتلخيص جيد مركز لما أسهب فيه وأطنب ، رغبة فى أن يستيقظ فى نفس السامع أو القارئ تلك الخلاصة الهادفة الهادية ٠

وبعد :

فتلك صورة مجملة لخصائص أسلوب جمال الدين فى الكتابة ، أرجو أن أكون قد استطعت التعريف بها وتحديدها ، ليسهم ذلك كله فى رسم صورة للأديب الإسلامى جمال الدين الأفغانى ٠

الخاتمــة

بعون من الله وتوفيق ، استطعت فى هذا الكتاب أن أكشف عن جمال الدين الأفغانى وعن الاتجاهات الإسلامية فى أدبه ، وإذا كان جمال الدين الأفغانى قد شغل بعض الدارسين والباحثين ، فإن الاتجاهات الإسلامية فى أدبه ، لم تشغل باحثا - فيما أعلم - قبلى ، وحسبى أن أكون أول من تحدث عن الاتجاهات الإسلامية فى أدب جمال الدين ، وآمل أن يشاركنى فى البحث عن هذه الاتجاهات الإسلامية فى الأدب المعاصر عدد من الباحثين ·

ولا أدعى أن ما قدمته عن الأدب الإسلامى المعاصر فى هذا البحث أو فى البحث السابق الذى اهتم بالاتجاهات الإسلامية فى أدب مصطفى صادق الرافعى[١] لا أدعى أنه الصورة المثلى أو التحليل الأخير ·· وإنما خطوة على طريق دراسة الأدب الإسلامى المعاصر ، أرجو أن تتلوها خطوات بإذن الله تعالى[١] ·

وقد جعلت مدخل هذا البحث للتعريف بالأدب الإسلامى المعاصر ، مفهومه وأبعاده ومظانه ، وجعلت النصوص الأدبية هى مصدر هذا الأدب وحدها ، ثم جعلت من هذا المدخل تمهيدا للحديث عن أديب إسلامى معاصر وهو جمال الدين الأفغانى - حكيم الشرق - كما كان يسمى ، والمصلح المجدد فى القرن الذى عاش فيه كما رأيت ، والأديب الإسلامى الذى فاض أدبه بالاتجاهات الإسلامية فى كل ما كتب أو قال ·

---

١ - نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م ·

٢ - فى النية - إذا مد الله فى العمر - أن نتحدث عن الاتجاهات الإسلامية فى أدب الكواكبى وسكيب أرسلان ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا ، فهؤلاء عندى أعلام إسلاميون يستحقون مزيدا من العناية فى التعرف على الاتجاهات الإسلامية فى أدبهم ·

وفى الباب الأول من الكتاب : عرَّفت بجمال الدين فتحدثت عن رحلة حياته فوضحت سيرته وتاريخه ، وتحدثت عن تلاميذه ودروسه ، وعن جهوده فى مجال التعليم والتوجيه ، وناقشت عددا من التهم التى وجهت إليه .

ثم تكلمت ـ فى التعريف به ـ عن مؤلفاته ، وهى وإن كانت قليلة العدد إلا أنها عظيمة الأثر والنفع ، وهى مؤلفات أربع : هى : رسالة فى الرد على الدهريين ، وبحثه فى البابية والبهائية ، ومجموعة بحوثه ومقالاته التى تضمنتها مجلة العروة الوثقى ، وكتابه : تتمة البيان فى تاريخ الأفغان .

ورأيت من تمام التعريف به أن أتحدث عن مآخذ أخذتها أنا عليه ، ليكون التعريف شاملا جامعا مانعا ـ فى حدود الطاقة ـ ولقد أخذت عليه رأيه فى الاشتراكية ورأيه فى التصوف ، وانضمامه للماسونية وقد ناقشت ذلك فى حيادية تنصف الرجل وترفع من قدره حينا ، وتوضح بعض أخطائه فى حين آخر .

وفى الباب الثانى تحدثت عن العالم الإسلامى الذى عايشه جمال الدين ، وقصدت بهذا العالم تلك البلدان الإسلامية التى ذهب إليها جمال الدين أو عاش فيها أو كانت له فيها جولات فكر وإصلاح ، مثل : أفغانستان والهند ومصر والآستانة وفارس ، ثم لم أتجاهل تنقله فى أوربا بين باريس ولندن ، ولا رحلته إلى روسيا القيصرية ، لأن كل بلد من هذه البلدان التى ذهب إليها ، أحدث فيها أثرا ، وترك من ورائه فيها رجالا وأفكارا إصلاحية إسلامية ، كانت شجى فى حلوق أعداء الإسلام والمسلمين ، وكانت منطلقا حقيقيا للإصلاح والتجديد .

ففى كل بلد زاره جمال الدين كنت أشعر أن هدفه من تلك الزيارة هو خدمة الإسلام والمسلمين ، ومحاولة رفع الظلم والاستبداد وقوى الأجنبى المستعمر عن بلدان العالم الإسلامى ، تارة بالتفاهم والتباحث وتارة بالإثارة والثورة .

وفى الباب الثالث من الكتاب ـ وهو لب الكتاب وعموده ـ تحدثت عن جمال الدين المصلح المجدد فى هذا الدين . ورأيته قد اتخذ منطلقات فى هذا الاصلاح هامة وإيجابية .

فكان منطلقه الأول هو الدعوة إلى الوحدة الإسلامية فى ظل القرآن الكريم تلك الدعوة التى جعلته يغوص وراء البحث فى أسباب فشلها . فيهتدى إلى أن أسباب فشل وحدة المسلمين فى عصره عديدة منها :

بعد المسلمين عن الإسلام وعن التمسك بأدب القرآن وأخلاقه .

ومنها : تقصير العلماء والحكام وقصورهم .

ومنها : التفرقة بين أبناء الأمة الإسلامية الواحدة .

ومنها : تلك العصبيات والإقليميات التى غذاها أعداؤنا فأعمت البصائر والأبصار .

وختمت هذا المنطلق أو الفصل برأيه فى الجامعة الإسلامية .

وفى الفصل الثانى من هذا الباب : تحدثت عن مقاومة جمال الدين لأعداء الإسلام والتصدى لهم بكل سبيل . وأوضحت موقفه العدائى الواعى من الإنجليز والفرنسيين وكل مستعمر أجنبى لشبر أرض من بلاد المسلمين . وبينت كيف فضح سياستهم وكشف خبيث نواياهم فى الشرق الإسلامى كله . وكيف أصلى الاستعمار والمستعمرين نارا حامية وكيف استعدى عليهم العثمانيين والمصريين وكل مسلم وكيف حاول أن يوقع بين روسيا وانجلترا وفرنسا لصالح الدولة العثمانية أى لصالح المسلمين .

وتحدثت فى هذا الفصل عن تلك المقارنة الهادفة البناءة التى عقدها بين الشرقى والغربى . والتى استهدف منها حث الشرقيين على التقدم والنهوض بإيقاظ هممهم واستثارة عزائمهم .

وفى الفصل الثالث من هذا الباب تكلمت عن تصدى جمال الدين للفكر المنحرف عن الإسلام . ورأيته من خلال ذلك التصدى قد فطن إلى الحركات

الهدامة ، التى تلبس ثوب الإسلام والإسلام منها براء كالبابية والبهائية والمهدوية فى جانب كبير منها ، أو تلك التى تستهدف قلع الأصول الإسلامية من نفوس المسلمين كالدهرية والداروينية .

ثم فطن إلى الانحرافات الفكرية فى المسلمين أنفسهم فأولاها مزيدا من العناية والاهتمام ، كالقول بسد باب الاجتهاد ، ومحاولة إقصاء الفصحى لغة القرآن عن الألسنة تمهيدا لإقصاء القرآن الكريم نفسه عن حياة الناس وحكمهم وسياستهم .

ثم تصدى للفهم الخاطىء للتعصب عند المسلمين وعند الأوربيين ، وللانحراف بخطبة الجمعة عن هدفها وغايتها .

وكان من أبرز ما تصدى له جمال الدين تلك المدنية الأوربية الغازية وما أحدثته فى الأمة الإسلامية من آثار وذلك حين تحدث عن هذه المدنية الغربية فوضح حقيقتها ، ثم تحدث عن ناشئة الأمة الإسلامية الذين جرفهم تيار المدنية الغربية ودعاهم إلى التمسك بدينهم وتراثهم ولغتهم لغة القرآن الكريم .

وبهذا الفصل الثالث ختمت هذا الباب الثالث من الكتاب ، وقد كان طبيعيا أن يأتى هذا الباب أوسع من غيره من أبواب الكتاب ، لما له من أهمية فى مجال العمل الإسلامى من جانب ، ولكثرة ما اشتمل عليه من نصوص ومقالات لجمال الدين استشهدت بها على ما أقول من جانب آخر .

وفى الباب الرابع والأخير ، تحدثت عن جمال الدين الأديب الإسلامى ، وهذا الباب هو هدف الكتاب وغايته ، فتناولت جهوده الأدبية الإسلامية بمزيد من التفصيل .

فجعلت الفصل الأول منه فى : جمال الدين وأدب المقالة ، فعرفت بأدب المقالة وتحدثت عن جمال الدين وأدب المقالة ، ثم تحدثت عن مقالاته وجهوده فى مجال المقالة الصحفية على وجه الخصوص .

وفى الفصل الثانى من هذا الباب تحدثت عن جمال الدين المحدث الخطيب ، ثم

تعرضت للنثر الأدبى فى عصر جمال الدين ، وعرفت بموضوعاته فى تلك الفترة ، سياسيها واجتماعيها وإسلاميها ، وأوضحت أثر جمال الدين فى كل ذلك وجهوده التى لا تنكر فى هذه المجالات .

وفى الفصل الثالث والأخير من هذا الباب تحدثت عن جمال الدين الأديب الإسلامى ، ومهدت لذلك بكلمة عن الأدب الإسلامى والأديب الإسلامى ثم تحدثت عن جمال الدين والصحافة ، ثم عن جمال الدين والقصة وأوضحت أثره وجهده فى هذين المجالين الهامين من مجالات الأدب فى العصر الحديث .

ثم أوليت الحديث عن خصائص أسلوبه فى كتابته الأدبية إهتماما خاصا ، وأقمت هذا الحديث وبنيت تلك الأحكام على استقراء نصوصه لا على الأحكام التعميمية التى ألفناها فى كثير من بحوث الدارسين والكتاب .

وفصلت هذه الخصائص بحيث تحدثت عنها من ناحية ألفاظه وعباراته وما تركت هذه الناحية حتى أحصيت على جمال الدين بعض المآخذ اللغوية التى اخطأه فيها التوفيق .

ثم تحدثت عن هذه الخصائص من ناحية الأفكار والمعانى ، ثم ختمت هذا الفصل بحديث عن الطابع العام لأسلوبه .

وكان هذا الفصل زبدة هذا الباب من جانب ، وختاما طبيعيا للكتاب من جانب آخر ، إذ هو أحكام تصدر عليه بعد تصور أبعاده جميعا .

ثم كانت هذه الخاتمة التى لخصت فيها عملى وجمعت أطرافه فى كلمات وجيزة لتكون كالصورة المجملة لما فصلت فى هذه الأبواب الأربعة وهذه الفصول الإثنى عشر .

ثم كانت فى نهاية الحديث كله ـ وبعد هذه الخاتمة ـ قائمة بأسماء مصادر البحث ومراجعه ، أردت بها أن أعين القارئ على التعرف على هذه الكتب ليعود إليها من أراد أن يتوسع فى نقطة من النقاط التى أجملتها ـ خضوعا لطبيعة البحث وضرورة المنهج ـ فيكون فى رجوعه إلى تلك المراجع من الفائدة ما أرجو به حسن الثواب .

وإذا كانت لى كلمة أحب أن أجعلها مسك الختام فهى قول الله تعالى على لسان نبيه شعيب عليه السلام : « ... إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » [1] .

وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

الرياض فى صباح يوم الخميس لخمس بقين من جمادى الثانية من سنة ١٣٩٨ هـ الموافق للفاتح من يونيو من سنة ١٩٧٨ م .

د. على عبدالحليم محمود

---

١ ـ سورة هود : الآية : ٨٨

قائمة بأسماء المصادر والمراجع

أولا :

المصـــادر

١ ـ جمال الدين الأفغانى : البابية . بحث نشر كاملا فى دائرة معارف البستانى مجلد ٥/٢٦ ـ ٢٨ ط طهران .

٢ ـ جمال الدين الأفغانى : تتمة البيان فى تاريخ الأفغان . نشره : على يوسف الكريدلى سنة ١٣١٨ هـ ـ ١٩٠١ م .

٣ ـ جمال الدين الأفغانى : رسالة فى الرد على الدهريين ـ عربها الشيخ محمد عبده بمساعدة عارف أبى تراب . مصر . دون تاريخ .

٤ ـ جمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى « جريدة » نشر دار الكتاب العربى . بيروت ١٩٧٠ م .

٥ ـ جمال الدين الأفغانى : « مجموعة إسناد ومدارك جاب نشره دربارة سيد جمال الدين مشهور به أفغانى ط طهران ١٣٤٢ هـ وهى مجموعة رسائل متبادلة بينه وبين عدد من أصدقائه منشورة بالفارسية والعربية والفرنسية » .

ثانيا :

المراجع[١] وهى فى هذا البحث أنواع ثلاثة :

أ ـ مراجع خاصة بجمال الدين .

ب ـ مراجع تحدثت عنه وعن غيره .

جـ ـ مراجع عامة .

---

١ ـ تعمدت إهمال ذكر عدد من الكتب اكتفاء بورودها فى هوامش صفحات الكتاب .

أ ـ المراجع الخاصة بجمال الدين

١ ـ عبدالستار الهوارى : جمال الدين الأفغانى ـ ط وادى الملوك القاهرة ١٩٢٤ م ٠

٢ ـ عبدالقادر المغربى : جمال الدين الأفغانى : ذكريات وأحاديث ط دار المعارف القاهرة ١٩٤٨ م ٠

٣ ـ عبدالمحسن القصاب : ذكرى الأفغانى فى العراق ٠ ط الرشيد بغداد ١٩٤٥م ٠

٤ ـ على عبدالحليم محمود : جمال الدين الأفغانى بحث مخطوط كتب سنة ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥٠ م ٠

٥ ـ قدرى حافظ طوفان : جمال الدين الأفغانى : آراؤه وكفاحه وأثره فى نهضة الشرق ٠ ط بيت المقدس ٠ القدس ١٩٤٧م٠

٦ ـ قدرى قلعجى : جمال الدين الأفغانى حكيم الشرق ٠ ط بيروت دار العلم للملايين ١٩٤٧ م ٠

٧ ـ محمد سلام مدكور : جمال الدين الأفغانى باعث النهضة الفكرية فى الشرق ٠

٨ ـ محمد عمارة : الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ط بيروت ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م ٠

٩ ـ محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى ط بيروت ١٩٣١ م ٠

١٠ ـ محمود أبو رية : جمال الدين الأفغانى ط دار المعارف القاهرة ١٩٦١ م ٠

١١ ـ محمود قاسم : جمال الدين الأفغانى ط القاهرة ٠

ب ـ مراجع تحدثت عنه وعن غيره

١٢ ـ إبراهيم العدوى : رشيد رضا الإمام المجاهد · ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ـ القاهرة ١٩٦٤ م ·

١٣ ـ أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث · ط النهضة المصرية = القاهرة ١٩٧١ م ·

١٤ ـ أحمد أمين : فيض الخاطر · ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٣٧م ـ ١٩٤٧م ·

١٥ ـ إلياس سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعربة ط القاهرة ١٩٢٨ م ·

١٦ ـ تشارلس آدمز : الإسلام والتجدد · ترجمة عباس محمود ·

١٧ ـ جاك تاجر : حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر ط دار المعارف القاهرة ١٩٤٦ م ·

١٨ ـ جورجى زيدان : مشاهير الشرق ط القاهرة ١٩٢٢ م ·

١٩ ـ خير الدين الزركلى : الأعلام ط بيروت ١٩٦٩ م ·

٢٠ ـ زكى محمد مجاهد : الأعلام الشرقية فى المائة الرابعة عشرة الهجرية · بدون تاريخ ·

٢١ ـ عباس محمود العقاد : بين الكتب والناس ط بيروت ١٩٦٦ م ·

٢٢ ـ عباس محمود العقاد : يسألونك · ط بيروت ١٩٧٠ م ·

٢٣ ـ عباس محمود العقاد : فى بيتى · ط بيروت ١٩٧٠ م ·

٢٤ ـ عباس محمود العقاد : خواطر فى الفن والقصة ط بيروت ١٩٧٠ م ·

٢٥ ـ عباس محمود العقاد : محمد عبده · ط بيروت ١٩٧١ م ·

٢٦ ـ عباس محمود العقاد : عبدالرحمن الكواكبى ط بيروت ١٩٦٩ م ٠
٢٧ ـ عبدالرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ٠
٢٨ ـ عبدالرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى لمصر ٠ ط النهضة القاهرة ١٩٤٥ م ٠
٢٩ ـ عبداللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية فى مصر ـ ط القاهرة ١٩٥٠ ـ ١٩٦٣ م ٠
٣٠ ـ عبداللطيف حمزة : الأدب والصحافة فى مصر ط القاهرة ١٩٥٥ م ٠
٣١ ـ عبداللطيف حمزة : الصحافة المصرية فى مائة عام ط القاهرة ١٩٥٧ م ٠
٣٢ ـ عبداللطيف حمزة : قصة الصحافة العربية فى مصر ط بغداد ١٩٦٧م ٠
٣٣ ـ عبدالمتعال الصعيدى : المجددون فى الإسلام ط ـ مكتبة الجماميز القاهرة ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٢ م ٠
٣٤ ـ على الحديدى : عبدالله النديم ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ـ القاهرة ١٩٦٢ م ٠
٣٥ ـ على عبدالحليم محمود : الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ـ نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٦٩م ٠
٣٦ ـ على عبدالحليم محمود : مع العقيدة والحركة والمنهج فى خير أمة أخرجت للناس نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م ٠
٣٧ ـ على عبدالحليم محمود : نحو أدب إسلامى معاصر : مصطفى صادق الرافعى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه ـ نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ ٠
٣٨ ـ على عبدالحليم محمود : الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام نشر دار البحوث العلمية بالكويت ١٩٧٨م ٠

٣٩ ـ عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث ط مطبعة الرسالة القاهرة ١٩٧٠ م ٠
٤٠ ـ عمر الدسوقى : نشأة النثر الحديث ط مطبعة الرسالة القاهرة ١٩٧٦م٠
٤١ ـ فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية ٠ ط بيروت ١٩١٣ ـ ١٩٣٣ م
٤٢ ـ لوروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ـ ترجمة عجاج نويهض وتعليق الأمير شكيب أرسلان ط بيروت ١٩٧٣ م ٠
٤٣ ـ لويس شيخو : تاريخ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ط بيروت ١٩٢٤ ـ ١٩٢٦ م ٠
٤٤ ـ محمد حبيب أحمد : نهضة الشعوب الإسلامية ـ ط القاهرة ١٩٥٤ م ٠
٤٥ ـ محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ط المنار ـ القاهرة ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣١ م ٠
٤٦ ـ محمد عبدالفتاح : أشهر مشاهير أدباء الشرق ٠
٤٧ ـ محمد عمارة : الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ط بيروت ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م ٠

جـ ـ كتب عامة

٤٨ ـ أحمد الشايب : الأسلوب ط الفاروقية ـ الإسكندرية ١٩٣٩ م ٠
٤٩ ـ أحمد شوقى : دول العرب وعظماء الإسلام ط القاهرة ١٩٣٣م٠
٥٠ ـ أحمد عزت عبدالكريم : محاضرات فى الحركات الإسلامية ومراكز الثقافة فى الشرق الإسلامي الحديث ٠
٥١ ـ أ. ل . شاتليه : الغارة على العالم الإسلامى ـ ترجمة مساعد اليافى ومحب الخطيب ط القاهرة ١٣٥٠ هـ ٠

٥٢ ـ أنيس مقدسي : تطورات الأساليب النثرية فى الأدب العربى ط بيروت ١٩٦٨ م ٠

٥٣ ـ بدوى أحمد طبانة : أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية ط مخيمر القاهرة ١٩٥٢ م ٠

٥٤ ـ توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ط نهضة مصر ١٩٧١ م ٠

٥٥ ـ جمال الدين الشيال: الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الإسلامى الحديث ـ القاهرة ١٩٥٨ م ٠

٥٦ ـ الخطيب القزوينى : الإيضاح ـ تلخيص المفتاح ـ ومعه بغية الإيضاح شرح الشيخ عبد المتعال الصعيدى ط المحمودية ـ القاهرة ـ دون تاريخ ٠

٥٧ ـ رفاعة الطهطاوى: تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ط القاهرة ١٩٥٨ م ٠

٥٨ ـ رفاعة الطهطاوى : وقائع تلياك ط بيروت ١٨٨٥م ٠

٥٩ ـ السكاكى : مفتاح العلوم ط الميمنية القاهرة دون تاريخ ٠

٦٠ ـ ابن سنان الخفاجى : سر الفصاحة ط الرحمانية مصر : ١٩٣٢م

٦١ ـ عبدالقاهر الجرجانى : أسرار البلاغة ط التجارية ـ القاهرة ١٣٥١ ـ ١٩٣٢ م ٠

٦٢ ـ عبدالقاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز ط المنار القاهرة ١٣٣١ هـ ٠

٦٣ ـ على عبدالحليم محمود : المسجد وأثره فى المجتمع الإسلامى ط دار المعارف القاهرة ١٩٧٧ م ٠

٦٤ ـ على مبارك باشا : علم الدين ٠ ط القاهرة ١٨٨٣ م ٠

٦٥ ـ كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ـ ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكى ط بيروت دار العلم للملايين ١٩٧٤م٠

٦٦ ـ مالك بن نبى : وجهة العالم الإسلامى .
٦٧ ـ محمد إقبال : تجديد الفكر الدينى ط القاهرة ١٩٥٥ م نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر .
٦٨ ـ محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ط القاهرة ١٩٦٠م.
٦٩ ـ محمد حسين هيكل : تراجم مصرية وغربية ط القاهرة ١٩٢٩م.
٧٠ ـ محمد حسين هيكل : ثورة الأدب ط القاهرة .
٧١ ـ محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب العربى المعاصر ط بيروت ١٩٧٠م.
٧٢ ـ محمد المويلحى : حديث عيسى بن هشام ط ١٩٢٧ م .
٧٣ ـ محمد يوسف نجم : القصة فى الأدب العربى الحديث ط القاهرة ١٩٥٢ م .

ثالثا :

دوائر المعارف :

٧٤ ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ لمجموعة من المستشرقين .
٧٥ ـ دائرة معارف البستانى ـ عبدالله البستانى .
٧٦ ـ دائرة معارف القرن العشرين ـ محمد فريد وجدى .

رابعا :

المجلات والدوريات

٧٧ـ مجلة الكتاب : ١ : ٦٧٩ (مصورة) .
أعلام النهضة الحديثة : جمال الدين الأفغانى ـ عثمان امين

٧٨ ـ مجلة الأزهر : مجلد ١١ : ١٣٦ ، ٨٢٧ ٠

ذكرى مرور خمسين عاما على وفاة الشيخ جمال الدين الأفغانى ، مصلح دينى وزعيم سياسى ٠ للشيخ محمد الشرقاوى ٠

٧٩ ـ مجلة الأزهر : مجلد : ٢٥ : ٣٣٣ ٠

السيد جمال الدين الأفغانى ـ محمد غلاب ٠

٨٠ ـ مجلة الرسالة : مجلد ١١ العدد ٥٠٦

ذكرى جمال الدين ـ محمود شلبى ٠

٨١ ـ مجلة الرسالة : مجلد ١١ : ٢٣٩

حول ذكرى جمال الدين ـ تعليق على مقال : محمود شلبى السابق : لمحمود أبى رية ٠

٨٢ ـ مجلة الرسالة مجلد ١١ : ٤٦٠ ٠

حول ذكرى جمال الدين ـ تعليق على مقال : محمود شلبى السابق : لعبدالكريم الدجيلى ٠

٨٣ ـ مجلة الرسالة : مجلد : ٦ : ٢٤٥ ٠

إلى سر السيد جمال الدين ـ عبدالمنعم حمادة ٠

٨٤ ـ مجلة الثقافة : مجلد ١٣ : ٢٠

جمال الدين الأفغانى نبذة من حياته ـ عبدالمنعم حمادة٠

٨٥ ـ مجلة الثقافة : مجلد ٣ : ١١٦

جمال الدين ومحمد عبده ـ عبدالمنعم حمادة ٠

٨٦ ـ مجلة الثقافة : مجلد ١ : ٢٣

حول جمال الدين ـ تعقيب على مقال : عبدالمنعم حمادة السابق : لعبداللطيف آل ثنيان ٠

٨٧ ـ مجلة الثقافة (دمشق) : مجلد ١ : ٧٣٣ ٠

رسالة للأمير شكيب أرسلان وجهها لجمال الدين يوم اشتد عليه المرض ٠

٨٨ ـ مجلة الهلال : مجلد ٤٣ : ٣٥ ٠

السيد جمال الدين الأفغانى ـ يحيى أحمد الدرديرى ٠

٨٩ ـ مجلة الهلال مجلد ٥ : ١٦٢ ٠

السيد جمال الدين الأفغانى ـ جورجى زيدان ٠

٩٠ ـ جريدة السياسة الأسبوعية : عدد ٦٥ : سنة ١٩٢٧ م ٠

السيد جمال الدين الأفغانى ـ الشيخ مصطفى عبدالرزاق ٠

٩١ ـ جريدة السياسة الأسبوعية : عدد ٩١ : سنة ١٩٢٧ م

الثورة الفارسية ـ ميرزا مهدى رفيع ٠

ثبت الموضوعات

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

تم طبع هذا الكتاب بدار عكاظ
سنة ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م